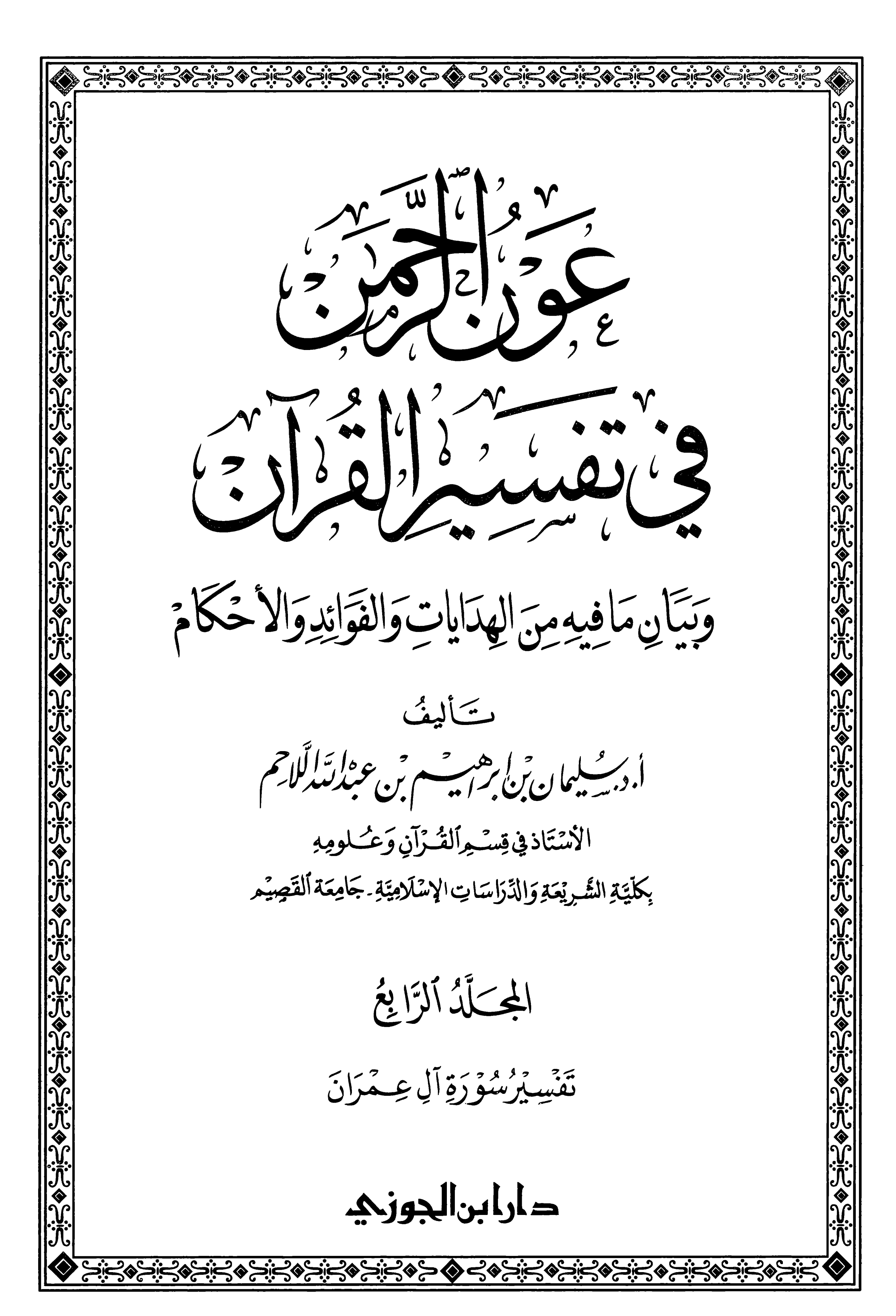


عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

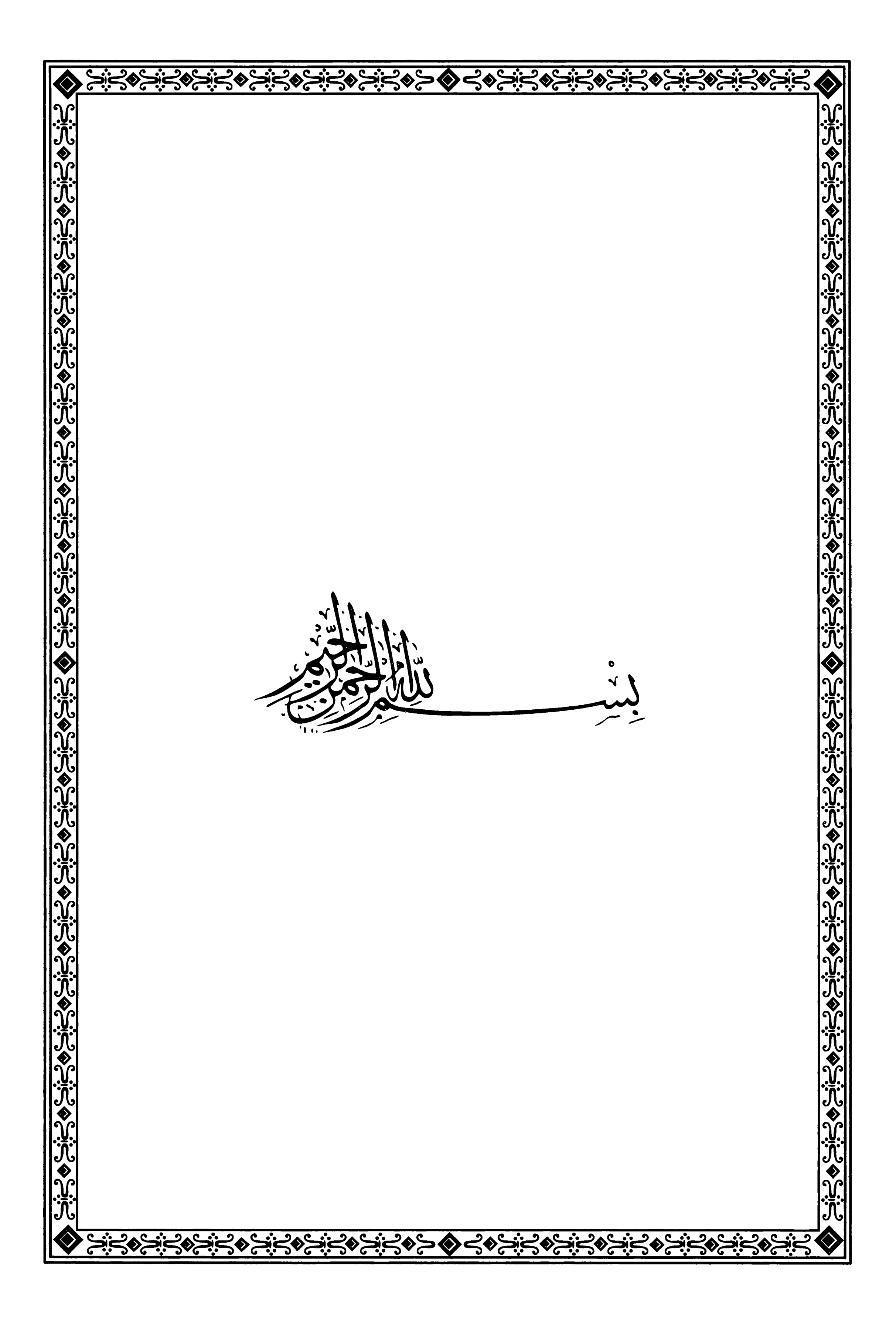
الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

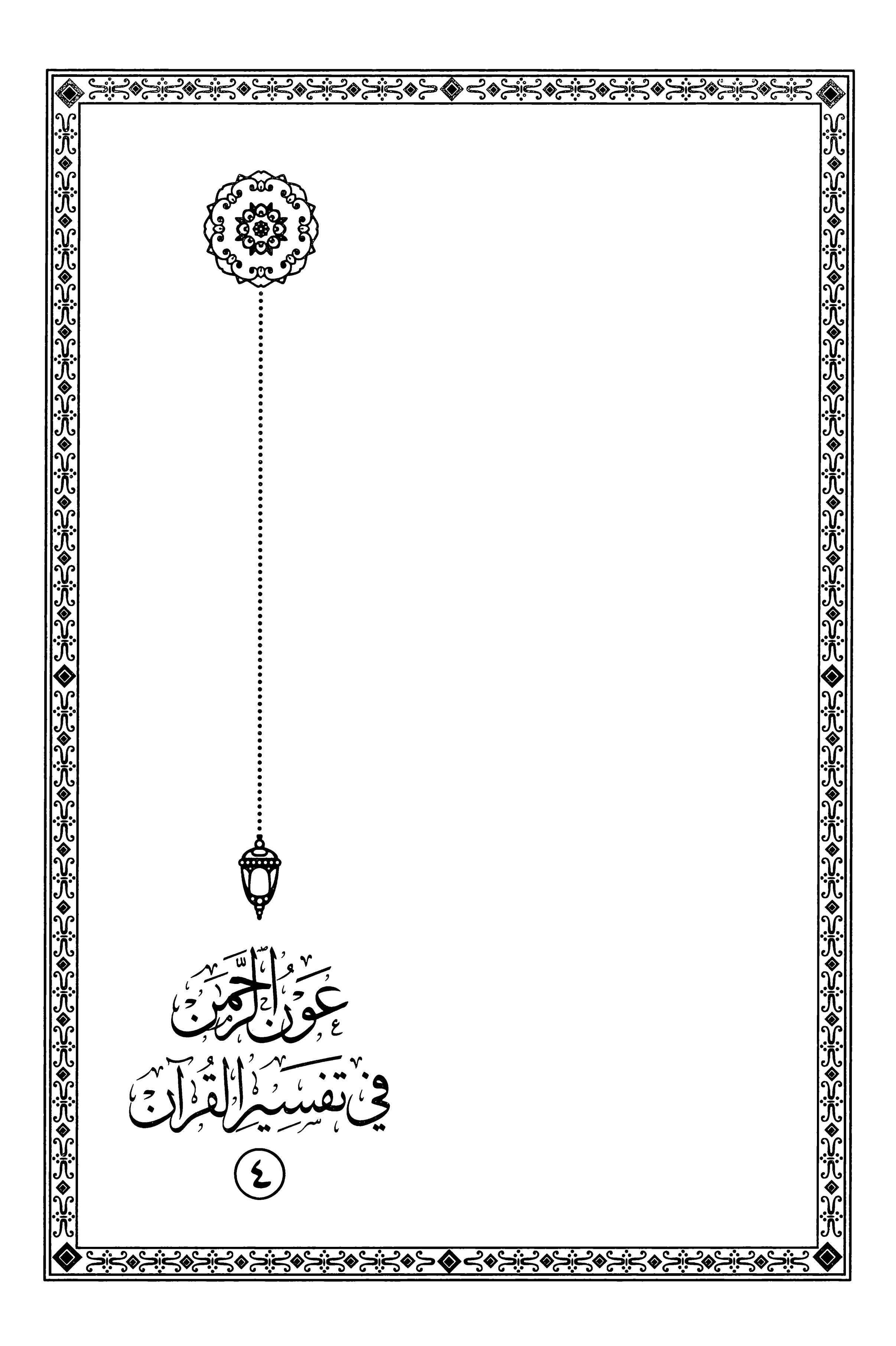
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الرابع

تفسير سورة آل عمران

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم



عون الرحمن
في تفسير القرآن
٤





دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣

ص ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي : ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

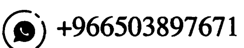
مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com

+966503897671



aljawzi

eljawzi

aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله

عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ

٧٢٦ ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام

أ. العنوان

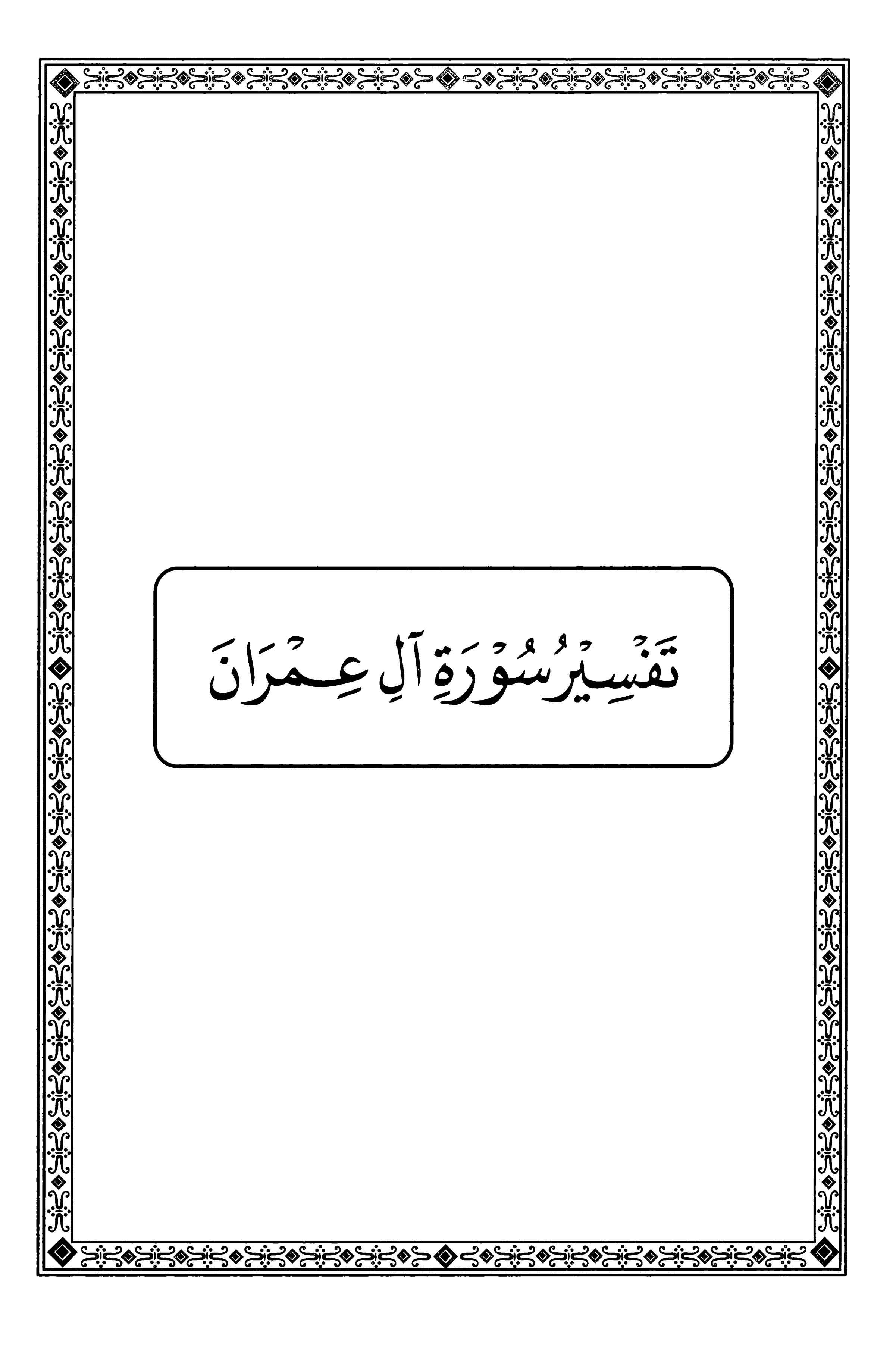
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

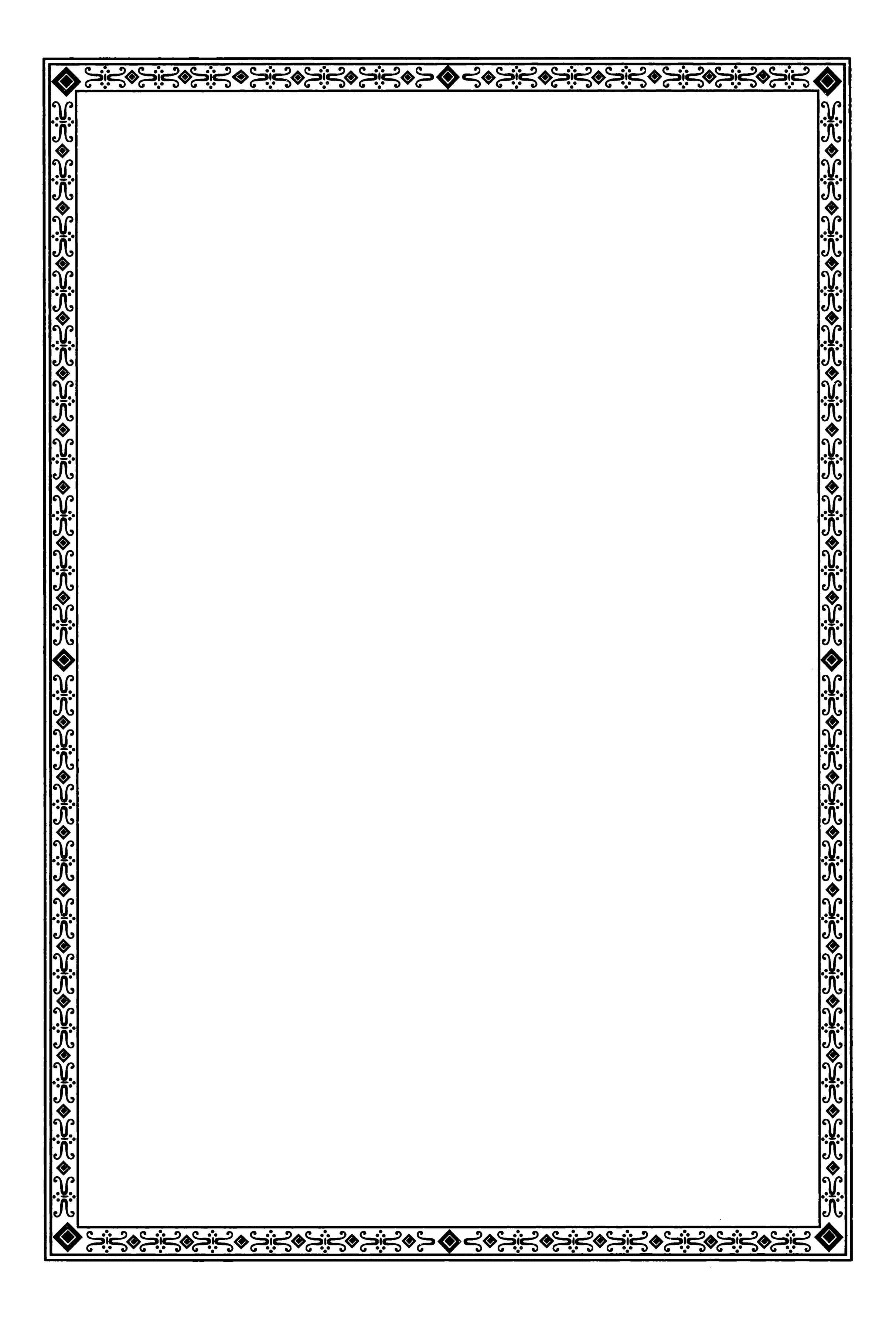
الطبعة الأولى

١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958



تَفْسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ



المقدمـة

أ -اسـم السـورة:

سميت السورة «سورة آل عمران»؛ لورود قصة آل عمران فيها بشيء من التفصيل لا يوجد في غيرها وتسمى: «الزهراء»، كما في حديث أبي أمامة: **«اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران، فإنهما يحاجان عن صاحبهما يوم القيامة»**[(١)].

ب -مكان نزولها:

نزلت سورة آل عمران في المدينة، فهي مدنية بالإجماع.

جـ -فضلهـا:

وردت عدة أحاديث وآثار في فضل سورة آل عمران منها ما يلي:

عن النواس بن سمعان- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يؤتىٰ بالقرآن يوم القيامة، وبأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران»**، وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: **«كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شَرَق، أي: ضوء، أو كأنهما فِرْقَانِ،- أي: قطعتان- من طير صواف تحاجان عن صاحبهما»**[(١)].

وعن أبي أمامة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فِرْقَانِ من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما»**[(١)].

د -موضوعاتهـا:

تناولت سورة آل عمران في مجمل قضاياها الجوانب التالية:

أولًا: إثبات وحدانية الله تعالى في إلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، وإقامة الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة على ذلك، وإثبات أن الدين الحق الذي لا يقبل من أحد

---

(١) سبق تخريجه.

سواه هو دين الإسلام، الذي ارتضاه الله وبعث به محمدًا ﷺ.

ثانيًا: تفصيل الكلام في أحوال أهل الكتاب؛ لبيان حقيقتهم، وتحذير الأمة منهم ومن مسالكهم وشرورهم، وقد قال المفسرون: إن صدر هذه السورة إلى نحو نيف وثمانين نزل في مناظرة وفد نجران للنبي ﷺ في شأن عيسى- عليه السلام- وكان ﷺ يرد عليهم بالحجة والبرهان إلى أن آل أمرهم إلى دعوتهم للمباهلة.

وقد بيَّنت السورة كفرهم وعدم إسلامهم، وذمتهم بقتلهم الأنبياء والآمرين بالقسط من الناس، واختلافهم، ونبذهم كتاب الله، ومجادلتهم بالباطل، وسوء أدبهم مع الله، ونقضهم العهود والمواثيق، وكتمانهم الحق، ولبسهم الحق بالباطل، وكفرهم بآيات الله، واشتراءهم بها ثمنًا قليلًا.

ومن ثم توبيخهم وتوعدهم بالعذاب الأليم، وتحذير المؤمنين من طاعتهم، وحثهم على الصبر على أذاهم وشرورهم.

كما امتدحت السورة من آمن منهم وأثنت عليهم، وأنهم ليسوا سواء، فمنهم المؤمنون الذين يؤمنون بما أنزل إلى النبي ﷺ وما أنزل إليهم خاشعين لله قائمين بعبادته، كما قال تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الآية: ١١٠].

كما تحدثت السورة في بعض آياتها عن المشركين والمنافقين من غير إطالة.

ثالثًا: ذكر أحداث غزوة أحد، وتفصيل الكلام عنها، فكان نحو ستين آية من النصف الثاني من هذه السورة في أعقاب غزوة بدر من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [الآية: ١٢١]، بدءًا من تهئه ﷺ لها، وخروجه إليها بأصحابه، وما حصل فيها من نصر، أعقبه الفشل والتنازع وانصرافهم عن عدوهم، ومن ثم عفو الله عنهم وتفضله عليهم، إلى غير ذلك وما يؤخذ من ذلك من العظات والعبر.

رابعًا: تربية الأمة وتوجيهها إلى ما فيها سعادتها في دينها ودنياها وأخراها، والنصر على أعدائها، والفوز بالجنة والنجاة من النار: من الأمر بتقوى الله حق تقاته، والثبات على الإيمان، والاعتصام بحبل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقتال في سبيل الله والصبر والمصابرة والمرابطة، وغير ذلك.

والحذر من الفرقة والاختلاف، ومن طاعة الكفار من أهل الكتاب والمشركين والمنافقين، أو التشبه بهم ونحو ذلك.

وفيما يلي تفصيل لمجمل موضوعات السورة:

١- افتتح الله- عز وجل- سورة آل عمران بقوله: ﴿الٓمٓ﴾ كسورة البقرة. والافتتاح بهذا أو بغيره من الحروف المقطعة مشعر بالتحدي بالقرآن.

وكان أول موضوعاتها إثبات الإلهية لله تعالى وحده ونفيها عما سواه، وإثبات كمال حياته وقيوميته، والامتنان بإنزال القرآن على النبي ﷺ بالحق مصدقًا لما بين يديه، وإنزال التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس، وإنزال الفرقان، وتوعد الذين كفروا بآيات الله بالعذاب الشديد والانتقام.

٢- ثم أتبع ذلك ببيان سعة علمه- عز وجل- واطلاعه وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، مبينًا من مظاهر علمه- عز وجل- تصويرهم في الأرحام كيف يشاء بعزته وقدرته وحكمته.

٣- تكرار امتنانه- عز وجل- بإنزال القرآن، والتنويه بشأنه وتعظيمه، وبيان أن منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات، وبيان اتباع أهل الزيغ ما تشابه منه؛ لأجل الفتنة في الدين وتحريف القرآن، وبيان أن تأويله لا يعلمه إلا الله.

وإيمان الراسخين في العلم به، وأنه كله من عند الله، ودعائهم بثبات قلوبهم وسؤالهم رحمة الله وإقرارهم بجمع الله- عز وجل- للناس يوم القيامة، وشهادتهم بصدق وعده عز وجل.

٤- وعيد الذين كفروا، وبيان أنه لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، وأنهم وقود النار، وأن مسلكهم في الكفر والتكذيب كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم بعقابه الشديد، وتأكيد الوعيد والتهديد لكفار قومه ﷺ، بأنهم سيغلبون في الدنيا ويحشرون إلى جهنم في الآخرة، وتوجيههم لأخذ العبرة والعظة مما حصل لهم ولقرنائهم في الكفر من الهزيمة في بدر.

٥- بيان ما جبل الناس عليه من حب الشهوات الدنيوية من النساء والبنين والأموال والخيل المسومة والأنعام والحرث، وبيان أن ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده

حسن المآب، وخير من ذلك ما أعد للذين اتقوا عند ربهم من جنات فيها ألوان النعيم خالدين فيها، وأزواج مطهرة ورضوان من الله.

٦- ثم أثنى عز وجل على المؤمنين ونوَّه بذكر صفاتهم الحميدة، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [الآيتان: ١٦، ١٧].

٧- ثم ذكر شهادته سبحانه على وحدانيته وشهادة ملائكته وأولوا العلم على ذلك، وأنه لا إله إلا هو قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

٨- بيان أن الدين عند الله الإسلام، وهو دينه ﷺ ودين من اتبعه، فمن أسلم من أهل الكتاب والأميين فقد اهتدىٰ، ومن تولىٰ فإنما عليه ﷺ البلاغ، والله بصير بالعباد.

٩- ثم انتقلت السورة للتنديد بأهل الكتاب وذكر صفاتهم القبيحة من الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء بغير حق، وقتل الآمرين بالقسط من الناس، وبشارتهم بالعذاب الأليم، وبيان حبوط أعمالهم في الدنيا والآخرة، وذكر إعراض فريق منهم عن كتاب الله تعالى، وقولهم الباطل أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودات، واغترارهم بهذا، وتوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الآية: ٢٥].

١٠- ثم بيَّن- عز وجل- عموم ملكه وسعته، وكمال تصرفه وتدبيره، وأنه سبحانه يؤتي الملك مَن يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز مَن يشاء، ويذل مَن يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويرزق مَن يشاء بغير حساب.

١١- ثم نهى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وذم فعل ذلك بأنه ليس من الله في شيء إلا في حال التقاة منهم، وحذر المؤمنين نفسه، فإليه المصير.

وأكد علمه بما يخفون في صدورهم وما يبدونه، وعموم علمه ما في السموات والأرض، وقدرته على كل شيء، ورغب في الاستعداد ليوم الجزاء، يوم تجد كل نفس ما عملت، وأكد تحذيرهم نفسه، وبيَّن أن محبة الله تعالى تكون في اتباعه ﷺ، وبذلك يحبهم الله ويغفر لهم، وأمر بطاعة الله تعالى وطاعة الرسول، وحذر من التولي.

١٢- ثم ذكر عز وجل اصطفاءه لآدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، والثناء عليهم، وذكر نذر امرأة عمران لربها ما في بطنها محررًا لخدمة بيت المقدس، وسؤالها ربها أن يتقبل منها، وكانت تتوقع أن يكون ما في بطنها ذكرًا؛ ولهذا لما وضعتها قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وقالت: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾؛ لأن الذكر أقدر على الخدمة في بيت المقدس. وأعاذتها بالله وذريتها من الشيطان الرجيم، فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتًا حسنًا وكَفَّلَها زكريا وأدر عليها الأرزاق.

١٣- دعاء زكريا- عليه السلام- ربه بأن يهبه ذرية طيبة، ونداء الملائكة له وهو قائم يصلي في المحراب ببشارة الله تعالى له بيحيى مصدقًا بكلمة من الله وسيدًا وحصورًا ونبيًا من الصالحين، وتعجبه- عليه السلام- من أن يكون له غلام وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر، وبيان أنه تعالى يفعل ما يشاء، وسؤاله- عليه السلام- آية على ذلك، وإجابته بقوله تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [الآية: ٤١].

١٤- بيان فضل مريم- عليها السلام- واصطفاء الله تعالى لها، وتطهيرها، واصطفائها على نساء العالمين ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الآية: ٤٢].

وأمرها بالقنوت لربها والسجود والركوع مع الراكعين، والإشارة إلى أن ما ذكره سبحانه من اصطفائه لمن ذكروا من أنباء الغيب التي يوحيها عز وجل إلى رسوله ﷺ.

وبشارة الملائكة لمريم بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وثناؤهم عليه، وتعجبها من أن يكون لها ولد ولم يمسسها بشر، وقوله- عز وجل- لها: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [الآية: ٤٧].

١٥- امتنان الله تعالى على عيسى- عليه السلام- بتعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وبعثه رسولًا إلى بني إسرائيل، وتأييده بالآيات الظاهرة، والمعجزات الباهرة، وجعله يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويخبرهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وكونه مصدقًا لما بين يديه من التوراة؛ وليحل لهم بعض الذي حُرم عليهم،

وأمره لهم بتقوى الله وطاعته، وعبادة الله تعالى.

وقوله- عليه السلام- لما أحس منهم الكفر: من أنصاري إلى الله، وإجابة الحواريين له بقولهم: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [الآية: ٥٢]، وتوجههم إلى ربهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الآية: ٥٣].

وحفظه- عز وجل- لعيسى من مكر الماكرين، وإخبار الله تعالى وبشارته له بأنه متوفيه ورافعه إليه، ومطهره من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، ومعذب الذين كفروا عذابًا شديدًا في الدنيا والآخرة، وموفّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أجورهم.

وبيان الآية العظيمة في خلقه- عليه السلام- من أم بلا أب، وأن مثل عيسى عند الله في خلقه من أم بلا أب كمثل آدم خلقه من تراب، بلا أم ولا أب، وأن هذا هو الحق في شأن عيسى- عليه السلام- الذي لا مرية فيه.

وأمره ﷺ بمباهلة من حاجَّه في ذلك، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا﴾ [الآيات: ٥٨-٦١]، وبيان أن هذا لهو القصص الحق، ونفي إلهية غير الله- عز وجل- العزيز الحكيم، ووعيد من تولى، وبيان علمه بالمفسدين.

١٦- أمره ﷺ بدعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء بينه وبينهم بالاجتماع على عبادة الله تعالى وحده دون شريك، وعدم اتخاذ أرباب من دونه ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [الآية: ٦٤].

١٧- تقريع أهل الكتاب وتوبيخهم، وتسفيه عقولهم في محاجتهم في إبراهيم وقولهم: إنه كان يهوديًّا أو نصرانيًّا، علمًا أن التوراة والإنجيل ما أنزلت إلا من بعده، ومحاجتهم فيما ليس لهم به علم وبيان أنه- عز وجل- يعلم وهم لا يعلمون، والرد عليهم بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية: ٦٧]، وبيان أن الذين هم أولى بإبراهيم هم الذين اتبعوه، وهذا النبي- يعني: محمدًا ﷺ والذين آمنوا والله ولي المؤمنين.

ثم بيَّن مودة طائفة من أهل الكتاب أن يُضلوا المؤمنين، وهم إنما يُضلون أنفسهم وما يشعرون، وو بخهم على الكفر بآيات الله وهم يشهدون، وعلى لبسهم الحق بالباطل وكتمان الحق وهم يعلمون، وبيّن مخادعتهم بقولهم: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ [الآية: ٧٢]، وتعصبهم لما هم عليه من الباطل، وزعمهم أنه لن يؤتى أحد مثل ما أوتوا، وحسدهم، والرد عليهم ببيان أن الهدى هدى الله، والفضل بيده يؤتيه من يشاء ويختص برحمته من يشاء.

ثم أتبع ذلك ببيان أن منهم الأمين الذي لو ائتمن على مال كثير أدَّاه، ومنهم مَن لو ائتمن على أقل القليل لم يؤده إلا حال قيام صاحب الحق عليه، وزعمهم أنه ليس عليهم في ظلم الأميين سبيل، أي: حرج، وقولهم الكذب على الله وهم يعلمون. وتفنيد زعمهم فضلهم على الناس، وبيان أن الفضل بالتقوى والله يحب المتقين، وذمهم باشترائهم بآيات الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا، وتوعدهم بأنه لا نصيب لهم في الآخرة: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الآية: ٧٧].

ثم بيَّن أن منهم فريقًا يلوون ألسنتهم بالكتاب؛ ليحسبه الناس من الكتاب المنزل عليهم وما هو من الكتاب، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الآية: ٧٨].

ونفى أن يكون لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة، ثم يدعو الناس إلى عبادته من دون الله، ولكن يدعوهم إلى عبادة ربهم، ونفى أن يأمرهم باتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا، فيأمرهم بالكفر بعد إذ كانوا مسلمين.

١٨- التذكير بأخذه- عز وجل- الميثاق على النبيين بما آتاهم من كتاب وحكمة بالإيمان بمحمد ﷺ، المصدق لما معهم، ونصره، وإقرارهم على ذلك، وأخذ العهد عليهم، وشهادة الله تعالى عليهم بذلك، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم

الفاسقون، والإنكار والتقريع لمن ابتغى غير دين الله الإسلام الذي بعث به محمدًا ﷺ. وأمر الله- عز وجل- له ﷺ أن يقول: آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على الرسل، وما أوتي النبيون من ربهم، وعدم التفريق بينهم، وبيان أن من يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين.

١٩- استبعاد هداية من كفروا بعد إيمانهم، وبعد شهادتهم أن الرسول حق، ومجيء البينات إليهم، وبيان أن الله لا يهدي القوم الظالمين، وتوعدهم بلعنة الله والملائكة والناس أجمعين، والخلود فيها وفي النار إلا من تاب منهم، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآيتان: ٨٨، ٨٩].

وبيان عدم قبول توبة من كفروا بعد إيمانهم، ثم ازدادوا كفرًا، وتأكيد أنهم هم الضالون، وتأكيد عدم قبول الفدية مهما عظمت ممن كفروا وماتوا على الكفر، وتوعدهم بالعذاب الأليم، وما لهم من ناصرين.

٢٠- الترغيب في الإنفاق،وبيان أن البر لا ينال إلا بالإنفاق من المحبوب، وبيان علمه- عز وجل- بما ينفقون، ومجازاتهم على ذلك.

٢١- بيان أن الطعام كله كان حلالًا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، وتحدي أهل الكتاب بالإتيان بالتوراة وتلاوتها إن كانوا صادقين في دعواهم أن ما كان محرمًا في التوراة كان محرمًا قبل نزولها، وإنكارهم النسخ في الشرائع، والتحذير من افتراء الكذب على الله من بعد ذلك، وتأكيد أنهم هم الظالمون.

وأمره- عز وجل- له ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية: ٩٥]، أي: صدق الله فيما أخبر به عن حل الطعام كله لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه قبل تنزيل التوراة، وصدق عز وجل في كل خبره وقوله وحديثه.

٢٢- بيان أن أول بيت وضع للناس لعبادة الله تعالى للذي ببكة، أي: البيت الحرام، وتعظيمه، وبيان ما فيه من الآيات البينات مقام إبراهيم، ووجوب تأمين من

دخله، وفرض الحج بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الآية: ٩٧].

٢٣- ثم عادت السورة إلى تقريع أهل الكتاب وتوبيخهم على كفرهم بآيات الله، وصدهم عن سبيل الله، وابتغائهم لها العوج، وهم شهداء، وتهديدهم بأن الله شهيد على عملهم، وليس بغافل عنه، وتحذير المؤمنين من طاعتهم فيردوهم بعد إيمانهم كافرين، وتيئيس أهل الكتاب من كفر المؤمنين، وهم تتلى عليهم آيات الله وفيهم رسوله.

٢٤- ترغيب المؤمنين بالاعتصام بالله، وأمرهم بتقوى الله حق تقاته، والثبات على الإسلام حتى الممات، والاعتصام بحبل الله، ونهيهم عن التفرق، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم إذ كانوا أعداء فألف بين قلوبهم، فصاروا بنعمته إخوانًا، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها، وأمرهم بأن تكون منهم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وترغيبهم بقوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الآية: ١٠٤]، ونهيهم أن يكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وتحذيرهم بقوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الآية: ١٠٥].

وتأكيد ذلك بالترغيب والترهيب بذكر اختلاف الوجوه يوم القيامة بقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الآيات: ١٠٦-١٠٩].

والثناء على هذه الأمة بأنها خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وبيان أن أهل الكتاب لو آمنوا لكان خيرًا لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون.

٢٥- طمأنة المؤمنين بأن أهل الكتاب لن يضروهم إلا أذى، وأنهم إن يقاتلوهم يولوهم الأدبار، ثم لا ينصرون، وأن الذلة ضربت عليهم أينما وجدوا، وباؤوا

بغضب من الله، وضربت عليهم المسكنة، بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق، وعصيانهم واعتدائهم، وبيان أن أهل الكتاب ليسوا سواء، وأن منهم: ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الآيات: ١١٣-١١٥].

٢٦- بيان أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، وتأكيد أنهم أصحاب النار هم فيها خالدون، وأن نفقاتهم في هذه الحياة الدنيا لا تنفعهم، ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الآية: ١١٧].

٢٧- نهي المؤمنين أن يتخذوا بطانة من دونهم لا يألونهم خبالًا، يودون لهم المشقة، ويبغضونهم ولا يحبونهم، يُظهرون لهم الإيمان إذا لقوهم، مع ما يحملونه في قلوبهم إذا خلوا من الغيظ عليهم، إن أصاب المؤمنين حسنة ساءهم ذلك، وإن أصاب المؤمنين سيئة فرحوا بها، وبشارة المؤمنين أنهم إن صبروا واتقوا فلن يضرهم كيد أولئك شيئًا؛ لأن الله بما يعملون محيط.

٢٨- تذكير النبي ﷺ بخروجه لغزوة أحد يبوأ المؤمنين مقاعد للقتال، وما حصل من هَمِّ طائفتين منهم أن تفشلا، وتذكيرهم بما تم لهم من نصر في غزوة بدر مع قلتهم، وأمرهم بتقوى الله وشكره، وقوله ﷺ للمؤمنين: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [الآية: ١٢٤]، ووعدهم إن صبروا واتقوا بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وبيان أن الوعد بالإمداد إنما هو بشرى لهم، وتطمئن قلوبهم به، وأن النصر إنما هو من عند الله العزيز الحكيم. وبيان أنه ﷺ ليس له من أمر هؤلاء الظالمين شيء فقد يتوب الله عليهم أو يعذبهم بظلمهم، فله عز وجل الأمر كله، وله وحده ما في السموات وما في الأرض، وله التصرف في ذلك كله، يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء وهو الغفور الرحيم.

٢٩- تحذير المؤمنين من أكل الربا، وأمرهم بتقوى الله ليفلحوا، وتقوى النار التي أعدت للكافرين، وأمرهم بطاعة الله والرسول؛ لكي يرحموا، والمسارعة إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، والثناء عليهم بذكر صفاتهم، من: الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس والإحسان إليهم، وذكر الله تعالى والاستغفار من الذنوب، وعدم الإصرار عليها، ثم وعدهم بتحقيق ما سارعوا إليه، وهو مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين.

وتوجيههم للسير في الأرض، والنظر في سنن الله تعالى في المكذبين، وكيف كانت عاقبتهم.

وإعلان أن القرآن بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين، وتقوية قلوبهم، ونهيهم أن يهنوا ويحزنوا وهم الأعلون إن كانوا مؤمنين.

وبيان أن ما أصابهم من قرح يوم أحد قد أصاب عدوهم قرح مثله يوم بدر، والأيام دول؛ وليظهر في علم الله الذين آمنوا ويتخذ منهم شهداء، وليمحص الله المؤمنين ويمحق الكافرين، وبيان أن دخول الجنة يقتضي الابتلاء؛ ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين.

٣٠- بيان أن الرسول سيمضي كما مضى من قبله الرسل، وتحذيرهم من الردة بعد موته أو قبله، وأن الآجال بيد الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الآية: ١٤٥].

٣١- الترغيب في القتال في سبيل الله بالإخبار أن كثيرًا من الأنبياء ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الآيات: ١٤٦-١٤٨].

٣٢- تحذير المؤمنين من أن يطيعوا الذين كفروا فيردوهم على أعقابهم فينقلبوا

خاسرين، وتكفله- عز وجل- بتوليهم ونصرهم، وهو خير الناصرين، ووعدهم بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، بسبب شركهم بالله، وتوعدهم بالنار، وبئس مثوى الظالمين.

٣٣- بيان وتأكيد صدق وعده- عز وجل- لهم بالنصر، وهكذا حصل في أول المعركة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ [الآية: ١٥٢]، ولما حصل منهم من الفشل والتنازع والعصيان من بعد ما أراهم الله ما يحبون من النصر، وآثر بعضهم الغنيمة، وخالفوا أمر الرسول ﷺ، وانقسموا إلى مريد للدنيا ومريد للآخرة صرفهم الله عن عدوهم؛ ليبتليهم، فصعد بعضهم الجبل، وفر بعضهم، لا يلوون على أحد، والرسول يدعوهم في أخراهم، فأثابهم غمًا بغم لكيلا يحزنوا على ما فاتهم ولا ما أصابهم، وأنزل النعاس عليهم يغشى طائفة منهم وهم المؤمنون أمانًا لهم، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم وهم المنافقون، يظنون بالله غير الحق ويعترضون على أمر الله وقضائه، ويرجفون.

ثم ذم الذين تولوا منهم يوم التقى الجمعان يوم أحد،وبين أنه إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا، وذكر عفوه عنهم.

ثم نهى المؤمنين وحذرهم أن يكونوا كالذين كفروا واعترضوا على قضاء الله وقدره في قتل من قتل من إخوانهم، ووعد من قتل في سبيل الله أو مات بمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون، وبيّن أنهم إن ماتوا أو قتلوا فإلى الله يحشرون.

٣٤- ذكر ما امتنَّ الله به على نبيه ﷺ بما منحه من حسن الخلق واللين، وذلك رحمة منه- عز وجل- بالأمة، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [الآية: ١٥٩]، وأمره- عز وجل- له بالعفو عنهم، والاستغفار لهم، ومشاورتهم في الأمر، فإذا عزم فليتوكل على الله، وبيّن أنه- عز وجل- إن ينصرهم فلا غالب لهم، وإن يخذلهم فلا ناصر لهم من دونه.

وأنه ما ﴿كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الآية: ١٦١]،

وبيّن فرق ما بين من اتبع رضوان الله، ومن باء بسخط من الله، ومأواه جهنم

وبئس المصير، وبيّن أنهم ﴿دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [الآية: ١٦٣].

وذكَّر المؤمنين بمنة الله تعالى عليهم ﴿إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الآية: ١٦٤].

٣٥- ثم عادت السورة فأكدت للمؤمنين أن ما أصابهم يوم أحد كان سببه من عند أنفسهم، وهو مخالفتهم أمر النبي ﷺ، وبيان أن ذلك بإذن الله الكوني القدري؛ ليعلم المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا، الذين يتخاذلون عن القتال بأنفسهم، ويثبطون غيرهم.

ثم بينت السورة قبل ختام الكلام عن غزوة أحد فضل الشهداء وما أعد الله لهم من الثواب الجزيل، وأنهم ليسوا أمواتًا ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الآيات: ١٦٩-١٧١].

ثم أثنت على المؤمنين الصادقين الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، وذكرت ما أعد للذين اتقوا منهم وأحسنوا من الأجر العظيم؛ لخشيتهم الله تعالى دون سواه، وقوة إيمانهم، وتوكلهم عليه وحده؛ ولهذا قال: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [الآية: ١٧٤].

أعقب ذلك بيان أن ما يحصل من خشية الناس إنما هو من تخويف الشيطان لأوليائه، ونهى المؤمنين عن خوفهم وأمرهم بخوفه- عز وجل- وحده.

٣٦- ثم توجه الخطاب في السورة إليه ﷺ تسلية له وتقوية لقلبه، بنهيه أن يُحزنه الذين يسارعون في الكفر، وبيان أنهم ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الآية: ١٧٦]، وتأكيد ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الآية: ١٧٧]، فتوعد الذين كفروا

ونبههم أن لا يغتروا بإمهال الله لهم فيظنوا أن ذلك خير لهم بل ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الآية: ١٧٨].

٣٧- ثم جاء ختام الآيات في قصة أحد بالتأكيد على أمرين: الأول: ما سبق التنبيه عليه في ثنايا القصة، وهو بيان حكمة الله تعالى البالغة فيما أصاب المسلمين في هذه الغزوة ليتميز الخبيث من الطيب، فقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [الآية: ١٧٩].

والأمر الثاني: الترغيب في الإنفاق في سبيل الله والتحذير من البخل، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ﴾ [الآية: ١٨٠].

٣٨- ثم عاد الكلام في السورة إلى ذم أهل الكتاب وذكر قبائحهم، وتوعدهم بالعذاب، وفضح أكاذيبهم، وقطع حججهم، بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الآيتان: ١٨١، ١٨٢]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ [الآية: ١٨٣].

وتسليته ﷺ على ما يلاقيه منهم بقوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [الآية: ١٨٤].

تلا ذلك بيان حقيقة أنه لابد لكل نفس من مواجهتها، وأعظم منها ما بعدها فقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ﴾ [الآية: ١٨٥]، وبيان أنه لابد من ابتلائهم في أموالهم وأنفسهم، ولابد أن يسمعوا من الذين أوتوا الكتاب من قبلهم ومن الذين أشركوا أذىً كثيرًا، وفي هذا والذي قبله من بيان حقيقة الموت أعظم تسلية، ولهذا قال بعده: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الآية: ١٨٦].

ثم ذكّر عز وجل بأخذه الميثاق على الذين أوتوا الكتاب ببيانه للناس وعدم

كتمانه، وذمهم بنبذهم له وراء ظهورهم، واشترائهم به ثمنًا قليلًا فبئس ما يشترون، وذم المنافقين الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، وتوعدهم بالعذاب الأليم.

٣٩- ثم أتبع ذلك بتأكيد سعة ملكه، واختصاصه بملك السموات والأرض، وقدرته على كل شيء، وبيان أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، ثم أثنى عليهم وامتدحهم بذكر صفاتهم الحميدة، من ذكر لله تعالى في جميع أحوالهم، والتفكر في خلق السموات والأرض، والتماس الحكمة في ذلك، وتعظيم الله تعالى والتوجه إليه في دعوات عظيمة ينبغي أن تكون على لسان كل مؤمن ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الآيات: ١٩١-١٩٤].

واستجابته- عز وجل- لهم وبشارته لهم بقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [الآية: ١٩٥]، منوِّهًا بأعمالهم الصالحة من الهجرة في سبيل الله، وتَحَمُّل الإخراج من ديارهم، والأذى في سبيل الله، وقتالهم وقتلهم، ثم وعدهم بقوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [الآية: ١٩٥].

ثم أشارت الآيات إلى فرق ما بين الفريقين فلا يُغتر بما عليه الكفار من النعم في الدنيا فهي ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [الآيتان: ١٩٧، ١٩٨].

ثم عادت السورة قبل ختامها احترازًا وإنصافًا؛ لتأكيد أن من أهل الكتاب لمن

يؤمن بالله وما أنزل إلى هذه الأمة، ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الآية: ١٩٩].

٤٠- ثم جاء مسك ختام السورة بأمر المؤمنين بما يُحقق- بإذن الله- فلاحهم، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الآية: ٢٠٠].

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤﴾.

تقدم الكلام على البسملة في أول هذا التفسير، وتقدم الكلام على الحروف المقطعة في مطلع سورة البقرة وناسب- والله أعلم- افتتاحها بهذه الحروف أن آيات عِدة منها نزلت في قضية مجادلة نصارى نجران حين قدموا إلى المدينة، وبيان فضل الإسلام على النصرانية، وإظهار عظمة القرآن والتحدي به.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾: ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، وخبره جملة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، و﴿لَآ﴾: نافية للجنس، و﴿إِلَٰهَ﴾: اسمها، وخبرها محذوف تقديره: «حق»، أي: لا إله حق إلا هو.

و﴿ٱللَّهُ﴾: علم على الرب تبارك وتعالى خاص به، وهو أصل الأعلام، وأعرف المعارف، وأصل أسماء الله- عز وجل- وتأتي أسماء الله كلها تابعة له، ومعناه: المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا، أي: لا إله حق إلا هو.

﴿ٱلۡحَيُّ﴾: خبر ثانٍ لقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾، أي: الكامل الحياة من جميع الوجوه، فلا ينال حياته نقص، ولم يسبقها عدم، ولا يلحقها زوال أو فناء، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ [الحديد: ٣].

﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾: خبر ثالث، أي: الكامل القيومية، القائم بنفسه، الغني عما سواه، القائم على غيره المقيم له: خلقًا وملكًا وتدبيرًا وحفظًا، وغير ذلك، فكل شيء محتاج ومفتقر إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ [الرعد: ٣٣].

وفي الحي كمال الصفات، وفي القيوم كمال الأفعال، وفيهما جميعًا كمال الذات.

قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾

[آل عمران: ٣].

قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾: الجملة في محل رفع خبر رابع للمبتدأ: (الله)، و«التنزيل» و«الإنزال» يكون من أعلى إلى أسفل، والتنزيل قد يدل على التدرج، أي: نزل عليك الكتاب مفرقًا منجمًا في ثلاث وعشرين سنة؛ تعظيمًا لهذا الكتاب، ورحمةً بهذه الأمة، وتيسيرًا عليها، وتثبيتًا لقلب النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]؛ وهذا مما خص الله- عز وجل- به هذا الكتاب العظيم عند أكثر أهل العلم.

والخطاب في قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾ للنبي ﷺ، وفيه تشريف وتعظيم له ﷺ، وفي التعبير بـ(على) دون (إلى) في قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾: زيادة في تشريفه ﷺ ورفع شأنه، وإعلاء مقامه.

و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن، و«ال» فيه للعهد، أي: الكتاب المعهود المعلوم المعروف، والذي هو أعظم الكتب، وأفضل كتب الله على الإطلاق، وإذا أطلق الكتاب فالمراد به القرآن الكريم.

و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: «فِعال» بمعنى مفعول أي: مكتوب؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨]، أي: في اللوح المحفوظ على الصحيح من أقوال أهل العلم.

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣- ١٦].

وهو مكتوب بأيدي المؤمنين في المصاحف.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾: الباء للملابسة، أي: متلبسًا بالحق، و«الحق»: الأمر الثابت، فالقرآن حق وصدق في نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ [الرعد: ١٩].

وطريق وصوله وإسناده حق وصدق محفوظ عن التبديل والتغيير، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:

١٩٢-١٩٤].

وقال تعالى: ﴿ لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وهو مشتمل على الحق، فأخباره صدق، وأحكامه عدل، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥].

﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾: ﴿ مُصَدِّقًا ﴾: حال من الكتاب، أي: حال كونه مصدقًا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي: لما سبقه من كتب الله- عز وجل- وجعل السابق ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ لأنه يجيء قبله، فكأنه يمشي أمامه.

ومعنى كونه مصدقًا لما سبقه من كتب الله تعالى، أي: مخبرًا بصدقها، وأنها حق من عند الله تعالى، وأيضًا: مصدقًا لها بكونه مصداق ما أخبرت به وبشرت به، فمجيئه تصديق لها، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة:١٤٦]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف:٦].

وأيضًا: مصدقًا لها لاشتماله على ما دعت إليه من أصول الشرائع ومحاسن الأخلاق والآداب، والحاكم بصدق ذلك كله وصحته، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة:٤٨].

﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾: أي وأنزل عز وجل التوراة على نبيه موسى بن عمران عليه السلام، وهي المذكورة- والله أعلم- بصحف موسى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩].

وهي أعظم كتب الله تعالى وأفضلها بعد القرآن الكريم، وأشملها وأعمها وأهداها، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ

صَـٰدِقِينَ ﴾ [القصص:٤٩]. كتبها الله تعالى بيده، كما قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف:١٤٥].

وفي الحديث في حجاج آدم وموسى: «**وكتب لك التوراة بيده**»[(١)].

أنزلها الله تعالى جملةً واحدة بألواح، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ [الأعراف:١٥٠].

وقد حصل فيها تحريف وكتمان لكثيرٍ منها، كما قال تعالى: ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام:٩١].

﴿وَٱلْإِنجِيلَ ﴾: أي وأنزل عز وجل الإنجيل على نبيه عيسى ابن مريم عليه السلام. وهو متمم لشريعة موسى عليه السلام وللتوراة.

قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران:٤].

قوله ﴿مِن قَبْلُ﴾: أي من قبل وقت تنزيل هذا القرآن، والتصريح بهذا للمبالغة في البيان، وإشارة إلى أن إنزالهما متضمن الإرهاص لبعثته ﷺ، ونزول القرآن الكريم، وأنهما لمقدمات لذلك، وقدَّم ﴿ مِن قَبْلُ﴾ على ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾؛ لئلا يتوهم أن هدى التوراة والإنجيل مستمر بعد نزول القرآن.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾: مفعول لأجله، والعامل فيه «أنزل»، أو حال من التوراة والإنجيل، أي: وأنزل التوراة والإنجيل من قبل؛ لأجل هداية الناس، أو حال كونهما هدى للناس.

ويجوز أن يكون العامل فيه «نزَّل» و«أنزل» أي: نزل عليك الكتاب.. وأنزل

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة (طه) (٤٧٣٦)، ومسلم في القدر (٢٦٥٢)، والترمذي في القدر (٢١٣٥)، وابن ماجه في «المقدمة» (٨٠)، وأحمد (٢/ ٢٦٨، ٣٩٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

التوراة والإنجيل من قبل كل ذلك من أجل هداية الناس، وأن يكون حالًا من الكتب الثلاثة، أي: حال كون الكتاب والتوراة والإنجيل هدىً للناس.

والمراد بالهداية هنا: هداية الدلالة والبيان والعلم، أي: لأجل دلالة الناس، وبيان طريق الحق لهم من طريق الباطل، وتعليمهم ما ينفعهم، وتحذيرهم مما يضرهم. و«الناس» هم بنو آدم.

﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾: «الفرقان» ما يفرق به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والإيمان والكفر، والخير والشر.

والتفريق بين خير الخيرين وشر الشرين، وبين أهل كل منهما، وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال:٤١].

وهو ما أنزله الله تعالى من الوحي الذي فيه بيان الحق من الباطل في القرآن والتوراة والإنجيل وغيرها من كتبه- عز وجل- وفي هذا تعظيم لما جاء في هذه الكتب.

ويُحتمل أن المراد بـ﴿ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ القرآن الكريم خاصةً؛ لأن «الفرقان» من أسماء القرآن، وفي هذا تعظيم للقرآن الكريم، وأنه أفضل كتب الله- عز وجل- وأعظمها هداية وتفريقًا بين الحق والباطل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾: بعدما امتن- عز وجل- على الناس بتنزيل القرآن وإنزال التوراة والإنجيل، وما في هذه الكتب العظيمة من الهداية، وبيان الفرق بين الحق والباطل، مما لا يبقى معه عذر أو حجة لأحد، أتبع ذلك بالوعيد للذين كفروا بآيات الله، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾.

(الكفر) في اللغة: الستر والتغطية.

ومعنى ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾: أي جحدوها وأنكروها وكذبوا بها من المشركين واليهود والنصارى وغيرهم.

و«آيات»: جمع آية، وهي في اللغة: (العلامة). قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة:٢٤٨] أي: علامة ملكه، وقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣] أي: العلامات والدلائل على أنه الحق. وآيات الله- عز وجل- قسمان:

آيات كونية، منها: الليل والنهار والشمس والقمر، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧]، وكل ما في الكون من المخلوقات هو من آيات الله تعالى الكونية، كما قال الشاعر:

فواعجبًا كيف يُعصى الإلـه أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كل شيء لـه آيـة تـدل على أنـه واحدُ[1]

وسميت المخلوقات آيات لدلالتها على وجود الخالق وعظمته وكمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته واستحقاقه العبادة دون سواه؛ لأن الخلق كلهم لو اجتمعوا لا يستطيعون إيجاد شيء من هذه المخلوقات، كما قال تعالى مخاطبًا المشركين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣].

والقسم الثاني من آيات الله: آياته الشرعية، وهو الوحي الذي أنزله على رسله في الكتب السماوية، وبخاصة آيات القرآن الكريم.

وسمى ما أوحاه الله- عز وجل- إلى رسله آيات لما فيه من الدلالة على صدقهم، ولما فيه من هداية الناس وإصلاحهم، وصلاح أمور دينهم ودنياهم وأخراهم، مما يدل على أنه من عند الله تعالى العظيم المستحق للعبادة وحده دون سواه، العالِم بالخلق وما يصلحهم مما لا يستطيع الخلق كلهم لو اجتمعوا الإتيان عليه، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، وقال تعالى عن القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، وقال تعالى عنه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

والفرق بين القسمين:

أن الآيات الكونية محسوسة مشاهدة؛ ولهذا عامة الناس يؤمنون بها ويقرون

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص١٠٤).

بتوحيد الربوبية حتى المشركون، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وهذا حال كثير من الناس أرباب حس ومشاهدة كالأنعام بل هم أضل، لا يؤمنون إلا بالمحسوس.

وما ضل مَن ضل من الخلق وكفر أو ابتدع في الدين إلا بسبب تحكيم الحس دون الشرع والعقل.

وأما الآيات الشرعية فهي معقولة لا يدركها إلا أصحاب العقول السليمة والنظرة المستقيمة، وكثير من الخلق لا يدركونها.

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾: قدم الخبر ﴿ لَهُمْ ﴾ لتخصيصهم بذلك وتأكيده، ونُكِّر ﴿عَذَابٌ ﴾ للتفخيم، و«العذاب»: العقاب أو العقوبة، و«الشديد»: القوي، أي: ولهم عقاب قوي، فيه أنواع الشدة والقوة من حيث نوعه وكيفه وكمه، عذاب حسي للأبدان، ومعنوي للقلوب، لا يقل عن العذاب الحسي بل هو أشد منه- من التقريع والتوبيخ والتبكيت والتيئيس من الخروج من النار، وتحطيم المعنويات.

كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧-٧٨]، وقال تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ [الهمزة: ٤-٧].

أي: لَيُنبذن في النار التي تحطم كل شيء فيها، وتشرف على القلوب فتحطم المعنويات.

﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أي: ذو العزة التامة بأنواعها الثلاثة: عزة الامتناع، فيمتنع أن يناله

سوء أو نقص أو مكروه، وعزة القهر والغلبة، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[الأنعام: ١٨، ٦١]، ومن هذا قوله تعالى في سورة (ص): ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، أي: غلبني.

وعزة القوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠](١).

﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ أي: صاحب انتقام ممن كذب بآياته وعصاه وخالف رسله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ [الروم: ٤٧].

والانتقام من الصفات الفعلية الاختيارية، وليس من صفات الله المطلقة، وليس من أسمائه- عز وجل- «المنتقم»، وإنما يوصف سبحانه به مقيدًا، فيُقال: المنتقم من المجرمين، ومن الظالمين، ومن الكافرين، ونحو ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن الكريم، وتحدي العرب بذلك، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان؛ لقوله تعالى: ﴿الم﴾ [آل عمران: ١].

٢- إثبات ألوهية الله- عز وجل- وأنه وحده المنفرد بالألوهية، فلا معبود بحقٍ سواه؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ٢].

٣- إثبات اسم الله- عز وجل- «الحي» وصفة الحياة التامة له، وأنه الكامل الحياة من جميع الوجوه، لا يتطرق لحياته نقص، ولم يسبقها عدم، ولا يلحقها زوال أو فناء.

٤- إثبات اسم الله- عز وجل- «القيوم» وصفة القيومية الكاملة له سبحانه وتعالى، وأنه- عز وجل- القائم بنفسه، الغني عما سواه، وكل شيء محتاج ومفتقر إليه؛ لقوله تعالى: ﴿الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

---

(١) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

٥- في وصفه- عز وجل- بـ «الحي، والقيوم» كمال ذاته وصفاته وأفعاله، ففي «الحي» كمال صفاته، وفي «القيوم» كمال أفعاله، وفي اقترانهما واجتماعهما كمال ذاته.

٦- إثبات علو الله- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ﴾ و﴿وَأَنزَلَ﴾، والتنزيل والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، فهو- عز وجل- عالٍ على خلقه، بائن منهم، له العلو المطلق عليهم: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.

٧- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله وكلامه وصفة من صفاته؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٨- الامتنان على الرسول ﷺ وأمته بتنزيل القرآن عليه منجمًا مفرقًا؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ﴾ رحمة بهذه الأمة.

٩- تشريف الرسول ﷺ وتكريمه بإنزال القرآن عليه، وخطابه- عز وجل- له؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وفي هذا تضعيف لقول من قال: إن القرآن نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقًا بعد ذلك وأن للقرآن تَنَزُّلَيْن. والصحيح أن جبريل عليه السلام ينزل به من عند الله- عز وجل- إلى النبي ﷺ مباشرة، ونزوله مرة واحدة.

١٠- تعظيم القرآن الكريم، وأنه أفضل كتب الله على الإطلاق، فإذا أطلق الكتاب فالمراد به القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾.

١١- أن القرآن الكريم نزله الله تعالى بالحق، فهوحق وصدق، وطريق وصوله حق، أوحاه الله- عز وجل- إلى جبريل عليه السلام، وأوحاه جبريل إلى نبينا محمد ﷺ، وهو مشتمل على الحق فيما جاء به ودعا إليه؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

١٢- تصديق القرآن الكريم للكتب السابقة، فهو مخبر بصدقها وأنها حق، وهو مصداق ما أخبرت به من بعثة محمد ﷺ ورسالته، ومصدق لها باشتماله على ما دعت إليه من أصول الشرائع ومحاسن الأخلاق والآداب، والحاكم بصدق ذلك كله وصحته؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

١٣- أن التوراة والإنجيل منزلة من عند الله- عز وجل- جملةً واحدة، نزلت التوراة، ثم الإنجيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ﴾.

١٤- أن المقصود من إنزال الكتب والنبوات هداية الناس ودلالتهم إلى طريق الحق، رحمةً

من الله- عز وجل- بالعباد وعنايةً بهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾.

١٥- إثبات الحكمة لله تعالى في أفعاله وأحكامه الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾.

١٦- امتنان الله على العباد بإنزال الكتب السماوية التي تشتمل على الفرقان، وبيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والإيمان من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، وفي هذا أيضًا تعظيم لكتبه عز وجل وبخاصة القرآن الكريم أفضل كتب الله عز وجل.

١٧- أن «الفرقان» من أسماء القرآن الكريم وهذاعلى القول بأن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[آل عمران:٤] القرآن خاصة، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

وفي هذا التخصيص للقرآن تعظيم له، وتأكيد على فضله على سائر كتب الله- عز وجل- وتفريقه بين الحق والباطل.

١٨- الوعيد الأكيد للذين كفروا بآيات الله بعد بيانها بإنزال الكتب التي فيها الفرقان بين الهدى والضلال، والإيمان والكفر بالعذاب الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، ويفهم من هذا أن الذين آمنوا بآيات الله لهم الثواب العظيم.

١٩- إثبات صفة العزة لله- عز وجل- عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾.

٢٠- التحذير من انتقام الله- عز وجل- ممن عصاه وخالف أمره؛ لقوله تعالى: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي: صاحب انتقام ممن عصاه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ ﴾: ﴿ إِنَّ ﴾: حرف توكيد ونصب، واسمها لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، وخبرها جملة النفي: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ﴾، وهي جملة منفية تدل على ثبوت ضدها وهو ظهور كل شيء له سبحانه وتعالى، وكمال علمه وإحاطته؛ لأن الخفاء يقابله ويضاده الظهور.

و﴿شَىْءٌ﴾: نكرة في سياق النفي، فيعم كل شيء أيًّا كان، صغيرًا أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا.

﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾: متعلق بـ ﴿يَخْفَىٰ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء في الأرض، ولا يخفى عليه شيء في السماء.

والمراد جنس الأرض وجنس السماء، أي: لا يخفى عليه شيء في الكون كله، ومن ذلك إيمان مَن آمن، وكُفر مَن كفر، وغير ذلك؛ لكمال علم الله- عز وجل- الدال على كمال حياته.

وفي هذا وعد لمن آمن بآيات الله، ووعيد لمن كفر بها، وترغيب في الثواب، وترهيب من العقاب.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾.

هذا من الأدلة على كمال ربوبيته وقيوميته- عز وجل- وتقرير علمه.

قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾: ﴿ هُوَ ﴾ يعود إلى «الله» أي: الله الذي

﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ أي: يجعلكم على صور معينة في أرحام أمهاتكم.

﴿فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾: حال من ضمير الخطاب « الكاف »، أي: يصوركم حال كونكم في الأرحام.

و﴿ٱلْأَرْحَامِ﴾: جمع رحم، وهو موضع تكون الجنين في بطن أمه، وهو القرار المكين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات: ٢٠ – ٢٢].

﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾: حال من فاعل ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ أي: يصوركم في أرحام أمهاتكم، ويخلقكم على أي كيفية أراد كونًا، نطفًا، ثم علقًا، ثم مُضغًا، ثم تنفخ فيه الروح.

هذا شقي وهذا سعيد، هذا ذكر وهذه أنثى، هذا طويل وهذا قصير، هذا أبيض وهذا أسود، هذا جميل وهذا قبيح، هذا مكتمل الخلقة وهذا ناقص الخلقة.

هذا يشبه أباه وهذا يشبه أمه، وهذا يشبههما وهذا لا يشبه واحدًا منهما، وهذا يشبه جده أو جدته، وهذا يشبه عمه أو خاله، ونحو ذلك، وهذا لا يشبه أحدًا من أقاربه، وهذا يشبه بعض الأبعدين، وهذا لا يشبه أحدًا.

ولا تنافي بين كونه تعالى يُصور الجنين كيف يشاء، وبين كونه يشبه أباه أو أمه أو نحو ذلك؛ لأن الله- عز وجل- قد جعل لكل شيءٍ سببًا، وربط المسببات بأسبابها؛ ولهذا لما جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلامًا أسود- كأنه يُعرِّض بزوجته[1]- قال النبي ﷺ: «**هل لك من إبل؟**»، قال: نعم، قال: «**ما ألوانها؟**» قال: حمر، قال: «**فهل فيها من أورق؟**» قال: نعم، قال: «**أنى لها ذلك؟**»، قال: لعله نزعه عرق، فقال ﷺ: «**فلذلك ابنك لعله نزعه عرق**»[2].

---

(١) أي: بأنها زانية، وأن الولد ليس منه؛ ولهذا قال رؤبة بن العجاج:

بأبه اقتدى عدي في الكرم ... ومن يشابه أبه فما ظلم

أي: ومن يشابه أباه فما ظلم أمه؛ حيث أراحها من ألسنة المتقولين على المحصنات بالباطل. انظر: «ديوان رؤبة» (ص١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق- إذا عرض بنفي الولد (٥٣٠٥)، ومسلم في اللعان (١٥٠٠)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠٦)، والنسائي في الطلاق (٣٤٧٨)، والترمذي في الولاء والهبة (٢١٢٨)، وابن ماجه في =

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود حق إلا هو، وقد كرر هذا؛ لتوكيد تفرده- عز وجل- بالألوهية، والمبالغة في الرد على النصارى الذين ادَّعوا إلهية عيسى عليه السلام، وعلى غيرهم من المشركين. وقد قرن فيما سبق بتقرير ألوهيته وكمال حياته وقيومته وإنزاله الكتب السماوية.

وقرن هنا بذكر تصويره الخلق في الأرحام كيف يشاء وخلقهم، وكمال عزته، وكمال حكمه وحكمته، وهذا وذاك مما يوجب إفراده بالعبادة دون سواه.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: اسم من أسماء الله- عز وجل- على وزن «فعيل» يدل على أنه سبحانه ذو العزة التامة.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: اسم من أسماء الله- عز وجل- على وزن «فعيل» يدل على أنه الحاكم ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزئي، وعلى أنه المحكم المتقن ذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

قال ابن كثير: «وهذه الآية فيها تعريض، بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر؛ لأن الله صوره في الرحم وخلقه كما يشاء، فكيف يكون إلهًا- كما زعمته النصارى عليهم لعائن الله، وقد تقلب في الأحشاء، وتنقَّل من حالٍ إلى حال، كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦]».

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة نعمته على العباد بتصويرهم في الأرحام وخلقهم، ثم أتبع ذلك بما هو أعظم، وهو نعمته عليهم بإنزال الكتاب على محمد ﷺ لهدايتهم.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تأكيد لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾،

= النكاح (٢٠٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وتمهيد لقوله: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ الآية.

وفي قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ قصر صفة إنزال القرآن على الله تعالى، وإبطال لزعم المشركين أنه إنما يعلمه بشر، أو أساطير الأولين.

﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾: أي من هذا الكتاب آيات، و﴿ءَايَٰتٞ﴾ جمع آية، وهي في اللغة: العلامة، وفي الشرع: القطعة من كلام الله تعالى ذات بداية ونهاية معلومة.

﴿مُّحۡكَمَٰتٌ﴾: الإحكام: الإتقان، أي: منه آيات متقنات معلومات واضحات المعنى والدلالة، لا اشتباه فيهن ولا التباس، وجُل القرآن على هذا، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١].

﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: الجملة في محل نصب حال من ﴿ءَايَٰتٞ﴾، أو في محل رفع صفة لـ﴿ءَايَٰتٞ﴾، والضمير ﴿هُنَّ﴾ يعود إلى قوله: ﴿ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾.

وأم الشيء أصله ومعظمه ومرجعه، أي: هن أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه.

قال تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩]، أي: اللوح المحفوظ الذي كتب فيه كل شيء، وهو مرجع وأصل كل الكتب.

ومنه سُمِّيت الفاتحة «أم الكتاب»؛ لأنها أصل القرآن الكريم وابتداؤه، ومشتملة على جميع معانيه[١].

ومنه سُمِّيت خريطة الرأس الجامعة له «أم الرأس» وهي الدماغ، وسُمِّيت الراية «الأم»؛ لأن الجيش ينضوي إليها، كما قال ذو الرمة[٢]:

على رأسه أم لنا نقتدي بها ... جماع أمور لا نعاصي لها أمرًا

قال الطبري[٣]: «يعني بذلك أنهن أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود، وسائر ما بالخلق الحاجة إليه من أمر دينهم، وما كُلِّفوا من الفرائض والحدود

---

(١) انظر الكلام على أسماء الفاتحة «أم الكتاب».

(٢) انظر: «ديوانه» (٣/ ١٤٥٥-١٤٤٦).

(٣) في «جامع البيان» (٥/ ١٨٩).

وسائر ما يحتاجون إليه في عاجلهم وآجلهم».

﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾: أي وآيات أُخر متشابهات، و«أُخر» ممنوع من الصرف؛ لأنه وصف معدول عن الآخر.

ومعنى ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ أي: فيهن اشتباه من حيث عدم وضوح المعنى والدلالة، أو لكونهن مما استأثر الله تعالى بعلمه، كحقائق صفات الله وكيفياتها؛ فهذه لا يعلمها إلا الله، وما يتعلق بعلم الغيب، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وكقيام الساعة، فهذا مما لا يعلمه إلا الله، وعدَّ بعض أهل العلم من هذا الحروف المقطعة في أوائل بعض السور.

وقد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «المحكمات: ناسخه وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه، وما يؤمن به ويعمل به، والمتشابهات: منسوخه، ومقدمه ومؤخره، وأمثاله وأقسامه، وما يؤمن به ولا يعمل به»(١).

فأما قوله تعالى في سورة (الزمر): ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الزمر:٢٣]، فليس المراد بقوله: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ التشابه الذي هو هذا الإحكام، وإنما المراد أنه يشبه بعضه بعضًا في الكمال والحسن والبلاغة، وما فيه من الهدى والبيان والمواعظ والحكم والأحكام والدعوة إلى الخير، والتحذير من الشر والوعد والوعيد... ونحو ذلك.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾: الفاء: استئنافية، و«أما» حرف شرط وتفصيل، أي: فأما الناس الذين في قلوبهم زيغ، و«القلوب» جمع قلب، وهو محل الإدراك وهو العقل، و«الزيغ»: الميل والانحراف عن القصد، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ [النجم: ١٧]، أي: ما مال البصر وما انحرف عن المقصود، ويُقال: «زاغت الشمس» أي: مالت وزالت عن كبد السماء.

والمعنى: فأما الناس الذين في قلوبهم ميل عن الحق وقصد للباطل، كما هو حال

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ١٩٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٥٩٢-٥٩٣).

كثير من المشركين من أهل الكتاب وغيرهم من أهل البدع والأهواء من الرافضة المجوسية والخوارج والقدرية والمعتزلة والجهمية وغيرهم.

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ «ما»: موصولة، أي: فيتبعون الذي تشابه منه، ويأخذون به، ويحملون المحكم على المتشابه، ويضربون الآيات بعضها ببعض.

وقد كنت أكتب في تفسير هذه الآية جوار بيت الله الحرام يوم الثلاثاء ١١/٨/١٤٣٢هـ، فخرجت لصلاة الظهر في الحرم، وبعد صلاة الظهر جلس بجواري أحد الإخوة، فسألته: من أين أنت؟ فقال: أنا إيراني شيعي، وأخذ يُثني على الشيعة، فقلت له: الشيعة فيهم أناس طيبون، وفيهم غُلاة يزعمون أن القرآن مُحرَّف، وأن الأئمة يدبرون الكون مع الله، ويُكَفِّرون كثيرًا من الصحابة كأبي بكر، وعمر، وعثمان- رضي الله عنهم- فقام وأحضر مصحفًا، وفتح على قول الله تعالى في سورة (الرعد): ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وأشار بأصبعه إلى قوله: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾، وقال: «كل المفسرين من أهل السنة يقولون: المراد بهذا علي بن أبي طالب، قلت: ليس هذا بصحيح، فلا أحد من أهل السنة يقول بهذا، وإنما يقولون: الضمير يعود إلى الله تعالى، أي: قل كفى بالله شهيدًا على رسالتي، وهو الذي عنده علم الكتاب، أي: علم اللوح المحفوظ.

وقال بعض المفسرين: المراد بالضمير في قوله: ﴿عِندَهُۥ﴾: عبدالله بن سلام، والمراد بالكتاب: التوراة؛ فهو شهيد بصدق النبي ﷺ بشهادة التوراة بذلك، فأخذ يقلِّب في المصحف فأخرج الآية في سورة التوبة ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ﴾ [التوبة:٤٠]، فقال: «من صاحبه؟» قلت: أبوبكر- رضي الله عنه- فقال: «كيف يحزن؟!»، كأنه يريد أن ينتقص من أبي بكر- رضي الله عنه- قلت له: الحزن ليس عيبًا، وقد قال الله لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، فخرج من الموضوع وقال: «كيف تسلمون في المدينة على أبي بكر وعمر وتمنعوننا أن نسلم على بعض الصحابة في البقيع؟»، فقلت له: لأنكم نجس

تتبولون على قبور بعض الصحابة كما فعل بعضكم عند قبر عثمان- رضي الله عنه- فقام وانصرف منهزمًا، فقلت: يا سبحان الله!، صدق الله العظيم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾.

قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾: مفعول لأجله، أي: لأجل الفتنة ولأجل تأويله، أي: طلب الفتنة وطلب تأويله، فاتبعوا ما تشابه منه لأجل هذين الغرضين الفاسدين.

والضمير في ﴿تَأْوِيلِهِۦ﴾ يعود إلى المتشابه، والفتنة: الصد عن دين الله والشرك، أي: طلب فتنة الناس وصدهم عن دينهم، وإيقاعهم في الكفر والشرك والشك والإلحاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١]، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة:١٩٣، الأنفال:٣٩]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ [البروج:١٠].

﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾: أي وطلب تأويله التأويل المذموم، وتحريفه تبعًا لأهوائهم المنحرفة، وإيهام أتباعهم أنهم يحتجون بالقرآن نظرًا لتشابهه، بخلاف المحكم فلا يتبعونه لأنه دامغ لهم، وحجة عليهم لوضوحه وعدم احتماله للتأويل.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم**»[1].

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ الواو: حالية، و«ما»: نافية، والضمير في ﴿تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ يعود إلى ما تشابه من القرآن، والحال أنه لا يعلم تأويل المتشابه من القرآن، ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾: أداة حصر، أي: وما يعلم تأويله إلا الله وحده، أي: لا يعلم حقيقته وما يؤول إليه إلا الله وحده.

(١) أخرجه البخاري في «التفسير» (٤٥٤٧)، ومسلم في «العلم» (٢٦٦٥)، وأبو داود في «السنة» (٤٥٩٨)، والترمذي في «التفسير» (٢٩٩٤).

والتأويل يأتي بمعنى التفسير، والتعبير، وبيان الشيء، كما قال أحد صاحبي السجن ليوسف عليه السلام: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ [يوسف:٣٦]، أي: بتفسير وتعبير الرؤيا التي رأى كل منهما.

ومنه قوله ﷺ في دعائه لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[1] أي: تأويل القرآن وتفسيره.

ويأتي التأويل بمعنى العاقبة والغاية التي يؤول إليها الشيء، والتي لا يعلمها إلا الله، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣].

فالمراد بـ﴿تَأْوِيلَهُۥ﴾ في الموضعين: عاقبته وما يؤول إليه، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾[يونس:٣٩] عاقبته وما يؤول إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف:١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء:٣٩، النساء:٥٩] أي: أحسن مآلًا وعاقبة.

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ الواو: استئنافية، والوقف عند أكثر السلف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، أي: لا يعلم عاقبته وما يؤول إليه إلا الله.

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾: مبتدأ، وخبره جملة ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، والراسخون: جمع راسخ، والرسوخ بمعنى الثبات والتمكن، فالراسخون في العلم هم الثابتون فيه، المتمكنون منه، العارفون بدقائقه.

﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾: الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى قوله: ﴿مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ﴾ أي: إلى المتشابه، أي: صدقنا به وإن لم نعلم تأويله، ورددنا علم هذا المتشابه إلى المحكم.

ويحتمل عود الضمير إلى ﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾، والأول أظهر؛ لقولهم بعده: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٦)، وإسناده صحيح.

أي: كل من المحكم والمتشابه من عند ربنا، فالمحكم صدقنا به وعلمناه والمتشابه صدقنا به ورددناه إلى المحكم ووكلنا علمه إلى الله، وكل ذلك حق وصدق، لا تناقض فيه ولا اختلاف، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْكَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء:٨٢].

وبعض السلف يصلون قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، بقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فتكون الواو عاطفة، وقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ معطوف على لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، وفي هذا تشريف لهم، كما في قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨].

وعلى هذا فالراسخون في العلم يعلمون تأويله، أي: تفسيره، كما قال ﷺ لابن عباس- رضي الله عنهما-: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»، ولهذا رُوِيَ عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال: «**أنا ممن يعلم تأويله**»[١]، وتكون جملة ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ على هذا القول في محل نصب على الحال.

ولا تعارض بين القولين، فإن حُمِلَ معنى «التأويل» في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ على التفسير كان الوصل أولى، وإن حُمِلَ معنى «التأويل» على عاقبة الشيء وغايته وما يؤول إليه، ونحو ذلك فالوقف أولى.

وقد رُوِيَ عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «التفسير على أربعة أنحاء؛ فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون، وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل»[٢].

ومراده بالذي (لا يعلمه إلا الله): هو ما يتعلق بالأمور الغيبية وحقائق الأشياء ومآلاتها.

وعلى هذا فتأويل القرآن كله بمعنى تفسيره مما يعلمه الراسخون في العلم؛ لأنهم إذا كانوا يعلمون تفسير المتشابه فعلمهم بتفسير المحكم أولى.

وقد فسر السلف- رضي الله عنهم- من الصحابة والتابعين وتابعيهم القرآن كله

---

(١) انظر: «روح المعاني» (٢/ ٨٢).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/ ٧٠)، وفي إسناده انقطاع، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١٨).

وفهموا معانيه.

قال مجاهد: «عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية، وأساله عن تفسيرها»(١).

قال ابن تيمية: «وتارة يكون الإحكام في التأويل والمعنى، وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها، حتى لا تشتبه بغيرها. وفي مقابلة المحكمات الآيات المتشابهات التي تشبه هذا وتشبه هذا، فتكون محتملة للمعنيين، ولم يقل في المتشابه: «لا يعلم تفسيره ومعناه إلا الله» وإنما قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهذا هو فصل الخطاب بين المتنازعين في هذا الموضع، فإن الله أخبر أنه لا يعلم تأويله إلا هو، والوقف هنا على ما دلت عليه أدلة كثيرة، وعليه أصحاب رسول الله ﷺ وجمهور التابعين وجماهير الأمة. ولكن لم ينف علمهم بمعناه وتفسيره، بل قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]، وهذا يعم الآيات المحكمات والآيات المتشابهات، وما لا يعقل له معنى لا يتدبر، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء:٨٢]، ولم يستثن شيئًا منه نُهِيَ عن تدبره، والله ورسوله إنما ذمَّا من اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فأما من تدبر المحكم والمتشابه كما أمر الله، وطلب فهمه ومعرفة معناه فلم يذمه الله، بل أمر بذلك ومدح عليه»(٢).

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ «الواو»: استئنافية، و«ما»: نافية، و﴿يَذَّكَّرُ﴾ أصلها «يتذكر» قُلِبَت التاء ذالًا وأُدغِمت في الذال الأخرى، والمعنى: وما يتعظ بالقرآن وما فيه من الهدى والمواعظ والبيان، ويفهم ويعقل ويتدبر ذلك وينتفع به ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿إِلَّآ﴾: أداة حصر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد:١٩، الزمر:٩]، و﴿أُوْلُواْ﴾ بمعنى أصحاب، و﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: جمع «لُب» وهو العقل؛ لأنه مجمع الخير والشر عند الإنسان، والمعنى: وما يتعظ بالقرآن وينتفع بما فيه من الهدى والبيان إلا أصحاب العقول السليمة، الذين تهديهم عقولهم إلى الحق والخير، وتمنعهم من الباطل

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/ ٨٥)، وأبو نُعيم في «الحلية» (٣/ ٢٧٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٧٥).

والشر، كما قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر:٥]، أي: الذي له لُب وعقل يهديه عقله إلى الخير ويحجره ويمنعه من الشر، وليس المراد بالألباب العقول التي بها مجرد الإدراك ضد الجنون، فهذه لا يمتدح بها، بل لا يكلف الإنسان إلا بوجود هذا العقل.

وإنما المراد بالألباب العقول التي بها حسن التصرف وفعل الخير وترك الشر، والتي هي مناط المدح أو الذم.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾.

هذا الدعاء- والله أعلم- من تتمة كلام الراسخين في العلم.

قوله: ﴿رَبَّنَا﴾: أي يا ربنا، وحُذِفت ياء النداء للتخفيف، والتبرك والتيمن بالبداءة باسم الله عز وجل.

﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾: ﴿لَا﴾ في الأصل للنهي، وهي هنا للدعاء؛ لأن النهي والطلب إذا جاء من أدنى إلى أعلى كان معناه الدعاء.

وإزاغة القلوب إمالتها عن الهدى والحق، أي: يا ربنا لا تمل قلوبنا عن الهدى والحق، وثبتنا على الصراط المستقيم.

وإنما خصُّوا القلوب؛ لأن عليها مدار صلاح الأعمال وفسادها، كما قال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(١).

وكان ﷺ كثيرًا ما يدعو: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**».

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**». فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إن القلوب بين أُصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ومسلم في المساقاة أخذ الحلال وترك الحرام (١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في القدر (٢١٤٠) وقال: «حديث حسن» وقد رُوِيَ نحوه عن عائشة رضي الله عنها.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**قلب ابن آدم على أُصبعين من أصابع الجبار- عز وجل- إذا شاء أن يقلِّبه قلَّبه**»، فكان يُكثِر أن يقول: «**يا مصرف القلوب**»[1].

وذلك لأنها محل العقل، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[الأعراف: ١٧٩].

فالعقل يكون بالقلوب، والقلوب في الصدور- كما ذكر الله- عز وجل- ولا ينافي هذا ارتباط العقل بين القلب والمخ- كما ذكر أهل العلم.

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾: أي بعد إذ مننت علينا بدلالتنا وتوفيقنا إلى الحق، وذلك أعظم مِنة، وأفضل نعمة، كما في قول المؤمنين: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦-٧]، فهم يتوسلون إلى الله- عز وجل- بنعمته السابقة، وهي هدايته لهم، كما في قوله ﷺ وأصحابه يوم الخندق:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألَى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا[2]

﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي: وأعطنا، والهبة: العطية بلا عوض ولا مِنّة.

﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي: من عندك؛ لأنك ذو المن والعطاء الجزيل، والفضل العظيم، أكرم الأكرمين وأجود الأجودين، ولئلا يكون لأحد سواك مِنة علينا.

ولهذا قال النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا**

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٠٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٨٠٣)، من حديث البراء رضي الله عنه.

كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[١].

وعلَّم ﷺ أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئًا حتى كان يسقط سوط أحدهم وهو على الدابة فينزل فيأخذه، ولا يسأل أحدًا يناوله إياه [٢].

﴿ رَحۡمَةً ﴾: رحمة الله- عز وجل- تنقسم إلى قسمين: رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ ﴾[الكهف:٥٨].

ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾[العنكبوت:٢١].

ومعنى ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً ﴾ أي: وأعطنا من عندك رحمة من رحمتك الواسعة تثبتنا بها على الهداية، وتزيدنا هدى وإيمانًا، وتُدخِلنا بها الجنة، فكل ذلك من آثار رحمة الله تعالى، ولهذا سمى الله الجنة رحمة، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٧]، وقال- عز وجل- في الحديث القدسي: «**أنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء**»[٣].

كما سمى عز وجل إنزال الغيث رحمة، فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [الشورى:٢٨].

فسألوا الله تعالى زوال المرهوب بالتثبيت على الهداية، والسلامة من الميل عن الحق، وحصول المطلوب بالرحمة.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾: الجملة استئنافية للتعليل والتوسل، وقد أُكِّدت هذه الجملة

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٣٤)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٥)، والنسائي في السهو (١٣٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٥٣١)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٥) من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٤٣)، وأبو داود في الزكاة (١٦٤٢)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٦٧)، من حديث أبي مالك الأشجعي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير باب: (وتقول: هل من مزيد) (٤٨٥٠)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بـ«إنَّ» وبكونها اسمية، وبضمير الفصل ﴿أَنتَ﴾ الذي يفيد القصر.

و﴿ٱلْوَهَّابُ﴾ اسم من أسماء الله- عز وجل- على وزن «فعَّال» يدل على سعة عطائه- عز وجل- وفضله وإنعامه.

أي: إننا إنما طلبنا منك هبة الرحمة لأنك أنت وحدك الوهاب ذو العطاء الجزيل، والفضل العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤، النحل:١٨].

وفي الحديث: «**يد الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يغض ما في يده**»(١).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾.

هذا من تتمة مقالة الراسخين يدل على قوة إيمانهم، وتمام يقينهم بالبعث والجزاء، وأنهم أحوج ما يكونوا إلى رحمة الله في هذا، كما قال إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١].

قوله ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يا ربنا إنك جامع الناس.

﴿لِيَوْمٍ﴾ أي: ليوم القيامة، واللام فيه للتوقيت، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠]، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ ﴿لَّا﴾: نافية للجنس، و﴿رَيْبَ﴾: اسمها منصوب، و﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبرها، أي: لا ريب حاصل فيه، أو نحو ذلك.

والمعنى: لا شك فيه، أي: لا ينبغي أن يرتاب ويشك فيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩]: تعليل وتأكيد لما قبله، أي: لجمعه-

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٤)، ومسلم في الزكاة الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (٩٩٣)، والترمذي في التفسير (٣٠٤٥)، وابن ماجه في «المقدمة» (١٩٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عز وجل- الناس ليوم لا ريب فيه، أي: لأن الله لا يخلف الميعاد.

وهذا- والله أعلم- من تتمة كلام الراسخين، وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة لتنبيه المخاطب، ولتعظيم الله؛ لأن مجيء الكلام بصيغة الغائب أبلغ في التعظيم كأنه سبحانه يتكلم عن نفسه بصيغة الغائب تعظيمًا وتفخيمًا.

ويُحتمل أن يكون هذا مستأنفًا، وهو من كلام الله تعالى؛ لأن الأصل عدم الالتفات؛ لأنه خروج بالكلام عن المألوف.

والمعنى: إن الله لا يخلف ما وعد به من مجيء هذا اليوم العظيم، وما وعد به من حساب الخلائق ومجازاتهم فيه بأعمالهم، وغير ذلك.

وهذا من الصفات المنفية الدالة على كمال ضدها، وهو وفاؤه- عز وجل- بوعده، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ [إبراهيم:٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج:٤٧]، وقال تعالى: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ [الروم:٦].

وذلك لأن إخلاف الميعاد إنما يكون بسبب كذب الواحد أو عجزه عن الوفاء بوعده، والله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد لكمال صدقه، فهو أصدق القائلين، ولكمال قدرته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل:٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢].

الفوائد والأحكام:

١- سعة علم الله- عز وجل- واطِّلاعه التام على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾.

وهذا من الصفات المنفية التي تدل على كمال ضدها وهو سعة علمه- عز وجل- واطِّلاعه على كل شيء صغيرًا كان أو كبيرًا، قليلًا كان أو كثيرًا، وفي هذا دلالة على كمال حياته عز وجل.

٢- الوعد لمن آمن بالله، والوعيد لمن كفر به؛ لأنه سبحانه مُطَّلع على كل شيء، ومن ذلك أعمال العباد وسيحاسبهم ويجازيهم عليها.

٣- الرد على القدرية الذين يقولون: إن الله لا يعلم بأعمال العباد حتى تقع منهم تعالى الله عن ذلك.

٤- قدرة الله تعالى التامة حيث يصور بني آدم في الأرحام كيف يشاء، وينقلهم فيها من حال إلى حال؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾، وفي هذا دلالة على كمال قيوميته- عز وجل- وكمال علمه، وكمال ربوبيته.

٥- عناية الله- عز وجل- ببني آدم حيث يصورهم في بطون أمهاتهم منتقلين فيها من حال إلى حال، ورحمته لهم، ومنته عليهم حيث صورهم وأحسن صورهم، كما قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن:٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٦-٨].

ولكونه- عز وجل- خلق الإنسان على أحسن صورة؛ نهى الشرع عن التجميل الذي يكون فيه تغيير خلق الله تعالى فقال ﷺ: «**لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، والمغيرات خلق الله**»[1].

أما ما كان من إزالة العيب في أصل الخِلقة فلا بأس به، فقد أذن النبي ﷺ للرجل الذي قُطِعَ أنفه أن يتخذ أنفًا من ورق، فأنتن، فأذن له أن يتخذ أنفًا من ذهب[2].

٦- في اختلاف صور بني آدم نعمة أخرى في طي نعمة تصويرهم وخلقهم، وهي اختلاف صورهم وأشكالهم وألوانهم ليتعارفوا ويتمايزوا، كما أن في ذلك ابتلاء لهم ليعلم الله من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يجزع.

٧- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية، وأن ما شاء الله تعالى وأراده كونًا لابد

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٨٦)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٢٥)، وأبو داود في الترجل (٤١٦٩)، والنسائي في الزينة (٥٠٩٩)، وابن ماجه في النكاح (١٩٨٩)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الخاتم (٤٢٣٢)، والنسائي في الزينة (٥١٦١)، والترمذي في اللباس (١٧٧٠)، من حديث عرفجة بن أسعد رضي الله عنه.

كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾.

٨- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٩- إثبات انفراد الله تعالى بالألوهية، فلا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٠- أن كل ما يُعبد من دون الله فهو باطل؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا إله حق إلا هو.

١١- إثبات اسم الله «العزيز» وما يدل عليه من إثبات صفة العزة التامة لله تعالى؛ عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾.

١٢- إثبات اسم الله تعالى «الحكيم» وما يدل عليه من إثبات صفة الحكم التام والحكمة البالغة لله- عز وجل- الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، والحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

١٣- في اقتران «العزيز» و«الحكيم» واجتماعهما في حقه- عز وجل- زيادة كماله إلى كمال.

ولله المثل الأعلى، فمع أن المخلوق قد يوصف بالعزة والحكمة المحدودة، لكن قلَّ أن تجتمع في شخص هاتان الصفتان، فإن وُجِدَ عنده عِزة صاحبها الطيش والخفة والسفه وعدم الحكمة، فصار ضرر هذه العزة أكبر من نفعها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة:٢٠٦]، وإن وُجِدَ عنده حكمة صاحبها الضعف وعدم القدرة، فلم تنفعه حكمته؛ لأن الناس لا يحترمون إلا الأقوياء، ولا مكان للضعفاء عندهم، وكما قال زهير[1]:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وظلم الناس لا يجوز، لكن لابد من قوة تردع المعتدي، وتمنع من الاعتداء والظلم، كما قال الآخر:

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٣٥).

فلا منعت دار ولا عز أهلها ... من الناس إلا بالقنا والقنابل[1]

وقد أحسن النابغة الجعدي في قوله[2]:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

١٤- إثبات أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، أنزله على رسوله محمد ﷺ، وأنه مُنَزَّل غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وقول الراسخين في العلم: ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾، وفي هذا الرد على من زعموا أن النبي ﷺ اختلقه وافتراه من عند نفسه، وعلى من زعموا أن القرآن مخلوق.

١٥- إثبات علو الله- عز وجل- على خلقه، فله- عز وجل- العلو المطلق: علو الذات، وعلو الصفات؛ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

١٦- تشريف النبي ﷺ بخطاب الله تعالى له، وإنزال الكتاب عليه، وإثبات رسالته ﷺ.

١٧- تعظيم القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: الكتاب الذي هو أعظم الكتب وأفضلها، ويكفيه عظمة أنه مُنَزَّل من الله تعالى وكلامه.

١٨- أن القرآن الكريم منه ما هو محكم واضح المعنى والدلالة، وهو أصل الكتاب ومرجعه وجلّه، ومنه ما هو متشابه غير واضح المعنى والدلالة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾.

١٩- وجوب إرجاع المتشابه من القرآن إلى المحكم منه؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أي: هي أصله ومرجعه الذي ينبغي أن يُرجع إليه عند الاشتباه، ولهذا قال الراسخون في العلم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾.

٢٠- ابتلاء العباد بجعل القرآن الكريم منه محكم ومتشابه؛ ليتميز أهل الزيغ من أهل

---

(١) البيت لطرماح. انظر: «شرح ديوان الحماسة» (١/ ٧٧).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٦٩).

العلم والإيمان، فمن ردَّ ما اشتبه منه إلى ما وضح منه، وحكم بمحكمه على متشابهه اهتدى، ومن عكس ضل.

٢١- اتباع الذين في قلوبهم زيغ ما تشابه من القرآن؛ لفتنة الناس وصدهم عن دينهم وإيقاعهم في الشك والكفر، ولتأويل هذا المتشابه تأويلًا مذمومًا، وتحريفه ليوافق أهواءهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾.

٢٢- أن مدار فساد الأعمال وصلاحها على القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾.

ومفهوم هذا: أن من كانت قلوبهم سليمة لا يتبعون ما تشابه منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، وقول الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾.

٢٣- التحذير من زيغ القلب وميله عن الحق، ووجوب علاجه والعمل على إصلاحه؛ لأن الله ذم أهل الزيغ وفضحهم، وبيَّن سوء قصدهم وسوء عملهم.

٢٤- أن حقيقة الفتنة هي الفتنة في الدين بالشرك، والصد عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾.

٢٥- أن تأويل المتشابه بمعنى معرفة عاقبته وما يؤول إليه لا يعلمه إلا الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، على قراءة الوقف على قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

٢٦- أن الراسخين في العلم يعلمون تفسير المتشابه ومعناه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ على قراءة الوصل.

٢٧- فضل الرسوخ في العلم والتأصيل والثبات فيه، والثناء على أهله؛ لأنه سبب لعلم تأويل القرآن وتفسيره والإيمان به، ورد المتشابه منه إلى المحكم، والخوف من زيغ القلوب، وسؤال الله الثبات على الهدى والرحمة، والإقرار بالبعث والمعاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾، ويقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ

﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

٢٨- أن القرآن كله من عند الله- عز وجل- يجب الإيمان به، محكمه ومتشابهه؛ فهو حق لا شك فيه، ولا اختلاف.

٢٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٣٠- إنه لا يتذكر ولا يتعظ بمواعظ القرآن وغيرها إلا أصحاب العقول، الذين تهديهم عقولهم إلى ما ينفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٣١- فضل العقل الذي ينتفع به صاحبه، وهو عقل الرشد وحسن التصرف؛ لأنه سبب للتذكر، ولهذا أثنى الله على أولي الألباب وحصر التذكر فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وفي هذا تعريض بذم الذين لا يعقلون.

٣٢- امتحان العباد في وجود المتشابه في القرآن الذي لا يعلم تأويله إلا الله، هل يتأدبون مع الله ويقفون عند حد ما تدركه عقولهم، ويعلمون أن فوق كل ذي علمٍ عليم، أو يتجرؤون على القول على الله بغير علم؟

٣٣- أن مدار صلاح الأعمال والهداية على القلوب مما يوجب الخوف من زيغ القلوب، وسؤال الله الثبات والاستقامة على الهدى، وأن لا يغتر المرء بما هو عليه من الهدى والصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

وفي الحديث: «**قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن إذا شاء أن يقلب قلب عبده قلبه**»[1]. ومن الذي يأمن- والحالة هذه- إلا مغرور؟!. وقد قيل: «ما أمن النفاق إلا منافق».

٣٤- تصدير الدعاء باسم «الرب»- عز وجل- فذلك أقرب إلى الإجابة؛ لأن الرب هو الذي بيده الخلق والملك والتدبير، فكأن السائل يقول: يا من له الخلق والملك والتدبير لا تُزِغ قلبي، وهب لي من لدنك رحمة؛ ولهذا صدر الراسخون في العلم

---

(١) أخرجه مسلم في القدر تصريف الله القلوب حيث شاء (٢٦٥٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

دعاءهم بهذا الاسم، وبه كان دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين.

٣٥- التوسل لله- عز وجل- بقبول الدعاء بالاعتراف بنعمه، والثناء عليه بها؛ لقول الراسخين في العلم: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾.

٣٦- أن الاعتراف بنعمة صاحب النعمة والثناء بها عليه قبل السؤال من أسباب الإجابة؛ ولهذا علَّمنا الله- عز وجل- في مطلع سورة (الفاتحة) أن نحمده ونثني عليه ونمجده ثم نسأله، بل إن في الثناء على المنعم ما قد يكفي عن التصريح بالسؤال، كما قيل:

إذا أثنى عليك المرء يومًا ... كفاهُ من تعرضه الثناء[1]

٣٧- أن التخلية قبل التحلية؛ لقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾، فدعوا بزوال المرهوب، ثم حصول المطلوب.

٣٨- حاجة الإنسان إلى ربه- عز وجل- في دفع الضر والشر، وجلب النفع والخير؛ لقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾.

٣٩- أن الهداية والإضلال كونًا بيد الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

٤٠- ينبغي الاستغناء بالله- عز وجل- وسؤاله الرحمة من عنده دون الخلق ومِنَّتهم؛ لأنه سبحانه ذو الرحمة الواسعة والعطاء الجزيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾، فطلبوا الرحمة منه خاصة؛ تعظيمًا له- عز وجل- ومعرفةً منهم بعظيم رحمته وواسع فضله؛ ولهذا قالوا: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾.

والعطاء على قدر المعطي، وكما قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم[2]

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت. انظر: «ديوانه» (ص١٧).

(٢) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (٢/ ٢٧٢).

٤١- إثبات اسم الله تعالى ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾، وأنه سبحانه يهب ويعطي الرحمة والفضل لمن شاء من خلقه.

٤٢- إثبات يوم القيامة، وأنه آتٍ لا ريب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾، وأن الناس أحوج ما يكونوا إلى رحمة الله تعالى في هذا اليوم العظيم.

٤٣- قدرة الله تعالى التامة على جمع الناس لهذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣ - ١٤].

٤٤- إثبات الحساب والجزاء على الأعمال؛ لأن هذا هو المقصود من بعث الناس وجمعهم في ذلك اليوم.

٤٥- أن الله- عز وجل- لا يخلف الميعاد، فوعده حق، ولقاؤه حق، وحسابه حق، وجزاؤه حق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

وليس في الآية دليل على وجوب عقاب العاصي كما يقول الوعيدية؛ لأن الوعيد مشروط بعدم التوبة، وعدم العفو عما يدخل تحت العفو، وهو ما دون الشرك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ «الكفر» في اللغة الستر، وهو إنكار وجود الله وربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته وشرعه أو شيء من ذلك، أو ترك ما يستلزم الكفر بتركه كالصلاة، وهو أقسام(١).

وهو ضد الإيمان، أي: التكذيب بما أوجب الله الإيمان به، من الإيمان بالله- عز وجل- والإيمان بملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، أو الكفر والتكذيب ببعض ذلك.

والمراد بهم في الآية جنس الكفرة من اليهود والنصارى ومشركي العرب وغيرهم.

﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ﴾ أي: لن تنفعهم، وتمنع أو تدفع عنهم ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ﴾ [الحاقة:٢٨]. و﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾ كل ما يتمولونه ويملكونه من أنواع المال من نقد أو عين أو منفعة أو غير ذلك.

﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ أي: ولن تغني عنهم أولادهم، والأولاد: جمع «ولد» وهو إذا أطلق يشمل الذكور والإناث من أولاد الشخص وأولاد بنيه وإن نزلوا بمحض الذكور.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: من عذابه وعقابه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ﴾ [الأحزاب:١٧].

---

(١) سبق ذكر أقسام الكفر في الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

والمعنى: لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، فتنجيهم من عذاب الله، بأن تمنع أو تدفع عنهم شيئًا من عذاب الله قبل وقوعه، أو ترفع عنهم شيئًا من عذاب الله بعد وقوعه، بل كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال ﷺ: «**ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»(١) أي: ولا ينفع ذا الغنى والحظ منك غناه وحظه، وخص الأموال والأولاد؛ لأن الاستغناء في الدنيا يكون بهما، فبالمال يكون الفداء ودفع الديات والغرامات، وبالأولاد يكون الانتصار والقتال.

وقدَّم الأموال على الأولاد- والله أعلم- لأن الاعتماد على نفع الأموال في الدنيا أكثر من الاعتماد على نفع الأولاد؛ لأن الأولاد أحيانًا قد ينفعون، وأحيانًا كثيرة لا ينفعون، بل قد يضرون. وفي الآية إشارة إلى انشغالهم بأموالهم وأولادهم.

﴿ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾ الواو: عاطفة، وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيرًا لهم.

و﴿هُمْ﴾ يحتمل أن يكون مبتدأ، أو ضمير فصل.

وفي كون الجملة اسمية دلالة وتأكيد على تحقق الأمر وتقرره، وأن هذا هو حقيقة حالهم ومآلهم.

﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ «وَقود» بفتح الواو: ما توقد به النار، أي: حطبها الذي توقد وتسجر به، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٤)، ومسلم في المساجد (٥٩٣)، وأبوداود في الصلاة (١٥٠٥)، والنسائي في السهو (١٣٤١)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦]، فهؤلاء الكفار هم الوقود الذي توقد وتسجر به النار، مع الحجارة.

و﴿ٱلنَّارِ﴾ هي الدار التي أُعدت لتعذيب ـة: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾.

قوله: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: دأب هؤلاء الكفار كدأب ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، والكاف: للتشبيه بمعنى: «مثل» والدأب: العادة والشأن والصنيع.

﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أتباعه وقومه .

والمعنى: دأب هؤلاء الكفار وشأنهم وحالهم في الكفر والتكذيب، وفي استحقاقهم العقاب كدأب وشأن آل فرعون، وفيه تخويف لهم.

وفرعون هو ملك مصر في عهد موسى- عليه الصلاة والسلام، الذي كذَّب موسى وأنكر رسالته، وادَّعىٰ الربوبية والألوهية فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨]، وقال مهددًا موسى عليه السلام: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩].

﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي: والذين من قبل آل فرعون من الأمم، كقوم نوح، وعاد وثمود، وقوم لوط وغيرهم.

﴿ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ تفسير وبيان لدأبهم، أي: كذبوا بآياتنا الكونية والشرعية، وما جاء به الرُّسل من المعجزات.

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الفاء: عاطفة، والباء في قوله: ﴿ بِذُنُوبِهِمْ﴾ للسببية، و«الذنوب» جمع «ذنب» و«الذنب» في الأصل: التلو والتابع، ثم أطلق على الجريمة؛ لأنها يتلو- أي: يتبع- عقابها فاعلها.

والمعنى: فأهلكهم الله وعاقبهم بسبب ذنوبهم، أي: بسبب كفرهم ومعاصيهم، التي تلبسوا بها وأصروا عليها من غير توبة، فأهلك فرعون وقومه بالغرق، كما قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾

﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٣٩، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠].

وكان إهلاك فرعون وقومه بالغرق- والله أعلم- لأنه كان يفتخر بالماء والأنهار، كما قال تعالى عنه أنه قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

كما أهلك الله قوم نوح بالغرق، وأهلك عادًا بالريح الصرصر العاتية، وثمود بالصيحة، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، فيها تخويف وتحذير من التكذيب بآيات الله، أي: والله شديد الأخذ، قوي العقاب لمن كذَّب بآياته، لا يُقدِّر أحد قَدْر شدة عقابه وعذابه، لا كمًّا ولا كيفًا ولا نوعًا، ولا غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾.

توعَّدعز وجل في الآيتين السابقتين الذين كفروا بالنار وبأخذهم كما أخذ المكذبين من قبلهم، ثم أكد ذلك وقرره بما فيه تحطيم لمعنوياتهم وتبديد لآمالهم بأمره ﷺ أن يقول لهم بأنكم ستُغلبون في الدنيا وتحشرون إلى جهنم في الآخرة.

رُوِيَ عن ابن عباس- رضي الله عنهما- من طريق عكرمة وسعيد بن جبير قال: «لما أصاب رسول الله ﷺ قريشًا يوم بدر، فقدم المدينة جمع يهود في سوق بني قينقاع، فقال: **«يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشًا»**. فقالوا: يا محمد، لا تغرنك نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تأت مثلنا، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله:

﴿لِأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ١٣﴾»[1].

هكذا أورده أكثر المفسرين وجعلوه سببًا لنزول هاتين الآيتين، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لو صح هذا.

قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الأمر للنبي ﷺ، وفي أمره تعالى له ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة زيادة عناية واهتمام بها، كما في أمره ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ونحو ذلك. وإلا فهو في الأصل مأمور بتبليغ القرآن كله.

﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بياء الغيبة: «سيغلبون ويحشرون» وقرأ الباقون بتاء الخطاب: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾.

أي: قل يا محمد للذين كفروا وكذبوك فيما جئت به من الحق من اليهود والنصارى والمشركين، وغيرهم من الكفار: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ السين للتقريب، أي: ستغلبون قريبًا، أي: في الدنيا، أي: ستكون للمؤمنين الغلبة والظهور عليكم، والقهر لكم، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ أي: في الآخرة، أي: تجمعون وتساقون ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ﴾ «جهنم» اسم من أسماء النار سميت به لجهمتها وظلمتها وبُعد قعرها وشدة حرها.

والمعنى: وتجمعون وتساقون إلى جهنم وتدخلون فيها.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الواو: استئنافية، و«بئس»: فعل جامد يفيد الذم، ﴿ٱلْمِهَادُ﴾

---

(١) أخرجه من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد مولى زيد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس- أبوداود في الخراج والإمارة والفيء- كيف كان إخراج اليهود من المدينة (٣٠٠١)، والطبري في «جامع البيان» (٥/ ٢٣٩)، والبيهقي في «سننه» (٩/ ١٨٣)، ومحمد بن أبي محمد مولى زيد قال عنه ابن حجر في «التقريب» (٦٢٧٦): «مجهول»، وقال عنه الذهبي في «الميزان» (٤/ ٢٦): «لا يعرف». وقد أخرجه الطبري (٥/ ٢٣٩) أيضًا من طريق محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة، قال: «لما أصاب الله قريشًا يوم بدر- وذكره بنحوه، وكذا أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٦٠٤). وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٤٧)، وأخرجه الطبري (٩/ ٢٤٠)- مختصرًا من طريق ابن جريج عن عكرمة موقوفًا عليه. وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٣٨٦): «إسناده حسن».

الفراش الذي يفترشونه ويلتحفون به، كما قال تعالى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وهكذا حصل، فخسروا الدنيا والآخرة، غلبوا في الدنيا وسيحشرون إلى جهنم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) ﴾.

أمر الله- عز وجل- نبيه ﷺ أن يقول للكافرين مخبرًا ومتوعدًا لهم بأنكم ستغلبون، ثم وجههم لأخذ دليل ذلك ومصداقه من الواقع مما شاهدوه أو عايشوه أو سمعوه، وهو غلبة المسلمين في بدر مع قلة عددهم وضعف عدتهم للكافرين مع كثرتهم وقوة عدتهم.

قوله: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ هذا من جملة مقول القول السابق، ويحتمل أن يكون استئنافًا.

﴿ قَدْ ﴾: للتحقيق، ﴿لَكُمْ﴾ الخطاب للذين كفروا من اليهود والمشركين وغيرهم ﴿آيَةٌ﴾ أي: علامة ودلالة على أنكم ستغلبون وعلى صدق الرسول، وأن ما جاء به حق، وأن النصر والغلبة والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾، ﴿فِئَتَيْنِ﴾: تثنية «فئة»، و«الفئة»: الطائفة والجماعة من الناس، أي: قد كانت لكم علامة ودلالة على صدق الرسول، وعلى صدق ما جاء به وأنكم ستغلبون، في طائفتين، وهما المسلمون والمشركون يوم بدر ﴿الْتَقَتَا﴾، أي: للقتال، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال: ١٥].

﴿فِئَةٌ﴾: مبتدأ، وخبره جملة ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المؤمنون، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، وجاز الابتداء بالنكرة؛ لأن المقام مقام تقسيم وتفصيل، كما في قول الشاعر:

فيـوم علينـا ويـوم لنـا ويـوم نُسـاء ويـوم نُسـر[١]

قوله: ﴿ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: فئة مؤمنة؛ لمقابلتها بقوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾، ولقوله تعالى: ﴿ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فاختار وصفها بهذا الوصف على التصريح بأنها مؤمنة؛ لما فيه من الدلالة على ذلك وأكثر، ففيه الدلالة على أنها مؤمنة؛ لأنه لا يقاتل في سبيل الله إلا المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٦].

كما أن فيه الدلالة على أنهم في أعلى درجات الإيمان والإخلاص، وفي هذا امتداح لهم وتعظيم لشأنهم وتنويه بسمو هدفهم.

و«المقاتلة» المفاعلة بين طائفتين.

ومعنى: ﴿تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: تقاتل لإعلاء كلمة الله تعالى، كما قال ﷺ: «**مَن قاتَل لتكون كلمة الله هي العُليا فهو في سبيل الله**»[٢].

والمراد بهم رسول الله ﷺ وصحابته والمؤمنون.

ومعنى ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: طريقه ودينه، ونصرة شرعه.

ولابد لكون القتال في سبيل الله من شرطين، هما: شرطا صلاح العمل:

الأول: الإخلاص لله تعالى، بأن يكون القصد منه إعلاء كلمة الله تعالى كما في الحديث.

والثاني: أن يكون موافقًا لشرع الله- عز وجل- بحيث يكون القتال عند وجود أسبابه، وتوافر أدواته، وأن يكون القتال تحت راية ولي أمر المسلمين أو من ينيبه، لا تحت راية عمياء، وأن تكون مصلحة المسلمين فيه ظاهرة، كالدفاع عن بلاد المسلمين ومقدساتهم وحرماتهم وخيرات بلادهم، أو نشر الدعوة الإسلامية وإزالة العوائق أمام دعاة الإسلام، ونحو ذلك، وأن لا يكون فيه بغي ولا اعتداء ولا نقض للعهود أو قتل لمن لم يقاتل كالنساء والصبيان وغيرهم.

﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ «أخرى» صفة لمقدر، أي: وفئة أخرى كافرة، وهم المشركون،

---

(١) البيت لنمر بن تولب. انظر: «ديوانه» (ص ٣٤٧).

(٢) سبق تخريجه.

وكانوا قريبًا من ألف. أي: وفئة أخرى كافرة مغترة بكثرتها، مفتخرة بقوتها، تقاتل في غير سبيل الله، بل في سبيل الطاغوت، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦].

وفي الآية إيجاز يدل على بلاغة القرآن الكريم، فقد اكتفى بوصف الفئة الأولى بأنها ﴿تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن وصف الثانية بأنها تقاتل في سبيل الطاغوت. كما اكتفى بوصف الفئة الثانية بأنها كافرة عن وصف الأولى بأنها مؤمنة، فدل في كل جملة على ما لم يذكر في الجملة الأخرى.

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ قرأ نافع ويعقوب بتاء الخطاب: «ترونهم»، وقرأ الباقون بياء الغيبة: ﴿يَرَوْنَهُم﴾.

فعلى قراءة ﴿تَرَوْنَهُم﴾ الخطاب للفئة التي تقاتل في سبيل الله، وضمير الغيبة الهاء يعود إلى الفئة الكافرة، أي: تشاهدون أيها المؤمنون الكفار ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ أي: كثرهم مرتين، أي: كثرهم في الواقع والحقيقة مرتين.

وعلى قراءة: ﴿يَرَوْنَهُم﴾ بالغيبة، أي: يشاهد كل فريق منهم الفريق الآخر مثليهم أي: كثرهم مرتين، والضمير في ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ يعود إلى الفريق الرائي، أي: يرى المشركون المسلمين ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ أي: كثرهم مرتين مما كان سببًا في دخول الرعب في قلوبهم وهزيمتهم.

وقد يشكل على هذا أن المشركين بعثوا عُمر بن سعد يومئذٍ قبل القتال يحْرز لهم عدد المسلمين، فأخبرهم أنهم ثلاثمائة يزيدون قليلًا أو ينقصون قليلًا، فهم لديهم خبر بعدد المسلمين ولو على وجه التقريب.

ويرى المسلمون المشركين ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ أي: كثرهم مرتين في العدد، ومع هذا نصرهم الله عليهم.

ويشكل على هذا أن المشهور والذي عليه الجمهور أن المشركين ما بين التسعمائة إلى الألف. ففي حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ سأل الرجل الذي جيء به إليه، فقال: «**كم ينحرون من الجزور؟**» قال: عشرة كل يوم. قال رسول

الله ﷺ: «**القوم ألف**»(١).

وفي حديث عروة بن الزبير أنه سأل الرجلين اللذين جيء بهما إليه، فقال: «**كم ينحرون؟**» قالا: يومًا تسعًا، ويومًا عشرًا. قال ﷺ: «**القوم ما بين التسعمائة إلى الألف**»(٢). فهم على هذا التقدير ثلاثة أمثال المسلمين.

وقد وجه هذا ابن جرير وجعله صحيحًا كما تقول: عندي ألف وأنا محتاج إلى مثليها أي: إلى ألفين معها، أي: أنك محتاج إلى ثلاثة آلاف، وعلى هذا يزول الإشكال(٣).

ويحتمل عود الضمير في ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ إلى الفريق المرئي، أي: يرى كل فريق منهم عدد عدوه مضاعفًا، والأول أقرب.

﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ ﴿رَأْيَ﴾: مصدر مؤكد لقوله: ﴿يَرَوْنَهُم﴾ أي: مشاهدة العين، أي: يرونهم بعيونهم وأبصارهم.

فالرؤية بصرية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤].

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، ﴿يُؤَيِّدُ﴾: يقوي، ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾، الباء: للسببية، أي: بسبب نصره.

﴿مَن يَشَآءُ﴾، ﴿مَن﴾: موصولة. أي: الذي يشاء ويريد كونًا نصره من عباده، ممن تقتضي حكمته نصره.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه: ما سبق في الآية، من قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ﴾ إلى هنا ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: اعتبارًا وعظة.

﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي: لأصحاب الأبصار.

أي: إن في ذلك التقليل والتكثير، وغلبة الفئة القليلة من المسلمين للفئة الكثيرة

(١) أخرجه أحمد (١/ ١١٧)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٢٤٧-٢٤٨).

(٢) أخرجه ابن إسحاق. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦١٦-٦١٧)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٢٤٨).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٥/ ٢٥٠)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٣).

من الكافرين اعتبارًا وعظة لأصحاب العقول والبصائر، كما أن في ذلك دلالة على صدق الرسول ﷺ، وأنه على الحق، وتحقيق بشارة المؤمنين بالنصر ووعيد الذين كفروا بأنهم المغلوبون، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران: ١٢].

وهكذا حصل، فقد تم النصر للمسلمين، وغُلب أهل الكفر من اليهود والمشركين وغيرهم، فقتل بنو قريظة، وأجلي بنو النضير، وفتحت خيبر، وأخذت الجزية ممن بقي من اليهود، وتوالت الهزائم على المشركين في معارك الإسلام، وفتحت مكة، وظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا.

الفوائد والأحكام:

١- أن الكفار لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، فلن ترفع ما وقع عليهم من عذاب الله تعالى، ولن تمنع عنهم ما لم يقع، ولا تعوضهم ما فقدوا من رحمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾. وهذا بخلاف المؤمنين فإنهم ينتفعون بأموالهم بالصدقة، وبأولادهم بالدعاء ونحو ذلك وتكون من أسباب رحمة الله تعالى بهم.

٢- إثبات الملكية الخاصة للكفار؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾ فلا يجوز استباحة أموالهم إلا إذا كانوا محاربين للمسلمين.

٣- أن أولاد الكفار ينسبون إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْلَـٰدُهُم﴾.

٤- إمداد الله للكفار بالأموال والأولاد كغيرهم، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

٥- قدرة الله تعالى التامة وقوته التي لا تقهر، ونفوذ أمره فلا تغني الكفار أموالهم ولا أولادهم منه شيئًا.

٦- الحذر من الانشغال بالأموال والأولاد عن طاعة الله تعالى، ومن الاغترار بها فهي قد تضر ولا تنفع.

٧- أن الكفار هم وقود النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾.

٨- التحذير من الكفر والوعيد للكافرين بالنار.

٩- إثبات النار وعذابها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

١٠- سلوك الكفار من هذه الأمة مسلك آل فرعون والذين من قبلهم بتكذيب آيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

١١- تكذيب آل فرعون ومن قبلهم بآيات الله وشدة تكذيب آل فرعون وطغيانهم، للتنصيص عليهم دون غيرهم، كيف؟! وقد ادعى فرعون الربوبية والألوهية.

١٢- إقامة الله- عز وجل- الحجة على الخلق بما آتاهم من الآيات الكونية والشرعية الدالة على ربوبيته وألوهيته وكمال صفاته؛ لقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

١٣- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ بضمير العظمة؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى.

١٤- أخذه- عز وجل- لفرعون وقومه والمكذبين قبلهم بآيات الله، وإهلاكهم بسبب ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وفي هذا رد على من زعم أن فرعون نجا من العذاب مستدلًا بقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: ٩٢].

وليس المراد في هذه الآية أنه نجا من العذاب، وإنما المراد بها أن الله أنجاه ببدنه، أي: بجثته فقط، حيث رمى بها الموج خارج البحر؛ ليتأكد بنو إسرائيل من هلاكه، فيطمئنوا لأنه قد أرعبهم وأرهبهم بجبروته، فلا يكادون يصدقون بأنه هلك حتى يعاينوا جثته، وليكون آية لمن خلفه، أما روحه فهي في العذاب، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

١٥- التهديد والوعيد للمكذبين من هذه الأمة بأخذهم وإهلاكهم بسبب ذنوبهم كالمكذبين من آل فرعون ومن قبلهم.

١٦- تشابه مواقف المكذبين بآيات الله ورسله، كما قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

١٧- أن ما يصيب الناس من عقوبات إنما هو بسبب ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ

﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾، ومفهوم هذا إثبات العدل له- عز وجل- فلا يعاقب أحدًا إلا بذنب، ولا يظلم أحدًا من خلقه.

١٨- إثبات الأفعال الاختيارية للعبد؛ لقوله تعالى: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ فأضاف الذنوب إليهم، وقوله تعالى: ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فأضاف الفعل إليهم، وفي هذا رد على الجبرية الذين ينفون الاختيار للإنسان، ويقولون: إنه كالسعفة في الهواء ونحو ذلك.

١٩- شدة وقوة عقاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

٢٠- التحذير من عقاب الله وشدته.

٢١- أن القرآن من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وفي هذا رد على من يزعمون أن الرسول ﷺ افترى القرآن وتقوله من عند نفسه.

٢٢- أهمية هذا الخبر الذي أمر الله نبيه ﷺ، أن يبلغه للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿قُل﴾.

٢٣- تخويف الكافرين وإرعابهم وإرهابهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾.
وفي هذا بشارة للمؤمنين بالغلبة وتقوية لقلوبهم ومعنوياتهم؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، ووعد الله لا يتخلف إذا صدق المسلمون الله.

٢٤- الوعيد والتهديد للكافرين بجمعهم وحشرهم إلى جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

٢٥- الجمع للكافرين بين عقوبة الدنيا والآخرة؛ عقوبة الدنيا بهزيمتهم وغلبة المؤمنين لهم، وعقوبة الآخرة بجمعهم وحشرهم إلى جهنم.

٢٦- شدة ظلمة النار وجهمتها وحرها، وبعد قعرها؛ لهذا سميت جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

٢٧- ذم جهنم وأنها بئست المهاد والفراش؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

٢٨- ضرب الأمثال والتوجيه لأخذ العبر والعظات من الأمور والأحداث الواقعة؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ الآية.

٢٩- زيادة التصديق والطمأنينة في ربط الخبر والوعيد بحدث وأمر واقع مشاهد محسوس ليجتمع للمخاطب مع علم اليقين- وهو الخبر الصادق- عين اليقين وهو مشاهدة الحدث الواقع؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠]،.

فهو عليه الصلاة والسلام مؤمن مصدق بأن الله يحيي الموتى، ولكنه أراد أن يجمع الله له مع علم اليقين عين اليقين، فيرى ذلك بعينه. وفي الحديث: «ليس الخبر كالعيان»[١].

٣٠- أن القتال المشروع ما كان في سبيل الله، أي في سبيل إعلاء كلمة الله، خالصًا لله تعالى، موافقًا للشرع؛ لقوله تعالى: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٣١- أن الغلبة والنصرة ليس بكثرة العدد والعدة، وإنما ذلك بتأييد الله تعالى ونصره للذين صدقوا الله في القتال في سبيله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ﴾.

كما قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وهكذا كانت الغلبة والنصرة للمؤمنين في عهود الإسلام الزاهرة، وفاءً بوعد الله تعالى بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

أيام كان المسلمون أعزة ... في دينهم والعود صلب المكسر
أيام كان الدين ملء نفوسهم ... وأتوا على كسرى العظيم وقيصر(١)

٣٢- أن ما كان من القتال في غير سبيل الله فهو في سبيل الكفر وأهله، سبيل الطاغوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦].

٣٣- أن الله عز وجل قد يُري المقاتلين من كل فئة الفئة الأخرى مثليهم ليكون ذلك من أسباب نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾.

ولا يعارض هذا قوله تعالى في سورة الأنفال في قصة بدر: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الآية: ٤٤]، فهذا في حال وذاك في حال أخرى.

فعندما عاين كل من الفريقين الآخر رأوهم مثليهم، ليستعد المسلمون ويتوجهوا إلى الله في طلب العون والنصر، وليحصل للكفار الخوف والرعب والوهن. وعندما التحم الفريقان قلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء وهؤلاء في أعين هؤلاء؛ ليقدم كل منهما على الآخر، ويتم ما أراده الله من نصر المسلمين وهزيمة الكافرين، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل.

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾.

قال: هذا يوم بدر. قال عبدالله بن مسعود: وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يُضعِفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلًا واحدًا، وذلك

---

(١) البيتان للشاعر محمد صادق عرنوس، من قصيدة نشرها في صحيفة الفتح، العدد ٢٠٧، بتاريخ ١٤ صفر ١٣٤٩هـ. انظر: «الوحدة الإسلامية في الشعر العربي الحديث» (ص١٦٦). والبيتان فيه بلفظ:

أيام كان المسلمون بحالة ... مرهوبة والعود صلب المكسر
أيام كان الدين ملء قلوبهم ... فأتوا على كسرى العظيم وقيصر

قول الله- عز وجل-: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ [الأنفال: ٤٤]»[1].

وقيل: قللوا في أعين بعضهم أولًا ليجترأ كل منهما على الآخر، ثم لما التحم القتال رأى كل فريق الآخر مثليهم.

٣٤- الإشارة إلى أنه ليس الخبر كالعيان؛ لقوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾.

٣٥- تأييد الله تعالى بنصره من يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

٣٦- إثبات الأفعال لله تعالى، والمشيئة، وأنه تعالى يفعل ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

٣٧- الترغيب في التوجه إلى الله تعالى وسؤاله النصر، والتوكل عليه- مع بذل أسباب النصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

٣٨- أن فيما ذكر من التقاء الفئتين المتقاتلتين، ورؤية إحداهما الأخرى مثليها، وتأييد الله بنصره للفئة المؤمنة القليلة على الفئة الكافرة الكثيرة عبرة وعظة لأصحاب الأبصار والبصائر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

٣٩- أنه لا يعتبر بالوقائع والأحداث إلا أصحاب البصائر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

٤٠- الترغيب في أخذ العبرة والعظة من الوقائع؛ لأن الله أثنى على أهل البصائر وخصهم بالاعتبار، ويفهم من هذا ذم أهل الغفلة وعمي القلوب والبصائر.

* * *

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٢٤٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٦٠٦).

قال الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾.

بيَّن عز وجل في الآيات السابقة أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، ثم أتبع ذلك ببيان أن الأموال والأبناء وغير ذلك، مما ذُكِر في هذه الآية مما زين للناس حبه من الشهوات في إشارة إلى أن كل هذه الأشياء لا تنفع ولا تغني في الآخرة؛ ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾.

قوله: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ ﴿ زُيِّنَ ﴾: مبني لما لم يسم فاعله، و«المزين» هو الله- عز وجل- أي: زين الله للناس كونًا. والتزيين: التحسين، أي: حُسِّن للناس ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [النمل: ٤].

والتزيين: التحسين لما لم يكن حسنًا، أو لم يكن خالص الحسن فتغطى نقائصه بالمزيِّنات.

﴿ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ أي: حب المشتهيات، أي: زين للناس حب المشتهيات، وهي ما تشتهيه النفوس وتتلذذ به حسًّا ومعنًى.

﴿ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ ﴿مِنَ﴾ لبيان الجنس، فقوله: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وما بعده بيان لـ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، فهذه الأشياء السبعة هي أصول الشهوات البشرية والتي تجمع مشتهيات كثيرة، والتي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار والأمصار.

﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بدأ بهن لأنهن من أعظم زينة الدنيا وشهواتها، والفتنة بهن أشد، كما قال ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»(١).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»(٢).

لكن ينبغي أن يعلم أن الميل إلى النساء من حيث الأصل أمر جبلي لتكثير النسل وبقاء النوع الإنساني، بل هو أمر محمود مندوب إليه إذا كان لإعفاف النفس وتكثير الأمة.

ولهذا قال ﷺ: «**تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**»(٣)، وقال ﷺ: «**الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة**»(٤).

وقال ﷺ لعمر رضي الله عنه: «**ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء: المرأة الصالحة، إذا نظر إليها سرّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته**»(٥).

وقال ﷺ: «**ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرًا له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرّته، وإن أقسم عليها أبرّته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله**»(٦)، وقال ﷺ: «**حبب إليّ من دنياكم النساء والطيب**»(٧).

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه: قالوا يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها**

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٦)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٠)، والترمذي في الأدب (٢٧٨٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٨)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٢)- وأخرجه مختصرًا الترمذي في الفتن (٢١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٠).

(٣) أخرجه أبوداود في النكاح (٢٠٥٠)، والنسائي في النكاح (٣٢٢٧)، من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في الرضاع (١٤٦٧)، والنسائي في النكاح (٣٢٣٢)، وابن ماجه في النكاح (١٨٥٥)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنها.

(٥) أخرجه أبوداود في الزكاة (١٦٦٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه ابن ماجه في النكاح (١٨٥٧)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٧) أخرجه النسائي في عشرة النساء (٣٩٣٩)، من حديث أنس رضي الله عنه.

في الحلال كان له أجر»(١). وقال ابن عباس لسعيد بن جبير: «تزوج فإن خير هذه الأمة أكثرها نساء»(٢).

﴿ وَٱلْبَنِينَ ﴾ هذا وما بعده معطوف على ﴿ ٱلنِّسَآءِ ﴾ أي: زين للناس حب الشهوات من النساء، ومن البنين، ومن القناطير المقنطرة... إلخ.

و«البنين» جمع «ابن» يجمع على «بنين» وعلى «أبناء» وهم الذكور من الأولاد، وخص «البنين» لأن بهم كمال الأب وفخره وكرمه وعزه وشرفه، كما قال تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ [المدثر: ١١-١٣] أي: شهودًا وحضورًا عنده يقومون بخدمته ويتقوى بهم ويشرف ويفتخر.

وهذا بخلاف الإناث «البنات»، فإنهم كانوا يتشاءمون بهن، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، ويقول قائلهم: «والله ما هي بنعم الولد نصرها بكاء وبرها سرقة»(٣).

وهذه بلا شك نظرة جاهلية محاها الإسلام وفنَّدها القرآن، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال ﷺ: «**إن النساء شقائق الرجال**»(٤). وكما قيل:

النـاس مـن جهـة التمثيـل أكفـاء ... أبـــوهم آدم والأم حـــواء
فإن يكن لهمو من أصلهم نسب ... يفـاخرون بـه فـالطين والمـاء(٥)

وحب البنين تارة يكون بالتفاخر والتعاظم بهم، وربما التسلط على الآخرين فهو

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٩).
(٣) أخرجه ابن الشجري عن الفراء: أن أعرابيًّا بشربابنة ولدت ، فقيل له: نعم الولد هي. فقال: «والله ما هي بنعم الولد، نصرها بكاء، وبرها سرقة». «أمالي ابن الشجري» (٢/ ٤٠٥)، وانظر: «شرح التسهيل» لابن مالك (٣/ ٥)، «شرح الكافية الشافية» (٢/ ١١٠٢).
(٤) أخرجه الترمذي في الطهارة (١١٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٥) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٢/ ١٠٨).

أمر مذموم وغير محمود، وتارة يكون حبهم لأجل تكثير الأمة ونفع الإسلام والمسلمين، وتهيئة أجيال صالحين ينفعون أنفسهم ووالديهم وأمتهم، وهذا أمر محمود ومندوب شرعًا، لكنه قليل.

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾ جمع «قنطار» وهو: المال الكثير الجزيل، وقيل: ما يزن مائة رطل من الفضة، أو اثنا عشر ألف دينار من الذهب، أو مائة ألف دينار من الذهب، وقيل غير ذلك.

﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ أي: المضاعفة المتكاثرة، كقولهم: «آلاف مؤلفة».

﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ ﴿مِنَ﴾ بيانية، فقوله: ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ بيان للقناطير المقنطرة، وإنما كان الذهب والفضة محبوبين للناس؛ لأنهما ثمن جميع الأشياء، بهما تقدر وتقوَّم جميع الأموال، فالمالك لهما كالمالك لجميع الأشياء.

والمال فتنة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وكلما ازداد وكثر زاد الافتتان به؛ لقوله: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ وقد قال ﷺ: **«فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»**[(١)].

وإذا كان جمع المال بقصد التكثر به والفخر والتعاظم على الناس، وكسبه من أي طريق كان حلالًا أو حرامًا، وصرفه في غير سبله الشرعية فالفتنة به أشد والمصيبة به أعظم.

وبالمقابل فإذا كان حب المال للتعفف به وجعله مطية للآخرة، وإنفاقه في سبيل الله، في القرابات وصلة الأرحام وفي وجوه البر والطاعة ونفع المسلمين مع اكتسابه من حلال، فهذا أمر محمود بل مأمور به شرعًا، ونعم المال الصالح للرجل الصالح.

﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾.

وسميت «خيلًا» من «الخيلاء»؛ لأنها تختال في مشيتها، وتترفع، كأنه يخيل إليها أن لا شيء يساميها. كما أن راكبها قد يبتلى بالخيلاء، لما لها من شأن في رياضة السباق ونحو ذلك.

وقد أقسم الله- عز وجل- بالخيل تعظيمًا لشأنها في الجهاد في سبيل الله، فقال

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠١٥)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦١)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٦٢)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٧)، من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه.

تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: ١-٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وفي الحديث: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**الخيل لثلاثة؛ لرجل أجر، ولرجل ستر، ولرجل وزر**»(٢).

فمن اقتناها وحبسها للجهاد في سبيل الله فهي له أجر وفعله محمود ممدوح، ومن اقتناها وحبسها للدفاع عن نفسه وحرماته فهي له ستر وفعله مباح، ومن اقتناها وحبسها للفخر والخيلاء فهي له وزر وفعله مذموم.

﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ أي: الراعية، التي تُسوَّم أي: تُسرَّح وترسل للرعي، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠]، أي: فيه ترعون أنعامكم. ومنه سميت: «السائمة من بهيمة الأنعام». وفي الحديث: «**فأطال طيلها في مرج أو روضة**»(٣).

ويحتمل أن المراد بـ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلمة المطهمة الحسان، بـ«شياتها، وغررها» في وجوهها وتحجيلها في أيديها وأرجلها.

ولا تزال للخيل مكانة ومحبة عند الناس مع التقدم المذهل في أنواع المراكب برًا وبحرًا وجوًا مما يوحي بأنها ستعود في يوم ما لها مكانتها يوم أن كانت عز أصحابها وفخرهم وحصونهم وآلة قهرهم لأعدائهم في طلبهم وهربهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد- الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٥٠)، ومسلم في الإمارة- فضيلة الخيل وأن الخير معقود بنواصيها (١٨٧٢)، والنسائي في الخيل (٣٥٧٥)، والترمذي في الجهاد (١٦٩٤)، من حديث عروة بن الجعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٦٠)، ومسلم في الزكاة- إثم مانع الزكاة (٩٨٧)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٨).

(٣) هذا جزء من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- السابق.

﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾ جمع «نَعَم» وهي: الإبل والبقر والغنم، زينت للناس لما فيها من المنافع، فمنها ركوبهم وطعامهم وشرابهم وأثاثهم وأمتعتهم وغير ذلك من مصالحهم، قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٥-٧]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [غافر: ٧٩، ٨٠].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٧١-٧٣].

وأغلاها وأنفسها الإبل؛ ولهذا قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**»[1].

واقتناء الأنعام وتربيتها كغيرها من الأموال قد يكون بقصد المفاخرة والتعاظم والمباهاة ونحو ذلك، وربما مع التقصير في حقها وعدم إخراج حق الله فيها فهو مذموم غاية الذم.

وقد يكون اقتناؤها للانتفاع بمنافعها المتعددة مع أداء حقها، وإخراج حق الله في رقابها فهذا أمر محمود، وعمل مشكور لنفعه العام والخاص.

﴿ وَٱلْحَرْثِ ۗ ﴾ أي: حرث الأرض وغرسها وزرعها واستخراج الأقوات منها للناس والدواب، وهي كغيرها من الأموال إن قصد بها التكثر والتفاخر، وربما منع حق الله فيها، لا يمدح صاحبها. وإن قصد بذلك التعفف ونفع المسلمين، والبذل منها في سبيل الله، فذلك أمر محمود بل مطلوب شرعًا.

فهذه الأشياء السبعة مما زين للناس حبه، وكذا غيرها لحكم بالغة عظيمة، منها: بناء هذا الكون وعمارته، ومنها ابتلاء وامتحان العباد، ليتميز من ينشغل منهم بذلك

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٤٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠٦)، وأبوداود في العلم (٣٦٦١)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

عما خلق له من عبادة الله تعالى وطاعته، ممن يتوازن فيعمل لما خلق له ولا ينس نصيبه من الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]؛ ولهذا قال:

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الإشارة إلى ما ذكر في الآية، أي: ذلك المذكور مما زين للناس من حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. وأشار إليها بإشارة البعيد تحقيرًا لها بالنسبة لنعيم الآخرة.

و﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ما يتمتع ويتبلغ به في هذه الحياة، ثم يزول.

أي: أن هذه الأشياء مما يتمتع به في هذه الحياة الدنيا ثم تزول أو يزول الإنسان عنها، فلا هي تبقى للإنسان، ولا هو يبقى لها.

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته   يبقى الإله ويفنى المال والولد(١)

وقال الآخر:

تعز فلا شيء على الأرض باقيًا   ولا وزر مما قضى الله واقيا(٢)

و﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هي هذه الدار التي نحن فيها، وسميت دنيا؛ لأنها قبل الآخرة من حيث الزمن، فهي الدار الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥].

وسميت «دنيا» أيضًا؛ لأنها دنيئة حقيرة، لا قيمة لها بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الحديد: ٢٠]، وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى**

---

(١) البيت ينسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر: «الإمتاع والمؤانسة» (ص٣٤٧)، «العمدة في محاسن الشعر» (١/ ٣٤).

(٢) البيت لم ينسب لقائل. انظر: «أوضح المسالك» (١/ ٢٧٥)، «المغني» للسيوطي (٢/ ٦١٢).

كافرًا منها شربة ماء»[١]، وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء؟ فقال: «**مالي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم راح وتركها**»[٢]، وقال ﷺ: «**وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها**»[٣].

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ ختم الله- عز وجل- الآية بهذا الختام لبيان أنه لا ينبغي أن يؤثر الإنسان ما زين للناس من متاع الحياة الدنيا على ما أعدّه الله- عز وجل- لأوليائه في الآخرة من المآل الحسن والثواب العظيم.

و﴿حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ أي: حسن المرجع والجنة والثواب، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم- كما فسر ذلك رسول الله ﷺ[٤].

ويكفي في حسن هذا المآب أنه عند الله عز وجل، فهو منه وبجواره، لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين، الذين عملوا لهذا المآل، ولم ينشغلوا بما زين من متاع الحياة الدنيا، وهو ما فسره بقوله تعالى:

﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾.

أخبر عز وجل في الآية السابقة أن عنده سبحانه حسن المآل، ثم أتبع ذلك بشيء من التفصيل والبيان لهذا المآل الحسن.

قوله: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾ الأمر للنبي ﷺ ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾، أي: أخبركم، و«النبأ» هو الخبر الهام، كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١، ٢]؛ ولهذا

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٠)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. وقال الترمذي: «صحيح غريب».

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٧٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٠٩) وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٢)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٨)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٤) سيأتي تخريجه قريبًا.

صدر هنا بهمزة الاستفهام الدال على الاهتمام والتنبيه والتشويق، أي: أأخبركم.

﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ الإشارة للمشار إليه في الآية السابقة، وهو ما زين للناس من متاع الحياة الدنيا الزائل، والخطاب لجميع الناس.

والمعنى: قل يا محمد: أأخبركم ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور خيرية مطلقة، وأشار إليه بإشارة البعيد تحقيرًا له.

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾: خبر مقدم، و﴿جَنَّاتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، وقدم الخبر على المبتدأ لإفادة الحصر، أي: للذين اتقوا خاصة جنات.

أي: للذين اتقوا الله- عز وجل- بفعل أوامره وترك نواهيه، فجعلوا بهذا العمل بينهم وبين عذاب الله وقاية.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في هذا تعظيم لما أعد لهم من ثلاثة أوجه: الأول: أنه من ربهم عز وجل العظيم أكرم الأكرمين، والعطاء يكون على قدر المعطي؛ ولهذا لا أحد يقدر قدر ما أعد عنده سبحانه لهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وفي الحديث القدسي يقول عز وجل: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»(١).

الوجه الثاني: أنه عند ربهم، بالقرب منه، فنعم القرب، ونعم الجوار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

الوجه الثالث: أنه قال: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فأضاف العندية إلى «الرب» الذي: معناه الخالق المالك المتصرف، المربي لعباده بجميع النعم، ذو العناية التامة بهم، ومربيهم بربوبيته الخاصة؛ ولهذا أضاف اسم «الرب» إلى ضميرهم تشريفًا وتكريمًا لهم.

﴿جَنَّاتٌ﴾ «جنات» جمع «جَنة» وأصل الجنة البستان، سمي بذلك لأنه يجن

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويستر من بداخله بأشجاره وثماره الملتفة.

والمراد بها في الآية البساتين والمنازل التي أعدها الله للمتقين، مما لا تقاس به بساتين الدنيا ومنازلها، أي: لهم جنات كثيرة متعددة ومتنوعة، كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢].

وقال ﷺ: «**جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن**»(١).

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ«جنات» لأن الجمل بعد النكرات صفات.

أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [محمد: ١٥].

وهي تجري بغير أخدود يصرفها أهل الجنة حيث شاؤوا. قال ابن القيم(٢):

أنهارها في غير أخدود جرت ⁂ سبحان ممسكها عن الفيضان

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، فلا هي تفنى، ولا هم يخرجون منها.

وقال ﷺ: «**ينادي منادٍ إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبدًا، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]**»(٣).

﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾: معطوف على ﴿جَنَّٰتٌ﴾، أي: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾ ولهم «أزواج مطهرة»، وعطفها على ﴿جَنَّٰتٌ﴾ لاختلاف أنواع التلذذ، وهو أشبه بعطف

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير- قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ (٤٨٧٨)، ومسلم في الإيمان (١٨٠)، من حديث عبدالله بن قيس رضي الله عنه.

(٢) «النونية» (ص٢٢٩).

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها- دوام نعيم أهل الجنة (٢٨٣٧)، والترمذي في التفسير (٣٢٤٦)، من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

الخاص على العام؛ لأن التمتع بالأزواج من أعظم نعيم الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾ [يس: ٥٥، ٥٦].

وهذه الأزواج المطهرة من أزواجهم في الدنيا، ومن الحور العين.

ومعنى ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: مطهرة خلْقًا وخُلُقًا، أي: مطهرة من النجاسات الحسية، كالحيض والنفاس والبول والغائط والمني والمخاط وسائر الأدناس ونحو ذلك.

ومن الأرجاس المعنوية، كالغل والحقد والحسد والغيرة والفحش وسوء الخلق، ونحو ذلك.

﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: معطوف على ﴿جَنَّٰتٌ﴾ فذكر أولًا الجنات وهي المنازل والمساكن وما فيها من أنواع النعيم الحسي ومن ذلك الأزواج المطهرة، ثم أتبع ذلك بذكر ما هو أعظم من ذلك كله وهو النعيم المعنوي الروحي وهو: «رضوان الله عليهم».

قرأ أبوبكر عن عاصم بضم الراء: «ورُضوان»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «ورضوان منه» بل قال: ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾؛ لتعظيم ذلك الرضوان، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، أي: ورضوان من الله تعالى عليهم، فلا يسخط عليهم أبدًا، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»(١).

وأعظم من ذلك كله النظر إلى وجه الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى: الجنة، والزيادة: هي النظر إلى وجه الله الكريم، كما قال ﷺ(٢).

وعن صهيب- رضي الله عنه- قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى:**

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق- صفة الجنة والنار (٦٥٤٩)، ومسلم في الجنة صفة نعيمها وأهلها- إحلال الرضوان على أهل الجنة (٢٨٢٩)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٥)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٨١)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٢)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٧)، من حديث صهيب رضي الله عنه.

تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»[١].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: والله مطلع على العباد، خبير بهم لا يخفى عليه منهم خافية.

والمراد بالعبودية هنا العبودية العامة: عبودية الخلق والملك والتدبير، فهو بصير بالعباد كلهم يعلم من آثر الشهوات ومتاع الحياة الدنيا، ومن اختار الآخرة وما فيها من ألوان النعيم، يوفق من شاء بفضله، ويخذل من شاء بعدله، ويجازي كلًّا بعمله. وفي هذا وعد لمن اتقى الله ووعيد لمن خالف أمره وعصاه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

هاتان الآيتان وصف ونعت للذين اتقوا في قوله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ﴾ يا ربنا ﴿إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أي: صدقنا بألسنتنا وقلوبنا بك يا ربنا وبكتبك ورسلك، وبكل ما يجب الإيمان به، وانقدنا بجوارحنا لشرعك.

وقد أكَّدوا هذا بـ«إنَّ»، ودعوا الله عز وجل وتوسلوا إليه باسم الربوبية الذي مقتضاه العناية والرعاية، والذي كان به جل دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين.

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ الفاء: عاطفة سببية، فتوسلوا إلى الله بإيمانهم، أي: بسبب إيمانهم أن يغفر ذنوبهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود: ١١٤].

والمعنى: استر ذنوبنا وتجاوز عنها، والذنوب هي السيئات والمعاصي كبيرها وصغيرها.

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته، كما في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - في المناجاة: «**أن الله تعالى يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه،**

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٨١)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٢)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٧).

فيقرره بذنوبه، فيقول: أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقول الله تعالى: أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك»[١].

ومنه سمي المغفر وهو «البيضة» التي توضع على الرأس في القتال تستره وتقيه السهام وحيث اجتمع سؤال المغفرة والتوبة، فتبدل سيئاتهم حسنات، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٧٠].

قوله: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي: اجعل لنا وقاية من عذاب النار، بتوفيقنا للعمل الصالح، والبعد عن العمل الذي يوجب عذاب النار، وبالعفو عما يقع منا من نقص أو تفريط، وإنما خصوا مسألتهم بالمغفرة لذنوبهم ووقايتهم عذاب النار؛ لأن من غفرت ذنوبه، وزحزح عن النار فقد فاز، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وليس ثمة دار غير الجنة والنار فمن وقي عذاب النار فمآله الجنة دار الأبرار.

المـوْتُ بـابٌ وكـلّ النـاسِ داخِلُـهُ ... يا ليْتَ شعرِيَ بعدَ البابِ ما الدَّارُ
الـدَّارُ جنَّـةُ عـدن إنْ عمِلـتَ بِـمَا ... يُـرْضِي الإلَـهَ، وإنْ فَرَّطـت، فالنّـارُ
همـا محـلان مـا للنـاس غيرهمـا ... فـاختر لنفسـك مـاذا أنـت تختـار[٢]

قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

هذا- كما سبق- من نعت ووصف «الذين اتقوا».

قوله: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الصابرين: جمع «صابر» أي: الصابرين على فعل الطاعات وترك المحرمات وعلى أقدار الله.

والصبر لغة: الحبس، وهو حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الأبيات لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص١٤١).

وهو أنواع ثلاثة: أعظمها وأفضلها: الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله المؤلمة(١).

﴿وَٱلصَّـٰدِقِينَ﴾: معطوف هو وما بعده على ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

و«الصادقين» جمع «صادق» والصدقة موافقة الباطن للظاهر، ومطابقة الخبر للواقع، والصدق يكون أولًا مع الله تعالى، كما يكون مع النفس، ويكون مع الخلق. أي: والصادقين مع الله في الإيمان باطنًا وظاهرًا، والإخلاص لله- عز وجل- والمتابعة لشرعه، وفعل أمره واجتناب نهيه.

والصادقين مع أنفسهم بالاجتهاد بطلب سعادتها ونجاتها وخلاصها، وعدم تعريضها لعذاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال ﷺ: **«كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»**(٢).

قال الشاعر:

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... فكن طالبًا في الناس أعلى المراتب(٣)

وقال الآخر:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ... هوانًا بها كانت على الناس أهونا(٤)

والصادقين مع الخلق في تعاملهم معهم قولًا وفعلًا وأداءً لحقوقهم.

والصدق يكون بالأقوال، بأن يَصدق الإنسان فيما يقول وفيما يخبر به عن أمر وقع، ومنه الشهادة ونحو ذلك، فيكون قوله في هذا مطابقًا للواقع، فيخبر بالخبر حقًا- كما رأى أو سمع، ويؤدي الشهادة حقًا كما تحملها، وهكذا.

ويكون الصدق بالأقوال أيضًا: بما يتحمله المرء ويلتزم به في المستقبل من عمل أو وعد أو عهد ونحو ذلك، فيتبع القول بالعمل والوعد والعهد بالوفاء، وقد قال الله-

---

(١) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [الآية: ٤٥].

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) البيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص١٥).

(٤) البيت مجهول النسبة. انظر: «أدب الدنيا والدين» (ص٣٢٠)، «الدر الفريد» (٢/ ٣٦٧).

عز وجل- معاتبًا المؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣].

وقال ﷺ في ذم أهل النفاق: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»(١).

والصدق يكون بالأفعال بأن يكون ما يفعله المرء من أفعال ظاهرة موافقًا لما يقوله، ولما في باطنه، فلا يظهر الإيمان بأفعاله وهو يبطن الكفر، ولا يظهر المسكنة وهو غني، ولا يظهر المودة والمحبة وهو يضمر العداوة والبغضاء ونحو ذلك.

والصديقية مرتبة عظيمة تلي مرتبة النبوة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ ﴾ [النساء: ٦٩].

ولهذا قال ﷺ: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا**»(٢).

ومنه سميت مريم- عليها السلام- «صديقة»، قال تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ ﴾ [المائدة: ٧٥].

ومنه سمى أبوبكر- رضي الله عنه- «الصديق»؛ لأنه أول مَن آمن بالنبي ﷺ وصدَّقه من الرجال.

﴿ وَٱلۡقَٰنِتِينَ ﴾ جمع «قانت» والقنوت: دوام الطاعة والخشوع والخضوع لله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ ﴾ [الزمر: ٩]، أي: مديم الطاعة خاشعًا خاضعًا. وقال تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، أي: خاشعين خاضعين لله، غير

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣)، ومسلم في الإيمان (٥٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٢١)، والترمذي في الإيمان (٢٦٣١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة- ما ينهى عنه من الكلام في الصلاة (١٢٠٠)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة- تحريم الكلام في الصلاة (٥٣٩)، وأبوداود في الصلاة (٩٤٩)، والنسائي في السهو (١٢١٩)، والترمذي في الصلاة (٤٠٥)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

متكلمين في الصلاة بغير ما شرع فيها.

كما قال زيد بن أرقم رضي الله عنه: «كنا نتكلم في الصلاة على عهد النبي ﷺ يكلم أحدنا صاحبه بحاجته، حتى نزلت: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت»(١).

﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ جمع «منفق» والمنفق: مَن بذل النفقة. والنفقة والإنفاق: بذل المال وإخراجه.

وهو نوعان: محمود يمتدح صاحبه، وهو الإنفاق المشروع، وهو المراد هنا، أي: ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ النفقات المشروعة، الواجبة والمستحبة، بإخراج الزكاة والنفقة على الأهل والأولاد، والصدقات في سبيل الله، وأبواب البر، وطرق الخير، من غير إسراف ولا تقتير، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

والنوع الثاني من الإنفاق مذموم يذم صاحبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: ٣٦].

﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ «المستغفرين» جمع مستغفر، والاستغفار: طلب مغفرة الذنوب، أي: الذين يصلون في الأسحار ويطلبون من الله مغفرة ذنوبهم بسترها والتجاوز عنها.

﴿بِٱلْأَسْحَارِ﴾ الباء هنا ظرفية بمعنى «في»، أي: في الأسحار، و«الأسحار» جمع «سحر» وهو آخر الليل، الذي هو وقت النزول الإلهي، وإجابة الدعاء.

كما قال ﷺ: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: مَن يدعوني فأستجيب له، مَن يسألني فأعطيه، مَن يستغفرني فأغفر له؟**»(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٤٥)، ومسلم في صلاة المسافرين- الترغيب في الدعاء والذكر من آخر =

فامتدحهم بالاستغفار في هذا الوقت وهو وقت السحر، وفي هذا ثناء عليهم من وجهين، الأول: التماسهم لاستغفارهم وقت النزول الإلهي إلى السماء الدنيا، ووقت إجابة الدعاء.

والثاني: الإشارة إلى أنهم يتهجدون ويقومون الليل ويختمون بالاستغفار بعد الفراغ من قيام الليل، كما قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

وقد شرع الاستغفار بعد الانتهاء من العبادة؛ بعد الصلاة، وبعد الحج ونحو ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- تزيين حب الشهوات من النساء للناس كونًا، وكذا حب البنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث؛ لقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾.

٢- حكمة الله تعالى البالغة في تزيين هذه الأشياء السبعة المذكورة للناس وغيرها لبناء هذا الكون وعمارته.

٣- ابتلاء الله تعالى للناس في تزيين الأشياء المذكورة وغيرها من متاع الدنيا لهم ليتبين من لا يشغله ذلك عن عبادة الله تعالى، بل يستغل ذلك ويستعين به على طاعة الله تعالى، ممن يشغله ذلك أو يجره إلى معصية الله تعالى.

٤- أن محبة ما ذكر في الآية على وجه لا يشغل عن طاعة الله تعالى أمر مباح، كما قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، وقال ﷺ: «**حبب إليَّ من دنياكم النساء والطيب**»[١].

٥- الحذر من الافتتان بالشهوات من النساء والبنين والأموال، وغير ذلك مما ذكر في الآية وغيره، والانشغال بذلك عن طاعة الله تعالى.

=

الليل والإجابة فيه (٧٥٨)، وأبوداود في الصلاة (١٣١٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٦٦).

(١) سبق تخريجه.

٦- أن من أعظم ما تحصل به الفتنة، ويشغل عن طاعة الله تعالى النساء والأبناء والأموال، لهذا قدمت في الآية، وقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ ﴾ [التغابن: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ ﴾ [التغابن: ١٥].

والأولاد يشمل الأبناء والبنات. عن يعلى العامري- رضي الله عنه- قال: جاء الحسن والحسين يسعيان إلى النبي ﷺ فضمهما إليه، وقال: «**إن الولد مبخلة مجبنة**»[١]. وقال ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء**»[٢].

٧- تقديم كثير من الناس محبة الأبناء- غالبًا- على محبة البنات، والتفاخر والتعاظم بهم؛ لهذا خص البنين بالذكر دون البنات. والخير فيما يختاره الله، وصدق الله العظيم: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ١٩].

ويكفي البنات فخرًا أن جل نسل الأنبياء عليهم السلام بنات، وأنهن حجاب لوالديهن من النار[٣]، وأنهن سبب لمرافقته النبي في الجنة[٤].

٨- أن المال كلما كثر ازدادت الفتنة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ﴾، وفي الحديث: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديًا ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»[٥].

(١) أخرجه ابن ماجه في الأدب (٣٦٦٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في «الزكاة» (١٤١٨)، ومسلم في «البر والصلة» (٢٦٢٩)، والترمذي في «البر والصلة» (١٩١٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه مسلم في «البر والصلة» (٢٦٣١)، والترمذي (١٩١٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة (١٤٨)، من حديث أنس رضي الله عنه.

٩- أن مما يزين للناس اقتناء الخيل وركوبها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ وهي كما قال ﷺ: «**لرجل أجر، ولرجل ستر، ولرجل وزر**»[1].

١٠- أن مما زين للناس اقتناء الأنعام، الإبل والبقر والغنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وذلك إما بقصد الاستفادة من نتاجها أو للاتجار بها وهذا أمر مباح بل مشروع لما فيه من نفع عام ما لم يؤد إلى الفتنة بالمال.

وقد يكون اقتناؤها لأجل المفاخرة والمباهاة بها، كما هو حال أهل مزايين الإبل- كما يقولون- الذين يشترون الفحل أو الناقة بعشرات الملايين، وكما هو حال الذين يشترون «التيس» وهو ذَكَر المعز بمئات الآلاف، ممن يحتاجون إلى «درة» عمر بن الخطاب- رضي الله عنه.

١١- أن مما يزين للناس حرث الأرض وزرعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾.

وهذا فيه أيضًا نفع عام ما لم يؤد بصاحبها إلى الانشغال عن طاعة الله تعالى والافتتان في الدنيا.

١٢- أن كل ما ذكر في الآية مما زين للناس من حب الشهوات من النساء والبنين وغير ذلك هو مجرد متاع في هذه الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٣- التزهيد في التعلق بما ذكر مما زين للناس، والترغيب في الانشغال بما ينفع؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. فهو إما أن يزول عن الإنسان أو يزول عنه الإنسان.

١٤- حقارة الحياة الدنيا ودناءتها؛ لهذا سميت «دنيا»؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فهي دنيئة حقيرة لا قيمة لها بالنسبة للآخرة. لكنها أيضًا مزرعة للآخرة لمن وفقه الله تعالى.

١٥- أن الله- عز وجل- عنده حسن المآل والمرجع، وهو الجنة، مما هو خير من الدنيا وزينتها ومتاعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ فلا ينبغي الانشغال بالدنيا وما فيها عما عند الله تعالى.

١٦- أن القرآن الكريم كلام الله- عز وجل- أمر نبيه محمدًا ﷺ تبليغه للناس؛ لقوله

---

(١) سبق تخريجه.

تعالى: ﴿قُلْ﴾.

١٧- بلاغة القرآن الكريم باختيار أسلوب التنبيه والتشويق في الدعوة؛ لقوله تعالى: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾.

١٨- أن ما عند الله- عز وجل- للذين اتقوا من جنات تجري من تحتها الأنهار، وأزواج مطهرة، ورضوان الله عليهم خير من الدنيا وزينتها ومتاعها الزائل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾.

١٩- أن المفاضلة قد ترد بين أمرين بينهما في الفضل بون شاسع وفرق واسع، فقد فاضل هنا بين زينة الدنيا ومتاعها، وبين ما أعد للذين اتقوا عند ربهم من الجنات وما فيها من ألوان النعيم. وشتان بين هذا وهذا.

شتان بين الحالتين فإن ترد ... جمعًا فما الضدان يجتمعان(١)

كما أن المفاضلة قد ترد بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل، كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

٢٠- تشريف المتقين وتكريمهم بإضافة اسم «الرب» إلى ضميرهم؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٢١- عظم ما للذين اتقوا عند ربهم، فهم في جوار ربهم الكريم، ولهم جنات تجري من تحتها الأنهار فيها من ألوان النعيم، وأزواج مطهرة، ورضوان من الله أكبر، وأعظم بهذا من نعيم، ويكفي في عظمته أنه من ربهم الكريم ذي الفضل العظيم، وعنده، وفضل التقوى والترغيب فيها؛ لعظم ما خص به المتقين من الثواب العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الآية.

٢٢- إثبات صفة الرضا لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ والرضا من الصفات الفعلية المتعلقة بالمشيئة.

---

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» (ص١١).

٢٣- اطلاع الله- عز وجل- وبصره وعلمه بالعباد وأعمالهم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾.

٢٤- حكمة الله- عز وجل- الكونية في كون العباد منهم المتقي ومنهم خلاف ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾.

٢٥- الوعد لمن اتقى الله والوعيد لمن خالف أمر الله وعصاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾.

فمعنى هذا ومقتضاه أنه محيط بهم وبأعمالهم وسيحاسبهم ويجازيهم عليها.

٢٦- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى التقي منهم وغيره، عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣].

٢٧- ثناء الله- عز وجل- على المتقين وامتداحه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾.

٢٨- أن من أهم وأعظم صفات المتقين سؤال الله تعالى مغفرة ذنوبهم ووقايتهم عذاب النار؛ اعترافًا منهم بتقصيرهم، وبعدًا عن الإدلاء على الله بعملهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

٢٩- دعاء المتقين في طلبهم المغفرة من ربهم بوصف الربوبية الذي مقتضاه العناية بعباده؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ الآية.

٣٠- توسل المتقين في سؤالهم المغفرة من ربهم بإيمانهم إقرارًا منهم واعترافًا بعبوديتهم لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ الآية.

٣١- جواز التوسل بالإيمان والأعمال الصالحة؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ الآية.

وكما في حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، فقال بعضهم: «إنه لا نجاة لكم مما أنتم فيه إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي

أبوان شيخان كبيران- الحديث. وفيه «ففرَّج الله عنهم وخرجوا يمشون»[١].

٣٢- حاجة الإنسان مهما كان عليه من التقى إلى سؤال الله تعالى المغفرة والوقاية من عذاب النار، فالإنسان لا يخلو من تقصير ونقص، وعمله مهما كثر لا يعدل شيئًا من نعمة الله تعالى عليه، ولا أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى وفضله.

٣٣- مشروعية البسط في الدعاء تعظيمًا لله- عز وجل- وتقربًا إليه وخضوعًا بين يديه، وإظهارًا للافتقار إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ فسؤال مغفرة الذنوب متضمن طلب الوقاية من عذاب النار، ولم يكتفوا به، بل قالوا: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. لكن ينبغي أيضًا الحرص على جوامع الدعاء مما ورد في الكتاب والسنة وسلف الأمة والبُعد عن التكلف والاعتداء في الدعاء.

٣٤- إثبات النار وعذابها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

٣٥- أن من صفات المتقين: الصبر، والصدق، والقنوت، والإنفاق، والاستغفار بالأسحار؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

٣٦- الترغيب بالاتصاف بهذه الصفات السبع التي امتدح الله بها المتقين، من سؤال مغفرة الذنوب، والوقاية من عذاب النار، والصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار بالأسحار، ومفهوم ذلك ذم من اتصف بضد هذه الصفات.

٣٧- فضل الصبر على ما ذكر بعده من الصفات لتقديمه عليها، وذلك لأنه لا قيام لها إلا به.

٣٨- فضل الصدق؛ لأن الله امتدح المتصفين به؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾.
وهو يشمل الصدق مع الله تعالى في الإيمان به باطنًا وظاهرًا، والانقياد لشرعه.
والصدق مع النفس بطلب خلاصها، ونجاتها، والصدق مع الخلق في الحديث وأداء حقوقهم.

(١) أخرجه البخاري في المزارعة (٢٣٢٣)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٣)، وأبوداود في البيوع (٣٣٨٧)، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

وهو من أفضل الأعمال، يهدي إلى البر ويرفع صاحبه إلى منزلة الصديقين، بسببه خلد الله ذكر الثلاثة الذين خلفوا في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٨، ١١٩].

٣٩- فضل القنوت ودوام الطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ وفي الحديث: «**إن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**»[(١)].

٤٠- فضل الإنفاق في وجوه البر والخير المشروعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾. وفي الحديث: «**اليد العُليا خير من اليد السُفلى**»[(٢)].

٤١- فضل أوقات السحر وفضل الاستغفار فيها حيث وقت النزول الإلهي، وإجابة الدعاء، وختام القيام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

***

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٦٤)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨٢)، وأبوداود في الصلاة (١٣٦٨)، والنسائي في القبلة (٧٦٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٨)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٣١)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٣)، من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

قوله ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾: الشهادة تكون بالقول والإخبار والإعلام، وتكون بالفعل، أي: شهد الله بقوله وإخباره وإعلامه لخلقه بما أنزل في كتبه وعلى ألسنة رسله أنه لا معبود بحق إلا هو، المتفرد بالألوهية لجميع الخلق، وكلهم عبيده.

وبذلك قضى وحكم، كما قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل:٥١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة:٥]، وقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ [الأنبياء:٢٤]، وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الإسراء:٢٢]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الشعراء:٢١٣].

وشهد- عز وجل- بفعله أنه لا معبود بحق إلا هو بما نصَّبه من الأدلة الدالة على وحدانيته التي تُعلم دلالتها بالعقل والفطرة، من خلق السموات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والإنسان والحيوان والنبات.. وغير ذلك؛ فهو سبحانه وتعالى بخلقه لها ونصبها دلائل على وحدانيته قد شهد وأبان بها أنه لا إله إلا هو.

كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ

أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وشهادة الرب وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة، وبفعله تارة. فالقول هو ما أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، وأوحاه إلى عباده، كما قال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل:٢].

وأما شهادته بفعله فهو: ما نصَّبه من الأدلة على وحدانيته التي تُعلم دلالتها بالعقل، وإن لم يكن هناك خبر عن الله، وهذا يُستعمل فيه لفظ الشهادة والدلالة والإرشاد، فإن الدليل يبين المدلول عليه ويُظهِره، فهو بمنزلة المخبر به، الشاهد به.

كما قيل: سل الأرض من فجَّر أنهارها، وغرس أشجاها، وأخرج ثمارها، وأحيا نباتها، وأغطش ليلها، وأوضح نهارها، فإن لم تُجِبكَ حِوارًا، أجابتك اعتبارًا.

وهو سبحانه شهد بما جعلها دالة عليه، فإن دلالتها إنما هي بخلقه لها، فإذا كانت المخلوقات دالة على أنه لا إله إلا هو سبحانه الذي جعلها دالة عليه، فإن دلالتها إنما هي بخلقه، وبيَّن ذلك؛ فهو الشاهد المبيِّن أنه لا إله إلا هو، وهذه الشهادة الفعلية ذكرها طائفة.

قال ابن كيسان: «شهد الله بتدبيره العجيب، وأموره المحكمة عند خلقه أنه لا إله إلا هو»[1].

وقد ذكر ابن القيم أن للشهادة أربع مراتب، قال:

«فأول مراتبها: علم ومعرفة واعتقاد لصحه المشهود به وثبوته، وثانيها: تكلمه بذلك ونطقه به- وإن لم يُعلِم به غيره، بل يتكلم هو به مع نفسه، ويذكرها وينطق بها، أو يكتبها، وثالثها: أن يُعلِم غيره بما شهد به ويخبره به ويبينه له، ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به»، ثم قال: «فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربعة: علم الله سبحانه بذلك وتكلمه به، وإعلامه، وإخباره خلقه به، وأمرهم وإلزامهم به»[2].

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (١/ ٢٨٨- ٢٨٩).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٥٣).

﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: أنه لا معبود حق إلا هو، فكل ما عُبِد من دون الله فهو باطل، كما قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:٢١-٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: معطوف هو و﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ على لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، أي: وشهد الملائكة أنه لا إله إلا هو. قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: وشهد أولوا العلم، أي: أصحاب العلم بالله- عز وجل- وشرعه، وما يجب له- عز وجل-: أنه لا إله إلا هو، بإقرارهم بذلك، وبيانهم وإعلامهم بذلك غيرهم.

﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾: حال، أي: شهد الله أنه لا إله إلا هو حال كونه قائمًا بالقسط- كما شهد الملائكة أولوا العلم أنه لا إله إلا هو حال كونه قائمًا بالقسط، أي: قائمًا بالعدل، قولًا وفعلًا وإخبارًا وحُكمًا به وأمرًا.

فشهد سبحانه أنه لا إله إلا هو ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾ أي: متكلمًا بالعدل، مخبرًا به، حاكمًا به، آمرًا به، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

وقال هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦]، وقال تعالى في مثل ضربه لنفسه ولما يُشرك به من الأوثان: ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:٧٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

فخلقه- عز وجل- السموات والأرض بالعدل، وعبادته وحده دون غيره حقيقة العدل، وجزاؤه المؤمنين بالجنة، والكافرين بالنار عدل.

قال ابن القيم[(١)]: «فتضمنت هذه الآية أجلّ شهادة، وأعظمها، وأعدلها، وأصدقها، من أجل شاهد، بأجل مشهود».

فهو سبحانه خير الشاهدين، وأصدق القائلين، وشهادته على وحدانيته وعلى قيامه بالقسط أكبر وأعظم شهادة، وتوحيده أعدل العدل، والشرك به أظلم الظلم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:١٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٤٣].

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: شهد عز وجل أولًا لنفسه أنه (لا إله إلا هو)، كما شهدت بذلك الملائكة وأولوا العلم، وحكم ثانيًا أنه (لا إله إلا هو) فشهد بذلك أولًا، وحكم به ثانيًا، وأكده وأمر به.

ففي الأولى شهادته- عز وجل- وإخباره أن (لا إله إلا هو)، وفي الثانية حكمه وتأكيد أنه (لا إله الا هو)، وفي ذلك كله تعليم عباده، وأمرهم بالشهادة بذلك واعتقاده وعبادته وحده دون سواه.

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿الْعَزِيزُ﴾: من أسماء الله- عز وجل- يدل على أنه ذو العزة التامة، و«الحكيم»: اسم من أسمائه- عز وجل- يدل على أنه سبحانه ذو الحكم التام، وذو الحكمة البالغة[(٢)].

قال ابن القيم[(٣)]: «فتضمنت هذه الآية وهذه الشهادة وحدانيته المنافية للشرك، وعدله المنافي للظلم، وعزته المنافية للعجز، وحكمته المنافية للجهل والعيب».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾.

قوله ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾: قرأ الكسائي بفتح الهمزة «أنَّ»، وقرأ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٥٢).

(٢) انظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩].

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٦٣).

الباقون بكسرها ﴿إِنَّ﴾.

فعلى قراءة فتح الهمزة تكون الجملة عطف بيان؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، يعني: شهد الله أنه لا إله إلا هو وأن الدين عند الله الإسلام، وعلى قراءة كسر الهمزة تكون الجملة مستأنفة.

و﴿ٱلدِّينَ﴾: الملة والشرعة، قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف:٧٦].

﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾: أي إن الدين المقبول، المرضي عند الله هو الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ صيغة حصر، أي: الدين الذي لا دين عند الله سواه.

﴿ٱلْإِسْلَٰمَ﴾: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، وهو الدين الذي بعث الله به جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم؛ ولهذا قال أول الرسل نوح عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢]، وقال إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]، وقال يعقوب لبنيه عند الموت: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣]، وقال موسى عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤].

وقال تعالى عن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة:٤٤]، وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢]، وقالت ملكة سبأ: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

وقال تعالى مخطابًا لهذه الأمة: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

ولما خُتمت الأديان بشريعة محمد ﷺ صار الإسلام علمًا بالغلبة على ما جاء به محمد ﷺ، فلا يقبل بعد بعثه من أحد سواه؛ لنسخه لجميع الأديان السابقة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

والإسلام إذا أطلق وأفرد يشمل جميع شرائع الدين الظاهرة، وجميع عقائده الباطنة، فيشمل أركان الإسلام الخمسة.

وفي حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: **«بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا»**(١).

وكذا أركان الإيمان الستة، كما في حديث: **«الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»**(٢).

وكذا كل ما أمر الله به من التوكل على الله، وخوفه، ورجائه، وبر الوالدين، وصلة

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٨)، ومسلم في الإيمان (١٦)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠١)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٩).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٨)، وأبوداود في سننه (٤٦٩٥)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦١٠)، وابن ماجه في المقدمة (٦٣)، من حديث عبدالله بن عمر عن أبيه عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما.

الأرحام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.. وغير ذلك، سواء كان ذلك الأمر واجبًا أو مندوبًا.

كما يشمل ذلك ترك كل ما نهى الله عنه من الكفر والشرك، والقتل العمد، والربا، وأكل مال اليتيم، والسحر، والكذب والفجور وقول الزور، والغيبة والنميمة، وغير ذلك.

قوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾: في هذا تقرير وتأكيد لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، وأن هذا هو الذي كان عليه الناس، وعليه أجمعت الأمة، ثم طرأ الاختلاف بما حصل من أهل الكتاب من اختلاف من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم.

قوله ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم: اليهود والنصارى.

سُمُّوا أهل الكتاب؛ لأن لهم كتبًا بقيت إلى بعثة النبي ﷺ- وإن كانت محرفة.

أي: وما وقع الاختلاف بين أهل الكتاب في أديانهم وفي دين الإسلام، فاختلف اليهود مع النصارى، واختلف أهل كل ملة منهم فيما بينهم، واجتمعوا على مخالفة الإسلام، وحذف متعلق الاختلاف ليشمل هذا كله.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾«إلا»: أداة حصر، و«ما»: مصدرية، أي: إلا من بعد مجيء العلم إليهم، أي: إلا من بعد مجيء الوحي من الله تعالى إليهم في كتبه، وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام.

أي: إلا من بعد ما عرفوا الحق، وقامت عليهم الحجة، فاختلفوا حيث لا يسوغ لهم الاختلاف.

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ «بغيًا»: مفعول لأجله، أي: لأجل البغي بينهم والحسد، أي: بغيًا من بعضهم على بعض، وحسدًا، وطلبًا للرياسة.

ولم يكن اختلافهم لشبهة عندهم، فأصبح بعضهم يضلل بعضًا، ويُكَفِّر بعضهم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة:١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ [الجاثية:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورى:١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ [البينة:٤].

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الواو: استئنافية، و«من»: شرطية، أي: ومن يكذِّب بآيات الله الشرعية والكونية ويجحدها ويستكبر عن الانقياد لما جاء فيها من الحق.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾: جملة جواب الشرط، و«الفاء»: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، وفيها تخويف وتهديد، أي: فإن الله سريع الحساب، وسيحاسبه ويجازيه ويعاقبه على كفره عن قريب، وأكد عز وجل هذا بـ«إنَّ» وكون الجملة اسمية.

والله- عز وجل- سريع الحساب فحسابه آتٍ، وكل آتٍ قريب. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا**»(١).

وهو عز وجل سريع الحساب؛ لأن عمر الإنسان في هذه الدنيا قليل، والدنيا كلها قليل بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقال ﷺ: «**ما لي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»(٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**».

وكان ابن عمر يقول: «**إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخُذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك**»(٣).

---

(١) ذكره الترمذي في «صفة القيامة»، و«الرقائق»، و«الورع» (٢٤٥٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في «الرقاق» (٦٤١٦)، والترمذي في «الزهد» (٢٣٣٣)، وابن ماجه في «الزهد» (٤١١٤).

وهو- عز وجل- سريع الحساب؛ لأن الانسان يجد في هذه الحياة الدنيا شيئًا من عاقبة عمله سعادة وتيسيرًا لأموره إن كان مطيعًا، وشقاوة وتعسيرًا لأموره إن كان عاصيًا.

وهو- عز وجل- سريع الحساب، لا يحتاج إلى وقت طويل لمحاسبة الخلائق؛ لأنه لا يخفى عليه شيء من الخلق وأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢].

وقد قال بعض أهل العلم: إن الله- عز وجل- يحاسب الخلائق في نصف يوم أخذًا من قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤]. قالوا: فهو يحاسب الخلق في النصف الأول من النهار، والنصف الثاني يكون أهل الجنة فيها، أي: يقيلون فيها.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)﴾.

ذكر الله- عز وجل- اختلاف أهل الكتاب بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم، ثم أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ في إشارة واضحة إلى أن اختلافهم فيما بينهم مُفضٍ إلى محاجة الرسول ﷺ فيما جاء به.

قوله ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ الفاء: عاطفة، وضمير الواو في «حاجوك» يعود إلى أهل الكتاب والمشركين، بدليل قوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾، والخطاب للنبي ﷺ.

و«المحاجة»: المخاصمة، وأكثر ما تكون في المخاصمة بالباطل، أي: فإن خاصموك في الدين خصام مكابرة وعناد.

﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾: جواب الشرط «إن». قرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح الياء: ﴿وَجْهِيَ﴾، وقرأ الباقون بتسكينها «وجهيْ».

أي: توجهت إلى الله بوجهي وقلبي وبدني، وأخلصت له في عبادتي، واتبعت شرعه؛ امتثالًا لأمره، واجتنابًا لنهيه، ورضًا بحكمه، كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا

﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩].

وفي قوله: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾: قطع الطريق على المحاجين وإسكاتهم، سواء قلنا: هذا من باب الإعراض عنهم، أو المحاجة لهم.

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ الواو: عاطفة، و«من»: اسم موصول معطوف على الضمير في «أسلمت»، أي: والذي اتبعني أسلم وجهه لله، أو ينبغي أن يُسلِم وجهه لله، أي: أسلمت وجهي لله أنا وأتباعي على ديني، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: اليهود والنصارى.

﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ أي: العرب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢].

و﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾: جمع «أُمِيٍّ»، وهو من لا يقرأ ولا يكتب، نسبةً إلى أمه، أي: إلى الحالة التي وُلِدَ عليها.

﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾: الاستفهام للتحضيض والأمر، وفيه معنى الاستبطاء، أي: أسلِموا، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٨]، أي: أسلِموا، وكما في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]، أي: انتهوا.

والمعنى: أنه قد أتاكم من البينات ما يوجِب أن تُسلِموا، فأسلِموا.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ﴾ أي: فإن استسلموا لله ظاهرًا وباطنًا، بتوحيدهم إياه بالعبادة، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك.

﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾: جواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاقترانه بـ «قد»، أي: فقد رشدوا وَوُفِّقوا للهدى وسلكوا طريقه.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: أعرضوا عن الإسلام باطنًا بقلوبهم، وظاهرًا بأبدانهم فلا يضرك ذلك.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾: جواب الشرط في قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾، وقُرِنَ بالفاء لأنه جملة اسمية.

و﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، أي: ما عليك نحوهم إلا البلاغ، وقد بلَّغت البلاغ المبين.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٨٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:٥٤، العنكبوت:١٨].

وأما هداية القلوب وحساب الخلق فإلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠].

وقد بلَّغ صلوات الله وسلامه عليه البلاغ المبين، وأدَّى الرسالة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: والله مطلع على العباد كلهم، خبير بهم وبأعمالهم وأحوالهم، ومن كان منهم أهلًا للهداية، ومن لم يكن أهلًا لذلك.

الفوائد والأحكام:

١- شهادة الله- عز وجل- لنفسه بتفرده بالألوهية، وأنه لا إله إلا هو، بقوله وفعله وعجيب صنعه؛ لقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وفي هذا تنبيه لعباده على غناه عن توحيدهم له، وأنه سبحانه هو الموحِّد نفسه بنفسه.

٢- شهادة الملائكة وأولوا العلم بما شهد الله به لنفسه من الوحدانية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾، والمراد: أولوا العلم بالله وشرعه وأتباعهم.

٣- فضيلة الملائكة؛ حيث جعلهم الله تعالى في المرتبة الأولى في الشهادة بالتوحيد بعده سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

٤- أخذ طائفة من أهل العلم من قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أنه لا يشترط للشاهد عند الحاكم وغيره في قبول شهادته أن يتلفظ بلفظ الشهادة.

فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام:١٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:١٩].

فجعل منهم شهادة وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء:١٣٥]، فسمى إقرار المرء على نفسه شهادة.

وفي حديث ماعز: «**فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله ﷺ**»[1].

فَسُمِّيَ إقراره شهادة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «**شهد عندي رجال مرضيون- وأرضاهم عندي عمر- أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس**»[2].

ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة.

والعشرة الذين شهد لهم الرسول ﷺ بالجنة لم يتلفظ بشهادته لهم بلفظ الشهادة، وإنما قال: «**أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة...**»[3].

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» دخل في الإسلام وشهد الشهادتين، وإن لم يقل: «أشهد» ونحو ذلك.

وقد ذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه لابد للشاهد عند الحاكم ونحوه من التلفظ بلفظ الشهادة.

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٧٢)، ومسلم في «الحدود» (١٦٩١)، وأبو داود في «الحدود» (٤٤٣٠)، والنسائي في «الجنائز» (١٩٥٦)، والترمذي في «الحدود» (١٤٢٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «مواقيت الصلاة» (٥٨١)، ومسلم في «صلاة المسافرين» (٨٢٦)، وأبو داود في الصلاة (١٢٧٦)، والنسائي في «المواقيت» (٥٦٢)، والترمذي في الصلاة (١٨٣).

(٣) أخرجه الترمذي في «المناقب» (٣٧٤٧)، من حديث عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه.

٥- فضل العلم بالله وشرعه، وفضل أهل هذا العلم والثناء عليهم؛ حيث جعلهم الله شهودًا بعد الملائكة على وحدانيته، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، واستشهد بهم على أجل مشهود به، وجعلهم حُجة على من أنكر هذه الشهادة، فزكَّاهم بهذا وعدَّلهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾، وهذه منقبة عظيمة للعلماء في هذا المقام.

وهذا لمن قدَّر منهم للعلم قدره، فعظَّم ربه، وصان علمه، وعمل به وعلَّمه، فوَفَّى بما أخذه الله من الميثاق على أهل العلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧].

وهؤلاء من أهل العلم قليل؛ ولهذا قال تعالى في ختام الآية: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أن مِن أول مَن يُقضى يوم القيامة عليه رجل تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن فأُتِيَ به فعرَّفهُ نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمت العلم وعلَّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلَّمت العلم لِيُقال: عالِم، وقرأت القرآن لِيُقال: هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر به، فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِيَ في النار»[1].

وقد أحسن القائل:

وعـــالم بعلمـــه لم يعلمـــن معذب في قبره من قبل عباد الوثن[2]

وقال الآخر:

ولـو أن أهـل العلـم صـانوه صـانهم ولـو عظّمـوه في النفـوس لعظـما

ولكـن أهـانوه فهـانوا ودنَّسـوا محيـاه بـالأطماع حتـى تجهـما[3]

٦- الترغيب في العلم بالله وشرعه؛ لأن به تحصل الشهادة على وحدانية الله- عز

---

(١) أخرجه مسلم في «الإمارة» (١٩٠٥)، والنسائي في «الجهاد» (٣١٣٧)، والترمذي في «الزهد» (٢٣٨٢).

(٢) البيت لابن رسلان الشافعي. انظر: «غاية البيان» (ص٤).

(٣) البيتان للقاضي الجرجاني. انظر: «محاضرات الأدباء ومحاورات لشعراء» (ص١٤).

وجل- بل هي من مقتضياته، فمن لم يشهد من أهل العلم لله بالواحدانية فهو من أجهل الجهال، وإن علم من أمور الدنيا ما لم يعلمه غيره.

٧- حكم الله- عز وجل- أنه لا إله حق إلا هو، بعد شهادته وإخباره بذلك، وأمره- عز وجل- عباده بتوحيده؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ① ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١-٢]، فمن عبد مع الله غيره فهو مشرك.

٨- تأكيد تفرده- عز وجل- بالألوهية، فشهد عز وجل بذلك لنفسه، وأخبر به، وحكم به وأمر، كما شهد بذلك الملائكة وأولوا العلم.

٩- إثبات قيام الله تعالى واتصافه بالعدل قولًا وفعلًا وحكمًا وإخبارًا، وحكمًا به وأمرًا، وشهادته- عز وجل- لنفسه بذلك وشهادة الملائكة وأولوا العلم؛ لقوله تعالى: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾.

١٠- اجتماع صفات الكمال لله عز وجل؛ لأن التوحيد والعدل هما جماع صفات الكمال، فالتوحيد يتضمن تفرده سبحانه بالكمال والجلال والمجد والتعظيم الذي لا ينبغي لأحدٍ سواه، والعدل يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب، وموافقة الحكمة؛ ففي الأول كمال ذاته، وفي الثاني كمال أفعاله.

١١- إثبات اسم الله «العزيز» وصفة العزة التامة له- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾.

١٢- إثبات اسم الله «الحكيم» وأن له- عز وجل- الحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، وفي هذا رد على الجبرية والجهمية الذين ينفون حكمة الله تعالى.

١٣- في اقتران العزة والحكمة في حقه- عز وجل- زيادة كماله -تعالى- إلى كمال.

١٤- أن الدين الذي يُعتد به ويُقبل عند الله هو الإسلام الذي جاء به جميع الأنبياء والرسل، وهو توحيد الله تعالى، والانقياد لشرعه، وهو بعد بعثة محمد ﷺ، ما جاء به من الشرع، فهو الإسلام الذي لا يُقبل من أحدٍ سواه؛ لنسخه لجميع الأديان قبله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ

ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

وقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسِلت به إلا كان من أصحاب النار**»(١).

١٥- أن حقيقة الدين والتدين لله تعالى الاستسلام له بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك؛ لأن الله سمى «الدين» الإسلام.

١٦- أن أهل الكتاب اليهود والنصارى لم يختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي: أن اختلافهم كان عن علم، فلا يعذرون فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾.

١٧- أن اختلاف أهل الكتاب كان بسبب بغي بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.

١٨- التحذير من الاختلاف؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، وقال تعالى محذرًا هذه الأمة: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[آل عمران:١٠٥].

وقال ﷺ محذرًا أمته من ذلك: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة**»(٢).

١٩- خطر البغي، ووجوب الحذر منه؛ لأنه سبب للاختلاف ورد الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.

٢٠- ينبغي في مسائل الخلاف الانتصار للحق، والبحث عنه، والبعد عن التطاول، والانتصار للنفس.

---

(١) أخرجه مسلم في «الإيمان» وجوب الإيمان برسالة نبينا ﷺ إلى جميع الناس(١٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في «السنة» (٤٥٩٦)، والترمذي في «الإيمان» (٢٦٤٠)، وابن ماجه في «الفتن» (٣٩٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢١- التحذير من الكفر بآيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾؛ فمن كفر بآيات الله فسيحاسبه الله سريعًا، ويجازيه على كفره قريبًا، وفي هذا وعيد لمن كفر بآيات الله، وحض على الإيمان.

٢٢- سرعة حساب الله تعالى للخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

٢٣- إثبات حساب الخلق على أعمالهم، لكن حساب المؤمنين تقرير وعرض، أما حساب الكفار فمناقشة وتوبيخ وتقريع.

كما في حديث عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «**من حوسِب عُذِّب**»، قالت عائشة: فقلت: أَوَليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٨]؟، قالت: فقال: «**إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك**»[1].

٢٤- عناية الله- عز وجل- بنبيه ﷺ، وتهيئته لما سيواجه ممن يدعوهم، وتعليمه ما يقوله للمحاجين له، ولمن يدعوهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران:٢٠] الآية. وفي هذا إعداد من الله له، وتقوية لقلبه ولحجته ودعوته.

٢٥- في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران:٢٠]توجيه له ﷺ لما هو أخصر، وبما فيه قطع الطريق على المحاجين وإسكاتهم، أي: هذا طريقي وطريق أتباعي دون محاجة أو جدال، وهذا من أساليب الرد على المحاج إذا كان لا جدوى للمحاجة، كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان:٦٣].

٢٦- أن المنهج الحق في الإسلام أن يتوجه المسلم إلى الله تعالى بكليته، وبوجهه، وقلبه، وبدنه ممتثلًا لأمر الله، مجتنبًا لنهيه، فهذا هو منهج الرسول ﷺ وأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾.

٢٧- شرف الوجه من بين الأعضاء؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ فخصَّهُ من بين

---

(١) أخرجه البخاري في «العلم» (١٠٣)، ومسلم في «الجنة وصفة نعيمها وأهلها» (٢٨٧٦)، والترمذي في «صفة القيامة» (٢٤٢٦).

الأعضاء لشرفه، ولأن توجهه علامة ظاهرة على توجه بقية الأعضاء.

٢٨- أن من لم يُسلِم وجهه لله تعالى فليس متبعًا للرسول ﷺ؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾.

٢٩- وجوب الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾.

٣٠- عموم رسالة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ للعرب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾، وفي هذا رد على من زعم من أهل الكتاب أن رسالته ﷺ خاصة بالعرب فقط.

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**وكان النبي ﷺ يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعِثت إلى الناس عامة**»(١).

وفى رواية: «**وبُعِثت إلى كل أحمر وأسود**»(٢).

ولما زار ﷺ الغلام اليهودي في مرض موته، فقال له النبي ﷺ: «**يا فلان، قُل: لا إله إلا الله**»، فنظر إلى أبيه، فأعاد النبي ﷺ، فنظر إلى أبيه، فقال أبوه: أطع أبا القاسم، فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه بي من النار**»(٣).

٣١- في تقديم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾ إشارة إلى أن قيام الحجة عليهم أعظم؛ لما عندهم من العلم عن الإسلام وعن النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة:٤١].

٣٢- أن العرب أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾.

٣٣- أن من أسلم فقد اهتدى للطريق المستقيم، ووُفِّق إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا

(١) أخرجه البخاري في «التيمم» (٣٣٥)، ومسلم في «الغسل والتيمم» (٤٣٢).
(٢) أخرجها مسلم في «المساجد ومواضع الصلاة» (٥٢١).
(٣) أخرجه البخاري في «الجنائز» (١٣٥٦)، وأبو داود في «الجنائز» (٣٠٩٥)، من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾، وفي هذا حض على الإسلام، وترغيب فيه.

٣٤- أن من لم يُسلِم فقد تولى وأعرض عن الحق، وليس على الرسول ﷺ هدايته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾.

٣٥- أن مهمة الرسول ﷺ، والواجب عليه بالنسبة للناس هي إبلاغهم الرسالة ودعوتهم، وأما هدايتهم فهي إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾.

٣٦- اطلاع الله- عز وجل- وبصره بالعباد وأعمالهم وأحوالهم، ومَن هو أهل للهداية، ومَن ليس أهلًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، وفي هذا وعد لمن أسلم واهتدى، ووعيد لمن تولى وأعرض.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآية السابقة النبي ﷺ بدعوة الذين أوتوا الكتاب إلى الإسلام، وحذَّرهم من التولي، ثم ذمَّهم في هذه الآية بذِكر ما هم عليه من الكفر، وقتل النبيين والآمرين بالقسط، وتوعدهم بعذابٍ أليم.

قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: إن الذين يُكذبِّون بآيات الله الشرعية والكونية ويجحدونها، من أهل الكتاب وغيرهم.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: معطوف على ﴿يَكْفُرُونَ﴾.

قرأ حمزة: «ويقاتلون»، وقرأ الباقون: ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾، وقرأ نافع «النبيئين» جمع «نبيء» وقرأ الباقون: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بلا همز، جمع (نبيّ)، مأخوذ من «النبأ»، وهو الخبر الهام، كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١-٢].

وسُمِّيَ النبيون بهذا الاسم؛ لأن النبي مُنْبَأ من عند الله، أي: مُخْبَر من عند الله، و(مُنبِئ): مُخبِر لقومه بما أوحاه الله إليه، ومأخوذ أيضًا من «النّبْوة» وهي المكان المرتفع؛ لأن الأنبياء ذوو مكانة عالية مرتفعة عند الله تعالى وعند المؤمنين.

﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: جار مجرور حال مؤكدة من فاعل «يقتلون».

والمراد بهذا الوصف: بيان الواقع، أي أن قتلهم عدوانًا وظلمًا كما فعل اليهود؛ حيث قتلوا كثيرًا من أنبياء الله- عز وجل- منهم: زكريا وابنه يحيى، كما همُّوا بقتل عيسى، بل زعموا أنهم قتلوه؛ ولهذا ذمَّهم الله تعالى بهذين الوصفين في آياتٍ كثيرة، كما قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة:٦١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران:١١٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩١].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة:٧٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران:١٨٣].

ولا يراد بقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ إخراج ما خالفه؛ إذ لا يمكن أن يكون قتل النبيين بحق بحالٍ من الأحوال.

﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾: معطوف على قوله ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ من عطف العام على الخاص؛ لأن الأنبياء في مقدمة الذين يأمرون بالقسط من الناس.

و«القسط»: العدل في الحكم والأقوال والأفعال، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام:١٥٢].

أي: ويقتلون الذين يأمرون بالعدل من الناس عنادًا منهم ومعارضة للعدل والحق وبطرًا وكِبرًا. وفي الحديث: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[1].

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: خبر المبتدأ ﴿الَّذِينَ﴾، ودخلت عليه الفاء؛ لتضمُّن الموصول معنى الشرط، أي: بشرهم يا محمد، ويا أي مبشر.

---

(١) أخرجه مسلم في «الإيمان» (٩١)، والترمذي في «البر والصلة» (١٩٩٩)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

والبشارة في الأصل: الإخبار بما يَسُر، واستُعمِلت هنا في الإِخْبار بما يسوء من باب التهكم بهم، كما في قوله تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء:١٣٨]، وقوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان:٤٩].

وفي هذا من العذاب المعنوي ما قد يفوق العذاب الحسي.

والمعنى هنا: فأخبرهم بعذابٍ أليم، أي: مؤلم موجِع حسيًّا للأبدان، ومعنويًا للقلوب. و(العذاب): العقاب.

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران:٢٢].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾: الإشارة للذين يُكذِّبون بآيات الله، ويقتلون النبيين والآمرين بالقسط، وأشار إليهم بإشارة البعيد (أولئك) تحقيرًا لهم.

﴿ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ أي: الذين بطلت وذهبت واضمحلت أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣].

﴿فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: فلم يستفيدوا منها في الدنيا بل كانت سببًا لشقائهم فيها، ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ولم يُثابوا عليها في الآخرة بل عوقبوا بسببها.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ «مِنْ»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما لهم أيُّ ناصرين، أي: وما لهم أي أحد ينصرهم من بأس الله تعالى وعذابه، وجمع «ناصر» لمقابلة الجمع قبله مع مراعاة المناسبة لفواصل الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الاستفهام للتعجيب، والرؤية هنا علمية، ويُحتمل كونها بصرية، والأول أولى؛ لأنه أشمل، ولأنه يتعلق بالحال، والحال تعلُّم ولا تبصُّر.

أي: ألم تعلم إلى حال ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾، والمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ هنا: اليهود، و﴿نَصِيبًا ﴾ حظًا، والتنوين فيه للتكثير والتعظيم،

و﴿مِّنَ﴾ للتبعيض أو للبيان.

و(ال) في ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ للعهد، والمراد به «التوراة»، أي: ألم تعلم وتنظر إلى حال اليهود الذين أُعطوا نصيبًا من الكتاب، أي: أُعطوا حظًّا كثيرًا عظيمًا من الكتاب؛ لأن التوراة هي أعظم كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم.

وقيل: المعنى: الذين أُعطوا نصيبًا قليلًا من الكتاب، أي: من العلم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]. والأول أصح وأنسب للسياق.

﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: حال من الموصول، أي: حال كونهم يدعون إلى كتاب الله، أو مستأنفة مُبيِّنة لمحل التعجب.

والدعاء: النداء؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

و«كتاب»: بمعنى مكتوب، أي: إلى مكتوب الله؛ لأن كتب الله تعالى كلها مكتوبة عنده في اللوح المحفوظ.

والمراد بـ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ هنا: «القرآن الكريم»، والداعي إليه هو رسول الله ﷺ ومن دعا بدعوته إلى يوم القيامة.

وقيل المراد بـ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: «التوراة أو الإنجيل»؛ لما فيهما من تصديق لبعثته ﷺ ورسالته، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾: (اللام): للتعليل، أي: لأجل أن يحكم بينهم، والضمير في ﴿لِيَحْكُمَ﴾ يُحتمل أن يعود إلى «الله»، أي: يدعون إلى كتاب الله؛ ليحكم الله بينهم بكتابه.

ويُحتمل عود الضمير إلى «الكتاب»، أي: ليحكم كتاب الله بينهم.

وأسند الحكم إلى الكتاب؛ لأن الحكم بينهم بما فيه هو حكم الله، أي: ليفصل

بينهم ببيان الحق من الباطل فيما بينهم أنفسهم، وفيما بينهم وبين الداعي لهم وهو الرسول ﷺ في شأن الإسلام، أو في حكم الرجم، أو غير ذلك.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: التولي يكون بالأبدان، أي: ثم يتولى فريق وجماعة منهم بأبدانهم.

﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾: الجملة معطوفة على ما قبلها، ويجوز كونها حالية.

والإعراض يكون بالقلوب، أي: وهم صادون بقلوبهم عن كتاب الله، والمعرِض بقلبه لا فائدة فيه، ولا مطمع في رجوعه، بخلاف المتولي ببدنه فإنه قد يراجع نفسه، ويعود إلى رشده.

وقد جمع هؤلاء بين التولي في الظاهر بأبدانهم، والإعراض في الباطن بقلوبهم، والتولي عن الداعي، والإعراض عن المدعو إليه، فلا مطمع فيهم.

و«التولي» و«الإعراض» من الكلمات المترادفة التي إذا انفردت اجتمعت، واذا اجتمعت انفردت. فإذا انفرد أحدهما عن الآخر حمل كل منهما على المعنيين، وهما التولي بالأبدان والإعراض بالقلوب.

أما إذا اجتمعا فيُحمل «التولي» على الإعراض بالأبدان، ويُحمل الإعراض على التولي بالقلوب، كما في الآية هنا.

ويُفهم من قوله ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: أن فريقًا منهم لا يتولى ولا يُعرِض، بل يقبل ويؤمن.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة تولي وإعراض فريق من أهل الكتاب عن كتاب الله تعالى، ثم ذكر في هذه الآية سبب توليهم وإعراضهم.

قوله ﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى تولي فريق منهم وإعراضهم عن كتاب الله، أي: ذلك التولي والإعراض.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾: الباء للسببية، أي: بسبب أنهم.

﴿قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾: أي بسبب أنهم خدعوا أنفسهم بهذه

المقالة الباطلة، والاعتقاد الخاطىء، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠]، فهونوا بهذا الخطوب ولم يبالوا معه بارتكاب الذنوب.

﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾: لن تصيبنا النار ونعذب فيها.

﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا أيامًا قليلات، أوقلائل؛ لأن كل معدود فهو قليل؛ لأنه ينتهي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود:١٠٤].

وجمع هنا جمع القلة ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾؛ لأنه أليق بمقام التعجيب والتشنيع.

قيل: إنهم قالوا: لن نعذب إلاسبعة أيام، وقيل: أربعين يومًا، وهي الأيام التي عبدوا فيها العجل[1].

﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم﴾ أي: أطمعهم في غير مطمع، وخدعهم في دينهم الباطل.

﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: وخدعهم في دينهم افتراؤهم أو الذي كانوا يفترون ويختلقون من الكذب والدعاوى والأماني الباطلة، ومن ذلك قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾، وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨]، وقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١].

فذكر لتوليهم وإعراضهم سببين، الأول: أمنهم وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالنجاة، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودات.

والثاني: تزيين الشيطان لهم سوء عملهم، فاغتروا بذلك وتراءى لهم أنه الحق؛ عقوبةً لهم على إعراضهم عن الحق.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآية السابقة زعم أهل الكتاب الباطل أنهم لن تمسهم

---

(١) راجع ما سبق في الكلام على قوله- تعالى في سورة البقرة ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠].

النار إلا أيامًا معدودات، وخداعهم لأنفسهم بالافتراء والأماني الباطلة، ثم أتبع ذلك باستعظام وتهويل سوء حالهم ومآلهم يوم القيامة مهددًا ومتوعدًا.

قوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ ﴾: ﴿ فَكَيْفَ ﴾: استفهام لتعظيم وتهويل سوء حالهم، أي: كيف تكون حالهم، أو كيف يصنعون إذا جمعناهم ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ الآية.

فلا تسأل عما هم فيه من الهم والكرب وشدة العذاب والحسرة والندم على ما فاتهم من الأجر والثواب.

﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾: (اللام) بمعنى «في»، وتُسمى لام التوقيت، أي: في يومٍ لا ريب فيه، وهو يوم القيامة، ونُكِّر «يوم» للتعظيم، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين:٤-٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ [الإنسان:٢٧]، وقال تعالى: ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:٩-١٠].

قال ابن كثير[١]: «أي: كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله، وكذبوا رسله، وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله، ومحاسبهم عليه، ومجازيهم به».

﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾: أي لا ريب ولا شك في وقوعه؛ وهذا خبر من الله تعالى، فهذا اليوم آتٍ وواقع لا محالة، وعلى ذلك دلَّ الكتاب والسنة والعقل.

ويُحتمل أن يكون قوله: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ خبر بمعنى النهي، أي: لا ترتابوا فيه[٢].

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ معطوف على قوله: ﴿جَمَعْنَاهُمْ ﴾، وجاء العطف بالواو دون «ثم» التي للتراخي؛ للدلالة على سرعة حسابه عز وجل للخلائق؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [البقرة: ٢٠٢، والنور: ٣٩].

و«ما»: موصولة أو مصدرية؛ أي: أُعطِيت كل نفس مكلفة من الإنس أو الجن كسبها

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٢).

(٢) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢].

أو الذي كسبته من خير أو شر وافيًا، أي: أُعطِيت جزاء عملها وافيًا ثوابًا كان أو عقابًا، وجُعِلت التوفية للكسب، وجُعِل المكسوب مكان الجزاء؛ إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: الجملة حالية، أي: والحال أنهم لا يظلمون، أي: وهم لا يُنقَصون شيئًا من أعمالهم وثوابها، ولا يتعدى عليهم بالزيادة في عقابهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس:٥٤].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله- عز وجل-: يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- ذم أهل الكتاب، والتشنيع عليهم، وتوعدهم بعذابٍ أليم؛ لكفرهم بآيات الله، وقتلهم النبيين والآمرين بالعدل تكبرًا منهم وعنادًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. وهذا وعيد لهم ولمن سلك مسلكهم.

٢- وجوب الإيمان بآيات الله، والحذر من الكفر بها.

٣- عِظم حُرمة قتل وقتال النبيين، وأنه من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

٤- أن قتل الأنبياء وقتالهم لا يمكن أن يكون بحق؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

٥- شدة حرمة قتل وقتال الذين يأمرون بالقسط من الناس؛ حيث قُرِنَ بالكفر وقتل

---

(١) أخرجه مسلم في «البر والصلة والآداب» (٢٥٧٧).

النبيين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

٦- فضل الأمر بالعدل والآمرين به؛ لأن الله جعلهم بعد النبيين.

٧- جوز التهكم بالكفار؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فسمى إخبارهم بالعذاب بشارة تهكمًا وسخرية بهم.

٨- شدة عذاب الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين والآمرين بالقسط؛ لقوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

٩- تحقير الذين يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين والآمرين بالقسط، وحبوط أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾، فأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم، وبيَّن بطلان أعمالهم وجزائها في الدنيا والآخرة.

١٠- أن الكفر مُحبِط للأعمال، وأن مِن أعظم وأشنع أعمال الكفار قتل الأنبياء والآمرين بالقسط من الناس.

١١- أن الكفار ليس له ناصر يدفع عنهم عذاب الله ونقمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

١٢- التعجيب من حال الذين أُتوا نصيبًا من الكتاب يدعون إلى القرآن ليحكم بينهم، ثم يتولى فريقٌ منهم ويُعرِض مع ما عندهم مما يصدقه في كتبهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

١٣- أن العلم إذا لم يصاحبه توفيق من الله تعالى فإنه لا ينفع صاحبه، بل يكون وبالًا عليه، فهؤلاء مع ما هم عليه من العلم لم يهتدوا للعمل.

١٤- أن اللوم والذم والمؤاخذة لمن تولى وأعرض إنما تكون بعد إقامة الحُجة عليه بدعوته؛ لقوله تعالى: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

١٥- أن التحاكم بعد بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن يجب أن يكون إلى حكم الله- عز وجل- في القرآن الكريم في كل شيء من العبادات والمعاملات وغير ذلك؛ لنسخه لجميع الكتب قبله.

١٦- تعظيم القرآن وتشريفه بإضافته إلى الله- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

١٧- أن من أهل الكتاب من أجاب الدعوة إلى كتاب الله، فأسلموا وحَسُنَ إسلامهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾. ومفهوم هذا أن فريقًا منهم لم يتوَلَّ ولم يُعرِض، بل أسلم.

١٨- أن أشد ما يكون في المخالفة والرد والعناد، وفي الذم أن يجتمع التولي عن الحق بالأبدان والإعراض عنه بالقلوب؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

١٩- أن سبب تولي وإعراض فريق من أهل الكتاب زعمهم أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودات؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾.

٢٠- جرأة أهل الكتاب على الكذب على الله وغرورهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾.

٢١- تصديق أهل الكتاب بوجود النار، وبالبعث بعد الموت، لكن هذا لا ينفعهم مع توليهم وإعراضهم عن الانقياد والعمل بكتاب الله تعالى.

٢٢- التحذير من الاغترار بالأماني الباطلة والانخداع بها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

٢٣- لا ينبغي أن يغتر الإنسان ويعجب بما هو عليه من تدين، ويُدِلَّ على الله بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم﴾، وليسأل الله التوفيق للإخلاص والثبات على الحق وحسن الختام.

٢٤- تهويل وتعظيم سوء حال ومآل هؤلاء المتولين المعرضين؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ الآية.

٢٥- إثبات القيامة والمعاد وجمع العباد؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٢٦- تعظيم الله تعالى لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿جَمَعْنَٰهُمْ﴾ بضمير العظمة وهو العظيم سبحانه.

٢٧- تعظيم يوم القيامة وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَوْمٍ﴾ بالتنكير.

٢٨- إعطاء كل نفس عملها وجزاءها وافيًا يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾، وأن الجزاء من جنس العمل.

٢٩- انتفاء الظلم في ذلك اليوم، فلا أحد يُظلم بأن يُنتقص من حقه، أو يُزاد في عقابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

لكن المؤمنين يُعاملون بالفضل، فيُضاعِف الله لهم ويزيدهم من فضله، ويعفو عن سيئات من شاء منهم.

وأما الكفار فيُعاملون بالعدل، ويجازون بأعمالهم من غير زيادة أو نُقصان.

٣٠- كمال عدل الله- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ فهذا من الصفات المنفية الدالة على كمال ضدها وهو العدل، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]، وغير ذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾.

في هذه الآية بيان عظمة الله- عز وجل- وكمال ملكه، وتمام قدرته، كما أن فيها تعريضًا بأهل الكتاب، وأن إعراضهم إنما هو حسد على زوال النبوة منهم وانقراض ملكهم، وإبطالًا لزعمهم أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة.

قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾: الخطاب والأمر للنبي ﷺ، أي: قُل يا محمد مُعَظِّمًا لربك ومتوكلًا عليه وشاكرًا له ومفوضًا إليه، وهو خطاب له ولمن تبعه.

﴿ٱللَّهُمَّ﴾: أصلها «يا الله» مُنادى حُذِفت منه ياء النداء.

قال ابن القيم[1]: «لا خلاف أن لفظ «اللهم» معناها: (يا الله)؛ ولهذا لا تُستعمل إلا في الطلب، فلا يُقال: (اللهم الغفور الرحيم)، بل يقول: (الله اغفر لي وارحمني)».

واختلفوا في الميم المشددة من آخر الاسم (اللهمَّ) فقيل: زيدت عِوضًا عن حرف النداء؛ ولهذا لا يُجمع بينهما في الشعر، كما قال ابن مالك[2]:

وشذ يا اللهم في قريض

ومن هذا قول الشاعر:

إني إذا ما حدث ألمَّا ... أقول يا اللهم يا اللهم[3]

وقيل: زيدت الميم للتعظيم والتفخيم كزيادتها في (زرقم) لشديد الزرقة، وفي (ابنم) في (ابن).

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٨٣).

(٢) انظر: «ألفيته» (٥٠).

(٣) البيت لأبي خراش الهذلي، ويقال: لأمية بن أبي الصلت. انظر: «المقتضب» (٤/ ٢٤٢).

قال ابن القيم بعد أن ذكر هذا[1]: «وهذا القول صحيح لكن يحتاج إلى تتمة، وقائله لحظ معنى صحيحًا لابد من بيانه، وهو أن الميم تدل على الجمع وتقتضيه، ومخرجها يقتضي ذلك، وهذا مُطرد على أصل من أثبت المناسبة بين اللفظ والمعني، كما هو مذهب أساطين العربية».

إلى أن قال: «وإذا علم هذا من شأن الميم، فهم قد ألحقوها في آخر هذا الاسم (اللهم) الذي يسأل العبد به ربه سبحانه في كل حاجة وكل حال، إيذانًا بجمع أسمائه تعالى وصفاته، فإذا قال السائل: (اللهم إني أسألك) كأنه قال: أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العُلى بأسمائه وصفاته، فأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم إيذانًا بسؤاله تعالى بأسمائه كلها.

كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**مَا أَصَابَ عبدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ...**» وذكر الحديث بطوله.

إلى أن قال: «وهذا القول الذي اخترناه قد جاء عن غير واحد من السلف، قال الحسن البصري: «اللهم»: مجمع الدعاء، وقال أبو رجاء العطاردي: إن الميم في قوله «اللهم» فيها تسعة وتسعون اسمًا من أسماء الله تعالى، وقال النضر بن شُميل: من قال «اللهم» فقد دعا الله بجميع أسمائه».

﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾: بدل من قوله «اللهم»، أو منادى ثانٍ، أي: يا مالك الملك.

ومعنى ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي: لك الملك، أي: أنت المالك لكل شيء، المتصرف فيه، و(ال) في الملك هنا وفي الموضع بعده للجنس، أي: لك الملك كله، كما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [المائدة:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة:١٨].

﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾: جملة استئنافية فيها مع ما عطف عليها، ومع قوله:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٨٧).

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ الآية بيان تمام ملكه، وكمال تصرفه.

و﴿مَن﴾: اسم موصول في محل نصب مفعول ثانٍ لـ ﴿تُؤۡتِي﴾، أي: تُعطي الملك الذي تشاء، أي: الذي تريد كونًا إعطاءه إيَّاه لحكمة تعلمها.

وهو مُلك نسبي كمًا؛ لأن من أعطاه الله الملك لا يملك إلا مملكته التي أعطاها الله إيَّاها دون غيرها.

وهو مُلك نسبي كيفًا؛ لأن من أتاه الله الملك إنما يجوز له التصرف في ملكه وفق ما شرع الله، وليس له التصرف المطلق.

﴿وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾: نزع الملك أخذه ومنعه، وفي التعبير بـ«تنزع» إشارة إلى تشبث الملوك بملكهم.

و«ما»: موصولة، أي: وتأخذ الملك من الذي تريد أخذ الملك منه بعد تمليكه، وتمنع الملك ممن تريد فلا يحصل على الملك أصلًا، كل ذلك لحكمة تعلمها.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ أي: وتقوي وتنصر وتؤيد الذي تريد نصره، فتكون له العزة والنصر والغلبة.

﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ أي: وتذل الذي تريد إذلاله، فيكون ضعيفًا ذليلًا.

والإعزاز قد يكون كونيًا فقط لحكمة وأسباب مادية، بأن يجعل الله تعالى القوة والغلبة لطائفة ولو كانت كافرة على طائفة أخرى، فيعز هذه الطائفة ويذل الأخرى وهذا في الدنيا.

وقد يكون الإعزاز كونيًا شرعيًا؛ بأن يوفق الله الإنسان لأسباب العزة الحقيقية وهي الإيمان بالله تعالى وطاعته والتقرب إليه؛ فهذه هي العزة حقًّا في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

وبها تحصل الغلبة والنصر مع توافر أسبابه المادية، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة:٢١].

كما أن الإذلال قد يكون كونيًّا فقط لحكمة وأسباب مادية، وقد يكون كونيًّا شرعيًّا، بأن يُخذل الإنسان ويُبتلى بأسباب الذل وهي الكفر والمعاصي؛ وهذا هو الذل

حقًّا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨].

فالعز كل العز بالإيمان بالله تعالى وطاعته، والذل كل الذل بالكفر بالله ومعصيته، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس:٩-١٠].

وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو فمعتق نفسه أو موبقها**»[1].

﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾: قدَّم الخبر للتخصيص، أي: بيدك وحدك الخير كله. خير الدين، وخير الدنيا، وخير الآخرة، أي: كل ما فيه نفع ومصلحة، دينية أو دنيوية أو أُخروية من التوفيق للإيمان والعلم النافع والعمل الصالح، وأسباب العزة الحقيقية، والنصر على الأعداء، والأمن في الأوطان، والصحة في الأبدان، والرزق الحلال، وغير ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النمل:٥٣].

وفي الحديث: «**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**»[2]، وقال ﷺ: «**يده ملأى سحاء الليل والنهار**»[3].

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: الجملة تعليل لما قبلها، أي: لأنك على كل شيءٍ قدير. «إنَّ»: حرف توكيد، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ«قدير»، وقُدِّم عليه لتأكيد عموم قدرته على كل شيء أيًّا كان صغيرًا أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا.

و«القدرة»: فعل الشيء بدون عجز، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

فالقدرة ضدها العجز، كما أن القوة ضدها الضعف، والقدرة يوصف بها فقط ذوو الإدراك، أما القوة فيوصف بها ذوو الإدراك وغيرهم، فيُقال: فلان قوي، كما يُقال: الحديد قوي.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود في «الطب» (٣٩١٩)، من حديث عروة بن عامر رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾.

دلَّل عز وجل في الآية السابقة على عظمة ملكه، وتمام قدرته بكونه يؤتي الملك من يشاء، وينزعه عمن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ثم دلَّل لذلك في هذه الآية بمداولته الليالي والأيام والتصرف بالزمان.

قوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾: أي وتُدخِل الليل في النهار، فيطول الليل ويزيد على النهار.

﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ :أي وتُدخِل النهار في الليل، فيطول النهار ويزيد على الليل.

قال ابن كثير[1]: «أي: تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا، فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان، ثم يعتدلان، وهكذا في فصول السنة: ربيعًا وصيفًا وخريفًا وشتاءً».

فإذا طال الليل- وذلك في الشتاء- مال الجو إلى البرودة حتى تصل البرودة ذروتها لقلة زمن وجود الشمس على سطح الأرض وكون شعاعها غير عمودي، وإذا طال النهار- وذلك في الصيف- مال الجو إلى الحرارة حتى تصل الحرارة ذروتها، وذلك لطول زمن وجود الشمس على سطح الأرض وكون شعاعها عموديًا.

ومن حكمة الله تعالى ورحمته كون هذا التداخل بين الليل والنهار تدريجيًا؛ حتى لا يؤثِّر ذلك على الكائنات والنبات ونظام الحياة؛ ولهذا كانت فصول السنة أربعة فصول: فصل الشتاء، وفصل الصيف، وفصلان انتقالان بينهما وهما: فصل الربيع، وفصل الخريف.

وفي هذا كله من المنافع والمصالح للإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك ما لا يُحصى، فيحصل كل نوع من الكائنات الحية والنباتات على ما يناسبه، فبعض الكائنات والنباتات تحتاج إلى البرودة، وبعضها يحتاج إلى الحرارة، وبعضها يحتاج إلى الأمرين، وبعضها يحتاج إلى الاعتدال.

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: قرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم، وأبو عمرو، وابن

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٣).

عامر «المَيْت» بالتخفيف، وقرأ الباقون ﴿ٱلْمَيِّتِ﴾ بالتشديد.

و«المَيْت» بالتخفيف: الذي قد مات دون الذي لم يَمُت، و«الميِّت» بالتشديد الذي قد مات والذي لم يَمُت وسيموت، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر:٣٠].

قال الشاعر:

ليس من مات فاستراح بمَيْتٍ إنما المَيْتُ مَيِّتُ الأحياءِ[1]

أي: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ﴾ حياة حسيَّة ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ موتًا حسيًّا، ومن ذلك أن الله- عز وجل- خلق آدم وأوجده وأحياه من التراب والطين الذي هو جماد لا حياة فيه، وخلق كل واحد من ذريته من نطفة وهي ميتة إلى نفخ الروح فيه بعد تمام مراحل تكوينه، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[البقرة:٢٨].

ومن ذلك إخراج الدجاجة من البيضة، وإخراج الزرع من الحبة، والنخلة من النواة، كما قال تعالى: ﴿يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم:٥٠].

ومن ذلك أن تموت الأم ويخرج ما في بطنها حيًّا.

وأيضًا ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ﴾ أي: الولد المؤمن الحيّ حياة معنوية قلبية ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي: من الوالد الكافر الميت موتًا معنويًّا قلبيًّا، أي: يخرج الولد المؤمن من الوالد الكافر، وهذا أعظم وأهم، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ﴾: أي: وتخرج المولود الميت موتًا حسيًّا إنسانًا كان أو حيوانًا ﴿مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ من الوالد الحيّ حياة حسية إنسانًا كان أو حيوانًا، فتلد الأنثى من الإنسان أو الحيوان وتُسقِط مولودًا ميتًا، ومن ذلك إخراج البيضة من الدجاجة.

---

(١) البيت لعدي بن الرعلاء الغساني، والرعلاء أمه. انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجَّاج (٢/ ١٥٧)، و«لسان العرب» مادة: (موت).

وأيضًا ﴿وَتُخْرِجُ﴾ الولد الكافر الميت موتًا معنويًّا قلبيًّا ﴿مِنَ ٱلْحَيِّ﴾أي: من الوالد المؤمن الحيّ حياة معنوية قلبية، أي: وتُخرِج الولد الكافر من الوالد المؤمن.

فهو سبحانه الذي يُخرِج المتضادات بعضها من بعض، وقد انقادت له جميع العناصر، كما قال الشاعر:

من ظاهر النِّعم الكبرى وباطنها ... هذا السحاب به ماءٌ به نار

لا ينكر الله إلا جاهل نَزِقٌ ... غِرٌّ بليد سفيه الرأي ختّار[1]

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: (الرزق): العطاء، ويشمل رزق الدنيا والآخرة. ورزق الدنيا نوعان: رزق به قوام الأبدان من المآكل والمشارب والمساكن والمراكب.. ونحو ذلك؛ وهذا يُعطيه الله لجميع الخلق المؤمن والكافر، والبر والفاجر حتى البهائم، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠].

ورزق به قوام القلوب والأرواح من الإيمان والعلم النافع والعمل الصالح، وهذا خاص بمن وفَّقهم الله لذلك- نسأل الله من فضله.

أما رزق الآخرة فهو ما أعدهُ الله لأهل الجنة من الثواب العظيم والنعيم المقيم، كما قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر:٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[مريم:٦٢].

والمعني: وتعطي الذي تريد من الخلق حسب ما اقتضته حكمتك ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وحذف مفعول «ترزق»، ليعم كل رزق من رزق الدين والدنيا والآخرة.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: من غير أن تُحصي عليهم ما أعطيتهم وتحده بحد، بل تُعطي العطاء الجزيل بلا حد.

وليس معنى هذا أن الأرزاق غير مقدرة، بل كل شيء مقدر عند الله- عز وجل- كما قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد:٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر:٢١].

(١) البيتان للشاعر وليد الأعظمي. انظر: «المجموعة الكاملة» (ص١٣٥).

كما أنه سبحانه يُعطي العطاء الجزيل، ولا يخاف أن ينفد ما عنده، ويعطي تفضلًا منه وكرمًا بغير عوض.

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ ما ينطق عن الهوى وإنما هو مُبلِّغ عن الله- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ ﴾ الآية، وفي هذا رد على من يزعمون أنه تقوَّل القرآن وافتراه من عند نفسه.

٢- أمر الله- عز وجل- لنبيه ﷺ بالثناء عليه وتعظيمه وتفويض الأمر إليه، والتوسل إليه؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ الآيتين، وهذا أمر له ﷺ ولأتباعه.

٣- أن الله- عز وجل- مالك الملك كله، فهو المنفرد بالملك، والمنفرد بالتصرف فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ الآية.

٤- تمام ملك الله- عز وجل- وكمال تصرفه؛ لقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾ الآية.

٥- منح الله- عز وجل- الملك من يشاء، ونزعه ومنعه ممن يشاء، وأنه سبحانه هو المعطي المانع؛ لقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى.

٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية المبنية على الحكمة، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[الإنسان:٣٠].

٧- أن الله- عز وجل- يُعِز من يشاء، ويُذِل من يشاء لحكمة يعلمها سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾.

٨- أن الله تعالى بيده الخير كله؛ لقوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾.

٩- ينبغي طلب العزة والخير من الله وحده؛ لأن كل ذلك بيده سبحانه وتعالى، مع بذل الأسباب المادية.

١٠- أن أفعال الله تعالى كلها خير، وأن الشر لا يُضاف إليه، وإن كان سبحانه هو الذي خلق كل شيء؛ ولهذا قال ﷺ: «**الخير كله بيديك والشر ليس إليك**»(١).

قال ابن القيم(٢): «فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه، بل كل ما يُنسب إليه فهو خير، والشر إنما صار شرًا لانقطاع نسبته وإضافته إليه، فلو أُضيف إليه لم يكن شرًّا، وهو سبحانه خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله، وخلقه وفعله وقضاؤه وقدره خير كله».

وقال السعدي(٣): «وأما الشر فإنه لا يُضاف إلى الله تعالى، لا وصفًا ولا اسمًا ولا فعلًا ولكنه يدخل في مفعولاته، ويندرج في قضائه، فالخير والشر كله داخل في القضاء والقدر، فلا يقع في ملكه إلا ما شاءه، ولكن الشر لا يُضاف إلى الله».

١١- الإرشاد والتنبيه إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ، وعلى هذه الأمة بما خصها به من بعثة رسولها محمد ﷺ أفضل الرسل إلى جميع الثقلين، وجعل كتابه مهيمنًا على جميع الكتب السماوية، وبلغ ملك أمته مشارق الأرض ومغاربها، وأظهر دينه على الأديان كلها. وفي هذا رد على المعترضين بقوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف:٣٢].

١٢- عموم قدرة الله تعالى لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

١٣- الاستغناء بالثناء عن الدعاء؛ لأن الثناء مما يتوسل به إلى الله تعالى، فهذا الثناء والتعظيم متضمن طلب العزة والخير من الله وحده؛ لأنه أهل ذلك والقادر عليه.

وكما قيل:

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٠)، والنسائي في الافتتاح (٨٩٧)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢)، من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- .

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٩٥).

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٣٧٠).

إذا أثنى عليك المرء يومًا كَفَاهُ من تعرضه الثناء[1]

١٤- حكمة الله تعالى البالغة، وقدرته التامة، ورحمته وعنايته بخلقه في إيلاج الليل في النهار، وجعل ذلك بتدرج، وما يترتب على ذلك من اختلاف فصول السنة من حر إلى برد إلى اعتدال، وما في ذلك من المنافع والمصالح العظيمة للإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾.

١٥- قدرة الله تعالى العظيمة، وحكمته البالغة في إخراج الحيّ من الميت، وإخراج الميت من الحيّ، حسيًّا كان ذلك أو معنويًّا؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾.

١٦- إخراج الحيّ من الميت أعظم في القدرة، وأظهر في الحكمة، وأجلّ في النعمة؛ لهذا قُدِّم- والله أعلم- على إخراج الميت من الحيّ.

١٧- ينبغي طلب الهداية من الله تعالى وحده، لأنه وحده القادر على التوفيق للهداية والحياة المعنوية بالإيمان.

١٨- بلاغة القرآن وبديع نظمه، ففي قوله تعالى: ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ جناس، وفي قوله: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ طِباق، وكذا في قوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾.

١٩- أن الله تعالى يَرزُق ويُعطي من يشاء، والأرزاق والخزائن كلها بيده؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ﴾.

٢٠- أن الله- عز وجل- لا حدَّ لرزقه وعطائه، بل يرزق من يشاء بغير حساب؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

٢١- ينبغي طلب الرزق من الله تعالى وحده؛ لأن الأرزاق بيده، مع بذل الأسباب المادية.

* * *

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت. انظر: «ديوانه» (ص١٧).

قال الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾.

بيَّن الله- عز وجل- في الآيات السابقة في السورة قبل هذه الآيات عداوة المشركين للإسلام وأهله، وحسد اليهود لهم وتوليهم عن الإسلام، ثم أتبع ذلك بنهي المؤمنين عن موالاتهم كنتيجة لذلك.

قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ «لا» ناهية، و«يتخذ» مجزوم بها، وكسر لالتقاء الساكنين، و﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فاعل، و﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مفعول أول لـ﴿يَتَّخِذِ﴾ و﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مفعول ثان.

والمعنى: لا يجعل المؤمنون الكافرين أولياء لهم، يوالونهم ويناصرونهم ويوادونهم.

﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من سوى المؤمنين، أي: لا يوالون الكافرين، ويتركون ولاية المؤمنين، ولا يوالون الكافرين مع المؤمنين، بل يجب عليهم موالاة المؤمنين، وترك موالاة الكافرين.

وأيضًا: لا يجعلون للكافرين ولاية عليهم، وينتصرون بهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١].

والنهي للتحريم، فلا يجوز للمؤمنين موالاة الكافرين، ولا مناصرتهم، ولا الانتصار بهم، بل يجب عليهم معاداتهم، والبراءة منهم، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ

سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [الآية: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

وقال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ [النساء: ٨٩].

وقال هنا: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بأسلوب الغيبة، والإظهار مقام الإضمار، ولم يقل: «لا تتخذوا» كما في آية آل عمران، ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [الآية: ١١٨].

وكما في آية النساء، وآيتي المائدة، وآية التوبة وآية الممتحنة؛ لأنه سبق نداء المؤمنين في هذه الآيات الخمس بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ثم جاء خطابهم بالنهي بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾.

كما سبق خطاب المؤمنين بقوله في سورة النساء: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾، ثم خاطبهم بقوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟﴾.

أما قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فلم يسبقه نداء للمؤمنين، ولا خطاب لهم، ولهذا جاء بأسلوب الغيبة، وجاء بالإظهار للدلالة على أن إيمان المؤمنين يمنعهم من موالاة الكافرين.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دليل على أن الموالاة إنما تكون بين المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾ الإشارة لمصدر الفعل «يتخذ» أي: للمفهوم من النهي السابق، وهو اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أي: ومن يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

﴿ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ أي: فقد برئ من الله، والله بريء منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ قرأ يعقوب «تَقِيَّة» بفتح التاء، وكسر القاف، وتشديد الياء مفتوحة بعدها، وقرأ الباقون بضم التاء، وألف بعد القاف ﴿تُقَاةً﴾.

والاستثناء منقطع؛ لأن التقية منهم ليست بموالاة لهم. وفي الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب.

أي: لكن أن تتقوا منهم تقاة بمداراتهم عند الضرورة في الظاهر واللسان، لاتقاء شرهم- دون الباطن والجنان، وهذا أشبه بحال المكره، وقد قال الله- عز وجل-: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٦].

قال ابن القيم(١): «معلوم أن التقاة ليست بموالاة، ولكن لما نهاهم عن موالاة الكفار، اقتضى ذلك معاداتهم، والبراءة منهم، ومجاهرتهم بالعدوان في كل حال، إلا إذا خافوا من شرهم، فأباح لهم التقية، وليست التقية موالاة لهم».

وقال ابن كثير(٢): «إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره، لا بباطنه ونيته، كما حكاه البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: «إنا لنكشر

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٩٧).
(٢) في «تفسيره» (٢/ ٢٤).

في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم»(١).

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ الواو: عاطفة، و«يحذر» ينصب مفعولين؛ الأول: ضمير الخطاب الكاف، والثاني: قوله: «نفسه».

والمعنى: ويخوفكم الله نفسه وعقابه، إذا ارتكبتم نهيه فواليتم الكافرين.

وفي ربط التحذير بنفسه- عز وجل- تعظيم للتهديد؛ لأنه العظيم، القادر على كل شيء، الذي لا يقدر أحد على منع عذابه أو رفعه.

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، وقدم الخبر، وهو قوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ﴾ لأجل الحصر، أي: وإلى الله- عز وجل وحده، لا إلى غيره ﴿الْمَصِيرُ﴾.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «وإليه المصير»؛ لتربية المهابة في النفوس، أي: وإلى الله- عز وجل وحده المرجع والمآب، وعليه الحساب

كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠، آل عمران: ١٠٩، الأنفال: ٤٤، الحج: ٤١، ٧٦، فاطر: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾ [الفجر: ١٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩)﴾.

نهى الله- عز وجل- المؤمنين في الآية السابقة عن موالاة الكافرين، وحذرهم عذابه ونقمته، ثم أكد ذلك بالتنبيه على علمه- عز وجل- بما يخفونه في صدورهم أو يبدونه من موالاة الكافرين وغير ذلك، وعلمه ما في السمٰوات والأرض وقدرته التامة على كل شيء.

قوله: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ الخطاب والأمر في الآية للرسول ﷺ.

وكثيرًا ما يأتي الخطاب له ﷺ مصدرًا بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ وهو أمر بالتبليغ

---

(١) نكشر: أي نضحك في وجوههم ونباسطهم من الكشر، وهو ظهور الأسنان للضحك.

الخاص لهذا القول، يدل على مزيد العناية والاهتمام به والتوكيد له، وإلا فهو ﷺ مأمور بأن يقول القرآن كله ويبلغه للناس.

﴿إِن تُخْفُوا﴾ أي: إن تسروا وتكتموا، وهو خطاب للمؤمنين وغيرهم.

﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ «ما» اسم موصول بمعنى «الذي» يعم أي شيء أخفوه من عداوة أو موالاة أو خير أو شر، أو غير ذلك. أي: الذي في قلوبكم أيًّا كان، ويعبر بـ«الصدور»؛ لأن القلوب فيها، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ولهذا يقال للقلوب: «ذات الصدور».

﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ أي: أو تظهروه وتعلنوه، والضمير «الهاء» يعود إلى «ما» الموصولة.

﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾: جواب الشرط في قوله: ﴿إِن تُخْفُوا﴾.

والضمير في قوله: ﴿يَعْلَمْهُ﴾ يعود إلى المفهوم من الفعلين في قوله: ﴿إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ أي: يعلم ما أخفيتموه وما أبديتموه؛ لأنه- عز وجل- يعلم السر وأخفى، والسر والعلانية عنده سواء، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه: ٧]، وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٣﴾ [الملك: ١٣].

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: في الموضعين اسم موصول يفيد العموم، وكررت لتأكيد عموم علمه عز وجل.

والمعنى: وهو يعلم أزلًا وأبدًا جميع الذي في السموات، وجميع الذي في الأرض من المخلوقات والكائنات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٥﴾ [آل عمران: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٣٨﴾ [إبراهيم: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٩﴾ قدم المتعلِّق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على المتعلَّق به وهو ﴿قَدِيرٌ﴾؛ لتأكيد عموم وكمال وتمام قدرته- عز وجل- أي: أن قدرته- عز وجل- نافذة في كل شيء، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤﴾ [فاطر: ٤٤].

وقال- عز وجل- في الحديث القدسي: «**إني على ما أشاء قادر**»[١].

الفوائد والأحكام:

١- تحريم اتخاذ الكافرين أولياء ومناصرتهم، والانتصار بهم، ووجوب معاداتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١].

فلا تجوز موالاة الكافرين ومناصرتهم على أحد من المؤمنين بحال من الأحوال، ولا تجوز مناصرتهم على أحد من الكافرين، إلا إذا كان في مناصرتهم على الكافرين مثلهم مصلحة ظاهرة للمسلمين، كأن يناصر المسلمون الكفار على كفار يخشى المسلمون منهم، فتكون مناصرتهم، لا لمصلحة الكفار، ولكن لمصلحة المسلمين أنفسهم، ولهذا فرح المؤمنون بنصر الروم على الفرس؛ لشدة عداوة الفرس للمسلمين وتربصهم بهم، وتمزيق مَلِكهم كتاب رسول الله ﷺ الذي كتبه إليه، بخلاف ملك الروم[٢].

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ [الروم: ١-٥].

كما لا يجوز الانتصار بالكافرين والاستعانة بهم على غيرهم من الكافرين، وهذا ما

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- آخر أهل النار خروجًا (١٨٧)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرج قصة تمزيق كسرى لكتابه ﷺ، أحمد (٣/ ٤٤١-٤٤٢)، من حديث التنوخي رسول هرقل.

وأخرج قصة ملك الروم «هرقل» وإكرامه لمن وفد عليه من الصحابة- أخرجه من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهما- البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣).

يدل عليه ظاهر الآية، وقد روي أنه ﷺ قال لكافر تبعه يوم أحد: «ارجع فلن استعين بمشرك»[(١)].

لكن إن احتاج المسلمون إلى الانتصار بهم، وكان في ذلك مصلحة ظاهرة للمسلمين فقد أجاز ذلك بعض أهل العلم بشرط أن يكون ذلك عند الضرورة، وبقدر الحاجة، ودفع الضرر عن المسلمين، من غير مداهنة للكافرين على حساب الدين والأخلاق، ولا مذلة على المؤمنين.

وقد استدلوا على هذا بأن النبي ﷺ استعار يوم خيبر أدراعًا من صفوان بن أمية، وكان يومئذٍ مشركًا. فقال: «أغصبًا يا محمد؟» فقال: «بل عارية مضمونة»[(٢)].

وقد شهد صفوان حنينًا مع النبي ﷺ وهو لم يسلم بعد[(٣)].

وحالف ﷺ خزاعة[(٤)].

٢- أن الإيمان الحقيقي يمنع من اتخاذ الكافرين أولياء، ويوجب عداوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾، فعلق الحكم بالمؤمنين، وبوصف الإيمان، فمن والى الكافرين فإيمانه ناقص، ويخشى عليه ما هو أعظم من ذلك.

٣- وجوب الموالاة بين المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

٤- براءة الله- عز وجل- ممن اتخذ الكافرين أولياء، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٨١٧)، وأبوداود في الجهاد (٢٧٣٢)، والترمذي في السير (١٥٥٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٣٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبوداود في البيوع- تضمين العارية (٣٥٦٢)، وأحمد (٣/ ٤٠١)، من حديث صفوان بن أمية رضي الله عنه.

(٣) انظر: «فتح الباري» (٦/ ١٧٩).

(٤) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١٣/ ٣٤٠) حديث (٥٩٩٦)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وله شاهد من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٣١، ٢٧٣٢). وانظر: «السيرة النبوية» (٣/ ٣٢١-٣٢٦)، «فتح الباري» (٥/ ٣٣٧-٣٣٨).

﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ ومن برئ الله منه تولاه الشيطان.

٥- أن اتخاذ الكافرين أولياء من كبائر الذنوب؛ لأن الله رتب عليه براءته من فاعله، وما رُتب عليه براءة الله، أو براءة رسوله من فاعله فهو من الكبائر.

٦- لا يجوز أن يكون لأحد من الكفار ولاية على أحد من المسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١].

٧- في براءة الله- عز وجل- ممن يوالي الكافرين من دون المؤمنين إثبات ولايته عز وجل للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٨].

٨- تقدير الدين الإسلامي لكل حال ولكل ظرف قدره، ورفع الحرج عن الأمة في اتخاذ التقاة من الكفار ومداراتهم عند الضرورة؛ لاتقاء شرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾.

٩- تحريم الركون إلى الكفار ومداهنتهم على حساب ديننا؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أي: لاتقاء شرهم، دون الرضا بما هم عليه؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.

١٠- التحذير من نقمة الله وعقابه، وأليم عذابه، لمن اتخذ الكافرين أولياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وفي هذا من الوعيد ما لا يخفى.

١١- جواز إضافة لفظ «نفس» إليه- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.

١٢- أن مصير جميع الأمور والأحكام والخلائق إلى الله- عز وجل- وحده، لا إلى غيره في الدنيا والآخرة، وسيحاسب العباد على أعمالهم، ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ وفي هذا وعيد لمن خالف أمر الله، ووعد لمن أطاع الله.

١٣- أن القرآن الكريم كلام الله- عز وجل- أنزله على رسوله ﷺ، ولم يتقوله ﷺ من عند نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ وفي هذا رد على من زعموا أنه اختلقه وافتراه، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الطور: ٣٣]، وقال تعالى:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ [يونس: ٣٨، هود: ١٣، ٣٥، السجدة: ٣، الأحقاف: ٨]،

١٤- الأمر بإبلاغ الناس بعلم الله- عز وجل- بما يخفون في صدورهم، وبما يبدون؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ وذلك؛ ليحاسب المرء نفسه على ما يخفي وما يعلن، قبل محاسبته على ذلك.

١٥- إحاطة علم الله- عز وجل- بما يخفي الناس في صدورهم وبما يبدونه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ ومقتضى علمه- عز وجل- محاسبتهم على ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

١٦- التحذير من أن يخفي الإنسان في نفسه ما لا يرضي الله- عز وجل- من موالاة الكافرين، أو غير ذلك.

١٧- إثبات الاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ ﴾ وفي هذا رد على الجبرية.

١٨- كما أن في الآية وعيدًا وتحذيرًا ظاهرًا لمن أخفى الشر أو أبداه، ففيها في المقابل وعد لمن عمل الخير أو نواه.

١٩- سعة علم الله- عز وجل- وإحاطته بما في السموات وما في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

٢٠- عموم قدرة الله- عز وجل- وتمامها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٣٠) قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٣٠)﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ «يوم»: مفعول به لمقدر محذوف تقديره: «اذكر» أي: اذكر للناس هذا اليوم العظيم، وذكرهم به، ويحتمل كون «يوم» منصوبًا بـ«تود» في قوله: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾.

﴿تَجِدُ﴾ علمية تنصب مفعولين، الأول: «ما» فهي اسم موصول بمعنى «الذي» مبني في محل نصب، والثاني قوله: ﴿مُّحْضَرًا﴾.

ويجوز أن تكون «تجد» بمعنى «تصيب» فتتعدى إلى مفعول واحد هو «ما» الموصولة، و«محضرًا» حال.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: كل نفس من أنفس المكلفين بعبادة الله- عز وجل- وهم الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات: ٥٦].

أما ما عدا الإنس والجن فهم غير مكلفين، وغير محاسبين كالملائكة؛ لأنهم كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم: ٦]، وكذلك البهائم، وإنما يقتص لبعضها من بعض في ذلك اليوم، ثم يقال لها: «**كوني ترابًا**»[١].

﴿مَا عَمِلَتْ﴾ «ما» اسم موصول يفيد العموم ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ «من» لبيان الجنس.

أي: يوم تجد كل نفس جميع الذي عملته من الخير قليلًا كان أو كثيرًا ﴿مُّحْضَرًا﴾

---

(١) كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٠).

كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ ﴾ [الزلزلة: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ۝٤٧ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والمراد بالخير هنا ما يشمل الأعمال الصالحة كلها، قولًا، وفعلًا، وبذلًا، وغير ذلك، سواء كانت مما يتعدى نفعه إلى الآخرين، كالدعوة إلى الله، والإنفاق في وجوه البر ومساعدة المحتاجين ونحو ذلك. أو مما يقتصر نفعه على فاعله كالصلاة والصيام ونحو ذلك.

﴿ مُّحْضَرًا ﴾ أي: حاضرًا معدًا جاهزًا- بأمر الله- عز وجل- لتراه وتستبشر به، وتجازى عليه- كما قال تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤ ﴾ [التكوير: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [النبأ: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ ﴾ [الزلزلة: ٦].

فإذا رأى الإنسان ما عمله من خير فرح بذلك واستبشر وسرّه ذلك.

﴿ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ ﴾ الواو: استئنافية، و«ما» اسم موصول في محل رفع مبتدأ وخبره جملة ﴿ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ أي: والذي عملته من سوء ﴿ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾.

ويحتمل كون «الواو» عاطفة، فتكون «ما» معطوفة على «ما» في قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ وفي الكلام حذف تقديره: وتجد ما عملت من سوء محضرًا.

والأول وهو كون الجملة استئنافية- أولى من حيث الإعراب، لعدم الحاجة فيه إلى التقدير، وهو الأصل.

كما أنه أصح من حيث المعنى، فإنه على القول بأن الجملة معطوفة يكون التقدير: وتجد ما عملت من سوء محضرًا.

وهذا إنما يكون بالنسبة لأعمال الكفار، كما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩ ﴾ [الكهف: ٤٩].

وأما بالنسبة لأعمال المؤمنين، فما كان منها من خير أحضر لهم- كما في أول الآية، وما كان منها من سوء فإنه لا يحضر لهم، وإنما يقررون به، كما في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي، ربي. حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك. قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكفار، والمنافقون، فيقول الأشهاد:** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨﴾ [هود: ١٨]»(١).

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ليس أحد يحاسب إلا هلك، قالت: قلت: يا رسول الله، جعلني الله فداءك، أليس يقول الله- عز وجل-:** ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: ٧، ٨]، **قال: ذاك العرض يعرضون، ومن نوقش الحساب هلك**»(٢).

ومعنى قوله: ﴿مِن سُوٓءٍ﴾ أي: من عمل سيئ، يسوء صاحبه في الحال والمآل، وقد يسوء غيره؛ لأن الأعمال السيئة، وإن لم تتعد مباشرة إلى الآخرين فلها آثارها السيئة على البلاد والعباد، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١﴾ [الروم: ٤١].

﴿تَوَدُّ﴾ خبر «ما» كما تقدم، أي: تحب محبة شديدة، والود والمودة: خالص المحبة.

﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ﴾ «لو»: إذا وقعت بعد «ودّ» فهي مصدرية، غير عاملة، وهي داخلة على فعل محذوف، تقديره: لو ثبت أو حصل أن بينها وبينه، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]، التقدير: أن يردوكم. وقال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، أي: أن يعمر.

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٣٩)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧٦)، وأبوداود في الجنائز (٣٠٩٣)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٦).

وقال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩]، أي: أن تدهن.

وقيل: إن «لو»: شرطية، وقيل: إنها زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى.

والضمير في قوله: ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا﴾ يعود إلى النفس، والضمير في قوله: ﴿وَبَيْنَهُۥٓ﴾ يعود إلى «ما» أي: إلى الذي عملته من سوء.

﴿أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ﴾ أي: زمنًا طويلًا متأخرًا، ومكانًا بعيدًا.

أي: تود أنها لم تعمله، ولم يُحضر لها، أو لم تُذكّر به، وأنها بعيدة عنه، وبعيد عنها، كل البعد، بُعد ما بين المشرق والمغرب، كما يتمنى قرين السوء البعد عن قرينه الشيطان، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ۝٣٨﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٨].

فتأمل أخي الكريم هذا الموقف، عندما تُحضر للإنسان صحائف أعماله، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، من وراء ظهره، وتأمل كم هو الغبن، بين هذا وذاك، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٦-٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠].

وقد أحسن القائل:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا
فلم يتأخر من أراد تقدمًا ... ولم يتقدم من أراد تأخرًا[(١)]

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ﴾ أي: ويحذركم الله نفسه، وعقابه، وأليم عذابه، وكرر التحذير هنا وقد سبق في قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾ الآية؛ لأن المقام يقتضيه، فالتحذير الأول من موالاة الكافرين، والتحذير الثاني من أن يجدوا

(١) البيتان لابن هانئ. انظر: «ديوانه» ص(١٤٠).

يوم القيامة ما عملوا من سوء محضرًا.

وقد يكون التحذير الثاني لزيادة التأكيد.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ «رؤوف» على وزن «فعول» صفة مشبهة يدل على أنه- عز وجل- ذو الرأفة الواسعة العظيمة، والرأفة: أشد الرحمة، وأخصها وأرقها.

﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾ المراد بالعبودية هنا العبودية العامة، عبودية الخضوع والانقياد، لقدر الله الكوني، كما في قوله- عز وجل-: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣﴾ [مريم: ٩٣].

والمعنى: أن الله- عز وجل- رؤوف بالخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم، ناطقهم وبهيمهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر: ٤٥].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ بعد قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ توجيه للعباد للجمع بين خوف الله- عز وجل- ورجائه، وبيان أن تحذيره- عز وجل- لهم نفسه- هو من رأفة الله بهم لينجوا من عذابه. كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ۝١٦﴾ [الزمر: ١٦].

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾.

زعم أناس محبة الله فأمر الله- عز وجل- نبيه ﷺ- أن يقول لهم ولغيرهم ممن يزعم هذا الزعم: إن كنتم صادقين فيما تقولون، فاتبعوني، فذلك علامة صدق محبة الله، وهو الميزان الذي يعرف به من أحب الله حقيقة، ممن ادعى ذلك مجرد دعوى، بلا دليل، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ﴾ [المائدة: ١٨].

﴿قُلۡ﴾ الخطاب والأمر للنبي ﷺ. وتصدير الخطاب له ﷺ بـ﴿قُلۡ﴾ للعناية والاهتمام والتوكيد، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وكما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ «إن»: شرطية، و«كنتم»: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ واقترن بالفاء؛ لأنه جملة طلبية، والخطاب لكل من ادعى أنه يحب الله.

﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ فيما جئتكم به، وفيما أنا عليه من الشرع؛ عقيدة وقولًا وفعلًا وتركًا، ظاهرًا وباطنًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى في امتداح المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[١]، «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[٢].

فجعل عز وجل من شرط صدق محبة الله- عز وجل- اتباعه ﷺ، وهذا هو الميزان العدل في محبة الله- عز وجل- وهو اتباعه ﷺ.

أما من ادعى محبة الله- عز وجل- أو محبة الرسول ﷺ، وهو غير متبع له ﷺ، فدعواه كاذبة باطلة لا حقيقة لها، كما قيل:

وكل يدعي وصلًا بليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا[٣]

وقال الآخر:

والدعاوى إن لم يقيموا عليها ... بينات أصحابها أدعياء

وقد أحسن القائل:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا محال في القياس بديع

---

(١) أخرجه مسلم في الأقضية (١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، وأبوداود في السنة (٤٦٠٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) نظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية. (٤/ ٧١).

لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع[(١)]

قوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ رتب على اتباعه ﷺ فائدتين عظيمتين ومنفعتين كبيرتين، هما: محبة الله لهم، ومغفرته.

وقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يحبكم الله؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فمن أحب الله، وصدَّق ذلك باتباعه للرسول ﷺ أحبه الله. قال ابن القيم: «فجعل محبة العبد لربه موجبًا مقتضيًا لمحبة الرب عبده».

والشأن كل الشأن في محبة الله- عز وجل- للعبد، فهي أعظم وأسمى، وأجل وأعلى من محبة العبد لله.

قال ابن القيم: «وكون العبد محبوبًا لله أعلى من كونه محبًا لله، فليس الشأن أن تحب الله، ولكن الشأن أن يحبك الله»[(٢)].

وقال ابن كثير[(٣)]: «أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول».

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الواو: عاطفة، والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، «ذنوبكم، «ذنوب»: جمع مضاف إلى معرفة فيعم جميع الذنوب، أي: ويغفر لكم جميع ذنوبكم، بسترها، والتجاوز عنها، بسبب اتباعكم للنبي ﷺ، ومحبة الله لكم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال ﷺ: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»[(٤)].

وبتيسير أسباب المغفرة لكم بتوفيقكم للتوبة، ونحو ذلك.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «غفور» على وزن «فعول» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على أنه- عز وجل- ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ

(١) البيتان لمحمود الوراق. انظر: «الكامل في اللغة» (٢/ ٤).
(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٩٧).
(٣) في «تفسيره» (٢/ ٢٥).
(٤) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٨٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه. وقال: «حديث حسن صحيح».

﴿ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت: ٤٣].

فهو عز وجل يستر الذنب ويتجاوز عنه، كما في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- **فيقول الله- عز وجل-: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»[(١)].

ومنه سمي «المغفر» وهو «البيضة» التي توضع على الرأس تستره، وتقيه السهام.

﴿رَّحِيمٌ﴾: على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على أنه- عز وجل- ذو الرحمة الواسعة، رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

ورحمة فعلية، يوصلها من شاء من خلقه، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، وقال تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٤].

رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥].

ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وباجتماع المغفرة والرحمة يزول المرهوب، ويحصل المطلوب. وقدَّم المغفرة على الرحمة؛ لأن المغفرة وقاية وتخلية، والرحمة عناية وتحلية، والوقاية والتخلية قبل العناية والتحلية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

بيّن في الآية السابقة أن علامة صدق محبة الله اتباعه ﷺ، وأمر بذلك، ثم بيّن في هذه الآية حقيقة اتباعه ﷺ وصفتها.

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

قوله: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ ﴾ الخطاب والأمر للنبي ﷺ، وصدر بقوله تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ للعناية والاهتمام والتوكيد. و«الطاعة»: الامتثال والانقياد والموافقة، بفعل المأمور، وترك المحظور، أي: قل يا محمد للناس ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ بفعل ما يأمركم الله به، وترك ما ينهاكم عنه.

﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ «ال» للعهد الذهني، أي الرسول المعهود في الأذهان محمدًا ﷺ، أي: وأطيعوا الرسول محمدًا ﷺ بفعل ما يأمركم به وترك ما ينهاكم عنه.

و«الرسول» في الشرع: من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه.

وعطف «الرسول» على اسمه عز وجل «الله» بالواو التي تفيد التشريك؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وهذا بخلاف باب القدر والمشيئة، فلا يجوز عطف اسمه ﷺ ولا غيره بالواو على اسمه- عز وجل- ولهذا لما قال رجل: يا رسول الله، ما شاء الله وشئت. قال ﷺ: **«أجعلتني لله عدلًا، قل: ما شاء الله وحده»**(١).

وفي رواية: «**إذا حلف أحدكم، فلا يقل: ما شاء الله وشئت، ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شئت**»(٢).

وذلك لأن مشيئة الرسول ﷺ وجميع الخلق إنما هي تبع لمشيئة الله- عز وجل- وليست من مشيئة الله.

وفي قوله: ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ دون إعادة الفعل «أطيعوا» دلالة على أن طاعة الرسول ﷺ تجب تبعًا لطاعة الله تعالى وأنها طاعة لله.

كما أنها أيضًا تجب استقلالًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤، ٢٨٣، ٣٤٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٩٨)، وابن ماجه في الكفارات (٢١١٧)، والطبراني في «الكبير» (١٣٠٠٥، ١٣٠٠٦)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٧٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) جاء هذا في رواية ابن ماجه.

التغابن: ١٢]، بدليل إعادة الفعل «أطيعوا».

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: فإن تولوا وأعرضوا عن طاعة الله تعالى، وطاعة الرسول ﷺ بقلوبهم وأبدانهم وجوارحهم.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أي: فهم كافرون، بتوليهم عن طاعة الله ورسوله، والله لا يحب الكافرين منهم ومن غيرهم، بسبب كفرهم.

وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ولم يقل: «لا يحبهم» للتسجيل والحكم عليهم بالكفر، بسبب توليهم، ولتعميم حكم الكفر على كل متول عن طاعة الله ورسوله، ونفي محبته- عز وجل- عن كل كافر منهم ومن غيرهم، ولبيان العلة في نفي محبته عنهم، وهي كفرهم، إضافة إلى مراعاة فواصل الآيات السابقة واللاحقة.

ومفهوم الآية أنه- عز وجل- يحب المؤمنين المتقين كما قال- عز وجل-: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤، ٧].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ الآية.

٢- التحذير من يوم القيامة، والتذكير بما فيه من إحضار الأعمال، وعظيم الأهوال، والحث على تذكره، وأن يكون منا على بال؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ الآية.

٣- أن كل نفس ستجازى بما عملت، من خير أو سوء؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾.

٤- أن كل نفس عملت خيرًا قليلًا كان أو كثيرًا ستجده حاضرًا يوم القيامة، فتفرح وتستبشر؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾.

٥- أن عمل الشر يسوء صاحبه في الحال والمآل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾

فسماه سوء؛ لأنه يسوء صاحبه، وقد يسوء غيره.

٦- أن كل نفس عملت سوءً ستود في ذلك اليوم التخلص منه، والبعد عنه، وأنها لم تعمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ وهيهات ذلك.

٧- إحصاء جميع أعمال العباد؛ لأن إحضارها لهم ومجازاتهم عليها يستلزم إحصاءها قبل ذلك، وفي ذلك كله دلالة على كمال رقابة الله- عز وجل- وعظيم قدرته.

٨- الترغيب في عمل الخير قليلًا كان أو كثيرًا، والترهيب من عمل الشر قليلًا كان أو كثيرًا.

٩- تحذير الله- عز وجل- العباد نفسه، ونقمته وعقابه، وأليم عذابه، إن هم خالفوه وعصوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ وذلك من رأفته- عز وجل- بهم، ولهذا أتبعه بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

١٠- إثبات صفة الرأفة لله- عز وجل- وهي أخص من الرحمة، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾. فهو- عز وجل- ذو الرأفة العظيمة، واسمه «الرؤوف» سبحانه.

١١- أن رأفة الله- عز وجل- عامة لجميع العباد، مؤمنهم وكافرهم، ناطقهم وبهيمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فهو رؤوف بعباده جميعًا يسعهم حلمه ورحمته وفضله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

١٢- عبودية الخلق كلهم لله، بالمعنى العام للعبودية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فجميع الخلق عبيد لله- عز وجل- خاضعون لحكمه وقدره الكوني.

١٣- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

١٤- أمر الله- عز وجل- لرسوله ﷺ بتحدي من يَدَّعون محبة الله- عز وجل- بتحقيق ما يُصَدِّق دعواهم، وهو اتباعه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾.

١٥- أن من لازم أي دعوى إقامة الدليل عليها، وفي الحديث: «**البينة على المدعي**،

واليمين على من أنكر»[1].

١٦- أن الميزان العدل في صدق محبة العبد لله- عز وجل- هو اتباع الرسول ﷺ، فمن اتبع الرسول ﷺ فهو محب لله تعالى، وبحسب قوة اتباعه للرسول ﷺ تكون قوة محبته لله عز وجل.

١٧- جواز ادعاء محبة الله شريطة أن يكون على ذلك بينة، وهي اتباع الرسول ﷺ؛ لأن التحدي في الآية والإنكار لمن ادعى ذلك بلا بيِّنة.

١٨- أن محبة الله- عز وجل- من أعظم المطالب، حتى إنه ليتشوف إليها ويدعيها من ليس أهلًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾.

١٩- أن من أعظم أساليب إفحام مدعي الكذب إلزامه بفعل ما يُصدق دعواه، فهؤلاء ادعوا محبة الله فألزموا باتباع الرسول ﷺ لتصديق دعواهم.

٢٠- أن اتباع الرسول ﷺ سبب لمحبة الله للعبد؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

٢١- أن الشأن كل الشأن في محبة الله- عز وجل- للعبد، لا في محبة العبد لله؛ لقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ولم يقل «تحبوا الله» مع أنهم إنما ادعوا أنهم يحبون الله، فأمرهم بما يكون برهانًا وسببًا لمحبة الله لهم وهو اتباعه ﷺ، وهو بلا شك دليل على محبتهم لله عز وجل.

٢٢- إثبات محبة العبد لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ وهي واجبة ولا يصح الإيمان إلا بها، ويجب تقديمها على كل محبوب. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤].

فتجب محبته- عز وجل- لذاته، ولما أنعم به علينا من النعم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في الأحكام (١٣٤١)- بلفظ: «البيِّنة على المدعي واليمين على المدعى عليه»- من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وقال: «في إسناده مقال».

كما تجب محبة الرسول ﷺ، قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم، حتى أكون أحب إليه من والده وولده، والناس أجمعين**»(١).

٢٣- إثبات المحبة لله- عز وجل- كما يليق بجلاله وعظمته، وأنه- عز وجل- يحب من اتبع الرسول ﷺ محبة حقيقية؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٢٤- أن الجزاء من جنس العمل، فمن أحب الله، وصدَّق ذلك باتباعه للرسول ﷺ أحبه الله؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ لكن شتان بين المحبتين، فمحبة الله للعبد أعظم وأسمى، وأجل وأعلى.

٢٥- أن اتباع الرسول ﷺ سبب لمغفرة الله- عز وجل- للذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾.

٢٦- عظم فضل الله وجوده وإحسانه، حيث رتب على اتباع الرسول ﷺ هاتين الفائدتين العظيمتين، وهما محبته- عز وجل- للعبد، ومغفرته لذنوبه.

٢٧- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ أي: يستر الذنب، ويتجاوز عنه.

٢٨- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله- عز وجل- رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه؛ رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقوله ﴿رَّحِيمٞ﴾.

٢٩- في اقتران مغفرته- عز وجل- برحمته يزداد كمالًا إلى كمال، حيث يجمع لعباده بين المغفرة، التي بها يزول المرهوب، والرحمة التي بها يحصل المطلوب- نسأل الله تعالى من فضله.

٣٠- الرد على من يزعمون أنهم أولياء الله، ويَدْعون الناس إلى تعظيمهم مع مخالفتهم للرسول ﷺ، وصدق الله العظيم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٥)، ومسلم في الإيمان (٤٤)، والنسائي في الإيمان و شرائعه (٥٠١٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٧)، من حديث صهيب رضي الله عنه.

٣١- وجوب طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ وصدر الخطاب بقوله: «قل» للعناية والاهتمام والتوكيد.

٣٢- إثبات رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَالرَّسُولَ﴾ أي: الرسول المعهود في الذهن، وهو محمد بن عبدالله ﷺ.

٣٣- أن طاعة الرسول ﷺ تجب تبعًا لطاعة الله تعالى وهي طاعة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾.

كما تجب طاعته استقلالًا، فيما أمر به، مما لم يأت الأمر به في القرآن الكريم؛ لأن الله- عز وجل- أمر بطاعته مطلقًا، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢، التغابن: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩، النور: ٥٤، محمد: ٣٣]، بتكرار الفعل «أطيعوا».

٣٤- الرد على الذين ينادون بالأخذ بالقرآن، دون السنة، كما قال ﷺ: «**رب رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه**» قال ﷺ: «**ألا إنما حرم رسول الله، مثل ما حرم الله**»[1].

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

٣٥- جواز عطف اسم الرسول ﷺ، أو وصفه على اسم الله- عز وجل- في باب الطاعة، بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى.

٣٦- أن من تولى عن طاعة الله ورسوله ﷺ، فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

٣٧- نفي محبة الله- عز وجل- عن جميع الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾.

---

(١) أخرجه أبوداود في السنة- لزوم السنة (٤٦٠٤، ٤٦٠٥)، والترمذي في العلم (٢٦٦٣، ٢٦٦٤)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه في المقدمة (١٢، ١٣)، وأحمد (٤/ ١٣٠، ١٣٤)، من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه.

٣٨- أن سبب عدم محبته- عز وجل- للكافرين هو كفرهم.

٣٩- إثبات محبة الله- عز وجل- للمؤمنين؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فمفهوم الآية محبته- عز وجل- للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

٤٠- التحذير من التولي والإعراض عن طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لأن الله رتَّب على ذلك الكفر وعدم محبته- عز وجل- وذلك مؤذن بغضبه وعذابه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة: ١٠٤].

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾.

قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾: «إِنَّ»: حرف توكيد ونصب، ﴿ٱصۡطَفَىٰٓ﴾: الاصطفاء الاختيار والاجتباء، وصفوة الشيء خياره وأفضله، واصطفى الشيء أخذ صفوته.

أي: إن الله اجتبى آدم عليه السلام واختارة نبيًّا وفضَّلهُ، فخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلمه أسماء كل شيء، وأسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة، ثم أهبطه منها ليعود إليها أفضل مما كان عليه قبل ذلك، وأوحى إليه بشرع تَعَبَّد الله تعالى به، وبقي الناس عليه مدة لم يحصل بينهم اختلاف، فلما اختلفوا بعث الله النبيين.

كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْ﴾ [يونس:١٩].

﴿وَنُوحٗا﴾ أي: واصطفى نوحًا عليه السلام، واختاره نبيًّا رسولًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ [نوح:١].

وجعله أول رسول إلى أهل الأرض بعد أن أشرك الناس وعبدوا مع الله غيره.

كما جاء في حديث الشفاعة: أن آدم عندما يعتذر عن الشفاعة يقول: «**ائتوا نوحًا، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض**»(١).

ونجَّاه ومن اتبعه في السفينة، وأغرق من عصاه، وجعل النبيين بعده من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد:٢٦].

وذكر الله- عز وجل- نوحًا بعد آدم؛ لأنه النبي الثاني، والأب الثاني للبشرية بعد آدم؛ لأن البشر كلهم بعده يرجعون إلى أبنائه الثلاثة: (سام، وحام، ويافث)، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧].

﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: واصطفى (آل إبراهيم) واختارهم واجتباهم وفضَّلهم، (وآل إبراهيم) هم: ذريته وعشيرته وقرابته، فاختار إبراهيم نبيًّا رسولًا، واتخذه خليلًا، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥].

وجعل النبوة بعده في عقبه وذريته، ونصَّ على آله- والله أعلم- مع أنه يدخل فيهم من باب الأولى لكثرة الرسل فيهم، ولأن فيهم أفضل الرسل وسيدهم وخاتمهم نبينا محمد ﷺ. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت:٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٨٤-٨٦].

﴿وَآلَ عِمْرَانَ﴾ أي: واصطفى (آل عمران) واختارهم، و(عمران): هو والد مريم أم عيسى عليهما السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ [التحريم:١٢].

ويدل على هذا قوله بعده: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران:٣٥].

---

(١) أخرجه البخاري في «الأنبياء»- قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾[نوح:١] (٣٣٤٠)، ومسلم في «الإيمان» أول أهل الجنة منزلة فيها (١٩)، وابن ماجه في «الزهد» (٤٣١٢)، من حديث أنس رضي الله عنه.

و(آل عمران): هم أهل بيته امرأته التي أثنى الله تعالى عليها بقوله: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ [آل عمران:٣٥].

و«مريم» ابنتها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:٤٢].

وعيسى ابن مريم، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة:٢٥٣].

فهم مصطفى من مصطفى، من مصطفى من مصطفى.

فاصطفى الله آدم، واصطفى من ذريته نوحًا، واصطفى من ذرية نوح آل إبراهيم، واصطفى من آل إبراهيم آل عمران.

﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾: «العالمين» جمع «عالَم» بفتح اللام، وهو كل من سوى الله تعالى.

والمعنى: اصطفينا هؤلاء المذكورين، واخترناهم، وفضَّلنا كلًّا منهم على عالم زمانه، ومنهم من اصطُفِيَ وفُضِّلَ على جميع الخلق، فالرسل والأنبياء أفضل الخلق كلهم، وأفضلهم أولوا العزم من الرسل، وأفضل أولي العزم محمد ﷺ، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم نوح وعيسى- على اختلاف بين أهل العلم أيهما أفضل.

ويدخل في اصطفاء وتفضيل المذكورين من تبعهم من المؤمنين والصالحين.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- «قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال: «هم المؤمنون من آل إبراهيم، وآل عمران، وآل ياسين، وآل محمد. يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾[آل عمران:٦٨] وهم المؤمنون»(١) .

قوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣٤].

قوله: ﴿ ذُرِّيَّةًۢ ﴾: منصوب بدلًا من ﴿ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ أو حال من آل إبراهيم وآل عمران.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٣٢٨)، وابن حبان في «تفسيره» (٢/ ٦٣٥).

و﴿ ذُرِّيَّةً ﴾: مأخوذ من (ذرأ) بمعنى: خلق، كما قال تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ [الشورى:١١]، أي: يخلقكم فيه. والمعنى على هذا: أن هؤلاء الأصناف الأربعة (ذرية) أي نسلًا.

﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾: فكلهم أولاد آدم ، ومتوالد بعضهم من بعض، وبعضهم من بعض في جنس الخلقة، وفي الدين، والأخلاق والآداب، وفي التسلسل في الاصطفاء، وعلى هذا تكون الذرية شاملة للأصول والفروع.

ويُحتمل أن ﴿ ذُرِّيَّةً ﴾ مأخوذ من (وذر) بمعنى: ترك، كما في قوله ﷺ: «**إنك إن تذر ورثتك أغنياء خيرًا من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»(١).

وعلى هذا يكون المراد بالذرية: الفروع، أي: الأولاد الذين خلفهم وتركهم الإنسان بعده.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: ذو سمعٍ واسع يسع جميع الأصوات والأقوال ويجيب الدعوات.

﴿عَلِيمٌ ﴾ أي: ذو علمٍ واسع يسع كل شيء، يَصطفي ويُفضِّل مَنْ هو أهل لذلك بعلمه وحكمته، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[الأنبياء:٩٠-٩١].

فاصطفاؤه لمن اصطفاه من عباده عن سمعٍ منه- عز وجل- لأقوالهم، وعِلم منه بضمائرهم وأفعالهم، وأحوالهم.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

تقرير لاصطفاء الله- عز وجل- آل عمران، وبيان له.

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٩٦)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٦٤)، والنسائي (٣٦٢٦)، والترمذي في الوصايا (٢١١٦)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وقد فصَّل عز وجل في هذه الآية وما بعدها قصة أم عمران وزكريا ومريم وعيسى؛ لأن أول هذه السورة نزل في وفد نجران، وهم من النصارى الذين جاؤوا لمحاجة النبي ﷺ؛ ليعلموا أنه ﷺ أعلم منهم بما جرى لأسلافهم.

قوله ﴿ إِذْ قَالَتِ ﴾ «إذ»: ظرف متعلق بمحذوف تقديره: اذكر.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ ﴾: أي: حين قالت امرأة عمران- وقد مات زوجها عمران وهي حبلى. وهي أم مريم، أي: جدة عيسى ابن مريم عليهما السلام.

﴿رَبِّ ﴾ أي: (يا رب) حُذِفت منه ياء النداء اختصارًا؛ لكثرة الاستعمال، وحُذِفَ منه ضمير المتكلم الياء؛ تخفيفيًا، وأصله: (يا ربي).

﴿إِنِّي نَذَرْتُ ﴾ (النذر): أن يُلزِم المرء نفسه بشيءٍ لله لم يكن واجبًا عليه في الأصل.

﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي في بطني من الحمل، ذكرًا كان أو أنثى، واحدًا أو أكثر.

﴿مُحَرَّرًا ﴾ أي: مخلصًا لعبادتك، وخدمة بيتك المقدس.

والمعنى: إني التزمت أن يكون الذي في بطني محررًا من خدمتي، مخلصًا لعبادتك، وخدمة بيتك المقدس، وكان من عادتهم أن يفعلوا ذلك تعظيمًا لبيت المقدس.

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ﴾: (التقبُّل): أخذ الشيء على وجه الرضا، أي: فتقبل مني هذا النذر وهذا العمل بجعله خالصًا لوجهك وفق شرعك، وأَثِبْنِي عليه.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾: هذه الجملة استئنافية للتعليل، أي: لأنك أنت السميع العليم.

و﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: اسم من أسماء الله تعالى، يدل على أنه ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات والأقوال، يسمع الدعاء سمع إدراك، وسمع إجابة، كما في قول المصلي: «سمع الله لمن حمده»، أي: استجاب.

﴿ٱلْعَلِيمُ ﴾: اسم من أسماء الله تعالى، يدل على أنه ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه:٩٨].

والمعنى: لأنك أنت السميع للدعاء، المستجيب له، العليم بنيتي وبالحال

وبالأصلح وبكل شيء. وقد أكدت هذا بـ «إنَّ» وبضمير الفصل «أنت».

قولـه تعـالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

قوله: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ أي: فلما ولدتها، وأنَّث الضمير مراعاة لمعنى «ما» في قولها: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾؛ لأنها وضعت أنثى.

﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ أي: يا رب.

﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ «أنثى» حال، أي: إني ولدتها حال كونها أنثى، وقيل: بدل من «ها» بدل كل من كل، أي: إني وضعت أنثى.

وكأنها بهذا تعتذر أو تتحسر؛ لأنها كانت ترجو أن يكون ما في بطنها ذكرًا، وإنما قالت هذا؛ لأنها جهلت قدر هذه المولودة، وما سيكون لها من شأن عظيم.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾: الجملة اعتراضية بين قولها: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾.

قرأ ابن عامر ويعقوب وأبو بكر عن عاصم: «وضعْتُ» بإسكان العين وضم التاء فيكون هذا من كلام امرأة عمران، احتراسًا منها، أي: ولست أُخبِر الله بما وضعت، فهو أعلم بذلك.

وقرأ الباقون: ﴿وَضَعَتْ﴾ بفتح العين وإسكان الياء، فيكون هذا من كلام الله تعالى.

وفي هذا الاعتراض مع بيان علمه- عز وجل- بما وضعت فائدتان:

الأولى: دفع ما قد يتوهم من أنها قصدت إعلام الله تعالى بقولها: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ وهي لم تقصد ذلك قطعًا؛ لعلمها أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

والثانية: الإشارة إلى أنه سيكون لها شأن عظيم، مما لم تعلمه أمها ولا غيرها.

وقوله ﴿أَعْلَمُ﴾: اسم تفضيل، أي: أنه- عز وجل- أعلم منها ومن كل أحد بما وضعت.

﴿بِمَا وَضَعَتْ﴾ «ما»: موصولة، والعائد ضمير في محل نصب مفعول به، أي: بالذي وضعته في كونه أنثى، وفيما سيكون لهذه الأنثى من شأنٍ عظيم، خير من مطلق الذكر.

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾: هذا وما بعده من تتمة كلام امرأة عمران.

وقيل: يُحتمل أن قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ من كلام الله – قصد به التماس العذر لها في التحسُّر والتحزُّن ببيان فضل الذكر على الأنثى؛ ولهذا جُبِلت النفوس على الرغبة فيه.

والظاهر أن قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ كالذي بعده من كلام امرأة عمران على القرائتين- معًا- وهو أظهر على قراءة من قرأ: (والله أعلم بما وضَعْتُ) بضم التاء، ويدل عليه قوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

كما يدل عليه السياق السابق.

والمعنى: فإن امرأة عمران كانت تأمل أن يكون ما في بطنها ذكرًا فتجعله مخلصًا لعبادة لله تعالى وخدمة بيت المقدس، فلما كان أنثى قالت هذه المقالة: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ اعتذارًا منها وتحسُّرًا وانكسارًا، أي: وليس الذكر في الخدمة لبيت المقدس والعبادة فيه كالأنثى، بل هو أقوى وأقدر، وخدمته أتم وأكمل وأدوم، بخلاف الأنثى؛ فهي أضعف، وخدمتها أقل لخروجها من المسجد اضطرارًا حال الحيض والنفاس.

وحقًّا، فالذكر ليس كالأنثى، والأنثى ليست كالذكر، فلا مساواة بينهما، فلكل منهما ميزاته وخصائصه وقدراته العقلية والبدنية وغير ذلك، فالذكر من حيث العموم أكمل عقلًا، وأقوى بدنًا، وأقدر على تحمل المشاق، كما أن الرجل من حيث العموم أفضل من المرأة، كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٨].

وهذا لا يمنع أن يكون من النساء من هي خير من كثير من الرجال في كمال عقلها، وقوة بدنها، وتحملها، ويكفي النساء فخرًا أن منهن فاطمة سيدة نساء العالمين، ومنهن أمهات المؤمنين- رضي الله عنهن- خديجة، وعائشة، وحفصة، وبقية أمهات المؤمنين، ومنهن مريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون.. وغيرهن كثير.

وقدَّم «الذكر» في قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾؛ لأنه هو المأمول، فهو أسبق إلى لفظ

المتكلم، ولم يقُل: (وليس الأنثى كالذكر)؛ لدفع ما يشعر بنقص الأنثى مع أن المؤدى واحد، كما في قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١] دون أن يقول: «للأنثى نصف ميراث الرجل»؛ لئلا يشعر ذلك بنقص ميراث الأنثى مع أن المؤدى واحد؛ وفي هذا ما لا يخفى من مراعاة الشعور وحسن التعبير.

و(ال) في الذكر والأنثى للجنس، وقيل: للعهد، أي: ليس الذكر الذي طلَبَتْ، كالأنثى التي وُهِبَتْ لها.

قال السعدي[1] في كلامه على قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾: «كأن في هذا الكلام نوع تضرُّع منها، وانكسار نفس؛ حيث كان نذرها بناء على أنه يكون ذكرًا، يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك ما يحصل من أهل القوة، والأنثى بخلاف ذلك، فجبر الله قلبها، وتقبَّل نذرها وصارت هذه الأنثى أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد أعظم مما يحصل بالذكر».

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾: هذا وما بعده من تتمة كلام امرأة عمران، أي: وإني اخترت لها اسم (مريم)، والاسم مأخوذ من السمو، وهو العلو؛ لأن صاحبه يسمو ويرتفع به، ومن السمة، وهي العلامة؛ لأن الاسم علامة على صاحبه يتميز بها.

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أي: وإني أُجيرها بك يا رب.

﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أي: وأُجير ذريتها بك، ولم يكن لمريم ذرية إلا ابنها عيسى عليه السلام.

﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: من إبليس وذريته وجنوده وأعوانه من شياطين الجن والإنس.. وغيرهم.

و﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ مشتق من «شطن» بمعنى «بعد»؛ لأنه بَعُدَ عن رحمة الله تعالى، وعن الجنة، وعن كل خير.

---

(١) في «تيسير الرحمن الكريم» (١/ ٣٧٦).

وهو في الشرع: كل متمرد، عاتٍ، خارج عن طاعة الله تعالى من الإنس والجن والحيوان، كما قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ [الأنعام:١١٢]. وفي الحديث: «**الكلب الأسود شيطان**»[1].

وقد استجاب الله دعاء امراة عمران فأعاذ مريم وذريتها من الشيطان الرجيم، فلم يجعل له عليهما سبيلًا؛ فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مسه إيَّاه إلا مريم وابنها**»، ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[2].

﴿ٱلرَّجِيمِ﴾ أي: المرجوم فهو «فعيل» بمعنى: «مفعول» أي: مرجوم حسًّا، ومعنىً بإهباطه من الجنة، ورميه بالشُّهُب، وطرده عن رحمة الله وعن كل خير.

قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧].

قوله ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾: الفاء: للتعقيب والتفريع؛ وهذا مُؤذِن بسرعة إجابة دعائها، وضمير «الهاء» يعود إلى مريم، أي: تقبل تحريرها لخدمة بيت المقدس وعبادة الله- عز وجل- فيه.

قال ابن كثير[3]: «تقبلها من أمها نذيرة».

و(تقبَّل) أبلغ من (قبل)؛ لأن زيادة المبنى تدل غالبًا على زيادة المعنى.

وفي إضافة اسم الرب إلى ضميرها تكريم وتشريف لها بربوبية الله- عز وجل- لها ربوبية خاصة.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٥١٠)، وأبو داود في الصلاة (٧٠٢)، والنسائي في القبلة (٧٥٠)، والترمذي في الصلاة (٣٣٨)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣١)، ومسلم في الفضائل (٢٣٦٦).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٢٨).

﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ الباء: للتأكيد، و(قبول): اسم مصدر، أي: قبولًا حسنًا. فقبل من أمها نذرها إيَّاها وآجرها فيها، ويسَّرها لليُسرى، وسهَّل أمرها.

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي: أنشأها إنشاءً صالحًا، جسديًا وعقليًا وروحيًا فنَمَّى جسمها، وأتم عقلها، وأكمل خُلُقها وأخلاقها دينًا وعفة وأدبًا وقنوتًا وطاعة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:٩١].

وفي الحديث: «**كملَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»[1].

﴿وَكَفَّلَهَا﴾: قرأ حمزة والكسائي وعاصم: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ بتشديد الفاء، فيكون «زكريا» على هذا مفعولًا ثانيًا لـ«كفل» ومفعولها الأول (الهاء)، أي: كفَّل الله مريم زكريا، أي: جعل الله زكريا كافلًا لها.

وقرأ الباقون «فكفلها» بالتخفيف، فيكون «زكريا» على هذا فاعل، أي: صار زكريا كافلًا لها، أي: تولى كفالتها.

وزكريا زوج خالتها، ويُقال: زوج أختها.

كما قرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف ﴿زَكَرِيَّا﴾ بالقصر- من غير همز في جميع القرآن، وقرأ الباقون بالمد والهمز «زكرياء» وهما لغتان.

كفلها زكريا بعد أن تنازع في كفالتها جماعة من أحبار بني إسرائيل، واقترعوا في ذلك أيهم يكفلها، كما قال تعالى: ﴿إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ [آل عمران:٤٤]، فصارت من نصيب زكريا زوج خالتها فكفلها، وكان كل واحد منهم حريصًا على كفالتها لمكانة أبيها عمران.

---

(١) أخرجه البخاري في «أحاديث الأنبياء» (٣٤١١)، ومسلم في «فضائل الصحابة» (٢٤٣١)، والترمذي في الأطعمة (١٨٣٤)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٨٠)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾: «كلما» تفيد التكرار، وهي مركبة من «كل» التي تفيد العموم، و«ما» الظرفية، والتقدير: كل وقت يدخل عليها زكريا المحراب يجد عندها رزقًا، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة:٢٥].

﴿الْمِحْرَابَ﴾: مكان العبادة والصلاة، وفي هذا دلالة على ملازمتها الصلاة والعبادة.

وفي قصة داود عليه السلام: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص:٢١]، أي: مكان تعبُّده.

وقيل: سُمِّيَ مكان العبادة بـ«المحراب»؛ لأن المتعبد كأنه يحارب الشيطان فيه.

ويُحتمل أن المراد بـ(المحراب) هنا محراب بيت المقدس بعد أن دخلت فيه لنذر أمها، أو محراب خاص بها في منزلها.

﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾: عطاء من الله تعالى لها بلا كد ولا تعب، تأكل منه، ويقوم به بدنها ويحفظ حياتها.

قال جمع من المفسرين: وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف[1]، كرامة من الله تعالى أكرمها بها، كما أكرمها بقوله: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم:٢٥].

ومثل هذا ما وُجِدَ عند خبيب بن عدي الأنصاري- رضي الله عنه- الذي استشهد بمكة على أيدي المشركين حيث وُجِدَ عنده قطف عنب[2].

﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أي: من أين لكِ هذا الرزق؟.

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: أن الله هو الذي رزقها إياه، وساقه إليها، وأعطاها إياه.

وهذا يذكرني بقصة عمي عبد الرحمن العبد الله مع محمد المطوع- رحمهما الله-

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٣٥٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد هل يستأسر الرجل (٣٠٤٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكان محمد رجلًا كفيفًا مقعدًا بسبب المرض، فكان عمي - رحمه الله- يأتي إلى منزل هذا الرجل ويملأ الثلاجة بالفواكه والخضروات، وكان هذا الرجل لا يعلم من الذي يفعل ذلك، وتمر الأيام ويموت عمي- رحمه الله- وتبدو الثلاجة فارغة لا شيء فيها، فيتفطن ذلك الرجل المقعد ويقول: والله ما علمت أن الذي يفعل ذلك هو عبد الرحمن العبدالله حتى فرغت الثلاجة بعد وفاته، فعلمت أنه الذي كان يفعل ذلك. رحم الله الرجلين معًا، وأسكنهما فسيح جناته، ولا أزكي على الله أحدًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾: الجملة اسئنافية تعليلية، و«من»: موصولة، أي: لأن الله يعطي الذي يشاء من خلقه عطاءً دنيويًا؛ وهذا لا يختص بطائفة دون أخرى، وعطاءً دنيويًّا وأُخرويًا؛ وهذا للمؤمنين خاصة.

﴿بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ أي: بلا حصر ولا حد لما يعطيه، وبغير استحقاق، بل تفضلًا منه.

الفوائد والأحكام:

١- اصطفاء الله تعالى واختياره وتفضيله لآدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٢- أن الله تعالى يصطفي ويختار من عباده من يشاء، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨].

٣- إثبات نبوة آدم ونوح وإبراهيم، وإثبات النبوة في آل إبراهيم وآل عمران؛ فإنها أعظم شيء فُضِّلوا به، وإثبات فضلهم على العالمين.

٤- إثبات التفاضل بين الناس كونًا وشرعًا.

٥- فضل الأنبياء والرسل على جميع الخلق، بما فيهم الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقد أخذ بعض أهل العلم أيضًا من الآية أن الصالحين من البشر أفضل من الملائكة.

وقد اختلف أهل العلم في هذا على قولين: جمع بينهما شيخ الاسلام ابن تيمية بقوله: «بأن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية»[1].

---

(١) انظر: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٤/ ٣٤٣).

أي: أن الملائكة خُلِقُوا من نور وهو أفضل من الطين الذي خُلِقَ منه آدم، فهم في البداية أفضل.

وأما النهاية فإن الجنة تكون للصالحين من بني آدم ومن الجن، فهم في النهاية أفضل.

٦- أن البشر جنس واحد بعضهم من بعض؛ لقوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖ ﴾، فلا يجوز أن يفخر بعضهم على بعض، وأكرمهم عند الله أتقاهم.

وفي هذا تعريض باليهود في اتهامهم عيسى وأمه وتكذيبهم له، وتعريض بهم وبالنصارى في تكذيبهم محمد ﷺ فإن كون هؤلاء المصطفين ذرية بعضها من بعض مما يوجِب المحبة والمودة والاتباع والتصديق، لا العداوة والتكذيب.

٧- إثبات صفة السمع لله تعالى، فهو يسمع جميع الأقوال والأصوات والحركات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾.

٨- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل الذي يسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

٩- التذكير بنذر أم عمران وقصتها تنويهًا بشأنها؛ لقوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ ﴾ الآية.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقول امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ﴾، وقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا ﴾، وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا﴾، وقول زكريا: ﴿رَبِّ﴾.

١١- جواز النذر؛ لقول مريم: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾، كما قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ [الإنسان:٧]، وهو في الإسلام مكروه؛ فعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: نهى النبي ﷺ عن النذر، وقال: «**إنه لا يرد شيئًا وإنما يُستخرج به من البخيل**»[1].

١٢- جواز نذر الشيء المجهول؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في القدر (٦٦٠٨)، ومسلم في النذر (١٦٣٩)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٨٧)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٨٠١)، وابن ماجه في الكفارات (٢١٢٢).

١٣- أن المهم في العمل القبول، لهذا قالت ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾، فلا ينبغي أن يدل الإنسان على الله بعمله، بل يسأل الله القبول ويخاف من الرد.

١٤- التوسل الى الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا؛ لقول أم عمران ﴿رَبِّ﴾ أي: يا رب، وقولها: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: لأنك أنت السميع للدعاء وغيره، العليم بالحال وغيرها.

١٥- إثبات اسمين من أسماء الله- عز وجل- وهما: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، ويؤخذ منها صفتي السمع والعلم.

١٦- في اجتماع صفة السمع الواسع لله- عز وجل- لجميع الأصوات، والعلم الواسع لكل شيء كمال إحاطته وعلمه.

١٧- الإشارة إلى معاناة الأم حال الحمل والوضع؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾، فأعظم بها من معاناة، كما قال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف:١٥]، وقال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان:١٤].

١٨- في قول امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وقولها: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ ما يُشبه الاعتذار، إما لأن الأنثى لا تخدم في المساجد، وإما لأن خدمتها دون خدمة الذكر.

كما أنه فيه ما يُشعِر بألم قلبها؛ حيث كانت تأمل أن يكون ما في بطنها ذكرًا، ونذرته لله مخلصًا لخدمة بيت المقدس.

١٩- أن الله- عز وجل- أعلم من كل أحد بما وضعت أم عمران؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾.

٢٠- الاحتراز عما يوهِم الخطأ؛ لقول أم عمران: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾.

٢١- أن الذكر ليس كالأنثى، والأنثى ليست كالذكر، فلكل منهما ميزاته وخصائصه وقدراته البدنية والعقلية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾. ومن هنا.. فإن الذكر أقدر وأقوى على خدمة بيت المقدس والعبادة فيه وأدوم.

٢٢- مشروعية تسمية المولود يوم ولادته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، وفي حديث أنس- رضي الله عنه- أنه ﷺ لما وُلِدَ ابنه إبراهيم قال: «**وُلِدَ لي الليلة غلام وسميته باسم أبي إبراهيم**»(١).

فإن فات ففي اليوم السابع؛ لقوله ﷺ في حديث سمرة بن جندب- رضي الله عنه- عن الرسول ﷺ قال: «**كل غلام رهين بعقيقته تُذبح عنه يوم سابعه، ويُحلق رأسه ويُسمى**»(٢).

٢٣- مشروعية إعاذة الأولاد بالله من الشيطان الرجيم؛ لشدة عداوته لبني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

وكان ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: «**إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطانٍ وهامة، ومن كل عينٍ لامة**»(٣).

٢٤- جواز الدعاء للمعدوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ كما في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم:٤٠].

٢٥- لا ينبغي الاستعاذة إلا بالله وحده، فيه المعاذ، وإليه الملتجأ، وهو المجير لمن التجأ إليه، والقدير على ذلك وحده.

٢٦- أن الله- عز وجل- سميع قريب مجيب، سمع سبحانه وتعالى دعاء امرأة عمران وأجابها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

وفي الحديث القدسي يقول- عز وجل-: «**من يدعوني فأستجيب له**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الفضائل (٢٣١٥)، وأبو داود في الجنائز (٣١٢٦).

(٢) أخرجه أبو داود في الضحايا (٢٨٣٨)، والنسائي في العقيقة (٤٢٢٠)، والترمذي في الأضاحي (١٥٢٢)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٦٥).

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧١)، وأبو داود في السنة (٤٧٣٧)، والترمذي في الطب (٢٠٦٠)، وابن ماجه في الطب (٣٥٢٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٤٥)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٨)، وأبو داود في الصلاة (١٣١٥)، والترمذي في الصلاة (٤٤٦)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٦٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢٧- مِنة الله تعالى وفضله العظيم على مريم عليها السلام؛ حيث جمع الله لها بين حُسن الخَلْق وحُسن الخُلُق؛ لقوله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾.

٢٨- أن من نعمة الله تعالى على مريم عليها السلام أن جعل زكريا كفيلًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ لتقتبس منه علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا، وتتعلم منه الخير والعلم والدين.

٢٩- إثبات الحضانة للطفل؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾، وكان زكريا زوج خالتها، أو زوج أختها، كما قال ﷺ في حديث الإسراء حين صُعِدَ به إلى السماء الثانية قال: «**فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة**»[١].

فكانت في حضانة خالتها، وكفالة زوجها زكريا.

وفي الحديث أنه ﷺ قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة أبي جعفر بن أبي طالب وقال: «**الخالة بمنزلة الأم**»[٢].

٣٠- ملازمة مريم عليها السلام الصلاة والعبادة؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [التحريم:١٢].

٣١- عناية الله- عز وجل- بمريم عليها السلام وتيسير رزقها؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾.

٣٢- أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يعلمون الغيب، وغيرهم من الخلق من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾.

٣٣- تكفُّل الله- عز وجل- بإرزاق الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، كما قال

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨٨٧)، من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٠)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦].

٣٤- أن الله يرزق ويُعطي من يشاء بلا حساب ولا حصر ولا حد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ لذا يجب طلب الرزق منه وحده دون سواه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾.

لما رأى زكريا عليه السلام هذه الحال، والبر واللطف من الله تعالى بمريم عليها السلام، ذكَّره ذلك أن يسأل الله تعالى حصول الولد على حين اليأس منه، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران:٣٨].

لِمَا رأى من قدرة الله تعالى في جلب رزق مريم مع أنها متفرغة للعبادة، بل في رزقها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف طمع حينئذٍ في الولد، مع أنه قد بلغ من الكبر عتيًّا، وامرأته كبيرة عاقر، فدعا ربه أن يهبه ذريةً طيبةً.

قوله ﴿هُنَالِكَ﴾: «هنا» اسم إشارة إلى المكان، واللام للبعد، والكاف للخطاب، أي: في ذلك المكان وهو محراب مريم.

ويُحتمل أن تكون الإشارة للزمان، أي: في ذلك الزمان، كما في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الأحزاب:١١].

ويُحتمل أن تكون لهما معًا، أي: في ذلك الزمان والمكان عند رؤية زكريا ما رأى عند مريم من رزق الله.

﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ﴾ أي: نادى زكريا ربه قائلًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

﴿رَبِّ هَبْ﴾ أي: يا رب أعطني، و(الهبة) العطية بلا عوض.

﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من عندك لا من عند غيرك؛ لأنك أنت الكريم وعطاءك أجزل وأعظم، وكما جاء في الدعاء: «فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني»(١).

﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي: طيبة في خلْقها وخُلُقِها، في أبدانها وأخلاقها وأقوالها وأفعالها، والذرية هم الأولاد وأولاد الأبناء وإن نزلوا بمحض الذكور، ولا يدخل معهم أولاد البنات، كما قال الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد(٢)

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾: جملة استئنافية تعليلية، أي: لأنك سميع الدعاء، أي: تسمع دعاء الداعي وتجيبه، كما قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾: الفاء: للتفريع والتعقيب، أي: فنادته الملائكة استجابةً من الله تعالى لدعائه.

قرأ حمزة والكسائي وخلف «فناداه» بألف بعد الدال، وقرأ الباقون ﴿فَنَادَتْهُ﴾ بتاء ساكنة بعد الدال، أي: فكلمته وخاطبته الملائكة شفاهةً.

و﴿الْمَلَائِكَةُ﴾: عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾: الجملة في محل نصب على الحال، أي: حال كونه يصلي في المحراب، والصلاة تُطلق ويُراد بها الدعاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، الدعاء قبل السلام (٨٣٤)، ومسلم في الذكر والدعاء، استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٥)، والنسائي في السهو (١٣٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٥٣١)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٥)، من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) البيت للفرزدق. انظر: «ديوانه» (ص٢١٧).

صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة:١٠٣].

وتُطلق ويُراد بها الصلاة ذات القيام والركوع والسجود، وهي المرادة هنا، بدليل قوله: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي﴾ و﴿ٱلْمِحْرَابِ﴾: مكان العبادة والصلاة والمناجاة والخلوة، ومقتضى قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ والتفريع عليه بقوله: ﴿ فَنَادَتْهُ﴾ أن المحراب محراب مريم.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾: قرأ حمزة وابن عامر بكسر الهمزة: «إنَّ»، فالجملة في محل نصب مقول القول؛ لأن النداء قول، ومقول القول إذا صدر بـ«إنَّ» وجب فيه كسر الهمزة.

كما قال ابن مالك(١):

واكسر في الابتدا وفي بدء صلةْ ... وحيثُ «إن» ليمينٍ مكملةْ

أوحُكِيتْ بالقول أوحَلّتْ محلّ ... حال كزرته وإني ذو أملْ

وقرأ الباقون ﴿أَنَّ﴾ بفتح الهمزة على تقدير حرف جر، أي: بأن الله يبشرك.

﴿يُبَشِّرُكَ﴾: قرأحمزة والكسائي: (يَبْشُرُك) بفتح الياء، وسكون الباء، وتخفيف الشين وضمها، وقرأ الباقون: ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ بضم الياء، وفتح الباء، وتشديد الشين وكسرها.

والبشارة: الإخبار بأمر سار، مأخوذة من البشرة؛ لأن الإنسان إذا أُخبِر بما يَسُرُه استنار وجهه، واتسعت بشرته، وفي حديث كعب بن مالك رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر»(٢).

﴿بِيَحْيَىٰ﴾: أي بولد لك من صلبك اسمه يحيى، وسمّاه الله يحيى إشارة إلى أنه سيحيا حياة بدنية، أي: يبقى، وحياة قلبية بالنبوة والإيمان، وهو أول من سُمِّيَ بهذا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٧]، وهو ابن خالة عيسى، وهو أكبر من عيسى، وأول من صدَّق به(٣)؛ ولهذا قال:

---

(١) في «ألفيته» (ص٢١).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، والترمذي في التفسير (٣١٠٢)، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٣) انظر: «جامع البيان» (٥/ ٣٧٢).

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال من (يحيى)، أي: حال كونه ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: مصدقًا بعيسى ابن مريم عليه السلام، وعلى سنته ومنهاجه، وأنه كلمة من الله، وكلمته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١]، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران:٤٥].

وسُمِّيَ عيسى عليه السلام (كلمة من الله)، و(كلمته)؛ لأنه خُلِقَ بكلمة من الله تعالى، أي بقوله تعالى: ﴿كُن﴾ ولم يكن من أب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].

وذلك من باب إطلاق السبب على المسبب.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: «من»: للابتداء، أي: مبدؤها ومنشؤها من الله، تكلم بها، وهي قوله تعالى: ﴿كُن﴾.

﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: منصوب على الحال عطفًا على ﴿مُصَدِّقًا﴾.

﴿وَسَيِّدًا﴾: السيد «فيعل» من ساد يسود إذا فاق قومه في محامد الخصال.

والسؤدد عند العرب يعتمد كفاية مهمات القبيلة، والبذل لها، وإتعاب النفس لراحة الناس.

قال الهذلي[1]:

وإن سيادة الأقوام فاعلم ... لها صعداء مطلبها طويل

أترجو أن تسود ولن تُعنَّى ... وكيف يسود ذو الدعة البخيل

وملاك السؤدد عندهم بذل الندى، وكف الأذى، واحتمال العظائم، وأصالة الرأي، وفصاحة اللسان.

---

(١) انظر: «البيان والتبيين» (١ / ٢٧٥).

والسيد في الشرع أعم من ذلك، فهو من يفوق غيره في محامد الخصال، والسعي في إصلاح الناس في دنياهم وأخراهم، كما قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة**»(١).

وقال ﷺ في الحسن: «**إن ابني هذا سيد وسيُصلِح الله به بين طائفتين من المسلمين**»(٢).

والمعنى: أن يحيى عليه السلام قد فاق قومه دينًا وتقىً وورعًا وحكمةً وعلمًا وأدبًا وخُلُقًا وشرفًا وكرمًا.. وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم:١٢-١٥].

﴿وَحَصُورٗا﴾ أي: «فعول» بمعنى «فاعل»، أي: حاصرًا نفسه، والحصر بمعنى المنع، أي: حصينًا مانعًا نفسه من الشهوات والمعاصي ومساوئ الأخلاق، فجمع الله له بين كونه «سيدًا» موصوفًا بأكمل الصفات، وبين كونه «حصورًا» سالمًا مبرأ من سيئ الصفات.

وقيل معنى (حصورًا) أي: لا يأتي النساء مع القدرة على ذلك، وقيل: ممنوعًا من إتيان النساء، أي: لا يستطيع إتيان النساء؛ وهذا لا يناسب المقام؛ لأن المقام مقام مدح وثناء، وهذا الآخر يُعد نقصًا وعيبًا.

﴿وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: وصف الله- عز وجل- يحيى عليه السلام أولًا بكونه مصدقًا بعيسى ابن مريم، ثم بكونه «سيدًا»، ثم بكونه «حصورًا»، ثم وصفه بما هو أفضل وأعظم من ذلك وهو كونه (نبيًّا من الصالحين)، فنفى الله عنه عليه السلام صفات النقص، وأثبت له صفات الكمال، وأعظمها النبوة والصديقية لعيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: من جملة الصالحين، بل من الذين بلغوا في الصلاح ذورته؛ إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لشرعه، فصلحت سرائرهم وعلانيتهم باطنهم

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٢٧٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٤)، وأبو داود في السنة (٢٦٦٢)، والنسائي في الجمعة (١٤١٠)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

وظاهرهم، وفي مقدمتهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

لما تحقق لزكريا عليه السلام هذه البشارة؛ أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر وامرأته عاقر، ليتثبت ويتأكد من ذلك.

قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ أي: قال زكريا: (يا رب).

﴿أَنَّىٰ ﴾: استفهام تعجب، أي: كيف أو من أين يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر؟، أي: والحال أنه قد بلغني الكبر وامرأتي عاقر، كما قال تعالى عنه في سورة مريم: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴾ [مريم:٨].

وهذان سببان لعدم وجود الولد- وهذا منه من باب التثبت والتأكد، وليس من باب الاستبعاد والاستنكار أو الشك؛ لأنه قد آمن بما بشره الله به، كما قال إبراهيم: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي ﴾ [البقرة:٢٦٠].

﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ ﴾: الجمله حالية، أي: والحال أنه قد بلغني الكبر، أي: قد وصلني الكبر وأصابني وتمكن مني كما وصلت إليه وبلغته ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴾ [مريم:٨].

فمن بلغه الكبر، فقد بلغ هو الكبر، ومن بلغ الكبر فقد بلغه الكبر، على نحو قول الشاعر:

فهن المنايا أي وادٍ سلكته ... عليها طريقي أو على طريقها[1]

والمعنى: كيف يوجد لي غلام وقد أصابني الكبر بينما لم يولد لي لما كنت شابًا؟!.

والعادة أن الإنجاب والإخصاب إنما يكون غالبًا في سن الشباب بالنسبة للرجال

(١) البيت بلا نسبة. انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢١٥)، و«بدائع الفوائد» (١/ ١١)، و«مدارج السالكين» (١/ ١٥).

والنساء.

﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ﴾ أي: وزوجتي ﴿عَاقِرٞ﴾، أي: عقيم لا تحمل. يُقال: رجل عاقر، وامرأة عاقر، لمن لا يولد له.

فكل من زكريا وامرأته في الغالب والعادة لا يولد لمثله؛ فهو كبير السن قد بلغ الغاية في الكبر، وهي عاقر لا يولد لها، ولكن الله جلَّت قدرته إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠].

وفي هذا التعجب من زكريا عليه السلام كناية عن الشكر لله عز وجل.

﴿قَالَ﴾ أي: قال الملك، أو قال الله.

﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾: الكاف: للتشبيه، وهي في محل نصب نعت لمصدر محذوف، أي: مثل ذلك الفعل العجيب- وهو حصول الولد بين رجل كبير وامرأة عاقر، وقيل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك.

والمعنى: أنه سيكون لك غلام ولو بلغك الكبر وامرأتك عاقر؛ لأن الله يفعل ما يشاء، فكما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة غالبًا، فإنه قد يخرق ذلك؛ لأنه الفعال لما يشاء ويريد، الذي تنقاد جميع الأشياء لقدرته فلا يتعاصى على قدرته شيءٍ منها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾.

﴿قَالَ﴾ أي: قال زكريا لما تيقن بأن الله سيهب له الولد.

﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ﴾ أي: يا رب صَيِّر لي علامة أعرف بها وقت حصول هذا الحمل. قال هذا زكريا عليه السلام لزيادة الطمأنينة فيما بشره الله به، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].

﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾ أي: قال الله له: ﴿ءَايَتُكَ﴾، أي: الآية والعلامة التي أجعلها لك،

وأضافها إلى زكريا؛ لأن الله تعالى جعلها علامة له.

﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾: «ألا»: مكونة من «أن» التي هي حرف مصدري ونصب، و«لا»: النافية.

أي: ألا تستطيع تكليم الناس ثلاثة أيام بلياليها؛ لقوله تعالى في سورة مريم: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم:١٠].

﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ «إلا»: أداة استثناء، والاستثناء منقطع؛ لأن الرمز ليس من الكلام، أي: لكن ترمز إليهم رمزًا، أي: إشارة وإيماءً باليد أو بالرأس أو بالشفتين، أو الحاجبين أو العينين.. ونحو ذلك.

ويجوز كون الاستثناء متصلًا باعتبار المعنى؛ لأن «الرمز» تعبير عما في النفس كالكلام.

والمعنى واحد، أي: وآيتك أن لا تستطيع تكليم الناس نطقًا بلسانك ثلاثة أيام بلياليهن إلا إشارة مع أنك سويٌّ صحيح، فمتى تمت الثلاثة أيام كان ذلك علامة على ابتداء الحمل.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾: أعظم بهذا من آية يعجز عن تكليم الناس بلسانه، بينما لسانه طلق بذكر الله تعالى، وفي هذا بشارة لزكريا وامتنان عليه، وأمر له بذكر الله وتسبيحه، وفي سورة مريم: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١].

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾، أي: واذكر ربك بقلبك ولسانك وجوارحك ذِكرًا كثيرًا، شكرًا لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢].

وزمانًا كثيرًا، أي: في جميع الأوقات، وقد كان ﷺ يذكر الله على جميع أحيانه(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الحيض (٣٧٣)، وأبو داود في الطهارة (١٨)، والترمذي في الدعوات (٣٣٨٤)، وابن ماجه في الطهارة (٣٠٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾: (التسبيح) تنزيه الله عن النقائص والعيوب، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، وقال تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨].

وعن مماثلة المخلوقين، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤].

ويُطلق على ما هو أعم من ذلك، وهو التعبُّد لله تعالى بأنواع العبادة كلها؛ من الصلاة، والتهليل، والتكبير، والتحميد، وقراءة القرآن.. وغير ذلك.

والتعبُّد لله تعالى هو تسبيح لله تعالى وإن لم يكن بكلمة «سبحان»؛ لأن التعبُّد له يستلزم تعظيمه والإقرار له بالكمال ونفي النقص عنه.

وحيث قُرِنَ التسبيح بالذِّكر قد يُحمل الذِّكر على التعبُّد لله بأنواع العبادة، ويُحمل التسبيح على التنزيه جمعًا بين الإثبات والنفي.

وقد يُحمل التسبيح على ما يعُم ذلك كله، فيكون الأمر به بعد الأمر بالذِّكر أشبه بعطف العام على الخاص، فيشمل التنزيه لله تعالى والتعبُّد له بأنواع العبادة.

﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ «العشيّ»: آخر النهار، ما بعد الزوال، وهو: الأصيل والرواح.

وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: **«صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشيّ»**[1]، يعني: صلاة الظهر أو العصر، ويُقال: (العشيّ) ما بعد صلاة العصر.

﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾: «الإبكار» أول النهار إلى الزوال، وهو: الغدو والإشراق.

وقد عظَّم الله تعالى هذين الوقتين، وأمر بالتسبيح والذِّكر والصلاة فيهما، وشرع

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة تشبيك الأصابع في المسجد (٤٨٢)، ومسلم في المساجد، في الصلاة والسجود له (٥٧٣)، وأبو داود في الصلاة (١٠٠٨)، والنسائي في السهو (١٢٢٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢١٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فيهما أعظم الصلوات صلاة الفجر وصلاة العصر، كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر:٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩].

بل إن الأمر بالتسبيح والذِّكر في الصلاة فيهما قد يشمل جميع الصلوات الخمس، ويشمل التسبيح والذِّكر في جميع الأوقات، كما قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢]، أي: في جميع الأوقات؛ لأن رزق أهل الجنة لا ينقطع، بل هو على الدوام.

الفوائد والأحكام:

١- دعاء زكريا ربه بأن يهبه من لدنه ذرية طيبة، وتوسله إليه بربوبيته له؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

كما قال تعالى عنه في سورة (الأنبياء) أنه قال: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء:٨٩].

وقال عنه في سورة (مريم): ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٥-٦].

٢- في إضافة الهبة إلى الله في قوله: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ إشارة إلى كرم الله- عز وجل- وعظيم هِباته، وإلى الاستغناء به- عز وجل- عن خلقه.

٣- حاجة الخلق كلهم وافتقارهم إلى الله تعالى حتى الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ الآية.

٤- أن من أعظم ما ينبغي أن يسأل المسلم ربه من أمور الدنيا الذرية الصالحة-

والصالحة فقط، وما عدا الذرية الصالحة فلا غبطة فيهم، بل هم عبء وثِقَل وشر على والديهم وعلى الأمة، فعلى من طلب الذرية مراعاة هذا المعنى.

٥- الدعاء بصلاح الأولاد؛ لقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾، كما جاء في سورة «الأحقاف»: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ [الأحقاف:١٥].

٦- إثبات السمع لله- عز وجل- وكرمه وقدرته، وأنه سميع قريب مجيب الدعاء، والثناء على الله- عز وجل- بذلك، والتوسل به؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، وكما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]؛ فهو- عز وجل- سميع مجيب الدعاء.

فإما إن يُعَجِّل للسائل ويُعطيه سؤله في الدنيا، وإما أن يدخره له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من الشر بسبب سؤاله.

ما لم يكن هناك مانع من الإجابة، كالدعاء مع سهو القلب وغفلته ولهوه، وأكل الحرام.. ونحو ذلك.

٧- أن على من حُرِم الذرية أن يلجأ إلى الله- عز وجل- وحده ويسأله، كما قال زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء:٨٩] مع الأخذ بالأسباب المادية.

وقد دعا زكريا عليه السلام بهذه الدعوات فأجاب الله دعاءه، ورزقه يحيى عليهما السلام.

وقد ذُكِرَ عن بعضهم أنه لازم في سجوده الدعاء بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ فرزقه الله الذرية، كما ذكر بعضهم أنه دعا بهذه الدعوات في الملتزم بين الحجر وباب الكعبة، فاستجاب الله دعاءه.

٨- إثبات وجود الملائكة، والإيمان بذلك؛ وهو ركن من أركان الإيمان الستة؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

٩- أن الملائكة تتكلم بصوت مسموع وتخاطب البشر، لقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

١٠- جواز تكليم المصلِّي؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾،

وخصوصًا فيما تدعو الحاجة إليه، كالسلام.. ونحو ذلك، فقد كان الصحابة- رضوان الله عليهم- يُسلِّمون على النبي ﷺ وهو يصلي ويرد عليهم بالإشارة[(١)].

١١- لزوم زكريا العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾.

١٢- جواز اتخاذ أماكن خاصة بالصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾.

١٣- بشارة الله تعالى لزكريا بيحيى استجابةً منه- عز وجل- لدعائه أن يهبه من لدنه ذرية طيبة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾.

١٤- استحباب البشارة بما يسر، فهي منهج شرعي؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾، كما قال تعالى في إبراهيم: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١] هذا في البشارة بإسماعيل، وقال تعالى في البشارة بإسحاق ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات:١١٢]، وقال تعالى في بشارة زوجه: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود:٧١]، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٠٣، التوبة:١١٢، يونس: ٨٧، الصف:١٣].

وقال ﷺ لمعاذ وأبي موسى رضي الله عنهما: «**وبشرا ولا تنفرا**»[(٢)].

١٥- مشروعية تسمية المولود، وجواز تهيئة الاسم قبل ولادته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا﴾.

١٦- أن عيسى ابن مريم «كلمة من الله»؛ لقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ خلقه الله تعالى بكلمته، أي: بقوله: ﴿كُن﴾. قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].

١٧- الثناء على يحيى عليه السلام وامتداحه بهذه الصفات العظيمة، وهي تصديقه

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٩٢٥)، والنسائي في السهو (١١٨٦)، والترمذي في الصلاة (٣٦٧)، من حديث صُهيب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٨)، ومسلم في الأشربة (١٧٣٣)، وأبو داود في الأدب (٤٨٣٥)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

بعيسى ابن مريم، وكونه سيدًا وحصورًا، وإثبات نبوته، وأنه من الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

١٨- الجمع ليحيى عليه السلام بين صفات الكمال، وأعظم ذلك صفة النبوة، وبين كونه مانعًا نفسه من الشهوات وسيء الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَصُورًا﴾.

١٩- أن الصلاح وصف عظيم عام لكل من أخلص لله تعالى، واتبع شرعه من الأنبياء والرسل ومن دونهم؛ ولهذا وصف الله به أنبياءه ورسله كما وصف الله به غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٢٠- في تعجب زكريا بقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ طلب التثبُّت والتأكد مما بشره الله به من الولد، وخاصة أنه على خلاف ما جرت به العادة؛ فهو كبير وامرأته عاقر.

٢١- أن زكريا عليه السلام قد بلغه الكبر دون أن يولد له ولد؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾، وقوله في سورة (مريم): ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٨].

٢٢- أن من أسباب عدم الإنجاب الكبر والعقر؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

٢٣- جواز الوصف بالعقر لمن كان كذلك للبيان، لا على سبيل التنقص؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

٢٤- إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى؛ لأنه تعالى يفعل ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

٢٥- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية المتعلِّقة بالحكمة.

٢٦- طلب زكريا عليه السلام من ربه علامة على حصول هذه البشارة لزيادة الاطمئنان، واستعجالًا منه لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾.

٢٧- قدرة الله تعالى التامة على كل شيء، ولو كان على خلاف العادة، كحصول الولد للكبير والعاقر، وجعل الإنسان لا يستطيع أن يكلم الناس مع كون لسانه طلقًا

بذكر الله وتسبيحه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾، كما قال تعالى في سورة (مريم): ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٩].

٢٨- أن الإشارة تقوم مقام العبارة عند العجز عن النطق بالكلام؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾.

٢٩- الحث على ذكر الله كثيرًا، وتسبيحه في العشيّ والإبكار وفي جميع الأوقات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ جمعًا بين ذِكر الله تعالى والثناء عليه، وتنزيهه عن النقائص والعيوب.

٣٠- فضل هذين الوقتين (العشيّ والإبكار)، والتسبيح فيهما، بتخصيصهما بالذِّكر من بين الأوقات.

٣١- فضل زكريا عليه السلام ومكانته عند الله؛ حيث استجاب الله دعاءه، وبشره بيحيى ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وخاطبه، وجعل له آية على حصول هذا الولد.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

في هذه الآية وما بعدها تفصيل لما أُجمِل من اصطفاء الله تعالى لآل عمران في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣]؛ لأن مريم من آل عمران، فهو انتقال من ذكر أم مريم إلى ذكر مريم.

قوله ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الواو: استئنافية، و«إذ» ظرف زمان بمعنى «حين» متعلق بمحذوف، أي: واذكر حين قالت الملائكة، والمراد جنس الملائكة وليس كلهم، والمراد بذلك- والله أعلم- جبريل.

﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ نادوها بهذا شفاهًا، وباسمها مريم الذي هو علم عليها تكريمًا لها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾: «اصطفى» أصلها (اصتفى)، فقُلِبت التاء «طاء» لعلة تصريفية، والمعنى: أن الله اصطفاك اصطفاءً ذاتيًا عامًا، واختارك واجتباك لطاعته وجعلك من صفوة خلقه، فهي من بيت آل عمران الذين اصطفاهم الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣].

ونذرتها أمها لله وخدمة بيت المقدس، وتقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتًا حسنًا، وكفَّلها زكريا، ورزقها من عنده بغير حساب، ووفقها للتصديق بكلماته وكتبه ودوام الطاعة له.

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي: وطهرك باطنًا وظاهرًا من الكفر والمعاصي والفواحش بالإيمان، والطاعة، والعفاف، والأخلاق الفاضلة، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾

[التحريم:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:٩١].

وفي هذا رد على اليهود أخزاهم الله وقبَّحهم في اتهامهم مريم بأنها بَغِيّ، وأن ابنها عيسى ولد زنا، كما قال تعالى: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ۝٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم:٢٧-٢٨].

﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: هذا معطوف على ما قبله، أي: واصطفاكِ اصطفاءً خاصًا ففضلك ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: على نساء عالم زمانها، أو على نساء العالمين كلهم باعتبار أنها ممن كمل من النساء.

فعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم، وآسية، وامرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد**»(١).

قوله تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾.

أخبرت الملائكة مريم باصطفاء الله تعالى لها، ثم أمرتها بالقنوت لربها، والسجود والركوع له شكرًا لله تعالى على ذلك، ولتتهيأ لما أراد الله لها من الابتلاء بسبب هذا، حيث خلق الله بقدرته العظيمة منها ولدًا من غير أب، وقال فيها الأفّاكون ما قالوه- رفعة من الله تعالى لها في الدارين.

قوله ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾: «القنوت»: دوام الطاعة والخضوع والخشوع له، قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر:٩].

﴿لِرَبِّكِ﴾: «اللام»: للاختصاص، أي: قنوتًا خالصًا لربك، تعظيمًا له، وفي إضافة اسم الرب إلى ضمير «مريم» تشريف وتكريم لها، وبيان ربوبية الله تعالى لها ربوبية خاصة.

﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾: هذا معطوف على قوله: ﴿ٱقۡنُتِي﴾ من عطف الخاص على العام، فهو أمر بالسجود والركوع مع الراكعين، أي: أمر بالصلاة بعد

---

(١) سبق تخريجه.

الأمر بالقنوت والطاعة.

والمراد بالسجود: السجود المعروف على الأعضاء السبعة، كما في الحديث: «وأُمِرنا أن نسجد على سبعة أعظم»(١).

﴿وَٱرۡكَعِي﴾ «الواو»: عاطفة، وعطف بها الركوع على السجود مع أن «السجود» قبل «الركوع»؛ لأن الواو لمجرد الجمع والتشريك، ولا تقتضي الترتيب.

و«الركوع»: الانحناء للتعظيم، والمراد: صلي مع المصلين، أي: كوني من جملة أهل الصلاة، وليس المراد الصلاة مع الجماعة؛ لأنه ليس على النساء صلاة جماعة.

وعَطْفُ الأمر بالسجود والركوع على الأمر بالقنوت دليل على فضل الصلاة، وعِظَم مكانتها بين الطاعات والعبادات؛ فهي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي عمود الإسلام الذي يدور عليها رحاه.

كما أن تخصيص السجود والركوع بالذِّكر دليل على عِظَم السجود والركوع، وأنهما من أعظم أركان الصلاة وأعمالها.

وقُدِّم السجود؛ لأن هيئته- والله أعلم- أفضل وأبلغ في الخضوع، ولأنه أدخل في الشكر، والمقام مقام شكر.

ولا يدل ذلك على أنه أفضل من الركوع مطلقًا؛ لأن الواو لا تقتضي الترتيب، إنما هي في الأصل لمطلق الجمع والتشريك، ما لم يدل دليل أن المراد بها الترتيب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨]، فقد قال ﷺ: «**أبدأ بما بدأ الله به**»(٢)، فدل هذا على البداءة بالصفا، كما بدأ الله به في الآية.

قال ابن القيم(٣): «الذي يظهر في الآية- والله أعلم بمراده من كلامه- أنها

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، السجود على سبعة أعظم (٨٠٩-٨١٠)، ومسلم في الصلاة أعضاء السجود (٤٩٠)، والنسائي في التطبيق (١٠٩٣)، والترمذي في الصلاة (٢٧٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٨٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: بدائع التفسير (١/ ٤٩٨-٤٩٩).

اشتملت على مطلق العبادة، وتفضيلها، فذكر الأعم، ثم ما هو أخص منه، ثم ما هو أخص من الأخص، فذكر القنوت أولًا- وهو الطاعة الدائمة، فيدخل فيه القيام والذِّكر والدعاء وأنواع الطاعة، ثم ذكر ما هو أخص منه وهو السجود الذي يشرع وحده كسجود الشكر والتلاوة، ويشرع في الصلاة فهو أخص من مطلق القنوت.

ثم ذكر الركوع الذي لا يشرع إلا في الصلاة، فلا يُسن الإتيان به منفردًا؛ فهو أخص مما قبله، ففائدة الترتيب: النزول من الأعم، إلى الأخص، إلى أخص منه، وهما طريقتان معروفتان في الكلام: النزول من الأعم إلى الاخص، وعكسها وهو: الترقي من الأخص إلى ما هو أعم منه، إلى ما هو أعم، ونظيرها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ [آل عمران:٤٢].

فذكر أربعة أشياء أخصها الركوع، ثم السجود أعم منه، ثم العبادة أعم من السجود، ثم فِعل الخير العام المتضمن لذلك كله».

﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: في جملة أهل الركوع وأهل الصلاة من الرجال والنساء، وغلَّب هنا الذكور على الإناث.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾.

قوله ﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى ما أخبر الله تعالى به من القصص من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا﴾ الآية عن امرأة عمران، وابنتها مريم، وزكريا، وابنه يحيى.

﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾: «أنباء» جمع «نبأ» وهو الخبر الهام، كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النبأ:١-٢]، أي: ذلك من أخبار الغيب العظيمة.

﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾: ما غاب عن الحواس فلا تدركه، والمراد: أن ما ذكره الله تعالى في هذه القصص مما غاب عن النبي ﷺ فلم يدركه ولم يعلمه لا هو، ولا قومه؛ لأنهم كانوا أُميين لا يعلمون شيئًا عن الأمم السابقة، كما قال تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩].

﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، أي: نقصه عليك، ونخبرك به.

والوحي في اللغة: الإعلام الخفي السريع، وهو في الشرع: كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ «الواو»: عاطفة، وضمير الخطاب للنبي ﷺ، وضمير الغائب لزكريا وقومه، أي: وما كنت يا محمد عند زكريا وقومه في ذلك الوقت فتخبر عنهم بما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضرًا وشاهدًا.

﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ «إذ»: ظرف بمعنى حين، أي: حين يُلقون أقلامهم، وهي الأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة، كانوا يقترعون بها عند الحاجة إلى القُرعة، فيكتبون عليها أسماء المقترعين، أو أسماء الأشياء المقترع عليها، أي: حين يضعون أقلامهم، التي يكتبون بها للاقتراع.

﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ أي: أيهم الذي يكون كافلًا لمريم تنافسًا منهم لمكانة أبيها عمران، فهو سيدهم وإمامهم لهذا تشاح عليها بنو إسرائيل وتنافسوا في كفالتها.

قيل: إنهم دخلوا نهر الأردن واقترعوا هناك على أن يُلقوا أقلامهم، وأيهم ثبت قلمه في مجرى الماء فهو كافلها، فوضعوا أقلامهم، فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت، وكان كبيرهم وسيدهم وعالِمهم وإمامهم ونبيهم، فكفلها.

وقيل المراد بأقلامهم: سهامهم التي تكون في النصل يرمون بها، سُمِّيت أقلامًا لشبهها بالأقلام في الاستطالة ودقة الرأس، فخرجت القرعة لزكريا، فضمها إليه وكفلها، كما قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ الآية، مِنةً من الله تعالى، ورحمة به وبها.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ «الواو»: عاطفة، أي: وما كنت يا محمد عندهم أيضًا حين اختصامهم وتنازعهم أيهم يكفل مريم، كل منهم يريد أن يحظى ويشرف بكفالتها، ويرى أنه أحق بها وأولى بكفالتها؛ حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن يقترعوا.

الفوائد والأحكام:

١ - التذكير بقصة مريم عليها السلام تعظيمًا لشأنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾ الآية.

٢- مخاطبة الملائكة عليهم السلام لمريم عليها السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ﴾ الآية، مما يدل على فضلها وشرفها وكرامتها.

وليس في هذا دلالة على نبوتها، فالنبوة خاصة في الرجال، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف:١٠٩]، و«إلا» تفيد الحصر، أي: إلا رجالًا فقط.

٣- اصطفاء الله تعالى لمريم عليها السلام اصطفاءً ذاتيًا عامًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أي: حباكِ من صفوة خلقه وخيارهم.

٤- تطهير الله- عز وجل- لمريم بالتصديق والإيمان، وحفظه لها من الفواحش والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾.

٥- الرد على اليهود في اتهامهم مريم أنها بغيّ، وأن ابنها عيسى ولد زنا- أخزاهم الله وقبَّحهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾.

٦- تفضيل الله تعالى لمريم عليها السلام، واصطفاؤه لها اصطفاءً خاصًا على نساء العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فهي أفضل نساء عالم زمانها، وهي من أفضل وخير نساء العالمين.

قال ﷺ: «**خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة بنت خدويلد**»[1]، أي: خير نساء الجنة.

وقال ﷺ: «**حسبُك من نساء العالمين مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون**»[2].

وسبق في حديث أبي موسى- رضي الله عنه- أنها ممن كمل من النساء، بل قيل: إنها أفضل نساء العالمين مطلقًا، ويَرُد هذا ما جاء في حديث أبي هريرة- رضي الله

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٢)، ومسلم في الفضائل (٢٤٣٠)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٨٧٨)، من حديث أنس- رضي الله عنه- وصححه.

عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولدٍ في صغره، وأرعاه على بعلٍ في ذات يده، ولو علمت أن مريم ابنة عمران ركبت بعيرًا ما فضلت عليها أحدًا**»(١).

٧- تأكيد فضيلة مريم عليها السلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لتكرار قوله: ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾.

٨- أمر الله- عز وجل- مريم عليها السلام بالقنوت والسجود والركوع مع الراكعين، شكرًا لله تعالى، وتنبيهًا لما يريد الله بها من أمر قدَّرهُ وقضاه مما فيه محنة لها ورِفعة في الدارين بما أظهره الله تعالى فيها من قدرته العظيمة؛ حيث خلق منها ولدًا من غير أب.

٩- وجوب شكر نعمة الله تعالى، وأنه كلما كانت النعمة والمنة أعظم كان الشكر لله أوجب وأعظم؛ لقوله تعالى لمريم بعد أن بيَّن فضلها واصطفاءه لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ الآية.

١٠- الترغيب بالقنوت لله تعالى، ودوام الطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾.

١١- فضل الصلاة، وأنها من أعظم العبادات في جميع الشرائع السماوية، وأنها في كل الشرائع ذات ركوع وسجود؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

١٢- أن من أعظم أركان الصلاة وأعمالها: الركوع والسجود، وقدَّم السجود في الآية مع أن الركوع قبله في الترتيب؛ لأن السجود- والله أعلم- أفضل من حيث الهيئة، وأبلغ في الخضوع، فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**فأما الركوع فعَظِّموا فيه الرب- عز وجل- وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمِن أن يُستجاب لكم**»(٢)، وعن أبي هريرة رضي لله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٨٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٢٧).

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٧٩)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٦)، والنسائي في التطبيق (٨٧٦).

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧).

١٣- وجوب الإخلاص لله تعالى وحده في العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّكِ﴾.

١٤- ربوبية الله- عز وجل- لمريم ربوبية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّكِ﴾.

١٥- تعظيم ما حصل في القصص المذكور؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾؛ فأشار إليها بإشارة البعيد وسمّاها «أنباء» تعظيمًا لها.

١٦- أن الرسول ﷺ لايعلم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

١٧- إثبات رسالة النبي ﷺ، وأن الله تعالى أوحى إليه الرد على المكذبين لرسالته من أهل الكتاب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ الآية.

١٨- تنافس الملأ من بني إسرائيل واقتراعهم بأقلامهم أيهم يكفل مريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾.

١٩- تخاصم بني إسرائيل في كفالة مريم، فكل منهم يريد أن يكفلها وفاءً لحق عمران والدها، وكان من أكبر أحبارهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ حتى صارت القرعة من نصيب زكريا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران:٣٧].

٢٠- تأكيد أن ما ذكر الله في هذه القصص مما غاب عنه ﷺ، ومما أوحاه الله إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

وفي هذا تأكيد إثبات رسالته ﷺ، وتعريض بأهل الكتاب. كيف يكذبونه مع ما جاءهم من هذه الأخبار التي يعلمون صدقها مما لم يشهده ﷺ، ولا عَلِمهُ من ذي قبل، وإنما أوحاه الله تعالى إليه، فصار إخبارهم بهذا من طريق ما أوحاه الله إليه، كأنه شاهد معهم.

٢١- مشروعية القرعة عند الحاجة لها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾، أي: للاقتراع، وكما قال تعالى: في قصة يونس: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات:١٤١].

٢٢- المنافسة في عمل الخير، فإن بني إسرائيل تنافسوا أيهم يكفل مريم عليها السلام،

وكلهم يقول: أنا أولى بكفالتها؛ طلبًا للأجر والثواب؛ لأنها بنت إمامهم وسيدهم عمران عليه السلام.

٢٣- عناية الله تعالى بأوليائه، وتسخيره لهم، وحفظهم، بسبب صلاحهم، وصلاح آبائهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ ﴾ أي: اذكر حين قالت الملائكة: «يا مريم».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ ﴾: «البشارة»: الإخبار بما يسر.

﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي: بولد يكون وجوده بكلمة منه- عز وجل- أي: بقوله تعالى: ﴿كُن ﴾ فيكون من غير أب، و«من» في قوله: ﴿مِّنْهُ ﴾ ابتدائية أو بيانية، أي: خلقه- عز وجل- بكلمة صادرة منه سبحانه وتعالى، وهي قوله تعالى: ﴿كُن ﴾.

﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ «اسم»: مبتدأ، وضمير «الهاء» مضاف إليه راجع إلى «كلمة»، وذُكِّر مراعاة للمعنى؛ لأن المراد منها مذكَّر، و﴿ٱلْمَسِيحُ ﴾: خبر أول، و﴿عِيسَى ﴾: بدل منه أو عطف بيان أو خبر ثانٍ أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو عيسى، ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾: صفة له.

أي: اسمه الذي يميز به لقبًا «المسيح»، وعَلَمًا «عيسى»، وكُنية «ابن مريم».

﴿ٱلْمَسِيحُ ﴾: «فعيل» بمعنى (فاعل)، وسُمِّيَ عيسى عليه السلام ولُقِّب بـ«المسيح»؛ لأنه لا يمسح ذا عاهة إلا برأ بإذن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ

ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ [المائدة:١١٠].

وقيل: لمسحه الأرض، أي: كثرة سياحته فيها.

وقيل: هو «فعيل» بمعنى (مفعول)؛ لأنه مسح بالبركة واليمن، أو لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما، والأقرب القول الأول.

﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾: نسبة إلى أمه مريم؛ لأنه لا أب له.

﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ «وجيهًا»: حال، أي: حال كونه وجيهًا في الدنيا والآخرة، أي: ذا وجاهة وجاه عظيم عند الله في الدنيا والآخرة، كغيره من أولي العزم من الرسل، كما قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩].

و«الوجيه»: ذو الجاه، أي: ذو الشرف والقدر والمكانة، مأخوذ من الوجه الذي هو أفضل الأعضاء.

﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: بالنبوة، وإنزال الكتاب عليه، وإيتائه الآيات الشرعية والآيات الكونية الخارقة، وقبول دعائه، وجعله من أفضل الرسل وهم أولوا العزم.

كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧].

﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ أي: ووجيها في الآخرة بقبول شفاعته، وعلو مقامه عند الله بأعلى درجات الجنة مع أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾: معطوف على ﴿وَجِيهًا﴾ في محل نصب على الحال عطفًا على «وجيهًا»، أي: وحال كونه من المقربين عند الله تعالى، الذين هم أقرب الخلائق إلى الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة:١٠-١١]؛ وهذه أعظم البشارات.

قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾ «الواو»: عاطفة، فالجملة في محل نصب عطفًا على الحال السابقة، أي: ويكلم الناس حال كونه في المهد.

و«المهد»: الفراش الذي يوطَّأ للصبي؛ لينام فيه، والمعنى: أنه عليه السلام يكلم الناس وهو صبي في الفراش.

وهذه آية عظيمة دالة على كمال قدرة الله تعالى، وعلى صدق عيسى، وبراءة أمه مما يظن بها من الظنون السيئة، ورحمةً بهما وبالخلق.

﴿وَكَهۡلٗا﴾ «الواو»: عاطفة، و- كهلًا- حال معطوفة على ما قبلها، و«الكهل» من بلغ سن الكهولة وهي من إحدى وثلاثين، أو ثلاث وثلاثين فما بعدها إلى أربعين، وقيل: إلى الستين، أي: ويكلم الناس حال كهولته تكليم النبوة والدعوة إلى الله بعد بعثته، وكان عيسى عليه السلام بُعِثَ وهو ابن نيِّف وثلاثين سنة.

وخصَّ حال كونه في المهد، وحال كونه كهلًا؛ لأن الكلام في الحال الأولى آية على صدقه، وإرهاصًا لنبوته، وفي الحال الثانية بعثته ودعوته إلى الله تعال.

وفي عطف «كهلًا» على قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾ مع أن (الكهل) ليس مستغربًا أن يتكلم؛ دلالة على أن كلامه في المهد فصاحة وبلاغة وبيانًا مثل كلامه كهلًا بعد مبعثه، كما قال تعالى: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم:٢٧-٣٣].

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: معطوف على الأحوال السابقة، أي: والحال أنه من الصالحين، أي: من جملة الصالحين الذين بلغوا الغاية في الصلاح باطنًا وظاهرًا، إخلاصًا لله تعالى في قلوبهم، ومتابعة لشرعه في أقوالهم وأعمالهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾، كقوله تعالى في سورة مريم: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي

غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [الآيتان: ٢٠-٢١].

قوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ أي: قالت مريم: «يا رب».

﴿أَنَّىٰ﴾: الاستفهام للتعجب، أي: من أين، أو كيف يكون لي ولد؟!، كقول زكريا: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾[آل عمران: ٤٠] ليس للاستبعاد أو الاستنكار أو الشك، وإنما هو للتثبت وزيادة الطمأنينة، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[البقرة: ٢٦٠].

وإلا فمريم عليها السلام مصدقة ببشارة الله تعالى لها بالولد.

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ «الواو»: حالية، أي: والحال أنه لم يمسسني بشر، أي: لم يجامعني بشر، أي: لم أكن ذات زوج، و«المس» يُطلق في القرآن الكريم على الجماع ويُكنى به عنه، كما قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾[البقرة: ٢٣٦]، أي: ما لم تجامعوهن، وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[النساء: ٤٣]، أي: أو جامعتم النساء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: **«(المس): الجماع، ولكن الله يكني ما شاء بما شاء»**[1].

و﴿بَشَرٌ﴾: يُطلق على الواحد والجمع، والتنكير للعموم، و«البشر» هم بنو آدم.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ كقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[آل عمران: ٤٠]، أي: مثل ذلك الخلق العجيب.

وهو حصول الولد لك دون أن يمسسك بشر – يخلق الله ما يشاء، فـ«الكاف» على هذا في محل نصب صفة لمصدر محذوف أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك.

والمعنى: أنه سيكون لك ولد ولو لم يمسسك بشر.

﴿ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾: قدّم اسم الجلالة على الفعل في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَخْلُقُ﴾ لتقوية الحكم، وتحقيق الخبر.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ ٦٥)، والبيهقي في «سننه» (١/ ١٢٥).

وعبر هنا في قصة مريم وعيسى بقوله: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، وفي قصة زكريا ويحيى عبر بقوله: ﴿يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، والحكمة- والله أعلم- أن عيسى عليه السلام خُلِقَ من غير ما جرت به العادة، فناسب التعبير بقوله: «يخلق» الدال على الإبداع، وهذه حكمة كونية، وأيضًا في قوله: «يخلق» إبطال لقول النصارى: إن عيسى هو الله، وأن الله ثالث ثلاثة، كما قال تعالى عنهم: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة:١٧]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾[المائدة:٧٣]، وهذه حكمة شرعية.

ومعنى ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: يُوجِد الذي يريد من المخلوقات على أي كيفية ونوعية وكمية شاء، سواء كان ذلك وفق الأسباب المعتادة المعلومة، أو على خلاف ذلك.

فخلق عز وجل عيسى عليه السلام من أم بلا أب على خلاف العادة، كما خلق آدم من تراب بلا أب ولا أم. قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٥٩].

كما خلق عز وجل حواء زوج آدم منه، أي: من أب بلا أم، كما خلق سائر الخلق من أب وأم.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ «إذا»: ظرفية شرطية، ﴿قَضَىٰٓ﴾ أي: قضى- كونًا، ﴿أَمۡرٗا﴾مفرد، جمعه «أمور» لا (أوامر)، أي: إذا قضى شأنًا من الشؤون، وشيئًا من الأشياء، كما قال تعالى: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا﴾[يس:٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[النحل:٤٠]، والقضاء له معنيان: كوني، وشرعي.

والقضاء الكوني- كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء:٤]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ﴾ [سبأ:١٤]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ

أَجَلًا ﴾[الأنعام:٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[الأحزاب:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾[هود:٤٤].

والقضاء الشرعي كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[الإسراء:٢٣].

والفرق بين القضاء الكوني والقضاء الشرعي: أن القضاء الكوني لابد من وقوعه، ولا يلزم أن يكون محبوبًا لله تعالى، مثل: الإرادة الكونية، والأمر الكوني، والحكم الكوني.. ونحو ذلك.

وأما القضاء الشرعي- فإنه لا يلزم وقوعه لكن لابد أن يكون محبوبًا لله تعالى، مثل: الإرادة الشرعية، والأمر الشرعي، والحكم الشرعي.. ونحو ذلك.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ «الفاء» في قوله: ﴿فَإِنَّمَا ﴾: رابطة لجواب الشرط، و«إنما»: أداة حصر، ﴿فَيَكُونُ ﴾، «الفاء» عاطفة سببية، أي: فبمجرد أن يقول له: ﴿كُن ﴾ يكون كما أمر الله تعالى وأراد، دون تأخر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[البقرة:١١٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[غافر:٦٨].

وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[مريم:٣٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[النحل:٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾[القمر:٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾[النازعات:١٣-١٤].

فكل شيء منقاد لأمره الكوني ولا يستعصي عليه شيء، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[آل عمران:٨٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[فصلت:١١].

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران:٤٨].

قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم ﴿وَيُعَلِّمُهُ ﴾ بالياء، وقرأ الباقون: «ونعلمه» بالنون.

والجملة معطوفة على قوله: ﴿يُبَشِّرُكِ﴾ أو على قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾، والضمير في قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ يعود على عيسى عليه السلام، أي: ويعلِّمه الله- عز وجل- الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل.

و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: بمعنى المتكوب، أي: يعلِّمه الكتابة وحسن الخط، ويعلِّمه الكتب السابقة، وعلى هذا فتكون (ال) في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للجنس.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ معطوفة على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، و(ال) في «الحكمة» للعهد الذهني، أي: الحكمة التي آتاها الله عيسى، وهي الشريعة التي شرعها الله تعالى له، وسُمِّيت الشريعة بالحكمة؛ لأن كل ما شرعه الله تعالى متضمن للحكمة.

والحكمة أيضًا علم أسرار التشريع. وهذا كما قال تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[النساء:١١٣].

﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾: معطوف على ما قبله، وخص بالذِّكر التوراة والإنجيل لفضلهما، ولأن عيسى عليه السلام مُرسل بالحكم والعمل بهما.

و«التوراة»: الكتاب الذي أنزل الله تعالى على موسى، كتبها الله تعالى بيده، وأنزلها بألواح، كما قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[الأعراف: ١٤٥].

وقال ﷺ: «**قال آدم لموسى: أنت موسى، اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك التوراة بيده**»(١).

وهي أصل الكتب التي أُنزِلت على بني إسرائيل وأعظمها، وبها حكم أنبياؤهم، وهي أفضل كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾[المائدة:٤٤].

---

(١) أخرجه البخاري في «التفسير» تفسير سورة طه (٤٧٣٦)، ومسلم في «القدر» (٢٦٥٢)، وأبو داود في «السنة» (٤٧٠٠)، والترمذي في «القدر» (٢١٣٤)، وابن ماجه في «المقدمة» (٨٠)، وأحمد (٢/ ٢٦٨) (٣٩٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَٱلۡإِنجِيلَ﴾: هو الكتاب الذي أنزل الله تعالى على عيسى، وهو متمم ومكمل للتوراة، قال تعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [آل عمران:٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾[المائدة:٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾.

قوله ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ «الواو»: عاطفة، و«رسولًا»: مفعول به لفعل محذوف تقديره: يجعله رسولًا إلى بني إسرائيل.

و«الرسول»: من أُوحِيَ إليه بشرع وأُمِرَ بتبليغه. فعيسى عليه السلام رسول إلى بني اسرائيل، ورسالته مكملة لرسالة موسى عليه السلام.

﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ، أي: قائلًا لهم: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: أُرسِلت إليكم بآية، أي: بعلامة من ربكم دالة على صدقي.

﴿قَدۡ﴾: للتحقيق، والباء في قوله: ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ للملابسة، أي: مقارنة للآية الدالة على صدقي في هذه الرسالة، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف:٦٣].

﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم﴾:قرأ نافع وأبو جعفر بكسر الهمزة: «إِني» على أن الكلام استئناف لبيان « آية »، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَنِّيٓ﴾ على أنه بدل من قوله: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم﴾.

وهذا وما بعده بيان للآية التي جاء بها عيسى عليه السلام بقوله: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

﴿مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾: قرأ أبو جعفر بالإفراد «كهيئة الطائر»، وقرأ

الباقون: ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾، والطير: اسم يقع غالبًا على الجمع، وقد يقع على الواحد، والكاف بمعنى: مثل، وهي صفة لموصوف محذوف، أي: أخلق لكم شيئًا كهيئة الطير، أي: كصورة الطير.

﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا﴾: قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب بالإفراد «فيكون طائرًا»، أي: فيكون طائرًا تشاهدونه يطير، وقرأ الباقون: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا﴾، أي: طيرًا حيًّا بعد أن كان صورة على هيئة الطير.

والمعنى: فيكون هذا الذي خلقت لكم من الطين على هيئة الطير، ونفخت فيه الروح طيرًا حياً يطير بجناحيه؛ لأن القراءتين بمثابة آيتين يكمل بعضهما بعضا.

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمره الكوني الشرعي، فلولا أنَّ الله تعالى قدَّر ذلك كونًا، وأقدر عيسى عليه ما حصل ذلك، ولولا أن الله تعالى أذن لعيسى أن يُصوِّر على هيئة الطير ما فعل ذلك؛ لأن تصوير ذوات الأرواح لا يجوز؛ لما فيه من مضاهاة خلق الله تعالى، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**ومَن أظلم ممَّن ذهب يَخلق كخَلْقي**»(١).

وفي قول عيسى عليه السلام: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إظهار كمال عبوديته لله تعالى، واحتراس من أن يظن أنه يخلق استقلالًا.

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾: معطوف على ﴿أَخْلُقُ﴾، و«أُبرئ» من (البرء) وهو الشفاء، أي: وأشفي، قيل: يبرؤهما بالدعاء.

و﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾: الذي وُلِدَ أعمى، وقيل: الأعمى مطلقًا.

﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾: من به برص، وهي بقع بيضاء شديدة البياض تظهر على الجلد، وقد تنتشر حتى تعُم الجلد كله، وهو مرض مستقذر.

كما في قصة الثلاثة: الأبرص والأقرع والأعمى: «فجاء الملك للأبرص، فقال له: أي شيء أحب اليك؟ قال: «**لون حسن وجلد حسن، قد قذرني الناس**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في «اللباس» (٥٩٥٣)، ومسلم في «اللباس والزينة» (٢١١١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «أحاديث الأنبياء» (٣٤٦٤)، ومسلم في «الزهد والرقائق» (٢٩٦٤)، من حديث =

وخصَّ إبراء الأكمه والأبرص؛ لأنهما أمران مُعضلان أعجزا الأطباء مع كثرتهم في زمنه وحذقهم؛ ولهذا أراهم الله تعالى المعجزة من جنس الطب، وقرن ذلك بالخلق وإحياء الموتى.

﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: معطوف على ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾، أي: وأُحيي الذين ماتوا بإذن الله الكوني، و(ال) في «الموتى» للجنس، أي: جنس «الموتى» بأن يقف على أي ميت فيأمره فيحيى، وليس المراد بذلك ميتًا بعينه كما قيل إنه أحيا سام بن نوح أو غيره من أناس بأعيانهم؛ فهذا لا دليل عليه.

﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾ أي: أخبركم.

﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية في الموضعين، أي: بالذي تأكلونه اليوم، أو بأكلكم في يومكم.

﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ أي: والذي تدخرونه، أو ادخاركم ﴿فِى بُيُوتِكُمْ﴾: لغد، أو لما بعده، مما لم أطلع عليه.

وهذا من جملة الآيات التي أعطاها لعيسى؛ لأن هذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ومن ارتضى من رسله، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

وكما أن في هذا آية من آيات الله التي منحها الله تعالى لعيسى؛ لأن هذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله؛ ففي ذلك حض لهم على الأكل والادخار مما أباح الله تعالى لهم، وتحذير مما حرمه الله عليهم، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ﴾: الإشارة لما سبق من قوله تعالى: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾.

=

أبي هريرة رضي الله عنه.

أي: إن في ذلك المذكور لآية لكم، أي: لعلامة على صدقي فيما جئتكم به من الرسالة تدعو إلى الإيمان بذلك

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مصدقين بآيات الله، منقادين لشرعه؛ ففي ذلك آية لكم؛ لأنه لا ينتفع بالآيات إلا المؤمنون بخلاف أهل العناد والمكابرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ «مصدقًا»: حال، أي: وحال كوني «مصدقًا لما بين يدي من التوراة»، والمصدق: المخبر بصدق غيره، واللام في قوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ﴾: للتقوية، أي: تصديقًا مثبتًا محققًا.

والمعنى: ومصدقًا لما تقدم قبلي وسبقني من التوراة، ببيان أنها حق من عند الله، وبكوني مِصداق ما أخبرت به، فأخبرت ببعثته عليه السلام قبل مبعثه، فكان مبعثه مِصداق ما أخبرت به، وأيضًا مصدقًا لها بكون ماجاء به- غالبًا- موافقًا لما جاء فيها من أخبار وأحكام.

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ «الواو»: عاطفة، والجملة معطوفة على قوله: ﴿بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، و«اللام»: للتعليل.

أي: ولأجل أن أحل لكم بعض الذي حُرِّم عليكم في التوراة تخفيفًا عنكم، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف:٦٣].

والمحرم عليهم ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام:١٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء:١٦٠].

فبسبب بغيهم وظلمهم حرَّم الله تعالى عليهم هذه الطيبات، ثم أحل الله تعالى لهم بعضها على لسان عيسى، كما قال عليه السلام: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

و﴿جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تأكيد لقوله: ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وليبني عليه قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اتخذوا وقاية من عذاب الله بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه.

﴿وَأَطِيعُونِ﴾: قرأ يعقوب بإثبات ياء المتكلم «وأطيعوني»، وقرأ الباقون بحذفها، و﴿وَأَطِيعُونِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وأطيعوني بفعل ما آمركم به، وترك ما أنهاكم عنه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

أمر عيسى قومه بتقوى الله تعالى وطاعته، ثم بيَّن عِلة أمره لهم بذلك، وهو أن الله- عز وجل- ربه وربهم، يجب عليهم جميعًا تقواه وطاعته وعبادته وحده.

قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾: هذه الجملة تعليل للأمر بالتقوى والطاعة، أي: لأن الله ربي وربكم، فلكونه ربهم فهو حقيق بأن يتقوه جل وعلا، ولكونه رب عيسى وأرسله يقتضي تقواه وطاعة رسوله.

﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ «الفاء»: للسببية، أي: فاعبدوه وحده، وفي هذا دلالة على أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

وفيه أيضًا تنبيه وإشارة إلى أن عيسى مع ما أُعطيه من الآيات السابقة؛ فهو كغيره من الخلق مربوب لله تعالى، خاضع، منقاد له؛ ولهذا بدأ عليه السلام بنفسه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى﴾.

والعبادة في اللغة: التذلُّل والخضوع لله تعالى، وهي في الشرع: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة؛ كالصلاة، والزكاة، وبر الوالدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإخلاص لله تعالى، والمحبة في الله تعالى والبغض في الله.. وغير ذلك.

كما تُطلق العبادة على فعل التعبُّد.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾: الإشارة إلى ما سبق في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾، أي: تقوى الله تعالى، وطاعة عيسى عليه السلام، وعبادة الله تعالى هي الصراط المستقيم.

ويُحتمل عود الإشارة إلى أقرب مذكور وهو قوله: ﴿فَٱعۡبُدُوهُ﴾.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾ أي: هذا طريق واسع.

﴿مُّسۡتَقِيمٌ﴾: عدل، لا اعوجاج فيه، يؤدي إلى السعادة في الدنيا والآخرة، وإلى الله- عز وجل- وجنته بأقصر مسافة، وأقل وقت.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وجود الملائكة ووجوب الإيمان بهم، وتكليمهم لمريم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ﴾.

٢- بشارة الله تعالى بعيسى عليه السلام؛ لقول الملائكة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾.

٣- أن عيسى عليه السلام «كلمة» من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾، وهو «كلمة الله»، كما قال تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ [النساء:١٧١]؛ لأن الله تعالى خلقه بقوله تعالى: ﴿كُن﴾ من غير أب، آية من آيات الله العظيمة، ودلائل قدرته التامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].

٤- تسمية عيسى عليه السلام وتلقيبه بـ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾.

وفي هذا ثناء من الله تعالى عليه؛ لأنه لا يمسح ذا عاهة من عمى أو برص أو غير ذلك إلا برأ باذن الله تعالى.

٥- تكنية عيسى عليه السلام بـ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾، ونسبته إلى أمه؛ لأن الله خلقه من أم بلا

أب؛ لقوله تعالى: ﴿عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾؛ ولهذا يُذكر في القرآن منسوبًا إلى أمه كثيرًا، بينما لا يُنسب غيره من الأنبياء حتى ولا لآبائهم؛ لأن في ذِكر عيسى عليه السلام منسوبًا إلى أمه تذكيرًا بعظيم قدرة الله تعالى بخلقه من أم بلا أب، فاجتمع في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ أنواع العَلَم الثلاثة: اللقب- وهو قوله: ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾، والاسم- وهو قوله: ﴿عِيسَى﴾، والكُنية- وهو قوله: ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾.

٦- مكانة عيسى عليه السلام، ووجاهته عند الله، وشرفه في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

٧- إثبات البعث والدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

٨- قُرب عيسى عليه السلام من الله تعالى في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾.

٩- تكليم عيسى عليه السلام الناس وهو صبي في المهد آية من آيات الله تعالى العظيمة، ومِنة منَّها الله تعالى على عيسى وأمه مريم عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾.

١٠- أن تكليم عيسى عليه السلام وهو في المهد كتكليمه وهو كهل من حيث فصاحته وبيانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَهۡلٗا﴾، وفي هذا إعلام بأنه يعيش حتى يصير كهلًا.

١١- أن عيسى عليه السلام من جملة الصالحين، بل ممن بلغوا الغاية في الصلاح؛ فهو أحد أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

١٢- أن الصلاح يوصف به الأنبياء والرسل كما يوصف به غيرهم؛ لأن به وبكماله يبلغ العبد غاية الإيمان، إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لشرعه.

١٣- ربوبية الله تعالى الخاصة لمريم؛ لقولها: ﴿رَبِّ﴾.

١٤- تعجب مريم عليها السلام أن يكون لها ولد ولم يمسسها بشر؛ للتثبت وزيادة الاطمئنان، وليس من باب الاستبعاد أو الإنكار أو الشك؛ لأنها مصدقة بما بشرها الله به؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾.

١٥- خطاب الله تعالى لمريم عليها السلام، وفيه تشريف وتكريم لها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ

كَذَٰلِكِ﴾.

١٦- قدرة الله تعالى التامة على خلق ما يشاء، سواء كان على وفق الأسباب المعتادة المعلومة، أو على خلاف ذلك، كما خلق تعالى عيسى عليه السلام من أم بلا أب، وجعله يكلم الناس في المهد؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

١٧- إثبات صفة الخلق لله تعالى وصفة المشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

١٨- نفوذ قضاء الله تعالى وأمره الكوني وحدوثه بمجرد قوله تعالى: ﴿كُن﴾ دون تأخر؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لكمال قدرته وقوته.

١٩- مِنة الله تعالى على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتب السابقة، والشريعة وأسرار التشريع، والتوراة والإنجيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

٢٠- إثبات إرسال عيسى لبني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وفي هذا رد على اليهود الذين كذَّبوا رسالة عيسى عليه السلام.

٢١- عموم رسالة عيسى عليه السلام لجميع بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

٢٢- تأييد الله- عز وجل- عيسى بالآيات الكونية؛ حيث يخلق من الطين كمثل الطير، فينفخ فيه، فيكون طيرًا حيًّا يطير بإذن الله تعالى، ويُشفي الأعمى والأبرص، ويُحيي الموتى بإذن الله، ويُخبِر بني إسرائيل بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا

فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

٢٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لبني إسرائيل وغيرهم من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٤- استعطاف عيسى عليه السلام لقلوب بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: من المنعم عليكم بنعمة الربوبية مما يوجب عليكم أن تُطيعوه، وتصدقوا رسله، ولا تعصوه.

٢٥- في تأييد الله- عز وجل- لعيسى بهذه الآيات الكونية العظيمة التي ليست بمقدور أحد من الخلق إلا بإذن الله- عز وجل- دلالة عظيمة على كمال قدرة الله تعالى.

٢٦- أن الله- عز وجل- قد يُبيح لحكمة فعل أمر كان في الأصل حرامًا لمن يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾.

فصنع تمثال على هيئة الطير حرام في الأصل، لكن لما كان بأمر الله تعالى كان مُباحًا، ومثل هذا أمر الله- عز وجل- الملائكة بالسجود لآدم؛ مع أن السجود في الأصل لا يجوز لغير الله، ومثل أمره تعالى إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام مع تحريم قتل النفس بغير حق.

٢٧- جواز إطلاق وصف الخلق على المخلوق؛ لقول عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم﴾، كما قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وفي الحديث أنه يُقال للمصورين: «**أحيوا ما خلقتم**»(١).

والخلق إذا أُضيف إلى المخلوق فمعناه: تحويل الشيء الموجود من حال إلى حال، كتحويل الخشب والحديد إلى باب.. ونحو ذلك، أما الخلق بمعنى الإيجاد من العدم فذلك خاص بالله تعالى.

٢٨- قدرة عيسى عليه السلام بإقدار الله تعالى، وإذنه له على أن يخلق من الطين كهيئة

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢١٠٥)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٠٧)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

الطير، وينفخ فيه الروح فيكون طيرًا، وعلى إبراء الأعمى والأبرص وإحياء الموتى، وإخبار قومه بما يأكلون ويدَّخِرون في بيوتهم مما هو غيب لا يعلمه إلا الله أو من ارتضى من رسله.

٢٩- إثبات الإذن الكوني والشرعي لله- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٣٠- أن عيسى عليه السلام عبد مربوب لله تعالى، لا يملك من الربوبية شيئًا كغيره من الرسل وسائر الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ مرتين، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى﴾.

وفي هذا رد على النصارى الذين يزعمون فيه المشاركة لله تعالى في الربوبية والألوهية.

قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩]، وقال تعالى عنه- عليه السلام- أنه قال لقومه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [آل عمران:٥١].

٣١- في إطلاع الله- عز وجل-- عيسى عليه السلام- على ما يأكله بنو إسرائيل وما يدَّخِرونه في بيوتهم ما يُوجِب عليهم الحذر أن يأكلوا ما لا يجوز أكله، أو يدَّخِروا ما لا يجوز ادخاره.

٣٢- تأكيد أن ما جاء به عيسى آية عظيمة، وبخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٣٣- أن من شرط الإيمان التصديق بآيات الله تعالى الكونية والشرعية، وذلك أيضًا سبب للإيمان.

٣٤- فضل الإيمان وأهله؛ لأنهم المنتفعون بالآيات دون غيرهم؛ لهذا خصَّهم بالذكر، فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٣٥- تصديق عيسى عليه السلام لما سبقه من التوراة؛ فهو شاهد بصدقها، وأنها حق ومصداق ما أخبرت به من بعثته، وما جاء به موافق لما جاء فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

٣٦- تحليل عيسى عليه السلام بما جاء به من الشرع بعض ما كان محرمًا على بني إسرائيل تخفيفًا عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

٣٧- جواز النسخ في الشرائع السماوية، ونسخ بعضها لبعض، فأُحِل في شريعة عيسى بعض ما كان محرمًا في شريعة موسى، وهذا من قبيل النسخ، كما نسخ بشريعة محمد ﷺ جميع الشرائع السابقة.

٣٨- تأكيد عيسى عليه السلام قيام الحُجة على قومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٣٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّى﴾.

٤٠- تأكيد عيسى استعطاف قلوب بني إسرائيل بربوبية الله تعالى لهم؛ لقوله: ﴿جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ ليتقوا الله ويطيعوه.

٤١- وجوب تقوى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٤٢- وجوب طاعة الرسل عليهم السلام، وأنها من تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

٤٣- وجوب عبادة الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾.

٤٤- أن توحيد الربوبية، والإقرار به يستلزم توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾.

٤٥- أن عبادة الله تعالى وحده دون سواه هي الصراط المستقيم المؤدي إلى السعادة في الدنيا والآخرة، وإلى الفوز بالجنة والنجاة من النار؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢].

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

لما ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة بشارة الملائكة لمريم بعيسى عليه السلام، وما له من المنزلة العظيمة، والقرب من الله تعالى، وما أعطاه الله- عز وجل- من الآيات الشرعية والكونية، وإرساله إلى بني إسرائيل، وتبليغهم آيات الله تعالى، وأمرهم بتقوى الله وطاعته وعبادته وحده، وأن هذا هو الصراط المستقيم، أتبع ذلك ببيان إطباقهم على الكفر، ولجوء عيسى عليه السلام إلى اختيار الصفوة منهم إعذارًا منه إلى الله تعالى.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ الفاء: استئنافية، و«لما»: ظرف بمعنى «حين» متضمن معنى الشرط، أي: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ بعد أن جاءهم بالآيات وبلغهم بالرسالة وأمرهم بتقوى الله وطاعته وعبادته- عز وجل- وحده.

ومعنى ﴿أَحَسَّ﴾ أي: استشعر وأدرك وسمع وعلم وتيقن.

﴿مِنْهُمُ﴾ أي: من بني إسرائيل الذين أُرسِل إليهم.

﴿ٱلْكُفْرَ﴾ أي: التصميم على الكفر والجحود والتكذيب بآيات الله، والاستمرار على الضلال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧].

﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: قال عيسى لعموم بني إسرائيل.

﴿مَنْ﴾ للاستفهام، أي: (من أنصاري منكم)، وأنصار: جمع «نصير»، والأنصار: «الأعوان».

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: في دعوتي إلى الله وطريقي إلى الله تعالى.

والمعنى: أنه عليه السلام لما تيقن منهم الكفر وعدم الإيمان لجأ إلى الاختيار، وانتخاب الأكْفَاء؛ تأكيدًا للبلاغ وإعذارًا إلى الله تعالى، فقال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: من أنصاري منكم في دعوتي وطريقي إلى الله؟.

كما كان نبينا محمد ﷺ يقول في مواسم الحج: «**ألا رجل يحملني إلى قومه؛ فإن قريشًا منعوني أن أبلغ كلام ربي**»(١).

حتى قيَّض الله تعالى له الأنصار فآووه وآزروه ونصروه.

وفي قول عيسى عليه السلام: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى أن النصرة ينبغي أن تكون خالصة لله تعالى.

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾: «الحواريون» جمع «حواريّ» بتشديد الياء، وهو الناصر والصفيّ، أي: قال أنصار عيسى وأصفياؤه وخاصته، قيل: «كانوا اثنى عشر رجلًا». وقد ثبت أن النبي ﷺ انتدب الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير فقال ﷺ: «**إن لكل نبي حواريًّا، وإن حواريَّ الزبير بن العوام**»(٢).

وقد غلب اسم الحواريين على أنصار عيسى عليه السلام.

﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾: الجملة مكونة من مبتدأ وخبر، معرّفة الطرفين تفيد الحصر، أي: نحن لا غيرنا.

﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصار دينه، كما قال تعالى في سورة الصف: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤].

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: صدَّقنا بالله، وأقررنا به، وانقدنا لشرعه.

﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: كُن شهيدًا لنا على أننا مسلمون، ولم يطلبوا

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٢، ٣٣٩)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٥)، والترمذي في المناقب (٣٧٤٥)، وابن ماجه في المقدمة (١٢٢)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

الشهادة على إيمانهم بالله لأنه أمر باطن، وإنما استشهدوه على الإسلام؛ لأنه أمر ظاهر، وذلك من باب التوكيد وإعلان الإسلام تقوية لعيسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ أي: يا ربنا صدقنا باطنًا بالذي أنزلت؛ أي: بالإنجيل الذي أنزلت على عيسى- عليه السلام- وبالتوراة التي أنزلت على موسى- عليه السلام- وبجميع الكتب التي أنزلتها على أنبيائك، وبهذا أشهدوا ربهم على إيمانهم الباطن بما أنزل على جميع رسله.

﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾: معطوف على ﴿ءَامَنَّا﴾، و«ال» في ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود عندنا، أي: رسولنا عيسى- عليه السلام.

ويحتمل كون «ال» للعهد الذكري؛ لقوله تعالى فيما سبق: ﴿وَرَسُولًا﴾.

ويحتمل كونها للجنس، أي: جنس الرسل؛ أي: وأقررنا بجميع الرسل، واتبعناهم بما جاؤوا به من الدعوة إلى الله، وبهذا أشهدوا ربهم على إيمانهم الظاهر باتباعهم الرسول وانقيادهم له، فجمعوا بين التصديق باطنًا بما أنزل الله، وبين الاتباع ظاهرًا للرسول، وهو ثمرة الإيمان الباطني.

و﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الفاء: واقعة في جواب شرط مقدر، و﴿مَعَ﴾ للمصاحبة، أي: فاكتبنا مع الشاهدين الذين شهدوا لك بالوحدانية ولكتبك ورسلك بالصدق والحق، كما قال تعالى عنهم في سورة المائدة: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الآية:٨٣]؛ أي: فاكتبنا مع الشاهدين الذين شهدوا لك بالوحدانية ولكتبك ورسلك بالحق والصدق كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقيل: المراد بـ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: أمة محمد ﷺ؛ لأنهم هم الذين لهم الشهادة المطلقة على جميع الرسل بالبلاغ، وعلى أممهم بمواقفهم من رسلهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

والمعنى على هذا: فاكتبنا مع أمة محمد ﷺ الذي بشرنا به عيسى- عليه السلام- كما قال تعالى عنه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف:٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَكَرُواْ﴾: الضمير «الواو» يعود إلى الذين كفروا من بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾، و«المكر»: هو الكيد والتدبير الخفيّ لإلحاق الضرر بالغير خفية.

أي: «ومكر بنو إسرائيل وبخاصة اليهود»، أي: كادوا ودبروا بخفية لإنكار رسالة عيسى عليه السلام، وتكذيب دعوته، والكفر بها، ولقتله، فوشوا به إلى ملكهم، وتمالؤوا على قتله، ولكن الله أنجاه منهم، فعاد وبال كيدهم عليهم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

ولهذا قال: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾، والمكر لا يُضاف ولا يُنسب إلى الله تعالى إلا على سبيل المجازاة للماكرين، كالكيد للكائدين، والاستهزاء بالمستهزئين، والسخرية بالساخرين.. ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠، ٥١].

أي: ومكر الله بهم، وكاد لهم معاقبةً لهم ومجازاة على مكرهم، فنصرعيسى عليه السلام ومن معه من الحواريين عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف:١٤].

ومكر عز وجل بهم فنجّى عيسى عليه السلام منهم حينما تمالؤوا على قتله ودخلوا

عليه يريدون قتله وهو لم يشعر بذلك، فألقى الله- عز وجل- شبه عيسى على رجل منهم، بل قيل على زعيمهم، أو على رجل من أصحاب عيسى عليه السلام، فظنوه عيسى فقتلوه وصلبوه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧].

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي: أقواهم وأشدهم وأعظمهم مكرًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٤٢]، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس:٢١].

ومن أشد مكره- عز وجل- بهؤلاء الذين همُّوا بقتل عيسى عليه السلام أن يُلقي سبحانه على رجل منهم أو على زعيمهم شبه عيسى عليه السلام، فيظنوه عيسى فيقتلوه ويصلبوه، فعاملهم عز وجل بنقيض قصدهم، وقد قيل **«من حفر حفرة لأخيه وقع فيها»**(١).

الفوائد والأحكام:

١- شدة عتو بني إسرائيل، فمع ما جاءهم به عيسى عليه السلام من الآيات الشرعية والكونية لم ينجع فيهم ذلك ولم يؤمنوا، بل كفر أكثرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾.

٢- ينبغي للداعية إلى الله تعالى اختيار ذوي الإخلاص والصدق ليكونوا عونًا له في دعوته إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.

٣- التغيير في أسلوب الدعوة أمر مطلوب؛ لأن عيسى عليه السلام لما استعصى عليه إيمان كثير من بني إسرائيل وجَّه النداء للمخلصين منهم خاصة.

٤- لا ينبغي أن يتطرق اليأس إلى نفس الداعي إلى الله -تعالى-، فعيسى عليه السلام لما كفر به بنو إسرائيل، وكان يطمع في إيمانهم لم ييأس، ولم يُثنه ذلك، بل نادى بهم

---

(١) قيل: كان هذا مكتوبًا في التوراة، روي هذا عن عمرو بن العاص، وعن كعب الأحبار، رواه عنه ابن عباس. انظر: «حلية الأولياء» (١/ ٢٨٨)، و«تفسير الثعلبي» (٨/ ١١٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ١٧٧).

تأكيدًا للبلاغ وإعذارًا إلى الله تعالى قائلًا: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فأجابه الحواريون: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ الآية.

٥- أن الخير لا يُعدم في الناس، فمع كفر أكثر بني إسرائيل آمن فريق منهم وهم الحواريون، وناصروا عيسى عليه السلام.

٦- عدم الاغترار بما عليه الكثرة، فالأكثرون ضد الحق والإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

٧- ترغيب المدعويين في نصرة الحق؛ لقول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: في طريقى إلى الله ونصرة دينه.

٨- أن دعوة الرسل عليهم السلام إلى الله وإلى إخلاص العبادة له وحده، والانتصار لدينه، لا لأنفسهم؛ لقول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: في طريقى إلى الله ودعوتي إليه.

٩- حاجة الرسل إلى النصرة في دعوتهم إلى الله؛ لقول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، كما قال نوح عليه السلام: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر:١٠].

وقال موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه:٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢].

١٠- أن نصرة الرسل في دعوتهم نصرة لله تعالى؛ لقول الحواريين: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

١١- فضل الحواريين لمسارعتهم لنصرة دين الله لما دعاهم عيسى لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الآية.

١٢- ينبغي نصرة الحق والداعين إليه من الرسل وغيرهم؛ لأن الله امتدح الحواريين بذلك.

١٣- إطلاق اسم المسلمين على أتباع عيسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

وهكذا أتباع جميع الرسل يُسمون بذلك، وبعد بعثة محمد ﷺ صار الإسلام علمًا على الدين الذي جاء به، والذي لا يقبل الله من أحد سواه بعد مبعثه ﷺ.

١٤- أن الخلق إنما يشهدون على الظاهر، أما الباطن فأمره إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، ولم يقولوا: بأنَّا مؤمنون.

١٥- أنه ليس من الرياء أو السمعة أن يقول الإنسان: أنا من أنصار الله، أو أنا مؤمن، أو مسلم، أو متبع للرسول إذا كان ذلك على سبيل إعلان الحق والجهر به ونصرته ونصرة الداعي إليه وتقوية جانبه وعزيمته ورفع معنويته؛ لقول الحواريين: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ ﴾.

١٦- التوسل إلى الله- عز وجل- بربوبيته، وبالإيمان بما أنزل، واتباع الرسول؛ لقول الحواريين: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقوله تعالى ﴿ رَبَّنَآ ﴾.

١٨- أن الإيمان بالله مُقدَّم على غيره من أركان الإيمان والإسلام ؛ لقول الحواريين: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ ﴾.

١٩- أن الواجب الإيمان بكل ما أنزل الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ بِمَآ أَنزَلْتَ ﴾.

٢٠- التلازم بين الإيمان بالله تعالى وبما أنزل وبين الإسلام واتباع الرسول بالعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ ﴾.

٢١- عِظم منزلة الشاهدين الذين يشهدون بوحدانية الله تعالى وبالحق والصدق لكتبه ورسله؛ لقول الحواريين: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

٢٢- مكر بني إسرائيل وكيدهم لعيسى عليه السلام ولدعوته، وتمالؤهم على قتله من حيث لا يشعر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ ﴾.

٢٣- مكر الله- عز وجل- بالذين مكروا بعيسى عليه السلام وأنكروا رسالته وردُّوا دعوته وهمُّوا بقتله مُعاقبةً ومجازاةً لهم، وذلك بنصرة عيسى عليه السلام وأتباعه، وإنجائه منهم واستدراجهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾.

٢٤- مكر الله- عز وجل- بالماكرين مجازاةً ومعاقبةً لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ وهو من الصفات الفعلية المتعلقة بالمشيئة.

٢٥- أن الله- عز وجل- خير الماكرين وأقواهم وأشدهم مكرًا بالماكرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾.

٢٦- أن الله- عز وجل- لا يوصف بالمكر مطلقًا؛ لأن المكر بالإطلاق صفة نقص، وإنما يوصف به على سبيل المجازاة والمعاقبة للماكرين، وهو بهذا المعنى صفة مدح ولا يقدح في هذا ما جاء ظاهره الإطلاق، كما في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩]. فهو محمول على الوصف المذكور.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ ﴾ «إذ»: ظرف بمعنى «حين» متعلق بقوله: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ أو بمحذوف تقديره «اذكر»، أي: اذكر يا محمد منوِّهًا بفضل عيسى ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ ﴾.

﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾: المراد بـ«الوفاة» هنا: الوفاة الصغرى بالنوم، لا الوفاة الكبرى بالموت، أي: إني متوفيك بالنوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر:٤٢]، أي: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، أي: يتوفاها حين تنام تشبيهًا للنائمين بالموتى.

وفي الحديث أنه ﷺ إذا قام من النوم، قال: «**الحمد الله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور**»(١).

وهذا لا ينافي قول من قال معنى ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ أي: قابضك من

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٢)، وأبو داود في الأدب (٥٠٤٩)، والترمذي في الدعوات (٣٤١٧)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٨٠)، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

الأرض ورافعك إليّ.

وأما قول من قال: معنى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: متوفيك وفاة موت، أي: إني مُميتك. فهذا يضعفه ما ثبت في الأحاديث الصحيحة من نزول عيسى في آخر الزمان.

كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد»**(١).

وعنه أنه ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده ليهلّن ابن مريم بفج الروحاء حاجًا أو معتمرًا، أو ليثنينهما»**(٢).

وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: **«ليس بيني وبينه نبي -يعني: عيسى- وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، بين مُمصَّرتين، كأن رأسه يقطر وإن لم يُصِبهُ بلل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى، فيصلي عليه المسلمون»**(٣).

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: الرفع يكون من أسفل إلى أعلى، أي: ورافعك إليّ في السماء، كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦-١٧].

وقال ﷺ للجارية: أين الله؟، فقالت: في السماء، فقال ﷺ لسيدها: **«أعتقها، فإنها مؤمنة»**(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٢٢)، ومسلم في الإيمان (١٥٥)، والترمذي في الفتن (٢٢٣٣)، وابن ماجه (٤٠٧٨).

(٢) أخرجه مسلم في الحج (١٢٥٢).

(٣) أخرجه أبو داود في الملاحم (٤٣٢٤).

(٤) أخرجه مسلم في المساجد (٥٣٧)، وأبو داود في الصلاة (٩٣٠)، والنسائي في السهو (١٢١٨)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

والحكمة- والله أعلم- من توفيه بالنوم قبل رفعه: تيسير وتخفيف الانتقال عليه من الأرض إلى السماء.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: برفعي إياك إلى السماء، وتبرئتك بما رماك به الذين كفروا من الباطل- وهم اليهود- حيث رموه بالكذب فيما جاءهم به، وأنكروا رسالته، واتهموه بأنه ابن زنا، وأن أمه زانية.. وغير ذلك أخزاهم الله.

كما قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٧-٢٨].

وفي هذا تعريض بأنه ولد زنا، وأن أمه زانية -عياذًا بالله-، كما قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٥٦]، فأنطقه الله- عز وجل- وهو في المهد بقوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:٣٠-٣٣].

وفي هذا أعظم التطهير له عليه السلام ولأمه رضي الله عنهما.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الواو: عاطفة، و﴿وَجَاعِلُ﴾ أي: وجاعل كونًا وشرعًا ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾.

و«جاعل» هنا بمعنى «مُصيِّر» تنصب مفعولين: الأول- قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾، و«فوق»: ظرف مكان متعلق بمحذوف هو المفعول الثاني لـ «جاعل» تقديره: كائنين فوق الذين كفروا.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ أي: الذين اتبعوك فيما جئت به من الشرع، وهم الحواريون ومن اتبعه بعد ذلك حتى نسخت شريعته بشريعة محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف:١٤].

﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: فوق الذين كفروا فوقية معنوية بجعل النصرة والرفعة

لهم والظهور كونًا وشرعًا على الذين كفروا بك وجحدوا رسالتك وكذبوا شريعتك.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: إلى يوم البعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال.

وأتباع عيسى عليه السلام حقًا بعد بعثة محمد ﷺ هم أتباع محمد ﷺ؛ لأن عيسى عليه السلام بَشَّر بمحمد ﷺ، وأوجب تصديقه واتباعه، كما قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

وعلى هذا يدل قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وأن الدين الباقي إلى يوم القيامة هو دين الإسلام الذي بعث به محمد ﷺ والذي نسخ جميع الشرائع السابقة وكما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور:٥٥].

وقد قال ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة**»، قالوا: كيف يا رسول الله؟، قال: «**الأنبياء إخوة من علات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد، فليس بيننا نبي**»(١).

قال ابن القيم(٢): «فلما كان للنصارى نصيب ما، من اتباعه كانوا فوق اليهود إلى يوم القيامة، ولما كان المسلمون أتبع له من النصارى كانوا فوق النصارى إلى يوم القيامة».

ولهذا فإن عيسى عليه السلام حينما ينزل في آخر الزمان يحكم بالإسلام الذي جاء به محمد ﷺ ويقاتل الناس عليه ولا يقبل منهم إلا الإسلام.

وعلى هذا؛ فليس لمن كذب محمدًا ﷺ وأنكر رسالته من النصارى وغيرهم متمسك في هذه الآية؛ لأنهم ليسوا من أتباع عيسى حقًا، وليسوا من الذين وُعِدوا بالفوقية على الذين كفروا إلى يوم القيامة، بل هم من الذين كفروا لعبادتهم المسيح، وقولهم هو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، وإنكارهم رسالة محمد ﷺ وكفرهم بالقرآن الكريم.

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل، باب: [عيسى بن مريم] (٢٣٦٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٠).

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾: الخطاب لعيسى عليه السلام والذين اتبعوه والذين كفروا به، ويجوز كونه خطابًا للنبي ﷺ وأمته أو للجميع، أي: ثم إليَّ مصيركم ومآلكم ومآبكم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١].

ومرجع الخلائق ومصيرهم ومردُّهم كلهم إلى الله تعالى في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢].

﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾: المراد بالحكم هنا الحكم الجزائي؛ لأن حكم الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: كوني وشرعي وجزائي، أي: فأحكم بينكم بالمجازاة لكل منكم، وإنصافه من الآخر.

﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: في الذي كنتم فيه تختلفون، فيحكم عز وجل بين أهل الكفر وأهل الإيمان، وبين الرسل وأقوامهم، ويُقيم الرسل البينة على أقوامهم أنهم بلَّغوا رسالات ربهم، قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

هاتان الآيتان معطوفتان على ما سبق، وفيهما بيان وتفصيل لما أجمل في قوله: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ «الفاء»: عاطفة للتفريع، و«أما» في الموضعين: شرطية تفصيلية.

﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ «الفاء»: تفريعية، و«العذاب» هو العقاب والنكال، وهو إيقاع المشقة والأذى بالمعذَّب.

فالمعنى: فأعاقبهم عقابًا شديدًا، أي: قويًا عظيمًا، كمًا وكيفًا ونوعًا.

وفي قوله: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾ بضمير المتكلم تعظيم لنفسه- عز وجل- وترهيب وتخويف من عذابه.

﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾: وهو ما يحصل لهم من القتل والجرح والأسر، وزوال الملك، وضرب الذلة والمسكنة عليهم، وأخذ الجزية.. ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة:١٤].

وكذلك ما يحصل لهم من المصائب والكوارث، قال تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠-١١]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

وما يحصل لهم من العذاب المعنوي في قلوبهم من القلق، وضيق الصدور، وقلق النفوس بسبب كفرهم وعدم إيمانهم.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥].

﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلدُّنْيَا﴾، أي: وأعذبهم في الآخرة.

وعذاب الآخرة أشد، وهو ما يلقونه فيها من الأهوال التي أعظمها الخلود في النار، وبئس القرار.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ «الواو»: عاطفة، و«ما»: نافية، و«مِنْ» في قوله: ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ لتنصيص وتأكيد عموم النفي، أي: وما لهم أيُّ أحد من الناصرين، و﴿نَّٰصِرِينَ﴾: جمع «ناصر» وهو الذي يدفع الضُّر، أي: وما لهم من ناصرين يدفعون ويمنعون عنهم عذاب الله قبل وقوعه أو يرفعونه بعد وقوعه.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي

﴿ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة:٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى:٨].

والولي الذي يجلب النفع، والنصير الذي يدفع الضُّر.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

توعد عز وجل في الآية السابقة الكافرين بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة، وقدَّم ذِكر وعيدهم لأن السياق فيهم، ثم أتبع ذلك بذِكر ما أعدَّه للذين آمنوا من الأجور الوافية كما هي طريقة القرآن الكريم في ذِكر أهل الكفر وأهل الإيمان، وما أعدَّ لكل منهم جمعًا بين الترغيب والترهيب.

قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ معطوف على قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: وأما الذين صدقوا بقلوبهم بكل ما يجب الإيمان والتصديق به.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: وعملوا الأعمال الصالحات، فانقادوا بجوارحهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل، وبين العلم النافع والعمل الصالح.

وحذف الموصوف في قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهو «الأعمال»؛ لأن شرط العمل أن يكون صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

وقال ﷺ: «... **فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[1].

وأن يكون موافقًا للشرع؛ قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٤)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠١)، والنسائي في الطهارة (٧٥)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وفي لفظ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[١].

ويجمع الشرطين مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾، أي: أخلص العمل لله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[النساء:١٢٥]، أي: متبع شرع الله.

ولا تتحقق المتابعة إلا إذا وافق العمل الشريعة في أمورٍ ستة: السبب، والجنس، والقدر، والكيفية، والمكان، والزمان.

فالموافقة في السبب مثلًا: أن يصلى للكسوف عند وجود سببه، فمن صلى صلاة الكسوف دون حصول الكسوف لم تصح منه.

والموافقة في الجنس مثلًا: أن يضحي من بهيمة الأنعام (الإبل والبقر والغنم)، فمن ضحَّى بغيرها لم يُقبل منه.

والموافقة في القدر مثلًا: أن يصلي صلاة الظهر أربع ركعات، فمن زاد فيها أو نقص فصلاته باطلة.

والموافقة بالكيفية مثلًا: أن يقدم الركوع على السجود في الصلاة، فمن عكس لم تصح صلاته.

والموافقة في المكان مثلًا: أن يقف الحاج بعرفة يوم التاسع، فمن وقف خارجها لم يصح حجه.

والموافقة في الزمان مثلًا: أن يصلي الصلاة بعد دخول وقتها، فمن صلاها قبل وقتها لم تصح منه[٢].

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ «الفاء»: رابطة لجواب الشرط.

قرأ حفص عن عاصم، ورُوِيَ عن يعقوب: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالنون، أي: بنون العظمة، «نوفيهم» وفيها تنبيه على عظم الموفى لهم من الأجور.

والمعنى: فيعطيهم جزاء أعمالهم وافيًا من غير نقصان، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّا

---

(١) أخرجه مسلم في الأقضية (١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين في تفسيره على قول الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ [المائدة:٩] «تفسير سورة المائدة» (١/ ١٥٣-١٥٤).

﴿لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود:١٠٩].

أي: فيوفيهم أجورهم في الدنيا والآخرة بدليل مقابله في ضده؛ لقوله: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، أي: فيوفيهم أجورهم في الدنيا بالنصر والظفر والحياة الطيبة وحُسن الذِّكر، وفي الآخرة بجنات النعيم والعيش الكريم.

وفي قوله في ذِكر العذاب: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾ بينما قال هنا: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ التفات من التكلم إلى الغيبة للتنبيه - وهذه فائدة لفظية كما أن فيه فائدة معنوية، وهي إظهار السلطة والعظمة والعزة في باب ذِكر العذاب، وإظهار الفضل والإحسان للعاملين في باب ذِكر الثواب.

وسمَّى الله- عز وجل- جزاء وثواب عملهم أجرًا؛ لأنه- عز وجل- تكفَّل به وأوجبه على نفسه، كما أوجب أجرة الأجير على المستأجر، مع أن الله- عز وجل- لا يجب عليه شيء لخلقه، وإنما أوجب ذلك على نفسه تفضلًا منه وكرمًا، كما قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾: الجملة تعليلية، فيها تعليل لما توعد به الذين كفروا من العذاب الشديد في الدنيا والآخرة، فتوعدهم عز وجل بهذا العذاب الشديد بسبب ظلمهم، وهو سبحانه لا يحب الظالمين بل يبغضهم. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥].

وفيها أيضًا تعليل لحكم الله تعالى بين الخلائق، ومجازاة الذين كفروا بالعذاب، ومجازاة الذين آمنوا بتوفيتهم أجورهم، فحكم بينهم بهذا الجزاء بالعدل؛ لأنه سبحانه لا يحب الظلم وأهله.

أي: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك بالله وعبادة غيره، وظلموا عيسى عليه السلام وأمه باتهامه أنه ولد زنا وأن أمه زانية.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما سبق من ذِكر عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ

ﵟاللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَﵞ [آل عمران:٤٥] الآية.

أو إليه وإلى ما سبق من ذِكر آل عمران، أي: من قوله: ﵟإِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَﵞ [آل عمران:٣٣].

أو إلى كل ما أنزله الله تعالى في القرآن الكريم، فكل هذا مما تلاه الله تعالى وأوحاه إلى رسوله محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام.

وفي الإشارة إليه بقوله: ﵟذَٰلِكَﵞ تعظيم له، كما قال تعالى: ﵟتِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّﵞ [آل عمران: ١٠٨، البقرة:٢٥٢، الجاثية: ٦]

ﵟنَتْلُوهُ عَلَيْكَﵞ أي: نقرؤه عليك متتاليًا يتلو بعضه بعضًا، والخطاب للنبي ﷺ، أي: نقرؤه عليك بواسطة جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﵟنَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍﵞ [الشعراء:١٩٣- ١٩٥]، وقال تعالى: ﵟإِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُﵞ [القيامة: ١٧- ١٩].

ﵟمِنَ الْآيَاتِﵞ «مِنْ»: بيانية، أي: من الآيات الكونية الدالة على صدقك في دعوى الرسالة، كما قال تعالى: ﵟنَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَﵞ [القصص: ٣].

ﵟوَالذِّكْرِ الْحَكِيمِﵞ: معطوف على الآيات، أي: «ذلك نتلوه عليك من الآيات الكونية، ومن الذكر الحكيم، وهو القرآن الكريم، أي: الآيات الشرعية.

والقرآن الكريم ذِكرٌ بالمعاني الثلاثة للذكر وهي:

أولًا: «الذكر» الذي يتقرب به إلى الله تعالى بتلاوته، وتدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه، كما قال تعالى: ﵟفَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْﵞ [النساء: ١٠٣].

ثانيًا: «الذكر» بمعنى التذكُّر والاتعاظ، كما قال تعالى: ﵟإِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌﵞ [ق:٣٧]، وقال تعالى: ﵟوَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَﵞ [الذاريات:٥٥]، وقال تعالى: ﵟفَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰﵞ [الأعلى:٩].

ثالثًا: «الذكر» بمعنى الشرف والرفعة، للرسول ﷺ ولقومه ولكل من تمسك به،

كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:٤٤]، أي: إنه لشرف عظيم لك ولقومك، وقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح:٤]، أي: أعلينا قدرك وشأنك ومنزلتك.

والقرآن الكريم ذكر يُتذكر به ويُتقرب إلى الله تعالى بتلاوته وتدبره، وتذكرة وعظة يتذكر ويتعظ بها المؤمنون، وشرف ورفعة للرسول ﷺ ولقومه وأمته، وبه نالت الأمة العزة والرفعة والشرف والظهور حين كانت متمسكة به محكِّمة له.

وما ضعفت الأمة وذلت وهان أمرها إلا بعد أن تخلَّت عن كتاب ربها، ولن يصلح حال آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها وهو التمسك بكتاب الله تعالى وتحكيمه.

﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾: صفة لـ«الذكر»، أي: الذكر ذو الحكم والحكمة، وهو «فعيل» بمعنى (فاعل)، أي: «حاكم»، وهو «فعيل» بمعنى (مفعل)، أي: «مُحكم».

ومعنى «حاكم» أي: حاكم يحكم بين الناس، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥].

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بعيسى عليه السلام، وما مَنَّ الله تعالى به عليه من تَوَفيه، ورفعه إليه، وتطهيره من الذين كفروا، ونصر أتباعه وإظهارهم على الذين كفروا، تذكيرًا بنعم الله تعالى على رسله وأوليائه، وانتقامه من أعدائه؛ لقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ الآية.

٢- إثبات القول لله سبحانه، وأنه- عز وجل- يتكلم بحروف وأصوات مسموعة، ويخاطب رسله ومن شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾ الآية.

٣- إثبات رسالة عيسى عليه السلام وتشريفه وتكريمه بخطاب الله- عز وجل- له، وتقريبه إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ الآية.

٤- إثبات رفع عيسى عليه السلام إلى السماء بجسمه حيًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾.

٥- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾.

٦- عناية الله- عز وجل- بعيسى عليه السلام عند رفعه إليه حيث توفاه، أي: أنامه قبل ذلك تخفيفًا عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

٧- منقبة عظيمة لرسول الله ﷺ تدل على قوة وثبات قلبه؛ حيث أُسرِيَ به إلى السماوات السبع وهو يقظان، بينما رُفِعَ عيسى عليه السلام وهو نائم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

٨- إبطال دعوى اليهود أنهم قتلوا عيسى وصلبوه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٥٧-١٥٩].

والضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ عائد إلى عيسى عليه السلام، أي: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام.

٩- تطهير الله- عز وجل- لعيسى وتبرئته مما رماه به الذين كفروا من الكذب والباطل واتهامه بأنه ولد زنا، وأن أمه زانية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

١٠- أن من رمى عيسى عليه السلام بهذا السوء فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وفي هذا دلالة على كفر هؤلاء، وأن كل من رماه بما رموه به فهو كافر، كما قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

١١- وعد الله تعالى لعيسى عليه السلام بنصرة أتباعه، وإظهارهم على الكفار إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وأتباعه حقًّا هم أتباع محمد ﷺ؛ لأنه عليه السلام بَشَّر بمحمد ﷺ، وأخبر بوجوب اتباعه وتصديقه.

١٢- وعد الله تعالى بالنصرة والرفعة والظهور للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

١٣- إثبات يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

١٤- أن مرجع جميع الخلائق إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.

١٥- إثبات حكم الله- عزوجل- الجزائي بين الخلائق يوم القيامة؛ بين الرسل وأممهم، وبين الأمم، ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فهو- عز وجل- الحَكَم، وإليه الحكم، كما قال ﷺ: «**إن الله هو الحكم وإليه الحكم**»[1].

١٦- وقوع الاختلاف يوم القيامة والخصومة بين المؤمنين والكافرين، وبين الرسل وأممهم لقوله تعالى: ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠- ٣١].

١٧- الوعيد للذين كفروا بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

عذاب شديد في الدنيا حسي بالقتل والجراح وأخذ الجزية وأنواع العقوبات والمصائب والكوارث.

وعذاب معنوي بالقلق والاضطراب النفسي بسبب الكفر وعدم الإيمان.

وهذا عام لجميع الكفار، فمن سلم من الأول لم يسلم من الثاني.

وعذاب شديد في الآخرة حسي بالنار، وعذاب معنوي بالتوبيخ وتحطيم المعنويات.. ونحو ذلك.

١٨- حقارة الدنيا؛ لأن الله سماها دنيا لحقارتها.

١٩- أن عذاب الكفار في الدنيا لا يُخفف أو يُسقِط عنهم عذاب الآخرة، بل يجمع لهم بين العذاب الشديد في الدنيا والعذاب الشديد في الآخرة.

٢٠- إثبات الدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾.

٢١- أن الكفار لا ناصر لهم يدفع أو يمنع عنهم عذاب الله تعالى قبل نزوله، أو

---

(١) أخرجه النسائي في آداب القضاة (٥٣٨٧)، من حديث شريح بن هانئ عن أبيه هانئ رضي الله عنه.

يرفعه بعد نزوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾.

٢٢- وعد الله تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بإعطائهم أجور أعمالهم وافية؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾.

٢٣- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فذكر عذاب الكافرين، وأتبعه بذِكر ثواب المؤمنين.

٢٤- أن الوعيد قد يقدم على الوعد، كأن يكون الكلام والسياق مع الكفار ونحو ذلك؛ لأن الله- عز وجل- قدَّم في هذه الآيات وعيد الكافرين على وعد المؤمنين، وهذا لا ينافي أن رحمة الله- عز وجل- تسبق غضبه.

٢٥- لابد في الإيمان من الجمع بين تصديق الباطن وعمل الجوارح في الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾.

٢٦- أن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان صالحًا، خالصًا لوجهه، موافقًا لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ ولهذا حذف الموصوف- وهو الأعمال- وبقيت الصفة؛ لأن المهم في العمل وشرطه أن يكون صالحًا.

٢٧- تكفل الله- عز وجل- وضمانه لثواب الصالحين، لهذا سماه «أجرًا»؛ لأنه سبحانه وتعالى أوجبه على نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿أُجُورَهُمْ﴾.

٢٨- التحذير من الكفر، والترغيب في الإيمان؛ لأن الله- عز وجل- توعد الكافرين بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة، ووعد المؤمنين بتوفيهم أجورهم.

٢٩- نفي محبة الله تعالى للظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾؛ فهو- عز وجل- لا يحب الظالمين بل يبغضهم، ومفهوم هذا أنه -تعالى- يحب أهل الإيمان والحق.

٣٠- التحذير من الظلم ومن الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾؛ لأن الله تعالى لا يحب الظلم وأهله، بل يبغضهم ويعذبهم، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥].

٣١- أن الله- عز وجل- حكم عدل، لا يظلم أحدًا من خلقه.

٣٢- تلاوة ما وقع من أخبار وأحوال آل عمران وعيسى عليه السلام وغير ذلك على النبي ﷺ، وقراءتها عليه بواسطة جبريل، وهكذا جميع القرآن الكريم تكلم الله- عز وجل- وتلاه جبريل على النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

٣٣- أن في القرآن الكريم أعظم الآيات والدلائل الشرعية والكونية الدالة على عظمة الله- عز وجل- واستحقاقه العبادة دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾.

٣٤- أن القرآن الكريم «ذِكرٌ» يُتقرب إلى الله تعالى بتلاوته، وتدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه. و«ذِكرٌ» يُتذكَّر به، ويتعظ به المؤمنون، وهو ذِكر وشرف للرسول ﷺ ولقومه ولكل من تمكسك به؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلذِّكْرِ﴾.

٣٥- أن القرآن الكريم «حَكَم» و«حاكِم» يحكم بين الناس، و«مُحكم» متقن ليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

٣٦- تعظيم آيات القرآن الكريم بالإشارة إليه بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾، وتسميته بـ «الذِّكر» ووصفه بـ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾.

٣٧- إثبات رسالة النبي ﷺ، ونزول الآيات عليه، وتشريفه بذلك وبخطاب الله- عز وجل- له؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾.

بيّن الله- عز وجل- في الآيات السابقة خلقه لعيسى عليه السلام من أم بلا أب، ثم شرع في هذه الآيات في إبطال عقيدة النصارى في تأليه عيسى- عليه السلام- وزعمهم أنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ «إنَّ»: للتوكيد، و«مثل» بمعنى شبه، أي: إن شبه عيسى في خلق الله تعالى له من أم بلا أب.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في تقدير الله تعالى وحكمه وفي الواقع ونفس الأمر.

﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾: الكاف: للتشبيه، أي: كشبه آدم.

﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾: بيان وتفسير لقوله: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي: كمثل آدم في خلق الله تعالى له ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ بلا أم ولا أب، ووجه الشبه بين آدم وعيسى أن كلًا منهما في خلقه خرقٌ للعادة، فآدم خُلِقَ من غير أبوين، وعيسى خُلِقَ من غير أب.

والضمير في ﴿خَلَقَهُۥ﴾ يعود إلى آدم.

﴿مِن تُرَابٍ﴾ أي: ابتدأ خلقه من تراب، وصوَّر جسده من تراب.

﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾: أي: كُن بشرًا حيًا سويًّا كامل الخلق روحًا وجسدًا.

﴿ فَيَكُونُ﴾ أي: فيكون بشرًا بمجرد قوله- عز وجل-: «كن» من غير تخلف ولا تأخر، كما قال تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧، مريم: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

قال ابن القيم[1]: «فأخبر تعالى أن عيسى نظير آدم في التكوين بجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذي تعلق به وجود سائر المخلوقات، وهو مجيئها طوعًا لمشيئته وتكوينه، فكيف يستنكر وجود عيسى من غير أب من يُقر بوجود آدم من غير أب ولا أم، ووجود حواء من غير أم، فآدم وعيسى نظيران يجمعهما المعنى الذي يصح تعليق الإيجاد والخلق به».

وقوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ دون أن يقول: «فكان» لاستحضار صورة تَكَوُّنِهِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [فاطر: ٩]».

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ «الحق»: خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: ذلك أو هذا الحق من ربك.

﴿مِن رَّبِّكَ﴾: في محل نصب على الحال، أي: حال كونه من ربك.

و﴿ٱلۡحَقُّ﴾: الشيء الثابت خبرًا كان أو حكمًا، فإن وصف به «الخبر» كان معناه: «الصدق» وإن وصف به «الحكم» كان معناه: «العدل»، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣]، أي: ثبتت كلمة ربك.

﴿مِن رَّبِّكَ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، أي: هذا الذى قص عليك في أمر عيسى وخلقه هو الحق من ربك الذي لا حق غيره، ولا صحيح سواه.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«لا»: ناهية، و«تكن»: مجزوم بها وعلامة جزمه حذف حرف العلة وهو الواو؛ لأن أصله «تكون».

و﴿ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾: جمع «ممتري» والامتراء: الشك والريب، أي: فلا تكن من الشاكين المرتابين فيما جاءك من الحق من ربك، وهو نهي له ﷺ ونهي لأمته من باب أولى وأحرى، كما أن فيه تعريضًا بأهل الامتراء والشك من النصارى وغيرهم.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٠).

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة شأن عيسى عليه السلام وأَمْر خَلْقه، وأن مثله في خلقه عند الله كمثل آدم.

ثم أمر النبي ﷺ أن يباهل من حاجه في أمر عيسى عليه السلام وخَلْقه، بعد بيان الحق له من النصارى وغيرهم.

قوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ «الفاء»: عاطفة، و«من»: شرطية، و﴿حَاجَّكَ﴾: فعل الشرط، أي: فمن جادلك وخاصمك، وسمَّى ذلك محاجة لأن كل واحد من المتجادلين يدلي بحجته ليغلب الآخر ويخصمه. ومنه الحديث: «حاج موسى آدم»(١).

﴿فيه﴾ الضمير يعود على عيسى عليه السلام، أي: فمن حاجك في شأن عيسى وخلقه وفيما جاءك فيه من الحق من ربك بالحجج الباطلة، وأنكر أن يكون الله خلقه من أم بلا أب، وادَّعى أنه ابن الله تعالى، كما قالت النصارى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

قالوا: لأنه خلق من غير أب وتكلم في المهد، وقالوا: أنه الله؛ لأنه يحيي الموتى ويُبرئ المرضى ويخلق من الطين كهيئة الطير ويخبر بالمغيبات.

كما قالوا: إنه ثالث ثلاثة لأن الله تعالى يقول: خلقنا وقضينا وقدَّرنا وأنجينا، قالوا: لو كان واحدًا لقال: خلقت وقدرت وأنجيت... إلخ.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾: «مِنْ» في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ تدل على المهلة بين مجيء العلم والأمر بالمباهلة؛ لإقامة الحُجة أولًا بالعلم والبيان والإعذار منهم.

و«ما»: موصولة، أي: من بعد الذي جاءك من العلم من الله تعالى بالوحي ببيان

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٣٨)، ومسلم في القدر- حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٦٥٢)، وأبو داود في السنة (٤٧٠١)، والترمذي في القدر (٢١٣٤)، وابن ماجه في المقدمة (٨٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

شأن عيسى- عليه السلام- وبيان ذلك لهم فكابروا وعاندوا.

﴿فَقُلْ﴾: جواب شرط «مَنْ»، والفاء: رابطة لجواب الشرط لأنه جملة طلبية.

﴿تَعَالَوْا﴾ أي: هلُموا وأقبِلوا وائتوا، وجاء بضمير الجمع باعتبار معنى «مَنْ» في قوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾ لأن معناها الجمع.

﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ﴾ أي: نُحْضِر نحن أبناءنا وتُحْضِرون أنتم أبناءكم، ونحضر نساءنا وتحضرون أنتم نساءكم، أي: يحضر كل منا الأبناء والزوجات لشهود الملاعنة.

﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي: ونَحضر نحن وأنتم.

وهؤلاء هم أعز ما يكون عند الإنسان في الدنيا، نفسه، وأبناؤه، وزوجاته.

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ «ثم»: للتراخي الرتبي، و«الابتهال» افتعال من البهل.

وهو: الدعاء باللعن، أي: ثم نلتعن.

ويُطلق الابتهال على الاجتهاد في الدعاء، ولهذا سُمِّيَ اللعن ابتهالًا لأنه اجتهاد في الدعاء.

﴿فَنَجْعَل﴾ «الفاء»: عاطفة، أي: فَنُصَيِّر ﴿لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾، ﴿لَّعْنَتَ﴾: مفعول به أول لـ«نجعل»، ولفظ الجلالة ﴿اللَّهِ﴾ مضاف إليه.

﴿عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ جار وجرور متعلق بمحذوف مفعول به ثان لـ«لنجعل» أي: فتجعل لعنة واقعة على الكاذبين، أي: فندعوا بإيقاع لعنة الله على الكاذبين.

و﴿لَّعْنَتَ اللَّهِ﴾ أي: طرده وإبعاده عن رحمته وجنته.

﴿عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ أي: على الكاذبين منا أو منكم.

وفي دعوتهم إلى المباهلة إلجاء لهم أن يعترفوا بالحق أو يكفوا، ودعوة إنصاف لا يدعو لها إلا من كان واثقًا أنه على الحق.

قال ابن كثير[1]: «وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٤٠).

في وفد نجران أن النصارى حين قدموا فجعلوا يحاجون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية، فأنزل الله صدر هذه السورة ردًّا عليهم».

وقد أشفق هؤلاء الوفد من النصارى من الملاعنة، فلم يقدموا عليها وخافوا الهلكة والاستئصال إن هم لاعنوا فعدلوا إلى المصالحة ودفع الجزية، وطلبوا من النبي ﷺ أن يرسل معهم رجلًا أمينًا يحكم بينهم في أشياء اختلفوا فيها في أموالهم، فأرسل معهم أباعبيدة بن الجراح- رضي الله عنه.

فعن حذيفة- رضي الله عنه- قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله إن كان نبيًا فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا، فقال: «لأبعثن معكم رجلًا أمينًا حق أمين»، فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح»، فلما قام قال رسول الله ﷺ: **«هذا أمين هذه الأمة»**[1].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال أبوجهل: إن رأيت رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال: لو فعل لأخذته الملائكة عيانًا، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين باهلوا رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالًا ولا أهلًا»[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾: الإشارة لما ذُكِرَ في شأن عيسى عليه السلام، فهو تأكيد لما قصه الله تعالى في شأن عيسى عليه السلام، ولهذا أُكدت هذه الجملة بثلاثة مؤكدات: «إنَّ» واللام، وضمير الفصل «هو» في قوله: ﴿لَهُوَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٨٠)، وأخرجه مختصرًا مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٢٠)، والترمذي في المناقب (٣٧٩٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٣٥).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٤٨).

كما أن في ضمير الفصل «هو» حصرًا للحق في هذا القصص دون سواه.

و﴿ٱلْقَصَصُ﴾: مصدر قصَّ يقص قصًا وقصصًا، ويُحتمل أن يكون هذا مصدرًا بمعنى «الفعل»، وأن يكون مصدرًا بمعنى «اسم المفعول» أي: إن هذا لهو المقصوص الحق، والقصص تتبع الوقائع والإخبار عنها شيئًا بعد شيء على ترتيبها ومنه: «قص الأثر» وهو اتباعه.

و﴿ٱلْحَقُّ﴾: صفة للقصص، أي: القصص الثابت الصحيح الصدق، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار والقصص، وعدلًا في الأحكام.

أي: أن هذا الذي ذكره الله في شأن عيسى عليه السلام هو القصص الحق، لا ما تقصه كتب النصارى وعقائدهم.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: لما أكد عز وجل أن ما قصه بشأن عيسى حق نفى أن يكون إله غير الله ردًّا على النصارى في تأليههم لعيسى- عليه السلام.

قوله: ﴿وَمَا مِنْ﴾ الواو: عاطفة، و﴿وَمَا﴾: نافية، و﴿مِنْ﴾ زائدة من حيث الإعراب ومؤكدة للنفي من حيث المعنى، للتنصيص والاستغراق في النفي.

﴿إِلَٰهٍ﴾ أي: معبود بحق.

﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: وما من معبود بحق إلا الله تعالى وحده، لا إله غيره، ولا رب سواه، فهو- عز وجل- وحده المألوه المعبود بحق محبةً وتعظيمًا.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: الجملة كسابقتها مؤكَّدة بـ«إنَّ» واللام وضمير الفصل «هو».

و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: اسم من أسماء الله تعالى يدل على أنه- عز وجل- ذو العزة التامة بأقسامها الثلاثة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: اسم من أسماءالله- عز وجل- يدل على أنه الحاكم ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، ويدل على أنه سبحانه «المحكم» المتقن لكل ما قدَّر وشرع ذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة

الغائية، والحكمة الصورية.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: التولي: الإعراض بالقلوب والأبدان، أي: فإن تولوا وأعرضوا ونكصوا عن المباهلة وعن اتباع الحق.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: فإن الله ذو علم واسع بالمفسدين، أي: فإنها هم مفسدون؛ لأنهم إنما قصدوا المعاندة والمكابرة ولم يتطلبوا الحق، والله عليم بالمفسدين، وأظهر في موضع الإضمار فلم يقل: «عليم بهم»؛ لوصفهم بالمفسدين وتسجيل ذلك عليهم، وليعم هذا الوصف بالإفساد كل من تولى عن اتباع الحق، ولإظهار عموم علمه- عز وجل- بجميع المفسدين من هؤلاء وغيرهم، وفي ذلك تحذير ووعيد وتهديد لمن تولى عن الحق.

الفوائد والأحكام:

١- إبطال قول النصارى: المسيح ابن الله، بدعوى أن الله خلقه بكلمة منه من غير أب؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠].

وإبطال قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ بدعوى أنه يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه، ويبرئ الكمه والأبرص، ويحيي الموتى، ويخبر بالمغيبات؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١٧، ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة:٣١].

وإبطال قولهم: إن الله ثالث ثلاثة، بدعوى أن الله- عز وجل- يتكلم كثيرًا بضمير الجمع نحو: خلقنا- رزقنا- فعلنا، ونحو ذلك؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣].

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، ردٌّ على النصارى وإبطال لمزاعمهم ومقالاتهم في تأليههم المسيح وزعمهم أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، وذلك بطريق الإلزام من وجوه عدة:

أولًا: من حيث قدرة الله تعالى العجيبة في خلق كل من عيسى وآدم على خلاف العادة، لكن إذا كان عيسى خُلق من أم بلا أب، فآدم خُلق من غير أم ولا أب، وهذا أدل على عظمة قدرة الله تعالى، فالذي خلق آدم من غير أبوين قادر على خلق عيسى من غير أب من باب أولى وأحرى.

ثانيًا: إذا كان الله خلق آدم من غير أب ولا أم، ولم يقل أحد من الخلق إنه ابن الله، لا النصارى ولا غيرهم، فمن باب أولى لا يجوز أن يقال: إن عيسى ابن الله؛ لكونه خلق من غير أب، كما تقول النصارى؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤، ٣٥].

ثالثًا: أن عيسى مخلوق كآدم- عليهما السلام- وكل منهما خُلق بأمر الله الكوني، أي بقوله تعالى: ﴿كُن﴾، ولم يقل أحد من الخلق بأن آدم إله، فدعوى إلاهية عيسى باطلة، بل هي من أبطل الدعاوى، وفي غاية البطلان، كما قال عيسى- عليه السلام- وهو في المهد: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]، وقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦] إلى أن قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

٢- نقض حجة الخصم وإبطالها بما هو مثلها، فالنصارى يقولون: عيسى ابن الله؛ لأنه خُلِقَ من أم بلا أب، وينتقض عليهم هذا بأن آدم خلقه الله من غير أب ولا أم، وهم لا يقولون ولا غيرهم بأن آدم ابن الله.

٣- قدرة الله تعالى التامة حيث خلق آدم من تراب بلا أب ولا أم، وخلق عيسى من أم بلا أب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية، كما خلق عز وجل حواء من

آدم بلا أم، وخلق سائر البشر من أب وأم.

٤- إثبات حجية القياس، فإن الله مثَّل حال عيسى عليه السلام بحال آدم في الاحتجاج على النصارى.

٥- إثبات صفة الخلق لله تعالى، وهي من الصفات الفعلية؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾.

٦- إثبات القول لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾.

٧- نفوذ أمر الله- عز وجل- الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

٨- أن ما قصَّهُ الله تعالى من أمر عيسى وشأنه ومثله هو الحق من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

٩- أن الله- عز وجل- لا يصدر منه إلا الحق، ويُطلب منه الحق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

١٠- إثبات رسالة النبي ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وإضافة ضميره إلى اسم «الرب»- عز وجل- وربوبية الله تعالى له ربوبية خاصة.

١١- نهى النبي ﷺ أن يكون من الممترين فيما جاءه من عند الله من الحق في أمر عيسى وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

وليس في هذا دلالة على شكه ﷺ، وهو نهي لأمته بطريق الأولى والأحرى، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب:١].

١٢- النهي والتحذير من الشك فيما أمر الله به وقصَّهُ على رسله؛ لأن النهي للنبي ﷺ نهي للأمة من باب الأولى والأحرى.

١٣- التعريض بذم الممترين الشاكين فيما جاء عن الله تعالى وسوء حالهم ومآلهم.

١٤- عناية الله- عز وجل- بنبيه ﷺ، والدفاع عنه وتعليمه كيف يرد على خصومه، وتهيئته لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾ الآية.

١٥- الاستعداد والإعداد للرد على حجة الخصم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ﴾.

١٦- أن ما جاء به الرسول ﷺ عن ربه حق؛ لأن الله- عز وجل- أمره ﷺ أن يبتهل مع المحاجين له بجعل لعنة الله على الكاذب من الفريقين.

١٧- أن من شرط المباهلة العلم اليقيني؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، أما مع الشك فلا تجوز المباهلة.

١٨- جواز طلب المباهلة عند عناد الخصم خصوصًا في الأمور الشرعية الهامة بعد البيان والنصح والإعذار والإنذار؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ﴾.

١٩- أن من تمام المباهلة وقوتها إحضار الأبناء والنساء؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ﴾.

٢٠- جواز الدعاء بجعل لعنة الله على الكاذبين، أو على من كان كاذبًا من الفريقين أو الخصمين ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

أما الدعاء على شخص معيَّن فهذا لا يجوز؛ لأن النبي ﷺ لما دعا على أناس من المشركين بقوله: «**اللهم العن فلانًا وفلانًا**» أنزل الله تعالى عليه قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٢٨][(١)]، وفي هذا تعريض بالنهي عن ذلك.

٢١- تأكيد أن ما أخبر الله تعالى به من القصص في أمر عيسى عليه السلام وغيره هو الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّ﴾.

٢٢- أن القصص منه ما هو حق، ومنه ما هو باطل؛ لمنطوق ومفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّ﴾.

٢٣- أنه لا إله بحق إلا الله – تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

٢٤- إبطال دعوى النصارى إلاهية عيسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. وذلك من وجهين:

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٠٧٠)، والنسائي في التطبيق (١٠٧٨)، والترمذي في التفسير (٣٠٠٥)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

الأول: أن ما قصَّهُ الله تعالى في شأن عيسى أنه كمثل آدم، فهما نظيران في خلقهما على خلاف المعتاد، ولم يقل أحدٌ: إن آدم ابن الله، أو هو الله، أو ثالث ثلاثة، ومن باب أولى يجب أن لا يقال ذلك في عيسى.

الثاني: أن الله- عز وجل- نفى وجود إله غيره.

٢٥- إثبات اسم الله- عز وجل- ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ وأنه ذو العزة التامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾.

٢٦- إثبات اسم الله تعالى ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ وأنه سبحانه ذو الحكم التام والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

٢٧- في اقتران العزة التامة والحكم التام، والحكمة البالغة في حقه- عز وجل- زيادة كماله -سبحانه- إلى كمال.

٢٨- تهديد من تولى وأعرض عن الحق من النصارى وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾، ومقتضى علمه بهم أن يحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم.

٢٩- علم الله- عز وجل- بأعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وإنما خصَّ العلم بالمفسدين؛ لأن السياق في وعيد المتولين المفسدين.

٣٠- أن التولي عن اتباع الحق وعدم تصديقه فساد وإفساد، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الأمر للنبي ﷺ، و«أهل الكتاب» اليهود والنصارىٰ، وسموا أهل الكتاب؛ لأن الله تعالى أنزل عليهم الكتاب، فأنزل على اليهود «التوراة»، وأنزل على النصارى «الإنجيل»، وبقيت كتبهم إلى أن بعث النبي ﷺ.

وفي تسميتهم أهل الكتاب إشارة إلى أن كونهم أهل كتاب يوجب عليهم قبول الحق وإرشاد الناس إليه لا رده، كما أن في ذلك تعريضًا بقيام الحجة عليهم، وذمهم لما هم عليه من الكفر والشرك وتكذيب رسل الله.

﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ﴾ ﴿تَعَالَوْا۟﴾ أي: هلموا وأقبلوا وائتوا.

﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ هذه الكلمة هي ما بيَّنه الله تعالى بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ﴾

فالمراد بقوله هنا: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ أي: إلى كلام مفيد، لا إلى كلمة مفردة، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠] يعني بها قوله قبل هذا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

كما يقال: «كلمة التوحيد»، و«كلمة الشهادة» ويراد بذلك: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وفي الحديث قوله ﷺ: «**أصدق كلمة قالها شاعر:**

ألا كل شيء ما خلا الله باطل»(١)

﴿سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ ﴿سَوَآءِۭ﴾: صفة لـ﴿كَلِمَةٖ﴾، أي: كلمة عدل ونَصَفٍ، نستوي نحن وأنتم فيها.

﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذه الجملة وما عطف عليها بدل من ﴿كَلِمَةٖ﴾ بدل كل من كل، فهي بيان وتفسير لـ﴿كَلِمَةٖ﴾ أي: تعالوا إلى عبادة الله وحده، وعدم الإشراك به، وعدم اتخاذ أرباب من دونه.

و﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾: أداة حصر، أي: ألا نعبد نحن وأنتم إلا الله وحده.

والعبادة في اللغة: التذلل والخضوع لله تعالى، وهي في الشرع: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

﴿وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة قبلها، وهي قوله: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ففي الجملة الأولى إفراد العبادة لله تعالى وحده، ومفهومها نفيها عما عداه، وهو ما صرح به في قوله: ﴿وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾.

و﴿شَيۡـٔٗا﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم أيَّ شيء، أي: لا نشرك به شيئًا من الشرك، لا شركًا أصغر ولا شركًا أكبر، ولا شركًا خفيًّا ولا شركًا جليًّا.

والشرك الأكبر الجلي: عبادة غير الله، وطلب الحاجات من الأولياء وأصحاب القبور ونحو ذلك.

والشرك الأصغر والخفي كالرياء، كما قال ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. فسئل عنه فقال: الرياء**»(٢).

وهو أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

وأيضًا: ولا نشرك به شيئًا من الأشياء أيًّا كان، لا وثنًا، ولا صنمًا، ولا صليبًا، ولا

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨٤١)، ومسلم في الشعر (٢٢٥٦)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٥٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٩)، من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.

نارًا، ولا مَلَكًا، ولا وليًّا، ولا شيئًا غير ذلك.

والمعنى: تعلوا؛ لنفرد العبادة لله تعالى وحده لا شريك له.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، و«لا»: نافية، ﴿يَتَّخِذَ﴾: منصوب عطفًا على ﴿نَعْبُدَ﴾، ﴿بَعْضُنَا﴾: «بعض» فاعل و«نا» مضاف إليه. ﴿بَعْضًا﴾: مفعول أول لـ﴿يَتَّخِذَ﴾، و﴿أَرْبَابًا﴾: مفعول ثانٍ له.

أي: ولا يجعل بعضنا البعض الآخر ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، وفي التعبير بالبعض إشارة إلى أنهم من جنس واحد، فكيف يكون بعضهم أربابًا لبعض؟!

و﴿أَرْبَابًا﴾ جمع «رب» أي: أسيادًا نطيعهم بالتحليل والتحريم من دون الله، كما في قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

ولهذا لما قال عدي بن حاتم: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم. قال ﷺ: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما أحل الله فتحلونه؟**» قال نعم. قال: «**فتلك عبادتهم**»(١).

ففي قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ نفي عبادة غير الله والإشراك به في العبادة.

وفي قوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ نفي الإشراك معه في الطاعة والتحليل والتحرير.

وعلى هذا اتفقت جميع الرسالات، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهذه الآية أحيانًا في الركعة الثانية الفجر: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٩٥)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤١٧-٤١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٤)، والبيهقي في «سننه» (١٠/ ١١٦). وانظر: «تيسير العزيز الحميد» ص(٥٥١).

ﵟٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡﵞ(١).

ﵟفَإِن تَوَلَّوۡاْﵞ أي: فإن تولى أهل الكتاب وأعرضوا عن هذه الكلمة السواء والدعوة النَصَف.

ﵟفَقُولُواْﵞ أيها المسلمون لهم: ﵟٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَﵞ، أي: أشهدوهم على استمراركم على الإسلام واعتزازكم به، من غير اكتراث بمن تولى عنه.

كما في قوله تعالى: ﵟقُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦ﵞ [الكافرون].

وقد كان ﷺ يكتب بهذه الآية إلى ملوك أهل الكتاب، فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- في حديثه عن أبي سفيان- رضي الله عنه- أن في كتابه ﷺ لهرقل: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تَسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين،** و ﵟيَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَﵞ»(٢).

قوله تعالى: ﵟيَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ﵞ.

قوله: ﵟيَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَﵞ.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده؛ فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديًّا، وقالت

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٢٧)، والنسائي في الافتتاح (٩٤٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣).

النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيًّا، فأنزل الله- عز وجل- فيهم: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾، قالت النصارى: كان نصرانيًّا، وقالت اليهود: كان يهوديًّا. فأخبرهم الله أن التوراة والإنجيل إنما أنزلا من بعده، وبعده كانت اليهودية والنصرانية»[1].

قوله: ﴿لِمَ﴾: اللام حرف جر، و«ما»: اسم استفهام حذفت ألفها لدخول حرف الجر عليها، كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ: ١].

والاستفهام في قوله: ﴿ لِمَ تُحَآجُّونَ ﴾ للإنكار والتوبيخ، أي: لم تجادلون وتنازعون ﴿فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: في دين إبراهيم، فاليهود يقولون: إن إبراهيم كان يهوديًّا، والنصارى يقولون: إن إبراهيم كان نصرانيًّا.

ويدعي كل منهما أنه على دين إبراهيم، تشبثًا من كل منهما بذلك، وترويجًا ودعوة لدينه، وانتقاصًا من كل منهما لما عليه الآخر، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ ﴾ [البقرة: ١١٣].

وأيضًا ليخلص كل منهما- أي: اليهود والنصارى- إلى نفي أن يكون ما جاء به محمد ﷺ هو دين إبراهيم عليه السلام.

﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ الواو: حالية، و«ما»: نافيه، «إلا»: أداة حصر، والضمير في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ يعود إلى إبراهيم، أي: والحال أنه ما أنزلت التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى إلا من بعد إبراهيم، فكيف تحاجون أيها اليهود وتقولون: إن إبراهيم كان يهوديًّا، وكيف تحاجون أيها النصارى، وتقولون: إنه كان نصرانيًّا- علمًا أن التوراة والإنجيل ما أنزلتا إلا من بعده؟!

وقد قيل: إن بين إبراهيم وموسى نحو ستمائة إلى ألف سنة، كما أن بين موسى وعيسى على ما قيل نحو ألفي سنة، وقيل غير ذلك.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٤٨١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٨٤)، وانظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٥٣).

وكيف تحاجون وتقولون: إنكم على دين إبراهيم علمًا أن اليهود منكم شريعتهم التوراة، والنصارى شريعتهم الإنجيل، وإبراهيم سابق لنزولها، فدينه غيرهما، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وكيف تحاجون وتنكرون أن دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ هو دين إبراهيم عليه السلام؟!

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه الإنكار والتوبيخ، والفاء: عاطفة، والجملة معطوفة على مقدر، أي: أغفلتم فلا تعقلون. أي: أفلا يكون لكم عقول تعقلون بها ما تحاجون به، وفي هذا تسفيه لهم، ووصف لهم بالحمق والجهل؛ لأن المنفي هنا عقل الرشد الذي هو مناط المدح والذي يحمل صاحبه على حسن التصرف والتدبير في الأعمال والأقوال والأموال، وجميع الأحوال، وليس المراد به عقل الإدراك الذي هو مناط التكليف، فهذا موجود عندهم، ولولاه ما كلفوا، كما قال ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاث: النائم حتى يستيقظ، والصغير حتى يبلغ، والمجنون حتى يفيق**»[1].

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ «ها» في الموضعين للتنبيه، و«أنتم» ضمير فصل في محل رفع مبتدأ، و«أولاء» اسم إشارة للقريب، في محل نصب على النداء، والتقدير: ها أنتم يا هؤلاء، أي: هب أنكم يا هؤلاء.

﴿حَٰجَجْتُمْ﴾ الجملة: في محل رفع خبر المبتدأ، أي: جادلتم وخاصمتم ونازعتم، ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ «ما»: موصولة، أي: في الذي لكم به علم، وهو الذي أنتم عليه من الدين والذي في كتبكم وعليه أنبياؤكم.

﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ﴾ الفاء: عاطفة، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: فلم تجادلون

(١) أخرجه أبوداود في الحدود (٤٣٩٨)، والنسائي في الطلاق (٣٤٣٢)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وتحاجون ﴿فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ «ما»: موصولة- كسابقتها- أي: في الذي ليس لكم به علم، وهو أمر إبراهيم وما كان عليه من الدين مما لم يذكر في كتبكم.

والمعنى: كان الأجدر بكم أن تحاجوا في الذي تعلمون، وهو ما أنتم عليه من الدين وما في كتبكم وما عليه أنبياؤكم، دون الذي لا تعلمون من دين إبراهيم عليه السلام.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ الواو: استئنافية، أي: والله ذو علم مستمر دائم، يعلم كل شيء على الدوام، مما كان عليه إبراهيم من الدين وغير ذلك، وقد أخبر عز وجل أن إبراهيم كان على ملة الإسلام، وهي الحنيفية السمحة التي جاء بها محمد ﷺ، كما قال تعالى في الآية بعد هذه الآية: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الواو: عاطفة، أي: وأنتم جهلة لا تعلمون شيئًا؛ ولهذا تحاجون بلا علم.

فوصفهم أولًا بالسفه والحمق وعدم العقل، **ووصفهم ثانيًا** بالجهل وعدم العلم وواحد من هذين الوصفين كافٍ في الذم فكيف إذا اجتمعا، فلا حكمة ولا علم، فهذا غاية الذم.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

أنكر عز وجل في الآيتين السابقتين على اليهود والنصارى محاجتهم في إبراهيم- وذلك بزعم كل منهما أن إبراهيم كان على دينهم- علمًا أن التوراة والإنجيل لم تنزل إلا من بعده، مبينًا سفههم وعدم رشدهم، ومجادلتهم بما لا علم لهم به، ثم بيَّن في هذه الآية براءة إبراهيم من اليهود والنصارى، وأنه كان حنيفًا مسلمًا، وما كان من المشركين.

قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا﴾«ما»: نافية، أي: ما كان إبراهيم يهوديًّا على دين اليهود، كما يزعمون.

﴿وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ أي: ولا كان نصرانيًّا على دين النصارى- كما يزعمون- وكرر

النفي بـ«لا» للتأكيد.

﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ «لكن»: استدراك؛ لبيان ما كان عليه- عليه السلام.

﴿حَنِيفًا﴾ «الحنف» في اللغة: الميل، فمعنى ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلًا عن الشرك ثابتًا على التوحيد. ﴿مُّسْلِمًا﴾: مستسلمًا منقادًا لأمر الله ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، أي: وما كان من المشركين الذين يعبدون الأصنام. وفي هذا تأكيد لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ ونفي لقول المشركين: إنهم على ملة إبراهيم، وتعريض بأن أهل الكتاب مشركون؛ لقولهم: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله. وهذه الآية كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية: ١٣٥]، وقوله تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية: ١٢٠]، وقوله تعالى عن إبراهيم أنه قال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

هذا رد على محاجة أهل الكتاب في إبراهيم وزعمهم أنهم على دين إبراهيم وإنكارهم أن يكون ما جاء به محمد ﷺ على ملة إبراهيم. فبيَّن عز وجل أن أولىٰ الناس به عليه السلام هم الذين اتبعوه ومحمد ﷺ والمؤمنون معه.

قوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾ ﴿أَوْلَى﴾: اسم تفضيل، أي: أشد الناس ولاية بإبراهيم أي: أحق الناس بإبراهيم وأخصهم به وأقربهم منه، سواء كان هؤلاء الناس من أهل الكتاب أو من المشركين أو من المسلمين، حيث أن كلًا من هؤلاء الأصناف يقول: إنه على دين إبراهيم. أي: إن أحق الناس بإبراهيم الذين هم على دينه وملته.

﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾: خبر «إنَّ»، واللام تفيد التوكيد، فالجملة مؤكدة بـ«إنَّ» واللام أي: للذين اتبعوه على ما كان عليه من الدين في حياته.

﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾: معطوف على قوله: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ من عطف الخاص على العام، والإشارة لخاتم الأنبياء نبينا محمد ﷺ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ﴾ معطوف على ما قبله، أي: والذين آمنوا من أصحابه ﷺ من المهاجرين والأنصار، ومن بعدهم من المؤمنين.

وإنما كان النبي ﷺ والمؤمنون أولى الناس بإبراهيم؛ لأنهم على ملته الحنيفية ملة الإسلام، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: والله ولي المؤمنين كلهم: إبراهيم والذين اتبعوه ومحمد والذين آمنوا، أي: والله ولي المؤمنين كلهم ولاية خاصة، يحفظهم وينصرهم ويرزقهم ويوفقهم ويهديهم إلى صراطه المستقيم في الدنيا وإلى جنات النعيم في الآخرة.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (٦٢) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الآية؛ ولهذا كان ﷺ يكتب إلى الملوك بهذه الآية.

٢- شدة عناد أهل الكتاب، ومعالجة القرآن لهم بشتى الأساليب والوسائل، ولم ينجع ذلك فيهم.

٣- وسطية القرآن في دعوته أهل الكتاب فلم يكلفهم شططًا، بل دعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده ونبذ الشرك والأرباب من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾.

٤- تنزل القرآن في دعوته أهل الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بضمير الجمع، وكذا قوله: ﴿وَلَا نُشۡرِكَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ ولم يقل:

«ألا تعبدوا إلا الله» «ولا تشركوا» «ولا تتخذوا أربابًا من دون الله».

ووجه ذلك أن ضمير الجمع مشعر بكون الفريقين كل منهما يعبد غير الله ويشرك به ويتخذ أربابًا من دون الله، والحقيقة أن الذي يفعل ذلك هم المدعوون أهل الكتاب.

٥- قيام القرآن والإسلام على التوحيد والوسطية والعدل.

٦- يجب العدل في المناظرة حتى مع العدو، ويحسن التنازل للخصم لإلزامه الحق، وإقامة الحجة عليه.

٧- اتفاق الرسل والرسالات على الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

٨- أنه كما يجب إفراد الله تعالى بالتوحيد والعبادة يجب إفراده بالطاعة والحكم والتحليل والتحريم، وعدم اتخاذ أرباب من دونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٩- التعريض بذم أهل الكتاب وغيرهم من المشركين؛ لما هم عليه من الشرك وعبادة غير الله واتخاذ الأرباب من دونه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

١٠- التلازم بين إفراد الله تعالى بالعبادة دون شريك وبين تحكيم شرعه وطاعته وعدم انفكاك أحدهما عن الآخر، فمن لازم توحيد الله تعالى في العبادة طاعته واتباع شرعه، ومن لازم طاعته واتباع شرعه توحيده في العبادة.

١١- وجوب إظهار الحق والتمسك به وإشهاره، وعدم الاكتراث بمن تولى عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

١٢- وجوب اعتزاز المسلم بدينه إعلاءً للحق وإظهارًا له، وإغاظة لأعداء الدين وخصومه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

١٣- يجب أن لا يتأثر ولا يكترث من كان على الحق بمن يتولون عنه مهما كثروا، وعليه أن يتمسك بالحق، فالحق أحق أن يتبع.

١٤- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾.

١٥- الإنكار على أهل الكتاب وتوبيخهم في محاجتهم في إبراهيم وما هو عليه من الدين، وزعم كل من اليهود والنصارى أنه على دينهم أو أنهم على دينه؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾.

١٦- فضل إبراهيم عليه السلام، وعلو شأنه ومنزلته بين الأمم، فكل من المسلمين واليهود والنصارى بل والمشركون يقول: إنه على دينهم أو إنهم على دينه.

١٧- إثبات علو الله على خلقه، وإنزاله التوراة والإنجيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾.

١٨- إبطال زعم كل من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان على دينهم أو أنهم كانوا على دينه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

١٩- أن إبراهيم عليه السلام كان قبل نزول التوراة والإنجيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾ الآية.

٢٠- سفه أهل الكتاب وعدم رشدهم، لمحاجتهم بما لا يقبله العقل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾، وكما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الآية: ٤٤]، وكما قال تعالى في وصف أهل جهنم: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٢١- لا ينبغي إهمال العقل في الاستدلال؛ لأن العقل الصريح يوافق النقل الصحيح.

٢٢- التنزل مع الخصم لإقامة الحجة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ ﴾.

أي: لو فرض أن محاجتكم كانت فيما لكم به علم وقبلت منكم، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم، مما لا يمكن قبوله- وهذا على سبيل الفرض، وإلا فإن من يحاج لإبطال الحق ورده لا يمكن أن تكون محاجته عن علم، بل العلم حقًّا مع

خصمه صاحب الحق.

٢٣- جواز المحاجة بعلم إذا كانت لإظهار الحق، وبالتي هي أحسن، فإن كانت لإظهار الباطل لم تجز.

٢٤- الإنكار على أهل الكتاب وذمهم لمحاجتهم فيما ليس لهم به علم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾.

٢٥- عدم جواز المحاجة بغير علم وأنها مذمومة حتى لو كانت لإحقاق الحق وإبطال الباطل، فإن كانت لإبطال الحق وإظهار الباطل فهي أشد حرمة وذمًا، كما في دعوى أهل الكتاب أنهم هم الذين على دين إبراهيم، وإنكارهم أن يكون محمد ﷺ على ملة إبراهيم.

٢٦- إثبات العلم لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أي: أنه- عز وجل- ذو علم واسع، مستمر دائم، ولا يخفى عليه شيء.

٢٧- نفي العلم عن أهل الكتاب المحاجين في إبراهيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٢٨- جمع أهل الكتاب بين الاعتراض على النقل وتكذيبه، وإغفال العقل وإهماله، والجهل وعدم العلم.

٢٩- يجب رد العلم إلى الله تعالى وطلبه منه، فهو ذو العلم سبحانه، يؤتي العلم والحكمة من يشاء.

٣٠- الإشارة إلى أن ما جاء به محمد ﷺ من الإسلام هو دين إبراهيم عليه السلام، وهو ما صرح به بعد ذلك.

٣١- تبرئة إبراهيم عليه السلام من اليهود والنصارى، وما هم عليه من الدين، وتكذيبهم في دعواهم، هم والمشركون أنه منهم؛ لقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

٣٢- إثبات أن دين إبراهيم عليه السلام هو الحنيفية السمحة؛ ملة الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

٣٣- ثناء الله- عز وجل- على إبراهيم عليه السلام؛ لجمعه بين توحيد الله تعالى، والاستسلام والانقياد له ظاهرًا وباطنًا، والبراءة من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن

كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

٣٤- أنه لابد في التوحيد من إثبات العبادة لله وحده ونفيها عما سواه، والاستسلام لله ظاهرًا وباطنًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

٣٥- أن أحق الناس بالولاية لإبراهيم والانتساب لملته هم الذين اتبعوه من بني إسرائيل ونبينا محمد ﷺ والمؤمنون من أمته؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، ومفهوم هذا التعريض بعدم إيمان أهل الكتاب.

٣٦- إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ ورسالته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾.

٣٧- تشريف نبينا محمد ﷺ وقربه من ربه؛ لأن الله تعالى أشار إليه بإشارة القريب بقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾.

٣٨- فضل نبينا محمد ﷺ وأمته حيث كانوا أولى بإبراهيم عليه السلام من بين سائر الأمم.

٣٩- إبطال قول كل من اليهود والنصارى أنهم أولى بإبراهيم، بعد تبرئته منهم ومن دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ ﴾ الآية.

٤٠- إثبات ولاية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

٤١- الترغيب في الإيمان والازدياد منه؛ لأنه سبب لولاية الله تعالى، وكلما كان إيمان العبد أقوى كانت ولاية الله له أعظم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة محاجة أهل الكتاب في إبراهيم وزعمهم أنه على دينهم وأنهم على دينه وأنه أولى به من محمد ﷺ وأمته، ورد عليهم وأبطل زعمهم، وبيَّن أن إبراهيم كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين، ثم بيَّن في هذه الآية السبب الذي يحملهم على هذه المحاجة بالباطل وهو ما توده طائفة منهم من إضلال المؤمنين، فبيَّن في الآيات السابقة ضلالهم ثم بيَّن كونهم دعاة إلى الضلالة.

قوله: ﴿ وَدَّت ﴾، أي: أحبت وتمنت. ﴿طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ «من» للتبعيض، أي: جماعة من بعض أهل الكتاب، وهم رؤساء يهود وأحبارهم.

﴿ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ «لو»: مصدرية بمعنى «أن» أي: أن يضلوكم، والتقدير: ودت إضلالكم.

ومعنى ﴿ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ الإضلال الإتاهة والإبعاد عن الحق، والضلال: التيه والبُعد عن الحق، أي: ودوا إضلالكم: عن الهدى، وإبعادكم عن الحق، وإرجاعكم إلى دينهم، حسدًا منهم، كما قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ الواو: حالية، و«ما»: نافية، أي: والحال أنهم ما يضلون

إلا أنفسهم. و«إلا»: أداة حصر، أي: وما يضلون بمودتهم إضلالكم إلا أنفسهم، ولن يضركم ذلك أيها المؤمنون، فمودتهم إضلالكم إنما هي إضلال لأنفسهم وإهلاك لها في الحال والمآل.

أما في الحال فإن مودتهم إضلالكم هي ضلال أوقعوا فيه أنفسهم وأشغلوها به عن طلب هدايتها. وأما في المآل فإن وبال ذلك وعقوبته عليهم لا على غيرهم.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ الجملة في محل نصب معطوفة على الحال السابقة، والشعور هو إدراك الشيء بإحدى الحواس الخمس، ونفي الشعور معناه عدمه، وإذا انتفى الشعور والإدراك بالحواس انتفى العلم من باب أولى.

فالمعنى: وما يعلمون أنهم بهذا العمل إنما يضلون أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة محاجة أهل الكتاب في إبراهيم معرِّضًا بما هم عليه من الشرك وعبادة غير الله واتخاذ الأنداد والسفه وعدم العلم ومودتهم إضلال المؤمنين، وهم في الحقيقة لا يضلون إلا أنفسهم، ثم أنكر عليهم ووبخهم في هاتين الآيتين على كفرهم بآيات الله مع شهادتهم، ولبسهم الحق بالباطل مع علمهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التفات إلى خطاب أهل الكتاب، والاستفهام للإنكار، وإعادة ندائهم بقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ثانية لتوبيخهم وتسجيل باطلهم عليهم.

أي: لم تكفرون وتكذبون بآيات الله الشرعية في القرآن الكريم، وفي كتبكم الدالة على نبوة محمد ﷺ.

﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنكم تشهدون، أي: تعلمون صحتها وصدقها بشهادة كتبكم بذلك، وعبَّر عن العلم بالشهادة ولم يقل: «وأنتم تعلمون»؛ لأن الشهادة أقوى لأنها تقتضي أن يكون العالم كالمشاهد للشيء بحسه، والمشاهدة

بالحس أقوى من العلم، وفي الحديث: «**ليس الخبر كالعيان**»[(١)].

قال ابن القيم[(٢)]: «يعني: تكفرون بالقرآن، وبمن جاء به، وأنتم تشهدون بصحته وبأنه الحق، فكفركم كفر عناد وجحود عن علم وشهود، لا عن جهل وجفاء».

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ الاستفهام كسابقه للإنكار والتوبيخ، و«اللبس» بمعنى: الخلط والستر، أي: لم تخلطون وتسترون الحق بالباطل.

و«الحق»: الأمر الثابت، وهو ما جاءت به الرسل، ودلَّت عليه الآيات الشرعية والكونية.

و«الباطل»: الشيء الزائل المضمحل الزاهق، كما قال تعالى: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [الإسراء: ٨١].

قال لبيد[(٣)]:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

فأنكر عز وجل عليهم أولًا كفرهم بآيات الله، ثم أنكر عليهم مخادعتهم في هذا الكفر بخلطهم الحق وستره بالباطل.

ومن ذلك: تحريف ما جاء من الحق في كتبهم، وتكذيب ما أنزل على نبينا محمد ﷺ، وإظهار الإسلام وإبطان الكفر.

فيضمون للباطل شيئًا من الحق ويتكلمون بعبارات تحتمل الحق والباطل تمويهًا على الناس ومخادعة لهم؛ لأنهم لو تكلموا بالباطل صراحًا لافتضحوا وما قبل منهم.

وما مثلهم في لبسهم الحق بالباطل إلا كما ذُكر أن رجلًا مَرَّ بشخصين كفيفين مستندين في ظل جدار يقول أحدهما للآخر: يا فلان، الصدق ما يصلح دائمًا، والكذب ما يصلح دائمًا. فقال له الآخر: لماذا؟ فقال: لأنك إن صدقت دائمًا نفد ما عندك، وإن كذبت دائمًا لم تُصدَّق.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٠).

(٣) انظر: «ديوانه» ص(٢٥٦).

﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾: معطوف على ﴿تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ﴾ أي: وتخفون الحق، وهو نبوة محمد ﷺ وما أنزل عليه وما جاء في كتبكم من نعته ﷺ والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فجمعوا بين خلط الحق بالباطل، وكتمان الحق، وبهذا أظهروا الباطل.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: والحال أنكم تعلمون، أي: تعلمون الحق وتعرفونه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

ذكر الله تعالى في الآيتين السابقتين، محاولتهم الإضلال وكفرهم مجاهرة، ثم ذكر في هذه الآية محاولتهم الإضلال وكفرهم مخادعة.

قوله: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: جماعة منهم ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: صدقوا بالقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ وأصحابه، أي: صدِّقوا بذلك ظاهرًا واعملوا به، نفاقًا منهم؛ لأنهم لا يؤمنون بذلك حقيقة.

﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: أول النهار، لمقابلته بقوله: ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ أي: واكفروا آخر النهار. أي: واكفروا بالذي أنزل عليهم آخر النهار.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الضمير يعود إلى الذين آمنوا، أي: رجاء أن يرجعوا عن دينهم، أو لأجل أن يرجعوا عن دينهم- وهذه مكيدة منهم؛ ليقال عنهم حينما يؤمنون به أول النهار ويكفرون آخره أنهم كفروا عن بصيرة وتجربة، فلولا أنه مخالف للكتب السابقة ما كفروا به بعد الإيمان.

قال ابن كثير(١): «هذه مكيدة أرادوها؛ ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم،

(١) في «تفسيره» (٢/ ٤٨-٤٩).

وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم؛ ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾».

وأنَّىٰ لهم أن يرجع المؤمنون عن دينهم بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان، فحال المؤمن حقًّا كما قال ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله، كما يكره أن يقذف في النار**»(١).

وكما في حديث هرقل حين سأل أبا سفيان: «**هل يرجع أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا. قال: فكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد**»(٢).

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ هذا من قول الطائفة من أهل الكتاب، فهو معطوف على قوله: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

أي: ولا تصدقوا إلا للذي تبع دينكم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [يوسف: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٦١]، أي: ويصدق للمؤمنين.

وقوله: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ هذا من باب الاحتراس بعد قولهم مخادعة: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ ﴾ أي: ولا تؤمنوا إيمانًا حقًّا، ولا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم نبيًّا كان أو غيره.

أو: ولا تظهروا الإيمان بالذي أنزل عليهم وجه النهار والكفر آخره إلا لمن تبع دينكم، أي: لأجل الحفاظ على أتباعكم وبقائهم على دينهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٦)، ومسلم في الإيمان (٤٣)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٨٧)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٤)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣٣)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٤١)، ومسلم في الجهاد والسير- كتاب النبي ﷺ إلى هرقل (١٧٧٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أو: ولا تطمئنوا وتظهروا سركم وما أردتم من المكر والخديعة بالإيمان أول النهار والكفر آخره من إرجاع المسلمين عن دينهم إلا لمن تبع دينكم.

أو ولا تظهروا ما بأيديكم من العلم للمسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ هذه الجملة معترضة بين قولهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ وقولهم: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ الغرض منها المبادرة بما يفيد ضلالهم؛ لأن الله حرمهم التوفيق.

أي: قل لهم: إن التوفيق إلى الهدى بيد الله، والهدى هداه- عز وجل- كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠].

والغرض منها تيئيس أهل الكتاب، أي: مهما عملتم من المكر لصد المؤمنين وإرجاعهم عن دين الله وإضلالهم فلن تستطيعوا، فالله سبحانه وتعالى هو الموفق والهادي، وهداه هو الهدى حقًّا، وهو الإسلام الذي بعث به محمد ﷺ، لا ما أنتم عليه وما تدعون إليه.

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ هذه الجملة من كلام الطائفة من أهل الكتاب، فهي متعلقة بقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ قرأ ابن كثير «أأن» بزيادة همزة الاستفهام.

وهذه الجملة ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ يحتمل أن يكون تعليلًا لقولهم قبله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ بقصد تثبيت أنفسهم على دينهم. فيكون التقدير: لئلا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، كما في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]، أي: لئلا تضلوا.

ويحتمل أن يكون هذا إنكارًا منهم أن يؤتى أحد النبوة كما أوتيها أنبياء بني إسرائيل، فيكون الكلام استفهامًا إنكاريًّا حذفت منه همزة الاستفهام لدلالة السياق، ويؤيده قراءة ابن كثير: «أأن يؤتى».

فالمعنى: لا تؤمنوا ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من النبوة والفضائل، أي: لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من ذلك.

﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ «أو»: للتقسيم، وهي عاطفة، فالجملة معطوفة على قوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ وهي على التقديرين السابقين تحتمل التعليل.

أي: ولئلا يحاجوكم عند ربكم، أو الاستفهام الإنكاري والنفي، أي: كيف يحاجوكم عند ربكم، أي: لا حجة لهم عليكم عند ربكم، أي: ولا تؤمنوا ولا تصدقوا أن يحاجوكم عند ربكم؛ لأنكم أكرم على الله منهم بما فضلكم عليهم.

والذي حملهم على هذا كله هو الحسد أن تكون النبوة في غيرهم، وإرادةُ أن يُتَّبَعوا على دينهم.

قال السعدي[1]: «يعني أن الذي حملهم على هذه الأفعال المنكرة الحسد والبغي وخشية الاحتجاج عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ هذا مع قوله بعده: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ كقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ ففي هذا بيان أن الهدى هو هدى الله، وبيده سبحانه، وفي قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ الآية، وقوله: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ الآية. بيان أن الفضل بيده يخص به من يشاء، وفي هذا وذاك رد على أهل الكتاب، وتيئيس لهم أن يمنعوا هدى الله وفضله عن المؤمنين.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي: قل لهم يا محمد ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي: الخير كله بيد الله- عز وجل- كما قال ﷺ: «**والخير كله في يديك**»[2]، فبيده- عز وجل- الفضل والخير كله، وبيده ومنه التفضل والزيادة والإحسان بالنعم الدينية والدنيوية والأخروية.

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يعطيه من يشاء من عباده، وفي هذا إبطال وتكذيب لأهل الكتاب في قولهم لبعضهم: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾ أي: والله ذو سعة في جميع صفاته، فهو- عز وجل- واسع الملك واسع الكرسي، واسع العلم، واسع الحكمة، واسع المغفرة، واسع الرحمة، واسع الحلم، واسع العفو، واسع القدرة، واسع الفضل والغنى والإحسان والجود والعطاء، واسع

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٣٩٢).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأبوداود في الصلاة (٧٦٠)، والنسائي في الافتتاح (٨٩٧)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الإحاطة، واسع جميع الصفات.

﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم واسع بكل شيء. يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

علمه- عز وجل- محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة، قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، كما قال موسى- عليه السلام- لما سئل عن القرون الأولى قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾.

قوله: ﴿يَخْتَصُّ﴾ أي: يخص.

﴿بِرَحْمَتِهِ﴾ أي: برحمته الفعلية الخاصة بأوليائه، ومن ذلك ما خص الله تعالى هذه الأمة من بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن ودين الإسلام، وما يخص به أولياءه من توفيقهم وهدايتهم في الدنيا إلى الإيمان، وفي الآخرة إلى الجنان.

﴿مَن يَشَاءُ﴾ «من»: اسم موصول في محل نصب مفعول به، أي: يخص الذي يشاء، أي: الذي يريد كونًا ممن هو أهل لرحمته الخاصة- بعلمه- عز وجل- وحكمته، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

ويجوز كون «من» الموصولة في محل رفع فاعل، ويكون المعنى: والله ينفرد برحمته من يشاؤه- والمعنيان متلازمان، فمن اختصه الله برحمته انفرد بها.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ﴾ أي: صاحب الفضل، أي: التفضل والزيادة والإحسان، بلا استحقاق من المتفضَّل عليه ﴿الْعَظِيمِ﴾ الواسع الكثير، الذي لا أعظم ولا أوسع ولا أكثر من فضله، ولا يقدر عظمة فضله إلا هو سبحانه.

الفوائد والأحكام:

١- منة الله تعالى على هذه الأمة بفضح أعدائها من أهل الكتاب وبيان مكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ..﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾ الآيتين.

٢- شدة عداوة أهل الكتاب للمسلمين ومودتهم إضلالهم بغيًا منهم وحسدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

٣- علم الله- سبحانه وتعالى- بما تنطوي عليه القلوب وما تكنه الضمائر؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ﴾ والمودة محلها القلب.

٤- وجوب الحذر من أهل الكتاب وخداعهم ومكرهم؛ لأنهم يودون إضلال المسلمين وصدهم عن دينهم، وأن يتبعوهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

٥- أن ما عليه أهل الكتاب، وما يودونه من إضلال المؤمنين هو إضلال لأنفسهم، ووبال ذلك وعقوبته عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ وفي هذا تثبيت لقلوب المؤمنين وطمأنة لهم.

٦- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، ومن حفر لأخيه حفرة وقع فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾.

٧- عدم شعور أهل الضلال والإضلال بأنهم إنما يضلون أنفسهم بسبب انطماس بصائرهم وعمى قلوبهم، فيرون الضلال هدى، والباطل حقًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، وصدق الله العظيم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨].

٨- الإنكار الشديد على أهل الكتاب وتوبيخهم على كفرهم بآيات الله، وهم يشهدون؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

٩- أن كفر أهل الكتاب وبخاصة اليهود لم يكن عن جهل بل عن علم وشهادة؛ ولهذا شدد النكير عليهم.

١٠- كفر أهل الكتاب بآيات الله كلها حتى لو ادَّعوا الإيمان بما جاء في كتبهم؛ لأن كفرهم بالقرآن كفر بما جاء في كتبهم؛ لأنها مبشرة بالقرآن.

١١- مخادعة أهل الكتاب ولبسهم الحق بالباطل تمويهًا على الناس، وإنكار الله عليهم وتوبيخه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾.

فيخلطون مع الباطل بعض الحق، ويُلبسون الباطل ثوب الحق، ويتكلمون بما ظاهره الحق وهم يبطنون الباطل.

١٢- أن الناس بفطرهم السليمة يقبلون الحق، ويرفضون الباطل، ولهذا يُلبِّس عليهم هؤلاء بإلباس الباطل ثوب الحق.

١٣- الإنكار على أهل الكتاب في كتمانهم الحق وهم يعلمونه، ومن ذلك كتمانهم ما في كتبهم من البشارة بمحمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

١٤- أن كتمان الحق مع العلم به أشد وأشنع.

١٥- ينبغي الحذر من خداع أهل الكتاب ومكرهم وتمويههم، ومن مسالكهم من لبس الحق بالباطل وكتمان الحق مع العلم به.

١٦- كيد أهل الكتاب للمسلمين لصدهم عن دينهم وإخراجهم منه بشتى الحيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾.

١٧- إقرار أهل الكتاب بأن الله أنزل آيات على الذين آمنوا؛ لقولهم: ﴿بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

١٨- أن في أهل الكتاب منافقين؛ لقولهم: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ أي: آمنوا ظاهرًا ونفاقًا، وليس مقصودهم الإيمان، إذ لو كان مقصدهم الإيمان الحق ما أمروهم بالكفر آخر النهار.

١٩- تعصب أهل الكتاب لدينهم مع ضلالهم وبطلان ما هم عليه؛ لقولهم: ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾.

٢٠- أن التوفيق إلى الهدى بيد الله، وأن الهدى هداه- سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾.

فمهما حاول أهل الكتاب وغيرهم إرجاع المؤمنين عن دينهم وصد الناس عن

الإسلام فلن يستطيعوا ذلك.

٢١- حسد أهل الكتاب لغيرهم وإعجابهم بأنفسهم وتكبرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

٢٢- إيمان أهل الكتاب بربوبية الله تعالى، وبالبعث والحساب والتخاصم عند الله؛ لقولهم: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ﴾.

٢٣- أن الفضل بيد الله والعطاء منه- سبحانه- يعطي من يشاء من عباده، لا راد لفضله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ﴾.

٢٤- إثبات اليد لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ وعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إن الله- عز وجل- يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**»(١).

٢٥- إثبات الأفعال الاختيارية لله- عز وجل- المتعلقة بالمشيئة، كالإيتاء والعطاء والمنع، والبسط والقبض، والرضا والغضب، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ﴾.

٢٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ ۗ﴾.

٢٧- إثبات صفة الواسع لله- عز وجل- فهو- عز وجل- واسع الصفات كلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾.

٢٨- إثبات صفة العلم الواسع لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

٢٩- أن الله- عز وجل- يختص برحمته الخاصة مَن يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ﴾.

ومن ذلك ما خصَّ الله تعالى به محمدًا ﷺ وأمته من بعثته منهم، وإنزال القرآن الكريم عليه، ودين الإسلام، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٥٩).

٣٠- أن الله- عز وجل- يعطي مَن يشاء بفضله، ويمنع من يشاء بعدله.

٣١- أن الله- عز وجل- ذو الفضل العظيم، لا يقدر عظم فضله إلا هو، وهو العظيم سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠) ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة مودة طائفة من أهل الكتاب إضلال المؤمنين، وخيانتهم في الأمور الدينية من لبسهم الحق بالباطل، وكتمانهم الحق وكفرهم، ثم أتبع ذلك في ذكر خيانتهم في تعاملهم في الأمور الدنيوية استمرارًا بفضحهم، وبيان دخائلهم.

قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الواو: استئنافية، ﴿وَمِنْ﴾: تبعيضية.

﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ «مَن»: موصولة، أي: الذي إن تأمنه، و﴿إِن﴾: شرطية، و﴿تَأْمَنْهُ﴾: فعل الشرط، والخطاب في قوله: ﴿تَأْمَنْهُ﴾ لكل من يصلح خطابه، ﴿بِقِنطَارٍ﴾: أي: على قنطار، فالباء بمعنى: «على»، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:١١]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٦٤]، و(القنطار): المال الكثير.

﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾: قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر: «يؤدّهْ» بإسكان الهاء، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿يُؤَدِّهِ﴾.

و﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾: جواب شرط مجزوم بحذف حرف العلة الياء؛ لأن أصله «يؤديه».

أي: يرده إليك من غير خيانة، كما في الحديث: «**أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك**»(١).

والمعنى: ومن أهل الكتاب من هو أمين إن أمنته على مالٍ كثير مهما كثر يؤدهِ إليك كاملًا من غير نقص ولا مماطلة، أي: هذه حال فريق منهم، وإذا كان لا ينقص من المال الكثير شيء مع أنه لو أخذ منه الشيء القليل لا يتبين، فأمانته على المال القليل أولى وأحرى.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ أي: ومِن أهل الكتاب من هو خائن، وهو الذي إن تأمنه بدينار لا يؤدهِ إليك، أي: الذي إن أمنته على مالٍ قليل مهما قلَّ ولو كان دينارًا واحدًا لا يؤدهِ إليك، أي: هذه حال فريق منهم.

و(الدينار): هو الوحدة من النقد الذهبي، وهو المسمى بـ «الجنيه»، وأصله «دِنَّا» ووزنه أربعة وعشرون قيراطًا، والقيراط ثلاث حبات شعير معتدلة، فالمجموع اثنتان وسبعون شعيرة.

﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ أي: لا يرده إليك.

﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ «إلا»: أداة استثناء، والاستثناء هنا مفرع من أعم الأوقات أو الأحوال، أي: لا يؤده إليك في وقتٍ من الأوقات، أو في حالٍ من الأحوال إلا في وقت دوام قيامك عليه، أو في حال قيامك عليه بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك.

وإذا كان هذا صنيعه في القليل كالدينار ونحوه، ففي الكثير من باب أولى وأحرى.

وقدَّم الجار والمجرور ﴿عَلَيْهِ﴾ على متعلقه ﴿قَآئِمًا﴾ للتأكيد، أي: إذا لم يكن قيامك عليه لم يرجع لك أمانتك.

وذكر القنطار والدينار من باب التمثيل فقط، فمثَّل للمال الكثير بالقنطار، ومثَّل للمال القليل بالدينار.

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع (٣٥٣٥)، والترمذي في البيوع (١٢٦٤)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

وقد قيل: «المأمون على الكثير هم النصارى؛ لأن الخيانة فيهم قليلة، والخائن في القليل هم اليهود؛ لأن الغالب عليهم الخيانة».

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ «ذلك»: إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله: ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب أنهم.

وضمير الجمع في «أنهم» يعود إلى معنى «مَن» في قوله: ﴿مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ أي: أن ترك هذا الفريق للأداء وخيانتهم الأمانة بسبب أنهم ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ أي: بسبب قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾.

ويعنون بالأُميين «العرب»؛ لأنهم لا يقرؤون ولا يكتبون، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، يعني في العرب.

وكما وصف الرسول ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال ﷺ: «**نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب**»(١).

والأُمِّي الذي لا يقرأ ولا يكتب، كما قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

﴿سَبِيلٌ﴾: حرج أو مؤاخذة، كما في قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ [التوبة: ٩٣].

والمعنى: ليس علينا في ديننا في معاملة العرب، ومَن ليس من أهل الكتاب حرج ولا مؤاخذة في أكل أموالهم وأخذ حقوقهم وظلمهم، فيرون إعجابًا منهم

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩١٣)، ومسلم في الصيام (١٠٨٠)، وأبو داود في الصوم (٢٣١٩)، والنسائي في الصيام (٢١٤٠)، من حديث عمر رضي الله عنه.

بأنفسهم، واحتقارًا لغيرهم أن مَن سواهم لا حُرمة لهم، وقد أكذبهم الله تعالى في هذا المقال.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾، الجملة: مستأنفة، أي: ويفترون على الله الكذب بقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾؛ لأنهم ينسبون ذلك إلى الله تعالى وإلى دينه، أي: ليس علينا في ديننا، وفيما جاء في كتبنا وعلى ألسنة رسلنا.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنهم يعلمون أنهم يكذبون فيتعمدون الكذب على الله تعالى، وفي الحديث: «**إن يهود قوم بهت**»[1].

فجمعوا بين الخيانة وبين احتقار غيرهم، وبين الكذب على الله تعالى وهم يعلمون ذلك، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ «بلى»: حرف جواب مختص بإبطال النفي، فهو هنا لإبطال ما نفوه بقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ وإثبات ضده، أي: بلى عليهم سبيل في الأُميين فلا يجوز لهم أكل أموالهم وظلمهم وأخذ حقوقهم.

و﴿مَنْ﴾: شرطية، ﴿أَوْفَىٰ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، و﴿أَوْفَىٰ﴾ فيها ثلاث لغات: «أوفى» بإثبات الهمزة، و«وفى» بحذف الهمزة مع تخفيف الفاء وتشديدها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧].

وجملة: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾: استئنافية مقررة للجملة التي دلَّت عليها ﴿بَلَىٰ﴾ حيث أفادت بمفهومها المخالف ذم من لم يفِ بالعهود مطلقًا.

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٢٩)، من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿بِعَهْدِهِۦ﴾: يُحتمل أن يعود الضمير في ﴿بِعَهْدِهِۦ﴾ إلى الله؛ لقوله قبله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: بلى من أوفى بعهد الله، ويُحتمل أن يعود على ﴿مَنْ﴾ أي: بلى من أوفى بعهده الذي عاهد عليه.

أي: أتم عهد الله الذي عاهده عليه من الإيمان بالله وكتبه ورسله وخاتمهم محمد ﷺ، وامتثل ما أمر الله تعالى به من أداء الأمانة وغير ذلك، وأتم ما بينه وبين الخلق من عهود وعقود، وهي أيضًا مما أوجب الله الوفاء به، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ أي: واتقى الله في البعد عما نهى الله تعالى عنه من نقض العهود والأيمان، ونكثها، والخيانة.. وغير ذلك.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: جواب الشرط «من»، وربط الفاء لأنه جملة إسمية، أي: فإن الله يحب المتقين الذين اتقوه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والوفاء بعهده وعدم نقضه.

وأظهر في موضع الإضمار، ولم يقل: «فإن الله يحبه» بل قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لبيان علة الحكم، أي: يحبهم لتقواهم، وليعم هذا الحكم كل من اتقى فإن الله يحبه، إضافة إلى ما في الإظهار مقام الإضمار من تنبيه المخاطب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

سبب النزول:

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «قال رسول الله ﷺ: **«من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان»** فقال الأشعث بن قيس: فيَّ والله كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدمته إلى النبي ﷺ، فقال لي رسول الله ﷺ: **«ألك بينة»**؟ قلت: لا، فقال لليهودي: **«احلف»** قلت: يا رسول الله، إذن يحلف فيذهب مالي، فأنزل الله- عز وجل-: ﴿إِنَّ

ﭐلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾ الآية»(١).

وعن عبدالله بن أبي أوفى- رضي الله عنه- أن رجلًا أقام سلعة في السوق، فحلف بالله، لقد أعطي بها ما لم يعط؛ ليوقع فيها رجلًا من المسلمين، فنزلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾ الآية»(٢).

امتدح الله سبحانه وتعالى من أوفى بعهده واتقى الله، وبيّن محبته للمتقين، ثم أتبع ذلك بذم ووعيد الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا في إشارة إلى أهل الكتاب.

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ﴾ وهكذا كل من سلك طريقهم.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾ أي: إن الذين يعتاضون ويستبدلون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا، والعهد: الميثاق والعقد.

و«عهد الله»: ما أخذه عليهم من الميثاق من الإيمان به، واتباع محمد ﷺ وتصديقه، وبيان ما عندهم من العلم في كتبهم في ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا ﴾ [البقرة:٤١].

وأيضًا ما بينهم وبين الخلق من عهود وعقود؛ فهي من عهد الله؛ لأن الله تعالى أوجب الوفاء بها، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا ﴾ [النحل: ٩١].

﴿ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾: معطوف على «عهد الله»، أي: ويشترون بأيمانهم، و«الأيمان» جمع

---

(١) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١٧)، ومسلم في الإيمان (١٣٨)، وأبوداود في الأيمان والنذور (٣٢٤٣)، والترمذي في أبواب البيوع (١٢٦٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٢٢)، والواحدي في أسباب النزول ص(٧٢-٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٨٨)، وفي التفسير (٤٢٧٦)، والواحدي في أسباب النزول ص(٧٣).

(يمين) وهو الحلف، أي: ويأخذون بحلفهم وأيمانهم الكاذبة الفاجرة ثمنًا قليلًا.

والمعنى: إن الذين يعتاضون بعهد الله وبأيمانهم عوضًا زهيدًا من المال وحطام الدنيا ومتاعها الزائل، فينقضون عهد الله، وينكثون في أيمانهم، ويحلفون الأيمان الكاذبة من أجل ذلك، فيدَّعون ما ليس لهم ويحلفون على ذلك، وينكرون ما يجب عليهم ويحلفون على ذلك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ «أولئك»: خبر «إنَّ» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، والإشارة فيها إلى الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا.

و«الخلاق»: الحظ والنصيب، كما قال تعالى ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠١ – ٢٠٢].

فقابل عز وجل بين قوله: ﴿مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾ فدل على أن (الخلاق) هو النصيب.

والمعنى: أولئك الذين يشترون بعهدهم وأيمانهم ثمنًا قليلًا لا حظ ولا نصيب لهم في ثواب الدار الآخرة ونعيمها، وهذا يدل على كفرهم بسبب هذا العمل؛ لأنه لا يُنفى نصيب الآخرة إلا عمن كان كافرًا.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

ونفي تكليم الله تعالى لهم في الآخرة ونظره إليهم، وتزكيته لهم هو من أعظم نصيب الآخرة الذي حرموه، ونصَّ عليه- والله أعلم؛ لبيان عِظَم ما حُرِمُوه.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يكلمهم الله تعالى تكليم لُطف بهم ورضا عنهم، وبما يَسُرُّهم، كما في تكليم الله- عز وجل- للمؤمنين، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ- عز وجل- يُدْنِي الْمُؤْمِنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ**

كَنَفَهُ»[(١)]، فيقرره بذنوبه، ويقول: أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقول عز وجل: «إِنِّي سَتَرْتهَا عَلَيْك فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرهَا لَك الْيَوْم»[(٢)].

وعن صهيب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ قال: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟...» الحديث[(٣)].

أما تكليم الله- عز وجل- لهؤلاء المذكورين وغيرهم من الكفار تكليم سخط وإهانة وتقريع وتوبيخ لهم وبما يسوءهم، فهو ثابت كما في قوله تعالى مخاطبًا أهل النار: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وغير ذلك.

﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾: قرأ حمزة بضم الهاء «إليهُم»، وقرأ الباقون بكسرها، أي: ولا ينظر إليهم نظر رحمة ورأفة.

﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾ أي: يوم البعث والمعاد والحساب والجزاء، وسُمِّي يوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم لرب العالمين، كما قال الله تعالى في سورة المطففين: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٍ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٤ – ٦]، ولقيام الحساب فيه، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١].

ولقيام الأشهاد فيه، كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١].

ولقيام العدل والقسط فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧].

والله تعالى لا ينظر إليهم نظر رحمة ورأفة لا في الدنيا ولا يوم القيامة، لكن حرمانهم من ذلك يوم القيامة أعظم عليهم؛ لشدة أهوال ذلك اليوم وكرباته وعذابه.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ أي: ولا يطهرهم مما تلبَّسُوا به من رجس الكفر ودنس

---

(١) أي: ستره ورحمته.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه فى المقدمة (١٨٣).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٨١).

المعاصي والذنوب، ولا يغفر لهم يوم القيامة، كما أنه لا يطهرهم في الدنيا بسبب كفرهم وعدم إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: وهو عذاب النار. والعذاب: النكال والعقوبة.

﴿أَلِيمٌ﴾: على وزن «فعيل» بمعنى «مفعل»، أي: مؤلم موجِع حسيًا ومعنويًا، فرتب الله تعالى على هذا الفعل- وهو الشراء بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا- خمس عقوبات.

وهي: حرمانهم من أي نصيب في الآخرة، ومن تكليم الله لهم تكليم رضا، ومن نظر الله لهم نظر رحمة ورأفة وعطف، ومن تزكية الله لهم، مع توعدهم بالعذاب الأليم.

فهؤلاء وإن نالوا باستبدالهم بعهد الله وأيمانهم قليلًا من حطام الدنيا ومتاعها الحقير الفاني، فقد حرموا نصيب الآخرة التي هي دار الحياة الحقة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

فخسروا الآخرة وما فيها من ألوان النعيم الحسي والمعنوي، وحرموا تكليم الله لهم بما يسرهم ونظره إليهم بعين العطف والرحمة يوم القيامة وتزكيتهم مع ما أعد لهم من العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ﴾ أي: وإنَّ من أهل الكتاب (لفريقًا) محرِّفون لكتاب الله.

﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾: قرأ أبو جعفر: «يُلوُّون» بالتشديد مع ضم الياء؛ لقوله تعالى: ﴿لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ [المنافقون:٥]، وقرأ الباقون بالتخفيف مع فتح الياء ﴿يَلْوُۥنَ﴾.

و«اللي»: الفتل، ومنه يُقال: لويت يد فلان، أي: فتلتها، ولويت الغريم، إذا مطلته.

وفي الحديث: «**مطل الغني ظلم**»[١].

والمعنى: يُحرِّفون بألسنتهم الكتاب تحريفًا لفظيًا وتحريفًا معنويًا، كما قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣- النساء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: ٧٥].

تحريفًا لفظيًا بزيادة أو نقصان في حروفه وكلماته، والإتيان بكلام من عندهم ونسبته إلى كتاب الله تعالى، كما فعل ابن صوريا حيث زعم أن حكم الزاني في التوراة أن يحمم وجهه، ونفى أن يكون فيها الرجم[٢] إلى غير ذلك من أنواع التبديل والتغيير.

أو بتحريف الكلم بلفظه بالتحريف في الحركات كما حرف المبتدعة قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤] بنصب لفظ الجلالة ليكون التكليم من موسى- عليه السلام- ومن التحريف اللفظي قولهم: «السام عليكم»[٣] بدل «السلام» يعنون: الموت لكم.

وتحريفًا معنويًا بتأويل الكتاب على غير تأويله كما في تأويلهم في كلامهم «راعنا» بجعلها من الرعونة؛ ليسبوا بذلك النبي ﷺ؛ ولهذا نهى الله تعالى المؤمنين عن قولها، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة:١٠٤].

ومن ذلك تحريف أهل البدع ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعنى «استولى» ونحو ذلك.

﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اللام للتعليل، والخطاب في ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ للمسلمين،

---

(١) أخرجه البخارى في الحوالات (٢٢٨٧)، ومسلم في المساقاة (١٥٦٤)، وأبو داود في البيوع (٣٣٤٥)، والنسائي في البيوع (٤٦٨٨)، والترمذي في البيوع (١٣٠٨)، وابن ماجه في الأحكام (٢٤٠٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٥٦)، ومسلم في الحدود (١٦٩٩)، وأبو داود في الحدود (٤٤٤٦)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٥٦)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٤)، ومسلم في السلام (٢١٦٥)، والترمذي في الاستئذان (٢٧٠١)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٩٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

والضمير (الهاء) يعود إلى ما حصل به اللي من الكتاب.

أي: يلوون ألسنتهم بالكتاب بقصد منهم، لتظنوه أيها المسلمون من الكتاب الذي أنزله الله، أي: من «التوراة» أو «الإنجيل»؛ بقصد التلبيس على المسلمين، وتشكيكهم في القرآن الكريم.

وقيل: يحتمل كون اللام للعاقبة، أي: لتكون العاقبة والنهاية أن تظنوه من الكتاب، والأول أولى.

﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الواو: حالية، و«ما»: نافية، أي: والحال أنه ليس من الكتاب، أي: ليس هذا الذي لووا به ألسنتهم من الكتاب، لا من التوراة ولا من الإنجيل، بل هو من ليِّهم وتحريفهم ألفاظ الكتاب ومعانيه بألسنتهم.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: ويقول هؤلاء الذين يلوون ألسنتهم بالكتاب، ﴿هُوَ﴾ أي: ما لووا به ألسنتهم، ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: مُنزَّل من عند الله، فلا يكتفون بليّ ألسنتهم به؛ ليظن أنه من الكتاب، بل يقولون صراحةً هو من عند الله، وفي هذا تشنيع عليهم.

﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: والحال أنه ليس من عند الله، أي: ليس هو نازلًا من عند الله تعالى.

وأظهر في مقام الإضمار في الموضعين، فلم يقل في الموضع الأول: «وما هو منه» ولم يقل هنا: «وما هو من عنده»؛ لتأكيد نفي أن يكون ما لووا به ألسنتهم من الكتاب هو من عند الله، والتشنيع عليهم، ولتهويل ما أقدموا عليه، والعناية والاهتمام كما قيل:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء ... قهر الموت ذا الغنى والفقيرا(١)

وقال الآخر:

وَلما رَأَيت الشيب لَاحَ بياضه ... بمفرق رَأسِي قلت للشيب مرْحَبَا(٢)

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: الجملة معطوفة على قوله: ﴿يَلْوُۥنَ﴾.

---

(١) البيت لعدي بن زيد. انظر: «ديوانه» (ص٦٥).

(٢) البيت ليحيى بن زياد. انظر: «ديوان الحماسة» (ص٧٨٤).

أي: في نسبتهم ذلك إلى الله تعالى تعريضًا وتصريحًا، وجاء التعبير بالمضارع في ﴿يَلْوُۥنَ﴾ و﴿وَيَقُولُونَ﴾ للدلالة على التجدد وأن هذا دأبهم، أي: ويفترون على الله الكذب في ليّ ألسنتهم بالكتاب، ونسبتهم ذلك إلى الله تعالى، كما في قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١]، وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤].

وكما في قولهم: «استراح يوم السبت».

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: الجملة حالية، أي: والحال أنهم يعلمون، أي: يعلمون أنهم كاذبون على الله، فهم يكذبون ويفترون على الله عن عمد، وهذا أشد ممن قال الكذب وهو لا يعلم أنه كذب.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

بيَّن عز وجل في الآية السابقة كذب أهل الكتاب وافتراءهم على الله تعالى ونفى ذلك وأبطله، ثم أتبع ذلك بذكر افترائهم على رسله ونفى ذلك وأبطله ومن ذلك زعم النصارى أن عيسى- عليه السلام- أمرهم بعبادته من دون الله.

عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال أبورافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرِّبِّيس: أوذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا؟ أو كما قال، فقال رسول الله ﷺ: «**معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني**» أو كما قال، فأنزل الله- عز وجل- في ذلك من قولهم: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ الآية إلى قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾»(١).

---

(١) أخرجه ابن إسحاق. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٥٤)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٥٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٦٩٣).

قوله: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴿٧٩﴾ ﴾.

« مَا »: نافية، أي: ما كان جائزًا شرعًا وقدرًا لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس هذه المقالة الشركية، أي: أن هذا ممتنع ومستحيل كل الاستحالة.

﴿لِبَشَرٍ﴾ أي: ما كان لواحد من البشر، و«البشر» هم بنو آدم، وسُمِّيَ الإنسان بشرًا لأن بشرته ظاهرة ليس عليها شعر ولا صوف ولا وبر ولا ريش ولا زعانف، وقيل: لظهور أثر البشارة عليه إذا أخبر بما يسره، وقيل: لهذا ولهذا.

﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: أن يعطيه الله الكتاب شرعًا وقدرًا، و(ال) في «الكتاب» للجنس، أي: جنس الكتاب، أي: أن ينزل عليه الكتاب.

﴿ وَٱلْحُكْمَ ﴾ أي: والحكم الشرعي بين الناس بما أنزل من الكتاب والوحي، كما قال تعالى مخاطبًا النبي ﷺ: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [المائدة:٤٩].

﴿وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ أي: الإنباء والإخبار بالوحي، وهي مأخوذة من «النبأ» وهو الخبر، ومن «النَّبْوة» وهى المكان المرتفع، فالأنبياء مُخبَرون من الله ومُخبِرون لأقوامهم، وهم ذوو مكانة رفيعة ومنزلة عالية عند الله وعند المؤمنين.

وهذا يدل على أن المراد بقوله: ﴿ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي أن يعطيه الله الكتاب، وينبأ ويرسل به إلى الناس.

وليس المراد به المرسل إليهم، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:١٤٦].

﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ ﴾: معطوف على «يؤتيه».

﴿ثُمَّ ﴾: عاطفة، أي: ثم بعد ما يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة يقول للناس.

﴿كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ هذا هو المستحيل والممتنع شرعًا وقدرًا، والذي ينصب عليه النفي، في قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾.

ومعنى: ﴿كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: اعبدوني من دون الله، أي: مع الله أو

اعبدوني ولا تعبدوا الله.

وكل مَن عَبد غير الله فهو مُشرِك، سواء أفرد هذا المعبود بالعبادة ولم يعبد الله، أو عبد هذا المعبود مع الله؛ لأن مَن عبد مع الله غيره فهو لم يعبد الله؛ لأن عبادته لله مع غيره كلا عبادة، وسواء أشرك مع الله غيره في العبادة، أو في الطاعة، أو فيهما معًا، كما جاء في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(١).

وعبادة الأنبياء وإشراكهم مع الله إنما ابتدعها أهل الكفر والشرك من أممهم، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ﴾ [التوبة:٣١].

﴿ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾ الواو: عاطفة، و«لكن»: حرف استدراك، أي: ولكن يقول: ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾: أي: كونوا شرعًا.

﴿رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾: جمع «رباني» نسبةً إلى «الرب»- عز وجل- وطاعته، والتربي بشرعه، امتثالًا لأمره، واجتنابًا لنهيه، وتربية الناس على ذلك، وتعليمهم الخير مما يصلح دينهم ودنياهم وأُخراهم، كما قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ ﴾ [المائدة:٤٤].

أي: ويحكم بها الربانيون الذين، أطاعوا الله- عز وجل- وتربُّوا على عبادته وطاعته، وعملوا على تربية الناس على ذلك.

فالمعنى: ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾ أي: متعبدين للرب- عز وجل- مخلصين له متربين بشرعه ومربين الناس عليه.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق- من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بضم التاء وفتح العين وكسر اللام مع تشديدها، أي: تُعَلِّمون الناس الكتاب، أي: تُفَهِّمونهم معناه، وقرأ الباقون «تَعْلَمون» بفتح التاء وإسكان العين وفتح اللام مع التخفيف، أي: تَعْلَمون بأنفسكم الكتاب، أي: تفهمون معناه.

والباء في قوله: ﴿بِمَا﴾: للسببية، و«ما» مصدرية.

والمراد بـ«الكتاب»: التوراة والإنجيل، أي: بسبب كونكم تعلمون الكتاب وتفهمون معانيه وتُعَلِّمونه للناس؛ لأن الذي يُعَلِّم ويُفَهِّم الناس ينبغي أن يكون ربانيًا يقرن في تعليمه للناس بين التعليم، والتربية على العمل بالعلم، كما كان هدي النبي ﷺ في سيرته مع أصحابه، وهدي الخلفاء الراشدين من بعده.

عن عمرو بن سلمة- رضي الله عنه- قال: «كنت غلامًا في حِجر النبي ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصفحة، فأمسك ﷺ بيدي، وقال: «**يا غلام، سَمِّ الله، وكُل بيمينك، وكُل مما يليك**». فما زالت تلك طعمتي بعد»[1].

وعن كلدة بن حنبل- رضي الله عنه- قال: «دخلت على النبي ﷺ ولم أُسَلِّم، ولم أستأذن، فقال «**ارجع، فقُل: السلام عليكم. أأدخل؟!**» فرجعت، فقلت: السلام عليكم. أأدخل؟، فأذن لي»[2].

والجمع بين التعليم والتربية على العمل بالعلم وممارسته وتطبيقه هو المنهج الصحيح في التعليم؛ لأن ثمرة العلم هي العمل به، وما فائدة علم يجمع في الأذهان ولا تظهر ثمرته وأثره على الجوارح والأبدان؟!

ولهذا جاء الوعيد الشديد لمن تعلم القرآن والعلم ولم يعمل به، كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- في أول من تسعر بهم النار، قال ﷺ: «**ورجل تعلم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن فأتي به فَعرَّفة نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلَّمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلَّمت العلم ليُقال: عالِم، وقرأت القرآن**

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٦)، ومسلم في الأشربة (٢٠٢٢)، وأبو داود في الأطعمة (٣٧٧٧).
(٢) أخرجه الترمذي في الاستئذان (٢٧١٠)، وأخرجه أبو داود مختصرًا في الأدب (٥١٧٦).

ليُقال: هو قارىء، فقد قيل. ثم أمر به، فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقيَ في النار»[١].

وعـــالم بعلمـــه لم يعلمـــن معـذب مـن قبـل عبـاد الـوثن[٢]

وكثير ممن يتولون التعليم في مراحله المختلفة لا تظهر عليهم آثار التربي بالعلم، ولا يربون الناس عليه؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه. وكيف لمن لم يُرَبِّ نفسه بالعلم- إن كان عنده علم- أن يربي الناس عليه؟! وكما قال أحمد شوقي:

وإذا الـمُعلِّم سـاء لحـظ بصـيرة جـاءت علـى يـده البصـائر حـولا[٣]

ومع أن المؤسسات التعليمية في كثير من البلاد العربية والإسلامية وغيرها تتقمص مُسَمَّى التربية والتعليم إلا أن الملاحظ وجود الانفصام بين التعليم والتربية، فالموجود في كثير من هذه المؤسسات هو التعليم النظري مع ضعف فيه دون التربية- وهذا بلاشك ناقوس الخطر.

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: معطوفة على الجملة قبلها، والباء: سببية، و«ما»: مصدرية، أي: وبسبب كونكم تدرسون الكتاب، أي: تقرؤونه وتتلونه، كما في الحديث: «**وما اجتمع قوم في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينه وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده**»[٤].

والمعنى: كونوا ربانيين بسبب كونكم تعلمون وتفهمون معانيه، وتُعلِّمونه للناس وبسبب كونكم تَدْرُسون الكتاب وتكررون قراءته وتُدَرِّسونه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

نفى في الآية السابقة أن يكون لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة فيدعو الناس لعبادته من دون الله، ثم أتبع ذلك بنفي أن يدعوهم إلى اتخاذ الملائكة والنبيين

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٠٥)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٧).

(٢) البيت لابن رسلان. انظر: «غاية البيان» (ص٤).

(٣) انظر: «الشوقيات» (٢/ ٧٦).

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٣٦٩٩)، وأبو داود في الصلاة (١٤٥٥)، والترمذي في القراءات (٢٩٤٥)، وابن ماجه في المقدمة (٢٢٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أربابًا؛ لأن هذا وذاك أمر بالكفر.

قوله: ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ ﴾: قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وخلف ويعقوب بنصب الراء ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ ﴾ عطفًا على ﴿ يَقُولَ ﴾، و«لا»: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة لمعنى النفي في قوله: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ وفاعل ﴿يَأۡمُرَكُمۡ ﴾: ضمير يعود إلى «بشر»، أي: ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يأمر الناس بأن يكونوا عبادًا له، ويأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا.

وقرأ الباقون: «ولا يأمُرُكم» بضم الراء على الاستئناف، وقرأها أبو عمرو على أصله من جواز تسكين الراء والاختلاس: «ولا يأمرْكم».

وضمير الفاعل في «يأمركم» على هاتين القراءتين يجوز أن يعود إلى الله تعالى، ويجوز أن يعود إلى «بشر» في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾.

والمعنى: ما كان له أن يقول: اعبدوني من دون الله، وما كان له أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا، أي: أن هذا وهذا مستحيل أن يقوله أو يأمر به من أعطاه الله الكتاب والحكم والنبوة.

﴿أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًا ﴾: أي: أن تجعلوا وتصيروا الملائكة والنبيين أربابًا و«تتخذوا» ينصب مفعولين: الأول هنا: «الملائكة والنبيين»، والثاني: «أربابًا».

و﴿ أَرۡبَابًا ﴾: جمع رب، أي: معبودين وآلهة تُعبد من دون الله، كما قال تعالى: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩]، وقال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:٣١].

﴿ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ ﴾: قرأ أبو عمرو: «أيأمرْكم» بتسكين الراء واختلاسها، وقرأ الباقون بضمها ﴿أَيَأۡمُرُكُم ﴾.

والاستفهام للإنكار والنفي، أي: لا يمكن أن يأمركم بالكفر بعبادته من دون الله، أو اتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا.

﴿بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ أي: بعد أن تقرر وثبت أنكم مسلمون، أي: بعد أن تقرر وثبت إسلامكم، فالله- عز وجل- لا يأمر بذلك وكذا أنبياؤه عليهم السلام، كما قال

تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف:٤٥].

الفوائد والأحكام:

١- أن من أهل الكتاب من هو أمين، لو أُتمن على مال مهما كثر أدَّاه كاملًا من غير نقص، وأن منهم من هو خائن لو أُؤتمن على أقل القليل من المال لم يؤدِّه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾.

٢- إنصاف القرآن لأهل الكتاب، وبيانه أن منهم من هو أمين لو أُتمن على مالٍ مهما كثر أدَّاه كاملًا ولم يُنقِص منه شيئًا، وذمِّهِ لفريق منهم وهم الخونة.

٣- أن من كان أمينًا عل المال الكثير لا يُنقِص منه شيئًا مع كثرته التي قد لا يظهر معها النقص القليل، فهو من باب أولى أمين على المال القليل الذي يظهر فيه أدنى نقص منه .

٤- أن مَن لم يكن أمينًا على المال القليل الذي يظهر أدنى نقص منه فهو من باب أولى لا يؤمن على المال الكثير الذي قد لا يظهر النقص القليل منه .

٥- جواز التعامل مع أهل الكتاب. وقد توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من الشعير(١).

٦- ينبغي الحذر في التعامل مع أهل الكتاب؛ لأن منهم من طُبع على الخيانة وعدم الأمانة؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾.

وهكذا كل من يخشى خيانته ينبغي مراقبته، والقيام عليه حِفظًا للأموال والحقوق.
كما يجب الحذر منهم أشد فيما يتعلق بمسؤوليات المسلمين ومصالحهم العامة، فلا يجوز الاعتماد عليهم في شيءٍ منها، ولا الثقة بهم؛ لأنهم حرب للإسلام وأعداء

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩١٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

للمسلمين منذ عهد الرسالة، مهما أظهروا خلاف ذلك، قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة: ٥١].

ولهذا رُوِيَ أن أباموسى الأشعري- رضي الله عنه- وكان واليًا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، كتب إلى عمر في تولية كاتب نصراني في بيت المال، فكتب له عمر- رضي الله عنه- بعزله، وقال له: كيف تأمن من خوَّنه الله؟!، فكتب له أبو موسى في شأنه مرة ثانية، وأثنى بمعرفته الكتابة والحساب وأنه لا يوجد مثله، ونحو ذلك، فكتب عمر- رضي الله عنه- بطاقة لم يزد فيها على قوله: «مات النصراني.. والسلام»[1].

أي: افترض أن النصراني مات. هل يتعطل بيت المال أو يتعطل شأن الدولة الإسلامية؟!. بمعنى أن المسلمين في غِنىً عنه، فرضى الله عنك يا عمر وأرضاك.

٧- تكبر أهل لكتاب وإعجابهم بأنفسهم واحتقارهم لغيرهم؛ لقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ ﴾.

٨- أن العجب والتكبر قد يحمل على أذية الآخرين واحتقارهم وغمط حقوقهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ ﴾.

وقد قال ﷺ: «**الكبر بطر الحق، وغمط الناس**»[2]. أي: احتقارهم.

٩- جرأة أهل الكتاب على الكذب على الله وهم يعلمون؛ حيث يقولون: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ ﴾ أي: أن الله أباح لنا شرعًا استباحة أموال الأُميين وظلمهم، وهذا كذب على الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

---

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ٣٤٤).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٩١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٩٩)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

١٠- أن من حَكَم أو أفتى بغير ما أنزل الله، ونسب ذلك إلى حُكم الله وشرعه فقد كذب على الله تعالى، وفيه شبه من أهل الكتاب.

١١- أن من كذب على الله تعالى وهو يعلم؛ أشد عدوانًا وإثمًا ممن لا يعلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: وهم يعلمون أنهم يكذبون ويتعمَّدون ذلك.
وقد قال ﷺ: «**من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»[1]. والكذب على الله أشد وأعظم .

١٢- إبطال دعوى أهل الكتاب أنه ليس عليهم في الأُميين سبيل، لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾، أي: بلى عليهم سبيل ومُحاسبون في الاعتداء على الأُميين وعلى غيرهم.

١٣- الترغيب في الوفاء بالعهد، والثناء على أهله، وأنه من التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾.

١٤- الترغيب في تقوى الله، وأنها سبب لمحبة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

١٥- أن خيانة الأمانة وعدم أدائها نقض للعهد ومنافٍ لتقوى الله.

١٦- إثبات صفة المحبة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وكما قال تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤].

١٧- ذم أهل الكتاب وبخاصة أحبارهم وعلمائهم؛ لأخذهم بعهد الله وأيمانهم عِوضًا قليلًا، واستبدال الآخرة بالدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا﴾.

وذلك أن الكلام معهم والسياق فيهم، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١)، والترمذي في العلم (٢٦٦٩)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

﴿قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

١٨- تهديد الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا من أهل الكتاب وغيرهم ووعيدهم بأشد العقوبات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فرتب على فعلهم هذا خمس عقوبات، كل منها في غاية الشدة، وهي:

حرمانهم من أي نصيب في الآخرة، ومن تكليم الله تعالى لهم تكليم لطف ورضا، ومن نظر الله تعالى لهم نظر رحمة ورأفة، ومن تزكيته لهم، مع توعدهم بالعذاب الأليم.

وكل واحدة من هذه العقوبات تدل على كفرهم؛ لأنه لا يستحقها إلا من كان كافرًا.

١٩- التحذير من نقض عهد الله، والكذب في الأيمان، والاشتراء بها ثمنًا قليلًا، والتحذير لهذه الأمة وبخاصة علمائها من مسالك أهل الكتاب السيئة.

وقد قال ﷺ: «**من حلف على يمين هو فيها فاجر يقتطع بها مال امرئٍ مسلم بغير حق لَقِيَ الله وهو عليه غضبان**»(١).

وعن أبي ذرٍ رضي الله عنه: قال رسول ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم**». قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرارًا. قال أبوذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال «**المسبل، والمنان، والمنفِّق سلعته بالحلف الكاذب**»(٢).

٢٠- يُفهم من قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا

---

(١) أخرجه البخاري في الخصومات؛ كلام الخصوم بعضهم في بعض (٢٤١٧)، ومسلم في الإيمان، وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار (١٣٨)، وأبوداود في الأيمان والنذور (٣٢٤٣)، والترمذي في البيوع (١٢٦٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٢٣)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٠٦)، وأبوداود في اللباس (٤٠٨٧)، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٣)، والترمذي في البيوع (١٢١١)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٨).

خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الآية: أن من وفوا بعهد الله ولم يشتروا بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا أن لهم نصيبًا في الآخرة، ويكلمهم الله وينظر إليهم يوم القيامة، ويزكيهم، ويقيهم العذاب الأليم، ولهم الثواب العظيم.

٢١- أن الحظ والنصيب حقًّا ما كان في الآخرة؛ لأنها هي دار الحياة الحقيقية كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ولهذا قال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ ولم يقل: في الدنيا؛ لأن نصيب الدنيا مهما كان لا يساوي شيئًا بالنسبة للآخرة.

٢٢- إثبات الدار الآخرة والقيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

٢٣- إثبات الكلام لله تعالى لأن نفي تكليمه لمن اشتروا بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا يدل بمفهومه على ثبوت تكليمه لمن وفوا ولم يشتروا بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا؛ لأنه- عز وجل- لو لم يكن يتكلم ويكلم هؤلاء ما كان لنفي تكليمه عن المذكورين فائدة، وما كان ذلك عقوبة لهم.

٢٤- إثبات النظر لله- عز وجل- لأن نفي نظره تعالى إلى المذكورين يوم القيامة بقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يدل بمفهومه على نظره إلى من كانوا بخلافهم.

٢٥- عدم تزكية الله لهؤلاء المذكورين وعدم تطهيره لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾، ومفهوم هذا تزكيته- عز وجل- لمن كانوا بخلافهم.

٢٦- شدة عذاب المذكورين يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾: أي: مؤلم حسيًا ومعنويًا.

٢٧- أن العقوبات منها ما هو منع وحرمان من الخير كحرمان نصيب الآخرة والحرمان من تكليم الله تعالى ومن نظره وتزكيته، ومنها ما هو جلب شر وخزي كالعذاب الأليم.

٢٨- أن مِن أهل الكتاب فريقًا يلوون ألسنتهم بتحريف ألفاظ الكتاب ومعانيه؛ ليظهر أن هذا المحرف من الكتاب، ويقولون هو من عند الله لإضلال الناس؛ لقوله

تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٢٩- نفي أن يكون ما لوى به أهل الكتاب ألسنتهم وحرفوه من الكتاب، وأن يكون من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٣٠- كذب أهل الكتاب وافتراؤهم على الله تعالى وهم يعلمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

٣١- الوعيد والتهديد لأهل الكتاب لكذبهم على الله وهم يعلمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهو وعيد لهم ولمن سلك طريقهم في الكذب على الله، ولبس الحق بالباطل.

٣٢- أن الكذب على الله مع العلم والتعمُّد أشد ذنبًا ووعيدًا من الكذب بلا علم ولا تعمد؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

٣٣- النفي القاطع أن يدعو أحد ممن مَنَّ الله عليه بإعطائه الكتاب والحكم والنبوة إلى عبادة نفسه وطاعته من دون الله، وأن هذا لا يمكن أن يكون لا شرعًا ولا قدرًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٣٤- أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بشر من سائر البشر.

٣٥- أن النبي من أُنزِلَ عليه الكتاب والوحي، وأُعطِيَ الحكم الشرعي بين الناس، والنبوة؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾.

٣٦- أن الأنبياء عليهم السلام إنما يأمرون بطاعة الرب- عز وجل- وعبادته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾.

٣٧- ينبغي أن يكون من يُعَلِّم الناس مُعَلِّمًا ربانيًا، يقرن بين التعليم، والتربية على العمل؛ لأن ثمرة العلم هي العمل والتربِّي به؛ لقوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾.

٣٨- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

٣٩- أن علم الكتاب وتعليمه ومُدارسته له الأثر في كون صاحبه ربانيًا عابدًا لله مطيعًا

له، مربيًا الناس على ذلك.

٤٠- استحالة أن يدعو أحد من الأنبياء عليهم السلام إلى الإشراك بالله واتخاذ الملائكة والنبيين آلهة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾.

٤١- الرد على المشركين من أهل الكتاب وغيرهم في اتخاذهم الملائكة والنبيين وغيرهم أربابًا من دون الله.

٤٢- إثبات وجود الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ﴾، والإيمان بهم ركن من أركان الإيمان الستة.

٤٣- أن من قال للناس كونوا عبادًا لي من دون الله، وأمرهم باتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا فقد أمر بالكفر المُخرِج مِن الملة؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ الواو: استئنافية، ﴿وَإِذْ﴾: ظرف بمعنى «حين»، متعلق بمحذوف تقديره «اذكر»، أي: اذكر يا محمد حين أخذ الله ميثاق النبيين، اذكره بنفسك ولأمتك ولأهل الكتاب، و«الميثاق»: العهد المؤكد، وسُمِّيَ العهد ميثاقًا لأن كلًا من المتعاهدين يتوثق به مع الآخر، كالوثاق وهو الحبل الذي يُشد به.

والمراد بـ﴿ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾: ما يشمل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وميثاق النبيين ميثاق على أممهم.

﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾: فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب.

قرأ حمزة بكسر اللام «لِما»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿لَمَآ﴾، وقرأ نافع وأبو جعفر بنون العظمة ﴿ءَاتَيْنَٰكُم﴾، وقرأ الباقون بتاء المتكلم ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾.

واللام في قوله «لِما» على قراءة فتح اللام: موطئة للقسم؛ لأن أخذ الميثاق في معنى اليمين، ويجوز كون اللام للابتداء، و«ما»: شرطية أو موصولة، أي: للذي آتيتكم.

أو لمهما آتيتكم من كتاب وحكمة، أي: لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به، ولتنصرنه، ولا يمنعكم ما أوتيتم من علم الكتاب والحكمة من ذلك.

وعلى قراءة كسر اللام تكون اللام للتعليل، و«ما»: مصدرية، أي: من أجل إيتائي إياكم بعض الكتاب والحكمة، ولمجيء رسول مصدِّق لما معكم لتؤمنن به.

ويجوز كون «ما»: موصولة، أي: لأجل الذي آتيتكم، ولمجيء رسول مصدق، أي: شكرًا على إيتائي إياكم أو على الذي آتيتكم وعلى أن بعثت رسولًا مصدقًا لما معكم لتؤمنن به.

﴿مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ﴾ «مِن»: تبعيضية، أي: بعض الكتاب والحكمة، وقيل: بيانية.

وقوله: ﴿كِتَٰبٖ﴾: كالتوراة والإنجيل.

﴿وَحِكۡمَةٖ﴾ الحكمة: الشريعة، والحكم بها بين الناس.

﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ يعني: محمدًا ﷺ.

ويحتمل أن يشمل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾ محمدًا ﷺ وغيره من الرسل- عليهم السلام- بأن أخذ الله الميثاق على النبيين جميعًا بأن يؤمن المتقدم منهم بمن يأتي بعده ويناصره، ويصدق بعضهم بعضًا[(1)].

وقوله: ﴿مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ أي: مصدق لما معكم من كتب الله تعالى؛ كالتوراة والإنجيل وغيرهما ببيان أنها حق من عند الله تعالى، وذلك باشتماله على ما يشهد بصدقها، وبكونه مصداق ما أخبرت به حيث أخبرت هذه الكتب ببعثته ﷺ، كما قال عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الصف:٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأعراف:١٥٧].

فكانت بعثته الله ﷺ مصداق ما أخبرت به هذه الكتب، فكان بهذا مصدقًا لها.

﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ﴾، اللام: واقعة في جواب القسم، فالجملة جواب القسم، ويجوز أن تكون اللام: موطئة للقسم، أي: لتصدقنه.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٥/ ٥٣٩-٥٤٤).

﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾، أي: ولتُعِيْنُنَّه على تبليغ رسالته ونشرها، وعلى قتال أعدائه، فالنصر هنا يشمل نصره باللسان، والدعوة إلى الله، وبالسنان والعُدة والعتاد. والمراد: لتؤمنن به ولتنصرنه أنتم وأتباعكم.

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ أي: اعترفتم والتزمتم بذلك.

﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾: معطوف على ما قبله، أي: وأخذتم على ذلكم عهدي، أي: ميثاقي الشديد المؤكد الثقيل، والإصر: العهد الثقيل، وجمعه: آصار، قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا﴾ أي: اعترفنا والتزمنا بأن نؤمن به وننصره.

﴿قَالَ فَٱشْهَدُواْ﴾ أي: ليشهد كل منكم على نفسه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٣].

وأيضًا ليشهد بعضكم على بعض، واشهدوا على أممكم بذلك.

﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: على العهد الذي أخذته عليكم وعلى أممكم، قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩، ١٦٦، الفتح:٢٨].

فاستشهدهم عز وجل على أنفسهم، وعلى بعضهم، وعلى أممهم على الميثاق الذي أخذه عليهم، وشهد عز وجل عليهم كلهم بذلك.

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- أخذه ميثاق النبيين إن بُعِثَ محمد ﷺ أن يؤمنوا به وينصروه، وأن يؤمن بعضهم بعضًا، ويصدِّق بعضهم بعضًا، وإقرارهم وشهادتهم على أنفسهم بذلك، وشهادته تعالى عليهم، وهو ميثاق عليهم وعلى أممهم، ثم أتبع ذلك ببيان حكم من تولى من أممهم عن الالتزام بهذا الميثاق، وأنه من الفاسقين، وفي هذا تحذير لأمة محمد

ﷺ وبخاصة أهل الكتاب الموجودين في عهده ﷺ من التولي عن الإيمان به ونُصرته.

قوله: ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ﴾ الفاء: استئنافية، و«من»: شرطية، و﴿ تَوَلَّىٰ ﴾: فعل الشرط، وجوابه جملة: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾. ومعنى «تولي» أي: أعرض بقلبه وبدنه.

﴿ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: بعد أخذ ميثاق الأنبياء، وتقريرهم، وإشهادهم على ذلك، وشهادة الله عليهم بذلك.

والمعنى: من تولى وأعرض من اتباع الأنبياء وأممهم عن الإيمان بالرسل ونصرتهم وبخاصةً خاتمهم وسيدهم محمد ﷺ بعد تبليغ أنبيائهم لهم بما أخذ من الميثاق عليهم في ذلك؛

ولهذا لم يقل: «فمن تولى بعد ذلك منكم» كما قال في سورة المائدة في خطاب بني إسرائيل: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة:١٢].

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾: لأن الميثاق الذي أُخِذَ على الأنبياء ميثاق عليهم وعلى أممهم، ولهذا لما رأى النبي ﷺ مع عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قطعة من التوراة غضب؟ فقال: «**أمُتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق، فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى ﷺ حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني**»(١).

والفاء في قوله : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ رابطة لجواب الشرط، والجملة جواب الشرط.

والإشارة في قوله: «أولئك» لـ «من» في قوله: ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ ﴾؛ لأن معناها الجمع، وقد أُكِدت هذه الجمله بكونها اسمية مُعَرَّفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

أي: فأولئك الذين بلغوا غاية الفسق. و(الفسق): الخروج عن طاعة الله تعالى.

وهو نوعان: فسق مُخرِج من الملة وكفر، كما في قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧)، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة: ١٨].

وفسق دون ذلك، لا يُخرِج من الملة، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ٦].

والمراد بالفسق هنا في قوله: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ الفسق المخرج من الملة، المؤدِّي إلى الكفر؛ لأن من تولى وأعرض عن الإيمان بالرسل وتصديقهم ونصرتهم، وخصوصًا خاتمهم وإمامهم محمد ﷺ فهو كافر.

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

حذَّر عز وجل عن التولِّي والإعراض عن الإيمان بالرسول ﷺ وغيره من الرسل ونُصرتهم؛ ثم أتبع ذلك بالإنكار على الذين يَبْغُون غير دين الله من أهل الكتاب وغيرهم، وقد أسلم له سبحانه الخلق كلهم وإليه مرجعهم.

قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

والفاء: حرف عطف على ما سبق، وقد أخرت لتكون الصدارة لهمزة الاستفهام، والتقدير: «فأغير دين الله يبغون»، ويجوز أن يكون حرف العطف عاطفًا لما بعده على مقدر بينه وبين الهمزة، والتقدير: «أيتولون فغير دين الله يبغون؟».

و﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾: شرعه الذي شرعه لعباده، وهو دين التوحيد والعدل والإسلام، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[آل عمران: ٨٥].

وأضافه- عز وجل- إليه؛ لأنه سبحانه هو الذي شرعه، وهو الذي يجازي عليه، وتعظيمًا له وتشريفًا.

﴿يَبْغُونَ ﴾: قرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم ويعقوب بياء الغيبة: ﴿يَبْغُونَ ﴾، وقرأ الباقون بتاء الخطاب «تبغون»، والمعنى: أفغير دين الله وشرعه وحكمه يطلبون ويريدون، أو تطلبون وتريدون، والمراد بهذا أهل الكتاب وغيرهم ممن يبتغي غير دين الله.

﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنه أسلم له مَن في السموات والأرض، وقدَّم الخبر: ﴿لَهُۥٓ﴾ للدلالة على الحصر والاختصاص، أي: وله وحده أسلم مَن في السموات والأرض.

ومعنى «أسلم»: أي استسلم وانقاد كونًا، وليس المراد الاستسلام شرعًا؛ لأن الإسلام الشرعي لا إكراه فيه، كما قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ ولأن الإسلام الشرعي لا يعم كل مَن في الأرض بل أكثرهم لا يسلم.

و﴿مَن﴾: موصولة تدل على العموم، أي: جميع مَن في السموات والأرض.

وفي التعبير بـ﴿مَن﴾ تغليب لجانب العقلاء؛ تكريمًا لهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠]، ولأنهم هم المكلفون دون غيرهم، ولأنهم أكثر من غيرهم؛ لأن من بينهم الملائكة.

وفي الحديث: «**أطت السماء وحق لها أن تئط. ما مِن موضع شبر إلا وفيه ملك قائم لله أو راكع أو ساجد**»(١).

والسموات أكبر من الأرض، بل السماء الدنيا أكبر من الأرض، وكل سماء أكبر من التي تحتها.

﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾: منصوبان على الحال، أي: طائعين وكارهين، و«الطوع»: ما فُعِلَ بالاختيار، و«الكُره»: ما فُعِلَ بغير الاختيار.

أي: استسلم له من فيها طوعًا وكرهًا، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الرعد:١٥]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٨-٥٠].

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣١٢)، وابن ماجه في الزهد (٤١٩٠)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

فالمؤمن مستسلم لله تعالى طوعًا بقلبه وقالبه، والكافر مستسلم لله تعالى كرهًا، والخلق والكون كله مستسلم منقاد لله تعالى طوعًا كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١].

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾: قرأ حفص عن عاصم ويعقوب بياء الغيبة ﴿يُرْجَعُونَ ﴾ والضمير على هذه القراءة يعود إلى الذين يبغون غير دين الله، أو إلى «من» في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أو إليهما معًا، وهو أولى.

فجميعهم إليه يرجعون، أي: يُرَدُّون يوم القيامة، فيحاسبهم ويفصل بينهم بحكمه، من كان منهم من أهل التكليف أو غيرهم.

وقرأ الباقون بتاء الخطاب: «ترجعون» وفقًا لقراءة «تبغون» فيعود الخطاب للذين يبغون غير دين الله، وفي هذا وعيد وتهديد لهم.

وقدَّم المتعلق في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ لإفادة الحصر والتخصيص، أي: وإليه وحده يرجعون، لا إلى غيره، فلله- عز وجل- استسلم كل مَن في السموات والأرض طوعًا وكرهًا في الدنيا، وإليه رجوعهم في الآخرة فيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم. فكيف لعاقل أن يبتغي غير دين الله ويعدل به غيره؟!!

الفوائد والأحكام:

١- إثبات أخذ الله الميثاق على النبيين بأن يؤمن كل منهم بمحمد ﷺ وينصره إن بُعِثَ في زمانه، وأن يصدق بعضهم بعضًا، وينصر بعضهم بعضًا، ويأخذوا ذلك على أقوامهم وأتباعهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ الآية .

٢- امتنان الله- عز وجل- على الأنبياء عليهم السلام بما أعطاهم من الكتاب والحكمة، وتذكيرهم بذلك ليؤمنوا بمحمد ﷺ وينصروه، وليؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضًا؛ إذ الواجب عليهم أعظم من غيرهم؛ لأن الواجب على قدر النعمة، ويتفرع على هذا أن المنة على العلماء أعظم من المنة على غيرهم؛ لأنهم ورثة الأنبياء، ولهذا فالواجب عليهم من القيام بأمر الله، وبيان الحق، والدعوة إلى الله أعظم من الواجب على غيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ

﴿ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٨٧].

٣- أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مُكلَّفون متعبدون كغيرهم من البشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية.

٤- فضيلة نبينا محمد ﷺ على جميع الأنبياء عليهم السلام؛ لأن الله- عز وجل- أخذ عليهم جميعًا الميثاق بالإيمان به، ونُصرته؛ فهو سيد الأنبياء وإمامهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وهو صاحب الشفاعة العُظمى، والمقام المحمود يوم القيام للفصل بين الخلائق.

٥- تحذير أهل الكتاب في عهد النبي ﷺ من تكذيب النبي ﷺ ومخالفته والكفر بما جاء به، بتذكيرهم بهذا الميثاق.

٦- تذكير النبي ﷺ وأمته بهذا الميثاق، والذي أخذه الله على الأنبياء بالإيمان به ونُصرته تشريفًا وتكريمًا له ولأمته.

٧- تصديق الرسول ﷺ لما مع الأنبياء من قبله؛ لاشتمال ما جاء به من الوحي على بيان صدق ما معهم، ولأن بعثته ﷺ مِصداق لما أخبرت به كتبهم، وتصديق بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾.

٨- فضل ما بُعِثَ به نبينا محمد ﷺ من دين الإسلام على جميع الأديان؛ لأنه المصدِّق لها، والشاهد والمهيمن عليها، المشتمل على جميع أصول الشرائع السابقة.

٩- تقرير الأنبياء بما أخذ الله عليهم من ميثاق، وإقرارهم جميعًا بذلك، وإشهادهم على أنفسهم وعلى أممهم، وشهادة الله تعالى عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الآية.

١٠- أن ما أخذ الله من الميثاق على الأنبياء من الإيمان به ﷺ ونصرته وتصديق بعضهم بعضًا هو ميثاق على أقوامهم وأتباعهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: فمن تولى من أقوام الأنبياء وأتباعهم بعد أخذ الميثاق على أنبيائهم، ولا يدخل في هذا التحذير الأنبياء؛ لأنهم أقروا بهذا الميثاق، والتزموا به، وشهدوا بذلك على أنفسهم وعلى أقوامهم.

١١- أن من تولى من أتباع الأنبياء عن الإيمان بمحمد ﷺ ونصرته وغيره من الأنبياء

فهو من الفاسقين الخارجين عن الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾. والمراد بالفسق هنا الكفر المخرج من الملة.

١٢- أن مَن تولى قبل البيان وقيام الحُجة لا يُحكم عليه بالفسق ولا يُؤاخذ؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾.

١٣- التحذير من التولِّي والإعراض عن الإيمان بالرسول ﷺ، وعن اتباعه ومناصرته في دعوته باللسان والأبدان، وأن ذلك فسق وكفر.

عن عبد الله بن ثابت قال: «جاء عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخٍ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ فقال: فتغير وجه رسول الله ﷺ قال: عبدالله بن ثابت: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا.

قال: فَسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ، وقال: «**والذي نفس محمدٍ بيده، لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين**»(١).

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلُّوا، فإنكم إما أن تصدقوا بباطل، أو تكذبوا بحق، فإنه لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتبعني**»(٢).

١٤- الإنكار الشديد على من يبتغي غير دين الله وشرعه وحكمه من أهل الكتاب وغيرهم- مع أن الملك والأمر كله لله؛ لقوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

١٥- تعظيم الله لنفسه بكمال ربوبيته وعموم ملكه وسلطانه، واستسلام جميع مَن في السموات والأرض له طوعًا وكرهًا، وتعظيمًا لدينه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ الآية،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧)، وذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٦) ونسبه للحافظ أبي بكر.

فأضاف الدين إليه اهتمامًا به وتعظيمًا له.

١٦- أن مرجع كل مَن في السموات والأرض إلى الله تعالى، فإليه إيابهم وعليه حسابهم والحكم والفصل بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، فله استسلم وانقاد جميع مَن في السموات والأرض في الدنيا، وإليه رجوعهم جميعًا في الآخرة.

١٧- الوعيد والتهديد لمن يبغون غير دين الله من أهل الكتاب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

١٨- فضل الله تعالى وحكمه بين الخلق، ومجازاة أهل التكليف منهم بما عملوا، والوعد لمن آمن بالله، والوعيد لمن كفر بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة أخذه ميثاق الأنبياء بالإيمان بمحمد ﷺ ونُصرته هم وأممهم، وأنكر على من يبغون غير دين الله، ثم مقابل ذلك أمر النبي ﷺ أن يقول للناس من أهل الكتاب وغيرهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ الآية.

فكما أخذ ميثاق النبيين وأممهم بالإيمان به وبرسالته، كذلك أمره ﷺ أن يخبر الناس بإيمانه هو وأمته بما أنزل على النبيين قبله، وأن يقول لمن ابتغوا غير دين الله وغيرهم ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية، وهذه الآية شعار الإسلام.

قوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: الخطاب والأمر للنبي ﷺ وهو أمر له ولأمته، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦].

ولهذا جمع الضمير في قوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

والإيمان بالله يتضمن التصديق والإقرار بوجوده، وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: موصولة، أي: وآمنا بالذي أُنزِل علينا من الوحي، أي: بالقرآن والسنة؛ لأن كلًا منها وحي مُنَزَّل من عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣- ٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال هنا: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية، وقال في آية البقرة: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الآية: ١٣٦]، فباعتبار مبدأ الإنزال عُدي بـ«على»؛ لأنه من أعلى ومن فوق، وباعتبار انتهاء الإنزال إلى المنزَّل عليه عُدي بـ«إلى».

وقدَّم الأمر بالإيمان بالمنزل على هذه الأمة في الآيتين تعظيمًا له واعتناءً به.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: وآمنا بالذي أُنزِل على إبراهيم عليه السلام- وهو أبو الأنبياء- من الصحف، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٦ – ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨- ١٩].

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ أي: وآمنا بالذي أنزل على إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط.

وهؤلاء وإن لم تصل إلينا كتبهم فنؤمن بأن الله أنزل عليهم؛ لأن الله أخبرنا بذلك.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾: هو إسماعيل بن إبراهيم- عليهما السلام- وهو الابن الأول لإبراهيم، وهو الذي ابتلى الله إبراهيم بالأمر بذبحه فاستسلما معًا لأمر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ

ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات:١٠٢-١٠٧].

وهو أبو العرب وجد نبينا محمد ﷺ سيد الخلق وأفضل الرسل- عليهم السلام-.

فقدَّم ذِكر «إسماعيل» لسبقة زمنًا وفضلًا، فهو أكبر من «إسحاق» وهو أفضل منه؛ لأنه أب لأفضل الرسل وسيد الخلق محمد ﷺ.

﴿وَإِسْحَٰقَ﴾: هو إسحاق بن إبراهيم. الابن الثاني لإبراهيم- عليهما السلام- ومن فضله أن جل الأنبياء بعده من ذريته.

﴿وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾: هو يعقوب بن إسحاق- عليهما السلام- ويلقب «إسرائيل»، ومعناه «عبد الله»، وهو الذي ينسب إليه بنو إسرائيل.

﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾: جمع سِبط، وأصل السبط في اللغة ابن البنت، ولهذا يقال للحسن والحسين- رضي الله عنهما- سبطا رسول الله ﷺ.

قيل: المراد بـ «الأسباط» أحفاد إبراهيم أبناء ابنه يعقوب الاثنا عشر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف:٤].

وعلى هذا يكون أولاد يعقوب كلهم أنبياء. وقد قال تعالى عن يوسف- عليه السلام : ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ [غافر:٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١٤٠].

وقيل: المراد بـ «الأسباط» بطون بني إسرائيل الذين فيهم الأنبياء، فيكون التقدير: وما أنزل على أنبياء الأسباط، قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف:١٦٠].

وخص هؤلاء المذكورين؛ لأن أهل الكتاب يعترفون بنبوتهم وكتبهم.

﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ أي: وآمنا بالذي أوتيَ موسى وعيسى، أي: بالذي أنزل إليهما من الوحي والآيات الشرعية في التوراة والإنجيل، ومن الآيات الكونية التي

أُعطيها كل منهما.

ولعل السبب في التعبير بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ﴾ بدل، «وما أنزل» للإشارة إلى الآيات الكونية التي أعطاها الله كلا منهما، والتي بقي ذكرها إلى نزول القرآن؛ لأن موسى وعيسى -عليهما السلام- أُعطيا الكثير من الآيات الكونية؛ لأن موسى بعث في وقت قد انتشر فيه السحر، وعيسى قد بعث في وقت قد ظهر فيه الطب، فأعطي كل منهما من الآيات ما يناسب ما ظهر في عهده.

﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾: معطوف على «موسى وعيسى»، أي: وآمنا بما أوتي النبيون من ربهم من الآيات الشرعية والكونية،كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة:١٣٦]، أي: وآمنا بما أوتي جميع النبيين والرسل من الكتب والمعجزات، كما قال تعالى: ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران:١١٩].

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾: الجملة الحالية أي: حال كوننا لا نفرق بين أحد منهم في الإيمان، أي: لا نفرق بين أحد منهم والآخر، بأن نؤمن ببعض ونكفر ببعض، كما هو حال اليهود والنصارى، بل نؤمن بهم جميعًا على السواء، إيمانًا مجملًا- كما أخبر القرآن والسنة عنهم.

﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾: الجملة في محل نصب معطوفة على جملة الحال قبلها، أي: ونحن له، أي: لله وحده مستسلمون، منقادون ظاهرًا وباطنًا، بقلوبنا وألسنتنا وجوارحنا.

وقدَّم المتعلِّق (له) على المتعلَّق به وهو (مسلمون) للدلالة على الحصر، أي: مستسلمون له وحده دون سواه، وهنا انتهت المجادلة مع نصارى نجران.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾.

قوله: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ﴾ الواو: استئنافية، و«من»: شرطية، و«يبتغ»: فعل الشرط مجزوم بحذف حرف العلة الياء، أي: ومن يطلب ويريد ﴿غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا﴾ «غير»: مفعول ﴿يَبۡتَغِ﴾، و﴿دِينٗا﴾: تمييز أو مفعول ثانٍ لـ«يبتغ» أي: دينًا يدين لله تعالى به، ويعمل به،

ويجازى عليه، ويُدان به، كما قال تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون:٦]، أي: لكم دينكم الذي تدينون به، وعملكم الذي تعملون به، وليَ ديني الذي أدين به وأعمل به.

﴿ ٱلْإِسْلَٰمِ ﴾: معناه العام: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، وهذا يطلق على جميع الأديان، فكل من انقاد لما جاءت به رسل الله فهو مسلم.

ومعناه الخاص: ما جاء به محمد ﷺ من الدين والشرع -وهو المراد هنا- وهو ينتظم المعنى الأول، أي: ومن يبتغ غير الإسلام دينًا بعد مجيء الإسلام.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾: جواب الشرط «مَنْ»، والفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فلن يقبل منه ذلك الدين، كما قال ﷺ: **«من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»**[١]، أي: مردود غير صحيح، فلا يقبله الله تعالى منه، ولا يقره رسوله ﷺ ولا المؤمنون، ولا يُثاب عليه، ولهذا قال:

﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ الواو: عاطفة، أو حالية، وأصل الخسران ذهاب رأس المال، أي: وهو في الدار الآخرة من الخاسرين، الذين خسروا دينهم ودنياهم وأخراهم وخسروا أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وخسروا كل شيء، وحرموا من الثواب وأُركِسوا في العذاب.

خسروا دينهم لأنهم دانوا بغير الإسلام، وخسروا دنياهم لأنهم لم يعملوا فيها ما يقربهم إلى الله تعالى، وخسروا أنفسهم فضاعت أعمارهم وحياتهم سدى، وخسروا أموالهم فلم يقدموا منها ما ينفعهم في الآخرة، وخسروا أهليهم فحيل بينهم وبينهم في الآخرة؛ وتلك والله الخسارة الكبرى والمصيبة العظمى، قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر:١٥]، وقال تعالى:

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه: «سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟» فجاء قومه إلى رسول الله ﷺ، فقالو: إن فلانًا قد ندم، وإنه أمرنا أن نسألك هل له من توبة؟ فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾، فأرسل إليه، فأسلم»(١).

وذهب بعض المفسرين إلى أنها نزلت في أهل الكتاب، آمنوا برسلهم، ثم كفروا فعبدوا غير الله، وآمنوا بمحمد ﷺ، وشهدوا أنه حق قبل مبعثه وبعده، بما في كتبهم من البشارة به، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، وبما عندهم من المعرفة به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:٢٠]. ثم كفروا به حسدًا منهم وعنادًا.

---

(١) أخرجه النسائي في تحريم الدم- توبة المرتد (٤٠٦٨)، والطبري في «جامع البيان» (٥/ ٥٥٧، ٥٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٧٠٠)، وابن حبان (٤٤٧٧)، والحاكم (٢/ ١٤٢، ٤/ ٣٦٦)، وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

والآية أعم من هذا كله فتشمل كل من كفر بعد الإيمان، وبعد قيام الحجة عليه، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قوله: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ «كيف»: اسم استفهام ومعناه هنا: الاستبعاد، والمراد بالهداية في قوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ﴾: هداية التوفيق، أي: يبعد أن يوفق الله للهدى قومًا كفروا بعد إيمانهم من العرب وأهل الكتاب وغيرهم، أي: ارتدوا ورجعوا إلى الكفر بعد أن آمنوا، وكيف يستحق من هذه صفته أن يهديه الله، أو كيف يتوقع أن يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم.

ويُحتمل كون الاستفهام للإنكار والنفي، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩].

وذلك لأن من آمن وعرف الحق ثم ارتد عنه أعظم ذنبًا وكفرًا ممن لم يعرف الحق وبقي على كفره ولم يدخل في الإيمان.

فمن عرف الحق وتركه يُعاقب بالانتكاس وانقلاب القلب وزيغه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

والكفر بعد الإيمان وبعد معرفة الحق علامة على عدم تمكن الإيمان، فإن من ذاق حلاوة الإيمان يبعد أن يعود إلى الكفر، كما في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار**»(١).

﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾: الجملة في محل نصب عطفًا على جملة ﴿ كَفَرُوا۟ ﴾، أي: كيف يهديهم بعد اجتماع الأمرين الكفر والشهادة بصدق الرسول.

ويجوز أن تكون الجملة في محل نصب على الحال، أي: والحال أنهم قد شهدوا أن

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٦)، ومسلم في «الإيمان» (٤٣)، والنسائي في «الإيمان وشرائعه» (٤٩٨٧)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٤)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣٣)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الرسول ﷺ حق، والواو في شهدوا تعود لمن كفروا.

والمراد بـ«الرسول»: محمد ﷺ، و(ال) فيه للعهد الذهني؛ لأنه ﷺ معهود في الأذهان بعد بعثته ونزول القرآن عليه.

أي: شهدوا أن الرسول محمدًا ﷺ حق ثابت، صادق فيما أخبر به، عادل فيما حكم به، لاشك في رسالته.

﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ ﴾: معطوف على: ﴿وَشَهِدُوٓاْ ﴾، ولم يؤنث الفعل، فلم يقل: «وجاءتهم»؛ لأن التأنيث في ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتُ ﴾ غير حقيقي، وفصل بينه وبين الفعل بالمفعول «هم» ويجوز تأنيثه، كما في قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ ﴾ [البقرة:٢١٣].

أي: وجاءهم الآيات البينات في القرآن الكريم والكتب السابقة، واكتفى بذكر الصفة وهي «البينات» دون الموصوف وهي «الآيات»؛ لأن المهم في الآيات كونها بيِّنات مُبيَّنات مُبيِّنات للحق من الباطل، والهدى من الضلال.

والمعنى: وجاءهم الآيات البينات الواضحات، والحجج والبراهين القاطعات، على أن الرسول ﷺ حق، وما جاء به حق وصدق وعدل، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا ﴾ [الأنعام:١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام.

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾: الجملة استئنافية، وهي كالتعليل لما قبلها، فاستبعد هداية من كفروا بعد إيمانهم وشهادتهم أن الرسول حق، وبعد مجيء البينات إليهم؛ لأنهم ظالمون: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: والله لا يوفق القوم الظالمين.

و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾: جمع «ظالم»، والظلم: النقص، كما قال تعالى: ﴿ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾ [الكهف:٣٣]، وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان.

وهو إما تفريط في واجب، أو انتهاك لمحرم عمدًا، فهؤلاء ظلموا باختيارهم الكفر، ووضعه مكان الإيمان، بعد تبين الحق لهم، وظلموا أنفسهم، فنقصوها حقها، وعرَّضوها للعذاب ودسوها، كما قال تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس:٩-١٠].

وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»[١].

قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [الآيتان: ١٦١-١٦٢].

قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾: الإشارة للذين كفروا بعد إيمانهم، وشهادتهم أن الرسول حق، ومجيء البينات إليهم، وأشار إليهم بإشارة البعيد ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ تحقيرًا لهم.

﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾: مبتدأ ثانٍ، وهو وما بعده خبر للمبتدأ الأول ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أو بدل من ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾.

﴿ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ ﴾ أي: أن الله تعالى يلعنهم؛ لاستحقاقهم للعنته عز وجل، واللعنة من الله: طرده وإبعاده لهم عن رحمته وعن جنته، وإدخالهم في عذابه وناره، ومقته لهم.

﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ أي: وعليهم لعنة الملائكة.

﴿ وَٱلنَّاسِ ﴾ أي: وعليهم لعنة الناس، ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾: توكيد، أي: عليهم لعنة الملائكة أجمعين، ولعنة الناس أجمعين، مؤمنهم وكافرهم.

واللعنة من الملائكة ومن الناس: هي الدعاء بالطرد، والإبعاد عن رحمة الله وجنته، ومقتهم وبغضهم لهم.

قوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿ خَٰلِدِينَ ﴾: حال.

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥١٧)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٢٨٠)، من حديث أبي مالك الأشعري- رضي الله عنه- وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

﴿فِيهَا﴾ أي: في اللعنة، أي: ماكثين في هذة اللعنة مكثًا أبدًا، تلاحقهم وتستمر معهم؛ لأن عذاب الكفار أبدي سرمدي، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧].

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ كقوله في سورة النحل: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الآية:١٨٥].

وجملة: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ في محل نصب على الحال، و﴿الْعَذَابُ﴾: العقوبة، أي: لا يخفف عنهم العذاب بأن يهوِّن عليهم من شدته، أو بأن يقطع عنهم يومًا أو فترة، كما قال أهل النار لخزنتها: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩]، وكما قال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف:٧٥]، أي: لا ينقطع عنهم فترة، ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: يائسون من الخروج منه أو انقطاعه.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: معطوفة على جملة الحال قبلها، أي: ولاهم يمهلون ويؤخَّر عنهم العذاب، بل يُبادرون بالعذاب.

فيبادرون بالعذاب في الحياة الدنيا قبل الموت بالقتل على أيدي المؤمنين، والسبي، والاضطراب النفسي، والقلق، والشقاء الدنيوي، والمصائب التي سببها الكفر والبعد عن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١].

ويُبادرون بالعذاب عند الموت، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠].

ويُبادرون بالعذاب في البرزخ بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا

غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦].

ويُبادرون بالعذاب بعد البعث يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الزمر:٧١].

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾.

بعد ما ذكر عز وجل في الآيات السابقة استبعاد أن يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم، وشهادتهم أن الرسول حق، ومجيء البينات إليهم، وتوعدهم باللعنة والخلود فيها وفي العذاب، لم يؤيسهم، بل فتح لهم باب التوبة، فقال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهذا من لطفه ورأفته وواسع رحمته.

قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾ «إلا»: أداة استثناء، والاستثناء هنا متصل، المستثنى: ﴿ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾، والمستثنى منه قوله تعالى: ﴿قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾.

ومعنى ﴿تَابُوا۟ ﴾ أي: رجعوا إلى الله، وأنابوا إليه، فرجعوا من الكفر إلى الإيمان، وتابوا مما حصل منهم من الكفر بعد الإيمان، فأقلعوا عن الردة بالرجوع إلى الإسلام، وندموا على ذلك، وعزموا على عدم العودة إليه، وكان ذلك في وقت قبول التوبة قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

﴿ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾: الإشارة إلى ما سبق من كفرهم بعد إيمانهم، وأشار إليه بإشارة البعيد تحقيرًا له.

﴿وَأَصْلَحُوا۟ ﴾ أي: وأصلحوا حالهم وأعمالهم، وما حصل منهم من فساد وإفساد.

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي: فإن الله يتوب عليهم ويغفر لهم ويرحمهم؛ لأنه غفور رحيم، أي: ذو مغفرة واسعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم:٣٢].

وذو رحمة واسعة، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف:١٤٧].

قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٤٧].

والمغفرة ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة.

والرحمة قسمان: رحمة ذاتية، ورحمة فعلية يوصلها عز وجل من شاء من خلقه، رحمة عامة، وخاصة، وباجتماع المغفرة والرحمة زوال المرهوب وحصول المطلوب.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة استبعاد أن يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم وشهودهم أن الرسول ﷺ حق وجاءهم البينات، واستثنى من ذلك من تابوا وأصلحوا، ثم يبين في هذه الآية أن التوبة لا تقبل ممن كفروا بعد إيمانهم، واستمروا على الكفر وازداد منه؛ لشدة ضلالهم وبعدهم عن الهدى.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ أي: ارتدوا إلى الكفر بعد أن آمنوا وعرفوا الحق من أهل الكتاب وغيرهم.

﴿ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا ﴾ أي: أوغلوا في الكفر وانحدروا في دركاته، واستمروا عليه فازداد كفرهم كيفية ونوعية وكمية.

﴿ لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ أي: عند حضور الموت، بحضور علاماته، كما قال تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ [النساء:١٨]، وقال ﷺ: «**إن الله يقبل التوبة العبد ما لم يغرغر**»[(١)].

﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾: كما قال تعالى: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس:٣٢]، والإشارة «أولئك» لمن كفروا وبعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرًا.

وأكد ضلالهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: الذين بلغوا غاية الضلال؛ لأنهم تركوا الحق بعد معرفته، وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيرًا لهم.

عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن قومًا أسلموا ثم ارتدوا، ثم

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٣٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: «حديث حسن غريب».

أسلموا، ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآية السابقة عدم قبول توبة الذين كفروا بعد إيمانهم، ثم ازدادوا كفرًا، أي عند حضور الموت، ثم أتبع ذلك بذكر عدم قبول الفداء منهم بعد الموت.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾، جملة ﴿وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾: حال، أي: وماتوا حال كونهم كفارًا، أي: وماتوا على الكفر وعلى غير الإيمان.

﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا﴾: الجملة في محل رفع خبر «إنَّ»، أي: فلن يقبل منه لوكان أنفق ملء الأرض ذهبًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤].

قال ابن كثير[2]: «أي من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدًا، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبًا فيما يره قربة، كما سئل النبي ﷺ عن عبدالله بن جُدْعان، وكان يقري الضيف، ويفك العاني، ويطعم الطعام-: هل ينفعه ذلك؟ فقال: «**لا، إنه لم يقل يومًا من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»[3].

﴿وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾: معطوف على ماقبله فدلَّ على أنه غيره؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، أي: لو أنفق هذا المبلغ في الدنيا لم يُقبل منه، ولو افتدى به يوم القيامة من العذاب لم يُقبل منه، ولم ينقذه من عذاب الله عز وجل.

ويُحتمل كون الجملة حالية، أي: فلن يُقبل منه ولو في حال الافتداء به.

---

(١) أخرجه البزار فيما ذكر ابن كثير في تفسيره (٢/ ٩٥) وقال ابن كثير: «هكذا رواه وإسناده جيد».

(٢) «تفسيره» (٢/ ٩٥).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢١٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

والمعنى: ولو جعل هذا المال فدية له من عذاب الله لم يقبل منه.

و«الفدية»: مال أو عرض يدفع مقابل الخلاص. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:٣٦].

وعن أنس ابن مالك- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو أن لك ما في الأرض من شيء، أكنت مفتديًا به؟**» قال: «**فيقول: نعم**» قال: «**فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئًا، فأبيت إلا أن تُشرِك**»(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: والإشارة للذين كفروا وماتوا وهم كفار، وفي الإشارة بإشارة البعيد تحقير لهم، و«العذاب»: العقوبة.

﴿أَلِيمٌ﴾: على وزن «فعيل» بمعنى: «مفعل» أي: مؤلم موجِع حسيًّا للأبدان ومعنويًّا للقلوب.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، و«من»: زائدة إعرابًا، مؤكدة لاستغراق النفي من حيث المعنى، و«ناصرين» جمع (ناصر) وهو الذي يدفع ويمنع الضر عن غيره.

والمعنى: وما لهم من أيّ ناصر ينصرهم فيدفع عنهم عذاب الله ويمنعه قبل وقوعه، أو يرفعه بعد وقوعه.

قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾.

بيَّن عز وجل في الآية السابقة أن مَن مات على الكفر فلن يقبل منه ملء الأرض ذهبًا ولو افتدى به، ثم بيَّن في هذه الآية ما ينال به البر وهو الإنفاق ابتغاء مرضاة الله مما يحبون.

قوله: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ «لن»: حرف نفي ونصب للفعل المضارع، وتنقله من الحال

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٤)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٠٥)، وأحمد (٣/ ٢٠٨).

إلى الاستقبال، والمعنى: لن تدركوا البر وتحصلوا عليه، وتكونوا أبرارًا.

و«البر»: كلمة جامعة لكل خصال الخير الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ...﴾ [البقرة:١٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة:١٨٩].

وقال ﷺ: «**البر حُسن الخُلق**»[١]، «**البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب**»[٢].

وهو ضد الإثم؛ ولهذا قال ﷺ: «**والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس**»[١]، «**والإثم ما لم تسكن إليه النفس، ولم يطمئن إليه القلب**»[٢].

﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ «حتى» للغاية، أي: إلى غاية أن تنفقوا مما تحبون، وفي هذا دلالة على تعدد خصال البر وأنه درجات، من أعلاها الإنفاق ابتغاء مرضاة الله تعالى مما يحبون.

و«من» في قوله: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ تبعيضية، و«ما» موصولة، أي: بعض الذي تحبون من المال، كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠].

أي: حتى تنفقوا بعض المال الذي تحبونه، ومن أحبه إليكم وأفضله عندكم؛ لما في ذلك من كرم النفس والبعد عن البخل والشح، ومن إيثار محبة الله تعالى ومرضاته على محبة المال والنفس.

وقيل: إن «من» لبيان الجنس.

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالًا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والأدب (٣٥٥٣)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٩)، من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٤)، من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

الله، إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله- عز وجل- أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: «**بخ بخٍ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**» قال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسَّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أصاب أرضًا بخيبر، فأتى النبي ﷺ يستأمره فيها، فقال: يا رسول الله، إني أصبت أرضًا بخيبر لم أُصب مالًا قط أنفس عندي منه، فما تأمرني به؟ قال: «**إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها**»[٢]، وفي رواية قال: «**فاحبس أصلها وسبل الثمرة**»[٣].

وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به، يتأول قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٤].

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: اسم شرط، و﴿تُنفِقُواْ﴾: فعل الشرط، و﴿مِن﴾: بيانية مبينة للعموم في «ما»، ﴿شَيْءٍ﴾: نكرة في سياق الشرط وتفيد العموم أيضًا.

أي: وما تنفقوا من شيء، أيِّ شيءكان، قليلًا كان أو كثيرًا، مما تحبون أو مما لا تحبون، طيبًا أو غير طيب.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾: جواب الشرط، والفاء: رابطة في جواب الشرط، أي: فإن

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦١)، ومسلم في الزكاة- فضل الصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين (٩٩٨)، وأحمد (٣/ ١٤١).

(٢) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٣٧)، ومسلم في الوصية (١٦٣٣)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٧٨)، والترمذي في الأحكام (١٣٧٥)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٩٦).

(٣) أخرجها النسائي في الأحباس (٣٦٠٤)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٩٧).

(٤) أخرج أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٩٥) أن ابن عمر أعتق جارية له يقال لها رميثة. وقال: «إني سمعت الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإني والله إن كنت لأحبك في الدنيا، اذهبي فأنت حرة لوجه الله عز وجل».

الله ذو علم تام به سيحصيه لكم، ويحاسبكم ويجازيكم عليه بالخلف العاجل في الدنيا والنعيم الآجل في الآخرة، ولن يضيع عنده، كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

والحصر في تقديم المتعلق «به» لتأكيد علمه- عز وجل- بكل ما ينفقون.

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ مُبلِّغ عن الله- عز وجل- لا ينطق عن الهوى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ الآية.

٢- وجوب الإيمان بالله، والتصديق والإقرار بوجوده وبربوبيته والوهيته وأسمائه وصفاته؛ قولًا باللسان، واعتقادًا بالجنان؛ لقوله تعالى: ﴿﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾، وهذا خطاب للنبي ﷺ ولأمته.

٣- أن الإيمان بالله هو أصل وأساس الإيمان وأعظم أركانه، ولهذا قُدِّم في الآية؛ لقوله تعالى: ﴿﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ الآية.

٤- وجوب الإيمان والتصديق بالقرآن والسنة، وامتثال ما فيهما من الأمر، واجتناب ما فيهما من النهي؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ الآية.

٥- ثبوت نبوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ووجوب الإيمان بما أنزل عليهم على وجه الإجمال؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أي: وما أنزل عليهم من الوحي، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [النساء:١٦٣].

وكل من أُوحيَ إليه فهو نبي.

٦- في تقديم «إسماعيل» على «إسحاق» في الذكر دلالة على أن إسماعيل أكبر، وإشارة إلى فضله.

٧- وجوب الإيمان بما أنزل على الأسباط؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ وهم أولاد يعقوب، فهم أنبياء، وقيل المراد بالأسباط بطون بني إسرائيل، فيكون التقدير: وما

أنزل على أنبياء الأسباط.

٨- ثبوت نبوة موسى وعيسى عليهما السلام، ووجوب الإيمان بما أوتيَ كل منهما من الآيات الشرعية في التوراة والإنجيل والآيات الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾.

٩- في التعبير بالإيتاء في قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ بدل الإنزال، وإعادة العامل تنبيه وتعظيم لما أُوتيَ موسى وعيسى عليهما السلام من الآيات الكونية والشرعية.

١٠- وجوب الإيمان بما أُوتيَ جميع النبيين من ربهم من الوحي؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: وما أُوتيَ النبيون من ربهم من الآيات الكونية، ومن الكتب والآيات الشرعية، وما فيها من الأخبار وأصول الإيمان والشرائع إيمانًا مجملًا.

أما من حيث الاتباع والعمل فالواجب بعد بعثة محمد ﷺ على جميع الناس اتباع شريعته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

وما جاء من الأحكام في شرع من قبلنا، فإن وافقه شرعنا وجب العمل به لمجيئه في شرعنا، وما خالفه شرعنا فلا يُعمل به؛ وهذا بالاتفاق.

أما ما لم يأت في شرعنا مخالفةً له ولا موافقة، فقد اختلف فيه أهل العلم، فمنهم من قال: لا يُعمل به وفي شرعنا غنية عنه، ومنهم من قال: يُعمل به، لقوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]، والصحيح أن ما حكاه شرعنا على سبيل الاقرار له يعمل به، وما عداه فلا يعمل به.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة، بل خاصة الخاصة للنبيين؛ لقوله تعالى: ﴿مِن

رَبِّهِمْ ﴾، وتشريفهم وتكريمهم بإضافة اسم الرب إلى ضميرهم.

١٢- وجوب الإيمان بجميع الرسل دون تفريق بين أحدٍ منهم والآخر؛ لقوله تعالى: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾.

وفي هذا تعريض بذم أهل الكتاب الذين يكذِّبون رسالة محمد ﷺ؛ لأن الإيمان بالرسل أمر لا يتجزأ، فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ أو بغيره من الرسل فليس بمؤمن، وإن آمن بموسى وعيسى، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

١٣- وجوب الاستسلام والانقياد لله وحده باطنًا وظاهرًا، بالقلب واللسان والجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾.

١٤- أن كل من دان بغير دين الإسلام فلن يقبل منه، ودينه باطل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾.

١٥- نسخ الإسلام لجميع الأديان السابقة.

١٦- فضل الدين الإسلامي على جميع الأديان، فهو الحاكم والمهيمن عليها، الناسخ لها، الذي لا يقبل الله بعد بعثة محمد من أحدٍ سواه.

١٧- خسارة من دان بغير الإسلام؛ لقولة تعالى ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم وأهليهم وأموالهم، خسروا دينهم ودنياهم وأخراهم.

١٨- إثبات الدار الآخرة، لقولة تعالى ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾.

١٩- أن من ارتد وكفر بعد الإيمان يُستبعد أن يُهدى؛ لأنه ضل على بصيرة؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾.

وهذا بخلاف الكافر الأصلي، فهو أقرب للهداية، كما قال تعالى: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن

﴿يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة:٧].

٢٠- أن من ارتد بعد الإيمان أعظم ذنبًا، وأشد كفرًا ممن كان باقٍ على كفره؛ ولهذا لا يُجبر الكافر الأصلي في الدنيا على ترك الكفر، كما قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦] بخلاف الكافر المرتد فإنه يجبر على ترك الكفر والرجوع للإسلام وإلا قتل، قال ﷺ: «**من بدَّل دينه فاقتلوه**»(١).

٢١- أن هداية التوفيق والقبول خاصة بالله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ﴾ الآية.

٢٢- أن الرسول ﷺ حق؛ لقولة تعالى: ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾.

٢٣- إقامة الحجة على الخلق على وجوب الإيمان وترك الكفر بالآيات البينات الشرعية والكونية، بما لا عذر معه لمن أقام على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾.

٢٤- أن الظلم سبب للضلالة والحيلولة دون الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠].

٢٥- إثبات الجزاء، وشدة وعيد المرتدين وعِظم عقابهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

٢٦- التحذير من الردة إلى الكفر بعد الإيمان؛ لأن الله رتَّب على ذلك لعنته، وهي طرده وإبعاده من رحمته لمن كفر بعد الإيمان، ودعاء الملائكة والناس جميعًا عليه بذلك.

٢٧- جواز لعن الكافر غير المعيَّن؛ لأن الله تعالى لعن الكافرين وأخبر بلعن الملائكة والناس أجمعين لهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير- لا يعذب بعذاب الله (٣٠١٧)، وأبو داود في الحدود (٤٣٥١)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠٥٩)، والترمذي في الحدود (١٤٥٨)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٢٨- إثبات الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

٢٩- خلود المرتدين إلى الكفر بعد الإيمان في لعنة الله تعالى، والطرد والإبعاد عن رحمته وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وليس ثمة لمن طُرِد عن الرحمة والجنة إلا العذاب والنار، كما قال الشاعر:

الموت باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعري بعد الموت ما الدار

الدار جنة عدن إن عملت بما ... يرضي الإله وإن فرطت فالنار

هما محلان ما للناس غيرهما ... فاختر لنفسك ماذا أنت تختار[1]

٣٠- عدم تخفيف العذاب عن هؤلاء الكفرة المرتدين؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ لا بتهوينه عليهم، ولا بانقطاعه عنهم ولو لحظة.

٣١- مبادرة هؤلاء الكفرة بالعذاب، وعدم إنظارهم في الحياة، وعند الموت، وبعد الموت، وبعد البعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

٣٢- أن التوبة تَجُبُّ ما قبلها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٣٣- أن هداية من ارتد بعد الإيمان وإن كانت مستبعدة؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ الآية، فإنها ليست ممتنعة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ الآية.

٣٤- أن رحمة الله تعالى تسبق غضبه، وعفوه أوسع من عقوبته، حيث فتح باب التوبة لمن ارتدوا بعد الإيمان، بل ورغَّبهُم في ذلك، فلا يأس من رحمته.

٣٥- الترغيب في التوبة، وأنه ينبغي لمن تاب أن يصلح حاله، وأن يصلح ما أفسده؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾.

٣٦- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) الأبيات لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص١٤١).

٣٧- عدم قبول توبة من ارتدوا إلى الكفر بعد إيمانهم، وازدادوا كفرًا، واستمروا على الكفر حتى حضور الموت؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾.

٣٨- أن من استمر على الكفر ولم يَتُب فإنه يزداد كفرًا يومًا بعد يوم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ فهذا يتضمن زيادة كفرهم كيفية ونوعية وكمية بسبب الاستمرار على الكفر.

٣٩- أن من كفروا بعد الإيمان وازدادوا كفرًا فقد ضلوا غاية الضلال؛ لأنهم تركوا طريق الهدى والحق والإيمان بعد ما عرفوه واختاروا طريق الضلال والباطل والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾.

٤٠- أن من كفر ومات على الكفر لا يقبل منه ملء الأرض ذهبًا ولو افتدى به من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾.

٤١- شدة عذاب الكفار الذين ماتوا على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، أي: مؤلم موجِع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

٤٢- أنه لا ناصر لمن مات على الكفر، يدفع ويمنع عنه عذاب الله قبل وقوعه، أو يرفعه عنه بعد وقوعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

٤٣- أن البر لا يُنال إلا بالإنفاق من المال المحبوب، ومن أحبه وأفضله؛ لقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

وقد قال النبي ﷺ لأصحابه ذات يوم: «**أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟**» قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا وماله أحب إليه من مال وراثه، قال: «**فإن ماله ما قدَّم ومال وارثه ما أخَّر**»(١).

وذلك لأن خصال البر درجات، ومن أعلاها الإنفاق في مرضاة الله تعالى، لما فيه

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٢)، والنسائي في الوصايا (٣٦٢٦)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

من الدلالة على كرم النفس، والسلامة من البخل والشُّح، ولما فيه من إيثار مرضاة الله تعالى على حب المال والنفس.

والمال كما يقال: «شريك الروح»، فمن أنفق منه بسخاء وَوُقِيَ شُح نفسه، فإنه أقدر على القيام بما عداه من خصال البر، ولهذا رتَّب عز وجل عليه الفلاح، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩، التغابن:١٦].

٤٤- الترغيب في الإنفاق مما يحب من المال؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة:١٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان:٨].

وقد اختلف أهل العلم: هل يجوز أن ينفق الإنسان جميع ماله؟ فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه لا يجوز، واعتبروا «من» في الآية تبعيضية- وهو الأظهر-، واستدلوا بأن النبي ﷺ قال لسعد رضي الله عنه: «**الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»(١).

ولما قال كعب بن مالك رضي الله عنه: يا رسول الله، إن من توبتي أن أخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ، قال: «**امسك عليك بعض مالك، فهو خير لك**»، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر»(٢).

وذهب بعض أهل العلم إلى جواز التصدق بجميع المال، واعتبروا «من» في الآية للجنس، فيشمل الصدقة بجميع المال، واستدلوا بما جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ حث على الصدقة ذات يوم، فجاء عمر- رضي الله عنه- بنصف ماله، وجاء أبو بكر- رضي الله عنه- بجميع ماله حيث قال له

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز- رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة (١٢٩٦)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٦٤)، والنسائي (٣٦٢٦)، والترمذي في الوصايا (٢١١٦)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٥٨)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٣١٧)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٦٢٤)، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٠٢)، من حديث كعب رضي الله عنه.

الرسول ﷺ: «**ماذا لأهلك**»، قال: لهم الله ورسوله[1].

فأثنى ﷺ عليهما، ودعا لكل منهما.

والأظهر أن الأمر يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، فمتى دعت الضرورة والحاجة إلى إنفاق جميع المال جاز ذلك، كما في الكوارث والنكبات والمجاعات الشديدة.

وكذا إذا كان الإنسان لديه قوة في التوكل على الله تعالى، وقدرة على العمل بالبحث عما يستغني به عن السؤال.

أما إذا كان سيبقى عالة على الآخرين، ويعرض نفسه لمذلة السؤال، ويُقصِّر في النفقة الواجبة لنفسه ومن يعول؛ فهذا لا يجوز له التصدُّق بجميع ماله، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩].

٤٥- أن حب المال أمر جبلي طُبِعَ عليه الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ لكن ينبغي الحذر من تقديم محبته على محبة الله ورسوله، وما يقرب إلى الله تعالى.

٤٦- علم الله- عز وجل- بكل ما ينفق من شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾.

٤٧- وعد الله- عز وجل- بإثابة المنفقين ومجازاتهم على القليل والكثير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ أي: يعلمه وسيحاسبكم ويجازيكم عليه.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦٧٥).

قال الله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

في هذه الآية وما بعدها ما يقوي دخول أهل الكتاب في قوله تعالى فيما سبق: ﴿ كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ﴾ [الآية: ٨٦].

وفيها رد على اليهود في إبطالهم النسخ وإنكارهم نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام بدعوى أنه لا يمكن أن يأتي نبي يخالف النبي الذي قبله، والشرائع لا تتبدل لأنها من عند الله.

قوله: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ «كل» للتنصيص على العموم، و«الطعام» كل ما يطعم ويؤكل، وقد يطلق على ما يشرب.

﴿حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ أي: حلالًا لبني إسرائيل، سواء كان نباتًا أو حيوانًا أو غير ذلك.

و﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، ومعنى ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ عبدالله، وبنوه هم الأسباط الاثنا عشر وما تناسل منهم.

﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة الاستثناء، والاستثناء هنا متصل، و﴿مَا﴾: موصولة، أي: إلا الذي حرم إسرائيل على نفسه.

قيل: كان حرّم على نفسه عِرق النَّسَا الذي على الفخذ، وقيل: حرّم لحوم الإبل وألبانها، وقيل غير ذلك.

قيل: كان ذلك بوحي من الله تعالى. وقيل: كان اجتهادًا من يعقوب نذر تحريم ذلك على نفسه تقربًا إلى الله تعالى، وقيل: نهاه الأطباء عن ذلك، وتبعه بنوه

في تحريم ذلك.

﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتخفيف الزاي مع سكون النون: «تُنْزَل»، وقرأ الباقون بتشديد الزاي وفتح النون: ﴿تُنَزَّلَ﴾.

أي: من قبل نزول التوراة على موسى- عليه السلام- وبين يعقوب وموسى مدد طويلة- ثم بعد نزول التوراة جاء فيها تحريم أشياء كثيرة مما كان حلالًا قبل نزولها- وهم يعلمون ذلك- وهذا هو النسخ بعينه، فلا ضير أن يأتي في شريعة عيسى وفي شريعة محمد عليهما الصلاة والسلام ما ينسخ بعض ما جاء في التوراة، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ الأمر في قوله: ﴿قُلْ﴾ للنبي ﷺ، والخطاب في: ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ لليهود وفيه تحدٍّ لهم، أي: فهاتوا التوراة فاقرؤوها أنتم بأنفسكم، لتعلموا صدق ما أخبر به القرآن من أن كل الطعام كان حلاًّ لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه، ثم حُرِّم في التوراة أشياء كثيرة. وهذا هو النسخ وبهذا تعلموا صحة ما جئتُ به من الشرع الناسخ للتوراة وغيرها.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿إِن﴾: شرطية، و﴿كُنتُمْ﴾: فعل الشرط، وجوابه محذوف يدل عليه ما سبق، أي: إن كنتم صادقين فأتوا بالتوراة فاتلوها.

أي: إن كنتم صادقين في دعواكم إبطال النسخ في الشرائع، وأن ما كان محرمًا في التوراة كان محرمًا قبل نزول التوراة.

قال ابن القيم[1]: «هل تجدون فيها أن إسرائيل حرم على نفسه ما حرمته التوراة عليكم؟ أم تجدون فيها تحريم ما خصه بالتحريم وهي لحوم الإبل وألبانها خاصة، وإذا كان إنما حرم هذا وحده، وكان ما سواه حلالًا له ولبنيه، وقد حرمت التوراة كثيرًا منه ظهر كذبكم وافتراؤكم في إنكار نسخ الشرائع والحجر

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠١-٥٠٢).

على الله تعالى في نسخها».

ومع تحديهم بهذا فإنهم لم يجرؤوا على الإتيان بالتوراة، بل بهتوا وانقلبوا صاغرين.

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

قوله: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية تفيد العموم، و«افترى»: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

والافتراء: الاختلاق والتقول بغير حق، أي: أن ينسب للشخص ما لم يقله.

و«الكذب»: الإخبار بخلاف الواقع، ضد الصدق، فإن كان مخالفًا للواقع والاعتقاد المخبِر فهو أشد ذنبًا وإثمًا.

والمعنى: فمن اختلق وتقول على الله الكذب، بأن قال على الله ما ليس بحق، من أهل الكتاب أو غيرهم، فادعى أن ما حرم في التوراة كان محرمًا قبل ذلك، وأنكر نبوة عيسى عليه السلام، ونسخ ما جاء به لبعض ما جاء في التوراة، وأنكر نسخ شريعة محمد ﷺ لشريعة موسى عليه السلام، ولجميع الشرائع قبلها، أو نفى أن يكون محمد ﷺ على ملة إبراهيم وشريعته.

﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد ذلك البيان، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له، أي من بعد بيانه- عز وجل- أن كل الطعام كان حلالًا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه حتى نزلت التوراة فحرم فيها أشياء كثيرة مما كان قبل ذلك حلالًا مما يدل على وقوع النسخ في الشرائع.

﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ جواب الشرط، وربط بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، وقد أكد وحصر وصف الظلم فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

أي: فأولئك المفترون هم الذين بلغوا الغاية في الظلم بوضع الافتراء والكذب مكان الصدق. وردهم الحق الذي يعلمونه بدل قبوله، ونقص أنفسهم حقها بهذا المسلك.

وجمعهم باعتبار معنى «من» وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله: ﴿ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ ﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد لأهل الكتاب وغيرهم: صدق الله تعالى فيما أخبر به أن كل الطعام كان حلًا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة، وفي كل ما أخبر به، وفي كل ما قاله أو شرعه، فلا أحد أصدق من الله قيلًا ولا أحد أصدق من الله حديثًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام.

﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ الفاء: عاطفة؛ لربط السبب بالمسبب، و«اتبعوا»: معطوفة على صدق، فهي من جملة مقول القول، أي: وقل فاتبعوا ملة إبراهيم، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

و«الملة» هي: الدين والشريعة، و«ملة إبراهيم»: ما كان عليه من إخلاص التوحيد والبراءة من الشرك، كما قال تعالى عنه: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨]، وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وهي الحنيفية السمحة التي بعث بها نبينا محمد، ولهذا قال: ﴿حَنِيفٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ هذا بيان لملة إبراهيم.

﴿ حَنِيفٗا ﴾: حال، و«الحنف» الميل، أي: مائلًا عن الشرك والأديان الباطلة إلى التوحيد ودين الحق، مستقيمًا على شرع الله تعالى.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ الجملة في محل نصب معطوفة على الحال «حنيفًا».

أي: وما كان من المشركين بالله الذين يعبدون الأصنام، ويدخلون الشرك في عباداتهم.

وفي هذا تأكيد لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أي: بل كان موحدًا مخلصًا لله تعالى، ولهذا يسمى «إمام الحنفاء».

والشرك: دعوة وعبادة غير الله، وتسويته بالله فيما هو من خصائص الله، كما قال المشركون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

الفوائد والأحكام:

١- إباحة كل الأطعمة لبني إسرائيل من الحيوان وغيره، قبل نزول التوراة، إلا ما حرمه إسرائيل على نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ﴾.

٢- أن لله تعالى أن يحل ما يشاء ويحرم ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الآية.

٣- توسيع الله تعالى على بني إسرائيل قبل بغيهم، بإحلال كل الطعام لهم، وكانوا على شريعة إبراهيم عليه السلام، فلم يكن محرمًا عليهم سوى ما حرمه إسرائيل على نفسه.

٤- أن ما حرمه إسرائيل على نفسه حرمه بنوه وأحفاده من بعده حتى نزول التوراة.

٥- إثبات نزول التوراة من عند الله، وإثبات علوه- عز وجل- على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ﴾.

٦- تبكيت اليهود والإشارة إلى أنهم سبب ما جاء من تحريم كثير من الأشياء عليهم في التوراة، وذلك بسبب بغيهم كما ذكر الله تعالى.

٧- إفحام اليهود وإقامة الحجة عليهم من كتابهم التوراة على جواز النسخ عقلًا وحصوله شرعًا حيث نسخت التوراة بعض الأحكام قبلها من إحلال كل الطعام لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه، فحرمت عليهم أشياء كثيرة بسبب بغيهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

قال ابن القيم(١): ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملته، وأن الذي كان لهم حلالًا إنما هو بإحلال الله تعالى لهم على لسان إسرائيل والأنبياء بعده إلى حين نزول التوراة، ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المآكل عليهم التي كانت حلًا لبني إسرائيل وهذا محض النسخ».

وقال ابن كثير(٢): «شرع في الرد على اليهود- قبحهم الله- وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله- عز وجل- قد نص في كتابه التوراة أن نوحًا عليه السلام لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحمان الإبل وألبانها، فاتبعه بنوه في ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخر، زيادة على ذلك، وكان الله- عز وجل- قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه، وقد حرم ذلك بعد ذلك، وكان التسري على الزوجة مباحًا في شريعة إبراهيم، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة، وقد حرم مثل هذا في التوراة عليهم. وكذلك كان الجمع بين الأختين شائعًا، وقد فعله يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين، ثم حرم ذلك عليهم في التوراة.

وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم، فهذا هو النسخ بعينه، فكذلك ما شرعه الله للمسيح عليه السلام في إحلاله بعض ما حرم في التوراة، فما بالهم لم يتبعوه؟ بل كذبوه وخالفوه، وكذلك ما بعث الله به محمدًا ﷺ من الدين القويم وملة إبراهيم، فما لهم لا يؤمنون؟».

٨- الرد على اليهود في إنكارهم نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، بناء على إنكارهم النسخ، بدعوى أنه لا يمكن أن يأتي نبي بخلاف ما جاء به الذي قبله.

٩- أن اليهود ليسوا على ملة إبراهيم؛ لأن ملة إبراهيم لم يحرم فيها شيء من الأطعمة، بينما حرم على اليهود أشياء كثيرة في التوراة.

١٠- بلوغ الذين يفترون على الله الكذب ويردون الحق وينكرونه غاية الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فأكد الظلم

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠١).
(٢) في «تفسيره» (٢/ ٦٢-٦٣).

وحصره فيهم لبلوغهم من الظلم غايته.

١١- جرأة المكذبين من أهل الكتاب وغيرهم على افتراء الكذب على الله تعالى، ومن اجترأ على الكذب على الله فجرأته على الكذب على الرسول ﷺ وعلى سائر الناس من باب أولى.

١٢- أن الحجة لا تقوم على العباد إلا بعد البيان والعلم؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾.

١٣- وجوب تصديق الله، وإظهار القول بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ ﴾ فأقواله- عز وجل- وأخباره صدق، وأحكامه عدل وحق، وفي هذا أيضًا: تعريض بكذب أهل الكتاب.

١٤- وجوب اتباع ملة إبراهيم عليه السلام، وإخلاص التوحيد لله تعالى والبراءة من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

أي: اتبعوا ملة إبراهيم في إخلاص التوحيد والبراءة من الشرك وأهله وعلى هذا الأصل اتفقت جميع الشرائع؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

أما من حيث فروع الشرائع فقد جعل الله لكل نبي شرعة ومنهاجًا؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة:٤٨].

١٥- فضيلة إبراهيم عليه السلام؛ لأن الله- عز وجل- أمرنا باتباعه وأثنى عليه، وجعله إمامًا وقدوة في إخلاص التوحيد لله تعالى والبراءة من الشرك وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠-١٢٣].

١٦- فضل التوحيد، وأنه سبب النجاة، وخطر الشرك؛ لأنه سبب الهلاك، مما يوجب على العبد صيانة جناب التوحيد، والحذر من الشرك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾.

قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ أي: إن أسبق وأقدم بيت. والبيت في الأصل: بناء، يُؤوى إليه للسكن، أو للصلاة، أو غير ذلك. يكون من حجر، أو شجر، أو نسيج شعر أو صوف، أو من أدم، أو غير ذلك.

قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦]، يعني المساجد، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٨٠].

و«البيت» بالتعريف: علم على بيت الله الحرام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧].

كما أن «الكتاب» علم على كتاب الله القرآن الكريم.

﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي: وضع وأسس في الأرض للناس لعبادة الله- عز وجل- باستقباله في الصلاة والدعاء وغير ذلك، وللطواف والصلاة والاعتكاف، وغيرها من أنواع العبادة والنسك.

﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ أي: لهو الذي ببكة، و«بكة» اسم من أسماء مكة، والبك: دق العنق، والتزاحم، وغير ذلك.

وسميت مكة بهذا الاسم، قيل: لأنها تبك أعناق الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم، أي: تذلها وتدقها. وقيل: لأن الناس يتباكُّون فيها أي: يتزاحمون. وقيل: لأنه لا يوصل إليها إلا بمشقة وتعب، وقيل غير ذلك.

ويقال لها: «مكة»، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤]، ويقال لها: «أم القرى»، كما قال تعالى: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾

[الأنعام: ٩٢]، ويقال لها: «البلد الأمين»، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: ٣]، ويقال لها: «البلد الحرام»[1].

والمراد بقوله: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ الكعبة. زادها الله شرفًا وتعظيمًا، ويقال له: «البيت الحرام»، «البيت المحرم»، «البيت العتيق»، «المسجد الحرام»، قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، وقال إبراهيم فيما حكى الله عنه: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠].

وهو البيت الذي بناه إبراهيم الخليل- عليه السلام- كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝٢٦﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ [البقرة: ١٢٧].

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: «قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة. قلت: ثم أي؟ قال: ثم حيث أدركت الصلاة فصل، فكلها مسجد»[2].

﴿مُبَارَكًا﴾ حال من «بيت» أي: وضع للناس حال كونه مباركًا فيه، والبركة: كثرة الخير ودوامه، أي فيه البركة والخير الكثير الدائم، والمنافع العظيمة، التي لا تحصى شرعية وقدرية، حسية ومعنوية، دينية ودنيوية.

فهو أول بيت وضع للناس لعبادة الله مباركًا، وهو قبلة المسلمين منذ عهد إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- ومقصد الحجاج والمعتمرين، تضاعف فيه الحسنات،

---

(١) كما في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- وغيره وسيأتي ذكره قريبًا.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٦٦)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٠)، والنسائي في المساجد (٦٩٠)، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٥٣)، وأحمد (٥/ ١٥٠).

الصلاة فيه عن مائة ألف صلاة فيما سواه، كما جاء في الحديث[١]، وكذا سائر العبادات فيه أفضل منها في غيره.

من حجه ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه[٢]، وليس له جزاء إلا الجنة، ومن زاره كفرت ذنوبه[٣].

وأعظم هذه البركات بعثة محمد ﷺ فيه، الذي بعثه الله- عز وجل- رحمة للعالمين، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور.

ومن البركات الدنيوية: أمن من دخله، وجلب الأرزاق وجباية الثمرات إليه من كل حدب وصوب، بسبب دعاء إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

ومن البركات الدنيوية: ما يحصل فيه من المكاسب في أيام المواسم وغيرها وخاصة في موسم الحج، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

ومن بركاته أيضًا ماء زمزم الذي قال فيه ﷺ: «**ماء زمزم لما شرب له**»[٤].

وقال فيه أيضًا: «**طعام طعم**»[٥].

---

(١) كما في حديث جابر- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه» أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٤٠٦).

(٢) كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أخرجه البخاري في الحج (١٥٢١)، ومسلم في الحج (١٣٥٠)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٧)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٩)، وأخرجه الترمذي في الحج، بنحوه (٨١١).

(٣) كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أخرجه البخاري في الحج (١٧٧٣)، ومسلم في الحج (١٣٤٩)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٢)، والترمذي في الحج (٩٣٣)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٨).

(٤) أخرجه ابن ماجه في المناسك (٣٠٦٢)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٣)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

إلى غير ذلك من البركات والمنافع الدينية، والدنيوية، كما قال تعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ [الحج: ٢٨].

﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ معطوف على الحال السابقة، أي: حال كونه مباركًا وهدى للعالمين، أي: علامة ومنارًا يهتدي به الناس، وقبلة للتوجه إلى ربهم في الصلاة والدعاء، وعند القراءة والنوم، ويُوجهون إليها بعد مماتهم، كما قال ﷺ: «**البيت الحرام قبلتكم أحياءً وأمواتًا**»(١).

وفيه أداء مناسك حجهم وعمرتهم، وفيه الطواف والصلاة، والاعتكاف والتعبد لله- عز وجل- بأنواع العبادات، تهوي إليه أفئدة الناس، ويأتون إليه من كل فج عميق، ويجتمعون فيه، ويُعلم ويُرشد بعضهم بعضًا، وبذلك كله يزدادون هدى وإيمانًا.

قال ابن القيم(٢) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: «ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة، حتى كأنه هو نفس الهدى».

و(العالمين) في الأصل جمع «عالَـم» وهم كل ما سوى الله، أي: كل ما خلق الله فهو «عالم» فعالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الملائكة، وعالم الحيوانات، وعالم الجمادات، وغير ذلك.

وسمي الخلق بـ«العالمين» أخذًا من العلامة لأنهم عَلَمٌ على خالقهم، وكل منهم آية تدل على وجوده- عز وجل- وعظمته وربوبيته وألوهيته ووحدانيته، كما قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: ٣٧-٣٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ

---

(١) أخرجه أبوداود في الوصايا- التشديد في أكل مال اليتيم (٢٨٧٥)، من حديث عبيد بن عمير- عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٦).

لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

وقد أحسن القائل:

فواعجبًا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد[1]

والمراد بـ(العالمين) في قوله: ﴿وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ البشر؛ بنو آدم، وهم المكلفون، الذين ميزهم الله بالعقول التي هي مناط التكليف وكرمهم، كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله: ﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ﴾ الضمير يعود إلى البيت في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾.

أي: فيه علامات واضحات، ودلالات ظاهرات، من عهد إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- إلى يومنا هذا- تدل على شرف البيت وعظمته- آيات شرعية، وهي الشعائر والمناسك التي تقام فيه كالحج والعمرة والهدي، وتأمين من دخله وغير ذلك، وآيات كونية، وهي المشاعر التي تقام فيها تلك الشعائر والمناسك؛ الكعبة ومقام إبراهيم، والصفا والمروة، وعرفة، ومزدلفة، ومنى، وغير ذلك.

قال ابن القيم[2]: «ما تضمنه من الآيات البينات، التي تزيد على أربعين آية».

﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾: بدل من (آيات)، أو عطف بيان، أي: من هذه الآيات البينات ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: مكان قيامه. واختلف المفسرون في المراد به، فذهب بعضهم إلى أن المراد بـ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم، ويناوله ولده إسماعيل

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص١٠٤).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٦).

الحجارة بعد أن ارتفع بناء البيت، وأثر قدميه فيه، والذي شرفه الله وعظمه، وأمر بالصلاة خلفه، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ [البقرة: ١٢٥].

قال أبو طالب في قصيدته اللامية[(١)]:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافيًا غير ناعل

قال ابن كثير[(٢)]: «﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ﴾ يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به، على رفع القواعد منه والجدران، حيث كان يقف عليه، ويناوله ولده إسماعيل، وكان بجوار البيت، حتى أخره عمر بن الخطاب إلى ناحية الشرق، بحيث يتمكن الطُّوَّاف، ولا يشوشون على المصلين عنده، بعد الطواف، لأن الله أمرنا بالصلاة عنده».

وذهب بعضهم إلى أن المراد بـ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ﴾ كل مقام قام فيه إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- في مناسك الحج، فيشمل المشاعر كلها. وهذا أولى لأنه يدخل فيه المقام المعروف، وكل مقام قامه إبراهيم- عليه السلام- في مناسك الحج.

ولهذا روى عطاء عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ﴾ الحرم كله»، وفي رواية: «الحج كله»[(٣)].

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ الضمير في «دخله» يرجع إلى البيت، والمراد ما يشمل الحرم كله، بدليل النصوص الأخرى من الكتاب والسنة.

وجملة ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ يحتمل أن تكون تابعة لقوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ﴾ فيكون من الآيات البينات في البيت أن من دخله كان آمنًا حتى في زمن الجاهلية، وهذا يوجب تأمينه في الإسلام؛ لأن الله أخبرنا بذلك وأقره.

ويحتمل أن تكون جملة ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ مستأنفة، وهي خبر معناه: ومن دخله يجب أن يكون آمنًا فلا يعتدى عليه، ولا يتعرض له.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٩٩)، «خزانة الأدب» (٢/ ٦٢).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٦٥).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٧١١).

وعلى هذا فالاحتمالان يتفقان على وجوب تأمين من دخل الحرم، وأن من دخله كان آمنًا، في الجاهلية والإسلام، آمنًا قدرًا، مؤمَّنًا شرعًا ودينًا[(١)]. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش: ٣، ٤].

وحتى إن الله- عز وجل- أمّن الصيد فيه، وحرم تنفيره، وحرّم قطع شجره وحشيشه، عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكه، ولا يُنفر صيده، ولا تُلتقط لقطته إلا لمنشد، ولا يُختلى خلاه**»[(٢)]. فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر، لقينهم ولبيوتهم. فقال: «**إلا الإذخر**»[(٣)].

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح**»[(٤)].

وعن أبي شريح العدوي- رضي الله عنه- أنه قال لعمرو بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولًا قام به رسول الله ﷺ، الغد من يوم الفتح سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي، حين تكلم به، إنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول**

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (١/ ٣٠٤)، «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٤٠٣).

(٢) أي: لا يجز ولا يحش حشيشه ونباته.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٤٩)، وفي الحج (١٨٣٤)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٧٥، ٢٨٩٢)، والترمذي في السير (١٥٩٠)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٣).

(٤) أخرجه مسلم في الحج (١٣٥٦).

الله ﷺ فيها، فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم. وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم، كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب» فقيل لأبي شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيذ عاصيًا، ولا فارًّا بدم، ولا فارًّا بخزية»[١].

ولهذا كانت مكة شرفها الله خير أرض الله وأحبها إلى الله- عز وجل- كما قال ﷺ- فيما رواه عبدالله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحَزْوَرة[٢] في سوق مكة: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قرأ أبوجعفر وحمزة والكسائي وخلف وحفص بكسر الحاء: ﴿حِجُّ﴾، وقرأ الباقون بفتحها: «حَجُّ».

والجملة مستأنفة، و﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ مبتدأ مؤخر، وخبره ما قبله، إما قوله ﴿وَلِلَّهِ﴾، أو قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وهذا أولى.

قال ابن القيم[٤]: «والذي يقتضيه المعنى أن يكون- أي: الخبر- في قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنه وجوب والوجوب يقتضي «على»، ويجوز أن يكون في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾؛ لأنه يتضمن الوجوب والاستحقاق. وعلى هذا ففي تقديم قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ وليس بخبر فائدتان إحداهما: أنه اسم لموجِب الحج، فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب. فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع: أحدها الموجِب، لهذا الغرض، والثاني: مؤدي الواجب، وهو المفترض عليه، وهم الناس. والثالث: النسبة والحق

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٠٤)، ومسلم في الحج (١٣٥٤)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٧٦)، والترمذي في الحج (٨٠٩).

(٢) «الحَزْوَرَة» على وزن «قسورة» موضع بمكة عند باب الحناطين. انظر: «النهاية في غريب الحديث» مادة «حزر»

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٩٢٥)، وابن ماجه في المناسك (٣١٠٨)، وأحمد (٤/ ٣٠٥)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب صحيح».

(٤) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٢-٥٠٣).

المتعلق به إيجابًا، وبهم وجوبًا وأداءً، وهو الحج.

والفائدة الثانية: أن الاسم المجرور من حيث كان لله اسمًا سبحانه، وجب الاهتمام بتقديمه تعظيمًا لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه، وتخويفًا من تضييعه، إذ ليس ما أوجبه الله ـ سبحانه- بمثابة ما أوجبه غيره».

واللام في قوله ﴿وَلِلَّهِ﴾ للاستحقاق، و«على» للوجوب، أي: يجب على الناس حقًّا لله أن يحجوا.

و﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾: قصد البيت تعبدًا لله عز وجل؛ لأداء المناسك في وقت مخصوص.

والمراد بالناس المؤمنون منهم؛ لأن غير المؤمنين لا يقبل منهم الحج، بل ولا يمكنون من دخول الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ﴾ [التوبة: ٢٨].

﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ ﴾ «من»: موصولة، وهي بدل من «الناس»، بدل بعض من كل؛ لأن الناس، منهم المستطيع للحج، ومنهم غير المستطيع له، ووجوب الحج إنما هو على المستطيع، أي: من استطاع منهم طريقًا إلى البيت، ووصولًا إليه.

ونص في وجوب الحج على شرط الاستطاعة، مع أنها شرط في كل العبادات، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وكما قال ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»(١)؛ وذلك لمشقة الوصول إلى البيت، وكثرة الأسباب التي قد تحول دون الحج- مما لا يوجد في غيره من العبادات- كبعد الديار، وقلة المال، وعدم معرفة الطريق، أو عدم أمنه، وغير ذلك.

ولهذا فإن في تقييد الحج بالاستطاعة والنص عليها ما ليس في غيره من رفع الحرج وجبر خاطر من لم يستطعه، وذلك معنى مقصود للشارع.

والاستطاعة: القدرة، وتشمل القدرة بالبدن، والقدرة بالمال، والقدرة بهما أي: من

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام- الاقتداء ببعض سنن الرسول ﷺ (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج- فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

استطاع إليه سبيلًا بأي وجه من أوجه الاستطاعة، وبأي سبيل.

فمن استطاع الحج ببدنه بأن استطاع الوصول إلى البيت، وأداء المناسك ماشيًا وجب عليه ذلك، وإن لم يكن لديه مال. ومن استطاع الحج ببدنه وماله وجب عليه الحج، ومن استطاع الحج بماله دون بدنه وجب عليه أن ينيب من يحج عنه.

ومفهوم قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أن من لم يستطع السبيل إلى حج البيت فلا يجب عليه الحج، أي: من عجز عن الحج ببدنه وماله، بأن كان فقيرًا وضعيفًا في بدنه فهذا لا يجب عليه الحج؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الواو: عاطفة، أو استئنافية، و«من»: شرطية، و«كفر»: فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

ويحتمل أن تكون «من» اسمًا موصولًا في محل رفع مبتدأ، أي: والذي كفر. وخبره جملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقرنت بالفاء؛ لشبه الموصول بالشرط في العموم.

والكفر لغة: الستر والتغطية، وهو في الشرع نوعان[(١)]: كفر أكبر، مضاد للإيمان، ومخرج من الملة وموجب للخلود في النار، وهو أقسام خمسة:

١- كفر تكذيب وجحود، وهو اعتقاد كذب الرسل فيما جاؤوا به من عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [العنكبوت: ٤٧].

٢- كفر استكبار وإباء- مع التصديق، ككفر إبليس- لعنه الله، كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]، ومنه كفر اليهود، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٣٣٥)، «مدارج السالكين» (١/ ٣٧٥-٣٧٩)، «الدرر السنية» (٢/ ٧٠-٧١)، «عقيدة التوحيد» ص(١٠٠-١٠١)، وانظر: «لسان العرب» مادة «كفر».

٣- كفر الإعراض بأن يعرض الإنسان عن الرسول ﷺ، بسمعه وقلبه، ولا يصدقه، ولا يكذبه، ولا يواليه، ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء إليه البتة.

٤- كفر الشك، بأن لا يجزم بصدق الرسول، ولا بكذبه، بل يشك في أمره. قال ابن القيم: «وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة».

٥- كفر النفاق، وهو أن يظهر الإيمان بلسانه، وينطوي بقلبه على التكذيب، وهذا هو المنافق.

والنوع الثاني من أنواع الكفر: الكفر الأصغر، الذي لا يُضاد الإيمان بالكلية، ولا يُخرج من الملة، ولا يُخلد صاحبه في النار، وإنما يوجب استحقاق الوعيد، كما في قوله ﷺ: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[1]، وقوله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[2]، وقوله ﷺ: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت**»[3].

ومن الكفر الأصغر كفر النعمة وعدم شكرها، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومعنى الآية: ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ أي: أن من حج عند الاستطاعة فقد أدى فريضته، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ فأنكر وجحد وجوب الحج، وهذا لا إشكال في كفره، حج، أو لم يحج، قال شيخ الإسلام ابن تيمية[4]: «وكل من لم ير حج البيت واجبًا عليه مع الاستطاعة فهو كافر باتفاق المسلمين، كما دل عليه القرآن».

ويحتمل أن المعنى ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ هذه الفريضة، فريضة الحج، فلم يحج مع الاستطاعة،

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٨)، ومسلم في الإيمان (٦٤)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٠٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٩)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٣١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٤٢)، من حديث جرير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٦٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «دقائق التفسير» (١/ ٣٠٥، ٣٣٦).

وهذا بلا شك متعرض للوعيد، ولو لم يجحد وجوب الحج، كما هو ظاهر الآية.

عن عبدالرحمن بن غنم أنه سمع عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- يقول: «من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه مات يهوديًّا أو نصرانيًّا»[(١)].

وعن الحسن البصري قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لقد هممت أن أبعث رجالًا إلى هذه الأمصار، فينظروا كل من له جدة فلم يحج، فيضربوا عليهم الجزية، ما هم بمسلمين، ما هم بمسلمين»[(٢)].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ أي: له الغنى الكامل التام من كل وجه.

﴿عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: عن كل أحد، من جميع خلقه، ليس بحاجة إليهم، ولا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي، كما قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ ﴾ [الزمر: ٧].

وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا...**»[(٣)].

وفي قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ إظهار في مقام الإضمار، فلم يقل: «فإن الله غني عنه، أو عنهم»، وذلك لإظهار عموم غناه- عز وجل- عنهم، وعن غيرهم من الخلق.

قال ابن القيم[(٤)] في كلامه على الآية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ الآية: «أتى بهذا النظم الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه: أحدها: أنه قدّم اسمه تعالى، وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص، ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم، الداخلة

---

(١) أخرجه أبوبكر الإسماعيلي- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٧٠)، وقال ابن كثير: «وهذا إسناد صحيح إلى عمر رضي الله عنه».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه»- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٧٠).

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٥).

عليها حرف «على»، ثم أبدل منه أهل الاستطاعة، ثم نكّر السبيل في سياق الشرط، إيذانًا بأنه يجب الحج على أي سبيل تيسرت، من قوت أو مال، فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلًا، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر، فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: بعد التزام هذا الواجب وتركه، ثم عظّم الشأن، وأكد الوعيد بإخباره باستغنائه عنه، والله تعالى هو الغني الحميد، ولا حاجة به إلى حج أحد، وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه، وإعراضه بوجهه عنه ما هو من أعظم التهديد وأبلغه، ثم أكّد ذلك بذكر اسم العالمين عمومًا، ولم يقل: فإن الله غني عنه؛ لأنه إذا كان غنيًّا عن العالمين كلهم، فله الغنى الكامل التام من كل وجه، عن كل أحد، بكل اعتبار، وكان أدل على عظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه، ثم أكّد هذا المعنى بأداة «إن» الدالة على التوكيد، فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكد هذا الفرض العظيم».

الفوائد والأحكام:

١- أن أول بيت وضع للناس لعبادة الله هو الكعبة شرفها الله، التي في مكة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ فهو قبل المسجد الأقصى والمسجد النبوي.

وفي الحديث أنه ﷺ سئل أي المساجد بُني أول؟ فقال: «المسجد الحرام»، قيل: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس»، قيل: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»[1].

٢- عظم مكانة البيت الحرام، وفضله على المسجد الأقصى، والمسجد النبوي، وسائر المساجد؛ لأنه أول بيت وضع للناس يستقبلونه ويتعبدون فيه- منذ عهد إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- شرفه الله وعظمه، وأضافه لنفسه، وبارك فيه، وجعله هدى للعالمين، وجعل فيه آيات بينات، منها مقام إبراهيم، وأمّن من دخله، وأوجب على الناس حجه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌۢ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

(١) سبق تخريجه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٥].

وعن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة، فيما سواه**»(١).

٣- أنه كلما كان المسجد أقدم في بنائه والصلاة فيه فهو أفضل؛ لأن مما فضل به البيت الحرام على غيره كونه أول بيت وضع للناس لعبادة الله، لكن قد يُفَضَّلُ غير الأقدم لاعتبارات أخرى.

٤- حكمة الله- عز وجل- التامة في وضع البيت للناس لحاجتهم إلى بيت يكون قبلة ومتعبدًا لهم، ولهذا وضع الله- عز وجل- لهم هذا البيت المبارك بمكة، تأوي إليه أفئدتهم ويقصدونه من كل حدب وصوب ومن كل فج عميق.

٥- أن من أسماء مكة- شرفها الله-: «بكة»؛ لقوله تعالى: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾، كما أن من أسمائها: «مكة»، و«أم القرى»، و«البلد الأمين» و«البلد الحرام» وغير ذلك.

٦- بركة البيت الحرام، وكثرة خيراته ومنافعه، الدينية والدنيوية، الحسية والمعنوية؛ لأن الله وضعه مباركًا؛ لقوله تعالى: ﴿مُبَارَكًا﴾.

٧- أن الله- عز وجل- وضع البيت ليكون منارًا للعالمين يهتدون به، وقبلة للتوجه إلى ربهم في صلاتهم وعباداتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

٨- أن في هذا البيت آيات بينات، ودلالات ظاهرات شرعية، وهي الشعائر والمناسك التي تقام فيه، كالحج والعمرة، والهدي، وتأمين من دخله، وغير ذلك، وفيه آيات كونية، وهي المشاعر التي جعلها الله محلاً لتلك الشعائر والمناسك، منها البيت، ومقام إبراهيم، والصفا والمروة، وعرفة، ومزدلفة، ومنى، وغير ذلك؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٤٠٦).

﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾.

٩- أن من أعظم الآيات البينات التي فُضِّل وشُرِّف بها البيت الحرام ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: أماكن قيامه- عليه الصلاة والسلام، عند بناء البيت، وفي أداء المناسك، وتنقلاته في الحج.

١٠- فضل إبراهيم- عليه الصلاة والسلام؛ لأن الله عظم مقامه، وجعله قدوة للناس في كل مقام قامه، وفي أداء المناسك.

١١- وجوب تأمين من دخل البيت الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ ولهذا حرّم عز وجل القتال فيه، إلا على سبيل الرد والمدافعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾ [البقرة: ١٩١]، وهذا يدل على أن حرمة المسلم أعظم من حرمة المسجد الحرام.

كما حرم عز وجل- تعظيمًا لحرمة البيت- تنفير صيده، وقطع شجره وحشيشه، كما قال ﷺ: «**لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا لمنشد، ولا يختلى خلاه**»[(١)].

وإنما أبيح القتال فيه لرسول الله ﷺ ساعة من نهار، عام الفتح؛ لحمايته، وتوطيد أمنه، وتطهيره من الشرك والأصنام، ودفع ظلم أهل الشرك عنه، حيث منعوا رسول الله ﷺ وأصحابه من العمرة عام الحديبية، وقد عادت حرمته بعد ذلك، فهو حرام بحرمة الله، إلى يوم القيامة، كما قال ﷺ: «**إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، وإنها لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أحلها لرسوله، ولم يحلها لكم**»[(١)].

لكن الحرم لا يؤوي محدثًا، ولا يعيذ عاصيًا. ولهذا لما أُخبر رسول الله ﷺ أن ابن

(١) سبق تخريجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

خطل متعلق بأستار الكعبة، قال ﷺ: «**اقتلوه**»[(١)].

وفي حديث أبي شريح أنه لما ذكر لعمرو بن سعيد حديث تحريم مكة، وكان عمرو يبعث البعوث إلى مكة، قال عمرو: «**يا أبا شريح: إن الحرم لا يعيذ عاصيًا، ولا فارًّا بدم، ولا فارًّا بخزية**»[(٢)].

١٢- وجوب الحج على كل من استطاع إليه سبيلًا، ببدنه، أو بماله وبدنه، أو بماله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

وهو ركن من أركان الإسلام ومبانيه العظام، كما قال ﷺ: «**بُني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا**»[(٣)].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: «**أيها الناس، قد فُرض عليكم الحج فحجوا**» فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ: «**لو قلت: نعم لوجبت، ولما استطعتم**». ثم قال: «**ذروني ما تركتكم، فإنما أُهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه**»[(٤)].

وفي حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: «**يا أيها الناس، إن الله قد كتب عليكم الحج**»، فقام الأقرع بن حابس، فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ قال: «**لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لم تعملوا بها، ولم تستطيعوا أن تعملوا بها، الحج مرة، فما زاد فهو تطوع**»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٨٤٦)، ومسلم في الحج (١٣٥٧)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٨٥)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٦٧)، والترمذي في الجهاد (١٦٩٣)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه قريبًا.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٨)، ومسلم في الإيمان (١٦)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠١)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٩)، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه مسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، وأحمد (٢/٥٠٨).

(٥) أخرجه أبوداود في المناسك (١٧٢١)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٠)، وابن ماجه في المناسك =

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قالوا: يا رسول الله، الحج في كل عام؟ قال: «**لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت لم تقوموا بها، ولو لم تقوموا بها لعذبتم**»[١].

ولهذا قال ﷺ لنسائه في حجته: «**هذه ثم ظهور الحصر**» يعني: ثم الزمن ظهور الحصر، ولا تخرجن من البيوت[٢].

ومن شرط الاستطاعة عند المرأة وجود محرم لها؛ لأنه لا يجوز للمرأة أن تسافر مطلقًا بدون محرم، لا لحج، ولا لغيره، فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم**» فقام رجل فقال: يا رسول الله، إن امرأتي خرجت حاجة، وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، فقال ﷺ: «**انطلق فحج مع امرأتك**»[٣].

فإذا كانت المرأة قادرة ببدنها ومالها ووجدت محرمًا وجب عليها الحج، وإن لم تجد محرمًا فلا يجب عليها الحج بنفسها، لكن هل يلزمها أن تنيب من يحج عنها إذا كانت قادرة بمالها أو ببدنها ومالها؟ اختلف أهل العلم في هذا على قولين:

فمنهم من قال: لا يلزمها؛ لأن الحج لا يجب عليها شرعًا إلا بوجود محرم لها، وإذا لم يوجد المحرم فلا حج عليها.

ومنهم من قال: يلزمها أن تنيب؛ لأن وجود المحرم إنما هو شرط للأداء، وليس بشرط للوجوب فالحج واجب عليها بوجود القدرة المالية، أو البدنية والمالية، لكن أداءه لا يجب عليها إلا بوجود المحرم، وإذا لم يوجد المحرم وجب عليها أن تنيب من يحج عنها، وإذا ماتت والحال هذه وجب إخراج أجرة الحج من تركتها.

والأظهر القول الأول، وعلى هذا فلا يجوز إخراج قيمة الحج من مالها إذا ماتت؛ لأنه قد صار إلى الورثة، والحج ليس بواجب عليها شرعًا.

واختلف أهل العلم هل الحج واجب على الفور أم على التراخي، فذهب بعضهم

(٢٨٨٦)، والحاكم (٢/ ٢٩٣).

(١) أخرجه ابن ماجه في المناسك- فرض الحج (٢٨٨٥).

(٢) أخرجه أبوداود في المناسك (١٧٢٢)، من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٨٦٢)، ومسلم في الحج (١٣٤١)، وابن ماجه في المناسك (٢٩٠٠).

إلى أنه على التراخي؛ لأن الحج فرض في السنة التاسعة، فأمر ﷺ أبا بكر أن يحج بالناس في تلك السنة، ولم يحج ﷺ إلا في السنة العاشرة.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الحج واجب على الفور وهو الأحوط؛ لأن الإنسان ما يدري ما يعرض له.

١٣- أن الحج لا يجب على من لم يستطع إليه سبيلًا؛ لعجزه في بدنه، وماله؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾.

١٤- في تقييد وجوب الحج بشرط الاستطاعة والنص عليها ما ليس في غيره من رفع الحرج وجبر خاطر من لم يستطعه، وذلك معنى مقصود للشارع.

١٥- سماحة الدين الإسلامي، ويسر تعاليمه، وعدم تكليفه ما لا يستطاع، وذلك من رحمة الله عز وجل بهذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: ٧٨].

١٦- كفر من ترك الحج مع الاستطاعة؛ لقوله تعالى بعد أن ذكر وجوب الحج: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن جحد وجوب الحج فهو كافر الكفر الأكبر المخرج من الإسلام، يستتاب فإن تاب وإلا قتل مرتدًّا.

واختلف أهل العلم فيما إذا ترك الحج غير جاحد لوجوبه، فذهب بعضهم إلى أنه يكون كافرًا كفرًا أكبر، كمن جحد وجوبه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾.

وذهب جمهور أهل العلم إلى أنه لا يكفر كفرًا أكبر، وحملوا قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: ومن كفر هذه الفريضة، أي: فريضة الحج، فلم يؤدها، فهو كفر دون كفر، كما في قوله ﷺ: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[(١)]، وقوله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[(١)].

وقوله ﷺ: «**اثنتان في الناس، هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على**

(١) سبق تخريجه.

الميت»[١]، وقوله ﷺ: «**فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم**»[٢].

ويقوي هذا القول ما رواه عبدالله بن شقيق، قال: «كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة»[٣].

ولا شك أن من ترك الحج مع الاستطاعة متعرض للوعيد الشديد، ويخشى عليه الموت على غير الإسلام، كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن لم يحج خيف عليه الموت على غير الإسلام»[٥].

١٧- غنى الله- عز وجل- الكامل التام عن جميع خلقه، فلا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وفي المقابل فإن العالمين كلهم هم الفقراء إليه- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

* * *

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٢٨)، ومسلم في الإيمان (٦٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الإيمان- ما جاء في ترك الصلاة (٢٦٢٢).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر: «دقائق التفسير» (١/ ٣٠٥).

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ في الموضعين، وصدر بـ﴿قُلْ﴾ للعناية والاهتمام والتوكيد، و«يا» في الموضعين حرف نداء، وصدر خطاب أهل الكتاب بالنداء لهم للتنبيه على عظم الأمر، وخطورته.

وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، سموا بذلك لأن الله- عز وجل- أنزل عليهم الكتاب، فأنزل على اليهود «التوراة»، وأنزل على النصارى «الإنجيل».

﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع.

واللام: حرف جر و«ما» استفهامية، وحذفت ألفها لدخول حرف الجر عليها، أي: لماذا تكفرون بآيات الله، وتجحدونها، وتكذبون بها.

وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية، فالآيات الكونية سميت آيات لدلالتها على وجود خالقها وعظمته ووحدانيته، وكماله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته واستحقاقه العبادة دون من سواه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

والآيات الشرعية سميت آيات، لدلالتها على صدق من جاء بها، وأنها من عند الله، بكونها صالحة لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، لا اختلاف فيها، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

والمراد بقوله تعالى: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآيات الكونية والشرعية.

والكفر بالآيات الكونية بإنكار خالقها- كما يزعم أهل الإلحاد، أو اعتقاد شريك

مع الله عز وجل أو معين في خلقها، كما يزعم أهل الشرك.

قال تعالى في الرد عليهم: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢].

والكفر بالآيات الشرعية يكون بتكذيبها وجحودها، أو بمخالفتها وعدم اتباعها؛ إما استكبارًا وإباءً، وإما إعراضًا عنها، وإما شكًّا فيها، وإما نفاقًا بإظهار الاتباع مع التكذيب بها باطنًا.

﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ الواو: حالية، فالجملة داخلة ضمن التوبيخ في قوله: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لم تكفرون بآيات الله، والحال أنكم تعلمون أنه شهيد على عملكم.

ويحتمل أن تكون الواو استئنافية، فتكون الجملة مستأنفة للتهديد والوعيد.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد مطلع رقيب حفيظ، و«شهيد» على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على عظم شهادته عز وجل.

﴿عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ «ما» مصدرية، أي: على عملكم، أو موصولة، أي:على الذي تعملونه، وهي تفيد العموم، أي: والله شهيد ومطلع على أعمالكم، وفي هذا من الوعيد ما فيه لأهل الكتاب؛ لأنه- عز وجل- إذا كان شهيدًا على أعمالهم، مطلعًا عليها، من كفرهم وتكذيبهم بآيات الله ومخالفتهم لها، فسيحصيها عليهم ويحاسبهم ويجازيهم عليها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

أمر الله- عز وجل- النبي ﷺ في الآية السابقة بتوبيخ أهل الكتاب على كفرهم بآيات الله، بأنفسهم، ثم أمره بتوبيخهم على ما هو أشد من ذلك، وهو عدوانهم بصد غيرهم عن سبيل الله.

قوله: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ لم تصرفون الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن دين الله وشرعه الذي شرعه، وصراطه المستقيم الموصل إليه، وإلى مرضاته.

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن

سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٥٣].

﴿ مَنْ ءَامَنَ ﴾، «من»: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول لـ«تصدون» أي: تصرفون عن دين الله الذي آمن به، وهم في الحقيقة يصدون من آمن فيخرجونه من الإيمان، ويصدون من لم يؤمن فيمنعونه من الدخول في الإيمان.

ولهذا قال: «تصدون»، ولم يقل «تخرجون» ونحوه؛ لأن الصد يكون لمن آمن ولمن لم يؤمن. وإنما ذكر صدهم من آمن، لأنه أشد وأعظم، وهو أيضًا سبب لصد من لم يؤمن؛ لأن من رأى الناس يخرجون من الدين زهد في الدخول فيه.

﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ الجملة حالية، أي: حال كونكم تبغونها عوجًا.

و«عوجًا» مفعول به ثانٍ لـ«تبغونها»، أو حال. يقال في المعاني «عِوَج» بكسر العين، اسم مصدر، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا ﴾ [الكهف: ١، ٢]، ويقال في الأعيان: «عَوَج» بفتح العين، مصدر، فيقال: «حائط عَوَج»، و«سور عَوَج».

و«العِوج» و«العَوج» بالكسر والفتح: الميل، ضد الاستقامة، قال الشاعر:

تمرون الديار ولم تعوجوا ... كلامكمُ عليّ إذًا حرام(١)

أي: ولم تميلوا.

والضمير في «تبغونها» يعود إلى ﴿ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، أي: تطلبون السبيل وتريدونها ﴿عِوَجًا﴾ أي: مائلة عن الحق معوجة، غير مستقيمة، بسلوك ما أنتم عليه من الكفر والضلال، والتهاون والتفريط فيما أمر الله به، أو الغلو والإفراط فيه، وارتكاب ما نهىٰ الله عنه، مخالفة لهدي الله القويم، وصراطه المستقيم.

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٦١)﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ

---

(١) البيت لجرير. انظر: «ديوانه» (ص ٢٦٨).

ٱلْقَيِّمُۚ﴾ [التوبة: ٣٦، يوسف: ٤٠، الروم: ٣٠].

﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُۗ﴾ الواو للحال، أي: والحال أنكم شهداء، تشهدون على أنكم تصدون عن سبيل الله، وتبغونها عوجًا؛ لعلمكم بصدق محمد ﷺ، وأنه يدعو إلى سبيل الله ودينه الحق، وأنتم شهداء على ذلك، بشهادة كتب الله- عز وجل- المنزلة على أنبيائكم.

فهم شهداء على أنهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا؛ لأنهم يعرفون الحق ويخالفونه استكبارًا وعنادًا، وهم شهداء على صدقه ﷺ بشهادة كتبهم المنزلة عليهم، لكنهم جحدوا هذه الشهادة وأنكروها، وكانوا أول كافر به، كما قال تعالى مخاطبًا لهم: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٤١].

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ الواو: حالية، و«ما» نافية، و«ما» في قوله ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ موصولة، أو مصدرية. أي: وما الله بغافل عن عملكم، أو عن الذي تعملونه، وهي تفيد العموم، أي: وما الله بغافل عن جميع الذي تعملونه من الصد عن دين الله، وابتغاء العوج، وغير ذلك، وفي هذا تهديد ووعيد لهم بأنه- عز وجل- سيحصي عليهم أعمالهم ويحاسبهم ويجازيهم عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الصفات السلبية، التي تدل على كمال ضدها كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فقوله: ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ لإثبات كمال حياته- عز وجل- وهكذا قوله تعالى هنا: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يتضمن مع نفي أن يكون- عز وجل- غافلًا عما يعملون يتضمن إثبات كمال رقابته على أعمالهم، وعلى كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

بعدما وبخ عز وجل أهل الكتاب، وتوعدهم وهددهم على كفرهم بآيات الله وصدهم عن سبيله من آمن، وابتغائهم الطريق العوج، حذر المؤمنين من طاعتهم.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب «ها» للتنبيه، و«الذين» صفة لـ«أي» أو بدل منها، وصدر خطاب المؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، وناداهم بوصف الإيمان؛ تكريمًا وتشريفًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من توجيهات من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثال ذلك يعد نقصًا في الإيمان.

وقد فرق عز وجل بين خطاب المؤمنين، وخطاب أهل الكتاب، فخاطب المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بغير واسطة تشريفًا وتفضيلًا لهم، بينما خاطب أهل الكتاب بواسطة، فقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ أي: إن تطيعوا طائفة من أهل الكتاب، والمراد من لم يؤمن منهم، وهم أكثرهم، أي: إن تطيعوا طائفة من اليهود والنصارى فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه.

وقوله: ﴿فَرِيقًا﴾ يدل على أن أهل الكتاب ليس كلهم على هذا الوصف؛ لأن منهم من آمن، فآمن من النصارى النجاشي، وآمن من اليهود عبدالله بن سلام رضي الله عنهما.

﴿يَرُدُّوكُم﴾ يرجعوكم ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾؛ لأنهم يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، ويودون رد المؤمنين كفارًا، ويعملون على ذلك.

قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ ﴾ [آل عمران: ٦٩].

وفي قوله: ﴿يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ إشارة إلى أنهم يبذلون ما في وسعهم لإخراج المؤمنين عن دينهم، كما أنهم يسعون في صد من لم يؤمن عن الإيمان، وأنهم لا يقنعهم حتى يردوا المؤمنين عن دينهم، إلى ما هم عليه من الكفر؛ لأنهم حرفوا وبدلوا، وأشركوا مع الله «عزيرًا» و«المسيح».

لكنهم يتدرجون في الوصول إلى ذلك بالسعي أولًا، لإفساد عقائد وأخلاق

المسلمين، بما يثيرون من الشبه، وما ينشرون من الرذائل؛ لتزهيد المسلمين في دينهم، وإخراجهم منه، فإذا صار الواحد منهم بلا دين سهل عليهم اقتناصه لدينهم.

وقد مكثتْ إحدى حملاتهم التنصيرية في مصر سنتين لم يعتنق النصرانية مسلم واحد، فشكا قائد الحملة إلى أحد بطارقتهم، فقال له: أنا لا أريدك أن تخرج المسلمين من الإسلام وتدخلهم في النصرانية، هذا أمر صعب، أنا أريدك أن تخرجهم من الإسلام، فإذا خرجوا منه سهل علينا اقتناصهم للنصرانية. وصدق الله العظيم: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«كيف» للاستفهام. ومعناه الاستبعاد، أي: يُستبعد أن تكفروا، وحاشاكم أن تكفروا، وفيه معنى: التحذير أيضًا.

﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ الواو للحال، أي: والحال أنكم ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: تقرأ عليكم آيات الله، القرآن الكريم.

﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ يعيش بين أظهركم، يدعوكم ويعلمكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع[1]

فهذان وازعان لهم من الكفر: آيات الله، ورسوله.

ويحتمل كون الاستفهام في الآية بمعنى التعجب، أي: كيف يمكن أن تكفروا وأنتم تقرأ عليكم آيات الله القرآن الكريم، ورسول الله بين أظهركم وهو تعجب من حالهم، وتوبيخ لهم لو حصل منهم ذلك، وحاشاهم من ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٥٥)- عن عبدالله بن رواحة رضي الله عنه.

والآية على الاحتمالين فيها تيئيس لأهل الكتاب من رجوع المسلمين عن دينهم مهما حاول أهل الكتاب، كما في الحديث أن رسول الله ﷺ قال يومًا لأصحابه: «**أي المؤمنين أعجب إليكم إيمانًا؟ قالوا: الملائكة. قال: وكيف لا يؤمنون، وهم عند ربهم؟! وذكروا الأنبياء. قال: وكيف لا يؤمنون، والوحي ينزل عليهم؟ قالوا: فنحن. قال: وكيف لا تؤمنون، وأنا بين أظهركم؟ قالوا: فأي الناس أعجب إيمانًا؟ قال: قوم يجيئون من بعدكم، يجدون صحفًا يؤمنون بما فيها**»(١).

وفي رواية أنه قال ﷺ: «يا أيها الناس من أعجب الخلق إيمانا؟ قالوا: الملائكة. قال: وكيف لا يؤمن الملائكة وهم يعاينون الأمر؟ قالوا: فالنبيون يا رسول الله. قال: وكيف لا يؤمن النبيون والوحي ينزل عليهم من السماء؟ قالوا: فأصحابك يا رسول الله. قال: وكيف لا يؤمن أصحابي وهم يرون ما يرون؟ ولكن أعجب الناس إيمانا قوم يجيئون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني، ويصدقوني ولم يروني، أولئك إخواني»(٢).

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»(٣).

---

(١) الحديث في «جزء ابن عرفة» (ص٥٢ رقم ١٩)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٦/ ٥٣٨)؛ من حديث عمرو ابن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه.

وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٧١) وقال: «وقد ذكرت سند هذا الحديث والكلام عليه في أول شرح البخاري، ولله الحمد».

وروي معناه من حديث عمر بن الخطاب وابن عباس وأنس رضي الله عنهم. انظر: «مسند أبي يعلى» (١/ ١٤٧ رقم ١٦٠)، «مجمع الزوائد» (١٠/ ٦٥ رقم ١٦٦٨٩)، «المعجم الكبير» للطبراني (١٢/ ٨٧ رقم ١٢٥٦٠)، «شرح مشكل الآثار» (٦/ ٢٦٩ رقم ٢٤٧٢).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٨٧ رقم١٢٥٦٠).

(٣) سبق تخريجه.

قال ابن عباس: «ولن يجد أحد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد كانت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا»(١).

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ أي: يعبده، ويتمسك بحبله، ويستعن به، ويتوكل عليه، كما في قول المؤمنين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: فلا يُخشى عليه من الضلال، وهذه الجملة جواب الشرط في قوله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ والفاء: رابطة لجواب الشرط لاقترانه بـ«قد».

و«هُدي» بالبناء للمفعول، أي: كُتبت له الهداية أزلًا في اللوح المحفوظ، ووفق لها عملًا باعتصامه بالله، دُلَّ على الحق، ووفِّق إليه، وفيه.

وذلك؛ لأن الهداية تنقسم إلى قسمين: هداية دلالة وإرشاد، وهذه عامة، فالله هاد بهذا المعنى، أي: دال ومرشد كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]، أي: دللناهم وأرشدناهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣].

والرسل والدعاة إلى الله هداة بهداية الله- عز وجل- كما قال تعالى مخاطبًا نبينا محمدًا ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال إبراهيم- عليه السلام- لأبيه: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۝٤٣﴾ [مريم: ٤٣]، وقال موسى- عليه السلام- مخاطبًا فرعون: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ۝١٩﴾ [النازعات: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ [الرعد: ٧]، وقال تعالى:

---

(١) ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب في كتاب التوحيد ونسبه لابن جرير. انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص(٤٧٩).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [غافر: ٣٨].

والقسم الثاني: هداية التوفيق، وهذه خاصة بالله- عز وجل- كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

ولعل الحكمة في مجيء الفعل «هُدي» مبنيًا للمفعول محذوفًا فاعله؛ ليشمل نوعي الهداية وطرقها.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٠١﴾ ﴾ قرأ ابن كثير في رواية قنبل في جميع القرآن بالسين: «سراط»؛ معرفًا ومنكرًا. وقرأ حمزة بإشمام الصاد زايًا، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة: ﴿صِرَٰطٖ﴾.

ونُكّر الصراط في قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ تعظيمًا له وتفخيمًا.

و«الصراط» الطريق الواضح الواسع المسلوك.

﴿مُّسۡتَقِيمٖ﴾ معتدل مستوٍ، غير معوج، يوصل إلى الغاية بأقرب وقت، وأقصر مسافة، لا انحراف فيه يمينًا أو شمالًا يزيد في مسافته، ويعرض للضياع، ولا نزول فيه ولا ارتفاع، يزيد في مسافته، ويشق على سالكيه بالنزول والارتفاع، قال جرير[1] يمدح هشام بن عبدالملك:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

والمستقيم في الأصل: أقرب خط يصل بين نقطتين.

والمعنى: ومن يعتصم بالله عبادة له، وتمسكًا بكتابه، وسنة رسوله ﷺ، واستعانة بالله- عز وجل- وتوكلًا عليه، فقد هُدي ووفق إلى طريق واضح معتدل لا اعوجاج فيه، وهو صراط الله، الموصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحجر: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ [الشورى: ٥٣].

---

(١) انظر: «ديوانه» ص(٢١٨)

وهو الذي يهدي ويدعو إليه رسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ (٥٢)﴾ [الشورى: ٥٢].

قال ابن كثير(١): «فالاعتصام بالله، والتوكل عليه، هو العمدة في الهداية، والعدة في مباعدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد».

ولكن المصيبة كل المصيبة عدم تحقيق الاعتصام بالله لدى كثير من المسلمين، وما أصاب الأمة ما أصابها من الضعف على مستوى الأفراد والجماعات والدول، وما ابتلي كثير من المسلمين بما ابتلي به إلا بسبب عدم تحقيق الاعتصام بالله وبكتابه وسنة رسوله ﷺ.

فبسبب ذلك وقع كثير من المسلمين في كثير من البلاد الإسلامية في الشرك ودعاء غير الله والاستغاثة به.

وبسبب ذلك حصل التفريط في كثير من الواجبات؛ وأعظمها الصلاة عمود الإسلام، والزكاة، وصلاة الجماعة وغير ذلك من حقوق الله، وحقوق الخلق.

وبسبب ذلك تساهل كثير من المسلمين في الوقوع في المحرمات كالربا والمعاملات المحرمة والمشتبهة، والزنا، والعقوق، وقطيعة الرحم والغيبة والنميمة، والحسد والعداوة والبغضاء والظلم والكذب وشهادة الزور، وغير ذلك.

وبسبب ذلك وئدت وحدة المسلمين تحت شعارات ما أنزل الله بها من سلطان فرقت المسلمين، وجعلتهم شيعًا وأحزابًا وجماعات يكيد بعضها لبعض على حساب الإسلام.

وبسبب ذلك انحرف فئام من أبناء المسلمين، ووقعوا في حبائل أعداء الإسلام، وخرجوا على الأمة وعلمائها وولاتها بالتكفير والتفجير.

ولن يصلح آخر هذه الآمة إلا ما أصلح أولها. فمن اعتصم بالله حقًّا، فعظَّم الله- عز وجل- وحقق توحيده، وأدى حقوقه التي من أعظمها بعد التوحيد إقامة الصلاة إقامة تامة كما شرع الله- عز وجل- مع جماعة المسلمين، وأدى حقوق الخلق؛ من الوالدين والأولاد والأزواج والأقارب وغيرهم، وحقوق الأمة التي يتولاها، وتدبر كتاب الله- عز وجل- وسنة رسوله ﷺ، فهو مهدي محفوظ بحفظ الله عز وجل؛ ولهذا

(١) في «تفسيره» (٢/ ٧١).

قال- عز وجل- مخاطبًا المؤمنين: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾، أي: إن هذا يكاد يستحيل.

وهكذا كل من تمسك بكتاب الله- عز وجل- وسنة رسوله ﷺ فهو محفوظ بحفظ الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**احفظ الله يحفظك**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- أمْر الله- عز وجل- لنبيه ﷺ بتوبيخ أهل الكتاب على كفرهم بآيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

٢- وجوب الإيمان بآيات الله- عز وجل- الكونية والشرعية؛ لأن الله- عز وجل- أمره ﷺ بتوبيخ من أنكروها.

٣- إثبات شهادة الله- عز وجل- واطلاعه التام، على ما يعمله أهل الكتاب وغيرهم من الكفر بآيات الله وتكذيبها ومخالفتها، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾.

٤- تهديد من يكفر بآيات الله ويكذبها ويخالفها من أهل الكتاب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ فهو- عز وجل- شهيد على أعمالهم يحصيها عليهم وسيحاسبهم ويجازيهم عليها.

٥- توبيخ أهل الكتاب على صدهم عن سبيل الله ودينه من آمن به، ومن أراد الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾.

٦- أن ما جاء به محمد ﷺ هو دين الله وصراطه الذي يجب اتباعه، لهذا سماه- عز وجل- سبيله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧)، من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

٧- إرادة أهل الكتاب سلوك الناس الطريق العوج، وهو ما هم عليه من الباطل والمخالفة للحق والعدول عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

وهكذا يريد كل دعاة الباطل، كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧)﴾ [النساء: ٢٧].

٨- أن كل من سعى في صد الناس عن دين الله، وأراد الطريق العِوج من دعاة التغريب وغيرهم ففيه شبه من اليهود والنصارى؛ لأن هذا مسلكهم.

٩- أن إخراج من دخل في دين الله وحمله على الارتداد، أعظم وأشد من منع من أراد الدخول فيه، كما أنه سبب للمنع من الدخول فيه، لهذا خصه- عز وجل- بالذكر فقال: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾.

١٠- شهادة أهل الكتاب على أنفسهم أنهم يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجًا، وأنه ﷺ يدعو إلى سبيل الله ودينه الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾ وإنما منعهم من اتباعه ﷺ الاستكبار والحسد.

١١- كان الواجب على أهل الكتاب عدم الصد عن سبيل الله وعدم ابتغاء العوج؛ لأنهم يعلمون أنهم على الباطل، وأنه ﷺ على الطريق الحق.

١٢- إثبات كمال رقابة الله عز وجل على أعمال أهل الكتاب وغيرهم، وأنه ليس بغافل عما يعملون، وفي هذا وعيد وتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)﴾.

١٣- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده وهو عدم طاعة أهل الكتاب من مقتضيات الإيمان، وعدم ذلك نقص في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

١٤- تحذير المؤمنين من طاعة دعاة الكفر، من أهل الكتاب، وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)﴾.

فلا يجوز الاغترار بما يبدونه من الصداقة والمودة، فهم أعداء مهما أظهروا من ذلك كما

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١].

١٥- حرص الكفار من أهل الكتاب وغيرهم على رد المسلمين عن دينهم إلى ما هم عليه من الكفر، وأنهم لا يقنعون منهم بدون ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ولأجل ذلك تجدهم يسعون بشتى الوسائل لإفساد عقائد وأخلاق المسلمين ويدسون السم في الدسم، فيدعون إلى إخراج المرأة من بيتها وسفورها باسم تحرير المرأة والدفاع عن حقوقها، ويدعون إلى مصادرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باسم الحرية وعدم التدخل في شؤون الآخرين، ويزينون للناس الربا والقمار والمكاسب الخبيثة بدعوى حرية الكسب وتنمية المال ونحو ذلك.

ويدعون إلى تعطيل الحدود في الإسلام، ويصمونها بالوحشية كقتل القاتل، ورجم الزاني أو جلده، وقطع يد السارق، وجلد القاذف وشارب الخمر بدعوى الدفاع عن حقوق الإنسان، وكأنهم أرحم بالإنسان من خالقه، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

يرحمون المجرمين، ولا يرحمون المجتمع بأسره من شرور المجرمين، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

١٦- أن السبب في تسلط الكفار من أهل الكتاب وغيرهم على المؤمنين، هو إيمانهم بالله وشرعه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧].

١٧- أن من أهل الكتاب من آمن فلا يسعى في رد المسلمين إلى الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية. ومفهوم هذا أن فريقًا منهم ليسوا كذلك.

١٨- استبعاد كفر المؤمنين، وآيات الله تتلى عليهم، ورسوله ﷺ بين أظهرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ والتعجيب والتحذير من أن يحصل شيء من ذلك، والتوبيخ لمن فعله؛ لأن الحجة عليه أقوم، وذنبه أعظم- وحاشاهم رضي الله عنهم من ذلك- وإنما سيقت الآيات لتيئيس كفار أهل الكتاب من ارتداد المؤمنين؛ ولهذا لم تقع الردة إلا بعد موته ﷺ من بعض الأعراب، وممن لم يتمكن الإيمان من قلوبهم.

١٩- أن القرآن الكريم هو آيات الله الدالة على كماله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وعلى صدق من جاء به من عند الله- عز وجل- المعجز بأقصر سورة منه؛ لقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾.

٢٠- أن من بلغه القرآن قامت عليه الحجة، سواء تلاه عليه الرسول ﷺ، أو غيره؛ لقوله تعالى: ﴿تُتْلَىٰ﴾ أي: يتلوها الرسول ﷺ أو غيره، ممن يبلغ عنه.

٢١- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه وتكريمه بإضافته إليه عز وجل- في قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾.

٢٢- أن في كتاب الله- عز وجل- وسنة رسوله ﷺ العصمة- بإذن الله لمن تمسك بهما من الكفر والضلال.

٢٣- أن من اعتصم بالله- عز وجل- عبادة له وتمسكًا بحبله، واستعانة به وتوكلًا عليه، فقد كتبت له الهداية إلى الصراط المستقيم أزلًا في اللوح المحفوظ، وعملًا في هذه الحياة، أُرشد إلى الحق، ووفق إليه، وفيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

٢٤- الحث على الاعتصام بالله؛ عبادة له، وتوكلًا عليه، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

٢٥- في تنكير «صراط» في قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تعظيم له، لأنه صراط الله المؤدي إلى الله- عز وجل- ومرضاته، وإلى السعادة في الدنيا والآخرة؛ ولهذا وصفه بأنه ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: معتدل لا عوج فيه.

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق الكلام على هذا.

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

والتقوى: مأخوذة من الوقاية، وهي أن تجعل بينك وبين الشيء الضار، أوالمخوف وقاية، فتتقي البرد بلبس الملابس الثقيلة، وتتقي الشوك بلبس النعلين، وهكذا.

وأصلها: «وَقْوى» قلبت الواو تاء؛ لعلة تصريفية.

وتقوى الله- عز وجل- هي وصيته للأولين والآخرين، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [النساء: ١٣١].

قال الشاعر:

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقي ... إذا هـو لم يجعـل لـه الله واقيـا

﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي: حق تقواه، بقدر استطاعتكم وجهدكم، كما قال تعالى في سورة التغابن: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [الآية: ١٦].

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر»(١).

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في «تفسيره» (١/ ١٢٩)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٢٩٧، ٢٩٨)، والطبري في «جامع البيان» (٥/ ٦٣٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٧٤٢)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ١٢٨- الأثر ٢٩٩)، والطبراني (٨٥٠١)، والحاكم (٢/ ٢٩٤). وهو صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه.
=

ولا غضاضة في أمر المؤمنين بتقوى الله- عز وجل- فقد أمر الله بها نبيه ﷺ، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، وهو ﷺ أتقى الناس لربه، كما قال ﷺ: «**والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له**»[١].

ولما قال أحدهم للخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اتق الله» أنكر عليه بعض الحاضرين، وقال: كيف تقول لأمير المؤمنين «اتق الله»؟ فقال عمر رضي الله عنه: «دعه، فليقلها، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم»[٢].

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«لا» ناهية، و«تموتن» فعل مضارع مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون، والنون المذكورة للتوكيد.

﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ استثناء من أعم الأحوال، أي: ولا تموتن على حال من الأحوال إلا على حال كونكم مسلمين.

والمراد بالإسلام ما يشمل الإيمان، أي: إلا وأنتم مسلمون ظاهرًا وباطنًا؛ لأن الإسلام والإيمان إذا أفرد أحدهما دخل معه الآخر. أي: ولا تموتن إلا على الإسلام.

والنهي عن الموت إلا على الإسلام يستلزم النهي عن مفارقة الإسلام طوال الحياة، أي: بادروا إلى الإسلام، والزموه، واثبتوا عليه إلى الموت؛ لأن العبرة بالخاتمة، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩].

والمرء ما يدري متى يفجأه الموت، وقد قيل:

كل امرئٍ مُصَبَّح في أهله والموت أدنى من شراك نعله[٣]

وعن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن

= وروي مرفوعًا. انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٧١).

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٣)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الفقه الإسلامي وأدلته» (٨/ ٣٣٢).

(٣) البيت لحكيم النهشلي. انظر: «البيان والتبيين» (٣/ ١٢٦).

يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»[(١)].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»[(٢)].

لكن من عاش مستمسكًا بالإسلام فهو حري أن يحفظه الله حتى يتوفاه على ذلك- بكرمه- عز وجل- وفضله.

ويؤيد هذا ما جاء في حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة- فيما يبدو للناس- وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة**»[(٣)].

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: سمعت النبي ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن**»[(٤)].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله: أنا عند ظن عبدي بي**»[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٦)، وأحمد (٢/ ١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء- خلق آدم صلوات الله وسلامه عليه وذريته (٣٣٣٢)، ومسلم في القدر- كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٣)، وأبوداود في السنة (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر (٢١٣٧)، وابن ماجه في المقدمة (٧٦).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٨)، ومسلم في الإيمان (١١٢).

(٤) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٧٧)، وأبوداود في الجنائز (٣١١٣)، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٧).

(٥) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥)، ومسلم في الذكر (٢٦٧٥)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٨)، وابن ماجه في الأدب (٣٨٢٢).

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: كان رجل من الأنصار مريضًا، فجاءه النبي ﷺ يعوده، فوافقه في السوق فسلم عليه، فقال له: «**كيف أنت يا فلان**»؟ قال: بخير يا رسول الله، أرجو الله وأخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف**»[١].

والله- عز وجل- لا يضيع أجر من أحسن عملًا، فالغالب أن من عاش على شيء مات عليه، وبعث عليه؛ ولهذا فإن من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه[٢].

قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

رُوي أن هذه الآية نزلت في الأوس والخزرج[٣]. والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قوله: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ الواو: عاطفة، والاعتصام: التمسك بما يعصم، ويحمي من المخوف والمحذور، و«حبل الله»: دينه وشرعه، كما قال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ [الشورى: ١٣].

وسمي دين الله وشرعه حبلًا له- عز وجل- لأنه الموصل إليه وإلى رضوانه وجنته، وهو الذي وضعه.

﴿جَمِيعًا﴾: حال، أي: كلكم أيها المؤمنون.

---

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز (٩٨٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٦١)- وقال الترمذي: «حسن غريب» ورواه البزار- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٧٣) قال: «وقد رواه بعضهم مرسلًا».

(٢) أخرجه مسلم في «الإمارة» (١٩٠٩)، وأبو داود في «الصلاة» (١٥٢٠)، والنسائي في «الجهاد» (٣١٦٢)، والترمذي في «فضائل الجهاد» (١٦٥٣)، وابن ماجه في «الجهاد» (٢٧٩٧)؛ من حديث سهل ابن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٤٩٨)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٧٤).

قال ابن القيم[١]: «ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين. فأما الاعتصام بحبله، فإنه يعصم من الضلالة، والاعتصام به يعصم من الهلكة. فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها، فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها. فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل، والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يسلم بها في طريقه».

﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ أمرهم بالاجتماع، ثم أكد ذلك بنهيهم عن التفرق، أي: ولا تفرقوا شيعًا وأحزابًا، جماعات وأفرادًا.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا، فيرضى لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا، ولا تفرقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»[٢].

وفي حديث أبي مسعود- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»[٣].

وما أصاب المسلمين ما أصابهم من الضعف والتخلف، وتسلط الأعداء، والجهل والفقر والمرض، إلا بسبب التفرق شيعًا وأحزابًا وجماعات، كما قال الشاعر:

وتشعبوا شعبًا فكل جزيرة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر[٤]

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٦-٥٠٧).

(٢) أخرجه مسلم في الأقضية (١٧١٥).

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة- تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الصف الأول فالأول (٤٣٢)، والنسائي في الإمامة (٨٠٧)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٧٦).

(٤) البيت لمساور بن هند بن زهير. انظر: «شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (١/ ١٧٦)، «شرح ديوان الحماسة» للأصفهاني (ص٣٣٢)، «شرح حماسة أبي تمام» (٢/ ٢٥٣).

بل إن ما وقع فيه المسلمون اليوم من التفرق جماعات وحزبيات وتصنيف للطوائف أشد وأعظم، حيث يكيد بعض هذه الجماعات لبعض باسم الإسلام على حساب الإسلام- نسأل الله الهداية والتوفيق، وجمع كلمة المسلمين على الحق.

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: واذكروا بألسنتكم ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالثناء عليه، والتحدث بها، واذكروها بقلوبكم، واشكروها بجوارحكم؛ لأن ذكر نعمه- عز وجل- سبب لشكرها، كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

و«نعمة» مفرد مضاف إلى معرفة يفيد العموم.

و«نعمة الله»: كل ما أنعم الله به على خلقه من النعم الدينية والدنيوية، والعطاء والرزق، وجلب النعم، ودفع النقم.

أي: تذكروا كل نعم الله عليكم، والتي أهمها وأعظمها نعمة الإيمان، ببعثة محمد ﷺ، ونزول القرآن.

﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ هذا بيان وتفسير لنعمة الله عليهم.

﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين» أي: حين كنتم أعداء بينكم الحروب والغارات والفتن والثارات.

فالأوس والخزرج كانت بينهم حروب دامت أكثر من مائة وعشرين سنة، منها يوم بعاث، وكذا الحال بالنسبة لقبائل العرب الأخرى: قريش، وهوازن وغيرها.

﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: جمع بين قلوبكم على الحق والهدى.

ولم يقل: «فألف بينكم»؛ لأن الشأن والمدار على اجتماع القلوب، حتى ولو تباعدت الأبدان والأوطان، ولا فائدة في اجتماع الأبدان مع تنافر القلوب وتفرقها، كما قال تعالى عن اليهود: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

بل إن اجتماع الأبدان مع تنافر القلوب يمثل خطرًا عظيمًا، ولهذا كان المنافقون أخطر أعداء الإسلام على المسلمين؛ لأنهم بين أظهرهم.

والتأليف بين القلوب ليس بالأمر السهل، وكما قيل:

إن القلــوب إذا تنافــر ودهــا   مثل الزجاجة كسرها لا يجبر[(١)]

لكن الذي خلق القلوب- سبحانه وتعالى- يؤلف بينها بقدرته وعزته وحكمته؛ ولهذا قال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٣].

وقال عز وجل للمؤمنين: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [الممتحنة: ٧]، وقال ﷺ: «**يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالًا، فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين، فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي.** كلما قال شيئًا، قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ»[(٢)].

﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ أي: صرتم.

﴿بِنِعْمَتِهِ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب إنعامه عليكم بالهداية للإسلام.

﴿إِخْوَانًا﴾ أي: إخوة متآلفين متحابين، تربط بينكم أقوى رابطة هي رابطة أخوة الإيمان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

تلك الرابطة التي تتضاءل أمامها جميع روابط النسب، والعرق والوطن، والجماعات والحزبيات والقوميات، وغير ذلك.

تلك الرابطة التي آخت بين أبي بكر القرشي، وبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي رضي الله عنهم.

وقد أحسن القائل:

أبي الإســـلام لا أب لي ســـواه   إذا افتخـــروا بقيـــس أو تمـــيم[(٣)]

---

(١) البيت لصالح بن عبد القدوس، أو لعلي رضي الله عنه. انظر: «اللطائف والطرائف» (ص١٩٦).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة الطائف (٤٣٣٠)، ومسلم في الزكاة- إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (١٠٦١)، من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.

(٣) البيت لنهار بن توسعة. انظر: «الكامل في اللغة» (٣/ ١٣٣).

وقال الآخر:

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه ... فلا تترك التقوى اعتمادًا على النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس ... وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب[1]

وقد ضرب الصحابة- رضوان الله عليهم- في هذه الأخوة الإيمانية فيما بينهم أروع الأمثلة، حتى إن الأنصار لما قدم إليهم المهاجرون- قاسموهم أموالهم وديارهم، وآثروهم على أنفسهم، وعلى قراباتهم للأخوة التي آخاها الرسول ﷺ بينهم.

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ أي: وكنتم قبل الإسلام ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ أي: على طرف ﴿حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ وشفا الشيء طرفه، الذي من كان عليه فهو عرضة للسقوط والهلاك، كما قال تعالى في أصحاب مسجد الضرار: ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩].

ومعنى قوله: ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ أي: على طرف حفرة من نار جهنم بسبب ما أنتم عليه من الكفر والشرك، أي: ليس بينكم وبين السقوط في النار والوقوع فيها إلا أن تموتوا، كما قال تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩].

﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ أي: فخلصكم منها، وأبعدكم عنها، بهدايتكم للإيمان.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ الكاف: اسم بمعنى «مثل» نعت لمصدر محذوف؛ أي: بيانًا مثل ذلك البيان في هذه الآيات، يبين الله لكم آياته، الشرعية والكونية.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن تهتدوا، إلى ما ينفعكم في دينكم ودنياكم وأخراكم، هداية دلالة وعلم، وهداية توفيق وعمل.

قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

أمر الله عز وجل المؤمنين في الآيتين السابقتين بتقواه، والاعتصام بحبله، ونهاهم عن

---

(١) البيتان ينسبان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «محاضرات الأدباء» (١/ ٤١٤).

التفرق، ثم أمرهم بأن يكون منهم أمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر- وهو من تقوى الله- عز وجل- لأهميته فعطفه على الأمر بتقوى الله أشبه بعطف الخاص على العام.

قوله: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ الواو: عاطفة، أو استئنافية، واللام: للأمر، ولهذا جزم الفعل بعدها، والأصل في الأمر: الوجوب.

﴿ مِّنكُمْ ﴾ الخطاب: للمؤمنين، و«من»: تبعيضية، أي: وليكن بعضكم يدعون إلى الخير، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢]، ويؤيد هذا قوله ﴿أُمَّةٌ﴾.

ويحتمل أن تكون «من» لبيان الجنس، أي: ولتكونوا أمة يدعون إلى الخير كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿أُمَّةٌ﴾ طائفة وجماعة.

﴿يَدْعُونَ﴾ كل من يصلح توجيه الدعوة إليه، كقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥].

﴿إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ الخير اسم يجمع خصال الإسلام، كما في حديث حذيفة- رضي الله عنه- أنه قال: «يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟»(١).

فالدعاء إلى الخير هو الدعاء إلى الإسلام وجميع شرائعه العظام، من فعل المأمورات، وترك المحظورات، والتي كلها خير في الدين والدنيا والآخرة، كالدعوة إلى الصلاة والزكاة والصوم والحج وبر الوالدين وصلة الأرحام، وغير ذلك من الواجبات، والدعوة إلى ترك المحرمات كالربا والزنا والسرقة، وغير ذلك. وكل ذلك خير وضده شر، قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٠٦)، ومسلم في الإمارة (٨٤٧)، وأبوداود في الفتن والملاحم (٤٢٤٤).

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ من عطف الخاص على العام؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم وأعظم الخير، وهو سبب لفعل الخير، وقدم الدعوة إلى الخير لأنها ينبغي أن تكون قبل الأمر والنهي، لأنها توجيه وتعليم، ثم يعقبها الأمر والنهي، وقرن بين الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنهما من أعظم وأهم واجبات الدين.

وقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: ويأمرون الناس بفعل المعروف. و«المعروف» كل ما أمر به الشرع وأقره، كالأمر بالإيمان بأركان الإيمان الستة، وأداء أركان الإسلام الخمسة وغير ذلك.

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أي: وينهون الناس عن المنكر، وهو كل ما نهى عنه الشرع وأنكره من المعاصي وأنواع الشرور والفساد، كالشرك والربا وقتل النفس بغير حق، والزنا والسرقة وغير ذلك من فعل المحرمات، أو ترك الواجبات.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الإشارة للذين يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تنويهًا بهم ورفعةً لشأنهم.

وأكد الفلاح وقصره فيهم، بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم» أي: أولئك هم المفلحون حقًا، دون غيرهم.

قال ابن القيم[1]: «فخص هؤلاء بالفلاح، دون من عداهم، والداعون إلى الخير، هم الداعون إلى كتاب الله وسنة رسوله، لا الداعون إلى رأي فلان وفلان».

والفلاح: الفوز والظفر بالمطلوب، والنجاة والسلامة من المرهوب، الفوز بالسعادة في الدنيا، بالإيمان والحياة الطيبة، والسعادة في الآخرة بالجنة والنجاة من النار.

فالمفلحون: الفائزون بالسعادة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٨).

كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ﴾ الآية.

في هذا تأكيد لما سبق من الأمر بتقوى الله- عز وجل- والاعتصام بحبله، والنهي عن التفرق، كما أن فيه إشارة إلى أن من أعظم أسباب التفرق ترك الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ﴾ أي: ولا تصيروا أيها المؤمنون ﴿كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ﴾ أي: مثل الذين تفرقوا من أهل الكتاب، وغيرهم، وصاروا أحزابًا وشيعًا.

﴿وَٱخْتَلَفُواْ﴾ في قلوبهم تجاه ما جاءهم من الحق، على ألسن رسل الله، وفي كتبه، وتركوا الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وقدَّم التفرق على الاختلاف، مع أن الاختلاف هو سبب التفرق- والله أعلم؛ لأن التفرق هو محصلة الاختلاف، ونتيجته الظاهرة السيئة.

والمعنى: ولا تصيروا أيها المؤمنون كأهل الكتاب الذين تفرقوا واختلفوا، فتتفرقون وتختلفون مثلهم، بل اعتصموا بحبل الله جميعًا، وادعوا إلى الخير، ومروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر.

قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ﴾ أي: من بعد ما جاءتهم من عند الله- عز وجل- الآيات البينات في كتب الله- عز وجل- وعلى ألسنة وأيدي رسله من الآيات الشرعية والآيات الكونية، مما لا عذر لهم معه في التفرق و الاختلاف، وترك الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا

جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ [البينة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الشورى: ١٤].

وعن معاوية بن أبي سفيان- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة- يعني الأهواء- كلها في النار إلا واحدة، وهي: الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء، كما يتجارى الكَلَب[1] بصاحبه، لا يبقى منه عرق، ولا مفصل إلا دخله. والله يا معشر العرب- لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ لَغيرُكم من الناس أحرى أن لا يقوم به**»[2].

وفي حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**» قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن**»[3].

وإذا كان ﷺ في هذا لا ينطق عن الهوى، فيجب على كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية أن يحذر من هذا التفرق، وأن يلزم جماعة المسلمين، كما قال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك**»[4].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: وأولئك الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات من أهل الكتاب وغيرهم.

﴿لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ العذاب: العقاب، و«عظيم» على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على شدة عظمة هذا العذاب، ولا أحد يقدر عظمة هذا العذاب، إلا من وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

---

(١) الكَلَب: داء يصيب الكلاب، فمن عضه قتله.

(٢) أخرجه أبوداود في السنة (٤٥٩٧)، وأحمد (٤/ ١٠٢).

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٢٠)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩).

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٢٠)، وأبوداود في الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢٢٢٩)، وابن ماجه في المقدمة (١٠)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم، لانحطاط مرتبتهم، وأكد عذابهم، بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير خطاب المؤمنين بالنداء، للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده: من الأمر بتقوى الله حق تقاته، والثبات على الإسلام إلى الموت والاعتصام بحبل الله، وعدم التفرق والاختلاف من مقتضيات الإيمان، وأن عدم ذلك نقص في الإيمان.

٢- وجوب تقوى الله- عز وجل- حق تقواه، بقدر الاستطاعة والجهد، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦].

٣- لا غضاضة في أمر المؤمنين بتقوى الله- عز وجل- فقد أمر الله بها سيد الخلق ﷺ.

٤- وجوب المبادرة إلى الإسلام، ولزومه، والثبات عليه، إلى الممات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

٥- أن المدار على الخاتمة، وما يموت عليه الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ لكن جرت العادة بفضل الله- عز وجل- أن من عاش على الإسلام فإنه يحفظه الله، حتى يتوفاه على الإسلام- وهذا أمر مشاهد وواقع، حتى إن أناسًا صدقوا في طلب أن يموتوا شهداء، فرزقهم الله الشهادة، وأناسًا صدقوا مع الله في طلب الموت سُجدًا، وصوامًا، ونحو ذلك فتوفاهم الله على ذلك.

٦- وجوب الاعتصام بشرع الله، والتمسك به؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾.

٧- وجوب الاجتماع على شرع الله، والتحاكم إليه، وتحريم التفرق شيعًا وأحزابًا وجماعات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾.

٨- أن في تمسك الأمة بشرع الله واجتماعها عليه عصمة لها وقوة في داخلها، وأمام أعدائها وغيرهم. وفي تهاونها في التمسك بشرع الله وتفرقها ضعفها وتخلفها وتسلط الأعداء عليها- كما هو حال الأمة اليوم.

٩- وجوب ذكر نعم الله بالثناء عليه بها باللسان، وتذكرها بالقلب، وشكرها بالجوارح، والتي أعظمها نعمة الإسلام والإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

١٠- أن من أكبر نعم الله- عز وجل- وأعظمها على المؤمنين تأليفه- عز وجل- بين قلوبهم بالإيمان- بعد أن كانوا أعداءً قبل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾.

وهي نعمة من الله- عز وجل- ومنة على الصحابة- رضي الله عنهم- على وجه الخصوص، وعلى من يأتي بعدهم من المؤمنين إلى يوم القيامة على وجه العموم.

١١- أن تذكر المنعم عليه لحاله قبل النعمة، من فرقة، أو مرض، أو فقر، أو فقدان أمن، أو غير ذلك، من أسباب شكر النعمة، وقد قيل: «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى».

١٢- أن ثمرة التأليف بين القلوب تحقيق الأخوة الإيمانية بين المؤمنين التي تتلاشى أمامها جميع روابط النسب والعرق والوطن، والقوميات، والحزبيات، وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.

١٣- أن التفرق والتشتت نقمة، وعلامة على سلب النعمة، يجب الحذر منه.

١٤- نعمة الله- عز وجل- ومنته على المؤمنين السابق منهم واللاحق، بإنقاذهم بالإيمان من النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾.

١٥- إثبات النار، وأنها موجودة الآن معدة للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ أي: وكنتم على طرف حفرة من النار، تكادون تسقطون فيها، بسبب الكفر والشرك، فأنقذكم منها بالإيمان.

١٦- تبيين الله- عز وجل- آياته الشرعية والكونية لنا أتم بيان، إقامة للحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ولهذا قال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦-١٩]، والآيات في بيانه عز وجل لآياته وتفصيلها كثيرة جدًّا.

وفي هذا رد على أهل التحريف والتأويل المذموم الذين يقولون: المراد بالآيات

خلاف ما يظهر منها، فهم بهذا يزعمون أن الله لم يبينها، وأنهم أعلم بالمراد بها منه تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

١٧- أن الحكمة والعلة في بيانه- عز وجل- آياته للناس؛ لأجل أن يهتدوا؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

١٨- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وفي هذا رد على من ينفي من أهل البدع حكمته- عز وجل- في أفعاله.

١٩- رحمة الله- عز وجل- بالناس ومحبته لهدايتهم، ولهذا بين لهم آياته لأجل أن يهتدوا، ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب، كما قال عز وجل مخاطبًا لنبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

٢٠- وجوب الدعوة إلى الإسلام وشرائعه العظام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ وهو فرض كفاية؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنكُمْ﴾ و«من» للتبعيض.

ويحتمل كون «من» لبيان الجنس، فتكون الدعوة واجبة على الأمة كلها، أي: ولتكونوا أمة داعية إلى الخير.

وذلك حسب معرفة الإنسان وقدرته؛ لأن هناك من الأمور ما يمكن أن يدعو له كل مسلم، وهناك منها ما يحتاج إلى أهل العلم.

وينبغي أن تكون الدعوة إلى الخير بالحكمة وبالموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، مع الإخلاص، والحذر من الانتصار للنفس، ونحو ذلك.

ويجب على الداعية إلى الخير أن يكون عالمًا بما يدعو إليه شرعًا، ولا يكفي مجرد حسن النية والقصد، فإن الشيطان قد يأمر بسبعين بابًا من الخير؛ ليصل إلى باب من الشر أعظم من ذلك الخير. قال عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه-: «ليس كل مريد للخير يصيبه». وقد قيل:

وقد يأمر الشيطان بالخير قاصدًا ... وصولًا إلى باب من الشر أعظم[1]

(١) هذا البيت من قصيدة لي.

ولهذا فإن ما يُرفع من شعار «كن داعيًا» ينبغي ألا يكون على إطلاقه، فيدخل في الدعوة من لا يحسنها، ولا يصلح لها، فيكون ضرره أكبر من نفعه.

٢١- الترغيب في كل ما هو خير؛ قولًا أو فعلًا أو بذلًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ وذلك يشمل خير الدين والدنيا.

٢٢- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو فرض كفاية؛ لقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ وقد يجب على جميع الأمة إذا لم يستطعه بعضها.

عن حذيفة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده، ثم لتدعنه، فلا يستجيب لكم**»(١).

وعن أبي سعيد- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(٢).

فالإنكار باليد يكون لولي الأمر ولأهل الحسبة الذين ولاهم، ولمن له ولاية من الرجال والنساء، على من تحت ولايته كالأب والأم، وولي اليتيم ونحوهم.

والإنكار باللسان لكل من قدر عليه وأحسنه، والإنكار بالقلب لا يعذر في تركه أحد.

ويشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أولًا: العلم الشرعي بما يأمر به الإنسان أو ينهى عنه، بحيث يعلم أن هذا الأمر مما أمر الله به، أو مما نهى الله عنه، فإن كان يجهل ذلك وجب عليه ترك الأمر والنهي، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن (٢١٦٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٤٩)، وأبوداود في الصلاة (١١٤٠)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠٨)، والترمذي في الفتن (٢١٧٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٧٥).

ثانيًا: أن يكون على بينة من حال المأمور والمنهي بأنه ترك هذا المعروف، أو ارتكب هذا المنهي، فإن كان لا يدري، أو يشك في ذلك، أو قيل له ذلك ونحو ذلك، فلا يجوز له الدخول في ذلك؛ لما يترتب عليه من مفاسد، وقد قال الله- عز وجل-: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات: ٦].

ثالثًا: أن يكون الأمر والنهي بالحكمة، بأن لا يؤدي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى منكر أعظم من ذلك. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آداب من أهمها:

أن لا يخالف فعل الآمر والناهي قوله، بأن يأمر بالمعروف وهو لا يفعله، أو ينهى عن المنكر وهو يفعله، قال تعالى موبخًا من يفعل ذلك: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤].

وفي حديث أسامة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور فيها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: مالك، يا فلان، ألم تك تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمركم بالمعروف، ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»(١).

قال الشاعر:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلاّ لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا ... كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا ... أبدًا وأنت من الرشاد عديم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٧)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٩).

فهناك يقبل ما تقول ويقتدى ... بالعلم منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم[(١)]

وامتثال الإنسان لما يأمر به، واجتنابه لما ينهى عنه من أعظم أسباب القبول لأمره ونهيه عند الناس، لكنه ليس شرطًا في الأمر والنهي، لانفكاك الجهة، فعليه أن يأمر نفسه وينهاها بل ويبدأ بها، فإن لم يأمر نفسه ولم ينهها، فلا يبرر له ذلك ترك أمر غيره ونهيه، فهو يحاسب على الأمرين؛ ولهذا قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩]، وهذا يقتضي اشتراكهم في الفعل، وذمهم على ترك التناهي.

وكما قيل:

إذا لم يعظ في الناس من هو مذنب ... فمن يعظ العاصين بعد محمد

ومن آداب الأمر والنهي: القول اللين؛ كما قال عز وجل لموسى وهارون- وقد أرسلهما إلى أعتى الخلق، فرعون الذي ادعى الربوبية والألوهية: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤].

وقال الله- عز وجل- لسيد الخلق نبينا محمد ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فليت كثيرًا ممن يتولون الأمر والنهي والدعوة والتوجيه ينتبهون لهذا، ويتفطنون له، وقد قال ﷺ: «**ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما كان العنف في شيء إلا شانه**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**إن الله رفيق، يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف**»[(٣)].

ومن آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: توطين النفس على الأذى في سبيل

(١) الأبيات لأبي الأسود الدؤلي. انظر: «ديوانه» (ص٤٠٤).
(٢) أخرجه مسلم في البر (٢٥٩٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٣٥٦)، ومسلم في البر (٢٥٩٣)، من حديث عائشة- رضي الله عنها، وأخرجه أبوداود في الأدب (٤٨٠٧)، وأحمد (٤/ ٨٧)، من حديث عبدالله بن مغفل رضي الله عنه.

ذلك، والصبر عليه، كما قال تعالى حكاية عن لقمان أنه قال لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

٢٣- عظم مكانة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لهذا خصهما الله بالذكر وقرن بينهما في الآية.

٢٤- أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من أعظم الدعاء إلى الخير، ولهذا عطف عليه من عطف الخاص على العام.

٢٥- وعد الله عز وجل- الذي لا يتخلف- للدعاة إلى الخير، والآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر بالفلاح، وتأكيد ذلك لهم، بل وحصره فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

وهذا يدل على فضل الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكفى ذلك شرفًا أنه طريق الرسل - عليهم الصلاة والسلام.

٢٦- نهي المؤمنين عن التفرق والاختلاف، كما فعل أهل الكتاب من بعد ما جاءهم البينات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾، كما قال عز وجل عنهم: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ [الحشر: ١٤].

٢٧- أن ترك الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم أسباب التفرق والاختلاف؛ لأن الله أعقب الأمر بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالنهي عن التفرق والاختلاف.

٢٨- ذم أهل الكتاب الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وقامت عليهم الحجة.

٢٩- إذا كان التفرق والاختلاف قد يُبرر قبل مجيء البينات، فإن التفرق والاختلاف بعد مجيء البينات، وظهور الحق أمر لا مبرر له، ولا يجوز؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾.

٣٠- بيان الحق في هذه الشريعة الكاملة أتم بيان، في كتاب الله- عز وجل- وسنة رسوله ﷺ، مما لا عذر فيه في التفرق والاختلاف.

٣١- الوعيد الشديد للذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

٣٢- أن من سلك مسالك أهل الكتاب وسننهم السيئة من هذه الأمة فمصيره مصيرهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾.

نهى الله تعالى هذه الأمة أن يكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وتوعدهم بالعذاب العظيم، ثم أتبعه ببيان متى يكون ذلك وحال الناس فيه، وذكر شيء من جزائهم.

قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ «يوم»: ظرف زمان منصوب متعلق بالخبر المحذوف للعذاب في قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: استقر لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه، أو بمضمر تدل عليه الجملة، أي: يعذبون يوم تبيض وجوه، أو بمحذوف تقديره: «اذكر» أي: اذكر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

والمراد به يوم القيامة. وعرفه بما يحصل فيه من بياض وجوه، وسواد وجوه، تعظيمًا له وتهويلًا، ترغيبًا وتشويقًا، وترهيبًا وتخويفًا.

ومعنى ﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ أي: تكون بيضاء تعلوها النضارة والنور، وهي وجوه المؤمنين السعداء، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

وقال ﷺ: **«لكم سيما ليست لأحد من الأمم، تردون عليّ غرًّا محجلين من أثر الوضوء»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الطهارة (١٣٦)، ومسلم في الطهارة (٢٤٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٢)، من
=

فوجوههم بيضاء مسفرة مستنيرة بسبب ما يقابلون به من التهنئة والبشارة بالجنات وما فيها من ألوان النعيم، وما هم فيه من الفرح والسرور والأمن، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقدم ذكر بياض وجوه؛ لأن رحمة الله تعالى تسبق غضبه.

﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي: تكون سوداء مظلمة، وهي وجوه الأشقياء من الكفرة وأهل الأهواء والبدع والمعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر:٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس:٤٠-٤٢].

وذلك لما في قلوبهم من الغم والهم وشدة الخوف، وما يلاقون من التوبيخ والتقريع، ولما يترقبون ويتوقعون من حلول النقمة والعذاب الأليم عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤، ٢٥].

ولا تنافي بين قوله: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وقوله: ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] لاختلاف الأحوال والأوقات، ففي بعضها يكونون زرقًا وفي بعضها يكونون سودًا.

وأيضًا فقد قال بعض المفسرين في قوله: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ أي زرق العيون وهذا لا ينافى سواد الوجوه.

وقيل: المراد بالسواد ما يجمع الزرقة والسواد فيكون المعنى واحدًا، وقيل غير ذلك.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ الفاء: عاطفة للتفريع، و«أما»: للتفصيل، وبدأ بذكر الذين اسودت وجوههم في هذا التفصيل، بينما أخرهم فيما قبل، وهذا من باب اللف والنشر، فبدأ هنا بحال الذين اسودت وجوههم لمجاورته: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وتعجيلًا بذكر مساءتهم، وليكون الاختتام بالحال الحسن كما ابتدئ بالوصف الحسن.

=

حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ الاستفهام: للإنكار عليهم والتوبيخ لهم، والتعجب من حالهم، أي: فيقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم. وجواب «أما» لابد فيه من الفاء، فلما سقط الجواب سقطت الفاء معه. وجاز ترك الجواب لدلالة السياق عليه.

وأبهم القائل؛ للتهويل، وليعم كل قائل، فيحتمل أن القائل لهم ذلك هو الله تعالى، أو الملائكة، أو أهل المحشر، أو الرسول ﷺ.

وفي الحديث قوله ﷺ: «**ليَردن عليَّ أقوام أعرفهم ثم يختلجون دوني فأقول يا رب أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**»[1].

واختلف في المعنِيين بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ فقيل: هم أهل الكتاب، آمنوا بالنبي ﷺ قبل بعثته، فلما بعث كفروا به، وقيل: هم أهل الأهواء والبدع، وقيل: هم المنافقون، آمنوا بالظاهر، وكفروا بالباطن.

والظاهر أن الوصف بسواد الوجوه والتوبيخ بقوله: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ يعم جميع الكفار، كما أن الوصف ببياض الوجوه، وحصول الرحمة، ودخول الجنة يعم جميع المؤمنين.

وقد يحمل الإيمان في قوله: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ في حق البعض أنهم آمنوا ثم ارتدوا وكفروا، أو غير ذلك.

وقد يحمل في حق الجميع على الفطرة؛ لأن الإيمان في الأصل هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»[2].

وقال ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٨٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٤)، والنسائي في الافتتاح (٩٠٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٦٥)، من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٥٨)، ومسلم في القدر (٢٦٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي: ويقال لهم: ﴿ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

ومعنى ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: قاسوا العذاب وتجرعوه وأحسوا به، و«العذاب»: العقوبة والنكال، والأمر للإهانة.

فجمع لهم بين العذاب المعنوي المؤلم للقلب، بالتقريع والتوبيخ والتنديم والإهانة، وبين العذاب الحسي المؤلم للبدن. والعذاب المعنوي لا يقل عن العذاب الحسي، بل هو أشد منه.

﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ الباء للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب كفركم وعدم إيمانكم.

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

كما بدأ بذكر بياض وجوه المؤمنين ختم بالكلام على حسن حالهم، فقال: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ الواو: عاطفة، و«أما»: تفصيلية كسابقتها، أي: وأما الذين ابيضت وجوههم، وهم المؤمنون.

﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ الفاء: واقعة في جواب «أما»، و«في» للظرفية، والمراد برحمة الله تعالى هنا رحمته المخلوقة وهي الجنة، كما قال عز وجل في الحديث القدسي للجنة: **«أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي»**[(١)].

فسمى «الجنة» رحمته؛ لأنه- عز وجل- يرحم بها من يشاء؛ ولأنهم لا يدخلونها إلا برحمته، كما قال ﷺ: **«لن يدخل أحدًا عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة»**[(٢)].

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: هم ماكثون فيها مقيمون، مكثًا أبديًّا، وإقامة دائمة؛ لأن

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير- باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ (٤٨٥٠)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها- النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المرض (٥٦٧٣)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها، ولا أهلها يخرجون منها، كما قال تعالى: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٢].

قوله: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ الإشارة لما سبق من الآيات، وبخاصة من الآيات من بعد قوله: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الآية: ٥٨]. وقد تكون الإشارة للقرآن كله، ويقوي هذا كونها جاءت بصيغة البعد «تلك».

و«آيات» جمع آية، وهي العلامة، والمراد بها هنا: آيات الله الشرعية؛ آيات القرآن الكريم. وسمي القرآن الكريم آيات الله؛ لما فيه من الإعجاز في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره، وكونه صالحًا لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، دالًا على كمال الخالق- عز وجل- في ذاته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه العبادة وحده دون سواه، وعلى صدق من جاء به، ولما فيه من صفات الخلود والشمول والكمال، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ أي: نقرؤها عليك بواسطة جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]، وقال تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٦-١٩]، أي: إذا قرأه جبريل عليه السلام فاتبع قراءته.

﴿بِٱلْحَقِّ ۗ﴾: حال أي: نتلوها عليك حال كونها متلبسة بالحق، والحق الأمر الثابت، فهي بنفسها حق، كما قال تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ

﴿مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وطريق وصولها حق، وسندها أصح الأسانيد وأعلاها، نزلت من عند الله- عز وجل- بواسطة جبريل الأمين على قلب محمد ﷺ سيد المرسلين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤].

وهي أيضًا مشتملة على الحق، أخبارها صدق وأحكامها عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ لما ذكر عز وجل انقسام الناس إلى قسمين: قسم تبيض وجوههم، وقسم تسود وجوههم، وما لكل منهم من الجزاء أتبع ذلك بنفي أن يريد ظلمًا للعالمين في إشارة إلى أن كلًا منهما جوزي بما عمل من غير ظلم بزيادة في عذاب مذنب أو نقص من ثواب محسن، أي: لا يريد كونًا؛ أي: لا يشاء.

والواو في قوله ﴿وَمَا﴾: استئنافية، و«ما»: نافية عاملة عمل «ليس»، ولفظ الجلالة اسمها، وجملة ﴿يُرِيدُ﴾ في محل نصب خبرها، و﴿ظُلْمًا﴾ مفعول لـ«يريد»، وهي نكرة في سياق النفي تدل على انتفاء جنس الظلم أن تتعلق به إرادة الله تعالى، و«العالمين» كل ما سوى الله تعالى.

فنفى عز وجل أن يريد ظلمًا للعالمين، بأن يعذب أحدًا منهم بغير ذنب، أو يزيد في عقابه، أو يضيع عنده ثواب أحد أو ينقص، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢، الأنفال: ٥١، الحج: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)﴾.

نفى عز وجل أن يريد ظلمًا للعالمين، ثم أيَّد هذا النفي وقوَّاه ببيان أن له ما في السموات والأرض، وإليه مرجع الأمور كلها، فليس هناك ما يدعوه للظلم؛ لأنه سبحانه وتعالى ذو الكمال في ذاته وصفاته وفي ملكه وسلطانه وغناه، وفي قدرته على كل شيء.

والظالم إنما يظلم غيره ليكمل نقصًا في نفسه، أو ليزداد عزًّا أو سلطانًا أو ملكًا.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ الواو: عاطفة، ولفظ الجلالة «الله» متعلق بمحذوف خبر مقدم، و«ما»: اسم موصول يفيد العموم بمعنى «الذي» في محل رفع مبتدأ مؤخر.

﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾: معطوف على ما قبله، وجاء التعبير بـ«ما» في الموضعين بدل «من» تغليبًا للعالم على غير العالم.

وقدم الخبر لإفادة الحصر، أي: ولله وحده كل الذي في السموات والذي في الأرض؛ خلقًا وملكًا.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ بيَّن- عز وجل- أن له ما في السموات والأرض خلقًا وملكًا، ثم بيَّن أن مرجع الأمور كلها إليه تدبيرًا وتصريفًا.

وقدم الخبر هنا أيضًا لإفادة الحصر، أي: وإلى الله تعالى وحده وإلى حكمه وقضائه ترجع الأمور كلها، أي: إليه وحده تصير وتعود جميع الأمور والشؤون، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

وأظهر في الجمل الثلاث، بذكر لفظ الجلالة «الله» دون الإضمار تعظيمًا لله- عز وجل- ولتكون كل جملة منها مستقلة الدلالة بنفسها.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات البعث والجزاء، والحث على تذكره والتذكير به وأحوال الناس فيه ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ الآية.

٢- انقسام الناس يوم القيامة إلى فريقين، فريق تبيض وجوههم، وفريق تسود وجوههم؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌۚ﴾.

٣- أن الوجه مرآة يظهر عليها أثر الحالة التي فيها الإنسان من فرح واستبشار، أو خوف وقلق واضطراب؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]، وفي الحديث: «**أنه ﷺ إذا سر استنار وجهه كأنه**

قطعة قمر»(١).

٤- أن الذين تسود وجوههم يوم القيامة هم الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩].

٥- أن الأصل في العباد الإيمان، فهو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأن الكفر طارئ عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

٦- شدة عذاب الكفار وأنه يجمع لهم بين التقريع والتوبيخ والعذاب المعنوي القلبي، وبين العذاب الحسي البدني؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

٧- إثبات الأسباب وتأثيرها في مسبباتها بأمر الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

٨- التحذير من الكفر؛ لأن الله رتب عليه اسوداد الوجوه والعذاب والنكال المعنوي والحسي، القلبي والبدني.

٩- أن الذين تبيض وجوههم يوم القيامة هم المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وهذا إنما يكون لأهل الإيمان.

١٠- أن الجنة رحمة الله تعالى يرحم بها من يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾.

١١- إثبات خلود أهل الجنة في رحمته- عز وجل- وجنته خلودًا أبديًّا لا يحول ولا يزول؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فالجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها ولا أهلها.

١٢- الترغيب في الإيمان لما رتب الله عليه من بياض الوجوه ورحمته- عز وجل- والخلود في جنته.

١٣- تعظيم آيات الله الشرعية، آيات القرآن الكريم؛ لأن الله أشار إليها بإشارة البعيد تعظيمًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، والترمذي في التفسير (٣١٠٢)، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

١٤- دلالة القرآن الكريم بإعجازه في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره على أنه من عند الله- عز وجل- ذو الكمال في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته المستحق للعبادة دون سواه؛ لهذا سمي القرآن الكريم آيات الله.

١٥- نزول القرآن الكريم وتلاوته على الرسول ﷺ بالحق، فهو حق ثابت وطريق وصوله إلى الرسول ﷺ حق، وهو مشتمل على الحق، أخباره صدق وأحكامه عدل؛ لقوله تعالى: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

١٦- إثبات رسالة النبي ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ﴾.

١٧- نفي إرادة الظلم عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ونفي إرادته- عز وجل- للظلم لا يدل على استحالة ذلك في حقه، كما يزعم المعتزلة، بل لو شاء إرادة ذلك لفعل، لكنه تعالى لا يريد الظلم، وقد حرمه على نفسه.

١٨- إثبات الإرادة لله تعالى؛ لمفهوم قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فمفهوم هذا أنه- عز وجل- يريد العدل فيهم.

١٩- نفي الظلم عن الله عز وجل؛ لأنه إذا انتفى عنه إرادة الظلم فانتفاء الظلم عنه من باب أولى.

٢٠- إثبات كمال عدل الله تعالى؛ لأن نفي إرادة الظلم عنه من الصفات السلبية التي تدل على كمال ضدها وهو عدله في جميع أحكامه الشرعية والجزائية والكونية.

٢١- عموم ملك الله عز وجل وأن كل ما في السموات وما في الأرض له وحده؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

٢٢- أن مرجع الأمور كلها ومصيرها إلى الله تعالى وحده، وإلى حكمه وقضائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

٢٣- أنه ليس ثمة ما يدعو لإرادته تعالى للظلم، وذلك لعصمته- عز وجل- وكماله، وتمام عزته وسلطانه، وعموم ملكه وسعته.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآيات السابقة أن تكون من المؤمنين أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وبيّن أنهم هم المفلحون، وحذّر من سلوك منهج الذين تفرقوا واختلفوا بعد البينات وتوعدهم بالعذاب العظيم.

ثم أثنى في هذه الآية على هذه الأمة ببيان أنها كانت خير الأمم لقيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، وفي هذا تأكيد لمكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام، ووجوب الاهتمام به.

قوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ﴿ كُنتُمْ ﴾ الخطاب لهذه الأمة أمة محمد ﷺ، و«كان» هنا مسلوبة الزمن تدل على تحقق الوصف، أي: على تحقق اتصاف اسمها بخبرها في جميع الأوقات، أي: كنتم وما زلتم.

﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ ﴿ خَيْرَ ﴾: اسم تفضيل، ﴿ أُمَّةٍ ﴾ أي: جماعة وطائفة.

﴿ أُخْرِجَتْ ﴾ أوجدت أي: كنتم خير وأفضل الأمم التي أوجدها الله تعالى منذ بدء الخليقة وأفضلها، وأنفعها للناس، فكتابكم أعظم الكتب، ورسولكم أفضل الرسل، وأمتكم خير الأمم.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال: «خير الناس

للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلون الإسلام»[(١)].

﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الجملة في محل نصب خبر ثان لـ﴿كُنتُمْ﴾ أو في محل نصب على الحال من ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، أو نعت لها، أومستأنفة.

وهذه الجملة وما عطف عليها وهو قوله: ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فيها بيان وجه وسبب خيرية هذه الأمة على الأمم.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ معطوف على ما قبله. والإيمان بالله يشمل الإيمان والتصديق بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وشرعه.

والإيمان بالله تعالى شرط لصحة وقبول جميع الأعمال الظاهرة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك.

وبهذا كله كانت هذه الأمة خير أمة، وكانت أمة وسطًا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقدَّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله مع أنه لا يقبل بدون الإيمان بالله؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شعار وعنوان ظاهر لقوة الأمة، وقوة إيمانها.

وفي قوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ امتازت الأمة عن أهل الكتاب، وفي قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ امتازت عن أهل الشرك.

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ الواو: استئنافية، و«لو»: شرطية. و﴿ءَامَنَ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾.

واقترن الجواب باللام على الأفصح والأكثر في جواب «لو» إذا كان مثبتًا، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥]، وقوله: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [محمد: ٤].

وقد تحذف اللام من جوابها، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]،

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٥٧)، والطبري في «جامع البيان» (٥/ ٦٧٤).

وقوله: ﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [النساء:٩].

أما إذا كان جوابها منفيًا فالعكس هو الأكثر، وهو حذف اللام من جوابها. وقد يقترن بها نادرًا كما قيل:

ولو نُعطى الخيار لما افترقنا ... ولكن لا خيار مع الليالي[1]

والمعنى: ولو آمن أهل الكتاب وبخاصة اليهود بما جاءهم عن الله تعالى على ألسنة رسلهم، وعلى لسان محمد ﷺ كما آمنتم أيها المؤمنون ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ﴾ أي: لكان الإيمان خيرًا لهم خيرية مطلقة، من الكفر، ومما هم عليه من الرئاسة في الدنيا ومن كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ [البقرة:١٣٧].

وأيضًا لارتفعت عنهم الذلة والمسكنة وغضب الله، وضوعفت أجورهم؛ كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [القصص:٥٢-٥٤].

وقال ﷺ: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين؛ رجل من أهل الكتاب آمَن بنبيه، وآمن بي فله أجران**» الحديث[2].

﴿ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ أي: من أهل الكتاب الذين آمنوا وهم قليل، كالنجاشي من النصارى، و«عبدالله بن سلام» من اليهود.

﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ أي: وأكثر أهل الكتاب الفاسقون، أي: الخارجون عن طاعة الله تعالى، وعن الإيمان به خروجًا مطلقًا إلى معصيته والكفر به. يدل على

---

(١) البيت مجهول القائل. انظر: «خزانة الأدب» (٤/ ١٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١١)، ومسلم في الإيمان (١٥٤)، وأبوداود في النكاح (٢٠٥٣)، والنسائي في النكاح (٣٣٤٤)، والترمذي في النكاح (١١١٦)، وابن ماجه في النكاح (٢٩٥٦)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

هذا: أن قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ذكر في مقابل قوله: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

والفسق في الأصل يطلق على الكفر.

كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠]، كما يطلق على ما دون الكفر؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات:٦].

فأكثر أهل الكتاب فاسقون، وأكثر الناس كذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأنعام:١١٦].

قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾.

أثنى عز وجل على هذه الأمة بكونها خير الأمم، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وبيّن أنه لو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم، وأن منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون، ثم أتبع ذلك بطمأنة المؤمنين أن أهل الكتاب لن يضروهم إلا أذى.

قوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين. والفاعل في ﴿يَضُرُّوكُمْ﴾ يعود إلى قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: لن يضركم أيها المؤمنون هؤلاء الفاسقون وبخاصة من اليهود الذين ينتشرون بكثرة حول المدينة.

﴿إِلَّآ أَذًى ۖ﴾ ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء، والاستثناء هنا منقطع، أي: لن يضروكم ضررًا بقتال أو غلبة لكن أذى بألسنتهم بما تسمعون منهم من شرك بالله واستهزاء بكم وبدينكم وسب وشتم ونحو ذلك.

قال ابن القيم[1]: «إذ المعنى: لن ينالوا منكم إلا أذى، وأما الضرر فإنهم لن

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٩).

ينالوه منكم ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠]، فنفى لحوق ضرر كيدهم بهم، مع أنهم لا يسلمون من أذى يلحقهم بكيدهم، ولو أنه بالإرهاب والكلام وإلجائهم إلى محاربتهم، وما ينالهم من الأذى والتعب، ولكن ليس ذلك بضارهم، ففرق بين الأذى والضرر».

ويدل على هذا وأنه لا يلزم من الأذى حصول الضرر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[الأحزاب:٥٧]، فأثبت أنهم يؤذون الله ورسوله.

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر، وأنا الدهر**»(١).

وقال ﷺ: «**ليس أحد أو ليس شيء أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم ليدعون له ولدًا، وإنه ليعافيهم ويرزقهم**»(٢).

فأثبت الأذى له لكنه- عز وجل- نفى ضررهم له، فقال: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٧٦]، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني**»(٣).

وقيل: إن الاستثناء متصل، أي: لن يضروكم ضررًا ألبتة إلا ضرر أذى، أي: ضررًا يسيرًا لا يبالى به، مما يتفوهون به من سيئ الكلام.

وهذا وعد لرسول الله ﷺ ولأصحابه ولمن تبعهم من المؤمنين باتباع سنته ﷺ واقتفاء آثار أصحابه الكرام، إخلاصًا وعقيدة وعلمًا وعملًا، كما قال ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٢٦)، ومسلم في الألفاظ (٢٢٤٦)، وأبوداود في الأدب (٥٢٧٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٩)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٠٤)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

«لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»(١).

﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾ أي: وإن يقاتلكم أيها المؤمنون أهل الكتاب وبخاصة اليهود ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ أي: يجعلون أدبارهم وظهورهم وأقفيتهم تليكم بدل أن تكون وجوههم نحوكم، وهذا كناية عن الانهزام والفرار من موقع القتال، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر:٤٥]، وقال تعالى في اليهود: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ [الحشر:١٤].

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾: استئنافية، أي: ثم هم لا ينصرون مطلقًا، قاتلوكم أو لم يقاتلوكم.

قال السمين الحلبي(٢): «قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ مستأنف، ولم يجزم عطفًا على جواب الشرط؛ لأنه كان يتغير المعنى، وذلك أن الله تعالى أخبر بعدم نصرتهم مطلقًا، ولو عطف على جواب الشرط للزم تقييده بمقاتلتهم لنا، وهم غير منصورين مطلقًا قاتلونا أو لم يقاتلونا».

ويحتمل أن تكون ﴿ثُمَّ﴾ عاطفة للتراخي في المرتبة، والجملة معطوفة على جملة الشرط والجزاء معًا، كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون مطلقًا، فترقى من الإخبار والوعد بتولية عدوهم الأدبار عند المقابلة إلى الإخبار والوعد بما هو أتم وأعلى وأعظم من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقًا، ولا يصح أن يكون العطف على جملة الجواب وحدها ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾؛ لأنه لو كان العطف على هذه الجملة، لجاء الفعل مجزومًا أي: «ثم لا ينصروا»،

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٢٠)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) في «الدر المصونة» (٢/ ١٨٨).

ولكان المعنى أقلّ، أي: ثم لا ينصروا عند مقاتلتهم لكم.

والنصر: المنعة والتقوية والتأييد. أي: فلا هم ينتصرون بمنعة وقوة منهم، ولا أحد غيرهم يستطيع نصرهم بتأييده وتقويته لهم، وجعلهم في منعة من عدوهم.

قال ابن كثير[1]: «وهكذا وقع، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله، وأرغم آنافهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قينقاع وبني النضير كلهم أذلهم الله، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن، سلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين».

قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾.

نفى عز وجل في الآية السابقة أن يضر الفاسقون من أهل الكتاب المؤمنين إلا أذى، وأخبر أنهم لو قاتلوا المؤمنين لولوهم الأدبار ثم لا ينصرون، ثم بيَّن في هذه الآية سبب ذلك فقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ الآية.

قوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ أي: ضربت على هؤلاء الفاسقين من اليهود الذلة.

وقوله: ﴿ضُرِبَتْ﴾ بالبناء لما لم يسم فاعله؛ لأن الضارب للذلة عليهم معلوم وهو الله- عز وجل- وإيثارًا لعدم إسناد ذلك إليه- عز وجل- مباشرةً، كما قال ﷺ: **«والشر ليس إليك»**[2].

ومعنى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ أي: فرضت عليهم الذلة، وألزموها قدرًا وشرعًا، فلا تفارق قلوبهم، أشبه بالنقش على سكة النقود المضروبة، لا يزول عنها، فصارت هذه الذلة كالطبع على قلوبهم لا مخلص لهم منها.

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٨٦).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأبوداود في الصلاة (٧٦٠)، والنسائي في الافتتاح (٨٩٧)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

و﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ الذل والهوان والصغار.

﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ «أينما» اسم شرط جازم مبني في محل نصب على الظرفية المكانية، أي: في أي مكان وُجدوا من الأرض، فهم أذلاء.

﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال، والباء للمصاحبة والملابسة، أي: ضربت عليهم الذلة في عموم الأحوال إلا في حال كونهم متلبسين ومتمسكين بحبل من الله.

و«الحبل» في الأصل ما يتوصل به إلى المقصود، والمراد به في الآية السبب، وسمي السبب «حبلًا»؛ لأنه يوصل إلى المقصود.

فمعنى ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: إلا بسبب من الله، أي: بعهد من الله ترتفع عنهم به الذلة. وذلك إما بالإسلام وبهذا يحصل لهم كمال العزة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون:٨].

وإما بأدائهم الجزية ورضوخهم لحكم الإسلام ظاهرًا، فيأمنون وتحفظ لهم حقوقهم بسبب كونهم أهل ذمة، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩].

﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: وبحبل من الناس، أي: وبسبب من الناس، أي: بعهد أو أمان من الناس.

والعهد: ما يتم بين المسلمين وبين غيرهم من الكفار أن لا يعتدي أحد على أحد، كما حصل بين الرسول ﷺ وبين المشركين في صلح الحديبية، ولا يصح إلا من ولي أمر المسلمين أو نائبه أو من يقوم مقامه من قائد الجيش ونحوه.

والأمان أن يدخل أحد من غير المسلمين بأمان من أحد من المسلمين يؤمنه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة:٦]، ويصح هذا من أي فرد من أفراد المسلمين، كما قال ﷺ لأم

هانئ: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ**»(١).

وقد يكون المراد بقوله: ﴿وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ما هو أعم من العهد والأمان، فيدخل فيه المناصرة والتأييد لليهود من غيرهم من الكفار، كما حصل منذ نحو سبعين سنة وإلى يومنا هذا من مناصرة النصارى لليهود واستيلائهم على فلسطين وبيت المقدس.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رجعوا وانصرفوا بغضب من الله. وهذا مما يقوي أن المراد بالآيات اليهود؛ لأنهم أخص بغضب الله تعالى من غيرهم، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٦٠].

وقال ﷺ في تفسير قوله تعالى في الفاتحة: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الآية:٧]، قال: «**المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى**»(٢).

والباء في قوله: ﴿بِغَضَبٖ﴾ للمصاحبة، أي: مصطحبين لغضب من الله، أي: مستحقين مستوجبين لغضب من الله، و«من» في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: للابتداء، أي: صادر من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٦٠].

ومن غضب الله عليه أغضب عليه الخلق، كما قال ﷺ: «**ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس**»(٣)، ولهذا قال تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: الذين غضب الله عليهم وأغضب الله عليهم خلقه.

(١) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٧١)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٣٣٦)، من حديث أم هانئ رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد (٤/٣٧٨-٣٧٩)، والترمذي في تفسير سورة الفاتحة (٢٩٥٣، ٢٩٥٤)، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه. وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه. انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص(٤٩٣).

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي: وضرب الله تعالى عليهم المسكنة، وبُني الفعل لما لم يسم فاعله هنا؛ لما ذكر في قوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾.

أي: وفرضت عليهم المسكنة وألزموها قدرًا وشرعًا، فلا تنفك عنهم.

والمسكنة في الأصل: الفقر والحاجة، ومنه سمي «المسكين» أخذاً من السكون وعدم الحركة واللصوق للتراب بسبب الفقر والحاجة.

والمعنى: ألزموا السكنة، وهي فقر القلوب؛ ولهذا فهم أحرص الناس على جمع المال وأشدهم إمساكًا له، فمع أنهم الآن أغنى العالم وأكثرهم عرضًا فهم أفقر الناس قلوبًا، وأقلهم بذلًا وأعظمهم شحًا وبخلًا، كما قال تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة:٦٤].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لما سبق، أي: ذلك المذكور من ضرب الذلة عليهم، ورجوعهم بغضب من الله، وضرب المسكنة عليهم.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أنهم ﴿كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ «كان» هنا مسلوبة الزمن تدل على اتصاف اسمها بخبرها في جميع الأوقات، أي: كانوا ومازالوا، ولهذا عبر هنا بالمضارع ﴿يَكْفُرُونَ﴾ للدلالة على استمرارهم على ذلك في المستقبل.

أي: بسبب أنهم كانوا يكذبون بآيات الله الشرعية والكونية ويجحدونها، ولا يؤمنون بها، مما أنزل على رسلهم، وعلى محمد ﷺ.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: ويقتلون الأنبياء الذين أرسلوا إليهم قتلًا بغير حق، أي: بالباطل والظلم. والمراد بهذا أسلاف بني إسرائيل، لا المعاصرين له ﷺ.

كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الآية:٦١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩١].

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة:٧٠].

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ لبيان الواقع، وهو أن قتل الأنبياء كله بغير حق، ولا يمكن أن يكون بحق، وفيه أيضًا: تشنيع على أهل الكتاب.

فجمعوا بين الكفر بآيات الله وهذا إخلال بالتوحيد وبين قتل الأنبياء وهذا إخلال بالرسالة.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ هذا تأكيد وتعليل لما قبله، أي: ضربت عليهم الذلة، ورجعوا بالغضب وضربت عليهم المسكنة بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق؛ لأن الكفر عصيان ومخالفة، وقتل الأنبياء تعدٍ واعتداء.

فالإشارة هنا لسبب ما وقع بهم وهو كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق.

والباء في قوله: ﴿بِمَا﴾ للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم بالكفر بآيات الله، ولسبب اعتدائهم بقتل أنبياء الله بغير حق، بل ظلمًا وعدوانًا. فكفرهم بالآيات سببه العصيان، وقتلهم الأنبياء سببه الاعتداء. ويحتمل أن تكون الإشارة إشارة ثانية إلى ضرب الذلة والمسكنة والغضب، فيكون سببًا ثانيًا.

الفوائد والأحكام:

١- شهادة الله تعالى لهذه الأمة بأنها خير الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية.

ولا تعارض بين هذا وبين قوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧]؛ لأن المراد به عالمو زمانهم، يقوي هذا قوله ﷺ في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه: «**أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله**»[١].

وقوله ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أعطوا الكتاب من قبلنا**»[٢].

وهذا مما خص الله تعالى به هذه الأمة، كما قال ﷺ: «**وجعلت أمتي خير الأمم**»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير- سورة آل عمران- (٣٠٠١)، وابن ماجه في الزهد- صفة محمد ﷺ (٤٢٨٨)، وأحمد (١/ ١٢٦، ٤/ ٤٤٧)، وقال الترمذي: «حديث حسن». وقال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٧٨): «وهو حديث مشهور، وقد حسنه الترمذي، ويروى من حديث معاذ بن جبل، وأبي سعيد، ونحوه».

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٦)، ومسلم في الجمعة (٨٥٥)، والنسائي في الجمعة (١٣٦٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٩٨)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

عن سهل بن سعد- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفًا، أو سبعمائة ألف، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر**»[1].

٢- أن سبب خيرية هذه الأمة على غيرها من الأمم كونها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، وبهذا امتازت هذه الأمة وتميزت عن سائر الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فمتى تخلت الأمة عن القيام بهذه الشعيرة فإنها لا تستحق هذه الخيرية. ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من سره أن يكون من تلكم الأمة فليؤد شرط الله منها»[2].

٣- التعريض بما عليه أهل الكتاب من عدم التناهي عن المنكر، كما قال تعالى عنهم: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩].

بل ومن عدم الإيمان بالله حقًا وبما أوجب الإيمان به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:١٥٠، ١٥١].

٤- أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعظم مكانتهما في الإسلام؛ لأن الله رتب الخيرية على القيام بهما مع الإيمان بالله.

ولهذا عد بعض أهل العلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الركن السادس من أركان الإسلام.

٥- أنه كلما قامت الأمة بهذا الواجب العظيم؛ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثر فيها الخير والصلاح وظهر فيها الحق، وبإضاعة هذا الواجب يكثر الشر، وينتشر

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٧)، ومسلم في الإيمان (٣٧٣)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٦٧٣).

الفساد، ويعلو صوت الباطل، كما هو الحال في كثير من البلاد الإسلامية. ولن يعود للأمة مجدها وعزها وسؤددها وكرامتها، ولن تحقق خيريتها إلا بالقيام بهذه الشعيرة العظيمة، فهي صمام أمان للأمة.

٦- إثبات التفاضل بين العمّال، وتفاضل العمّال بتفاضل الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية. وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصانه- كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

٧- أن الإيمان بالله شرط لصحة وقبول جميع الأعمال من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

٨- البشارة ببقاء هذه الشعيرة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإيمان بالله في هذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، وكما قال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»(١).

٩- التنديد بمسلك أهل الكتاب باختيار الكفر بدل الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾.

١٠- أن أهل الكتاب منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

١١- عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم ليسوا على الحق والإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

١٢- أن أهل الكتاب لن يضروا المسلمين في قتال أو غلبة ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾. وهذا وعد من الله- عز وجل- لا يتخلف مع تحقيق الإيمان والقيام بأمر الله تعالى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من واجبات الدين. فإن فرطت الأمة في ذلك- كما هو حال المسلمين

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

اليوم- فليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب.

١٣- أن أهل الكتاب قد يستطيعون أذى المؤمنين بالاستهزاء بهم وبدينهم وبرسولهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَذًى﴾ أي: لكن يؤذونكم أذى بالاستهزاء ونحوه.

وقد كان اليهود ينادون الرسول ﷺ بقولهم: «راعنا» ويورون بوصفه ﷺ بالرعونة. فنهى الله- عز وجل- المؤمنين عن هذه الكلمة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة:١٠٤]. وكانوا يسلمون على النبي ﷺ وأصحابه بقولهم: «السام عليكم»[١] أي: الموت.

١٤- أن أهل الكتاب لو قاتلوا المسلمين، لولوا أدبارهم المسلمين فارين منهزمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ لما هم عليه من الخوف والجبن وفي الإخبار بهذا تقوية للمسلمين وتثبيت لهم.

وهذا مرهون بصدق المسلمين مع الله وتمسكهم حقًا بدينهم وإعداد القوة مما يجعل لهم القوة والهيبة في نفوس أعدائهم، كما قال ﷺ في الحديث: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»[٢].

وما حصل من استئساد لليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر، ليس لشجاعة فيهم وإنما سبب ذلك تخلي المسلمين عن الأسباب التي رتب الله النصر عليها، من التمسك حقًا بدينهم، وإعداد القوة، ففقدوا القوتين القوة المعنوية بعدم التمسك بدينهم، والقوة المادية بعدم إعداد العدة والعتاد، وبهذا خلا الجو لغيرهم واستأسد الفأر، وكما قيل:

خلا لك الجو فبيضي واصفري ... ونقِّري ما شئت أن تنقِّري[٣]

والله- عز وجل- لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) البيت لطرفة بن العبد. انظر: «ديوانه» (ص٤٦).

﴿ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد:١١].

١٥- أن أهل الكتاب لا ينصرون على أهل الإيمان سواء قاتلوهم أم لم يقاتلوهم؟ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

وهذا وذاك والذي قبلهما، أعني عدم نصرة أهل الكتاب، وتوليتهم الأدبار، وعدم ضررهم المؤمنين إلا أذى كل هذا مشروط باجتماع القوتين المعنوية والمادية عند المسلمين؛ المعنوية بتمسكهم بدينهم عقيدة وقولًا وعملًا، والمادية بإعداد العدة والعتاد، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [الأنفال:٦٠].

١٦- ضرب الذلة على أهل الكتاب وبخاصة اليهود وملازمتها لهم وعدم انفكاكها عنهم، حتى ولو صار لهم بعض الظهور، فإنهم أذلاء مهزومون من الداخل؛ لقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾، فحالهم كحال الذي يصيح ويصرخ وهو الأعلى، فقيل: كيف تصرخ وأنت الأعلى؟ فقال: أخاف أن يقلب بي.

١٧- أن الذلة لا ترتفع عن أهل الكتاب إلا بحبل من الله، أي: إلا بعهد من الله بأن يسلموا، أو يدفعوا الجزية فيكونوا أهل ذمة تحفظ لهم بذلك حقوقهم وكرامتهم، أو بحبل من الناس كالعهد أو الأمان بينهم وبين المسلمين ونحو ذلك.

١٨- غضب الله على أهل الكتاب وبخاصة اليهود؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

١٩- إثبات صفة الغضب لله تعالى على ما يليق به، وهو من الصفات الفعلية الاختيارية المتعلقة بمشيئته عز وجل. وهو صفة كمال لله تعالى عند حصول سببه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف:٥٥].

٢٠- ضرب المسكنة على أهل الكتاب، فهم فقراء النفوس والقلوب حتى ولو كانوا من أكثر الناس مالًا وثروة؛ لقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾. وقد قال ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٥١)، والترمذي في الزهد (٢٣٧٣)، وابن =

٢١- الدلالة على نبوته ﷺ وصدق ما جاء به من الإخبار بالغيب الذي وقع من ضرب الذلة والمسكنة على اليهود وغير ذلك.

٢٢- أن السبب في ضرب الذلة على أهل الكتاب، وغضب الله عليهم وضرب المسكنة عليهم هو كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وعصيانهم واعتداؤهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

٢٣- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

٢٤- أن قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ﴾.

٢٥- التشنيع على أهل الكتاب وبيان شدة عتوهم وطغيانهم، حيث جمعوا بين الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء بغير حق، وبين العصيان والعدوان، بين معصية الله تعالى بالكفر، والاعتداء بقتل الأنبياء بغير حق.

٢٦- أن المعاصي يجر بعضها بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

٢٧- ربط الأشياء بأسبابها والعقوبات بموجباتها وبيان عدل الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا﴾.

٢٨- التحذير من مسالك أهل الكتاب من الكفر بآيات الله والعصيان والاعتداء ونحو ذلك.

* * *

ماجه في الزهد (٤١٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة أن أكثر أهل الكتاب فاسقون، وضرب الذلة والمسكنة والغضب عليهم بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء بغير حق وعصيانهم واعتدائهم، ثم أتبع ذلك ببيان أن أهل الكتاب ليسوا سواء فمنهم أمة مؤمنة قائمة على أمر الله، وفيه تأكيد لقوله تعالى في ذلك: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما أسلم عبدالله ابن سلام، وثعلبة بن سَعْيَةَ، وأسيد بن سَعْيَة، وأسد بن عبيد، ومن أسلم من يهود معهم، فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام، وتنحَّوا فيه[1]، قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد، ولا اتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم، وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾»[2].

قوله: ﴿لَيْسُوا۟﴾ الضمير يعود إلى أهل الكتاب، والمراد بهم الموجودون في عهد النبي ﷺ، والواو: اسم ليس. ﴿سَوَآءً﴾: خبرها. و«سواء» بمعنى متساوين، أي: ليسوا على حد سواء؛ كلهم فاسقون وكفار، بل منهم المؤمنون، كما قال تعالى قبل هذا:

---

(١) أي: توجهوا له، وصاروا في ناحيته وقصدوه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٦٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٧٣٧). وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٥٧).

﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الآية:١١٠]، ولهذا قال تعالى هنا: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾، وفي هذا إنصاف لهم، واحتراز من أن يظن أن أهل الكتاب كلهم على غير الإيمان.

وقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾: جملة مستأنفة، وهو وما بعده بيان لقوله: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾.

وأظهر هنا في مقام الإضمار فلم يقل: «منهم» بل قال: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾- والله أعلم- لطول الفصل بين الظاهر الذي ترجع إليه الضمائر، أو لاستئناف الجملة، ولتكون الجملة مستقلة بنفسها ومعناها، ولتشريف هذه الأمة من أهل الكتاب.

و﴿مِّنْ أَهْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اليهود والنصارى.

﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ ﴿أُمَّةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، وجاز الابتداء بها وهي نكرة لوصفها بـ﴿قَآئِمَةٌ﴾.

و﴿أُمَّةٌ﴾ أي: طائفة وجماعة. ﴿قَآئِمَةٌ﴾ أي: ثابتة على الحق، مستقيمة على طاعة الله تعالى قائمة بأمره، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود:١١٢]، وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ﴾ [الشورى:١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت:٣٠، الأحقاف:١٣].

وقال ﷺ: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»[١]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة**»[٢].

﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الجملة في محل رفع صفة ثانية لـ«أمة»، ويجوز كونها في محل

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٨)، والترمذي في الزهد (٢٤١٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٢)، من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الشركة (٢٤٩٣)، والترمذي في الفتن (٢١٧٣)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

نصب على الحال والتعبير بالمضارع في «يتلون» وفي الأفعال بعده للدلالة تجدد هذه الأفعال منهم.

والمراد بـ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ آياته الشرعية «القرآن الكريم».

وتلاوتها تكون بقراءتها قراءة لفظية- مع تدبر معانيها، وتكون باتباعها والعمل بأحكامها- وكل منهما مراد هنا، فالمعنى: يقرؤون آيات الله الشرعية ويعملون بما فيها.

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: أوقات الليل وساعاته، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٥٣] أي: غير منتظرين وقت نضجه.

﴿وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ الجملة مستأنفة، أي: وهم يسجدون لله ويصلون، ويحتمل كونها في محل نصب على الحال من الواو في قوله: ﴿يَتۡلُونَ﴾ أي: يتلون آيات الله وهم ساجدون أي: وهم يصلون.

والسجود يطلق على السجود على الأعظم السبعة، كما في الحديث: «**أمرت أن أسجد على سبعة أعظم**»[١].

كما يطلق السجود على الصلاة كلها، وإنما خص السجود بالذكر أو أطلق على الصلاة كلها؛ لأنه أفضل حالات الصلاة فهو أفضل من القيام، ومن الركوع؛ لأنه أدل على كمال الخضوع؛ لقوله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[٢]، وقوله ﷺ لربيعة الأسلمي لما سأله مرافقته في الجنة قال: «**فأعني على نفسك بكثرة السجود**»[٣].

فوصفهم في هذه الآية بتلاوة آيات الله، وهي أفضل الذكر، وبالسجود وهو أفضل الحالات؛ الصلاة، والسجود فيها، أي: جمعوا بين أفضل القول وهو تلاوة القرآن، وأفضل الفعل وهو السجود لله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨١٠)، ومسلم في الصلاة (٤٩٠)، والنسائي في التطبيق (١٠٩٧)، والترمذي في الصلاة (٢٧٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٨٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٩)، وأبوداود في الصلاة (١٣٢٠)، والنسائي في التطبيق (١١٣٨)، من حديث ربيعة بن كعب رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الكلام مستأنف. وقدم ذكر تلاوة آيات الله والسجود على الإيمان بالله واليوم الآخر- والله أعلم؛ لأن تلاوة آيات الله سبب للإيمان به وباليوم الآخر والثبات على ذلك.

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ الجملة مستأنفة، ويجوز أن تكون صفة لـ«أمة» وأن تكون حالًا، كما قال تعالى قبل هذا: ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي: يصدقون بوجود الله تعالى وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ويصدقون باليوم الآخر، وهو يوم القيامة، وما يقع فيه من الأهوال والحساب والجزاء والجنة والنار وغير ذلك. وسمي بـ«اليوم الآخر» لأنه لا يوم بعده، فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة.

ويقرن عز وجل في القرآن الكريم الإيمان باليوم الآخر كثيرًا بالإيمان به- سبحانه وتعالى؛ لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم ما يحمل ويحفز على العمل حيث فيه الحساب والجزاء على الأعمال.

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ معطوف على قوله: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ وخص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالذكر لعظم مكانته في الإسلام، ومقابلة لوصف المؤمنين به في قوله قبل هذا: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [الآية: ١١٠]، فوصف به أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٩].

﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ معطوف على ما قبله، من عطف العام على الخاص.

وعُدي الفعل «يسارعون» بـ«في» دون «إلى»؛ ليتضمن ذلك المسارعة إلى الخيرات، والمسارعة في الخيرات أثناء القيام بها، فهم يفعلون الخيرات ويبادرون إلى فعلها وفي فعلها ويكملونها.

و﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ جمع «خيرة» أو «خير» وهي كل ما يقرب إلى الله تعالى من فعل الواجبات والمندوبات من الصلاة والزكاة والصيام والحج وبر الوالدين والدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدقات والإحسان إلى الغير قولًا وفعلًا وبذلًا وغير ذلك.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الإشارة للأمة من أهل الكتاب القائمة بأمر الله تعالى الموصوفة بالصفات المذكورة. وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تعظيمًا لشأنهم ورفعة لمنزلتهم. و«من» في قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: تبعيضية، و﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ جمع «صالح»، والصلاح ما توفر فيه الشرطان: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:١٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف بياء الغيبة: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ﴾، وقرأ الباقون بتاء الخطاب على الالتفات «وما تفعلوا من خير فلن تكفروه».

والواو في قوله: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ﴾: عاطفة، و«ما»: شرطية، و﴿يَفْعَلُواْ﴾: فعل الشرط، و«مِن» في قوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ بيانية فيها بيان الإبهام في اسم الشرط «ما»، أيَّ: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ أيَّ خير كان، قليلًا كان أو كثيرًا، وأيًا كان نوعه وكيفه وكمه.

﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ﴾: جملة جواب الشرط، وربط بالفاء لاقترانه بـ(لن).

والمعنى: فلن يجحد ويستر ذلك الخير، أي: فلن يحرموا ثوابه ولن يضيع عند الله عز وجل.

بل سيجازون ويشكرون عليه. والكفر ضد الشكر، كما قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾

[الإسراء:١٩].

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ أي: والله ذو علم بالمتقين الذين اتقوا الله بفعل الخيرات وترك المحرمات، رجاء في ثوابه وخوفًا من عقابه.

وفي ختم الآية بهذا تأكيد لقوله قبله: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآية، ولقوله: ﴿ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ ﴾، وفيه وصف لهم بالمتقين وهو مسك ختام أوصافهم، ووعد لهم بالجزاء والثواب، كما قال تعالى في آخر السورة: ﴿ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [آل عمران:١٩٩].

الفوائد والأحكام:

١- أن أهل الكتاب ليسوا سواء على منهج واحد، فكما أن منهم الفاسقين الكافرين فمنهم أمة مؤمنة قائمة بأمر الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ ﴾ الآية.

٢- كمال عدل الله- عز وجل- فإنه لما ذكر أن أكثر أهل الكتاب فاسقون وذمهم وذكر ما عوقبوا به بيّن في هذه الآيات أنهم ليسوا سواء، وأن منهم أمة قائمة- يعني قائمة بأمر الله وأثنى عليهم بذكر صفاتهم- احترازًا من أن يظن أن أهل الكتاب كلهم فاسقون وكفار لا خير فيهم.

٣- امتداح من آمن من أهل الكتاب والثناء عليهم بالقيام بأمر الله تعالى، وتلاوة آياته آناء الليل، والصلاة والسجود لله تعالى، والإيمان بالله واليوم الآخر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمسارعة في الخيرات؛ لقوله تعالى: ﴿ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

٤- أن ما فعله أهل الكتاب وغيرهم من خير فلن يضيع عند الله، وسيجازون به ويعطون ثوابه كاملًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾.

٥- تساوي الناس في الإسلام فيما يشرع لهم القيام به من الأعمال، ومجازاة كل منهم بما عمل، سواء من كان منهم أصله من أهل الكتاب أو من هذه الأمة.

٦- الحث والترغيب في الصفات المذكورة من القيام بأمر الله تعالى، وتلاوة آياته آناء الليل والسجود له، والإيمان بالله واليوم الآخر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمسارعة في الخيرات، وبيان فضيلة هذه الأعمال، ومكانة المتصفين بها؛ لأن الله- عز وجل- أثنى على أهلها، وأشار إلى رفعة مكانتهم وأنهم من الصالحين، المتقين، ووعدهم بإثابتهم على ذلك.

٧- فضيلة الصلاح؛ لأن الله وصف به أهل الإيمان به، بل وصف به أنبياءه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

٨- أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾.

٩- الترغيب في عمل الخير مطلقًا قليلًا أو كثيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾.

١٠- علم الله تعالى الواسع بالمتقين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾، وفي هذا تأكيد لقوله تعالى قبل هذا: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾.

١١- أن من عمل بما ذكر من الصفات المذكورة في الآيات فهو من الصالحين المتقين.

١٢- الترغيب بتقوى الله تعالى؛ لأن علمه عز وجل بالمتقين فيه وعد لهم بمجازاتهم بالثواب، كما يفهم من ذلك التحذير من ترك التقوى، والوعيد لغير المتقين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

كما قال تعالى في أول السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [الآية:١٠].

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة أن من أهل الكتاب أمة قائمة بأمر الله وأثنى عليهم ووعدهم بالثواب، ثم أتبع ذلك بالوعيد للذين كفروا في هذه الآية.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ «إنَّ» للتوكيد، أي: إن الذين جحدوا وأنكروا وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه أو شيئًا من ذلك، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المجادلة:١٧].

﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لن تدفع ولن تجزي عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا بدفع ومنع شيء من عذاب الله وبأسه عنهم قبل وقوعه، أو رفعه بعد وقوعه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

﴿شَيْـًٔا﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم أيَّ شيء، فلا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله أيَّ شيء، أيًّا كان ومهما قل.

﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾ الأموال: جمع مال، وهي كل ما يتحول ويملك من نقد أو عين وغير ذلك، أي: لن تغني عنهم أموالهم من الله شيئًا، بأن يقدموها فدية للخلاص من عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ

لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [المائدة:٣٦]، وقال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الحديد:١٥].

﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾ الواو: عاطفة، وكرر حرف النفي «لا» لتأكيد عدم غناء أولادهم عنهم شيئًا، بدفع ومنع عذاب الله عنهم أو رفعه.

وخص الأموال والأولاد؛ لأنهم يفتخرون بذلك، ولأن الناس في الدنيا يفتدون بالمال ويدفعون به عن أنفسهم، ويتقوون بالأولاد وينتصرون بهم، كما ينتصر الأقارب بعضهم ببعض، كما قال الشاعر:

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجاء بدون سلاح[1]

لكن ذلك لا يدفع بأس الله تعالى عنهم وعقابه إذا أراده بهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [الأحزاب:١٧].

وأما في الآخرة فكما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]، وقال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ [الممتحنة:٣]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ١٤﴾ [المعارج:١٠-١٤].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۚ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم، أي: أولئك الذين كفروا ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۚ﴾ أي: أهلها وساكنوها وملازموها.

---

(١) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» (ص٢٩).

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ تأكيد للجملة قبلها، وبيان أن مصاحبتهم للنار مصاحبة خلود فيها، لا انقطاع لها.

أي: هم فيها ماكثون مقيمون إقامة أبدية؛ لأن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها ولا أهلها. وقد أكد هذا باختيار الجملة الاسمية الدالة على الاستمرار والدوام.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآية السابقة أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، ثم أتبع ذلك ببيان السبب في ذلك وهو بطلان نفقاتهم بسبب كفرهم وظلمهم.

قوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿مَثَلُ﴾ أي: شبه وصفة، ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾ ﴿مَا﴾: موصولة تفيد العموم أي: مثل الذي ينفقون في هذه الحياة الدنيا في بطلانه واضمحلاله، وهو عام لكل ما ينفقونه من أموالهم في وجوه البر والخير، أو في وجوه الكفر والشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦].

﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ الكاف للتشبيه، كشبه وصفة ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: ريح عاصفة شديدة الهبوب، شديدة البرد، شديدة الصوت، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦].

﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ أي: زرع قوم، ﴿ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ الظلم: النقص، كما قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ﴾ [الكهف:٣٣]. أي: ولم تنقص منه شيئًا.

وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي.

ويشمل في الشرع ترك الواجب وفعل المحرم، أي: ظلموا أنفسهم بالمعاصي، وأعظم ذلك الشرك، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾

[الأنعام:٨٢] أي: بشرك، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:١٣].

﴿فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾ أي: أيبسته وأحرقته، بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر والمعاصي.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى:٣٠].

فشبه عز وجل نفقات الكفار في اضمحلالها وعدم انتفاعهم بها بسبب كفرهم- وهم أحوج ما يكونوا إليها- بزرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي، فسلط الله عليه ريحًا شديدة البرودة فأهلكته، وهم أحوج ما يكونوا إليه فلم تقبل نفقات هؤلاء بسبب كفرهم، ولم يسلم لهؤلاء حرثهم بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر والمعاصي.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: نافية، أي: وما ظلمهم الله فيما أوقع بهم، بل هذا مقتضى عدله، والجزاء من جنس العمل.

والضمائر في قوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ تعود إلى الذين كفروا، أي: وما ظلمهم الله في إبطال نفقاتهم وعدم قبولها؛ لأنهم هم الذين تسببوا في ذلك بظلمهم لأنفسهم بالكفر المحبط للأعمال.

ويحتمل أيضًا عود الضمائر على أصحاب الحرث، أي: وما ظلمهم الله في إهلاك حرثهم بالريح والبرد؛ لأن سبب ذلك ظلمهم لأنفسهم بالكفر والمعاصي.

ولا مانع من حمل الضمائر على الجميع فكل من الفريقين هلك وضاع نتاج عمله بسبب ظلمه لنفسه بالكفر والمعاصي.

وقدم المفعول ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾؛ لإفادة الحصر، أي: لا يظلمون إلا أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧].

الفوائد والأحكام:

١- أن الذين كفروا لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من عقاب الله وعذابه شيئًا، لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾، بل هي وبال وحسرة عليهم؛ لأنهم اتخذوها للصد عن

دين الله، والتكاثر والتفاخر والخيلاء.

٢- أن أهم ما يستغني به الناس في حياتهم الأموال والأولاد.

٣- ينبغي التعلق بالله ورجائه، وعدم الاغترار بالأموال والأولاد فإنها لا تنفع إلا إذا استعين بها على طاعة الله تعالى وأنفقت في سبيله.

٤- أن الذين كفروا هم أهل النار وساكنوها وملازموها، والخالدون فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٥- إثبات النار، وأنها لا تفنى ولا يفنى عذابها.

٦- تحقير الكفار؛ لقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ بإشارة البعيد.

٧- ضرب الأمثال في القرآن الكريم بتشبيه المعقول بالمحسوس لتقريب المعاني؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ﴾ الآية.

٨- أن نفقات الكفار في الحياة الدنيا لا تنفعهم في الآخرة بل تضيع سدى وتذهب هباءً؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾ الآية، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٥٤]، وقال تعالى: ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ [الكهف:١٠٥].

ولما سألت عائشة- رضي الله عنها- رسول الله ﷺ: قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: «**لا، إنه لم يقل يومًا رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»[1].

٩- التحذير من إنفاق الأموال لغير وجه الله تعالى، للرياء وكسب الثناء والذكر عند

(١) أخرجه مسلم في «الإيمان» (٣٦٥).

الناس، وفي المحرمات والمعاصي.

١٠- بلوغ القرآن الكريم الغاية في البلاغة في تشبيهه نفقات الكفار في ضياعها واضمحلالها وهلاكها بريح فيها صر أصابت حرث قوم فأهلكته.

١١- أن الله- عز وجل- ما ظلم هؤلاء الكفار في إبطال نفقاتهم؛ لأن ذلك بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر، كما أنه سبحانه ما ظلم أصحاب هذا الحرث بإهلاكه بالريح؛ لأن ذلك بسبب ظلمهم لأنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

١٢- كمال عدل الله- عز وجل- وأنه لا يظلم أحد من خلقه، وإنما هم يظلمون أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:١١٨].
وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤].

١٣- الإشارة إلى أن نفس الإنسان وديعة عنده ينبغي أن يحملها على ما فيه صلاحها ونجاتها وسعادتها في دينها ودنياها وأخراها وأن ينأى بها عن مواقع الزلل والخطر، وما يعرضها للهلاك، ولعذاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

١٤- أن الكافر والعاصي لا يضر في الحقيقة إلا نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بتقديم المفعول أنفسهم للدلالة على الحصر؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧، الأعراف:١٦٠].

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)﴾.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ سبق الكلام عليه.

﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ ﴿لَا﴾: ناهية، ﴿تَتَّخِذُوا﴾ أي: تجعلوا، وهو ينصب مفعولين، الأول هنا «بطانة» والثاني محذوف تقديره «أصفياء» أو نحو ذلك.

و«البطانة» بكسر الباء وهي في الأصل: داخل الثوب الذي يلي البدن، وجمعها بطائن، كما قال تعالى: ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾، وبطانة الرجل هم أصفياؤه وأصدقاؤه وخاصته الذين يفضي إليهم بأسراره ويطلعهم على خاصة أموره وأحواله. قال الشاعر:

أولئك خُلْصاني نَعم وبِطانتي … وهم عيبتي من دون كل قريب[1]

سموا بطانة؛ لأنهم يلونه ويطلعون على أسراره وأموره الباطنة، كما تلي بطانة الثوب بدن لابسه، والثوب له بطانة وله ظهارة، فالبطانة: ما ولي الجسد، والظهارة: ما كان فوق ذلك.

﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ«بطانة»، ويجوز تعلقه بـ«لا تتخذوا»، و«من» للتبعيض أي: من غيركم، كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم:٨١]، أي: من غير الله. فقوله: ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ أي: من

(١) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٣٠٧).

غير أهل دينكم المسلمين.

وقيل: «مِن» زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى، والتقدير على هذا: لا تتخذوا بطانة دونكم في الإيمان والعمل والمنزلة.

والمعنى: لا تتخذوا وتجعلوا أولياء وأصفياء وخواص لكم من المنافقين، واليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر تفضون إليهم بأسراركم، وتطلعونهم على دواخل أموركم وأحوالكم، وهم «الوليجة»، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦].

وقد روي أن هذه الآيات نزلت في قوم من المؤمنين كان يصافون المنافقين ويواصلون رجالًا من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع، فأنزل الله تعالى هذه الآية عامة فلا يجوز اتخاذ بطانة من غير المؤمنين مطلقًا.

قوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾.

هذه الجملة مستأنفة، تعليلًا للنهي في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ أي: لأنهم لا يألونكم خبالًا ويودون ما عنتم، وقد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر.

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ ﴿لَا﴾: نافية، و«يألون»: ينصب مفعولين، الأول ضمير المخاطبين، والثاني ﴿خَبَالًا﴾. أي: لا يألون جهدًا ولا يقصرون في خبالكم.

ومنه قول معاذ رضي الله عنه: «أجتهد رأيي ولا آلو»[1] أي: لا أقصر في ذلك.

والخبال: الفساد في الرأي والعقل؛ ولهذا يوصف به فاسد الرأي والعقل.

والمعنى: أنهم يبذلون كل جهد لإفساد رأيكم، وتقليلكم، واختلال أموركم.

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ الود: خالص المحبة، و«ما»: مصدرية، و«العنت»: المشقة الشديدة والتعب، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٠] أي: لشق

---

(١) أخرجه أبوداود في الأقضية (٣٥٩٢)، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

عليكم، وقال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة:١٢٨] أي: ما شق عليكم.

فمعنى ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: أحبوا بكل قلوبهم «عنتكم» أي: المشقة الشديدة عليكم وإتعابكم، معنويًا بقلوبكم، وحسيًّا بأبدانكم وأموالكم، في أمور دينكم ودنياكم، بإضعاف قوتكم المعنوية؛ قوة الدين والإيمان بالتشكيك في دينكم، وصد الناس عنه ونحو ذلك، وإضعاف قوتكم المادية العلمية والاقتصادية والسياسية، وقوة العدة والعتاد وغير ذلك.

﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق، ﴿بَدَتِ﴾ أي: ظهرت، ﴿ٱلْبَغْضَآءُ﴾: الكراهية والحنق والحقد والعداوة، ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، ﴿مِنْ﴾: لابتداء الغاية، اي: قد ظهرت الكراهة والعداوة الشديدة لكم، ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، أي: من أقوالهم وفلتات ألسنتهم، فهم لشدة عداوتهم لا يملكون أنفسهم، ولا يقدرون على حفظ ألسنتهم من النضح بما في قلوبهم، وإن حاولوا التكتم على ذلك بغية الوصول إلى مآربهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠].

وفي الأثر: «**ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله عز وجل على صفحات وجهه وفلتات لسانه**»[1]، وكما قيل: «كوامن النفوس تظهر على صفحات الوجوه وفلتات اللسان». قال الشاعر:

فحسبكم هذا التمايز بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضح[2]

وقال الآخر:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم[3]

﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ «ما»: موصولة، أي: والذي تخفي صدورهم وقلوبهم من البغضاء والكراهية والعداوة لكم أكبر وأعظم، مما يظهر من أفواههم وعلى ألسنتهم.

---

(١) انظر: «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ١٣٦).

(٢) البيت لحيص بيص. انظر: «حياة الحيوان الكبرى» (١/ ١٩١).

(٣) البيت لزهير. انظر: «ديوانه» (ص١٥).

وفي هذه الجمل الأربع تأكيد للنهي السابق وكشف وفضح لكثير ممن يتملقون ويظهرون خلاف ما يبطنون من البغضاء والعداوة وإضمار الشر والغش، كما قيل:

لا تـــأمنن عـــدوًا لان جانبـــه خشونة الصل عقبى ذلك اللـين[١]

وقال الآخر:

إن الأفـاعى وإن لانـت ملامسـها عنـد التقلـب في أنيابهـا العطـب[٢]

وقال الآخر:

يعطيـك مـن أدنـى اللسـان حـلاوة ويـروغ منـك كـما يـروغ الثعلـب

يلقـــاك يحلـــف إنـــه بـــك واثـــق وإذا توارى عنك فهـو العقـرب[٣]

واتخاذ بطانة من غير المسلمين خطره عظيم، وضرره جسيم على الأمة، على الأفراد والجماعات، وبخاصة ولاة الأمر وأرباب المسؤوليات في الأمة، ولهذا يجب الحذر كل الحذر من ذلك، فإنهم مهما أظهروا من النصح فلا يوثق بهم، ولا ينبغي أن يطَّلعوا على أحوال المسلمين وأسرارهم.

وقد ذكر أن أبا موسى الأشعري- رضي الله عنه- اتخذ كاتبًا نصرانيًا في بيت المال فكتب إليه عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- بعزله، وقال: كيف نأمنهم وقد خوّفهم الله؟ فكتب إليه أبوموسى: إن بيت المال بحاجة إليه وإنه ذو معرفة بالكتابة والحساب ولا يوجد من يقوم مقامه.

فأرسل إليه عمر- رضي الله عنه- بطاقة صغيرة كتب فيها: «مات النصراني والسلام»[٤] أي: قدّر أن هذا النصراني مات، هل تتعطل أمور الأمة؟ أي: ابحث عن غيره فلسنا بحاجة إلى مثله.

كما ينبغي أن يحذر من البطانة السيئة حتى ممن يحسبون على الإسلام من أرباب الشبهات والشهوات الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن

---

(١) البيت ينسب للشريف الرضي. انظر: «جواهر البلاغة» ص١٨٢، «البلاغة الواضحة» ص١٥٦.

(٢) البيت لعنترة بن شداد. انظر: «ديوانه» (ص١٥).

(٣) البيتان ينسبان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «حياة الحيوان الكبرى» (١/ ٥١).

(٤) انظر: «الكشاف» (١/ ٣٤٤).

تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧].

وما أكثر هؤلاء من دعاة الديمقراطية والتطور والانفتاح ونبذ الموروث القديم من أبواق أعداء الإسلام ممن هم من أبناء جلدتنا ويتكلمون بلغتنا، كما في حديث حذيفة رضي الله عنه: «**دعاة على أبواب جهنم**»[1].

وكم زال من ملك، وتبدلت من دول، وزالت من نعم، وحلت من نقم، بسبب التساهل في اختيار البطانة الصالحة، مما يوجب الحرص على اختيار البطانة الصالحة، والحذر من بطانة السوء.

عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان؛ بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله**»[2].

ولهذا كان من أهم ما يُدْعَى به لولاة أمور المسلمين أن يرزقهم الله البطانة الصالحة التي تدلهم على الخير وتحثهم عليه، وتحذرهم من الشر وتنهاهم عنه.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: قد أوضحنا وأظهرنا لكم عناية بكم الآيات الكونية والشرعية، ومن ذلك الدلائل على سوء اتخاذ بطانة من دونكم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [سورة الحجر:٧٥].

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: إن كنتم ذوي عقول تعقلون بها وتفهمون ما بيّناه لكم من الآيات، وتهديكم إلى ما ينفعكم وتمنعكم عما يضركم.

وذلك أن العقل عقلان: عقل هو مناط التكليف، ولولاه ما كلفوا، وليس مرادًا هنا، وعقل هو مناط المدح والذم، وهو المراد هنا.

أي: إن كنتم ذوي عقول تعقلون بها الآيات وتهتدون بها إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم:٢٨]، وقال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر:٥].

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٨٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في القدر (٦٦١١)، والنسائي في البيعة (٤٢٠٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أي: إن بياننا الآيات لكم لا يظهر إلا لمن كان له عقل يدله ويهديه إلى الحق، ويحجزه ويمنعه عن الباطل واتباع الهوى، فيهتدى بالآيات إلى الحق، ويبتعد عن الباطل، ويسلم من اتخاذ بطانة من دون المؤمنين تفسد عليه أمره. قال الشاعر:

وآفة العقل الهوى فمن علا على هواه عقله فقد نجا[١]

أما من كان له عقل لكنه لم يهده إلى الحق ولم يحجزه عن الباطل فإنه أعمى عن بيان الآيات، وليس بعاقل، بل متبع لهواه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧]، وقال الذين كفروا: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠].

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾.

نهى الله- عز وجل- المؤمنين عن اتخاذ بطانة من غيرهم، وعلل لذلك النهي بأن هؤلاء البطانة لا يألون جهدًا في خبال المؤمنين، ويودون عنتهم، وقد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، وأنه ليس من العقل اتخاذهم بطانة، ثم ذكر في هذه الآية والتي بعدها ما يؤيد ذلك من واقع تعاملهم ويبين خطأ المؤمنين في موالاتهم حث يبذلونها لمن لا يحبهم بل يبغضهم ويعاديهم.

قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾ قرأ قنبل عن ابن كثير بالقصر: «هأنتم»، وقرأ الباقون بالمد ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾ و«ها»: حرف تنبيه، «أنتم»: ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ، والخطاب للمؤمنين. ﴿أُوْلَآءِ﴾: اسم إشارة منادى، وأصله: يا هؤلاء ﴿تُحِبُّونَهُمۡ﴾: خبر المبتدأ.

والضمير «هم» في ﴿تُحِبُّونَهُمۡ﴾ يعود إلى البطانة في قوله: ﴿بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ﴾ أي: تحبون هذه البطانة، أي: ها أنتم يا هؤلاء المؤمنين تحبون هؤلاء المنافقين الذين اتخذتموهم بطانة من دونكم إحسانًا منكم الظن بهم، لما يظهرون لكم من الإيمان.

﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ أي: وهم لا يحبونكم لا ظاهرًا ولا باطنًا، كما قال تعالى: ﴿قَدۡ

---

(١) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» (٢/ ١١٣).

بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾.

﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ ﴾: معطوف على ما قبله، و«ال» في «الكتاب»: للجنس، أي: وتؤمنون بكتب الله تعالى كلها، ولهذا أكده بقوله: ﴿كُلِّهِۦ﴾.

أي: وتصدقون ظاهرًا وباطنًا بجميع الكتب التي أنزلها الله تعالى؛ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، وصحف إبرهيم وغيرها، مما سمى الله تعالى لكم ومما لم يسم.

وهم في شك وريب من ذلك، بل لا يؤمنون بذلك، أو يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، كاليهود يؤمنون بالتوراة، والنصارى يؤمنون بالإنجيل، ويكفرون جميعًا بالقرآن الكريم.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟﴾ نفاقًا وتقية: ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: صدقنا بما جاء به محمد ﷺ مثلكم، وهم كما قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٧]، وكما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة:١٤].

﴿وَإِذَا خَلَوْا۟﴾ أي: انفردوا وحدهم.

﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ العض: تحامل الأسنان بعضها على بعض، ويعبر به عن الندم المفرط، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّـٰلِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان:٢٧]، فكأن صاحب الغيظ يتمنى أن يجعل عدوه بين أسنانه فيقضمه من شدة غيظه، قال أبوطالب:

وقد صالحوا قومًا علينا أشحة ... يعضون غيظًا خلفنا بالأنامل(١)

و﴿ٱلْأَنَامِلَ﴾ جمع أنملة، وهي: أطراف الأصابع.

﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: من شدة الغيظ في قلوبهم، والغيظ: الحنق، وشدة الغضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه، والتغيظ: إظهار الغيظ، وقد يكون مع ذلك صوت، كما قال تعالى: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢].

---

(١) البيت لأبي طالب عم النبي ﷺ. انظر: «خزانة الأدب» (٢/ ٦٠).

﴿ مِنَ ﴾ للسببية، أي: بسبب شدة الغيظ والحنق عليكم؛ لما يرون من نعمة الله عليكم بالإيمان، وظهور أمركم، واجتماع كلمتكم، وعدم تمكنهم من ردكم إلى دينهم ومن نيل مآربهم فيكم.

﴿ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ولكل مؤمن، أي: قل لهؤلاء موتوا بغيظكم. والأمر في قوله: ﴿ مُوتُوا۟ ﴾ للإهانة والإغاظة، أي: موتوا بغيظكم تأسفًا وتحسرًا حيث لم تجدوا إلى التشفي سبيلًا.

والباء في قوله: ﴿بِغَيْظِكُمْ﴾ للسببية، أي: موتوا كمدًا بسبب غيظكم، فهو دعاء عليهم بزيادة غيظهم لما يرون من عز الإسلام وقوة المسلمين إلى أن يهلكوا بسبب ذلك.

ويجوز كون الباء للحال والملابسة والغاية، أي: موتوا متلبسين بغيظكم، وهذا دعاء ببقائهم على غيظهم بسبب عز الإسلام وقوة أهله إلى أن يموتوا متلبسين به.

والأول أولى؛ لأنه أشد في التحدي لهم وإغاظتهم، وإظهار القوة أمامهم، ومفاصلتهم، أي: موتوا بسبب غيظكم، فإن الله- عز وجل- متم نعمته على المؤمنين ومكمل دينه ومظهره ومعل كلمته، رغم أنوفكم.

عن تميم الداري- رضي الله عنه- قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو ذل ذليل، عزًّا يعز الله به الإسلام، وذلاًّ يذل الله به الكفر**»[(١)].

وعن أبي بن كعب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**بشّر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا فما له في الآخرة من نصيب**»[(٢)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ الجملة مستأنفة، ﴿إِنَّ﴾ للتوكيد، و﴿عَلِيمٌ﴾ على وزن «فعيل». أي: ذو علم تام واسع ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ ولهذا بيّن عز وجل لعباده المؤمنين ما تنطوي عليه قلوب البطانة من غيرهم من الغيظ والبغضاء والعدوان وغير ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٤).

و«ذات الصدور» صاحبة الصدور، وهي القلوب، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة الحج:٤٦] أي: إن الله ذو علم واسع تام بالقلوب وما فيها من المكنونات من المعتقدات والأسرار والنوايا، والصلاح والفساد، والتي عليها مدار صلاح البدن أو فساده، كما قال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[1].

قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة شدة غيظ المنافقين وأعداء المؤمنين، ثم أتبع ذلك وأكده بما يدل على تناهي عداوتهم إلى حد الحسد والشماتة، فقال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ الآية.

قوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين.

و﴿حَسَنَةٌ﴾ نكرة في سياق الشرط، فتعم كل حسنة. والحسنة: كل ما حسن في أمر الدين والدنيا.

أي: إن تحصل لكم أيها المؤمنون أيُّ حسنة في دينكم، من نصر كما في بدر وغير ذلك، ومن ظهور وكثرة وعزة، وتأييد لدينكم أو في دنياكم بأبدانكم وأموالكم وبلدانكم من عافية وغنى، وخصب ونماء ونحو ذلك.

﴿تَسُؤْهُمْ﴾: جواب الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلة الواو. والأصل «تسوؤهم».

أي: تحزنهم تلك الحسنة أيًّا كانت؛ لشدة عداوتهم لكم، فلم يقف الحال بهم عند عدم محبة الحسنة والخير لكم وعدم مسرتهم بذلك، بل تجاوزوا ذلك إلى ما هو أشد، وهو أن ذلك يسوؤهم، مما يؤكد شدة عداوتهم ووجوب الحذر منهم.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها. والسيئة: كل ما يسوء في أمر الدين أو أمر الدنيا.

و«سيئة» هنا نكرة في سياق الشرط فتعم أي: سيئة تصيب المؤمنين في دينهم، أو دنياهم، في أبدانهم أو أموالهم وبلدانهم، كما حصل في أُحد حديث أديل العدو على المؤمنين؛ لحكمة يعلمها الله تعالى، وكما في حصول جدب وقحط، أو إصابة طرف من المؤمنين، أو اختلاف بينهم ونحو ذلك.

﴿يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ «الباء» في ﴿بِهَاۖ﴾ للسببية، أي: يفرحوا بسببها، أي: يُسرُّوا لشدة عداوتهم لكم.

وهنا كذلك لم يقف الحال بهم عند عدم المبالاة بما يصيب المسلمين، أو عدم كراهة المصيبة لهم، بل يفرحون بها، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ۝٧٢ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ [النساء:٧٢-٧٣].

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾.

ختم الله تعالى هذه الآيات بعد النهي عن اتخاذ بطانة من غير المؤمنين، وتأكيد ذلك والتحذير منه، بذكر البلسم الشافي والعلاج الكافي والسبب الواقي، بإذن الله تعالى من كيد هؤلاء وغيرهم فقال: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ الآية، أي: وإن تصبروا على ما ينالكم منهم، وعلى غير ذلك من المصائب.

﴿وَتَتَّقُواْ﴾ بفعل ما أمركم الله به، واجتناب ما نهاكم عنه، من اتخاذ بطانة من دونكم وغير ذلك.

وقدَّم الصبر على التقوى؛ لأنها مبنية عليه، ولا تقوم إلا به.

﴿لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبوعمرو ويعقوب وخلف: «لا يَضِرْكم» بكسر الضاد والتخفيف من «الضير» بمعنى الضرر والضيم، ومنه ما جاء في الحديث: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تَضارون**»، وفي رواية: «**لا**

تُضارون» في رؤيته»[1]، أي: لا يلحقكم «ضير» أي: ضرر وضيم.

وقرأ الباقون بضم الضاد وتشديد الراء ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ من «الضرر».

﴿كَيْدُهُمْ﴾ أي: مكرهم الخفي؛ للإيقاع بكم وخداعكم.

﴿شَيْـًٔا﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم أيَّ شيء.

أي: لا يضركم ولا يضيمكم كيدهم ومكرهم وخداعهم شيئًا أيًّا كان، ومهما قل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ﴿إِنَّ﴾: للتوكيد، ولفظ الجلالة اسمها، ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: متعلق بالخبر ﴿مُحِيطٌ﴾، وقدم عليه للتأكيد على عموم إحاطته- عز وجل- بكل ما يعملون، و«ما»: موصولة أو مصدرية.

أي: إن الله بالذي يعمله أعداؤكم أيها المؤمنون، أو بعملهم، من الكيد لكم والكفر والصد عن دين الله ﴿مُحِيطٌ﴾.

أي: مطلع عليه بعلمه، محيط به بقدرته وسلطانه، فلا يخرجون عن علم الله تعالى، ولا يفرون عن قدر الله وقدرته وسلطانه، وسيجازيهم ويعاقبهم على أعمالهم في الدنيا والآخرة، ويكفيكم إياهم.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وحضًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن الانتهاء عما نهى الله عنه في الآية من مقتضيات الإيمان، وعدمه نقص في الإيمان.

٣- نهي المؤمنين عن اتخاذ بطانة من غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة- فضل صلاة الفجر (٥٧٣)، وفي التوحيد (٧٤٣٨)، ومسلم في المساجد- فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليهما (٦٣٣)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٤٤)، من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه.

دُونِكُمْ ﴾، والنهي يقتضي التحريم، كما قال تعالى: في الكفار والمشركين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء:١٤٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة:١]، وقال تعالى في أهل الكتاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة:٥١]، وقال تعالى في المنافقين: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ [المنافقون:٤] .

فلا يجوز لولاة الأمور وأصحاب المسؤوليات في الأمة اتخاذ بطانة من دون المؤمنين من المنافقين أو من أهل الكتاب وغيرهم كما لا يجوز ذلك لعامة المسلمين أفرادًا أو جماعات، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [سورة هود:١١٣].

وقد روي أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إن ههنا غلامًا نصرانيًا من أهل الحيرة، حافظًا كاتبًا، فلو اتخذته كاتبًا؟ قال: قد اتخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين»[(١)].

٤- أن العلة والسبب في النهي عن اتخاذ بطانة من غير المؤمنين أنهم لا يألون المؤمنين خبالًا، ويودون عنتهم والمشقة عليهم، وما تظهره أفواههم من البغضاء، مع ما تخفيه صدورهم مما هو أكبر؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾.

٥- أن المنافقين وأعداء الإسلام من اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم لا يألون جهدًا في خبال المؤمنين أي: إفساد رأيهم وأمورهم مما يوجب عدم الركون إلى آرائهم ومشورتهم.

٦- مودة غير المؤمنين العنت والمشقة للمؤمنين.

٧- ظهور بغض المنافقين وغيرهم من أعداء الإسلام للمؤمنين من أفواههم وفلتات

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٧٤٣).

ألسنتهم مهما أرادوا كتمان ذلك.

٨- أن ما يخفيه هؤلاء من البغضاء والعداوة في صدورهم أكبر مما يظهرونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ ودلائل هذا واضحة من واقعهم فإنهم يتحينون الفرص فإذا سنحت لهم فرصة وقوي جانبهم أظهروا ما هو أكبر.

٩- عدم جواز اتخاذ بطانة ممن ليسوا محلًا لذلك من المسلمين، ممن لا يعرف نصحهم- بل ربما يظهر غشهم وعدم نصحهم- وما أكثر هؤلاء- ممن قد يكونون أشد خطرًا، وأعظم ضررًا من غير المسلمين- وهذا أمر مشاهد فإنه ما أضر بالمسلمين اليوم أكثر من هؤلاء ممن هم من جلدتنا ويتكلمون بلغتنا، كما جاء في حديث حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- قال: «**كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله: إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. قلت: وهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضّ بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**»[1].

١٠- امتنان الله- عز وجل- على المؤمنين ببيان الآيات الشرعية والكونية ومن ذلك بيان الآثار السيئة المترتبة على اتخاذ بطانة من غير المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾.

١١- إقامة الحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ وهذا البيان عام.

١٢- أن الذين يعقلون آيات ويتفكرون بها هم المؤمنون فقط، ولهذا خصهم بالخطاب فقال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٨٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٩).

١٣- أنه لا يهتدي لبيان الآيات وينتفع بها إلا العقلاء الذين تهديهم عقولهم إلى الخير وتمنعهم من الشر؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٤- أن من لم يهده عقله إلى التأمل والتفكر في آيات الله والإيمان بها فهو غير عاقل؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وإن كان عنده عقل الإدراك، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩].

١٥- تأكيد النهي عن اتخاذ بطانة من غير المؤمنين، بذكر البراهين الدالة على علل ذلك النهي من الواقع؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰأَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ الآية.

١٦- التوبيخ الشديد للمؤمنين في اتخاذهم بطانة من دونهم. والإشارة إلى أن هؤلاء في باطلهم أصلب منكم في حقكم، كما قال عمر رضي الله عنه: «اللهم إليك أشكو جلد الفاجر وعجز الثقة»[1].

١٧- علم الله- عز وجل- بما تنطوي عليه القلوب من المحبة وضدها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰأَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾.

١٨- كراهة غير المؤمنين للمؤمنين وعدم محبتهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾.

١٩- الثناء على المؤمنين من هذه الأمة بإيمانهم بجميع كتب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾.

وفي هذا تعريض بأن من عداهم لا يؤمنون بجميع الكتب كاليهود لا يؤمنون بالإنجيل والقرآن، والنصارى لا يؤمنون بالقرآن. ومن لم يؤمن بجميع كتب الله فليس بمؤمن، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ﴾ [البقرة:٨٥].

٢٠- نفاق هؤلاء ومخادعتهم للمؤمنين بقولهم: (آمنا) وإذا خلوا أظهروا خلاف

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٧٤٣).

ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾، والعبرة بالأفعال لا بالأقوال.

٢١- شدة غيظ هؤلاء وعداوتهم وحنقهم على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾، وهذا علامة على أشد ما يكون من الغيظ.

٢٢- بلاغة القرآن الكريم في تصويره شدة غيظ أعداء المؤمنين بِعَضِّهم عليهم الأنامل من الغيظ، أي: بمن يتمنى أن يكون عدوه بين أسنانه وأضراسه فيطحنه ويقضمه بها من شدة الغيظ والحنق.

٢٣- ينبغي إظهار القوة والشدة أمام أعداء المسلمين وإهانتهم وإغاظتهم، وعدم الملاينة معهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾.

٢٤- إثبات وتأكيد علم الله التام بما تخفيه الصدور، وتضمره القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وإذا كان عليمًا بما في الصدور والقلوب فعلمه بما ظهر من باب أولى.

٢٥- الوعيد لمن أضمر الشر، والوعد لمن أضمر الخير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، فمقتضى علمه أن يحاسب ويجازي على ما في الصدور من خير أو شر.

٢٦- أن أعداء المسلمين من المنافقين وغيرهم يسوؤهم أن يحصل للمسلمين أيُّ حسنة وخير، ويفرحهم أن يحصل لهم أيُّ سيئة ونقيصة؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ﴾، فهم يتربصون بالمسلمين الدوائر، وإن أظهروا خلاف ذلك.

٢٧- أن من يسوؤه حصول الخير لك، ويفرحه حصول الشر لك فهو عدو وليس بصديق، وإن ادَّعىٰ ذلك وأظهره، وكما قيل:

صديقي من يقاسمني همومي ... ويرمي بالعداوة من رماني
ويصفو لي إذا ما غبت عنه ... وأرجوه لنائبة الزمان

٢٨- الإطناب بذكر عشر مساوئ للبطانة من غير المؤمنين، تأكيدًا على شدة

تحريم ذلك، ودليلًا على عظيم خطره.

٢٩- أن في الصبر والتقوى ضمانة لدفع ضرر كيد أعداء الأمة؛ بل لدفع جميع الشرور؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾.

٣٠- الحث على الصبر والتقوى ففيهما النجاة من المرهوب وحصول المطلوب.

٣١- إحاطة الله- عز وجل- بعلمه وقدرته وسلطانه بأعمال هؤلاء الذين يكيدون للمسلمين والوعيد والتهديد لهم وأنه- عز وجل- لهم بالمرصاد ولن يفلتوا من عقابه لهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

٣٢- في ابتلاء المؤمنين بكيد أعدائهم لهم تمحيص للمؤمنين، يظهر صبرهم وتعظم تقواهم لله تعالى وتعلقهم به وثقتهم بوعده ونصره، كما أن فيه استدراجًا لأعدائهم؛ ليتمادوا في طغيانهم فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾.

نهى الله- عز وجل- المؤمنين عن اتخاذ بطانة من دونهم لا يألونهم خبالًا من المنافقين وأهل الكتاب؛ لما في ذلك من الفساد، ولما تنطوي عليه قلوبهم من محبة المشقة على المؤمنين، والبغضاء وعدم المحبة لهم، والكفر والنفاق، والغيظ على المؤمنين ومحبة السوء لهم، ثم أيَّد ذلك بذكر قصة أحد التي نجم فيها نفاق المنافقين وكيدهم وأسيادهم من اليهود حيث رجع عبدالله بن أبي بثلث الجيش، وقال كما حكى الله عنه: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٧]. فهذه الآية ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ إلى تمام ستين آية نزلت في وقعة أُحد، وهذه السورة كلها نزلت بعد أُحد.

قال ابن القيم[(١)]: «افتتح القصة بقوله: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى تمام ستين آية».

قوله: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ الواو: استئنافية، و«إذ»: ظرف بمعنى «حين» متعلق بمحذوف تقديره: اذكر، أي: واذكر حين غدوت من أهلك، والغدو: الخروج أول النهار، وقد يحمل هنا على مجرد الخروج؛ لأن خروج النبي ﷺ في «أُحد» كان يوم

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥١٠).

الجمعة بعد الصلاة عند أكثر أهل السير، وكانت وقعة أُحد في السنة الثالثة من الهجرة في شهر شوال، يوم السبت الحادي عشر من شوال، وقيل: السابع من شوال.

﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ ﴿مِنْ﴾: ابتدائية، أي: مبتدأ هذه الغدوة من أهلك، أي: من بيت أهلك وزوجك في المدينة.

وسبب هذه الغزوة أن المشركين لما قُتل يوم بدر سبعون رجلًا من أشرافهم وكبرائهم، وأُسر سبعون أرادوا الأخذ بالثأر من النبي ﷺ وأصحابه، فجمعوا الجموع والأحابيش، وأقبلوا في نحو ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريبًا من أُحد تلقاء المدينة في مكان يُقال له: «عَينَيْن».

فاستشار النبي ﷺ أصحابه هل يخرج إليهم؟ فأشار عليه بعضهم ممن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم، وأشار عبدالله بن أبي وبعض الصحابة بعدم الخروج من المدينة، وأن يتحصنوا بها، فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت، وكان هذا رأيه ﷺ، وكان هو الرأي، لكن ألحّ عليه الذين أشاروا بالخروج، فدخل ﷺ ولبس لَأْمَة الحرب التي توضع على الرأس، وخرج إلى أصحابه، فقال بعض الذين أشاروا عليه بالخروج: لعلنا استكرهنا رسول الله، ليتنا لم نتكلم بهذا. فقالوا: يا رسول الله: إن شئت أن لا نخرج فعلنا. فقال عليه الصلاة والسلام: «**ما ينبغي لنبي إذا لبس لَأْمَته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه**»[(١)].

فخرج رسول الله ﷺ من المدينة يوم الجمعة بعد الصلاة في ألف من أصحابه، وفي أثناء الطريق رجع عبدالله بن أبي بثلث الجيش مغاضبًا لرسول الله ﷺ؛ لأنه لم يأخذ برأيه ومشورته في البقاء في المدينة، وقال هو وأصحابه- كما ذكر الله عنهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾، قال الله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾. [آل عمران:١٦٧].

واستمر رسول الله ﷺ سائرًا حتى نزل الشِّعْب من أُحد في عُدْوة الوادي، وجعل

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥١)، والدارمي (٢/ ١٢٩، ١٣٠)، من حديث جابر- رضي الله عنه- ورجاله ثقات، وله شاهد من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- أخرجه الحاكم (٢/ ١٢٨، ١٢٩) وصححه ووافقه الذهبي.

ظهره وعسكره إلى أُحد وقال: «**لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال**».

وتهيأ ﷺ للقتال، وبوَّأ أصحابه، وهم سبعمائة مقاعدهم للقتال، وجعلهم ميمنة وميسرة، وأمَّر على الرماة عبدالله بن جبير وكانوا خمسين رجلًا، وقال لهم: «انضحوا الخيل عنا، أي: ادفعوها عنا بالنبال، ولا نؤتين من قبلكم، والزموا مكانكم، إن كانت النوبة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا تخطفنا العير فلا تبرحوا مكانكم».

وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، أي: لبس درعًا فوق درع، وأعطى اللواء مصعب بن عمير أخا بني عبدالدار- رضي الله عنه.

وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، ودفعوا إلى بني عبدالدار اللواء[(١)].

فحصل القتال يوم السبت في أول النهار، وانتصر المسلمون وولى المشركون الأدبار، فجعل المسلمون يجمعون الغنائم، فلما رأى الرماة- وهم على الجبل- أن المشركين قد وَلَّوا الأدبار، وأخذ المسلمون يجمعون الغنائم، قالوا: انتهت الحرب وأرادوا النزول للمشاركة في جمع الغنائم، فذكَّرهم أميرهم بقول رسول الله ﷺ: «لا تبرحوا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا»، لكنهم لم يأخذوا بذلك ونزلوا. فكر خالد ابن الوليد في مجموعة من فرسان قريش من خلف ظهور المؤمنين لما انكشفت بنزول الرماة، فاختلط المشركون بالمسلمين من ورائهم، فقتل سبعون رجلًا من المسلمين، منهم حمزة عم النبي ﷺ، ومُثّل به.

وجرح النبي ﷺ وشج في وجهه وكسرت رباعيته، فأخذ يمسح عن وجهه، ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله»[(٢)].

وأمر النبي ﷺ بدفن شهداء أُحد في مصارعهم، ولم يُغَسَّلوا ولم يُكَفَّنوا؛ لأن الشهيد يُبْعَث يوم القيامة وجرحه يثعب دمًا، اللون لون الدم والريح ريح المسك»[(٣)].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٦٣)- وما بعدها، «زاد المعاد» (٣/ ١٩٢) وما بعدها، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٩١).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٩١)، والترمذي في التفسير (٣٠٠٢)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٧٦)، والنسائي في الجهاد (٣١٤٧)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وحصل ما حصل من الابتلاء للنبي ﷺ وأصحابه مما قدَّره الله تعالى وقضاه؛ لحكم وأسرار عظيمة جاءت الإشارة إليها في ثنايا الآيات في ذكر هذه القصة.

وقتل من المشركين نيِّفًا وعشرين، وقال أبوسفيان يومئذ: «اعل هُبَل، اعل هُبَل، يوم بيوم بدر، والحرب سجال»[(١)].

وقد أطال ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد»[(٢)]: بذكر هذه الغزوة وما جرى فيها، وما اشتملت عليه هذه الغزوة من الأحكام والفقه، وفي ذكر بعض الحكم والغايات التي كانت فيها.

﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال. ومعنى ﴿تُبَوِّئُ﴾ تُنزِّل، أي: تنزل المؤمنين مقاعد للقتال.

والتبوؤ: النزول. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [الحشر:٩] أي: نزلوها، وقال ﷺ: «**من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»[(٣)].

﴿مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ﴾ «مقاعد» مفعول ثانٍ لـ«تبوئ» أي: تنزل المؤمنين منازل للقتال، وتجعلهم ميمنة وميسرة، وكلًا في مكانه، وموقعه المناسب له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر:٥٤-٥٥].

حيث نزل صلوات الله وسلامه عليه المؤمنين منازلهم، ورتبهم ونظمهم تنظيمًا عجيبًا، يدل على براعته ﷺ في فنون السياسة والحرب. وفي التعبير بقوله: «مقاعد» إشارة إلى ثبات كل منهم بمكانه المحدد له بثبوت القاعد في مجلسه.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: ذو سمع واسع لما يقولون، ولجميع الأقوال والأصوات،

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٩)، وأحمد (٤/ ٢٩٣)؛ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) (٣/ ١٩٢-٢٤٣).

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء- ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٦١)، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه في العلم (١١٠)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه في الجنائز (١٢٩١)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

وقد أخرجه مسلم في المقدمة، تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (٢)، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٣)، ومن حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه (٤).

﴿عَلِيمٌ ﴾ أي: ذو علم واسع بما في ضمائركم وبكل شيء.

قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

سبب النزول:

عن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾ قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة- وما نحب، أو ما يسرني أنها لم تنزل؛ لقول الله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾»[1].

قوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ «إذ» بدل من «إذ» في قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ فالتقدير على هذا: اذكر إذ هممت، أي: حين همت طائفتان منكم أن تفشلا.

﴿هَمَّت﴾ الهم: يطلق على العزم، ويطلق على مجرد حديث النفس.

﴿طَّآئِفَتَانِ﴾: مثنى: «طائفة»، وهي الجماعة من الناس، والطائفتان هنا: هما بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج- وهما الجناحان.

﴿أَن تَفْشَلَا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف محذوف، والتقدير: همتا بالفشل، و«الفشل» في كل أمر بحسبه، والمراد به هنا الجبن والخوف والانهزام، أي: همت هاتان الطائفتان أن تجبنا وترجعا، لا لشك منهما أو نفاق، ولكن بسبب ما فعله عبدالله بن أبي حيث انخزل ورجع بثلث الجيش، مما كان له الأثر على نفوس الجيش، ولكن الله عصمهما وثبتهما، فمضيا مع رسول الله ﷺ. ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾ فتولاهما عز وجل بولايته الخاصة فثبتهما، فلم تفشلا ولم تفعلا ما همتا به ولم ترجعا، وهو نعم المولى ونعم النصير.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾ أي: متوليهما بولايته الخاصة وناصرهما؛ ولهذا ثبتهما فمضيا

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير- باب ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ (٤٢٨٢)، ومسلم في فضائل الصحابة- فضائل الأنصار- رضي الله عنهم- (٢٥٠٥).

مع رسول الله ﷺ، فلم تفشلا ولم ترجعا، فصار ذلك منقبةً لهما.

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾: متعلق بـ«يتوكل»، وقدم عليه للدلالة على الحصر، أي: وعلى الله وحده لا على غيره ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾.

و«التوكل على الله»: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار- مع تمام الثقة بالله- عز وجل- وفعل الأسباب المشروعة.

وأكثر الناس يدّعون التوكل على الله، وينطقون بذلك بألسنتهم، لكنهم يلهثون وراء الأسباب، وينسون مسبب الأسباب- سبحانه وتعالى- وهذا دليل على عدم صدقهم في الاعتماد على الله والثقة به.

وفريق من الناس يزعمون التوكل على الله تعالى ويهملون فعل الأسباب المشروعة وهذا ليس بتوكل، ولكنه تواكل، كما قال عمر- رضي الله عنه- لما قيل له: إن أناسًا من أهل اليمن يحجون وليس معهم زاد، ويقولون: نحن المتوكلون. فقال رضي الله عنه: «هؤلاء ليسوا بمتوكلين ولكنهم متواكلون».

وقال عمر رضي الله عنه: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق يقول اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة»[(١)].

فالمتوكل على الله حقًا من جمع بين الاعتماد على الله وفعل الأسباب.

وخص عز وجل المؤمنين بقوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾؛ لأن التوكل من مقتضيات الإيمان؛ ولأن المؤمنين هم الذين يتوكلون على الله تعالى، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل:٩٩].

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣ ﴾.

ذكَّر عز وجل نبيه ﷺ والمؤمنين بخروجه إلى أُحد وما جرى عليهم من المصيبة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ ﴾ والآيات بعدها، وذكّر عز وجل المؤمنين في أثناء ذلك بما منّ به عليهم قبل ذلك من النصر العظيم يوم بدر- بسبب توكلهم على الله-

(١) ذكره في «إحياء علوم الدين» (٢/ ٦٢).

مع قلة عددهم وضعف عدتهم وكثرة عدوهم وقوته، في إشارة واضحة إلى أن عدم النصر في أُحد ليس سببه القلة والضعف، وإنما كان سببه المخالفة وعدم الطاعة- كما سيأتي في الآيات بعد هذا، ولهذا قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فالذي نصرهم ببدر وهم أذلة قادر على نصرهم في سائر المواطن، وما حصل لهم في أُحد لا ينبغي أن يفت في عضدهم فالحرب سجال.

قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ الواو: استئنافية، واللام: واقعة في جواب قسم مقدر، و«قد»: للتحقيق، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام، والقسم المقدر، و«قد»، والتقدير: والله لقد نصركم الله ببدر، أي: جعل لكم الغلبة والظهور في وقعة بدر الكبرى، حيث قتلوا سبعين من صناديد قريش، وأسروا سبعين، وكانت في السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة.

والباء في قوله: ﴿بِبَدْرٍ﴾ للظرفية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨] أي: وفي الليل.

و«بدر» محلة بين مكة والمدينة، وهي إلى المدينة أقرب، بينها وبين المدينة نحو ثمان وعشرين فرسخًا، تعرف ببئر فيها، تنسب إلى رجل حفرها يقال له: بدر بن النارين، وقيل غير ذلك.

جرت فيها معركة بين المسلمين والمشركين، وسببها أن النبي ﷺ سمع بعير لقريش مع أبي سفيان قدمت من الشام تحمل تجارة لهم، وبما أنهم قد أخرجوا رسول الله ﷺ وأصحابه من ديارهم وأموالهم، وهم حرب على المسلمين، فندب ﷺ أصحابه للخروج لأخذ هذه العير، فخرج بنحو ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، ومعهم سبعون بعيرًا وفَرَسان فقط، يتعاقب على البعير الواحد الرجلان أو الثلاثة، فعدد أقل وعدة قليلة.

فعلم أبوسفيان بخروجهم فأرسل إلى أهل مكة يستنجدهم؛ لحماية عيرهم فخرجوا لنجدته بكبرائهم وأشرافهم ما بين التسعمائة إلى ألف بعدتهم وعتادهم وسلك أبوسفيان طريق الساحل، ونجا بالعير فأرسل إليهم؛ ليرجعوا، لكنهم أبوا الرجوع، بطرًا منهم ورياءً، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم وغرهم، كما قال تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ

لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنفال:٤٧-٤٨].

فالتقى الجمعان ببدر ونصر الله رسوله ﷺ والمؤمنين مع ما هم عليه من قلة العدد والعدة، فقتلوا سبعين رجلًا من صناديد قريش وألقوهم في قليب بدر، وأسروا سبعين منهم، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلًا. وقد ذكر الله تعالى قصة هذه الغزوة مفصلة في سورة الأنفال.

قوله: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونكم أذلة. و«أذلة» جمع «ذليل» أي: ضعفاء، قليل عددكم، قليلة عدتكم، وأنتم في أُحد أكثر عددًا وعدة منكم في بدر- وفي هذا إشارة إلى أن تخلف النصر في «أحد» ليس بسبب الضعف وقلة العدد والعدة، وإنما بسبب المخالفة والعصيان.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ الفاء: للتفريع أي: فاتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، واثبتوا في القتال، ولا يفلّ حدّكم ما حصل لكم في أُحد.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ «لعلَّ» للتعليل، أي: لأجل أن تكونوا ممن يشكرون، أي: لتنالوا درجة الشاكرين، القائمين بطاعة الله؛ لأن حقيقة شكر الله تعالى على نعمة النصر وغيرها من النعم؛ يكون بتقوى الله تعالى بفعل ما أمر الله واجتناب ما نهى عنه.

فبذلك تدوم النعم؛ وتندفع النقم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧].

قال الشاعر:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم
وحافظ عليها بشكر الإله ... فإن الإله سريع النقم[(١)]

والشكر يكون بالقلب وباللسان وبالجوارح، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا[(٢)]

فالشكر بالقلب بالإقرار بالنعمة، باطنًا، والشكر باللسان بالاعتراف بالنعمة ظاهرًا

---

(١) البيتان ينسبان لأبي العتاهية، ولعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «الدر الفريد» (٢/ ٣٩٥).
(٢) البيت لبشر. انظر: «المفضليات» (ص٣٤٤).

بالقول بالثناء على الله تعالى ونسبتها إليه والتحدث بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، والشكر بالجوارح يكون بالاستعانة بها على مرضاة الله، واستعمالها في طاعة الله تعالى والبعد بها عن معصيته.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين» بدل من «إذ» في قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٢١]، أو متعلق بـ«نصركم».

والخطاب للنبي ﷺ خاصة، كقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الآية:٣٧] ونحو ذلك.

أي: إذ تقول مبشرًا ومثبتًا للمؤمنين.

﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ هذا إلى قوله ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ مقول القول، أي: إذ تقول للمؤمنين وهم الصحابة- رضي الله عنهم- هذا القول. روي أن الصحابة- رضي الله عنهم- رأوا أن المشركين أخذ يمد بعضهم بعضًا على قتال النبي ﷺ وأصحابه، فقال لهم ﷺ: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ الآية(١).

وهذا وعد لا يتخلف؛ لأنه ﷺ كما قال تعالى عنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم:٣-٤].

﴿أَن يُمِدَّكُمْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل، ي بن والتقدير: ألن يكفيكم إمداد ربكم. والإمداد: الزيادة والعطاء، والإعانة.

وأسند الفعل «يمد» إلى اسم الربوبية؛ لأن الرب هو الذي له الخلق والملك والتدبير. والاستفهام للتقرير؛ أي: أن ذلك يكفيكم؛ ولهذا قال بعده: «بلى».

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٦/ ٢٠-٢١).

﴿ بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ قرأ ابن عامر بتشديد الزاي: «منزَّلين» من «نزَّل»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿مُنزَلِينَ ﴾ من: «أنزل».

و«أنزل» و«نَزّل» بمعنى واحد. أي: منزلين من السماء، كما قال تعالى: ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء:٩٥].

قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

يحتمل أن يكون هذا من تتمة قول الرسول ﷺ، ويحتمل أن يكون ابتداء خطاب من الله تعالى تأييدًا لقول نبيه ﷺ وزيادة على ما وعدهم تكرمًا وتفضلًا.

﴿ بَلَىٰٓ ﴾: حرف جواب للإثبات، وإبطال النفي، والتقرير.

أي: بلى يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين:

﴿إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

قوله: ﴿إِن تَصْبِرُوا۟ ﴾، أي: إن تصبروا على قتال عدوكم، وعلى فعل ما أمركم الله به، وعلى أقدار الله المؤلمة.

﴿ وَتَتَّقُوا۟ ﴾ أي: وتتقوا الله باجتناب ما نهاكم الله عنه من الفشل والهوان أمام الكفار، وغير ذلك.

﴿وَيَأْتُوكُم ﴾ الضمير الواو في «يأتوكم» للمشركين، وكذا في قوله: ﴿مِّن فَوْرِهِمْ﴾.

﴿ مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ أي: من وجههم هذا، ومن ساعتهم هذه مبادرين ومباغتين لكم غضبًا منهم للانتقام ليوم بدر. يقال: جاء فلان وخرج من فوره.أي: خرج مبادرًا.

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم ﴾ أي: يزودكم ربكم.

﴿ بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ فوعدهم ﷺ بأن يمدهم ربهم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، وقرر ذلك بتكفله عز وجل لهم إن صبروا واتقوا، وجاءهم العدو من فورهم هذا؛ بأن يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين.

قرأ ابن كثير وأبوعمرو وأبوجعفر وعاصم بكسر الواو: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ اسم فاعل، أي: معلِّمين أي: هم سوّموا أنفسهم، أي: جعلوا عليها علامات تدل على شجاعتهم مثل لبس لَأْمةِ الحرب، ونحو ذلك.

وقرأ الباقون بفتح الواو: «مسوَّمين» اسم مفعول، أي: معلَّمين من السماء بعلامات الجهاد والقتال. قيل: عليهم عمائم سود أو بيض، وعلى نواصي خيولهم وذيولها الصوف الأبيض، وقيل غير ذلك. عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «**هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب**»(١).

وكونهم معلمين أخص من مجرد الإنزال فتكفل عز وجل لهم بزيادتهم من حيث الكمية إلى خمسة آلاف وتكفل لهم من حيث الكيفية بكونهم مسومين معلمين عليهم علامات القتال والشجاعة.

والسيماء: العلامة. قال الشاعر(٢):

غـلام رمـاه الله بالحسـن يافعًـا ... له سيمياء لا تشق على البصـر

أي : له علامة حسن ظاهرة يراها كل ناظر إليه بلا مشقة.

وقد اختلف المفسرون هل هذا الإمداد المذكور هنا في بدر أو في أُحد على قولين:

القول الأول: أن هذا كان يوم بدر وأن قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بقوله قبله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ ويشكل على هذا أنه قال هنا: ﴿بِثَلَاثَةِ آلَافٍ﴾ و﴿بِخَمْسَةِ آلَافٍ﴾ بينما قال في سورة الأنفال في قصة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الآية:٩].

وقال ابن كثير(٣) في الإجابة على هذه: «فالجواب أن التنصيص على الألف هاهنا

(١) أخرجه البخاري في المغازي- شهود الملائكة بدرًا (٣٩٩٥).

(٢) البيت لابن عنقاء الفزاري. انظر: «الكامل في اللغة» (١/ ٢٢)، «زهر الآداب» (٤/ ١٠٢٧)، «أمالي القالي» (١/ ٢٣٧)، «الحماسة البصرية» (١/ ١٥٦)، «التذكرة الحمدونية» (٢/ ٣٠٦-٣٠٧)، وروايته في الأمالي والتذكرة والحماسة: «غلام رماه الله بالخير مقبلا».

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٩٤).

لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها؛ لقوله: ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ بمعنى: يردفهم غيرهم، ويتبعهم ألوف أخر مثلهم.

وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر، كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم. قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة: أمد الله المؤمنين يوم بدر بخمسة آلاف».

وعلى هذا يكون المسلمون في بدر أمدوا بألف ثم بثلاثة، ثم بخمسة آلاف.

والقول الثاني: أن هذا الوعد بالإمداد كان في أحد، فيكون قوله: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ متعلقًا بقوله قبل ذلك: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ وذلك يوم أحد، وهذا الوعد مشروط بالصبر والتقوى؛ لقوله: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ ﴾ ولم يتحقق هذا من المسلمين، بل حصل منهم ما يخالفه وهو المعصية والتنازع والفشل، ولهذا لم يتحقق هذا الوعد بالإمداد، لا بثلاثة ولا بخمسة.

وعلى هذا فلا إشكال بين آيتي آل عمران وآية الأنفال. فآية الأنفال ذكر فيها الإمداد بألف من الملائكة مردفين، وهو ما حصل في بدر، وآيتا آل عمران ذكر فيها الوعد بالإمدد بثلاثة آلاف وبخمسة آلاف في أحد بشروط ولم يحصل الإمداد فيها، لعدم تحقق الشروط.

ولا ينافي هذا ما ثبت من حديث سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم أُحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض، كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد»(١). فإن هذا قتالًا من الملائكة عن رسول الله ﷺ، وليس هو الإمداد المذكور.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٥٤)، ومسلم في الفضائل- قتال جبريل وميكائيل عن النبي ﷺ يوم أُحد (٢٣٠٦).

قوله: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، والضمير في «جعله» في محل نصب مفعول أول لـ«جعل» يعود إلى الإمداد، والوعد به بالشروط الثلاثة، أو إلى قول النبي ﷺ، أي: إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية.

والمراد بـ«الجَعْل» هنا الجعل الكوني، أي: وما جعله الله كونًا.

﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ «بشرى»: مفعول ثان لـ«جعل» إذا كانت بمعنى «صيَّر»، وقد تكون «بشرى» مفعولًا لأجله، أي: وما جعله الله إلا لأجل البشرى لكم. أي: ما هو إلا بشرى لكم تبشرون بها.

و«البشرى»: الخبر السار، مأخوذ من البشرة؛ لأن الإنسان إذا أخبر بما يسره اتسعت بشرته، واستنار وجهه.

﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، أي: ولأجل أن تطمئن قلوبكم به، أي: لأجل أن تسكن قلوبكم، ويزول عنها الخوف ويقوى التفاؤل ويحصل الثبات، والضمير في «به» يرجع إلى مرجع الضمير في «جعله»، والباء: للسببية، أي: ولتطمئن قلوبكم بسببه.

وأخر هنا المتعلِّق «به» وقدمه في آية سورة الأنفال، كما حذف منها قوله: ﴿لَكُمْ﴾ فقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأنفال:١٠].

وهذا قد يدل على أن السياقين ليسا في غزوة بدر، بل آية الأنفال في غزوة بدر، وآيتا آل عمران في غزوة أُحد.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: نافية، و«إلا»: أداة حصر، أي: وما النصر إلا من عند الله تعالى وحده- حتى وإن أمدكم بثلاثة آلاف وخمسة آلاف من الملائكة، فليس النصر منهم ولا بكثرة العدد والعدة، ولا بحولكم وقوتكم، وإنما النصر من عند الله تعالى وحده فيجب الاعتماد عليه وحده مع فعل الأسباب.

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾، وفي الأنفال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الآية:١٠].

و﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: اسم من أسماء الله- عز وجل- يدل على أنه ذو العزة التي لا ترام،

كما جاء في الدعاء: «ذو العزة التي لا ترام»(١).

عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة.

و﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾: اسم من أسماء الله- عز وجل- يدل على أنه ذو الحكم التام؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي.

وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

قوله تعالى: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾.

قوله: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يقطع طرفًا من الذين كفروا، وهو متعلق بقوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦]، أو متعلق بـ﴿نَصَرَكُمُ﴾، أو متعلق بقوله: ﴿يُمۡدِدۡكُمۡ﴾.

والأول أولى؛ ليكون عامًا في كل نصر.

والمعنى: ليهلك طائفة من الذين كفروا، وفي قوله: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا﴾ إشارة إلى أن العدو الذي يلي المسلمين أولى بالقطع والقتل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ [التوبة:١٢٣].

وهذا كما هو المأمور به شرعًا، فهو أيضًا مقتضى الحكمة، فليس من الحكمة أن يقاتل العدو البعيد ويترك القريب؛ لأن القريب أشد خطرًا على المسلمين.

﴿أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ﴾ «أو»: عاطفة، والجملة معطوفة على جملة التعليل: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا﴾.

والكبت: الإذلال والإهانة؛ أي: يذلهم ويخزيهم ويردهم بغيظهم وغمهم وكمدهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ [المجادلة:٥]. أي: أهينوا وأذلوا، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة:٢٠-٢١].

﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فيرجعوا مخذولين خاسرين لم ينالو ما أرادوا

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٧٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وما أملوا، كما حصل في غزوة الأحزاب، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب:٢٥].

حيث أرسل الله عليهم ريحًا وجنودًا، وردهم بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وكفى الله المؤمنين القتال، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ﴾ [الأحزاب:٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب:٢٥].

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

هذه الآية مما يقوي أن السياق والإمداد المذكور في هذه الآيات في أُحد وليس في بدر.

سبب النزول:

عن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كُسرت رباعيته يوم أُحد، وشجَّ في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله- عز وجل-**» فأنزل الله- عز وجل-: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾»[(١)].

وعن سالم عن أبيه «أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع من الركعة الآخرة من الفجر يقول: «**اللهم العن فلانًا وفلانًا وفلانًا**»، بعدما يقول: «**سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد**». فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾».

وفي رواية: «كان رسول الله ﷺ يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾»[(٢)].

وفي رواية عن نافع عن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «أن رسول الله ﷺ كان يدعو على أربعة، قال: فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلى آخر الآية، وهداهم الله

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير- غزوة أُحد (١٧٩١)، والترمذي في أبواب تفسير القرآن- من سورة آل عمران (٣٠٠٢)، وابن ماجه في الفتن- الصبر على البلاء (٤٠٢٧).

(٢) أخرجهما البخاري في المغازي (٤٠٧٠).

للإسلام»[١].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ كان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: «**اللهم العن فلانًا وفلانًا**» لأحياء من أحياء العرب، حتى أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية»[٢].

قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: بل الأمر كله لله، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣]. أي: ترجع الأمور كلها.

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦].

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ «أو» في الموضعين عاطفة، والجملتان معطوفتان على جملة التعليل ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾.

وعلى هذا تكون جملة ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ معترضة بين هاتين الجملتين وبين الجملة المعطوف عليها.

وقيل: «أو» بمعنى «إلى» وفي الآية حذف، والتقدير: فاصبر إلى أن يتوب الله عليهم. أي: لا تيأس، ولا تدعُ عليهم، بل اصبر إلى أن يتوب الله عليهم، أو يعذبهم.

وقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يوفقهم للرجوع عما هم عليه من الكفر إلى الإسلام، ومن الضلال إلى الهدى، ويقبل ذلك منهم.

وفي هذا إشارة إلى أنه- عز وجل- سيتوب عليهم أو على بعضهم. وهو ما حصل حيث تاب الله على بعضهم.

﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ العذاب: العقوبة، وهو في الأصل يحمل على عذاب الدنيا والآخرة،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٦٠).

وعلى العذاب من الله الذي ليس للمؤمنين فيه يد، وعلى العذاب بأيدي المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١٤].

والأولى أن يحمل قوله: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ على العذاب من الله في الدنيا والآخرة، الذي ليس للمؤمنين فيه يد، لأن تعذيبهم على أيدي المؤمنين بنصر الله لهم ذكر في قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ الآية.

وهكذا حصل لهؤلاء الكفار، فقطع الله طرفًا منهم فهلك، وكبت فريقًا منهم فانقلبوا خائبين، وتاب الله على فريق منهم ودخلوا الإسلام، وعذب فريقًا منهم بالموت على الكفر.

﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾: تعليل لما قبله، أي: لقوله ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾، وقوله: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾.

أي: فإنهم بسبب ظلمهم يستحقون ما ذكر من العقوبات، من قطع طرف منهم، وكبتهم ورجوعهم خائبين، أو تعذيبهم، إلا أن يوفقهم الله للتوبة فيتوبوا ويتوب الله عليهم- وبهذا يرتفع عنهم وصف الظلم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة أن النبي ﷺ ليس له من الأمر شيء، ثم بيّن في هذه الآية أن له- عز وجل- وحده الأمر والملك كله.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ الواو: عاطفة، واللام في قوله: (لله) لام الملك والاستحقاق والاختصاص، وقدم الخبر (لله) على المبتدأ للدلالة على الحصر، و«ما» في الموضعين: اسم موصول يدل على العموم، أي: ولله تعالى وحده جميع الذي في السموات والذي في الأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾

المغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة، كما في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- في المناجاة أن رسول الله ﷺ قال: «**يدني الله المؤمن يوم القيامة حتى**

يضع عليه كنفه[١] ثم يقرره بذنوبه، فيقول: أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقول الله- عز وجل-: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[٢].

ومنه سمي المغفر وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ «من»: موصولة، أي: للذي يشاء من العباد، وهو من اقتضت حكمته المغفرة له من أهل المعاصي دون من مات على الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ويعذب الذي يشاء من العباد، وهو من استحق العذاب ممن ماتوا على الشرك أو على المعاصي.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ أي: والله ذو مغفرة واسعة، ولهذا يغفر لمن يشاء.

﴿رَّحِيمٌ﴾: ذو رحمة واسعة، هي سبب مغفرته.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ المؤمنين بخروجه لـ«أُحد» وما جرى فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ وكان خروجه ﷺ يوم الجمعة بعد الصلاة، وكانت المعركة يوم السبت أول النهار الحادي عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة. وقيل: في السابع من شوال، وقيل غير ذلك.

٢- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له.

٣- حسن تدبير النبي ﷺ في إنزال المؤمنين مقاعدهم للقتال؛ لقوله تعالى: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ فجعلهم ﷺ ميمنة وميسرة، وجعل الرماة على الجبل.

٤- أهمية التنظيم في الحرب بإنزال المقاتلين مقاعدهم ومعرفة كل فرد وفريق منهم

---

(١) أي: ستره ورحمته.

(٢) سبق تخريجه.

مكانه ومهمته، حتى لا تضطرب الأمور.

٥- أن الذين شهدوا أُحدًا مع النبي ﷺ من المؤمنين حقًّا؛ لأن الله شهد لهم بذلك، فقال: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكفى بها شهادة. وهذا بخلاف المنافقين الذين رجعوا من عرض الطريق.

٦- إثبات صفة السمع الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ فهو سبحانه ذو سمع يسع جميع الأقوال والأصوات ويجيب الدعوات.

٧- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨].

٨- أن طائفتين من المؤمنين همَّتا بالفشل والرجوع، كما رجع المنافقون، ولكن الله ثبتهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ وهما بنو حارثة وبنو سلمة.

٩- خطر المنافقين والمثبطين على الأمة فإن رجوع عبدالله بن أبي بثلث الجيش، وقولهم، كما حكى الله عنهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٧]، كان له الأثر على المؤمنين حتى همَّت طائفتان منهم بالفشل والرجوع.

١٠- أن مَن تولاه الله تعالى سلم من الفشل ووفق للفوز والفلاح والنجاح في دينه ودنياه وأخراه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

١١- منة الله تعالى على هاتين الطائفتين ومنقبة عظيمة لهما حيث كان الله وليهما.

١٢- وجوب التوكل على الله تعالى، والاعتماد عليه وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

١٣- أن التوكل على الله تعالى من مقتضيات الإيمان، وأن الذين يتوكلون على الله حقًّا هم المؤمنون.

١٤- أن التوكل على الله أكبر معين للمؤمن في الملمات وما دونها، شريطة فعل الأسباب المشروعة.

١٥- امتنان الله تعالى على المؤمنين بنصرهم في بدر مع قلة عددهم وعدتهم، وكثرة عدوهم وعدته.

١٦- قدرة الله تعالى التامة على قلب موازين القوى، وأن النصر من الله، وليس بكثرة العدد والعدة- وإن كانت من أسباب النصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥].

وعن عياض الأشعري أنهم كتبوا إلى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- يستمدونه، قال: فكتب إلينا: إنه قد جاءني كتابكم تستمدونني، وإني أدلكم على من هو أعز نصرًا، وأحصن جندًا: الله- عز وجل- فاستنصروه، فإن محمدًا ﷺ قد نصر يوم بدر في أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابي فقاتلوهم ولا تراجعوني. قال: فقاتلناهم، فهزمناهم أربعة فراسخ. قال: وأصبنا أموالًا»[(١)].

١٧- أن المؤمنين قد يكونون أذلة بسبب قلة عددهم، وضعف عتادهم- لكنهم أقوياء بالله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾.

١٨- وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

١٩- أن شكر نعمة النصر وغيرها من النعم يكون بتقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٢٠- بث النبي ﷺ روح الأمل والتفاؤل في نفوس أصحابه: تقوية لقلوبهم، ورفعًا لمعنوياتهم، عند القتال، وفي الأزمات؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ الآيتين.

وهكذا ينبغي لولاة المسلمين وقادتهم ودعاتهم.

ولما كان الصحابة- رضي الله عنهم- يحفرون الخندق، واعترضتهم صخرة شديدة فجاؤوا للنبي ﷺ وأخبروه، فجاء ونزل في الخندق وأخذ المعول فضربها به ضربة انقدح منها شعاع أضاءت منه قصور كسرى، وفي الثانية قصور قيصر،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٩). قال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٩٣): «وهذا إسناد صحيح».

وفي الثالثة قصور تبع في اليمن. فقال ﷺ: «**الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، ومفاتيح فارس، ومفاتيح اليمن**»[1] مع ما كان عليه المؤمنون من شدة الخوف، كما وصف الله حالهم بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:١٠-١١].

٢١- ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُم﴾ ربوبية النصر والإمداد والعون والتأييد والتوفيق.

٢٢- إثبات وجود الملائكة؛ لأن الرسول ﷺ وعد المؤمنين بأن يمدهم ربهم بهم، وأنهم ذوو أجسام يحصون بالعدد وينزلون من السماء؛ لقوله تعالى: ﴿بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾، وقوله: ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

كما قال تعالى: ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٥]، وقد تم إمداد المؤمنين في «بدر»، وتخلف الإمداد في «أُحد» لتخلف شرطه.

٢٣- أن الصبر والتقوى سببان للنصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾.

٢٤- أن إتيان العدو من فورهم مبادرين ومباغتين المؤمنين من أسباب النصر والإمداد بالملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا﴾.

٢٥- أن الوعد بالإمداد بالملائكة ما جعله إلا لأجل بشارة المؤمنين وطمأنة قلوبهم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾.

٢٦- عناية الشرع بالبشارة وطمأنة قلوب المؤمنين، وبخاصة وقت الأزمات، عند القتال ونحو ذلك؛ لعظم الحاجة إلى ذلك، مما يكون سببًا للتفاؤل، ورفع المعنويات.

٢٧- أن النصر لا يأتي إلا من عند الله تعالى مهما بلغت الأسباب المادية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

لهذا يجب فعل الأسباب والاعتماد على الله تعالى وطلب النصر منه وحده، كما قال

---

(١) أخرجه النسائي (٣١٧٦)، وأحمد (١٨٦٨٤).

تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥-٢٦].

٢٨- إثبات اسم الله تعالى: «العزيز» وما يدل عليه من إثبات صفة العزة التي لا ترام لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾.

٢٩- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ وما يدل عليه من إثبات صفة الحكم التام لله- عز وجل- بأقسامه الثلاثة؛ الكوني والشرعي والجزائي، والحكمة البالغة، بقسميها؛ الغائية والصورية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾.

٣٠- في اجتماع العزة والحكم والحكمة في حقه- عز وجل- زيادة كماله إلى كمال ودلالة على أن مقتضى عزته وحكمه وحكمته نصر أوليائه.

٣١- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى وأحكامه الشرعية والكونية؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾

وفي هذا رد على المعتزلة ونحوهم الذين ينفون الحكمة في أفعال الله ويزعمون أنه يفعل بمجرد المشيئة تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

٣٢- أن الله تعالى ينصر المؤمنين، ويمدهم بالملائكة وبنصره؛ ليهلك طرفًا من الذين كفروا أو يكبتهم فيرجعوا ذليلين منهزمين، فيسلم المسلمون من شرهم ويكونوا عبرة لغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾.

٣٣- أن عاقبة الذين كفروا إما أن يهلكهم الله أو يذلهم على أيدي المؤمنين، أو يتوب عليهم، أو يعذبهم بسبب ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

٣٤- أن من حكمة الله تعالى بل مما أمر به وشرعه عدم استئصال أهل الكفر؛ ليتوب الله

على من شاء منهم، وليبقى الصراع بين الحق والباطل؛ ليميز الله الخبيث من الطيب والكافر من المؤمن.

٣٥- أن الرسول ﷺ لا يملك من الأمر الكوني شيئًا، فلا يستطيع هداية أحد أو إضلاله أو جلب النفع والنصر لا لنفسه ولا لغيره، ولا دفع الضر؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية.

وفي هذا رد على الذين يغلون بالرسول ﷺ ويرفعونه إلى مقام العبودية ويطلبون منه قضاء الحاجات. وقد قال الله تعالى له: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢١-٢٢].

كما أن في هذا إبطالًا لقول غلاة الصوفية أن المكلف قد يترقى في العبودية إلى أن يصل درجة اليقين فتسقط عنه التكاليف، فلا يجب أو يحرم عليه شيء.

وإذا كان ﷺ لا تسقط عنه التكاليف بل هو مأمور منهي، فما دونه من باب أولى.

٣٦- في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية تسلية للنبي ﷺ وتخفيف من حزنه لكفر قومه.

٣٧- أن الله قد يتوب على أعتى الناس وأشدهم كفرًا، فيوفقهم للإيمان ويقبله منهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

٣٨- أن الله تعالى قد يعذب الكافرين بعذاب من عنده، ليس للمؤمنين فيه يد؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾.

٣٩- أن الظلم سبب لعذاب الله تعالى، وأنه سبحانه لا يعذب إلا الظالمين، بارتكاب الكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

٤٠- بيان أن لله- عز وجل- وحده كل ما في السموات وما في الأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

٤١- مغفرة الله تعالى حسب مقتضى حكمته ورحمته وفضله لمن يشاء ممن هو أهل

لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

٤٢- تعذيب الله- عز وجل- لمن يشاء حسب مقتضى حكمته وعدله لمن هو أهل لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

٤٣- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية، وهي مقرونة بالحكمة.

٤٤- إثبات صفة المغفرة لله- عز وجل- وأنه ذو المغفرة الواسعة؛ لقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾.

٤٥- إثبات صفة الرحمة لله- عز وجل- فهو- عز وجل- ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء وعمّت كل حي؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾.

٤٦- اقتران هاتين الصفتين في حقه- عز وجل- سعة المغفرة، وسعة الرحمة زيادة كماله- عز وجل- إلى كمال حيث يجمع لعباده بين زوال المرهوب بمغفرته لهم، وحصول المطلوب برحمته لهم- نسأل الله تعالى من فضله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ ﴾.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن عمرو بن أقيش- رضي الله عنه- كان له ربًا في الجاهلية، فكره أن يسلم حتى يأخذه فجاء يوم أُحد، فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأُحد. قال: أين فلان؟ قالوا: بأُحد. قال: فأين فلان؟ قالوا: بأُحد. فلبس لأمته وركب فرسه، ثم توجه قِبَلَهم، فلما رآه المسلمون، قالوا: إليك عنا يا عمرو. قال: إني قد آمنت، فقاتَل حتى جُرح، فحُمِل إلى أهله جريحًا، فجاءه سعد بن معاذ، فقال لأخته: سليه: حمية لقومك أو غضبًا لهم، أم غضبًا لله؟ فقال: بل غضبًا لله ولرسوله، فمات، فدخل الجنة، وما صلى لله صلاة»[1].

ولعل من حكمة نظم هذه الآية في قصة أُحد ما جاء في هذا الخبر- إن كان صحيحًا وهذه الآية نزلت قبل آيات الربا في سورة البقرة.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ ﴾ «لا»: ناهية، والنهي هنا للتحريم المؤكد؛ لأن أكل الربا من أعظم الكبائر، بل قال بعضهم هو أكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

وخصَّ النهي عن أكل الربا دون سائر الانتفاعات به في المشارب والملابس والمساكن والمراكب وغير ذلك؛ لأن الأكل هو أخص أنواع الانتفاع، وهو كسوة الباطن وأشد ما يكون ضرورة للإنسان، فالنهي عن أكل الربا نهي عن سائر الانتفاعات التي دون الأكل من باب أولى.

و«الربا» في اللغة: الزيادة، قال تعالى: ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ﴾

(١) أخرجه أبوداود في الجهاد- فيمن يسلم ويقتل مكانه في سبيل الله- عز وجل- (٢٥٣٧).

[الحاقة:١٠]، أي: زائدة، وقال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج:٥]، أي: علت وزادت، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٩]، أي: فما آتيتم من ربا ليزيد في أموال الناس فلا يزيد عند الله.

والربا نوعان:

ربا النسيئة: والنسيئة: التأجيل والتأخير، فيؤجل ما على المدين من الدين الحال سنة أو سنتين أو أقل أو أكثر مقابل الزيادة فيه وهذا هو ربا الجاهلية، فإذا حل الدين قالوا للمدين: إما أن تفي، وإما أن تُربي، أي: إما أن تسدد الدين، وإما أن تزيد فيه.

وربا الفضل: وهو الزيادة بين شيئين يحرم التفاضل بينهما، قال ﷺ: «**الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلًا بمثل سواءً بسواء يدًا بيد فإذا اختلفت الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد**»(١).

فإذا بيع أحد هذه الأصناف بجنسه لزم فيه شرطان: التساوي، والتقابض في مجلس العقد. وإذا بيع أحد هذه الأصناف بغير جنسه من الأصناف المذكورة مما يوافقه في علة الربا لزم فيه شرط واحد، وهو التقابض في مجلس العقد، وإذا بيع بغير جنسه مما لا يوافقه في علة الربا لم يشترط فيه التساوي ولا التقابض.

فإذا بيع ذهب بذهب، أو فضة بفضة، أو بر ببر- ونحو ذلك لزم التساوي بينهما وأن يتم القبض في مجلس العقد.

وإذا بيع ذهب بفضة، أو فضة بذهب، أو بر بشعير أو شعير ببر ونحو ذلك لزم القبض في مجلس العقد دون التساوي بينهما؛ لقوله ﷺ: «**فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد**».

وإذا بيع ذهب أو فضة ببر أ وشعير لم يلزم التساوي ولا القبض.

وفي حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وهم يسلفون السنة والسنتين فقال: «**من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل**

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة- الصرف وبيع الذهب بالورق نقدًا (١٥٨٧)، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

معلوم»[1].

ومعنى «يسلفون» أي: يقدمون الدراهم، أي: الثمن، ويؤخرون السلعة من تمر أو بر ونحو ذلك، أي: يؤخرون المثمن.

فهذا الحديث مخصص لعموم قوله ﷺ: «**فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد**».

فيجوز تعجيل الثمن من النقد ذهبًا كان أو فضة، وتأجيل المثمن من غيرهما من هذه الأصناف الربوية؛ برًّا كان أو تمرًا أو شعيرًا أو ملحًا.

فيشتري الرجل مثلًا من صاحب بستان أو غيره «برًّا» لمدة سنة أو سنتين ويعطيه ثمنه دراهم نقدًا. فهنا قدم الثمن وهو الدراهم، وأخَّر المثمن وهو البر، وهذا هو السلف الذي كان يتعامل به أهل المدينة حين قدمها النبي ﷺ، ويسمى «السَّلم» وقد أقرهم النبي ﷺ عليه، وقال: «**من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم**».

﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾: حال، أي: حال كونه أضعافًا مضاعفة، و﴿أَضۡعَٰفٗا﴾ جمع «ضِعف» و«ضعف الشيء» كثره مرتين، أي: مثله مرتين، فضعف الدرهم درهمان.

﴿مُّضَٰعَفَةٗ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبوجعفر ويعقوب: «مضعَّفة» بالتشديد مع حذف الألف، وقرأ الباقون: ﴿مُّضَٰعَفَةٗ﴾ بإثبات الألف مع التخفيف. ومعنى القراءتين واحد.

و﴿مُّضَٰعَفَةٗ﴾ صفة لـ«أضعافًا» أي: كل ضِعف من هذه الأصناف مضاعف وكل ما ازداد أجلًا ازداد مضاعفة إلى ما لا حدّ له.

وهذا ربا الجاهلية الذي كانوا عليه قبل الإسلام، فإذا حلَّ أجل الدين قال الدائن للمدين: إما أن تفي وإما أن تربي، فإن قضاه وإلا زاده في المدة وزاده الآخر في القدر،

---

(١) أخرجه البخاري في السلم (٢٢٤١)، ومسلم في المساقاة (١٦٠٤)، وأبوداود في البيوع (٣٤٦٣)، والنسائي في البيوع (٤٦١٦)، والترمذي في البيوع (١٣١١)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٨٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وهكذا كل عام فيضاعف القليل حتى يصير كثيرًا.

وعلى هذا فالقيد والوصف بقوله: ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾؛ لبيان الواقع غالبًا، ولا مفهوم له، فلا يفهم منه أن الربا إذا لم يكن أضعافًا مضاعفة جاز أكله. فالربا بشتى صوره محرم لا يجوز.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ نهى عز وجل المؤمنين عن أكل الربا أضعافًا مضاعفة، ثم أمرهم بتقوى الله في إشارة واضحة إلى خطورة أكل الربا ومنافاته تقوى الله، أي: اتقوا الله بترك الربا، وترك ما نهاكم الله عنه، وفعل ما أمركم الله به.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ «لعل»: للتعليل، أي: لأجل أن تفلحوا، والفلاح: الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب في الدنيا والآخرة، الفوز بالجنة والنجاة من النار.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)﴾.

روي عن أبي حنيفة- رحمه الله- أنه كان يقول: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه[1].

قوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أي: واجعلوا بينكم وبين النار وقاية بترك الربا، وامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وبمعنى آخر: واتقوا عذاب النار بتقوى الله- عز وجل- بفعل أوامره واجتناب نواهيه. ولهذا قدَّم الأمر بتقوى الله تعالى فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ لأنها هي السبب الواقي من النار.

﴿الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: التي هيئت للكافرين؛ لتكون لهم مآلًا ومصيرًا ودارًا لتعذيبهم. أي: أعدها الله وهيأها لتعذيب الكافرين.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)﴾.

قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ الواو: عاطفة، والطاعة: امتثال الطلب وموافقته، فعلًا للمأمور، وتركًا للمحظور.

---

(١) انظر: «الكشاف» للزمخشري (١/ ٤١٤)، و«غرائب القرآن» للنيسابوري (٢/ ٢٥٧)، و«محاسن التأويل» (٢/ ٤١١).

﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ أي: وأطيعوا الرسول، و«ال» في «الرسول» للعهد الذهني أي: الرسول المعهود في الأذهان محمد ﷺ.

أي: وأطيعوا الله والرسول في فعل المأمورات وترك المحظورات.

وقد يحمل الأمر بتقوى الله والأمر بتقوى النار على ترك المحظورات، ويحمل الأمر بطاعة الله والرسول على فعل المأمورات.

وعطف اسم الرسول أو وصفه على اسم «الله» بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وهذا بخلاف باب المشيئة فلا يجوز فيه عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله تعالى بالواو؛ ولهذا لما قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. قال ﷺ: «**أجعلتني لله ندًّا أو عدلًا؟ ما شاء الله وحده**»(١).

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (لعل) للتعليل، أي: لأجل أن ترحموا، فلما كانت التقوى سببًا للوقاية من النار، فطاعة الله تعالى والرسول سبب للرحمة.

والمعنى: لأجل أن يرحمكم الله برحمته الخاصة بأوليائه، والتي هي سبب السعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والترغيب والحث على الاتصاف بهذا الوصف.

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤، ٢٨٣)، وابن ماجه في الكفارات (٢١١٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٣- أن عدم أكل الربا من مقتضيات الإيمان، وأن أكله نقص في الإيمان، بل نقص عظيم في الإيمان؛ لأن الربا من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله. إن لم يكن أكبرها، وذلك؛ لأنه محاربة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

٤- تحريم أكل الربا، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وإذا كان أكل الربا محرمًا، وهو أخص وأهم وجوه الانتفاع فسائر الانتفاعات التي دونه محرمة من باب أولى.

وإنما شدد الشرع في تحريم الربا حتى عد من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله إن لم يكن أكبرها كما قال بعض أهل العلم؛ لما فيه من أكل أموال الناس بالباطل، وبخاصة أموال الفقراء والمحتاجين.

ولما فيه من المنافاة لما أمر الله به من الإحسان والمواساة بالصدقة والقرض، وإنظار المعسر، ونحو ذلك إضافة إلى ما فيه من تضخيم الأموال عند طبقة من الناس دون غيرهم؛ مما يؤدي إلى ركود اقتصاد الأمة بسبب عدم استثمار هذه الأموال في مشاريع زراعية وصناعية وتجارية تنفع الأمة كلها.

٥- ظاهر قوله تعالى: ﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ أن الربا لا يحرم إلا إذا كان أضعافًا مضاعفة.

والصحيح أن هذا القيد والوصف إنما هو لبيان الواقع والغالب، وإذا كان القيد لبيان الواقع فلا مفهوم له، كما في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ [الآية: ٢٣]، فقوله: ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ قيد لبيان الواقع غالبًا فلا مفهوم له فتحرم الربيبة على زوج أمها سواء كانت في حجره أو لم تكن في حجره. ومثل هذا قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ [الآية: ٣٣]. فقوله: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ لبيان الواقع والغالب، وهو أنهم كانوا يكرهونهن مع أنهن يردن التحصن، فلا يدل بمفهومه على جواز إكراههن إن لم يردن التحصن. وعلى هذا فالربا محرم بشتى

صوره وأشكاله سواء كان أضعافًا مضاعفة أو لم يكن كذلك.

٦- وجوب تقوى الله تعالى باجتناب الربا، وفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٧- أن تقوى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه هي سبب الفلاح؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

٨- أن الفلاح والفوز من الله- عز وجل- وليست التقوى عوضًا عنه، وإنما هي مجرد سبب؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

٩- أن الفلاح والفوز والنجاح مطلب لكل أحد، فمن موفق له، ومن مخذول دونه، نسأل الله التوفيق.

١٠- وجوب اتقاء النار وعذابها باجتناب الربا وبتقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾.

١١- خطر الربا وعظم أمره وشدة عقابه، والوعيد عليه والتنفير منه؛ لأن الله- عز وجل- نهى عنه، ثم أتبعه بالأمر بتقواه- عز وجل- ثم أتبع ذلك بالأمر بتقوى النار، ووصفها بأنها أعدت للكافرين تنفيرًا منها ومن أهلها ومن أسباب دخولها؛ ولهذا قال أبو حنيفة رحمه الله: «هذه أخوف آية في القرآن»[1].

١٢- إثبات وجود النار وأنها معدة الآن ومهيأة للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

١٣- أن مآل الكافرين ومصيرهم ودارهم في الآخرة هي النار؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾. أما العصاة فإنها ليست لهم بدار، بل يدخلونها لتطهيرهم، ويخرجون منها، وقد يعفو الله عنهم فلا يدخلونها.

١٤- التحذير من الكفر؛ لأنه سبب لدخول النار والخلود فيها.

١٥- وجوب طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

١٦- أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى؛ لهذا عطف بالواو التي تقتضي

---

(١) سبق تخريجه.

التشريك اسم الرسول ﷺ أو وصفه على لفظ الجلالة في قوله: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾.

١٧- أن طاعة الله تعالى ورسوله سبب رحمة الله تعالى الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، وليست الطاعة عوضًا عن رحمة الله تعالى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

نهى عز وجل المؤمنين في الآيات السابقة عن أكل الربا، وأمرهم بتقواه عز وجل واتقاء النار، وطاعته عز وجل والرسول ﷺ، ورتب على ذلك الفلاح والرحمة، ثم أتبع ذلك بأمرهم بالمسارعة إلى مغفرته وجنته الواسعة التي أعدها للمتقين، وهذا أشبه بالبيان والتأكيد؛ لقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٢].

قوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبوجعفر: «سارعوا». بدون عطف، وقرأ الباقون بالعطف: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ فهو معطوف على «أطيعوا» أو على «اتقوا».

والمسارعة: المسابقة والمنافسة، كما قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة:١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [البقرة:١٤٨، المائدة:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦].

والمسارعة: مفاعلة كالمغالبة، أي: ليسبق بعضكم بعضًا، أي: تنافسوا أيكم يسبق الآخر إلى مغفرة ربكم وجنته الواسعة، وفي هذا أمر بالمسارعة والمنافسة، وهو أيضًا مبالغة في طلب الإسراع، وفي ذلك كله ما لا يخفى من الإغراء والترغيب في المسارعة إلى مغفرة الرب وجنته.

﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ المغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته. أي: وسارعوا إلى طلب ونيل مغفرة من ربكم بالاستغفار والتوبة من الذنوب، وبالأعمال الصالحة؛ كما قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤].

وقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١].

وفي الحديث: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»(١).

وفي تنكير وتنوين «مغفرة» ووصفها بقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تعظيم لها؛ لأنها من الرب؛ الخالق المالك المدبر- سبحانه، المربي عباده بجميع النعم الظاهرة والباطنة.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾: معطوف على «مغفرة»، أي: وسارعوا إلى جنة عرضها السموات والأرض.

والجنة هي الدار التي أعدها الله لعباده المؤمنين وأوليائه المتقين، فيها من ألوان النعيم ما لا يقدر قدره إلا الرب العظيم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

فيها كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»(٢).

أي: وسارعوا إلى جنة من ربكم عرضها السموات والأرض بالأعمال الصالحة.

وبحصول مغفرة الرب- عز وجل- يزول المكروه والمرهوب، وبدخول جنته يحصل المحبوب والمطلوب- نسأل الله من فضله.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير- درجات المجاهدين في سبيل الله (٢٧٩٠)، وأحمد (٢/ ٣٣٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ الجملة في محل جر صفة لـ«جنة»، أي: عرضها كعرض السموات والأرض، كما قال تعالى في سورة الحديد: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد:٢١].

والعرض يطلق على ما يقابل الطول وليس مرادًا هنا، ويطلق على الاتساع، وهو المراد هنا، والشيء العريض هو الواسع في العرض بخلاف الطويل غير العريض فهو ضيق؛ ولهذا ذكر هنا عرض الجنة للدلالة على سعتها، وكما قيل:

كـأن بـلاد الله وهـي عريضـة ... على الخائف المذعور كِفَّةُ حابِلِ[١]

وأيضًا: فإن الجنة مقببة مستديرة، والشيء المقبب المستدير عرضه كطوله.

والجنة قبة تحت العرش، كما قال ﷺ: «**فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، أُراه فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة**»[٢].

قال ابن كثير[٣]: «وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ تنبيهًا على اتساع طولها. وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله، وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح» وذكر حديث: «**إذا سألتم الله الجنة...**».

وفي هذا الحديث دلالة على أن الجنة فوق السموات تحت العرش في أعلى عليين، كما أن النار تحت الأرض في أسفل سافلين.

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الجملة في محل جر صفة ثانية لـ«جنة».

﴿أُعِدَّتْ﴾ بني الفعل لما لم يسم فاعله ليوافق قوله في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]، ولأن المعد لها معلوم وهو الله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة:٨٩].

---

(١) البيت لعبدالله بن العجاج. انظر: «ديوانه» (ص٣١١).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٩٨).

ومعنى ﴿أُعِدَّتْ﴾: هيئت وجهزت، أي: أعدها الله- عز وجل- وجهزها ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوا الله- عز وجل- واتخذوا وقاية من عذابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وبالإيمان ظاهرًا وباطنًا، كما قال تعالى في آية سورة الحديد: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الآية:٢١].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

أمر عز وجل في الآية السابقة بالمسارعة إلى مغفرته وجنته التي أعدها للمتقين، ثم نوّه ببعض صفاتهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الآية.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل جر صفة «للمتقين».

وبدأ بذكر وصفهم بالإنفاق في السراء والضراء، ليقابل- والله أعلم- ما نهى عنه قبل هذا في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ [الآية:١٣٠]؛ لأن الإنفاق ضد أكل الربا، فالإنفاق مأمور به ومحمود، وأكل الربا منهي عنه ومذموم.

ولأن المال شريك الحياة وعزيز على النفس فإنفاقه دليل صدق وقوة الإيمان، ولهذا قال ﷺ: «**والصدقة برهان**»(١).

والإنفاق: إخراج المال وبذله. والمراد به هنا الإنفاق في سبيل الخير ابتغاء مرضاة الله تعالى من النفقات الواجبة كالزكاة والإنفاق على الأهل ونحو ذلك، والنفقات المستحبة من الصدقات والهدية ونحو ذلك.

ولم يذكر مفعول ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ ليعم كل ما ينفق ويبذل من نقود وأعيان ومنافع وغير ذلك، كما لم يذكر المنفق فيه؛ ليعم جميع مجالات الإنفاق، واجبة كانت أو مستحبة.

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، أي: في حال السراء والضراء، والسراء: ما يسر، أي: في حال الرخاء والسعة واليسر، ونحو ذلك. و«الضراء»: ما يضر، أي: في حال الشدة والضيق والعسر، ونحو ذلك.

فهم ينفقون في الحالين، فليسوا ينفقون في السراء فقط، ويمسكون في الضراء، بل ينفقون حتى في الضراء فلا يمنعهم ضيق الحال من الإنفاق قدر وسعهم، كما قال تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطلاق:٧].

وإذا كانوا ينفقون في السراء والضراء، فهم ينفقون في جميع الأحوال والأوقات، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ [البقرة:٢٧٤]. والإنفاق في الضراء أشد وأصعب، وعليه المحك فهو أدل على حقيقة التقوى.

﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾: معطوف على ما قبله، وهذه هي الصفة الثانية من صفات المتقين. و«الكاظمين»: جمع «كاظم» و«الكظم» معناه: الكتم والإمساك- مع شدة الألم والتأثر.

وفي الحديث: «**إذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع**»(١) أن يمنع فتح فمه ما استطاع مع شدة ذلك.

والغيظ: الحنق وشدة الغضب الموجب للانتقام بالقول، والفعل بالطبيعة البشرية فالكاظم الذي امتلأ قلبه غيظًا وغضبًا وحبسه، قال تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [يوسف:٨٤] أي: ممتلئ قلبه حزنًا، وقال تعالى عن يونس- عليه السلام-: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ [القلم:٤٨] أي: ممتلئ قلبه غمًا وهمًا.

أي: والذين يكتمون ويخفون ويمسكون غيظهم وغضبهم، فإذا اغتاظوا وثاروا واشتد غضبهم حبسوا غيظهم ومنعوه، ولم يحملهم على الانتقام أو التشفي بقول أو

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٨٩)، ومسلم في الزهد والرقائق- تشميت العاطس وكراهة التثاؤب (٢٩٩٤)، وأبو داود في الأدب (٥٠٢٨)، والترمذي في الصلاة (٣٧٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فعل- وهذا من أشد ما يكون على النفس؛ وذلك لأن أقوى القوى تأثيرًا على النفس القوة الغاضبة تشتهي إظهار الغضب والتنفس بها في داخل النفس من الغضب، فإذا استطاع الإنسان إمساك مظاهرها مع الامتلاء منها دل ذلك على عزيمة في النفس وقهرًا لإرادة الشهوة، وهذا من أكبر قوى الأخلاق الفاضلة، وهو القوة حقًا؛ ولهذا قال ﷺ: **«ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»**(١).

وقال ﷺ: «**فما تعدون الصرعة فيكم؟ قلنا: الذي لا تصرعه الرجال. قال: ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب**»(٢).

وكظم الغيظ من أعظم الصفات؛ لأن الغضب إذا اشتد قد يوقع الإنسان فيما لا تحمد عقباه من الأفعال كالقتل وإتلاف المال، وربما قتل نفسه بأي وسيلة كانت.

ومن الأقوال كالطلاق والسب والشتم، وربما التلفظ بالكفر. نسأل الله السلامة والعافية.

وقد روي أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قل لي قولًا، وأقلل لعلي أعيه، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تغضب، فأعاد عليه، حتى أعاد عليه مرارًا، كل ذلك يقول: لا تغضب**»(٣).

وفي رواية عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رجل: يا رسول الله، أوصني. قال: «**لا تغضب**» قال الرجل: ففكرت حين قال ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله(٤).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد، ما كظمها عبد لله إلا ملأ جوفه إيمانًا**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٤)، ومسلم في البر والصلة- فضل من يملك نفسه عند الغضب، وبأي شيء؟ (٢٦٠٩)، وأحمد (٢/ ٢٣٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٠٨)، وأبوداود في الأدب (٤٧٧٩)، وأحمد (١/ ٣٨٢)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤)، من حديث الأحنف بن قيس عن عم له يقال له: جارية بن قدامة السعدي.

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣٧٣).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٧) قال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٠٢): «إسناده حسن ليس فيه مجروح».

وعن معاذ بن أنس عن أبيه رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق، حتى يخيره من أي الحور شاء**»(١).

وقال ﷺ: «**إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع**»(٢).

ولهذا فإن الصحيح من أقوال أهل العلم أن الغضبان الذي اشتد به الغضب لا عبرة بأقواله، ولا بإقراراته؛ من طلاق أو قذف أو عتق أو بيع أو شراء أو غير ذلك.

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ هذه هي الصفة الثالثة من صفات المتقين، فترقوا من كظم الغيظ، إلى العفو عن الناس.

﴿وَٱلْعَافِينَ﴾ جمع «عاف» والعفو: ترك المؤاخذة على الذنب، أو التسامح عن الحق أو بعضه.

أي: الذين إذا أساء إليهم أحد من الناس بقول أو فعل لم يقابلوا إساءته بالانتقام بل يعفون عنه ولا يكون في قلوبهم أي موجدة عليه، كما يعفون ويتسامحون عن بعض حقهم أو كله، كل ذلك طلبًا للأجر من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].

فيتبعون كظم الغيظ بالعفو عمن أساء إليهم من الناس، وفي هذا تتويج وتكميل لكظمهم الغيظ؛ لأن العفو منزلة أعلى وأجل من الكظم؛ لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة، والتجاوز كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٣].

ويعفون ويتسامحون عن بعض حقهم أو كله، كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧].

و«العفو»: صفة عظيمة، ومنزلة رفيعة، ولو لم يكن إلا أنه من أعظم صفات الرب

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤٠)، وأبوداود في الأدب (٤٧٧٧)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢١)، وابن ماجه في الزهد (٤١٨٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٢)، وأبوداود في الأدب (٤٧٨٢)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

عز وجل، وبخاصة إذا كان العفو عند المقدرة، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء:١٤٩].

أما إذا كان العفو عن عجز عن الانتقام فهذا لا يحمد ولا يمدح صاحبه، بل يذم؛ لأنه عفو العاجز، كما قال الشاعر يذم قومه:

لكن قومي وإن كانوا ذوي حسب ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظُلْم أهل الظلم مغفرةً ... ومن إساءة أهل السوء إحسانًا
فليت لي بهم قومًا إذا ركبوا ... شنوا الإغارة فرسانًا وركبانًا[1]

وفي قوله: ﴿عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ دلالة على أن العفو مشروع ما أمكن عن الناس جميعًا من المؤمنين وغيرهم ما لم يكن غير المؤمن محاربًا- وهذا فيما هو من حقوق الخلق، أما ما كان من حق الله تعالى، فلا يجوز العفو عنه؛ لأنه ليس لأحد من الخلق أن يعفو عن حق الله تعالى، أو يسقطه.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أثنى الله- عز وجل- على المتقين بالصفات المذكورة، وهي الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ والعفو عن الناس، ثم أتبعها بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في إشارة واضحة إلى أن عملهم هذا من الإحسان، وأن هذه الصفات الثلاث كلها من الإحسان.

فيكون في الآية وصفهم بأربع صفات: الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، والإحسان، أي: أنهم محسنون، فهم محسنون بالإنفاق وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، وهم محسنون أيضًا باتباع كظم الغيظ والعفو عمن أساء إليهم بالإحسان إليه، وهذه درجة عظيمة أعلى من الكظم والعفو، وأعم منهما وأجل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥]. وقال رسول الله ﷺ: **«ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا**

(١) الأبيات لقريط بن أنيف. انظر: «شرح ديوان الحماسة» (١/ ٥).

بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[1].

وفي التعبير بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ دون وصفهم بالمحسنين زيادة ترغيب بالإحسان، والذي يشمل الإحسان في عبادة الله تعالى بالإخلاص له- عز وجل- والمتابعة لرسوله ﷺ، والإحسان إلى عباد الله تعالى بإيصال النفع الديني والدنيوي إليهم ودفع الشر عنهم في ذلك كله.

كما أن فيه إثبات المحبة لله تعالى، وإذا كان عز وجل يحب المحسنين، فمفهوم ذلك أنه لا يحب المسيئين، بل يبغضهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيتين السابقتين صفات المتقين مما يتعلق بفعل الطاعات من الإنفاق والكظم للغيظ والعفو عن الناس والإحسان إليهم، ثم أتبع ذلك بذكر صفتهم وحالهم إذا وقع منهم فاحشة أو ظلم، فذكر أولًا حال كمالهم، ثم ذكر حال تداركهم لنقائصهم.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾، الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على الموصول في الآية السابقة، فهي في محل جر صفة رابعة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾.

«إذا»: ظرفية شرطية، ﴿فَعَلُوا۟﴾: فعل الشرط، و«الفاحشة»: كل ما فحش وقبح في الشرع وعرف المسلمين، كالزنا واللواط، ونكاح الابن زوجة أبيه، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، وقال تعالى حكاية عن لوط أنه قال لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف:٨٠، النمل:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٢٢].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة و الآداب- استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكل ما تجاوز الحد في الفساد فهو فاحشة، كعقوق الوالدين وشهادة الزور والسرقة وغير ذلك من الكبائر، وأفحش الفواحش الشرك بالله.

﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ «أو»: عاطفة تفيد التقسيم والتنويع، أي: أو ظلموا أنفسهم بما دون الفاحشة، وهي الصغائر.

وقد تحمل الفاحشة هنا على ما يستفحش من الذنوب كالزنا ونحوه، من الكبائر، ويحمل ظلم النفس على ما سوى ذلك من الذنب كبائر كانت أو صغائر.

كما قيل العطف في الآية من عطف العام على الخاص، لأن الذنوب كلها ظلم للنفس. وقيل: «أو» بمعنى الواو، أي: فعلوا فاحشة وظلموا أنفسهم.

وكل خروج عن طاعة الله تعالى فهو ظلم للنفس، سواء كان تركًا لما أمر الله به، أو ارتكاب لما نهى الله عنه. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق:١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦].

وذلك أن النفس وديعة عند الإنسان يجب عليه أن يسعى في سلامتها وخلاصها وفكاكها، وفيما يسعدها في دينها ودنياها وأخراها، فيحملها على فعل أسباب السعادة والنجاة، وينأى بها عن أسباب الشقاء والهلاك، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»[١].

وكما قيل:

ومـا النـاس إلا عـاملان فعامـل ... يُتـبِّرُ مـا يبنـي وآخـر رافـع[٢]

﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾، جواب الشرط «إذا»، أي: ذكروا الله- عز وجل- بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم؛ فذكروا الله تعالى بقلوبهم؛ بذكر عظمته ووعده ووعيده،

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت للبيد. انظر: «ديوانه» (ص٥٦).

وذكروه بألسنتهم بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، والاستغفار والتوبة، والدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس وغير ذلك.

وذكروا الله تعالى بجوارحهم؛ فابتعدوا بها عن معصيته خوفًا من عقابه، واستقاموا بها على طاعته، رجاءً في ثوابه.

﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ الفاء: للتعقيب والترتيب، والاستغفار: طلب الغَفْر، أي: طلب الستر للذنوب، وعدم المؤاخذة عليها، أي: فطلبوا من الله- عز وجل- المغفرة لذنوبهم، أي: لما وقع ويقع منهم من المعاصي والآثام، من فعل فاحشة، أو ظلم للنفس أو غير ذلك.

فجمعوا بين الندم على الذنب، والعزم على عدم العودة إليه بقلوبهم، والإقلاع والبعد عنه بجوارحهم، وطلب المغفرة والتوبة والاستغفار بألسنتهم.

﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هذه الجملة اعتراض- بين قوله: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾، وقوله: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.

والغرض من هذا الاعتراض واضح وهو بيان وتأكيد وجوب التعلق بالله والرجوع إليه وحده، وتسديد مبادرتهم إلى استغفار الله عقب الذنب، والتعريض بالمشركين الذين يدعون غير الله ويتخذون الشفعاء بينهم وبين الله تعالى.

و«مَنْ» في قوله: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾: اسم استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد يغفر الذنوب إلا الله، والنفي بصيغة الاستفهام أبلغ لكونه مشربًا بالتحدي، كأنه يقول: ائتوا لي بأحد يغفر الذنوب إلا الله، لا أحد يغفر الذنوب غيره.

﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ «إلا»: أداة حصر. أي: لا أحد يغفر الذنوب بسترها والتجاوز عنها إلا الله تعالى، كما قال ﷺ في الدعاء الذي علمه أبوبكر الصديق رضي الله عنه: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت**»[1].

وكما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٣٤)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٥)، والنسائي في السهو (١٣٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٥٣١)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٥)، من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

رَّحِيمًا ﴾ [النساء:١١٠].

عن أبي هريرة- رضي الله تعالى عنه- عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه- عز وجل- قال: «**أذنب عبد ذنبًا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال- تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي: رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي: رب اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك**» وفي رواية: «**قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء**»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك، لا أبرح أغوي بني آدم مادامت الأرواح فيهم. فقال الله: فبعزتي وجلالي، لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني**»(٣).

وعن علي- رضي الله عنه- أن أبابكر- رضي الله عنه- حدثه أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «**ما من رجل يذنب ذنبًا فيتوضأ، فيحسن الوضوء، ثم يصلي ركعتين، أو ثم يصلي ويستغفر الله- عز وجل- إلا غفر الله له**»(٤).

وفي رواية: «**ما من رجل يذنب، ثم يقوم فيتطهر، ثم يصلي، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾** إلى آخر الآية»(٥).

﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا ﴾: معطوف على قوله: ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ والإصرار على

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٥٨)، وأحمد (٢/ ٢٩٦).

(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٤٩)، وأحمد (٢/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢، ١٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٩٥).

(٥) أخرجه الترمذي في الصلاة (٤٠٦).

الشيء: الاستمرار عليه.

﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: لم يستمروا على الذي فعلوا، أو على فعلهم من الفاحشة أو ظلم النفس بل أقلعوا وتابوا.

فجمعوا بين الندم على فعل الذنب، والعزم على عدم العودة إليه بقلوبهم، والإقلاع والبعد عنه بجوارحهم وطلب المغفرة والتوبة والاستغفار منه بألسنتهم.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنهم يعلمون عظمة من عصوه- سبحانه وتعالى، ويعلمون عظم معصيته ومخالفة أمره بفعل فاحشة أو ظلم للنفس، أو غير ذلك، ويعلمون أن المغفرة لا تحصل مع الإصرار، ويعلمون أن الله- عز وجل- يغفر ويتوب على مَن استغفر وتاب إليه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة:١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

ذكر عز وجل صفات المتقين في الآيات السابقة، ثم أتبعها بذكر جزائهم في هذه الآية.

قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم﴾ الإشارة للمتقين المتصفين بالصفات السابقة، وأشار إليهم بإشارة البعيد تنويهًا بشأنهم.

﴿جَزَآؤُهُم﴾ ثوابهم ومكافأتهم على عملهم.

﴿مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ستر من ربهم- عز وجل- لذنوبهم عن الخلق، وتجاوز منه تعالى عنها، وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ تعظيم لهذه المغفرة.

﴿وَجَنَّـٰتٌ﴾: معطوف على مغفرة، وهي جمع «جنة»، وجمعت؛ لأنها جنان كثيرة ومتنوعة، ودرجات ومنازل مختلفة، حسب اختلاف الأعمال، كما قال ﷺ: «**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الغابر في الأفق**». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**بلى، والذي نفسي بيده، رجال**

آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين»(١).

ولما سألت أم حارثة رسول الله ﷺ فقالت: «يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة- وكان قُتل يوم بدر- فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء. قال: «**يا أم حارثة إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**»(٢).

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ«جنات» أي: تجري من تحت غرفها وقصورها وأشجارها الأنهار، يشربون منها ويغتسلون فيها، ويتنعمون بمشاهدتها ويصرِّفونها حيث شاؤوا من غير أخدود.

قال ابن القيم:

أنهارها في غير أخدود جرت   سبحان ممسكها عن الفيضان(٣)

وهي أنواع أربعة كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [محمد:١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ﴾ أي: مقيمين في هذه الجنات إقامة أبدية لا تحول ولا تزول؛ لأن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها، ولا أهلها بإجماع المسلمين.

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾: معطوف على قوله: ﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ﴾.

﴿وَنِعْمَ﴾: فعل لإنشاء المدح، والمخصوص بالمدح محذوف، تقديره «هو».

و«ال» في ﴿ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ للعهد، أي: نعم أجر العاملين هذا الجزاء.

﴿أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي: ثواب العاملين وجزاؤهم، أي: نعم وحسن وعظم هذا الجزاء بالمغفرة من ربهم والجنات التي تجري من تحتها الأنهار مع الخلود فيها أجر العاملين بتقوى الله تعالى المتصفين بالصفات العظيمة المذكورة.

وفي هذا ثناء منه- عز وجل- وامتداح لأجرهم وتعظيم له، كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٥٦)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها- ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب (٢٨٣١)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٩)، والترمذي في التفسير (٣١٧٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) «النونية» (ص٢٢٩).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٣١].

نعمت جزاء المتقين الجنة   فيها الأماني والمنى والمنة(١)

والتعريف في ﴿ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ للعهد، أي: ونعم أجر العاملين هذا الجزاء، وفي هذا تفضيل للجزاء، وللعمل المجازى عليه، وللعاملين، أي: إذا كان لأصناف العاملين أجور- كما هو المتعارف- فنعم أجر العاملين بتقوى هذا الأجر.

وسُمي ثوابهم «أجرًا» لأنه- سبحانه وتعالى- تكفل به وضمنه لهم، وأوجبه على نفسه تفضلًا منه وكرمًا وامتنانًا على عباده.

الفوائد والأحكام:

١- الحث والترغيب والإغراء بالمسارعة إلى مغفرة الله عز وجل وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ الآيات.

٢- أن الحياة ميدان للمنافسة والمسابقة والمسارعة إلى مغفرة الله تعالى وجنته، فأين المشمرون؟! ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ حث على الصدقة فجاء عمر- رضي الله عنه- بنصف ماله، وقال: لأسبقن أبا بكر إن سبقته، فجاء أبوبكر- رضي الله عنه- بجميع ماله، وسأل رسول الله ﷺ عمر: ما تركت لأهلك؟ قال: تركت لهم مثله، وسأل أبا بكر: ما تركت لأهلك؟ فقال: تركت لهم الله ورسوله، قال عمر رضي الله عنه: فعلمت أنني لن أسبق أبا بكر بعد اليوم»(٢).

وقد رُوي عن الحسن: «إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة»(٣).

وفي هذا المطلب العظيم أزهقت نفوس المجاهدون، وأفنيت أعمار العلماء الربانيين في خدمة القرآن والسنة والشرع المبين، وفيه أنفقت أموال المحسنين، وسهرت

---

(١) البيت مجهول النسبة. انظر: «صناعة الإعراب» (٢/ ٤٥٥).

(٢) أخرجه أبوداود في الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦٧٥)، من حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة المصنف (٧/ ٨٨)، وأحمد في الزهد (ص١٧٦)، وابن أبي الدنيا في الزهد (ص٢٢٩).

لأجله عيون العابدين.

٣- عناية الله- عز وجل- بالمؤمنين حيث يأمرهم بالمسارعة إلى مغفرته وجنته.

٤- إثبات صفة المغفرة العظيمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ففي تنكيرها وكونها منه- عز وجل- إشارة إلى عظمتها وسعتها.

٥- إثبات ربوبية الله عز وجل الخاصة بعباده المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٦- سعة الجنة وعظمتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ولأنها من الله- عز وجل- وعنده.

٧- أن التخلية قبل التحلية، وإزالة المرهوب مقدمة على توفير المطلوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ فقدَّم ﴿مَغْفِرَةٍ﴾؛ لأن بها التخلية وزوال المرهوب، ثم ذكر الجنة التي بها حصول المطلوب؛ كما قال تعالى: ﴿جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

٨- فضل التقوى والترغيب فيها والبشارة لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٩- أن الجنة موجودة الآن معدّة للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

١٠- امتداح الله- عز وجل- للمتقين وثناؤه عليهم بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

١١- فضل الاتصاف بالصفات المذكورة، وهي الإنفاق، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس والإحسان إليهم، والاستغفار من الذنوب، وعدم الإصرار عليها؛ لأن الله امتدح المتقين بها، وخصها من بين خصال التقوى.

وإذا كان عز وجل قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ثم ذكر صفاتهم، وقال في سورة الحديد: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الآية: ٢١]، ففي هذا وذاك دلالة على دخول الأعمال في مسمى الإيمان كما هو مذهب أهل السنة والجماعة. خلافًا للمرجئة.

١٢- فضيلة الإنفاق والترغيب فيه في جميع الأحوال؛ لأن الله امتدح به المتقين وقدَّمه على الصفات بعده؛ لما فيه من نفع الآخرين.

١٣- فضيلة كظم الغيظ، والترغيب في الإمساك بزمام النفس عند الغضب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾.

١٤- الترغيب في العفو عن الناس وفضله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾.

١٥- إثبات صفة المحبة لله تعالى، كما يليق بجلاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

١٦- محبة الله تعالى للمحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. وهذا غاية مطلبهم، ويفهم من الآية عدم محبته للمسيئين.

١٧- الترغيب في الإحسان إلى الناس مطلقًا، وأن منه الإنفاق، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس؛ لأن الله لما ذكر هذه الصفات أتبعها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

١٨- أن المتقين ليسوا بمعصومين عن فعل الفاحشة أوظلم الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾.

١٩- أن فعل الفاحشة أو ظلم النفس لا يخدش التقوى إذا استغفر الإنسان وتاب، وقد قال ﷺ: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم**»[(١)]، وقال ﷺ: «**كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**»[(٢)].

وهذان الأبوان- عليهما السلام- لما تابا وأنابا إلى الله تعالى، وتاب الله عليهما صارت منزلتهما عند الله تعالى بعد التوبة أفضل من منزلتهما قبل المعصية والتوبة.

وهكذا حال كل تائب إلى الله تعالى إذا صدق في توبته ورجوعه إلى الله تعالى وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٩)، وابن ماجه في الزهد- ذكر التوبة (٤٢٥١)، من حديث أنس رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث غريب».

٢٠- أن الذنوب منها ما هو مستفحش، ومنها ما هو دون ذلك، لكنه ظلم للنفس؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي: فعلوا ما يستفحش، أو ظلموا أنفسهم بما دون ذلك، مع أن الكل ظلم للنفس. لكن الذنوب بعضها أفحش من بعض، كما أن منها كبائر، ومنها صغائر.

٢١- مبادرة المتقين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم إلى ذكر الله تعالى والاستغفار لذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾.

٢٢- أن ذكر الله تعالى سبب للتوبة والاستغفار؛ لقوله تعالى: ﴿ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾.

٢٣- لا أحد يغفر الذنوب إلا الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فهو سبحانه يغفر الذنوب جميعًا مغفرة تامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾ [الزمر:٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٢].

وعن الأسود بن سريع- رضي الله عنه- قال: إن النبي ﷺ أتي بأسير، فقال: «اللهم إني أتوب إليك، ولا أتوب إلى محمد، فقال النبي ﷺ: عرف الحق لأهله»[(١)].

فلا يتعاظمه- سبحانه- ذنب أن يغفره، بل إنه يبدل السيئات حسنات، كما قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ ﴾ [الفرقان:٧٠].

أما المخلوق فإنه لو غفر لمن أساء إليه- وهذا في الناس قليل- فإنه غالبًا يتبع ذلك بالمن والأذى لمن عفى عنه، وربما يذكره بين حين وآخر بذلك.

٢٤- عدم إصرار المتقين على ما فعلوا من فاحشة أو ظلم للنفس وهم يعلمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

٢٥- وجوب الاستغفار من الذنوب، والتحذير من الإصرار عليها؛ لأن الإصرار على الذنب سبب لعدم التوفيق للتوبة، وقد يجعل من الصغيرة كبيرة؛ ولهذا قال ابن

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٥).

عباس رضي الله عنهما: «لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار»[1].

٢٦- أن من استمر على ذنب وهو لا يعلم أنه ذنب فإنه قد يعذر؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

٢٧- رفعة شأن المتقين بالإشارة إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

٢٨- التنويه بما أُعد للمتقين من الجزاء العظيم من مغفرة ربهم لذنوبهم وجنات تجري من تحتها الأنهار؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وبهذا يزول عنهم المرهوب ويحصل لهم المطلوب.

٢٩- أن من أعظم نعم الجنة جريان الأنهار من تحت قصورها وغرفها وأشجارها؛ لقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

٣٠- خلود أهل الجنة فيها خلودًا أبديًّا؛ وأمنهم من الخروج منها، ومن انقطاع نعيمهم؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وهذا نعيم معنوي يضاف إلى ما هم فيه من ألوان النعيم.

٣١- امتداح الله تعالى وثناؤه لما أعده للمتقين من عظيم الأجر؛ لقوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ عملوا قليلًا فأجروا كثيرًا، وعند الصباح يحمد القوم السرى، وعند الجزاء يجد العامل جزاءه كاملًا موفورًا.

٣٢- الحث والإغراء على العمل، أي: العمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

٣٣- تكفل الله عز وجل بثواب أهل الجنة وجزائهم، لهذا سمّاه «أجرًا» تفضلًا منه وكرمًا.

* * *

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ٦٥١).

قال الله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) ﴾.

نهى الله- عز وجل- في الآيات السابقة المؤمنين عن أكل الربا، وأمرهم بتقواه، واتقاء النار، وطاعته- عز وجل- ورسوله ﷺ، والمسارعة إلى مغفرته- عز وجل- وجنته التي أعدها للمتقين، وأثنى عليهم بذكر صفاتهم ومَدَح جزاءهم وثوابهم.

وفي هذه الآية وما بعدها عود إلى قصة أُحد، وفيها تسلية للمؤمنين وتعزية لهم في مصابهم في أُحد، وفيها تشجيع وبشارة لهم، وتقوية لنفوسهم، وإحياء لعزائمهم وهممهم وذكر الحكم الباهرة، والفوائد الظاهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم.

قوله: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ ﴿ قَدْ ﴾: للتحقيق، وتأكيد الخبر ﴿ خَلَتْ ﴾: مضت وسبقت، والخطاب في قوله: ﴿ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ لهذه الأمة.

﴿ سُنَنٌ ﴾: جمع «سنة»، وهي: السيرة والطريقة، والمثال المُتَّبع، كما قال الشاعر:

فلا تجزعن من سنة أنت سرتها فأوَّل راض سنة من يسيرها[1]

والمراد: قد خلت سنن الله في الأمم قبلكم في نصرة المؤمنين وإهلاك المكذبين، كما قال تعالى: ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر:٨٥]، وقال تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب:٣٨]، وقال

(١) البيت لخالد بن زهير الهذلي يخاطب أبا ذؤيب الهذلي. انظر: «ديوان الهذليين» (١/ ١٥٥).

تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ [الرعد:٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر:١٣].

وسنن الله تعالى ثابتة لا تتبدل ولا تتحول في نصرة أوليائه وإهلاك أعدائه وأعدائهم، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح:٢٣]، وقال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٢]، وقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣]، وقال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٧٧].

﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فسيروا في الأرض بأبدانكم وقلوبكم، أي: فسيروا في الأرض سيرًا حسيًّا بأبدانكم على أقدامكم ومراكبكم؛ لتقفوا بأنفسكم على ديار أولئك المكذبين وتشاهدوها بأبصاركم فذلك أقوى في الاعتبار من السماع.

وسيروا في الأرض سيرًا معنويًّا بقلوبكم بالتفكر في أحوال تلك الأمم وهذا أعم وأوسع، والمراد بالأرض أرض الله عامة، وبخاصة أرض وديار المكذبين.

﴿فَٱنظُرُواْ﴾ بأبصاركم وعيونكم، وتأملوا وتفكروا ببصائركم وقلوبكم.

فالسير الحسي في الأرض أقوى في الاعتبار؛ لأنه يجتمع فيه التأمل والتفكر في القلب، والنظر والمشاهدة بالبصر، وليس الخبر كالعيان(١).

والسير المعنوي في الأرض أوسع وأعم لأنه يشمل التفكر بالقلب بكل ما سمع، وإن لم يشاهده.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الجملة في محل نصب مفعول ﴿فَٱنظُرُواْ﴾، و﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام وعاقبة الشيء نهايته وما يؤول إليه.

أي: كيف كانت عاقبة ونهاية المكذبين لله ورسوله أن عاقبهم الله بأنواع العقوبات، وحلت بهم المثلات فصارت نهايتهم الهلاك، وزال ملكهم، وصاروا أثرًا بعد عين،

---

(١) سبق تخريجه.

وصارت ديارهم بلاقع بسبب الذنوب والمعاصي والكفر بالله وتكذيب رسله.

وفي هذا تسلية للمؤمنين في مصابهم في أُحد، وتحذير للأمة كلها من مسالك المكذبين وعقوباتهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام:١١]، وقال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر:٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [غافر:٢١].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد:١٠]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة:٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

فأهلك قوم لوط بالحاصب، وثمود بالصيحة، وقارون بالخسف في الأرض، وقوم نوح وفرعون بالغرق.

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)﴾.

قوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾: الإشارة إلى القرآن الكريم، ومنه ما ذكّروا به في هذه الآيات من مؤاخذة المكذبين.

وأشار إلى القرآن بإشارة القريب ﴿هَذَا﴾؛ لأنه حاضر في الأذهان.

﴿بَيَانٌ﴾: مصدر «بيّن» يقال: بيّن يُبيِّن تبينًا وبيانًا. وجاء التعبير باسم المصدر عن

الموصوف بالبيان، وهو القرآن من باب المبالغة، حتى كأن الموصوف هو الصفة نفسها. فالقرآن بيان، وفيه البيان.

والبيان: الإيضاح، وكشف الحقائق الواقعة، والهدى والرشاد، وحذف المتعلق في قوله: ﴿بَيَانٌ﴾؛ ليعم بيان كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

﴿لِّلنَّاسِ﴾ أي: بيان للناس كلهم، فالقرآن عام من حيث «التبيين» فهو بيان لكل شيء، ومن حيث «المبَيَّن له» فهو بيان لجميع الناس.

أي: هذا القرآن بيان لكل شيء، وهدى وإرشاد للناس كلهم، به تقوم عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

فيه بيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وبيان أخبار الأمم السابقة، وما جرى بين الرسل وأتباعهم، وبين المكذبين من أقوامهم، وعاقبة كل منهم، بنصر الله لأوليائه المؤمنين، وإهلاكه لأعدائه المكذبين.

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: معطوف على ﴿بَيَانٌ﴾ فهو بيان للناس عامة، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ خاصة؛ لأنهم هم الذين يهتدون بهدي القرآن ويعملون به، ويتعظون بمواعظه.

والموعظة: ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩]. أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ الواو: استئنافية، و«لا»: ناهية، والخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين. والوهن: الضعف، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ [مريم:٤] أي: لا تضعفوا عن الجهاد وقتال الكفار في المستقبل بسبب ما نالكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾

[النساء:١٠٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد:٣٥].

﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾: معطوف على ما قبله، وكرر «لا» للتأكيد، والحزن: الأسف والأسى على مصاب قد مضى من حصول شر أو فوات خير، أي: ولا تحزنوا بقلوبكم على من قتل منكم.

فكل مصيبة دون الدين تهون، وفي الله عوض عن كل فائت، وكما قيل:

وكل كسر فإن الله جابره ... وما لكسر قناة الدين جبران[1]

فنهاهم عن الوهن والضعف؛ لإشعارهم أنهم أقوياء بالله تعالى؛ ليزدادوا قوة وإقدامًا، ونهاهم عن الحزن على ما مضى؛ إذ لا فائدة في ذلك، ولئلا تفتر عزائمهم، أو يفت ذلك في عضدهم؛ ولهذا قال بعده:

﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنكم أنتم الأعلون، ويحتمل كون الواو: استئنافية، أي: وأنتم الأعلون شرعًا ومنزلة بالإيمان، وأنتم الأعلون العالون قدرًا بنصر الله تعالى لكم حتى ولو أصابكم ما أصابكم، فالعقبى لكم في الدنيا والآخرة والنصر لكم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، وفي هذا بشارة لهم.

و﴿الْأَعْلَوْنَ﴾ جمع «الأعلى» وفُتِح ما قبل الواو في ﴿الْأَعْلَوْنَ﴾ للدلالة على الألف المحذوفة في «الأعلى» لالتقاء الساكنين.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ «إن»: شرطية، و«كنتم»: فعل الشرط، وجوابه محذوف دل عليه ما سبق، أي: إن كنتم مؤمنين، فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون؛ لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

فأنتم الأعلون بإيمانكم، وبكون مصابكم أقل من مصابهم، مع أن عددكم وعدتكم أقل منهم، وأنتم الأعلون بوعد الله لكم بالنصر في المستقبل في دينكم ودنياكم وأخراكم.

قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» (ص٨٠).

بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وعاصم في رواية أبي بكر بضم القاف: «قُرْحٌ»، وقرأ الباقون بفتح القاف ﴿قَرْحٌ﴾، ومعناهما واحد فـ«القرح» بضم القاف وفتحها: «الجرح».

وقيل: إن «القُرح» بالضم: «الجرح»، و«القَرح» بالفتح: «ألم الجرح»، والقولان متلازمان؛ لأن الألم من لازم الجرح.

ومعنى ﴿يَمْسَسْكُمْ﴾: يصبكم، كما قال تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة:٢١٤]، أي: أصابتهم. والمعنى: إن يصبكم جراح وقتل.

﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاتصاله بـ«قد». والمراد بـ«القوم» كفار مكة، أي: فقد أصاب المشركين قرح مثله، أي: جراح وقتل وذلك في بدر حيث قتل منهم سبعون وأُسر سبعون، فكنتم كفافًا، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:١٦٥]، أي: أصبتم منهم في بدر مثلي ما أصابوا منكم في أُحد، أي: ضعفه، حيث قتلتم منهم سبعين رجلًا وأسرتم سبعين.

وفي هذا تسلية للمؤمنين بأن ما أصابهم من قتل وجراح يوم أُحد، قد أصاب عدوهم مثله يوم بدر فليس المصاب خاصًا بهم، وفي هذا تخفيف لمصاب المؤمنين، أي: هذا بهذا، والإنسان إذا علم أن عدوه قد أصابه مثل مصابه هانت عليه مصيبته، مع الفرق الشاسع والبون الواسع بين قتلى الفريقين، فقتلى المؤمنين في الجنة، وقتلى المشركين في النار؛ ولهذا لما قال أبوسفيان: الحرب سجال؛ يوم لنا، ويوم لكم. فقال ﷺ لأصحابه: أجيبوه: فقالوا:

«لا سواء، لا سواء؛ قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار»[١].

والمصائب إذا عمت خفت؛ ولهذا قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر[٢]:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

ولما حضرت الاسكندر المقدوني الوفاة أمر أمه أن تكتب على باب قصره بأن لا يأتي أحد للعزاء إلا من لم تصبه مصيبة، فلما مات كتبت ذلك فلم يأتها أحد يعزيها، فسألت لم ذلك؟ فقيل لها: إنك كتبت على باب القصر أنه لا يأتيك للعزاء إلا من لم تصبه مصيبة، وما من الناس أحد إلا وقد أصابته مصيبة، فقالت: يا ولدي لقد عزيتني عن نفسك بنفسك.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ﴾ الواو: استئنافية، وأشار للأيام بإشارة البعيد «تلك»؛ لأن الأيام منها ما هو بعيد ومنها ما هو قريب، كما أن منها ما هو سابق ومنها ما هو لاحق.

والأيام تشمل الأيام المعروفة والأزمنة، وما يقع فيها من النقم والنعم، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:٥]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:١٤].

﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ تكلم عز وجل بضمير العظمة إشارة إلى عظمته- عز وجل- وكمال سلطانه في تدبير أمر هذا الكون، ومداولة الأيام بين الناس.

ومعنى ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: نجعلها دولًا بينهم، فتارة تكون الدولة لهؤلاء على هؤلاء، وتارة تكون الدولة لهؤلاء على هؤلاء.

وهذا من سنن الله تعالى الكونية، ففي بدر كانت الدولة للمسلمين على المشركين، وفي أُحد كانت الدولة للمشركين على المسلمين، لحكم وأسرار عظيمة ذكرها الله تعالى في هذه الآيات.

ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان: «كيف كان قتالكم إياه؟ قال: الحرب بيننا سجال،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٧٧١).

(٢) انظر: «ديوانها» (ص٨٤).

ينال منا وننال منه. فقال هرقل: وكذلك الرسل تبتلى وتكون لهم العاقبة»[١].

قال ابن القيم[٢] في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أُحد: «ومنها: أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة، ويدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائمًا دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يميز الصادق من غيره، ولو انتُصِر عليهم دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، اقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاؤوا به، ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة».

فالأيام دول، ودوام الحال من المحال، فمِن عِز إلى ذل ومن ذل إلى عز، ومن رخاء إلى شدة، ومن شدة إلى رخاء، ومن غنى إلى فقر، ومن فقر إلى غنى، ومن صحة إلى سقم ومن سقم إلى صحة، وهكذا، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران:٢٦]، وقال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور:٤٤].

وقال الشاعر:

فيـــوم علينـــا ويـــوم لنـــا ويـــوم نســاء ويـــوم نســـر[٣]

وقال الآخر:

ومن عاش في الدنيا فلابد أن يرى من العيش ما يصفو وما يتكدر[٤]

قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ هذا شروع في بيان الحكمة فيما أصابهم يوم بدر.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الواو: عاطفة، والمعطوف عليه مقدر دل عليه ما

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٣٩٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي سفيان رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥١٠).

(٣) البيت لنمر بن تولب. انظر: «ديوانه» (ص٣٤٧).

(٤) البيت مجهول القائل. انظر: «المستطرف» (ص٤٣).

سبق، أي: أصابكم ما أصابكم من القرح، وجعلنا الأيام دولًا ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ واللام في قوله: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ﴾: للتعليل، أي: ولأجل أن يعلم الله الذين آمنوا»، أي: لأجل أن يعلم علمًا يترتب عليه مجازاتهم؛ لأن الله- عز وجل- قد علم أزلًا المؤمنين من غيرهم، وعلم كل شيء، لكنه- عز وجل- لا يحاسب الخلائق على ما في علمه السابق أزلًا قبل إيجادهم وحصول الإيمان منهم أو عدمه، وإنما يحاسبهم بعد وجود ذلك وحصوله منهم. أي: وليعلم الله الذين يرضون ويسلمون بما يقدره الله تعالى من مداولة الأيام بين الناس، فيصبرون على الضراء، ويشكرون عند السراء، ويلبسون لكل حالة لبوسها الشرعي، فلا تجزعهم المصيبة، ولا تبطرهم النعمة، كما قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»[1].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٢]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [العنكبوت:١٠-١١]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج:١١]، والمراد بالفتنة في الآية ضد الخير.

فمداولة الأيام وما يحصل فيها من خير أو شر أو نصر أو هزيمة فيه أعظم الابتلاء والامتحان للعباد ليتميز المؤمن الصادق من الكافر والمنافق، كما قال تعالى: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤١]، وقال تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٩)، من حديث صهيب رضي الله عنه.

ﭐلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ ﴾ [الأنفال:٣٧].

﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾: معطوف على قوله: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ﴾ أي: جعل الله تعالى الأيام دولًا بين الناس وجعل الدولة للكفار عليهم في أُحد؛ ليعلم الذين آمنوا ويتخذ منكم أيها المؤمنون شهداء، أي: يجعل ويختار ويصطفي منكم شهداء، أي: أناسًا يستشهدون ويقتلون في سبيله، حيث قتل في هذه الغزوة سبعون رجلًا منهم، اختارهم الله واصطفاهم للشهادة في سبيله.

والشهداء: جمع شهيد، وهو الذي يقتل في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، سمي شهيدًا؛ لأن تعريضه نفسه للقتل شهادة فعلية منه على صدق إيمانه، ولأن الملائكة تشهده، وغير ذلك.

أي: ليعلم الذين آمنوا بصبرهم حال الشدة وشكرهم حال الرخاء، ولكي يختار ويصطفي من المؤمنين شهداء.

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالشرك وقتال المؤمنين والصد عن دين الله، وقابل قوله: ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ في إشارة إلى فضل الشهادة ومحبة الله للشهداء وأن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار- كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما[1]، فهو كقوله تعالى: ﴿ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة:٥٢]، وفي قوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ احتراس من أن يظن ما حصل لهم من الدولة في أحد من محبة الله لهم.

وأيضًا: ﴿ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالقعود عن القتال من المنافقين، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة:٤٦]؛ ولهذا لم يتخذ منهم شهداء.

و﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ جمع «ظالم»، والظلم النقص، كما قال تعالى: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [الكهف:٣٣]، وهو أيضًا: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

العدوان.

وأظلم الظلم الشرك بالله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

فالظالم مَن اعتدى في حق الله، أو حق عباده، ونقص حق الله، أو حق عباده، فمن أشرك بالله أو عصاه فقد ظلم واعتدى ونقص حق الله تعالى، ومن اعتدى على عباد الله تعالى فقد ظلمهم ونقص حقهم. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بل يبغضهم بقدر ظلمهم، ومفهوم هذا محبته للمقسطين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:٤٢، الحجرات:٩، الممتحنة:٨].

قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

معطوف على ما قبله داخل ضمن الحكمة في إصابتهم بالقرح وجعل الأيام دولًا، أي: ولأجل أن يمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين.

قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ﴾ «التمحيص»: التنقية والتصفية والتخليص.

أي: يمحص الله الذين آمنوا، أي: ليبتليهم ويصفيهم بما أصابهم من القرح وإدالة الكافرين عليهم؛ ليتبين ويتميز المؤمنين الخلص منهم والصفوة، ولينقيهم من ذنوبهم بذلك المصاب؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: معطوف على ما قبله، و«المحق»: إهلاك الشيء وإذهابه بالكلية، أي: ويهلك الكافرين، أي: ومن حكمة الله تعالى في إصابتكم بالقرح ومداولة الأيام، وجعل الدولة لهم عليكم استدراجًا لهم؛ ليمحقهم؛ لأنهم إذا انتصروا ازدادوا طغيانًا وبغيًا وبطرًا؛ اغترارًا منهم بما حصل لهم من نصر، فيعودون لقتالكم مرة بعد أخرى، فيكون محقهم ومعاجلتهم بالعقوبة والهلاك في الدنيا الموصول بهلاكهم وعذابهم في الآخرة في النار وبئس القرار. وقد أهلك جميع الذين حاربوا رسول الله ﷺ يوم أُحد، وأصروا على الكفر، فما أصاب المؤمنين فضيلة وشهادة وتمحيص، وما أصاب الكافرين محق وهلاك، وشتان بين الحالين.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ

ﱡﭐﱻﱼﱠ.

ذكر عز وجل أن من الحكم فيما أصاب المسلمين في أُحد تميز المؤمنين وتمحيصهم واصطفاء شهداء منهم، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ الآية؛ تأكيدا لما قبلهَ، وبيانًا لتحتم هذا الابتلاء والتمحيص، فدرب الجنة ليس مفروشًا بالورود والرياحين.

قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ ﴿أَمْ﴾: هي المنقطعة التي بمعنى «بل» الانتقالية وهمزة الاستفهام، أي: بل أحسبتم، والاستفهام للتوبيخ والإنكار والنفي. و﴿أَنْ﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«حسب» أي: أحسبتم دخول الجنة، ومعنى «أحسبتم» أي: أظننتم.

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ الواو: حالية، و«لمَّا»: حرف نفي وجزم، وهي أشد نفيًا من «لم» وتفيد ترقب حصول المنفي، و﴿يَعْلَمِ﴾: مجزوم بها حرك بالكسر لالتقاء الساكنين.

أي: أظننتم أن تدخلوا الجنة، والحال أن الله لما يعلم الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين. أي: ولم تبتلوا بالجهاد والشدائد، فتجاهدوا وتصبروا؛ ويعلم الله ذلك منكم بعد وقوعه فيجازيكم عليه بدخول الجنة.

والمعنى: لا تحسبوا ولا تظنوا ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾ [البقرة:٢١٤]، وقوله تعالى: ﴿الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣].

وفي الحديث: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٣)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٩)، من حديث أنس رضي الله عنه.

قال الشاعر:

فـدرب الصـاعدين كـما علمـتم   بـه الأشـواك تكثـر لا الـورود[(١)]

وقال الحسن: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن الإيمان ما وقع في القلب وصدقه العمل»[(٢)]، ولهذا يقال: «التمني رأس مال المفاليس».

وقال الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها   إن السفينة لا تجري على اليبس[(٣)]

وسلعة الله تعالى غالية، كما قال ﷺ: «**ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**»[(٤)].

قال ابن القيم[(٥)]:

يـا سـلعة الـرحمن لسـت رخيصـة   بـل أنـت غاليـة عـلى الكسـلان

يـا سـلعة الـرحمن لـيس ينالهـا   في الألـف إلا واحـد لا اثنـان

ومعنى ﴿جَٰهَدُواْ﴾ بذلوا جهدهم بأموالهم وأنفسهم في القتال في سبيل الله.

﴿وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: الصابرين على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وكل هذه الأقسام الثلاثة تجتمع في القتال في سبيل الله، ففيه الصبر وحبس النفس على طاعة الله؛ لأن القتال أمر شاق على النفوس، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة:٢١٦]، وفيه الصبر عن معصية الله بعدم الفرار وترك القتال، وفيه الصبر على أقدار الله المؤلمة من القتل والجراح والمشقة، ونحو ذلك. وقد كان من أسباب ما أصاب المسلمين في أُحد عدم صبر الرماة؛ فحصل على المسلمين ما حصل.

---

(١) البيت لوليد الأعظمي- شاعر عراقي- في ديوانه «الزوابع». انظر: «الأعمال الشعرية الكاملة» (ص٨٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ١٦٣)، وفي «الإيمان» ص(٩٢)، وأحمد في الزهد ص(٢٦٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٦٥).

(٣) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص١٩٤).

(٤) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق (٢٤٥٠)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وقال: «حديث حسن غريب».

(٥) «النونية» (ص٣٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣)﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ الواو: عاطفة، واللام: واقعة في جواب القسم، أي: والله لقد كنتم، و«قد» للتحقيق، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، و«قد».

﴿تَمَنَّوْنَ﴾ أصلها تتمنون، والتمني: طلب ما يصعب ويتعسر حصوله، أو يستحيل، كما في قول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يومًا فأخبره بما فعل المشيب[1]

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ إشارة إلى أن ما حصل منهم لما استشار النبي ﷺ الناس في الخروج إلى أُحد أو البقاء في المدينة والتحصن فيها أشار عليه الشباب- وبخاصة مَن لم يشهدوا بدرًا- بالخروج، وكانوا يتمنون أن يموتوا ويستشهدوا، كما استشهد بعض إخوانهم في بدر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ أي: كنتم تمنون الموت بالقتل والاستشهاد مع مَن استشهد في بدر، ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ أي: من قبل هذا اليوم.

وها أنتم اليوم في أُحد لقيتموه وجعل لكم ما تمنون، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿رَأَيْتُمُوهُ﴾: أبصرتموه وشاهدتموه بأعينكم فيما بينكم، والضمير يعود إلى الموت. أي: رآه مَن استشهد منكم في «أُحد» بنفسه، ورآه مَن لم يستشهد بغيره. وقيل: رأيتم أسبابه في صفوف المقاتلين ولمعان السيوف، وحد الأسنة، واشتباك الرماح.

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنكم تنظرون عيانًا بيانًا على أشد ما تكونوا إحساسًا، فأين بلاؤكم وصبركم، وكيف جبنتم وتخاذلتم وانهزمتم.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير الله تعالى هذه الأمة بسنن الله تعالى الخالية في الأمم الماضية؛ لقوله تعالى:

(١) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص٣٢).

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾.

٢- الحث على السير في الأرض والنظر فيها والاعتبار بالأمم السابقة وديارهم، وما آلت إليه أحوالهم، وعاقبة المكذبين منهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي: سيروا في الأرض وانظروا فيها معتبرين متعظين، لا متفرجين؛ ولهذا قال ﷺ: «**لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم**»(١).

٣- أن للمسير في الأرض ومشاهدة آثار الغابرين أثرًا في الاعتبار أقوى من أثر السماع.

٤- أن ما حصل للمؤمنين من الابتلاء في أُحد بسبب المخالفة هو من سنن الله تعالى مع أتباع الأنبياء، مما يوجب الحذر من مخالفة أمر الله ورسوله.

٥- سوء عاقبة المكذبين لله تعالى ورسله؛ لقوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ مما يوجب الحذر من مسالكهم.

٦- أن القرآن الكريم بيان لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ ﴾ بحذف المتعلق، أي: بيان لكل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام:٣٨].

٧- أن القرآن الكريم بيان وإرشاد وهدى لجميع الناس المؤمن والكافر؛ لقوله تعالى: ﴿ لِّلنَّاسِ ﴾.

٨- أن القرن الكريم هدى وموعظة للمتقين خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

٩- أن كثيرًا من الناس لا ينتفع بالقرآن، ولهذا خصّ الله تعالى من بين الناس المتقين؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالقرآن فيهتدون به ويتعظون.

١٠- فضيلة التقوى، وأن مَن لم يهتد بالقرآن ولم يتعظ به فليس من المتقين.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الحجر:٨٠] (٤٧٠٢)، ومسلم في الزهد والرقائق- «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين» (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

١١- نهى الله- عز وجل- المؤمنين عن الوهن والضعف فيما يستقبلهم من الأحداث والنوائب، وعن الحزن على ما فاتهم فيما مضى، وما وقع لهم من المصائب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾.

١٢- وضوح الحكمة التشريعية في النهي عن الوهن وعن الحزن؛ لأن الوهن ينافي ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان وبخاصة المؤمن من الحزم والعزم في جميع أموره، كما أن الحزن على ما مضى لا يرد فائتًا، بل قد يكون سببًا لفتور العزيمة وضعف الإرادة.

١٣- تقوية عزائم المؤمنين، وتثبيت قلوبهم وتشجيعهم للمضي قدمًا والتغلب على ما يلاقيهم من الصعاب والنوائب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾. وكما قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم[1]

١٤- أن المؤمنين هم الأعلون في كل حال؛ في حال النصر وعدمه، لأنهم يحيون ويقاتلون لهدف نبيل، وهو إعلاء كلمة الله تعالى ونصرة دينه، فهم الأعلون في كل حال، والعقبى لهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾. وكما قيل:

علـــو في الحيـــاة وفي الممـــات ....[2]

١٥- أن من شرط الإيمان أن لا يهن المؤمن ولا يضعف أمام الأعداء، وما يلاقيه من الصعاب؛ لأنه قوي بالله تعالى والله معه، ومعينه وناصره، وأن لا يحزن على ما مضى وفات فلن يفيده ذلك، ومن الله تعالى عوض عن كل فائت، وما كان في الله تلفه كان على الله خلفه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

١٦- ينبغي أن يكون المؤمن قويًا بالله تعالى في أي حال من شدة أو رخاء أو غنى أو فقر أو صحة أو مرض، أو نصر أو عدمه؛ لأن العزة لله تعالى ولرسوله والمؤمنين. والإسلام يعلو ولا يعلى عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

---

(١) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (٢/ ٢٧٢).

(٢) من شطر بيت لابن الأنباري. انظر: «ديوان المعاني» (٢/ ١٧٩).

سَبِيلًا ﴾ [النساء:١٤١].

١٧- أن الوهن والضعف تجاه العدو والنوائب، والحزن على ما مضى، نقص وضعف في الإيمان، وليس من صفات المؤمنين.

وإذا كان الله- عز وجل- قد نهى المؤمنين عن الوهن والضعف أمام الأعداء وفي طلبهم وقتالهم كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ﴾ [النساء:١٠٤].

فإن مما يحز في النفس ويحزن القلب ويندى له الجبين أن تجد الوهن والضعف قد دبَّ، بل واستشرى بين كثير من المسلمين أمام أنفسهم، فضعفوا عن القيام بكثير من حقوق الله تعالى، وحقوق الأمة، حتى أصابهم الوهن والضعف في أعظم حقوق الله تعالى بعد الشهادتين- وهي الصلاة، التي هي عمود الإسلام وقاعدته التي تدور عليها رحاه، فمنهم من تركها بالكلية، ومنهم من يصليها حينًا ويتركها أحيانًا، ومنهم من لا يقيمها كما شرعها الله، ولا يصليها مع جماعة المسلمين في المساجد.

كما أصابهم الوهن والضعف في القيام بحقوق الأمة ومصالحها وتحمل مسؤولياتها كالأذان والإمامة في المساجد، والتدريس والتعليم في شتى المراحل، والأعمال الوظيفية على اختلافها وتنوعها- وغير ذلك من مسؤوليات الأمة، بسبب ضعف الاحتساب وعدم استحضار النية، وعدم الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى في الحفاظ على مصالح الأمة ومكانتها.

وضعفت بسبب ذلك العزائم وتحطمت المعنويات وتقاعست الهمم فالقائمون على المساجد من المؤذنين والأئمة لسان حال فريق منهم ومقالهم يقول: ربطني المسجد وقيَّد حريَّتي، ولسان حال كثير من المدرسين ومقالهم يقول: النصاب كثير، ولسان حال كثير من الموظفين ومقالهم يقول: الدوام طويل- وهكذا- وكما قيل:

كل من لقيت يشكو دهره ... ليت شعري هذه الدنيا لمن[1]

وكل هذا وذاك مما جعل الأمة في مؤخرة الركب. تتقدم الأمم وتنتظم فيها الحياة كما تنتظم دقات عقارب الساعة بينما يراوح المسلمون مكانهم ويعيشون حياة

(١) البيت للمعري. انظر: «روض الأخبار» (ص١٤١).

التخلف والفوضى والجهل والفقر والمرض، ولن يعود للأمة عزها ومجدها وكرامتها، ولن تنهض من كبوتها وتتبوأ مكانتها اللائقة بها بين الأمم إلا بالعودة حقًّا إلى دينها، وتحمل المسلمين جميعًا؛ دولًا ومؤسسات وأفرادًا مسؤولياتهم، وقيام كل منهم بواجبه المنوط به في عمله، وبهذا تنتظم حياة الأمة دينًا ودنيا، وتأخذ مكانها بين الأمم، وما ذلك على الله بعزيز.

١٨- تسلية المؤمنين وتعزيتهم والتخفيف عليهم بأن ما أصابهم من قرح يوم أُحد فقد أصاب القوم قرح مثله في بدر، والأيام دول، فيوم لهم ويوم عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

١٩- أن مما يهون المصيبة على المصاب تذكيره بأن ما أصابه قد أصاب غيره مثله أو أشد وأن المصائب جمة وليست حكرًا على أحد، وأعظم مصيبة المصيبة في الدين، وأعظم مصيبة أصيبت بها الخليقة فقد محمد ﷺ، كما قال حسان- رضي الله عنه[1]:

وما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يفقد

٢٠- أن الأيام دول بين الناس تكون فيها الدولة لهؤلاء على هؤلاء، ولهؤلاء على هؤلاء، وتتقلب فيها الأحوال بالنسبة للأفراد والجماعات والدول، فمن عز إلى ذل، ومن ذل إلى عز، ومن رخاء إلى شدة، ومن شدة إلى رخاء، ومن غنى إلى فقر، ومن فقر إلى غنى، إلى غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

٢١- تمام ربوبية الله تعالى وسلطانه في خلقه؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

٢٢- أن ما حصل على المؤمنين في أُحد من قرح بقتل سبعين رجلًا منهم وجعل الدولة لعدوهم عليهم؛ لحكم وأسرار عظيمة، منها: أن يظهر في علم الله الذين آمنوا، ويتخذ منهم شهداء، ويمحصهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ﴾، وقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٦٣).

٢٣- أن في الابتلاء بالمصائب ونحوها تميز المؤمنين وتمحيص الصفوة منهم وتنقيتهم من الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٢٤- أن الله- عز وجل- لا يحاسب العباد على ما في علمه الأزلي عنهم، وإنما يحاسبهم على ما وجد وظهر منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٢٥- فضيلة الشهادة ومكانة الشهداء عند الله؛ لأن الله يتخذهم ويصطفيهم لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾، كما قال تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

٢٦- فضل شهداء أُحد- رضي الله عنهم؛ لأن الله اتخذهم شهداء، وشهد لهم بالشهادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾.

٢٧- نفي محبة الله للظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٨- إثبات المحبة لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه يحب العادلين؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٩- التحذير من الظلم سواء كان في حق الله تعالى، أو في حق الخلق، في دمائهم أو أعراضهم أو أموالهم؛ لأن الله تعالى لا يحب الظالمين، بل يبغضهم وينتقم منهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥].

٣٠- أن من حكمة الله تعالى في إدالة الكافرين على المؤمنين كما حصل في أُحد، وفي جعل الأيام دولًا بين أهل الحق وأهل الباطل؛ ليغتر أهل الباطل ويستمروا في عنادهم واستكبارهم فيمحقهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٣١- أن نهاية أهل الكفر المحق والهلاك والدمار والخسران والبوار.

٣٢- الإنكار على من يطمع في دخول الجنة بلا جهاد ولا صبر، ولا ابتلاء؛ لقوله تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، والمعنى: لا تحسبوا ذلك فإن حسبتم دخول الجنة بغير جهاد فأنتم جاهلون، كما أنكم إن لم تحسبوا ذلك ولم تقوموا بالجهاد وتصبروا عليه فأنتم مفرطون.

٣٣- أن سلعة الله الجنة غالية الثمن لا تنال بالتمني، وإنما تنال بالجهاد والصبر والعمل.

٣٤- أن الجهاد والصبر من أسباب دخول الجنة؛ الجهاد بالنفس والمال والعلم والعمل، والصبر بأنواعه الثلاثة؛ الصبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

٣٥- إقامة الحجة على من كانوا يتمنون الموت من قبل أن يلقوه بجعلهم يرونه وهم ينظرون؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾.

٣٦- لا ينبغي أن يتمنى الإنسان المكروه وما قد يعجز عنه، وإنما يسأل الله تعالى العافية فإذا ابتلي فعليه الصبر، كما قال ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية**»[(١)].

وليس في الآية دليل كراهية تمني الشهادة، بل فيها دليل على عدم كراهية ذلك؛ لأن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها.

وقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده وددت أن أقاتل في سبيل الله فأقتل، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل**»[(٢)].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك. واجعل

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير- لا تتمنوا لقاء العدو (٢٩٦٦)، ومسلم في الجهاد والسير- كراهة تمني لقاء العدو (١٧٤٢)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٣١)، من حديث عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التمني (٧٢٢٧)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٦)، والنسائي في الجهاد (٣١٥٢)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

موتي في بلد رسولك»[١].

وقد أجاب الله دعاءه فقتل وهو يصلي بالمسلمين بمسجد رسول الله ﷺ.

وقال عبدالله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرع تقذف الزبدا

حتى يقولوا إذا مروا على جدثي أرشدك الله من غاز وقد رشدا[٢]

٣٧- ينبغي أن لا يعتمد الإنسان على نفسه وقوته وجهده، بل يجب أن يعتمد على ربه- عز وجل- ويسأله العون والتوفيق- مع فعل السبب، ويخاف من شؤم نفسه وذنوبه، وكما قال علي رضي الله عنه[٣]:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

* * *

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٨٩٠)، من حديث سالم عن أبيه عن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (١/ ١٩١).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص٣٧)، «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (١/ ١٧٧)، «محاضرات الأدباء» (١/ ٥٣٢).

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾.

قال ابن كثير(١): «لما انهزم مَن انهزم مِن المسلمين يوم أُحد، وقُتل مَن قُتل منهم نادى الشيطان: ألا إن محمدًا قد قُتل، ورجع ابن قمئة إلى المشركين، فقال لهم: قتلت محمدًا، وإنما كان ضرب رسول الله ﷺ، فشجه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قُتل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء- عليهم السلام- فحصل وهن وضعف وتأخُّرٌ عن القتال، ففي ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: له أسوة بهم في الرسالة، وفي جواز القتل عليه».

وعن ابن أبي نجيح عن أبيه: أن رجلًا من المهاجرين مر على رجل من الأنصار، وهو يتشحط في دمه، فقال له: يا فلان، أشعرت أن محمدًا ﷺ قد قُتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قُتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم، فنزل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾»(٢).

وروي أن أناسًا من أهل النفاق قالوا: إن كان محمد قد قتل فالحقوا بدينكم الأول.

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ١٠٨).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ١٠٢)، وذكره ابن كثير (٢/ ١٠٩) ونسبه للبيهقي في دلائل النبوة.

فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: «إن كان محمد قد قُتل فإن رب محمد لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه»(١).

وفي رواية أنه قال: «اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء- يعني: المسلمين، وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه، فلقي سعد بن معاذ، فقال: أين يا سعد إني أجد ريح الجنة دون أُحد، فمضى فقُتِل»(٢).

قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: نافية، و﴿مُحَمَّدٌ﴾: هو نبينا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب الهاشمي صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿إِلَّا رَسُولٌ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، أي: ما هو إلا رسول من عند الله، مهمته تبليغ رسالة ربه، وليس بدعًا من الرسل بل هو من جنس الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩].

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾: صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾ وهي محط القصر، أي: ما هو إلا رسول موصوف بخلو الرسل قبله، أي: مضيهم وانقراضهم قبله وسيخلو ويمضي مثلهم. و﴿قَدْ﴾: للتحقيق ﴿خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: مضت؛ كقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران:١٣٧]. أي: قد مضت وسبقت من قبله الرسل، فمنهم من مات ومنهم من قُتل؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة:٦١].

و«ال» في ﴿الرُّسُلُ﴾ للعموم، أي: قد خلت من قبله جميع الرسل، فهو خاتمهم، وفي هذا توطئة لقوله بعده: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ الآية، والهمزة للاستفهام، ومعناه التوبيخ والإنكار والنهي، والفاء للتعقيب.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ١٠٢) مختصرًا عن أنس رضي الله عنه. وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٤٨)، من حديث أنس رضي الله عنه.

و«إن»: شرطية، و﴿مَّاتَ﴾: فعل الشرط، ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ﴾: جواب الشرط، والخطاب لمن شهدوا بدرًا وغيرهم من المؤمنين.

﴿عَلَىٰٓ أَعۡقَـٰبِكُمۡۚ﴾، «أعقاب» جمع «عقب»، وهو: «العرقوب» مؤخر القدم.

وفي الحديث: «**ويل للأعقاب من النار**»[1]، أي: مؤخرة الأقدام.

والانقلاب على العقب: الرجوع على الوراء، ورجوع القهقرى، والسير على غير هدى، وأصل الانقلاب التحول من حال إلى حال.

والمعنى: أفإن مات أو قتل كغيره من الرسل ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَـٰبِكُمۡۚ﴾ أي: رجعتم وارتددتم عن دينكم. أي: أتنقلبون على أعقابكم وترجعون عن دينكم وتتركون الجهاد إن مات أو قتل رسولكم، والمراد: اثبتوا على دينكم، ولا ترتدوا عنه، وإن مات رسولكم أو قتل، كما ثبتت الأمم قبلكم على أديانهم ولم يرجعوا ويرتدوا بعد أنبيائهم.

وكنى بالرجوع والارتداد عن الدين بالانقلاب والرجوع على الأعقاب تقبيحًا له وذمًّا، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الملك:٢٢].

﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ انتقل الكلام من صيغة الخطاب إلى صيغة العموم والغيبة، فلم يقل: «وإن انقلبتم على أعقابكم فلن يضر الله شيئًا»؛ ليكون الحكم عامًّا لكل مَن رجع وارتد عن دينه منهم ومن غيرهم، كما أن فيه عدم مواجهتهم بالخطاب بهذا بعد أن وبخهم وحذرهم من ذلك، إضافةً إلى ما في تنويع التعبير من لفت الانتباه.

والواو: عاطفة، و«من»: شرطية تفيد العموم، ﴿يَنقَلِبۡ﴾: فعل الشرط.

﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾: جواب الشرط، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاتصاله بـ«لن» و﴿شَيۡـٔٗاۗ﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم أيّ شيء.

---

(١) سيأتي تخريجه برواياته عند تفسير قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الآية:٦].

أي: فمن يرجع على عقبيه ويرتد عن دينه فلن يضر الله أي شيء، وإنما يضر نفسه؛ لأن الله تعالى لا تضره طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**»[(١)].

﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أنكر عز وجل ووبخ من انقلب على عقبيه، ثم أثنى وامتدح الشاكرين ممن ثبتوا مع رسول الله ﷺ وامتثلوا أمره، ولم يرتدوا عن دينه، والسين في قوله: ﴿وَسَيَجْزِى﴾ للتنفيس، وهي تحول الفعل المضارع من كونه صالحًا للحال والاستقبال معًا إلى كونه خالصًا للاستقبال.

والجزاء: الثواب والمكافأة على العمل، و﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: جمع «شاكر»، وهم الذين شكروا الله تعالى على نعمه واستعانوا بها على طاعته والثبات على العبودية له وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، واتباع رسوله ﷺ حيًّا وميتًا وفي مقدمتهم صحابة رسول الله ﷺ- رضوان الله عليهم- الذين ثبتوا على دينه بعد وفاته ﷺ وارتداد مَن ارتد من العرب.

فهم سادات الشاكرين وفي مقدمتهم أميرهم أبوبكر- رضي الله عنه- كما قال علي رضي الله عنه: «﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الثابتين على دينهم، منهم أبوبكر وأصحابه، فكان علي- رضي الله عنه- يقول: كان أبوبكر أمير الشاكرين، وأمير أحباء الله، وكان أشكرهم وأحبهم إلى الله»[(٢)].

قال ابن القيم[(٣)]: «فظهر أثر هذا العتاب، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ، وارتد مَن ارتد على عقبيه وثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم الله وأعزهم وظفرهم بأعدائهم وجعل العاقبة لهم».

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ٩٧-٩٨).

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٥).

و«الشكر» يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بالجوارح، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا[(١)]

وشكر الله تعالى بالقلب بالاعتراف باطنًا بنعم الله تعالى واستشعار أنها من الله تعالى وبفضله، لا بحول الإنسان وقوته.

والشكر باللسان يكون بالثناء على الله تعالى بلسان المقال بحمده تعالى على نعمه؛ من نعمة الإسلام والإيمان والخلق والرزق وغير ذلك، والاعتراف بها، ونسبتها إلى الله تعالى، والتحدث بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١].

وشكر الله تعالى بالجوارح يكون باستعمالها في طاعته والثبات على دينه وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ويكون بظهور أثر نعمة الله تعالى على العبد في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه ومركبه ونحو ذلك؛ كما قال ﷺ: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»[(٢)].

ولم يذكر أو يحدد جزاءهم، ليُدلل على عظمته وكثرته؛ لأنه على قدر من جازاهم به وهو العظيم سبحانه وتعالى؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]، وأيضًا فإن جزاءهم متفاوت ومختلف؛ لأنه على قدر شكرهم.

والمعنى: وسيجزي الشاكرين بمغفرة ذنوبهم، ورفعة درجاتهم، وبالثواب العظيم والفضل الواسع والجزاء الحسن، كما قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠].

وقال ﷺ: «**كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة**»[(٣)].

---

(١) البيت لبشر. انظر: «المفضليات» (ص٣٤٤).

(٢) أخرجه الترمذي في الأدب (٢٨١٩)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده- رضي الله عنهما- وقال: «حديث حسن».

(٣) أخرجه مسلم في الصيام (١١٥١)، والنسائي في الصيام (٢٢١٥)، والترمذي في الصوم (٧٦٤)، وابن ماجه في الصيام (١٦٣٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

بيَّن في الآية السابقة أن محمدًا ﷺ سيمضي كما مضى غيره من الرسل، إما بموت أو قتل، وحذر من الرجوع عن دينه بعد ذهابه، ثم بيَّن في هذه الآية أنه ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله تعالى في أجلها المكتوب المحدد. وفي هذا تسلية للأمة بموته، وأنه لا عذر في الرجوع عن دينه كما أن فيه حضًا على الجهاد ولومًا على تركه خشية القتل.

قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية. تدل على نفي هذا الشيء وامتناعه قدرًا وكونًا.

﴿ لِنَفْسٍ ﴾ «نفس»: نكرة في سياق النفي، فتعم كل نفس من أنفس الآدميين وغيرهم من جن وحيوان.

و«أن» والفعل بعدها في قوله: ﴿ أَن تَمُوتَ ﴾ في تأويل مصدر في محل رفع اسم كان، و«إلا» في قوله: ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾: أداة حصر.

و«إذن الله» ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، وهو المراد هنا، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ ﴾.

وإذن شرعي، ومنه قوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج:٣٩]. وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ ﴾ [الشورى:٢١].

والفرق بينهما: أن ما أذن الله به كونًا لابد من وقوعه ولا يلزم أن يكون محبوبًا لله تعالى، وما أذن الله به شرعًا فلا يلزم وقوعه، ولابد أن يكون محبوبًا لله تعالى.

فمعنى ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي: إلا بقضائه وقدره، أي: لا يمكن أن تموت نفس أيّ نفس إلا بإذن الله تعالى وقضائه وقدره الكوني، فمهما حاول الناس أن يميتوا أحدًا فلن يستطيعوا ما لم يأذن الله تعالى بذلك قدرًا وكونًا.

وهذه العقيدة الراسخة هي سر بطولات وتضحيات المجاهدين في الإسلام، كما

قال سيف الله المسلول، خالد بن الوليد رضي الله عنه: «لقد خضت أكثر من مائة معركة وما في جسدي شبرًا إلا وفيه طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء[1].

وكما قال الشاعر:

سأعيش رغم الداء والأعداء   كالنسر فوق القمة الشماء
النور في جنبي وبين جوانحي   فعلام أخشى السير في الظلماء[2]

و«الموت»: خروج الروح من البدن ومفارقتها له. وفي الحديث: «**يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه**»[3].

﴿كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗا﴾، ﴿كِتَٰبٗا﴾: مصدر مؤكد للجملة التي قبله.

أي: أن الموت مكتوب ﴿كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗا﴾، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ [الرعد:٣٨].

ومعنى ﴿كِتَٰبٗا﴾ أي: أنه مكتوب في اللوح المحفوظ الذي فيه مقادير كل شيء قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ﴾ [فاطر:١١].

ومكتوب عند نفخ الروح في الإنسان في بطن أمه كما في حديث ابن مسعود -رضي الله عنه: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فيكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد»[4].

ومكتوب أيضًا فيما يقدر ويقضى كل سنة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر:١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/ ٢٧٣)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٤٤١).

(٢) البيتان لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» (ص١١).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣)، وأبوداود في السنة (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر (٢١٣٧)، وابن ماجه في المقدمة (٧٦).

﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٣-٤].

ولا يشكل على هذا قوله ﷺ: «**من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه**»[١].

فإن معنى الحديث أن صلة الرحم سبب لسعة الرزق وطول العمر- في المقدر والمكتوب في اللوح المحفوظ عند الله تعالى، بمعنى أن الله قدر وكتب سعة رزق هذا وطول عمره بسبب صلته لرحمه- وكل ذلك مكتوب عند الله تعالى كما أن صلة الرحم سبب للبركة في الرزق والعمر، والذكر الحسن بعد الموت.

.... **والذكر للإنسان عمر ثان**[٢]

﴿مُّؤَجَّلًا﴾ أي: محددًا بأجل، أي: بوقت معلوم لا يزيد ولا ينقص ولا يتقدم ولا يتأخر.

فكتب لكل نفس متى تموت وكيف تموت كتابًا مؤجلًا محددًا، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس:٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون:١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح:٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام:٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ [الحجر:٢٤].

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ الواو: عاطفة، و«من»: شرطية، ﴿يُرِدْ﴾: فعل الشرط، ﴿نُؤْتِهِۦ﴾: جواب الشرط، مجزوم وعلامة جزمه حذف الياء.

أي: ومن يقصد بعمله جزاء الدنيا دون الآخرة، وفي هذا تعريض بمن يحضر القتال لأجل الغنيمة.

﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: نعطه جزاء عمله في الدنيا، من الدنيا حسب ما قدر له، وليس له في الآخرة من نصيب، كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سطر بيت لأحمد شوقي. انظر: «الشوقيات» (١/ ٦٣).

﴿ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى:٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:١٨].

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: ومن يقصد بعمله جزاء الآخرة، ويعمل لها نعطه منها مع ما قسم له في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩].

وفرق ما بين الإرادتين والمرادَين، وشتان ما بين العطاءين.

شتان بين الحالتين فإن ترد   جمعًا فما الضدان يجتمعان[1]

فعطاء الدنيا بل الدنيا بما فيها متاع قليل، متاع غرور، لا تعدل عند الله جناح بعوضة، وعطاء الآخرة أعظم وأجزل وأدوم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤]، وقال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٢٠-٢١].

﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: وسنجزي ونثيب ونكافئ الشاكرين على شكرهم بالاعتراف بنعم الله تعالى بقلوبهم والثناء عليه بها بألسنتهم وظهور أثرها عليهم والاستعانة بها بجوارحهم على طاعة الله تعالى بالمغفرة والجزاء العظيم والثواب الجزيل والفضل الواسع، وهم الذين أرادوا ثواب الآخرة دون من أراد الدنيا وحدها كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى:٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان:٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾.

---

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» (ص١٤٨).

في هذه الآية تشجيع وحفز لهمم أصحاب النبي ﷺ- وتثبيت لهم- وهم خير الأصحاب- بذكر ما جرى لكثير من الأنبياء وأتباعهم من قتال وقتل، وما كان عليه أتباع الأنبياء قبلهم، من القوة وتحمل ما يصيبهم في سبيل الله، وعدم الضعف والاستكانة، وقوة الصبر، وفيها تسلية للمسلمين عما أصابهم يوم أُحد، وعما وقع في نفوسهم بسبب الإرجاف بقتله ﷺ، وتوبيخ لمن جزعوا وضعفوا بسبب ما أصابهم.

قوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ ﴾ قرأ ابن كثير وأبوجعفر بألف ممدودة بعد الكاف وبعدها همزة مكسورة «وكآئن»، وقرأ الباقون بهمزة مفتوحة بعد الكاف وبعدها ياء مشددة: ﴿ وَكَأَيِّن ﴾ وهي كلمة مبنية على السكون على القراءتين في محل رفع مبتدأ، تفيد التكثير مثل «كم» الخبرية.

﴿مِّن نَّبِيٍّ ﴾: جار ومجرور مميز «كأين»؛ لأنها لفظة مبهمة، والمعنى: وكم من نبي، أي: وكثير من النبيين.

﴿ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو، ويعقوب بضم الكاف وكسر التاء من غير ألف: «قُتِل» بصيغة المبني للمجهول، وقرأ الباقون بفتح الكاف والتاء وألف بينهما ﴿قَٰتَلَ ﴾ بصيغة المفاعلة من القتل، وهي المدافعة بالقتل بين فريقين.

والفاعل على قراءة (قاتل) ونائب الفاعل على قراءة (قُتل) ضمير مستتر يعود إلى (نبي) والتقدير: وكأين من نبي قاتل هو، أو كأين من نبي قتل هو.

وتكون جملة ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ ﴾ جملة تامة مستقلة، والوقف على ﴿قَٰتَلَ ﴾ وعلى (قُتل) في القراءة الأخرى.

وعلى هذا تكون جملة ﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ مستأنفة في محل نصب على الحال، أي: حال كونه معه ربيون كثير، و(مع): ظرف مكان متعلق بـ«قاتل» أو «قتل» والهاء مضاف إليه، وهو في محل رفع خبر مقدم، و﴿رِبِّيُّونَ ﴾: مبتدأ مؤخر.

ويكون المعنى على هذا: وكثير من النبيين قاتل، أو قتل حال كونه معه ربيون كثير، فالقتال واقع من النبيين، والقتل واقع عليهم، وفي الحالين معهم ربيون كثير من أصحابهم مقاتلون. ويجوز أن يكون الفاعل على قراءة (قاتل) ونائب الفاعل على قراءة

«قُتل»: (ربيون): والوقف على قوله (كثير)، والمعنى على هذا: وكثير من النبيين قاتل ربيون كثيرون معه، أو قُتل ربيون كثيرون معه من أتباعه، وعلى هذا فالقتال واقع من الربيين والقتل واقع عليهم.

وعلى تقدير أخصر يجوز أن يكون الفاعل على قراءة «قاتل» ضمير يعود إلى النبي ﷺ و(ربيون) أي: وكأين من نبي قاتل وقاتل معه ربيون كثير.

وعلى قراءة (قُتل) يجوز أن يكون نائب الفاعل ضمير النبي ﷺ، و(ربيون) أي: وكأين من نبي قتل وقتل معه ربيون كثير، ويكون الوقف على هذا على قوله: ﴿كَثِيرٌ﴾.

والقراءتان بمثابة آيتين، فالقتال واقع من الجميع الأنبياء والربيين، والقتل واقع عليهم جميعًا.

﴿رِبِّيُّونَ﴾: جمع «ربي، مثل «الربانيين»: جمع «رباني»، وكلاهما منسوب إلى «الرب»، لكن ﴿رِبِّيُّونَ﴾ كسرت راؤه عند النسب، وهم المتبعون شريعة الرب. أو منسوب إلى «الرِّبة» بكسر الراء وهي الطائفة والجماعة، فـ«ربيون»، أي: طوائف وجموع كثيرة من الأتباع الذين تربوا على الإيمان وطاعة الله تعالى وعبادته، رباهم الله تعالى واختارهم لربوبيته الخاصة.

﴿كَثِيرٌ﴾: صفة لـ﴿رِبِّيُّونَ﴾، أي: ربيون كثيرون.

﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ الفاء: عاطفة، و«ما»: نافية، والضمير في «وهنوا»، وما بعده يعود إلى الربيين» على القراءتين (قاتل)، و«قتل».

﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾ أي: فما عجزوا، أو جبنوا وما خارت عزائمهم.

﴿لِمَآ أَصَابَهُمۡ﴾ اللام: تعليلية، و«ما»: موصولة، أي: بسبب الذي أصابهم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في طريقه ونصرة دينه.

أي: في القتال في سبيل الله لإعلاء كلمته، كما قال ﷺ: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العُليا فهو في سبيل الله»**[1].

---

(١) سبق تخريجه.

والمعنى: فما وهنوا بسبب الذي أصابهم في سبيل إعلاء كلمة الله، بل زادهم ذلك شجاعة وعزيمة وإقدامًا، لقوة إيمانهم ويقينهم أن ما يصيبهم في سبيل الله مغنم، وليس بمغرم؛ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة:٥٢].

ولما دميت إصبع النبي ﷺ في إحدى الغزوات قال:

هل أنت إلا إصبع دميت   وفي سبيل الله ما لقيت»[١]

وقال عمير بن حمام رضي الله عنه: «**بخ بخ، لئن بقيت إلى أن آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة**»[٢].

﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ أي: في مقاومة العدو بل كانوا أقوياء بقلوبهم وأبدانهم.

﴿ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ﴾ «الاستكانة»: الذل والخضوع ضد العز، أي: وما ذلوا وما ضعفوا لعدوهم، مع أنه قُتل كثير منهم أو قُتل أنبياؤهم، بل كانوا أعزاء شامخي الرؤوس؛ لأنهم يعلمون أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون:٨]، وأن قتلاهم في الجنة وقتلى عدوهم في النار.

ويدخل في الوصف بقوله: ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ﴾ من قُتل منهم ومن لم يُقتل، أي: فما وهن مَن بقي منهم؛ لما أصابهم من قتل أصحابهم وغير ذلك، وما ضعفوا وما استكانوا.

وما وهن من قتل منهم عند القتل، ولا ضعفوا ولا استكانوا، بل تلقوا الشهادة بالقوة والعزيمة والإقدام، فلم يستشهدوا مدبرين مستكينين أذلة، بل استشهدوا أعزة كرامًا مقبلين غير مدبرين.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ بعد أن نفى عنهم الوهن في سبيل الله والضعف والاستكانة ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ في إشارة واضحة إلى وصفهم بالصبر.

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير- من ينكب في سبيل الله (٢٨٠٢)، ومسلم في الجهاد والسير- ما لقي النبي ﷺ من أذى (١٧٩٦)، والترمذي في التفسير (٣٣٤٥)، من حديث جندب بن سفيان رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٠١)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

أي: والله يحب الصابرين على طاعته، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وكل ذلك متحقق بمن قاتل في سبيل الله من غير وهن ولا ضعف ولا استكانة.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

نفى عز وجل في الآية السابقة عن هؤلاء الربيين الصفات السلبية في قتالهم مع أنبيائهم، وهي: الوهن والضعف والاستكانة مما يدل على حسن فعلهم وثبات قلوبهم ورباطة جأشهم، وعظيم صبرهم، ثم أتبع ذلك بما يدل على حُسن قولهم بدعائهم ربهم بالمغفرة والتثبيت والنصر، وعظيم رجائهم بنصر الله تعالى، فجمعوا بين فعل السبب قولًا وفعلًا وبين الاعتماد على الله عز وجل.

قوله: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، و﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، و﴿قَوْلَهُمْ﴾ خبرها مقدم، قُدِّم؛ لأنه خبر عن مبتدأ محصور.

﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿أَن قَالُوا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم كان مؤخر، أي: وما كان قولهم إلا هذا القول ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ الآية.

أي: وما كان قولهم في قتالهم، وتجاه ما أصابهم في سبيل الله من قتل كثير منهم أو قتل أنبيائهم إلا هذا القول، أي: طلب مغفرة ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم وتثبيت أقدامهم ونصرهم على القوم الكافرين.

﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربنا، حذفت منه «يا» تخفيفًا، وتبركًا بالبداءة باسمه- عز وجل- ونادوه وتوسلوا إليه باسم أو وصف الربوبية الذي معناه: الخلق والملك والتدبير، فكأنهم يقولون: يا من له التصرف وإجابة الدعاء:

﴿اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: استر ذنوبنا وتجاوز عنها.

﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، أي: واغفر لنا إسرافنا في أمرنا، وتجاوز عنه، أي: اغفر لنا صغائر الذنوب وكبائرها، وما حصل منا من تقصير أو إفراط؛ لأنهم يعلمون أن ما أصابهم هو بسبب ذنوبهم وإسرافهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ [آل عمران:١٥٥]، وقال تعالى:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران:١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى:٣٠].

فعلموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن ما أصابهم بسبب ذلك، فسألوا الله المغفرة، والاعتراف بالذنب توبة.

و«الإسراف»: مجاوزة الحد، و«الأمر» واحد الأمور، وهو الشأن، أي: وإسرافنا في أمورنا وشؤوننا، والإسراف في الأمر قسمان:

القسم الأول: الإسراف ومجاوزة الحد في الغلو، كما في قصة النفر الذين حرّموا على أنفسهم بعض المباحات، كما في حديث أنس- رضي الله عنه- قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»(١).

والقسم الثاني: الإسراف ومجاوزة الحد في التقصير، وهو نوعان:

النوع الأول: إسراف في تعدي حدود الله تعالى بترك واجب أو الإخلال به، كما قال تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة:٢٢٩].

والنوع الثاني: إسراف في قربان حدود الله تعالى، أي: محارمه، بفعل محرم، كما قال تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ [البقرة:١٨٧].

والإسراف يكون في المأمور واجبًا أو مندوبًا.

ويكون في المنهي محرمًا كان أو مكروها، كما يكون في المباح كالإسراف في النفقة ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٣)، ومسلم في النكاح (١٤٠١)، والنسائي في النكاح (٣٢٦٧).

قال ابن القيم: «لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم، وأنها نوعان: تقصير في حق، أو تجاوز لحد، وأن النصرة منوطة بالطاعة، قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ فوفوا المقامين حقهما؛ مقام المقتضي وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه، ومقام إزالة المانع من النصرة، وهو الذنوب والإسراف»[(١)].

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ سألوا ربهم أولًا مغفرة ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم؛ تطهيرًا وتزكية لهم، ثم سألوه تثبيت أقدامهم ونصرهم على القوم الكافرين- تقديمًا للتخلية على التحلية.

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ الواو: عاطفة، أي: اجعل أقدامنا ثابتة راسخة عند ملاقاة الأعداء، فلا تزل بنا أقدامنا فنفر عند اللقاء، وثبت أقدامنا عند ورود الشبهات، وأمام الشهوات.

وتثبيت الأقدام يكون حسيًّا كما في مواطن القتال والنزال، وبه يحفظ الله المؤمن من الفرار من الزحف.

ويكون معنويًّا، وبه يحفظ الله المؤمن من الزيع عند ورود الشبهات، ومن الوقوع في حبائل الشهوات.

وتثبيت الأقدام علامة ظاهرة على ثبات القلوب، والذي هو سبب ثبات الأقدام.

﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: واجعل النصر والغلبة والظهور لنا على القوم الكافرين أي: على أعدائنا، وهذا اعتراف منهم أنه لا ناصر لهم سوى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران:١٦٠].

وهذا يدل على عظم رجائهم بالله تعالى وثقتهم بوعده ونصره، فلم يصدهم ما أصابهم عن رجاء نصره، وفي الحديث: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت**

---

(١) «بدائع التفسير» (١/ ٥١٦) بتصرف واختصار.

ودعوت فلم يستجب لي»(١).

قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

قوله: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ الفاء: استئنافية، و«آتاهم»: أعطاهم، وهي تنصب مفعولين، الأول: ضمير الهاء، والثاني: ﴿ثَوَابَ﴾.

و﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ جزاءها وأجرها بالنصر على أعدائهم، والظفر بهم، وكون العزة والغلبة لهم في الدنيا، وتيسير أمورهم فيها، هذا جزاؤهم المعجل.

وخير من ذلك وأفضل، وأعظم منه وأجزل ثوابهم المؤجل في الآخرة، ولهذا وصفه بالحسن- دون ثواب الدنيا- فقال:

﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ﴾ أي: وحسن جزاء الآخرة، أي: والجزاء الحسن في الآخرة، بالمغفرة، ورفعة الدرجات كما قال ﷺ: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله**»(٢).

وبمضاعفة الحسنات، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة إلى أضعاف كثيرة، وأحسن ذلك وأعظمه وأفضله وأجله النظر إلى وجه الله الكريم، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [يونس:٢٦]. فالحسنى الجنة والثواب الحسن، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم، كما قال ﷺ(٢).

ولم يصف ثواب الدنيا بالحسن؛ لأنه لا مقارنة بين ثواب الدنيا وثواب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الشورى:٣٦].

بل ولا مقارنة بين الدنيا كلها وما فيها، وبين الآخرة وثوابها؛ لأن الدنيا بما فيها لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٤٠)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٥)، وأبوداود في الصلاة (١٤٨٤)، والترمذي في الدعوات (٣٣٨٧)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

[الرعد:٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء**»(١).

وثواب الدنيا وإن كان فيه حسن، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾ [البقرة:٢٠١]، فهو حسن نسبي مشوب بالمنغصات؛ لأن الدنيا دار شقاء وعناء، لا تصفو، ونعيمها مشوب بالكدر، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد:٤].

وكما قيل:

ومن عاش في الدنيا فلابد أن يرى ... من العيش ما يصفو وما يتكدر(٢)

وقال الآخر:

هي الحياة فلا يغررك ما فيها ... من الزخارف واحذر من دواهيها

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في ختم الآية بهذا إشارة إلى أن المذكورين محسنون، فأحبهم الله؛ ولهذا أثابهم بهذا الثواب العظيم في الدنيا والآخرة. أي: والله يحب المحسنين في عبادة الله تعالى إخلاصًا له ومتابعة لرسوله ﷺ والمحسنين إلى عباده.

ولم يقل: والله يحبهم لأنهم محسنون لبيان محبته- عز وجل- المحسنين منهم ومن غيرهم، وأن من عمل مثلهم فهو محسن يستحق الثواب.

ومن أحبه الله وفقه لكل خير، وحفظه من كل شر، ويسر له أمور دينه ودنياه وأخراه، وألقى في قلوب الخلق محبته، نسأل الله تعالى من فضله، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت مجهول القائل. انظر: «المستطرف» (ص٤٣).

سمعه الذي يسمع به. الحديث»(١).

وقال ﷺ: «**إن الله- عز وجل- إذا أحب عبدًا نادى جبريل إني أحب فلانًا فأحبه. فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض**»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- بيان أن الرسول محمدًا ﷺ سيمضي ويفارق الحياة كما مضى من قبله من الرسل، إما بموت أو قتل؛ لقوله تعالى: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ** ﴾، وفي هذا مقدمة وإرهاص بين يدي موت الرسول ﷺ.

٢- الرد على الذين يغلون بالنبي ﷺ ويرفعونه إلى مقام الربوبية أو الألوهية، فهو ﷺ عبد لا يعبد ورسول لا يكذب؛ لقوله تعالى: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ** ﴾ الآية.

٣- في التذكير بمضي الرسل عليهم السلام قبل محمد ﷺ تهيئة للأمة وإعداد لها؛ ليخف عليها مصابها به وتسلية لها؛ لقوله تعالى: ﴿ **إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ﴾ الآية.

٤- أن الرسول محمدًا ﷺ خاتم الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ﴾ وأل للعموم، أي: قد خلت من قبله جميع الرسل.

٥- في قوله تعالى: ﴿ **أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ** ﴾ إشارةً إلى جواز أن تكون مفارقة الرسول ﷺ الدنيا إما بسبب الموت أو القتل. وقد مات النبي ﷺ على فراشه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن أبا بكر خرج وعمر بن الخطاب يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبوبكر: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن**

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٩)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وقال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبوبكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها».

قال عمر- رضي الله عنه-: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات»[(١)].

وفي حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: «أقبل أبوبكر- رضي الله عنه- على فرسه من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، فتيمم النبي ﷺ وهو مُسَجَّى ببرد، أو مُغَشَّى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبله، ثم بكى فقال: بأبي أنت وأمي، يا نبي الله، لا يجمع الله عليك مَوْتَتَين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتَّها»[(٢)].

ومع أنه ﷺ مات على فراشه إلا أنه ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**مازلت أجد من الأكلة التي أكلت بخيبر، فهذا أوان قطعت أبهري**»[(٣)].

وذلك حين أكل من الشاة المسمومة التي أهدتها إليه اليهودية، فقد تكون وفاته ﷺ بسبب ذلك؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: إنه ﷺ مات شهيدًا قتله اليهود.

وهو ﷺ وجميع الرسل أكمل حياة في البرزخ من الشهداء، وإن ماتوا على فرشهم؛ ولهذا فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، قال ﷺ لما قالوا له كيف نسلم عليك وقد أرمت؟ قال ﷺ: «**إن الله- عز وجل- قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم السلام**»[(٤)].

٦- التحذير من الانقلاب على الأعقاب والردة عن الإسلام بموت النبي ﷺ أو قتله،

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤٢)، وفي المغازي (٤٤٥٤).

(٣) أخرجه أبوداود في الديات (٤٥١٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبوداود في الصلاة (١٠٤٧)، والنسائي في الجمعة (١٣٧٤)، وابن ماجه في الجنائز (١٦٣٦)، من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه.

والتهديد والوعيد لمن فعل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾.

٧- بلاغة القرآن الكريم وبلوغه الغاية في التنفير فيما يريد التنفير منه بوصفه الردة عن الإسلام بالانقلاب على الأعقاب، ففي هذا أبلغ وأشد التنفير من ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢]، وذلك أن الارتداد على العقب عَلَمٌ في انتكاس الأمر، ومَثَلٌ للحور بعد الكور.

٨- أن الإسلام دين التقدم والرقي؛ لمفهوم قوله: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ﴾؛ لأنه إذا كانت الردة عن الإسلام رجوع إلى الوراء فالتمسك به هو عين التقدم والرقي بلا شك.

وإذا كان الله- عز وجل- وبخ الأمة وأنكر عليهم ارتداد مَن ارتد منهم بسبب موت النبي ﷺ أو قتله- مع أنه رسول الأمة، وبموته انقطاع الوحي من السماء، كما قالت أم أيمن لما جاء إليها أبوبكر وعمر- رضي الله عنهما- يزورانها فبكت. فقالا لها: «ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ. فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها»(١).

ومع أن مصيبة الأمة به ﷺ لا تعدلها مصيبة، كما قال حسان رضي الله عنه:

فما فقد الماضون مثل محمد ... ولا مثله حتى القيامة يفقد(٢)

فيجب ألا يفت في عضد الأمة أو يزعزع إيمانها، أو بعض لوازمه، فَقْدُ من هو دونه ﷺ من العظماء في الأمة؛ كالحاكم العادل، والعالم الرباني، والجواد الكريم، ونحوهم، وينبغي للأمة أن تستعد في كل أمر من مهماتها من أمور الولاية والدين بعدة أناس من أهل الكفاءات في ذلك إذا فقد أحدهم قام غيره مقامه؛ لأن في الآية إشارة للأمة أن لا تكون بحال يزعزها عن إيمانها أو عن بعض لوازمه فقد

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٥٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) انظر: «ديوانه» (ص٦٣).

رئيس أو عظيم، وما ذاك إلا بالاستعداد لكل طارئ.

٩- أن من انقلب على عقبيه وارتد عن الإسلام لن يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾.

١٠- أن الله- عز وجل- لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾.

١١- وعد الله تعالى لا يخلف وعده بالجزاء العظيم للشاكرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾، وفي هذا تفضل منه- عز وجل- عليهم من وجهين: مدحهم بوصفهم بالشاكرين- مع أن القيام بطاعته واجب عليهم، ووعده لهم بالجزاء وتكفله لهم بذلك- مع أنه لا يجب عليه شيء لخلقه.

١٢- أنه لا يمكن أن تموت نفس إلا بإذن الله تعالى وقدره الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٣- أن آجال الأنفس وغيرها محددة لا تتقدم ولا تتأخر؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾، وكما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس:٤٩].

١٤- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، وفي هذا الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبور على فعله لا اختيار له.

١٥- أن لكل من الناس وجهة هو موليها فمن مريد ثواب الدنيا ومن مريد ثواب الآخرة، وشتان ما بين الإرادتين والمرادين- والله غالب على أمره. وصدق الله العظيم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩-١٠]، وصدق المصطفى الكريم حيث قال: «**كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»[(١)].

١٦- ليس في الإخبار بإعطاء كل من مريد الآخرة ومريد الدنيا منهما، والمقابلة بينهما ما

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥١٧)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٢٨٠)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

يدل على جواز إرادة الدنيا دون الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، فهذا لا يدل على جواز فعل الشر، كما أنه ليس فيه ما يدل على منع مريد الآخرة من ذكر نصيبه من الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧].

١٧- أن الأعمال بالنيات، ولكل امرئٍ ما نوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، فمن أراد بعمله ثواب الآخرة أعطاه الله منها، ومن أراد بعمله ثواب الدنيا أعطاه الله منها، ولكل امرئٍ ما نوى، كما قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[1].

١٨- تفضيل الآخرة وثوابها على الدنيا وثوابها؛ ولهذا قدم إرادة ثواب الآخرة على إرادة ثواب الدنيا؛ لأن الدنيا بما فيها لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، ولهذا سميت دنيا، والآخرة هي الحيوان.

١٩- عدل الله- عز وجل- في إيتاء كل مريد من مراده، سواء من الآخرة، أو من الدنيا ومجازاة كلٍّ بما عمل.

٢٠- أن فضل الله- عز وجل- واسع يسع البر والفاجر والمؤمن والكافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠].

٢١- أن من أراد بعمله ثواب الآخرة فهو من الشاكرين الذين وعدهم الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، وأبوداود في الطلاق (٢٢٠١)، والنسائي في الطهارة (٧٥)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

بالجزاء؛ لأن الله ختم الآية بقوله: ﴿وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: الذين شكروا نعم الله تعالى عليهم بطاعته واجتناب معصيته، رجاء ثوابه والدار الآخرة.

٢٢- فضيلة الشكر والترغيب فيه والحث عليه؛ لقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وقوله في هذه الآية: ﴿وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

٢٣- أن كثيرًا من الأنبياء السابقين وكثيرًا من أتباعهم قاتلوا أو قتلوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾.

٢٤- الثناء على الأنبياء السابقين وأتباعهم بالتضحية والصبر وتحمل القتال والقتل في سبيل الله بلا وهن ولا ضعف ولا استكانة؛ لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾.

٢٥- إغراء المؤمنين وحثهم على القتال مع نبيهم والتضحية والصبر على القتال والقتل في سبيل الله دون وهن أو ضعف أو استكانة- كما هو حال أتباع الأنبياء قبلهم، فعن خباب بن الأرت- رضي الله عنه- قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله. فقعد وهو محمر وجهه، فقال: «**لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه عن دينه. وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله، والذئب على غنمه**»(١).

٢٦- أن القتال في سبيل الله والجهاد مشروع في الملل السابقة.

٢٧- محبة الله تعالى للصابرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. وهذا يدل على علو مكانتهم عنده، وعظم ما أعد لهم من الأجر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠].

٢٨- إثبات صفة المحبة لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، وهي من الصفات

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨٥٢)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٤٩).

الاختيارية المتعلقة بالمشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٢٩- الترغيب في الصبر والحث عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٣٠- بيان ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من الشجاعة والقوة والعزيمة والعزة وعدم الذل والاستكانة إلا لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾.

٣١- الثناء على هؤلاء الربيين بجمعهم بين الجهاد بالفعل بالصبر على القتال والقتل وعدم الوهن في سبيل الله وعدم الضعف والاستكانة، وبين الجهاد بالقول بالتوسل إلى ربهم بطلب مغفرة ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم وتثبيت أقدامهم ونصرهم على القوم الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وبهذا جمعوا بين فعل السبب والتوكل على الله والاستعانة به ودعائه. وهكذا ينبغي للمؤمنين في حربهم وسلمهم وجميع أحوالهم.

٣٢- فضيلة هذا الدعاء ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ إلخ. والترغيب فيه؛ لما فيه من تعظيم الرب وسؤاله المغفرة والاعتراف بالذنب والإسراف؛ لأن الاعتراف بذلك توبة، ولما فيه من الافتقار إلى الله تعالى وطلب التثبيت والعون منه والنصر على القوم الكافرين- وهذا من جوامع الدعاء.

٣٣- ينبغي الحذر من الذنوب ومن الإسراف في الأمور، وسؤال الله تعالى المغفرة، والتثبيت والعون والنصر؛ لأن الإنسان لا يخلو من تقصير، وليس في غنى عن الله تعالى طرفة عين ولا أقل من ذلك.

٣٤- امتنان الله تعالى على المذكورين بسبب قتالهم مع أنبيائهم ودعائهم، بإعطائهم ثواب الدنيا بالنصر، وحسن ثواب الآخرة بالجنة وعظيم الأجر؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

٣٥- أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه، حيث يجمع تفضلًا منه للعبد بين ثواب الدنيا

وثواب الآخرة، بخلاف العقوبة، فإن من عوقب في الدنيا لا يعاقب في الآخرة، فلا يجمع له بين عقوبتين- عدل منه عز وجل.

٣٦- شتان بين الدنيا وثوابها والآخرة وثوابها؛ ولهذا وصف الله- عز وجل- ثواب الآخرة بالحسن دون ثواب الدنيا، فقال تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

٣٧- إثبات الآخرة والبعث والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

٣٨- محبة الله تعالى للمحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ومفهوم هذا أنه لا يحب المسيئين.

٣٩- في ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ثناء على المذكورين بوصفهم بالمحسنين.

٤٠- الترغيب في الإحسان والحث عليه؛ الإحسان في عبادة الله تعالى إخلاصًا له، ومتابعة لرسله، والإحسان إلى عباد الله؛ لأن الله تعالى يحب المحسنين ومَن أحبه الله تعالى أثابه وأكرمه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

وبَّخ عز وجل المؤمنين في الآيات السابقة، وأنكر عليهم أن ينقلبوا على أعقابهم بموت الرسول ﷺ أو قتله، ثم حذرهم في هذه الآية من طاعة الكافرين مبينًا لهم أن مراد الكافرين هو ردهم على أعقابهم.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: سبق الكلام عليه.

﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ ﴿إِن﴾: شرطية، و﴿تُطِيعُواْ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾، وكل منهما علامة جزمه حذف النون، أي: إن تطيعوا الذين كفروا من المنافقين والمشركين وأهل الكتاب- فيما يأمرونكم به أو ينهونكم عنه؛ لأن الطاعة امتثال الطلب بفعل المأمور أو ترك المنهي.

﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ أي: يُرجعوكم على أعقابكم، وعلى أدباركم، والمراد: يردوكم ويرجعوكم عن دينكم إلى أول أمركم من الكفر والشرك؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، أي: إن تطيعوا فريقًا من أهل الكتاب وهم الكفار منهم.

﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ الفاء: واقعة في جواب الشرط، ﴿خَٰسِرِينَ﴾: حال. والانقلاب: التحول من حال إلى حال، والمعنى: فترجعوا بطاعتكم لهم والارتداد عن

دينكم حال كونكم خاسرين دينكم ودنياكم وأخراكم، وذلك هو الخسران المبين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٢١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾.

لما كان الحامل على طاعة الكفار- غالبًا- إما رجاء نصر أو عون منهم، أو خوفًا منهم ومداراة لهم. أي: رجاء جلب خير أو دفع ضر منهم أتبع عز وجل النهي عن طاعتهم بقوله: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾، وفي ضمن ذلك أمرهم بطاعته- عز وجل- وموالاته وحده.

قوله: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ ﴿بَلِ﴾ للإضراب الإبطالي، أي: لا تطيعوا الكافرين ولا تتولوهم طمعًا في نفعهم أو خوفًا منهم، بل أطيعوا الله ووالوه، واستعينوا به وتوكلوا عليه؛ فهو مولاكم وحده؛ الذي بيده جلب الخير ودفع الضر، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

وولاية الله تعالى للخلق نوعان:

ولاية عامة لجميع الخلق؛ فهو- عز وجل- متولي أمورهم لا يخرجون عن تدبيره وقدره؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦١-٦٢].

وولاية خاصة بالمؤمنين؛ بتوفيقهم وحفظهم ونصرهم ونحو ذلك، كما في هذه الآية، وكما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال ﷺ: «**مَن عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق- التواضع (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

و«المولى»: الذي يتولى غيره بجلب النفع والخير له، و«الناصر» الذي يدفع الضر والشر عنه.

والله عز وجل ﴿خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ أي: أعظمهم وأقدرهم وأقواهم نصرًا، كما قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج:٧٨].

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ أي: أعدلهم في نصره؛ لأنه سبحانه ينصر الحق وأهله.

قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

رُويَ أن المشركين بعدما انصرفوا من وقعة «أُحد» تشاوروا فيما بينهم، وقالوا كيف ننصرف بعد أن قتلنا منهم من قتلنا، وهزمناهم، ولما نستأصلهم؟ فهموا بذلك فألقى الله في قلوبهم الرعب، فانصرفوا خائبين.

قوله: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بما يدل على عظمته، أي: «سنلقي نحن» لأنه العظيم سبحانه، كما يتكلم عن نفسه- عز وجل- بصيغة الإفراد للدلالة على وحدانيته، كما قال تعالى: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال:١٢].

والسين في قوله: ﴿سَنُلْقِى﴾ للتنفيس، تفيد التحقيق والقرب.

﴿ٱلرُّعْبَ﴾ قرأ ابن عامر والكسائي بضم العين: «الرُّعُب»، وقرأ الباقون: ﴿ٱلرُّعْبَ﴾ بإسكان العين.

و﴿ٱلرُّعْبَ﴾: الفزع وأشد الخوف، وإذا وقع الرعب في القلب انهزم المقاتل من الداخل وعجز عن المقاومة وانهزم في الظاهر، كما قال تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب:٢٦]، كما قال تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر:٢].

وقال ﷺ: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»(١)، وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه: «**ونصرت بالرعب مسيرة شهر يقذفه في قلوب أعدائي**»(٢).

﴿بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب شركهم بالله، والشرك بالله: دعوة غير الله وعبادته مع الله.

﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي لم ينزل به سلطانًا ويجوز أن تكون نكرة موصوفة، أي: شيئًا لم ينزل به سلطانًا.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتخفيف الزاي مع سكون النون: «يُنْزِل».

وقرأ الباقون: ﴿يُنَزِّلۡ﴾ بالتشديد، مع فتح النون.

﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ أي: حجة وبرهانًا، أي: ما لم ينزل به حجة وبرهانًا، ولم يقم عليه دليل ولا حجة.

والقيد في قوله: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾؛ لبيان الواقع، ولتسفيه عقول المشركين، وليس للاحتراز؛ لأن الواقع أنه لا يمكن أن يقوم دليل أو حجة على أن لله شركاء، بل الأدلة والحجج النقلية والعقلية وغيرها قائمة على نفي ذلك؛ ولهذا كان سبب إلقاء الرعب في قلوبهم شركهم بالله؛ لخواء قلوبهم وخلوها من الإيمان بالله وتوحيده؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ**﴾ [الأنعام:٨٢].

﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ أي: ومرجعهم ومصيرهم في الآخرة النار، وفي تعريف «النار» دلالة على وجودها، أي: النار المعلومة.

﴿وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ «بئس»: فعل جامد؛ لإنشاء الذم، أي: وقبح وساء مثوى الظالمين هي، أو النار.

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١)، والنسائي في الغسل و التيمم (٤٣٢)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٨)، والترمذي في السير (١٥٥٣)- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

و«المثوى» المستقر الذي يثوي إليه الإنسان، ويستقر فيه. أي: وقبح وساء مستقر الظالمين ومسكنهم النار.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾ الواو: استئنافية، واللام: واقعة في جواب قسم مقدر، والله لقد صدقكم الله وعده، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام، والقسم المقدر، و«قد» التي للتحقيق.

﴿ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾ يقال: صَدَقَه، أي: أخبره بالصدق، أي: أخبر المتكلم المخاطب بالصدق. ويقال: صَدَّقه، أي: صَدَّق المخاطبُ المتكلم فيما أخبر به.

و«صدق الوعد»: تحقيقه والوفاء به، ولا أحد أوفى بعهده ووعده من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [التوبة:١١١]، وقال تعالى: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ [الروم:٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ ﴾ [الحج:٤٧]، وقال تعالى: ﴿ فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ ﴾ [البقرة:٨٠]، وقال تعالى: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الزمر:٢٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران:٩، الرعد:٣١].

ومعنى ﴿ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾ أي: وفى لكم بوعده وأنجزه لكم، فصار ما أخبركم به واقعًا صدقًا.

و﴿ وَعْدَهُۥٓ ﴾: منصوب بنزع الخافض، أي: صدقكم الله في وعده، أي: فيما وعدكم به من النصر، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [غافر:٥١]، وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧].

﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُم ﴾ ﴿ إِذْ ﴾: ظرف بمعنى «حين» متعلق بـ﴿ صَدَقَكُمُ ﴾ أي: صدقكم الله وعده حين تحسونهم، أي: وقت حسهم، وعبر عن الماضي بصيغة المضارع،

أي: بحكاية الحال، لاستحضار الصورة في الذهن.

ومعنى ﴿تَحُسُّونَهُم﴾: تقتلونهم، والحس: أشد القتل.

قال الشاعر[١]:

ومنا الذي لاقى بسيف محمد فحس به الأعداء عرض العساكر

وقال أيضًا:

ونحسهم بالبيض حتى كأننا نفلق منهم بالجماجم حنظلا[٢]

﴿بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي: بإذن الله تعالى الكوني والشرعي.

والمعنى: إذ تقتلونه أشد القتل بإذن الله -عز وجل- الكوني والشرعي، وتسليطه إياكم عليهم، حيث قتلوا منهم تسعة عشر أو سبعة عشر رجلًا، وانهزم المشركون، وفروا هاربين، وكان النصر والغلبة للمؤمنين وذلك أول النهار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾، ﴿حَتَّىٰٓ﴾: للغاية، و﴿إِذَا﴾: ظرفية غير شرطية، والتقدير إذ تحسونهم بإذنه إلى وقت فشلكم.

والمعنى: ولقد صدقكم الله وعده حين تقتلونهم بإذنه إلى وقت فشلكم وتنازعكم في الأمر.

ويجوز كون ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائية، والجملة مستأنفة، و﴿إِذَا﴾: شرطية، و﴿فَشِلْتُمْ﴾: فعل الشرط، وجواب الشرط محذوف؛ ليذهب فيه الذهن كل مذهب. أي: حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون فاتكم النصر، أو خذلتم، أو انقسمتم إلى قسمين، ونحو ذلك.

و«الفشل»: الجبن والضعف والخور.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الفشل: الجبن»[٣].

---

(١) ينسب هذا البيت لعتبة الليثي، وينسب أيضًا لحسان رضي الله عنه وليس في ديوانه. انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢١٦).

(٢) البيت لعتبة الليثي. انظر: «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٠٩).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان (٦/ ١٣٨).

﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ المنازعة: المخاصمة والتجاذب؛ لأن كل واحد من المتخاصمين ينزع حجة الآخر؛ ليكون الحق معه. والمعنى: وتخاصمتم واختلفتم في الأمر.

و﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾: الشأن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [الأنفال:٤٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ [الحج:٦٧]. والأمر أيضًا: واحد الأوامر. أي: وتنازعتم في أمركم، أي: في شأنكم، وفي الأمر الذي أمركم به الرسول ﷺ.

والخطاب على هذا للرماة الذين أمّر عليهم الرسول ﷺ عبدالله بن جبير، وكانوا خمسين رجلًا. وقال لهم: «لا تبرحوا مكانكم، ابقوا في الجبل سواء كانت لنا أو علينا»، لكنهم لما انتصر المسلمون في بادئ الأمر وانهزم المشركون وأخذ المسلمون يجمعون الغنائم طمعوا في مشاركة المسلمين في جمع الغنائم فأرادوا النزول من الجبل وحاول أميرهم أن يمنعهم وقال لهم: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «لا تبرحوا مكانكم..» وتنازعوا في ذلك فمنهم من قال: نبقى امتثالًا لأمر النبي ﷺ، ومنهم من نزل اغتنامًا لكسب الغنيمة[1].

والنزاع والخلاف شر، وهو أعظم أسباب الفشل، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال:٤٦].

وقال عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- لما أتم الصلاة خلف عثمان- رضي الله عنه-وسئل في ذلك وهو ممن لا يرى الإتمام في السفر- قال: «الخلاف شر»، وصدق رضي الله عنه وأرضاه[2].

﴿وَعَصَيۡتُم﴾، «المعصية»: مخالفة الطلب، بترك المأمور، أو ارتكاب المحظور، أي: وخالفتم الرسول فيما أمركم به من البقاء على الجبل، أي: وعصيتم الله والرسول؛ لأن معصية الرسول ﷺ معصية لله تعالى، والمراد بهذا: ما حصل من الرماة.

وترتيب الأمور الثلاثة في الآية حسب ترتيبها في الحصول؛ الفشل، فالتنازع، فالعصيان والمخالفة.

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا بتمامه ولفظه.

(٢) أخرجه أبوداود في المناسك (١٩٦٠)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾، ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مَآ أَرَىٰكُم﴾: مصدرية، وفي قوله: ﴿مَّا تُحِبُّونَ﴾: موصولة، أي: من بعد ما أراكم الذي تحبون من نصركم وهزيمة أعدائكم وانخذالهم وتوليتهم الأدبار وغنم ما معهم.

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ تفصيل لـ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ﴾، وتبيين لـ﴿وَعَصَيۡتُم﴾، وأن المراد به الذين يريدون الدنيا، و«من» في قوله: ﴿مِنكُم﴾ في الموضعين تبعيضية، و﴿مَّن﴾ في الموضعين موصولة، أي: بعضكم يريد الدنيا، وهم الذين رغبوا في المغنم لما رأوا هزيمة العدو- وليس المراد بإرادة الدنيا هنا ما ينافي إرادة الآخرة- كما هو حال الكفار الذين يريدون الدنيا فقط ولا حظ لهم في الآخرة ولا نصيب، بل ليس لهم فيها إلا النار، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦].

بل هذا كما في قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ [الأنفال:٦٧].

﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ أي: وبعضكم الذي يريد الآخرة، كالذين ثبتوا على الجبل، والذين نالوا شرف الشهادة وغيرهم.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي: ثم بعد أن فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم الذي تحبون من نصركم وهزيمتهم ﴿صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي: ردكم ودفعكم عنهم وأدالهم عليكم بسبب ما حصل منكم من الفشل والتنازع والمعصية، أي: بسبب ما أصابكم من أنفسكم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران:١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء:٧٩].

والتعبير بقوله: ﴿صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ يفيد إقبال المسلمين الشديد وشدة رغبتهم على القضاء عليهم وتوقعهم اكتمال النصر لهم، وهزيمة عدوهم- لكنه- بسبب فشلهم

وتنازعهم ومعصيتهم وقع عليهم ما ليس بالحسبان، فصرفهم وكفهم عنهم.

قال ابن كثير(١): «فلما حصل ما حصل من عصيان الرماة، وفشل بعض المقاتلة، تأخر الدعم الذي كان مشروطًا بالثبات والطاعة».

عن البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: «لقينا المشركين يومئذٍ، وأجلس النبي ﷺ جيشًا من الرماة، وأمَّر عليهم عبدالله بن جبير، وقال: «**لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتمونا ظهروا علينا فلا تعينونا**» فلما لقيناهم هربوا حتى رأينا النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهن، وقد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة. فقال عبدالله: عهد إليَّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا. فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم. فأصيب سبعون قتيلًا. فأشرف أبوسفيان، فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «**لا تجيبوه**». فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: «**لا تجيبوه**». فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قد قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، قد أبقى الله لك ما يحزنك. فقال أبوسفيان: اعل هبل. فقال النبي ﷺ: «**أجيبوه**» قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلى وأجل**». فقال أبوسفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «**أجيبوه**». قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم**». قال أبوسفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال، وتجدون مثلة لم آمر بها، ولم تسؤني»(٢).

وفي رواية عن البراء- رضي الله عنه- قال: «جعل النبي ﷺ على الرجّالة يوم أُحد- وكانوا سبعين رجلًا- عبدالله بن جبير. فقال: «**وإن رأيتمونا تخطفتنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم، وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم**» فهزموهم. قال: فأنا والله رأيت النساء يشددن قد بدت خلاخلهن وأسوقهن، رافعات ثيابهن. فقال أصحاب ابن جبير: الغنيمة أي: قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبدالله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله، لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة. فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين، فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني

---

(١) في «تفسيره» (٥/ ١١٣).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة أُحد (٤٠٤٣)، وأحمد (٤/ ٢٩٣).

عشر رجلًا، فأصابوا منا سبعين، وكان النبي ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة، سبعين أسيرًا وسبعين قتيلًا. فقال أبوسفيان: أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات. فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه. ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات. ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات. ثم رجع إلى أصحابه، فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا. فما ملك عمر نفسه، قال: كذبت، والله، يا عدو الله، إن الذين عددت أحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوءك. قال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها، ولم تسؤني، ثم أخذ يرتجز: اعلُ هُبَلْ. قال النبي ﷺ: «**ألا تجيبونه؟**» قالوا: يا رسول الله: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلى وأجل**». قال: إن لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «**ألا تجيبونه؟**» قال: قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**»(١).

﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يبتليكم، أي: ليختبركم ويمتحنكم في صرفكم عنهم. والابتلاء يكون في الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، وقال سليمان- عليه السلام-: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر:١٥-١٦].

قال الشاعر:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم(٢)

فيبتلي الله بعض القوم بالخير والنعم ليتبين هل يشكر أم يكفر، ويبتلي بعض الناس بالشر والنقم ليتبين هل يصبر أم يجزع.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أي: والله لقد عفا الله عنكم، والجملة كسابقتها مؤكدة باللام والقسم المقدر، و«قد».

وأقسم عز وجل على عفوه عنهم وأكده؛ لأنه قد يتبادر إلى أذهانهم أن الله -كما

---

(١) أخرجها البخاري في الجهاد والسير- ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب (٣٠٣٩).

(٢) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» (ص٥٧٧).

ابتلاهم بسبب ما حصل منهم من الفشل والتنازع والمعصية- سوف يعاقبهم أيضًا على ذلك.

كما أقسم في أول الآية على صدق وعده لهم لئلا يتبادر إلى أذهانهم- بسبب ما أصابهم- أن الله لم يصدقهم وعده.

والمعنى: ولقد تجاوز الله عنكم، فلم يعاقبكم على ما حصل منكم من فشل وتنازع وعصيان، ولذلك صرف عدوكم فلم يستأصلكم.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: والله صاحب فضل وزيادة عليهم، ومن أعظم ذلك هدايتهم للإيمان وتوفيقهم للإسلام، وشمولهم برحمته وعفوه، ولهذا عفا عنكم.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: والله ذو فضل عليكم، وفي ذلك عدة فوائد منها وصف المذكورين بالإيمان، وتعميم فضله -عز وجل- لجميع المؤمنين، وبيان علة تفضله عليهم وهي الإيمان – إضافة إلى مراعاة فواصل الآيات.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداء المؤمنين بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف.

٢- عناية الله تعالى بالمؤمنين حيث يحذرهم من طاعة الكافرين.

٣- وجوب الحذر من الكافرين، وتحريم طاعتهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾.

٤- شدة خطر طاعة الكافرين؛ لأنها سبب للارتداد على الأعقاب والرجوع عن الإسلام، والانقلاب بالخيبة والخسران؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

٥- أن الكفار ليسوا بنصحة للمؤمنين، مهما ادعوا النصح لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾.

وهذا خبر الذي يعلم السر وأخفى -سبحانه وتعالى؛ ولهذا يجب الحذر كل الحذر أن يكون تبادل المصالح بين المسلمين وبينهم على حساب التنازل عن شيء من ثوابت

الدين ومبادئ الإسلام أو تكون مصالحتهم أو مهادنتهم على حساب ذلك.

٦- أن الكفر خسران، وأهله هم الخاسرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر:١-٣].

فلا خسارة تفوق الخسارة في الدين، فهي الخسارة العظمى، والمصيبة الكبرى، والجرح الذي لا يندمل، والكسر الذي لا ينجبر، وكما قيل:

وكل كسر فإن الله جابره وما لكسر قناة الدين جبران(١)

٧- بلاغة القرآن الكريم في التنفير عن طاعة الكافرين والرجوع عن الدين بتشبيه ذلك بالارتداد على الأعقاب ومشي القهقرى، والسير على الوراء وعلى غير هدى.

٨- إثبات ولاية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨].

٩- أن الله تعالى ناصر المؤمنين، وهو خير الناصرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾.

١٠- الإشارة إلى أن طاعة الكافرين من توليهم واتخاذهم أولياء ونصراء؛ لأن الله لما حذر من طاعتهم أعقب ذلك بقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾.

١١- جواز إطلاق «الناصر» على غير المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ بالجمع، وكما قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ [الأنفال:٧٢]، لكنه- عز وجل- هو خير الناصرين.

١٢- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿سَنُلۡقِي﴾؛ لأنه سبحانه وتعالى هو العظيم، كما قال عز وجل: «**الكبرياء إزاري والعظمة ردائي**»(٢).

١٣- بشارة الله تعالى للمؤمنين ووعده لهم بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا؛ لقوله تعالى: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾.

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» (ص٨٠).
(٢) سبق تخريجه.

١٤- إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ سَنُلْقِى ﴾ أي: في المستقبل، فهو سبحانه وتعالى يفعل ما شاء متى شاء، كما قال عز وجل: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٠٧].

١٥- قدرة الله تعالى العظيمة الباهرة في هزيمة الكفار من الداخل، بإلقاء الرعب في قلوبهم، مهما كانت قوتهم الظاهرة.

١٦- أن إلقاء الرعب في قلوب الكفار من أقوى أسباب الهزيمة لهم، والنصر للمؤمنين؛ لأن الرعب إذا وقع في القلب خارت القوى وعجز العدو عن المقاومة واستسلم وهذا من خصائص هذه الأمة، كما قال ﷺ: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»[1].

١٧- أن مدار قوة البدن وشجاعته وضعفه وانهزامه على قوة ثبات القلب، فإن ثبت القلب قوي البدن وقاوم، وإن ضعف القلب ضعف البدن وانهزم.

١٨- أن سبب إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا إشراكهم بالله ما لا دليل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ﴾، وبقدر عظم شركهم بالله يكون عظم الرعب في قلوبهم، إذ لا أمن إلا لأهل الإيمان والتوحيد، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام:٨٢].

١٩- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾، وفي هذا رد على نفاة الحكمة في أفعال الله من الجهمية وغيرهم.

٢٠- أنه لا دليل للمشركين، ولا حجة لهم على شركهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ﴾.

٢١- أن الأحكام التعبدية توقيفية، فلا يجوز التعبد لله بشيء لا دليل عليه، أو التقليد على غير هدى.

---

(١) سبق تخريجه.

٢٢- تسفيه عقول المشركين؛ لإشراكهم بالله ما لا دليل عليه من عقل أو نقل.

٢٣- أن مأوى الكافرين ومصيرهم النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾

٢٤- إثبات الآخرة، والجزاء فيها على الأعمال، وإثبات النار، وأنها موجودة معدة مأوى للكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾. أي: ومأواهم في الآخرة النار، مجازاة لهم على كفرهم وشركهم.

٢٥- الإشارة إلى خلود الكافرين في النار؛ لأن المأوى محل الإقامة الطويلة، أو الأبدية.

٢٦- ذم النار وتقبيحها وأنها بئس المثوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٧- أن الذين كفروا وأشركوا بالله هم الظالمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فوصفهم بالكفر والشرك والظلم، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

٢٨- إثبات نصر الله تعالى للمؤمنين في أُحد، كما وعدهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ واستمر معهم النصر حتى حصل منهم الفشل والنزاع والعصيان.

٢٩- إذن الله تعالى كونًا وشرعًا للمؤمنين بقتل أعدائهم الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بإذنه الكوني والشرعي.

٣٠- أن ما حصل للمسلمين يوم أُحد من صرفهم عن العدو سببه فشلهم وتنازعهم ومعصيتهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾.

٣١- أن الفشل والتنازع والعصيان من أسباب الخذلان وفوات النصر، مما يوجب الحذر من ذلك والأخذ بأسباب النجاح والنصر من وحدة الكلمة ولزوم الطاعة وغير ذلك.

٣٢- أن المعصية بعد النعمة أشد من المعصية قبل النعمة؛ وأن الواجب على مَن أنعم

الله عليه بما أحب أعظم من غيره؛ لقوله تعالى: ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ ﴾؛ لأن الواجب مقابلة النعمة بالشكر والطاعة لا بالمخالفة والمعصية، ولشؤم هذه المعصية أصاب المسلمين ما أصابهم.

ومعصيته ﷺ في هذا المقام عظيمة من وجهين؛ الأول: أن أمره ﷺ شرع يجب اتباعه، والثاني: أنه ﷺ قائد وولي أمر يجب اتباع أمره ولو لم يكن رسول.

٣٣- أن الأعمال بالنيات؛ لقوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ﴾.

٣٤- الإشارة إلى أن من أسباب ما حصل للمسلمين من الفشل والنزاع والمعصية كون بعضهم يريد الدنيا.

٣٥- أن الصحابة- رضي الله عنهم- ليسوا في عصمة من أن يريد بعضهم الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا ﴾ لكن لهم رضوان الله عليهم من الصحبة والفضائل والسوابق في الإسلام ما يكفر ويمحو ما كان منهم. ويكفيهم أن الله تعالى عفا عنهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ ﴾.

قال ابن القيم[1]: «﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ﴾ وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة، ولم يكن فيهم منافق؛ ولهذا قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «ما شعرت أن أحد أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى كان يوم أُحد، ونزلت هذه الآية»[2].

قال ابن القيم: والذين أُريدوا بهذه الآية هم الذين أخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه، وهم من خيار المسلمين، ولكن هذه إرادة عارضة، حملتهم على ترك المركز، والإقبال على كسب الغنائم، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها، فهذه الإرادة لون، وإرداة هؤلاء لون».

٣٦- أن صرف المسلمين عن عدوهم- بسبب ما حصل منهم من الفشل والنزاع

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٣٢).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦٥/ ١٤١، ١٤٢).

والمعصية ابتلاء لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.

٣٧- عفو الله- عز وجل- عما حصل يوم أُحد من المؤمنين من الفشل والتنازع والمعصية، وإرادة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾؛ ولهذا صرف عز وجل أعداءهم عنهم فلم يستأصلوهم.

٣٨- فضل الله- عز وجل- على المؤمنين بالعفو عنهم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهو فضل خاص، كما أنه ذو فضل عام على جميع الخلق، كما قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

قوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ ﴿إِذْ﴾: ظرف بمعنى «حين» متعلق بـ﴿صَرَفَكُمْ﴾ أو بـ﴿عَفَا عَنكُمْ ۗ﴾، أو متعلق بمحذوف،والتقدير: اذكروا حين تصعدون، وقيل غير ذلك.

﴿ تُصْعِدُونَ ﴾: بضم التاء، و«الإصعاد»: السير في الأرض والذهاب فيها والإسراع فيها هربًا؛ لأن الأرض تسمى «الصعيد»، كما قال تعالى: ﴿ فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [النساء: ٤٣، المائدة:٦]، يقال: أصعد في الأرض إذا ذهب فيها، قال الشاعر:

هوايَ مع الركب اليمانين مُصْعدٌ ... جنيبٌ وجثماني بمكة مُوثقُ[(١)]

وقال الأعشى[(٢)]:

فإن تسألي عني فيا ربَّ سائل ... حفيٌّ عن الأعشى به حيث أصعدا

---

(١) البيت لجعفر بن عُلْبة الحارثي. انظر: «شرح حماسة أبي تمام» للفارسي (٢/ ٨٧).

(٢) انظر: «ديوانه» ص(١٣٥).

وقال أيضًا:

ألا أيهذا السائلي أين أصعدت ... فإن لها في أهل يثرب موعدا

والمعنى: إذ تذهبون في الأرض مسرعين فارين جادين في الهرب. وقيل: إذ تصعدون في الجبل فرارًا. وكل هذا حصل من بعض الصحابة يوم أُحد فمنهم من فر وهرب في الأرض، ومنهم من صعد الجبل.

كما في حديث البراء- رضي الله عنه- بعد أن ذكر قول بعض الرماة: «إنا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة. فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين. فذلك الذي يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع رسول الله ﷺ غير اثنى عشر رجلًا...» الحديث[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أُحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهقوه قال: «**من يردهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة؟**» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه أيضًا، فقال: «**من يردهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة؟**» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل. فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة. فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: «**ما أنْصَفْنا أصحابنا**»[2].

وعن أبي عثمان النهدي قال: «لم يبق مع النبي ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهم رسول الله ﷺ غير طلحة بن عبيدالله وسعد- عن حديثهما»[3].

وعن سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- قال: «رأيت يوم أُحد عن يمين النبي ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض، يقاتلان عنه أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده- يعني جبريل وميكائيل- عليهما السلام»[4].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**اشتد غضب الله على قوم فعلوا برسول الله وهو حينئذٍ يشير إلى رباعيته، واشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٩).

(٣) أخرجه البخاري في المناقب- مناقب المهاجرين (٣٧٢٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٤).

(٤) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٢٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٦).

ﷺ في سبيل الله»[١].

وعن سهل بن سعد- رضي الله عنه- قال: «جُرح وجه رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم، وكان علي يسكب عليها بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى إذا صار رمادًا ألصقته بالجرح فاستمسك الدم»[٢].

﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ معطوف على ﴿تُصْعِدُونَ﴾ و«اللي» الانعطاف على الشيء والعكوف عليه، والمعنى: لا تعطفون على أحد، ولا تلتفتون إلى أحد، ولا تعرجون على أحد، لا على نبيكم، ولا على أصحابه، ودينه، من الدهش والرعب وشدة الهرب خوفًا من القتل، لا يفكر أحدكم إلا في نجاته بنفسه.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أن الرسول يدعوكم في أخراكم، أي: يناديكم إليَّ عباد الله، إليَّ عبادالله[٣].

﴿فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أي: من ورائكم وخلف ظهوركم مما يلي القوم، وهذا يدل على شجاعته ﷺ وثباته.

كما أن من سيرته ﷺ في قيادته أن يكون في مؤخرة الجيش مسايرة لضعيفهم ورفقًا بهم.

وفي قصة جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- أنه كان يسير على جمل له قد أعيا، فمر النبي ﷺ فضربه فدعا له، فسار بسير ليس يسير مثله... الحديث»[٤].

﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾: معطوف على «تصعدون»، و«أثاب»: تنصب مفعولين، الأول ضمير المخاطب، والثاني «غمًا»، أي: فجازاكم على فراركم وهربكم، و«الثواب»

(١) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة أُحد (٤٠٧٣)، ومسلم في الجهاد والسير- غزوة أُحد (١٧٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٢٩١١)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٠).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ١٤٨)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في الشروط- إذا اشترط البائع ظهر الدابة إلى مكان مسمى (٢٧١٨)، ومسلم في المساقاة- بيع البعير واستثناء ركوبه (٧١٥).

يطلق على الجزاء على العمل، إن خيرًا فخير، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٣]، وإن شرًّا فشر، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٦].

﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾: هذا من تمام الثواب، وليس هو سبب الثواب، والباء في قوله: ﴿بِغَمٍّ﴾ للمصاحبة، أي: وأثابكم غمًا مع غم، أي: بغم يصحبه غم، أي: بغموم متتابعة، ويجوز كون الباء بمعنى «على» كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]. أي: فأثابكم غمًا على غم، أي: بغموم متعددة لكن لا يلزم أن تكون متتابعة، أي: فجازاكم على ما حصل منكم بغموم متتابعة أو متعددة؛ منها: غم فوات النصر والغنيمة بعد أن ظهرت لكم بوارق النصر، ومنها: غم الهزيمة والانكسار الذي حصل لكم، ومنها: غم ما أصابكم من القتل والجراح والأسر، ومنها: الغم الذي أنساكم كل غم، وهو سماعكم أن محمدًا ﷺ قد قتل، فجازاهم الله تعالى بغموم متعددة مترادفة عليهم، كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها فشلهم وتنازعهم ومعصيتهم، وفرارهم وإسلامهم النبي ﷺ وأصحابه، وعدم استجابتهم له وهو يدعوهم. والجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان.

وقيل: الباء للبدل. والتقدير: فأثابكم غمًا بدل غم، أي: فأثابكم غمًا بدلًا من الغم الذي حصل منكم للرسول ﷺ.

والمعنى: فجازاكم غمًّا بما أصابكم بدل غمكم للرسول ﷺ بعصيانكم أمره وفراركم عنه.

وهذا يغمه في هذا الموقف من وجهين؛ الأول: أنه رسول الله، أمره واجب الاتباع، والثاني: أنه قائدكم وولي أمركم تجب عليكم طاعته. فما حصل لكم من المصاب والغم مقابل ما وقع للرسول ﷺ من غم بسبب عصيانكم أمره.

وقيل: فأثابكم غمًا يوم أُحد بغمكم يوم بدر للمشركين، فما أصابكم يوم أُحد بدل ما أصابهم يوم بدر.

والأول أظهر وهو الذي يدل عليه قوله: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ

﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ﴾، اللام: للتعليل، فالجملة تعليل لقوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾، أي: فأثابكم غمًا بغم؛ لأجل أن لا ﴿تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ﴾.

بمعنى أنه- عز وجل- أثابكم غمًا بغم لأجل أن لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم؛ لأن هذه الغموم ينسي بعضها بعضًا، فينسي أكبرُها أصغرَها، وآخرُها أولَها، كما أن في تعددها توطينًا للنفوس بتمرينها على الصبر على المصائب وتخفيف تحمل المشاق عليها.

فما حصل للمؤمنين من فوات النصر والغنيمة أنساهم إياه ما حصل لهم من الهزيمة والانكسار والقتل والجراح، ثم أنساهم تلك الغموم ما هو أعظم منها وهو ما سمعوا من أنه ﷺ قد قتل، ثم أنساهم ذلك كله وخففه عليهم تأكدهم من حياته ﷺ وبقائه وسلامته، وهكذا المصائب والفتن كما قال ﷺ: «**يرقق بعضها بعضًا**»(١).

وقوله: ﴿تَحْزَنُواْ﴾ منصوب بـ«كي».

و«الحزن»: الغم والتحسر على ما فات ومضى، و«ما» في الموضعين: موصولة، أي: لأجل أن لا تحزنوا على الذي فاتكم من النصر والغنيمة، ولا على الذي أصابكم من الهزيمة والقتل والجراح والأسر، إذا تحققتم أن الرسول ﷺ لم يقتل هانت عليكم تلك المصيبات واغتبطتم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة.

وبين قوله: ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ﴾ طباق.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿خَبِيرٌ﴾: مأخوذ من «الخُبْر»، وهو: العلم ببواطن الأمور، ومنه سمي الزارع «خبيرًا»؛ لأنه يدفن الحب ويخفيه، ومن ذلك سميت «المزارعة» بالمخابرة.

أي: والله- عز وجل- ذو خبرة تامة ببواطن الأمور ودقائقها وخفياتها.

وإذا كان عز وجل خبيرًا بالبواطن والدقائق والخفيات فخبرته وعلمه بالظواهر والجلائل والجليات من باب أولى.

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٦)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ «ما»: تفيد العموم، وهي موصولة أو مصدرية، أي: بجميع الذي تعملون، أو بجميع عملكم من أعمال القلوب والجوارح، من الأفعال والأقوال، وفي ختم الآية بهذه الجملة وعد لمن أحسن العمل، ووعيد لمن أساء؛ لأن مقتضى خبرته- عز وجل- بعملهم محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا﴾ ﴿ثُمَّ﴾ تفيد الترتيب مع التراخي. أي: ثم أنزل الله عليكم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ﴾ «ال» في الغم للجنس، أي: من بعد كل الغموم السابقة؛ لقوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ أي: بغموم متعددة ملاحقة.

﴿أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا﴾: مفعول به منصوب لـ﴿أَنزَلَ﴾، و﴿نُّعَاسٗا﴾ بدل اشتمال من ﴿أَمَنَةٗ﴾.

ومعنى ﴿أَمَنَةٗ﴾ أي: أمانًا.

و«النعاس» مقدمة النوم، أو النوم الخفيف.

وقيل: ﴿أَمَنَةٗ﴾: مفعول لأجله، و﴿نُّعَاسٗا﴾: مفعول ﴿أَنزَلَ﴾ ويقوي كون ﴿أَمَنَةٗ﴾ مفعولًا لأجله قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾ [الأنفال:١٢]، أي: إذ يغطيكم النعاس لأجل أمنكم.

﴿يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالتاء: «تغشى» أي: الأمنة، وقرأ الباقون بالياء: ﴿يَغۡشَىٰ﴾ أي: النعاس.

والغشيان والتغشية: التغطية، كما قال تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل:١].

والخطاب في قوله: ﴿يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ للمؤمنين، أي: يغطي عقول طائفة

منكم، وهم أهل الإيمان واليقين والثبات الواثقون بوعد الله تعالى ونصره، طمأنة لهم وتثبيتًا لقلوبهم وإراحة لأبدانهم وتجديدًا لنشاطهم؛ لأن الحزن والألم على المصاب تبدأ خفته من أول نومة بعده.

عن أبي طلحة- رضي الله عنه- قال: «غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أُحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه»(١).

وعنه- رضي الله عنه- قال: «كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أُحد حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه»(٢).

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أن طائفة قد أهمتهم أنفسهم، و«طائفة»: مبتدأ، ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ صفة لـ«طائفة» أي: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ فلم يغشهم النعاس لما هم عليه من الهم والخوف والقلق، والخائف لا يأتيه النعاس.

ومعنى ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: قد أوقعتهم أنفسهم في الهم، فلم يكن لهم هم سوى أنفسهم وسلامتها، فلم يهتموا لدينهم ولا لنبيهم ولا لأصحابه، لضعف إيمانهم أو نفاقهم، كما قال أبوطلحة رضي الله عنه: «والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم همة إلا أنفسهم ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾»(٣).

ولهذا لم يصف هذه الطائفة بقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ كما وصف الطائفة الأولى.

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ جملة ﴿يَظُنُّونَ﴾ في محل رفع خبر لـ(طائفة).

ويجوز كونها في محل نصب على الحال، أي: حال كونهم يظنون بالله غير الحق. أي:

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٦٢)، والترمذي في «التفسير» (٣٠٠٨).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة أُحد (٤٠٦٨).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ١٦٢).

يظنون بالله بقلوبهم.

﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾: مفعول مطلق نائب عن المصدر؛ لتأكيد معنى الظن، أو مفعول أول لـ﴿يَظُنُّونَ﴾، و﴿بِٱللَّهِ﴾: مفعول ثاني. ومعنى ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ظنًا غير ظن الحق، و﴿ٱلْحَقِّ﴾: الشيء الثابت، أي: يظنون بالله ظنًّا غير صحيح، وغير الحق، أي: ظن الباطل، ولم يحدد هذا الظن إلا بأنه غير الحق، أي: ليس بحق؛ ليعم جميع الظنون الباطلة التي ظنوها.

﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾: بدل من قوله: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، أو مفعول مطلق؛ لبيان نوع الظن. أي: ظن أهل الجاهلية الذين لا علم عندهم؛ لأن الجهل عدم العلم، كما قال السموأل[(١)]:

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم فليس سواء عالم وجهول

وقال النابغة:

.... وليس جاهل شيء مثل من علما[(٢)]

والمعنى: يظنون بالله غير الحق ظن أهل الجهل الذين لا علم ولا معرفة لهم بالله تعالى وعظمته وكمال أسمائه وصفاته وأحكامه وما يجب له، وما ينزّه عنه، كظنهم أن الله يديل الباطل على الحق إدالة يضمحل معها الحق، وأنه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأنه يسلمه للقتل، وأن ما أصابهم ليس بقضاء الله وقدره، ولا حكمة فيه، ونحو ذلك فأساؤوا الظن بالله تعالى وبدينه وبرسوله ﷺ؛ لما رأوا من ظهور المشركين في ذلك اليوم، وهذا هو ظن أهل الشك والريب والنفاق، والكفر والشرك، ظن السوء.

كما قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾

(١) انظر: «ديوانه» (ص٩٢).

(٢) عجز بيت للنابغة. انظر: «ديوانه» (ص١٠٢).

وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح:٦]، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص:٢٧].

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾، ﴿يَقُولُونَ ﴾: بدل من ﴿يَظُنُّونَ ﴾، أو في محل نصب على الحال من فاعل ﴿يَظُنُّونَ ﴾، أي: حال كونهم ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾.

أي: يقولون بألسنتهم بعضهم لبعض: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ وهو إفصاح عما تنطوي عليه قلوبهم من كونهم قد أهمتهم أنفسهم، ومن ظنهم بالله غير الحق.

﴿ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ ﴿ هَل ﴾ للاستفهام، ومعناه هنا الإنكار والنفي، أي: ليس لنا من الأمر من شيء؛ ولهذا رد عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾.

أي: يقول هؤلاء الطائفة الذين قد أهمتهم أنفسهم الظانين بالله غير الحق، ظن الجاهلية: ليس لنا من الأمر شيء، ولم يؤخذ رأينا ولا مشورتنا، ولم نراجع في الأمر.

﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ أي: من الشأن والتدبير في الحرب والقتال.

﴿مِن شَىْءٍ﴾ ﴿مِن ﴾ زائدة إعرابًا مؤكدة من حيث المعنى للإنكار والنفي، أي: ليس لنا من الأمر أيُّ شيء كان ومهما قل، فالأمر والتدبير كله لغيرنا.

وكأنهم يقولون أيضًا: أقحمنا وأدخلنا في أمر لا رأي لنا فيه ولا خيرة، ولا طائل تحته، ويتنصلون من مسؤولية ما حصل. وقيل: المعنى: ما لنا من أمر النصر والظهور من شيء.

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ قرأ أبوعمرو ويعقوب: «كلُّه» برفع «كلُّ» على أنها مبتدأ خبره ﴿لِلَّهِ ﴾ والجملة من المبتدأ والخبر خبر ﴿إِنَّ ﴾.

وقرأ الباقون ﴿كُلَّهُۥ﴾ بنصبها على أنها توكيد لـ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ وخبر ﴿إِنَّ﴾ قوله: ﴿لِلَّهِ ﴾.

والأمر في قوله: ﴿ قُلْ ﴾ للنبي ﷺ، أي: قل لهم يا محمد: إن الشأن كله لله. فله- عز وجل- الأمر الكوني وتدبير الكون كله، وله- سبحانه- الأمر الشرعي، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

﴿ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم ﴾ الجملة في محل نصب على الحال من فاعل يقولون، أي:

يضمرون ويسرون في أنفسهم.

﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ ﴿مَّا﴾: موصولة، أي: الذي لا يظهرونه ولا يعلنونه لك، أو نكرة موصوفة، أي: شيئًا لا يظهرونه لك، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾: بدل من قوله: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾، أو استئنافية، وهي بيان للذي يخفون في أنفسهم ولا يبدونه للرسول ﷺ، وهو أنهم يقولون، أي: يقول بعضهم لبعض فيما بينهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾.

عن الزبير- رضي الله عنه- قال: «لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا، أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره. قال: فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير، ما أسمعه إلا كالحلم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ لقول معتب»(١).

أي: لو كان لنا من الأمر شيء في هذه الغزوة والخروج إليها ﴿مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي: ما خرجنا إليها، وما قتلنا ههنا، أي: في أُحد، وكأنهم في هذا يشيرون إلى ما جرى حين استشار ﷺ أصحابه في الخروج إلى أُحد، فأشار عليه بعضهم بالخروج وبخاصة الشباب الذين لم يشهدوا بدرًا، وقال بعضهم ومنهم عبدالله بن أُبي وغيره: بل نبقى في المدينة، ونقاتلهم من أعلى السطوح وفي الشوارع إذا دخلوا، وكان النبي ﷺ يميل إلى هذا، لكنه ﷺ عزم على الخروج، فدخل بيته ولبس لأمة الحرب وخرج.

فالذين رأوا البقاء وعدم الخروج هم- والله أعلم- الذين قالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي: ما خرجنا من المدينة، وما قتلنا في أُحد- يعنون: من قتل منهم.

وهذا منهم تكذيب لله تعالى، وإنكار لحكمته، واعتراض على قدره، وتسفيه لرأي الرسول ﷺ وأصحابه، وتزكية لأنفسهم؛ ولهذا رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٧٩٥)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ١٦٨)، بأخصر من هذا.

قوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ الأمر للنبي ﷺ، و﴿لَّوْ﴾: شرطية، و﴿كُنتُمْ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿لَبَرَزَ﴾، قرأ أبوجعفر وأبوعمرو ويعقوب الحضرمي وورش عن نافع وحفص عن عاصم: ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ بضم الباء، وقرأ الباقون: «بيوت» بكسرها في جميع القرآن. أي: قل لهم يا محمد: لو كنتم في بيوتكم في المدينة ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾، أي: لظهر وخرج الذين كتب وقدر عليهم القتل ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾، و«مضاجع» جمع «مضجع» وهو مكان النوم، كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة:١٦]، ويطلق على مكان الموت والقتل، ومكان الدفن في القبر.

أي: أن بقاءكم في بيوتكم في المدينة لا يمنع من خروج من كتب وقدر عليهم القتل منكم ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: إلى أماكن قتلهم واضطجاعهم في قبورهم، فما حصل لكم قدر مقدر محتم، لا محيد لكم عنه ولا مناص ولا مفر لكم منه، ولا ينجي حذر من قدر.

وكما قيل:

مشيناها خطى كتبت علينا ... ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض ... فليس يموت في أرض سواها(١)

وقال الآخر:

فهن المنايا أي واد سلكته ... عليها طريقي أو علي طريقها(٢)

﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، والمعطوف عليه مقدر، أي: فعل ذلك؛ ليقضي الله أمره، وليبتلي ما في صدوركم، و﴿مَا﴾: موصولة، أي: الذي في صدوركم.

والابتلاء: الاختبار والامتحان، أي: وليختبر الله ويمتحن ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾

---

(١) البيتان قيل: لأحمد بن فارس، وقيل: للمعري، وقيل: لعبدالعزيز الدريني. انظر: «المستطرف» (١/ ٤٩١).
(٢) البيت بلا نسبة. انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢١٥)، «بدائع الفوائد» (١/ ١١٩)، «مدارج السالكين» (١/ ١٥).

أي: الذي في صدوركم، وهي القلوب وما فيها من المضمرات، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

أي: ليمتحن بما جرى عليكم الذي في صدوركم وقلوبكم من الإيمان والنفاق، فالمؤمن يزداد بذلك إيمانًا ويقينًا، والمنافق ومَن في قلبه مرض يظهر ذلك على جوارحه وفلتات لسانه.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ معطوف على: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾، والتمحيص: التخليص والتنقية والتصفية، و﴿مَا﴾: موصولة، أي: وليخلص الذي في قلوبكم من إرادة الدنيا أو التسخط والاعتراض على قدر الله تعالى، وغير ذلك من وساوس الشيطان.

فالابتلاء والامتحان للقلوب التي في الصدور، والتمحيص والتخليص والتنقية لما في القلوب، لا للقلوب نفسها، فبالإبتلاء للقلوب، والتمحيص لما فيها يتميز المؤمن من المنافق، والطيب من الخبيث، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

قال ابن القيم(١): «فكانت نقمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، وقتل من قتل منهم تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم، فله عليهم المنة التامة في هذا وفي هذا».

وكما قيل:

لله در النائبـــــات فإنهـــــا ... صـدأ اللئـام وصـيقل الأحـرار(٢)

وكم وراء المحنة من منحة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ الجملة استئنافية، أي: والله ذو علم واسع ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بصاحبة الصدور، وهي القلوب، وما فيها من المكنونات من المعتقدات والنوايا، والصلاح والفساد، والسرائر والضمائر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٢٦).

(٢) البيت لأبي الحسن التهامي. انظر: «ديوانه» (ص٢٨).

وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق:١٦].

وإذا كان عز وجل ذا علم واسع بالقلوب وما فيها من المكنونات فعلمه بكل ما ظهر من باب أولى، أي: والله ذو علم واسع بالقلوب، وما فيها، قبل ابتلائها، وتمحيص ما فيها، وبعده.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) ﴾.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ ﴾، ﴿ إِنَّ ﴾: حرف توكيد ونصب، ﴿تَوَلَّوْاْ ﴾: أدبروا وهربوا وانهزموا، حيث لم يبق مع الرسول ﷺ إلا نحو ثلاثة عشر رجلًا منهم أبوبكر وعمر وعلي رضي الله عنهم(١).

﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾، ﴿يَوْمَ ﴾: ظرف منصوب على الظرفية بمعنى «حين».

﴿ٱلْتَقَى ﴾، أي: تقابل، أي: يوم تقابل الجمعان وتلاقيا وجهًا لوجه.

﴿ٱلْجَمْعَانِ ﴾ مثنى: «جمع»، أي: جمع الرسول ﷺ والمسلمين معه، وجمع الكفار بقيادة أبي سفيان- وذلك يوم أُحد.

﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ ﴿إِنَّمَا ﴾: أداة حصر.

﴿ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي: دعاهم إلى الزلل وأوقعهم فيه، والزلل: الخطأ، والزلة: الخطيئة.

أي: إنما أوقعهم في الزلل والتولي والانهزام يوم أُحد الشيطان، أي: إنما أوقعوا فيما وقعوا فيه وحصل عليهم ما حصل بسبب الشيطان وتسويله.

فلو اعتصموا بطاعة الله تعالى ما كان له عليهم من سلطان، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢].

﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ الباء للسببية، و﴿مَا﴾: موصولة أو مصدرية، بسبب بعض الذي كسبوه، أو بعض كسبهم من الذنوب والمعاصي، من مفارقة موقعهم وعصيان أمر

---

(١) سبق تخريجه. وانظر: «زاد المعاد» (٣/ ٢١٣).

الرسول ﷺ، والتنازع والتعجل إلى الغنيمة، فكان سببًا في تسلط الشيطان عليهم واستزلاله لهم، وفي هذا إبطال لما عرّض به المنافقون من إلقاء تبعة ما أصابهم على أمر الرسول ﷺ بالخروج.

والمعاصي يجر بعضها بعضًا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف:٥].

وقال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

وقال بعض السلف: «إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها»(١).

﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ﴾، كما قال تعالى قبل هذا: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ [آل عمران:١٥٢]، وكرره للتأكيد، والامتنان، والجملتان كل منهما مؤكدة بالقسم المقدر، ولام القسم، و«قد»، أي: والله لقد عفا الله عنهم، والضمير يعود إلى الذين تولوا.

و«العفو»: ترك المؤاخذة على الذنب والتجاوز عنه.

أي: ولقد تجاوز الله عما كان منهم من المخالفة والفرار فلم يستأصلهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ استئناف وتعليل لما قبله، أي: ولقد عفا الله عنهم؛ لأنه سبحانه غفور حليم.

ومعنى ﴿غَفُورٌ﴾ أي: ذو مغفرة واسعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [النجم:٣٢].

و﴿ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة.

﴿حَلِيمٞ﴾ أي: ذو حلم واسع وذو أناة، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يتأنى به ويدعوه إلى التوبة والإنابة، ويمهل ولا يهمل. قال ابن القيم(٢):

وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٢٦).

(٢) «النونية» (ص١٤٨).

الفوائد والأحكام:

١- تذكير المؤمنين بما وقع منهم من المخالفة والفرار، وعدم إجابة دعوة الرسول ﷺ لهم بالرجوع إليه والكرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾، وفي هذا توبيخ وعتاب لطيف لهم.

٢- ينبغي للمسلم أن لا يغفل وينسى إخوانه فلا يلتفت إليهم في خضم الأحداث مهما عظمت؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾، وقد وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]. وأنزل الله تعالى هذه الآية عجبًا من صنيع أبي أيوب الأنصاري- رضي الله عنه- الذي آثر ضيفه بالعشاء، ونام هو وزوجه وأولاده جياعًا رضي الله عنه وأرضاه[(١)].

ولما أصيب عكرمة وبعض الصحابة- رضي الله عنهم- في اليرموك وعرض عليهم الماء آثر كل منهم وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء أن يدفع الماء إلى الآخر، وكانوا ثلاثة فماتوا كلهم ولم يشرب أحد منهم[(٢)].

٣- إثبات رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ﴾.

٤- شجاعته ﷺ وثباته مما يلي القوم بعد أن فر كثير من أصحابه، ودعوته ﷺ لهم للرجعة والكرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾.

٥- حنكته ﷺ في قيادة الجيش حيث يكون في آخر القوم رفقًا بهم، وتفقدًا لأحوالهم، ومسايرة لضعيفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾.

٦- ينبغي لقادة الجيوش في الإسلام أن يكون لهم أسوة برسول الله ﷺ في ثباته وشجاعته وحُسن قيادته للجيش.

٧- حكمة الله تعالى فيما أصاب به المسلمين من الغموم، ليُخفف وينسي بعضها بعضًا، فلا يحزنوا على ما فاتهم من النصر والغنيمة، ولا ما أصابهم من الخذلان وإدالة العدو

---

(١) أخرج القصة البخاري في تفسير سورة الحشر (٤٨٨٩)، ومسلم في الأشربة- إكرام الضيف (٢٠٥٤)، والترمذي في تفسير سورة الحشر (٣٣١٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٩٦-٩٧).

عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾.

٨- أن ما أصاب المسلمين من الغموم مقابل مخالفتهم الرسول ﷺ وغمهم له ﷺ، والجزاء من جنس العمل، وهذا من عدل الله عز وجل.

٩- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله- عز وجل- وأحكامه الشرعية والكونية؛ لقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

وفي هذا رد على الجهمية وغيرهم، ممن ينفون الحكمة في أفعال الله وأحكامه، ويقولون: إنه يفعل لمجرد المشيئة، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

١٠- تربية الإسلام أتباعه على الرضا والتسليم لقضاء الله وقدره وعدم الحزن على ما فات من محبوب، وما وقع من مكروه؛ لأن الحزن لا يرد فائتًا، ولا يرفع ما وقع من مكروه. والرضا والتسليم لقضاء الله وقدره يقوي النفس والعزيمة ويجعل الإنسان يمضي قدمًا ولا يتعثر ويتغلب بعون الله وتوفيقه على مصائب ومتاعب الحياة.

١١- خبرة الله تعالى واطلاعه وعلمه الواسع بأعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بجميع الذي تعملون من أعمال القلوب والجوارح ومن الأفعال والأقوال.

١٢- التحذير من المخالفة، والوعد لمن أطاع الله، والوعيد لمن عصاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، ومقتضى خبرته محاسبة الخلق ومجازاتهم على أعمالهم خيرها وشرها.

١٣- إثبات الاختيار للإنسان وأنه يعمل ويفعل بمحض إرادته؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ وقوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ وقوله: ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ وقوله: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾. وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبور لا اختيار له كالسعفة في الهواء.

١٤- أن العمل يطلق على القول، كما يطلق على عمل القلب وعمل الجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

١٥- امتنان الله- عز وجل- على المؤمنين بعد أن تتابعت عليهم الغموم بإنزاله عليهم أمنة نعاسًا؛ لطمأنة قلوبهم وأمانًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾.

١٦- إثبات العلو المطلق لله تعالى بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ﴾.

١٧- أن من نعمة الله تعالى على العباد النعاس والنوم الذي به راحة الأبدان والقلوب، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾ [النبأ:٩].

١٨- أن طائفة ممن شهد أُحدًا من المسلمين لم ينتفعوا من هذا النعاس الذي أنزل الله أمنة بل بقوا على ما هم عليه من غم؛ لأنهم قد أهمتهم أنفسهم، ليس لهم هَم سواها ونجاتها، لقوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ الآية.

١٩- ينبغي للمجاهد أن يكون همه عز الإسلام وإعلاء كلمة الله، وأن يكون شجاعًا ويبيع نفسه لله، لا أن يكون همه نفسه ونجاتها؛ لأن الله ذم مَن كان هذه صفته.

٢٠- ظن هؤلاء المذكورين بالله غير الحق؛ لقوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ وهو دليل على أنهم قد أهمتهم أنفسهم، وسببه أيضًا أنهم قد أهمتهم أنفسهم.

٢١- أن من ظن بالله غير الحق فهو جاهل بالله- عز وجل- وما يجب له، ولم يقدر الله- عز وجل- حق قدره، ظان بالله ظن الجاهلية؛ لقوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾.

٢٢- وجوب حسن الظن بالله تعالى في جميع الأحوال فإن كثيرًا من الخلق قل أن يسلم من سوء الظن بالله تعالى والاعتراض على حكمته وقدره وخاصة عند وقوع المصائب والنوائب، فعلى المسلم أن يفتش نفسه. قال الشاعر:

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة ... وإلا فإني لا إخالك ناجيًا[1]

وقال ابن القيم[2]:

فلا تظنن بربك ظن سوء ... فإن الله أولى بالجميل

---

(١) البيت للأسود بن سريع، وقيل: للفرزدق، وقيل: لذي الرمة. انظر: «البيان والتبيين» (١/ ٣٦٧).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٢١١-٢١٢)، «بدائع التفسير» (١/ ٥٢٤).

ولا تظنن بنفسك قط خيرًا	فكيف بظالم جان جهول
وقل يا نفس مأوى كل سوء	أيرجى الخير من ميت بخيل
وظن بنفسك السوآى تجدها	كذاك وخيرها كالمستحيل
وما بك من تقى فيها وخير	فتلك مواهب الرب الجليل
وليس بها ولا منها ولكن	من الرحمن فاشكر للدليل

٢٣- اعتراض المذكورين على الرسول ﷺ في خروجه إلى أُحد؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾ أي: ليس لنا من الأمر شيء.

٢٤- أن الأمر كله لله؛ الأمر الكوني والأمر الشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾، وفي هذا إبطال لقول القدرية النفاة الذين يجوزون أن يقع ما لا يشاؤه الله، وأن يشاء ما لا يقع.

٢٥- وجوب امتثال أمر الله تعالى الشرعي، والرضا بالتسليم لأمره الكوني القدري.

٢٦- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ الآية.

٢٧- ذم هؤلاء المذكورين بكونهم يخفون في أنفسهم ما لا يظهرونه للرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾.

٢٨- أن ما يخفيه هؤلاء في أنفسهم ولا يبدونه للرسول ﷺ هو اعتراضهم على خروجه، وعلى قدر الله تعالى في ذلك، وفي قتل من قُتل منهم، وهذا أشد في ذمهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾.

٢٩- أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾ وإذا كان ﷺ لا يعلم الغيب في حياته فبعد وفاته من باب أولى. وقد قال الله تعالى له: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف:١٨٨]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾ [الأنعام:٥٠].

٣٠- أن ما قدره الله تعالى وقضاه كائن لا محالة، ولا ينجي حذر من قدر؛ لقوله تعالى:

﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾.

٣١- وجوب الإيمان بالقضاء والقدر.

٣٢- عناية الله تعالى برسوله ﷺ ببيان وإظهار ما يخفيه هؤلاء وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإثبات أنه مبلغ عن الله تعالى.

٣٣- الإشارة إلى أن الشهداء يدفنون في أماكن استشهادهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾.

كما جاء في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ: أمر بقتلى أُحد أن يردوا إلى مصارعهم، وكانوا قد نقلوا إلى المدينة»(١).

٣٤- أن ما أجراه الله تعالى على المؤمنين من خروج إلى أُحد وما حصل لهم بسبب عصيانهم لأجل أن يمتحن الله ما في صدورهم وقلوبهم من إيمان ونفاق ويمحص ما في قلوبهم من إرادة الدنيا والاعتراض على قدر الله ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾.

٣٥- أن مدار الأعمال صحة وفسادًا، وقبولًا وعدمه على ما في الصدور والقلوب.

٣٦- أن الابتلاء بالتكاليف أو المصائب ليس المقصود منه المشقة على العبد، وإنما المقصود منه تصفية ما في صدره وتمحيص ما في قلبه، مما ينافي الإخلاص من الشوائب.

٣٧- علم الله الواسع التام بما في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وفي هذا وعد ووعيد؛ وعد لمن أخلص لله تعالى وأضمر الخير وأحسن الظن، ووعيد لمن كان على ضد ذلك؛ لأن مقتضى علمه- عز وجل- بذات الصدور أن يحاسب الخلائق ويجازيهم على أعمالهم خيرها وشرها.

٣٨- أن سبب تولي مَن تولى مِن المؤمنين يوم أُحد استزلال الشيطان لهم بسبب بعض ما اكتسبوا من المعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾.

---

(١) أخرجه النسائي في الجنائز- أين يدفن الشهيد (٢٠٠٤)، وابن ماجه في الجنائز- ما جاء في الصلاة على الشهداء ودفنهم (١٥١٦).

٣٩- أن تسليط الشيطان على بني آدم بسبب الذنوب والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾.

٤٠- أن سبب الوقوع في المعاصي هو استزلال الشيطان وتزيينه لها.

٤١- أن المعاصي يجر بعضها بعضًا، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠].

٤٢- تحريم الفرار إذا التقى الجمعان، والتحذير منه؛ لأن الله ذمَّه، وجعله من استزلال الشيطان.

٤٣- أن للشيطان تسلطًا على بني آدم في إيقاعهم في الزلل، وتزيين المعاصي لهم، مما يوجب الاستعاذة بالله منه، والحذر من اتباع خطواته.

٤٤- عفو الله- عز وجل- عما حصل من بعض المؤمنين من التولي لما التقى الجمعان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وأكد عز وجل هذا لهم لطمأنة قلوبهم.

قال ابن القيم[1]: «لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ولا شك، وإنما كان عارضًا عفا الله عنه».

٤٥- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: ذو مغفرة واسعة.

٤٦- إثبات صفة الحلم الواسعة لله- عز وجل- وأنه لا يعاجل مَن عصاه بالعقوبة، لعله يتوب؛ لقوله تعالى: ﴿حَلِيمٌ﴾.

٤٧- عظم فضل الله- عز وجل- ومغفرته وحلمه بعفوه عن عباده المؤمنين؛ ولهذا عفا سبحانه عن الذين تولوا وفروا يوم التقى الجمعان مع عظم ما ارتكبوه.

٤٨- أن الصحابة- رضي الله عنهم- ليسوا بمعصومين من الوقوع في الخطأ والذنوب والمعاصي، ولكنهم أقرب إلى التوبة والإنابة، وإلى عفو الله تعالى من غيرهم.

* * *

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٢٦).

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- اعتراض المنافقين على قضاء الله تعالى وقدره بقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، ثم نهى الله- عز وجل- المؤمنين عن التشبه بالكفار فيما هم عليه من الكفر واعتراضهم على قضائه تعالى وقدره.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾. ﴿لَا﴾: ناهية، والكاف في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ للتشبيه بمعنى «مثل» أي: لا تكونوا مثل الذين كفروا من المنافقين وغيرهم في اعتراضهم على قضاء الله وما هم عليه من المعتقدات والأفعال والأقوال الباطلة.

﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ اللام في قوله: ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ ليست للتعدية، أي: ليست للتبليغ كالتي في قولك: قلت لزيد افعل كذا، أي: ليست لتعدية وتبليغ القول إلى إخوانهم؛ لأن إخوانهم قد قتلوا أو ماتوا، ولكنها هنا: للتعليل، وقالوا لأجل إخوانهم، أي: وقالوا عن إخوانهم، أو بمعنى: «في»، أي: وقالوا في إخوانهم، أي: في شأن إخوانهم أي: إخوانهم من النسب والقرابة ممن قُتل من المؤمنين، أو إخوانهم في الكفر ممن قُتل من الكفار، أو إخوانهم في النسب والدين.

﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال بعض أهل العلم: ﴿إِذَا﴾ هنا: ظرف للماضي بدليل قوله: «قالوا»، و﴿ضَرَبُواْ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة:١١].

وقال بعضهم: ﴿إِذَا﴾ هنا لمجرد الظرفية والزمان، وهي مسلوبة الاستقبال. والضرب في الأرض، هو السير والسفر فيها؛ لتجارة ونحو ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل:٢٠].

وسمي السير والسفر ضربًا في الأرض أخذًا من ضرب الأقدام على الأرض أثناء السفر.

﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾، ﴿أَوْ﴾: عاطفة، و﴿غُزًّى﴾: على وزن «فُعَّل» جمع: «غاز»، يقال في جمعه: «غُزَّى» و«غزاة»، وهم المجاهدون في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟﴾ [النساء:٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [النساء:١٠١].
والمعنى: إذا ساروا في الأرض وسافروا فيها؛ لتجارة ونحو ذلك فماتوا، أو كانوا غزاة في سبيل الله فقتلوا.

وقدَّم الضرب في الأرض على الغزو؛ لأن الضرب في الأرض أكثر، كما أنه يشرع لأهداف كثيرة كالتجارة وطلب العلم ونحو ذلك.

﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ هذه جملة مقول القول السابق.

«لو»: شرطية، وهي: حرف امتناع لامتناع، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿مَا مَاتُوا۟﴾ أي: لو كان عندنا مقيمين في البلد ما ماتوا وما قتلوا.

﴿وَمَا قُتِلُوا۟﴾: معطوف على قوله: ﴿مَا مَاتُوا۟﴾ أي: ولو كانوا عندنا في البلد ولم يغزوا ما قتلوا، وهذا من باب اللف والنشر المرتب.

فقوله: ﴿مَا مَاتُوا۟﴾ يقابل ﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا قُتِلُوا۟﴾ يقابل ﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ أي: لو كانوا عندنا لم يسافروا ما ماتوا، أي: ولو كانوا عندنا لم يغزوا ما قتلوا، كقولهم في الآية الثانية: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران:١٦٨].

وهذا كذب منهم واعتراض على قدر الله، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤].

﴿ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ اللام: لام العاقبة، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص:٨]، أي: لتكون عاقبة قولهم هذا أن يجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم، أي: أن يترتب على قولهم واعتقادهم هذا أن يجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم، ولم يفدهم ذلك شيئًا.

و«جعل» هنا بمعنى «صيَّر» تنصب مفعولين؛ الأول ﴿ذَٰلِكَ﴾ والثاني ﴿حَسْرَةً﴾.

ومعنى ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾، أي: حزنًا شديدًا وأسى وندمًا في قلوبهم، فلا يكادون ينسون مصيبتهم؛ لأنهم يرون أن مصابهم بسبب خروجهم، لا بقضاء الله وقدره، وإنهم لو لم يخرجوا ما أصابهم هذا المصاب، فلا يزالون متلهفين على ما أصابهم وعلى ما فاتهم.

﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: بيده -عز وجل- الحياة والموت، وهو المنفرد بالإحياء والإماتة، فلا أحد يحيا أو يموت إلا بمشيئة الله تعالى وقدره، ولا مدخل للضرب في الأرض أو الغزو في ذلك، فمن قدر الله موته بأي أرض سيموت فيها، في بلده أو خارجها، ومن قدر الله موته بأي سبب سيموت به، ومن قدر الله قتله بأي أرض سيقتل فيها، في بلده أو خارجها، ومن قدر الله قتله بأي سبب من الغزو أو غيره سيقتل به، ولا يزاد في عمر أحد ولا ينقص منه إلا بقضاء الله وقدره، كما قال: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ [فاطر:١١].

ولا يُقَرِّب سبب مهما عظم موت أو قتل مَن لم تحن وفاته. ولا تنجي أسباب السلامة مهما كانت ولا حذر من قدر، وكما قال خالد بن الوليد -رضي الله عنه: «لقد خضت أكثر من مائة معركة، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، وهأنذا أموت على فراشي، كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء»(1).

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ «ما»: موصولة أو مصدرية، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف بياء الغيبة: «يعملون» ويعود الضمير إلى الذين كفروا، أي: والله بما يعمل هؤلاء الكفار بصير. أي: والله بجميع الذي يعمل هؤلاء أو بجميع عملهم بصير.

---

(١) سبق تخريجه.

وقرأ الباقون بتاء الخطاب: ﴿تَعْمَلُونَ﴾، والخطاب للذين آمنوا، أي: والله بجميع الذي تعملون أو بجميع عملكم أيها المؤمنون بصير. وقد يكون خطابًا لهم وللذين كفروا، أي: والله بما تعملون أيها المؤمنون أنتم والذين كفروا ﴿بَصِيرٌ﴾.

ومعنى ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: مطلع عليه عالم به، فلا يخفى عليه منه شيء، ولا من جميع أعمال العباد، فهو -عز وجل- ذو بصر يبصر ويرى أعمال العباد وغيرها كما قال ﷺ: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[1]. وهو- سبحانه وتعالى- ذو بصر وإحاطة وعلم بأعمال العباد، وبكل شيء، كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال:٤٧]، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف:١٩].

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

نهى الله- عز وجل- المؤمنين عن التشبه بالكفار الذين يرون القتل في سبيل الله أو الموت فيه منقصة ومغرمًا، ثم أتبع ذلك ببيان أن ذلك مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون؛ لأنه سبب موصل إلى مغفرة الله تعالى ورحمته وذلك خير مما يجمعون، وأن كل من ماتوا أو قتلوا فإنما مرجعهم إلى الله تعالى وحشرهم إليه فيجازي كلًّا بعمله.

وقدّم في الآية الأولى القتل في سبيل الله على الموت؛ لأن القتل في سبيل الله أفضل ونصيب صاحبه من المغفرة والرحمة أوفر -غالبًا- بينما قدم في الآية الثانية الموت على القتل؛ لأن الموت أكثر من القتل، ولأن الميت والمقتول كلاهما في الحشر إلى الله تعالى سواء- مع ما في ذلك من التفنن ورد العجز على الصدر وجعل القتل مبدأ الكلام وعوده.

قوله: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اللام موطئة للقسم، أي: مؤذنة بأن قبلها قسمًا، والخطاب للمؤمنين، أي: والله لئن قتلتم في سبيل الله، أي: في الجهاد لإعلاء كلمة الله.

وقد يحمل ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ على ما هو أعم، فيشمل من قتل في الجهاد لإعلاء

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٩)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

كلمة الله أو في الدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبيان الحق ونحو ذلك.

﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ ﴿أَوْ﴾: عاطفة، ﴿مُتُّمْ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي وخلف بكسر الميم: «مِتم» في هذا الموضع والذي بعده، من مات الرجل يمات، وقرأ الباقون بضم الميم في الموضعين: ﴿مُتُّمْ﴾ من مات الرجل يموت. أي: أو متم من غير قتل في سبيل الله.

﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم في قوله: ﴿وَلَئِن﴾ أي: لمغفرة من الله تعالى لذنوبكم، والمغفرة ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: ورحمة من الله تعالى لكم.

﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ قرأ حفص عن عاصم بياء الغيبة: ﴿يَجْمَعُونَ﴾ على الالتفات أي: خير مما يجمع الكفار أو الخلق كلهم، وقرأ الباقون بتاء الخطاب: «تجمعون» والخطاب للمؤمنين.

و«ما» في قوله: ﴿مِّمَّا﴾: موصولة، تفيد العموم. أي: خير مما يجمع الكفار والخلق كلهم من الدنيا كلها، وخير مما تجمعون أيها المؤمنون من الغنائم ومن الدنيا كلها.

فمن قتل في سبيل الله نال منازل الشهداء، ومن مات في غير الجهاد في سبيل الله مات على الإيمان ونال ثواب المؤمنين، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ اللام كالتي قبلها موطئة للقسم، أي: والله لئن متم أو قتلتم. أي: لئن متم من غير قتل في سبيل الله، أو قتلتم في سبيل الله.

﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، ﴿وَلَئِن﴾، ﴿تُحْشَرُونَ﴾ أي: تجمعون.

وفي هذا بشارة للمؤمنين بأن مردهم ومرجعهم إلى الله تعالى من مات منهم من غير قتل، ومن قتل منهم في سبيل الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣]، وفي الحديث: «**مَن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وفي هذا إغراء بالاتصاف بهذا الوصف، وأن الانتهاء عما نهى الله عنه وعدم التشبه بالكفار من مقتضيات الإيمان، وأن التشبه بهم منافٍ للإيمان.

٣- النهي عن التشبه بالكفار وتحريم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والنهي يقتضي التحريم، وفيه من الوعيد ما لا يخفى، وقد قال ﷺ: «**مَن تشبَّه بقوم فهو منهم**»(٢).

وفي نهيه- عز وجل- عن التشبه بالكفار مع ذكر قولهم في الاعتراض على قضاء الله بقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، وقولهم لإخوانهم: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ ما يدل على أن هذا من كفرهم.

وسواء كان التشبه بهم عن قصد أو عن غير قصد، لكن إذا كان ذلك عن قصد كأن يكون ذلك تعظيمًا لهم، أو إعجابًا بهم ونحو ذلك، فهذا أشد خطرًا وآكد وعيدًا.

كما أن التشبه بهم في الأمور الدينية أشد خطرًا من التشبه بهم في الأمور العادية؛ لأن التشبه بهم في الأمور الدينية والعبادات فيه تعظيم لدينهم وما هم عليه من المعتقدات والعبادات الباطلة أو المنسوخة بدين الإسلام.

٤- ذم الكفار وما هم عليه من الكفر اعتقادًا وفعلًا وقولًا؛ لنهي الله تعالى المؤمنين أن يكونوا مثلهم.

٥- أن الكفار إخوة فيما بينهم بالكفر، كما أن الناس كلهم إخوة في النسب مؤمنهم وكافرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٧)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٣)، والنسائي في الجنائز (١٨٣٦)، والترمذي في الجنائز (١٠٦٦)، من حديث عبادة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبوداود في اللباس- لبس الشهرة (٤٠٣١)، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

٦- جواز الضرب في الأرض والسفر فيها، فإن كان لأمر مشروع، كطلب علم أو تجارة أو نحو ذلك فهو مشروع، ولهذا- والله أعلم- قدم الضرب في الأرض على الغزو- إضافة إلى أن الضرب في الأرض هو الغالب. وإن كان الضرب في الأرض والسفر فيها لأمر جائز، فهو جائز ما لم يترتب على ذلك محظور، كالسفر لأغراض محرمة، أو لبلاد الكفر، ونحو ذلك.

٧- مشروعية الغزو والجهاد في سبيل الله.

٨- اعتراض الكفار على قضاء الله وقدره، وعلى الرسول ﷺ في خروجه إلى أُحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾.

٩- أن الاعتراض على قضاء الله وقدره، وعلى أمر الرسول ﷺ من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

١٠- أن الندم على ما مضى والحزن على ما فات لا يجدي شيئًا، وهو أمر مذموم؛ لما فيه من اعتراض على قدر الله، وكونه من عمل الكفار، وفي الحديث: «**فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»(١).

١١- أن عاقبة الاعتراض على قضاء الله وقدره حسرة في القلب؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: حسرة تلازم قلوبهم وحزنًا وأسى.

وهذا بخلاف الإيمان بقضاء الله وقدره، فإن به تخفيف المصاب، وانشراح الصدر، وثبات القلب، وهدايته، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]. قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»(٢).

١٢- أن قدر الله نافذ وحكمه- عز وجل- الكوني تام ولا ينجي حذر من قدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ بعد أن ذكر قول الكفار عن إخوانهم: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة (٧٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه عبدالرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٩٥)، والطبري في «جامع البيان» (٢٣/ ١٢).

﴿مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾.

١٣- أن الله- عز وجل- هو الذي يحيي ويميت، أي: بيده الإحياء والإماتة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

١٤- اطلاع الله- عز وجل- على أعمال العباد ورؤيته لها وعلمه بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وفي هذا وعد لمن أحسن العمل ووعيد لمن أساء؛ لأن مقتضى بصره- عز وجل- وعلمه بأعمال العباد أن يحاسبهم ويجازيهم على خيرها وشرها.

١٥- أن مَن قتل في سبيل الله، أو مات من المؤمنين فله مغفرة من الله ورحمة خير من الدنيا وما فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فالأول فاز بنيل الشهادة في سبيل الله، والثاني فاز بالموت على الإيمان، وكلًا وعد الله الحسنى.

١٦- عظم مغفرة الله تعالى ورحمته، وعظم ما أعده من المغفرة والرحمة لمن قتل في سبيله، أو مات من المؤمنين.

١٧- إقسام الله- عز وجل- على وعده بالمغفرة والرحمة لمن قتلوا في سبيله أو ماتوا من المؤمنين- وهو أصدق القائلين- تأكيدًا لذلك الوعد، وتعظيمًا للموعود به.

١٨- تسلية من قتل في سبيل الله، ومن مات من المؤمنين، وبشارتهم بذكر ما أعد الله لهم من عظيم مغفرته ورحمته، مما هو خير من الدنيا وما فيها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى:٣٦].

١٩- كمال سعادة المؤمنين عند الله تعالى، فبمغفرته لهم زوال المرهوب، وبرحمته لهم حصول المطلوب.

٢٠- أن التخلية قبل التحلية.

٢١- أن المفاضلة قد تكون بين شيئين بينهما بُعد تام؛ لقوله تعالى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ لأن الدنيا بما فيها لا تساوي شيئًا بالنسبة لمغفرة الله ورحمته.

بل قد ترد المفاضلة بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل البتة، كما في قوله تعالى:

﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴾ [الفرقان:٢٤] أي: خير مستقرًا وأحسن مقيلًا من مستقر أهل النار ومقيلهم؛ لأن النار شر محض لا خير فيها.

٢٢- زيادة التسلية والبشارة لَمن مات من المؤمنين أو قُتل في سبيل الله ببيان أن مرجعهم إليه وجمعهم لديه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴾.

٢٣- أن مرجع الخلائق كلهم من مات منهم أو قتل إلى الله تعالى وحشرهم إليه، لا مفر إلا إليه، فيجازي كلًا بما عمل.

٢٤- إثبات البعث والمعاد وحشر العباد وجمعهم عند الله تعالى، وحسابهم ومجازاتهم على أعمالهم

* * *

قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ الفاء للتفريع، أو استئنافية، والباء حرف جر تفيد السببية، و«ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ﴾ [النساء:١٥٥]، ﴿ رَحْمَةٍ ﴾: مجرورة بالباء، والجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿لِنتَ ﴾، ونكرت «رحمة» للتعظيم.

أي: فبسبب رحمة من الله لك ولأصحابك لنت لهم، أو أيّ شيء جعلك لينًا لهم لولا رحمة الله بك وبهم. وفي هذا امتنان من الله- عز وجل- عليه ﷺ وعلى أمته.

﴿لِنتَ لَهُمْ ﴾ اي: كنت لينًا لأصحابك وأمتك، رفيقًا بهم: ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، فأحبوك، واجتمعوا عليك.

فقد كان ﷺ لينًا حسن الخلق والتعامل مع أصحابه، كما كان ﷺ رؤوفًا رحيمًا بأمته، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤].

ولهذا قال ﷺ لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن: «**يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا**

تنفرا»[(١)]، وقال ﷺ: «**يسروا ولا تعسروا**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**»[(٣)].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا»[(٤)].

﴿**وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ**﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على ﴿**لِنتَ لَهُمۡۖ**﴾، وفيها بيان وإيضاح لمعنى ﴿**لِنتَ لَهُمۡۖ**﴾ أي: لنت لهم، ولم تكن فظًّا غليظ القلب، أي: ولم تكن شديدًا- وبضدها تتميز الأشياء.

و«لو»: شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع، ﴿**كُنتَ**﴾: فعل الشرط، ﴿**لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ**﴾: جواب الشرط، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿**فَظًّا**﴾: خبر كان، و«الفظ»: السيئ الخلق، الجافي الطبع، غليظ القول والفعل. قال الشاعر:

أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ ... وكنت أخشى عليها من أذى الكلم[(٥)]

وقال الآخر:

يُبكى علينا ولا نبكي على أحد ... لنحن أغلظ أكبادًا من الإبل[(٦)]

﴿**غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ**﴾ غلظ القلب: قساوته، وغليظ القلب: قاسي القلب الذي لا يلين وليس في قلبه رأفة ولا رحمة- وهذا هو سبب الفظاظة.

وفي حديث عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**وإن أبعد**

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٨)، ومسلم في الأشربة (١٧٣٣)، من حديث أبي بردة عن أبيه عن جده رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٢٠)، وأبوداود في الطهارة (٣٨٠)، والنسائي في الطهارة (٥٦)، والترمذي في الطهارة (١٤٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، وأبوداود في الأدب (٤٧٨٥).

(٥) البيت لإسحاق بن خلف، انظر: «شرح حماسة أبي تمام» (٢/ ١٨٣).

(٦) البيت لمهلهل بن ربيعة، وقيل: للمخبل. انظر: «شرح ديوان الحماسة للمرزوقي» (ص٤٢٠).

الناس من الله القلب القاسي»[١].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبَّلت منهم أحدًا. فنظر إليه رسول الله ﷺ، ثم قال: «**مَن لا يَرحم لا يُرحم**»[٢].

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تُقَبِّلون الصبيان فما نُقَبِّلهم، فقال النبي ﷺ: «**أوَأَمْلِكُ لك أن نَزع الله من قلبك الرحمة**»[٣].

﴿لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ اللام واقعة في جواب «لو»، أي: لتفرق أصحابك من حولك وانصرفوا وتركوك؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾ [الجمعة:١١].

وفي قوله: ﴿مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ دلالة على شدة ابتعادهم عنه، أي: لتفرَّق من حولك، وابتعدوا عنك كل البعد.

عن عبدالله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- أن مما جاء في صفته ﷺ في التوراة: «ليس بفظ ولا غليظ ولا سخَّاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح»[٤].

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ الفاء: عاطفة، للتفريع على قوله: ﴿لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ أي: فتجاوز عن أصحابك، وسامحهم ولا تؤاخذهم فيما يقع منهم من تقصير في حقك، من ترك واجب لك أو ارتكاب منهي في حقك.

وما أكثر ما حصل له ﷺ من الأذى وخاصة من بعض المنافقين.

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قسم النبي ﷺ قسمة كبعض ما كان يقسم، فقال رجل من الأنصار: «والله إنها لقسمة ما أُريد بها وجه الله». قلت: أمَّا أنا

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٤١١)، وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩٧)، ومسلم في الفضائل (٢٣١٨)، وأبوداود في الأدب (٥٢١٨)، والترمذي في البر والصلة (١٩١١).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩٨)، ومسلم في الفضائل (٢٣١٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٦٥).

(٤) أخرجه البخاري في التفسير- تفسير سورة الفتح (٤٨٣٨)، وأحمد (٢/ ١٧٤).

لأقولن للنبي ﷺ، فأتيته وهو في أصحابه، فساررته؛ فشق ذلك على النبي ﷺ، وتغيّر وجهه وغضب حتى وددت أني لم أكن أخبرته. ثم قال: «**قد أوذي موسى بأكثر من ذلك فصبر**»(١).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: «بينا النبي ﷺ **يُقْسِمُ** جاء عبدالله بن ذي الخُوَيْصِرَة التميمي، فقال: اعدل يا رسول الله. فقال: «**ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل**»، قال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه. قال: «**دعه فإن له أصحابًا يُحَقِّر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»(٢).

ولما خاصم الأنصاري الزبير- رضي الله عنه- في شِرَاج الحَرَّةِ التي يسقون بها النخل، وقال النبي ﷺ: «**اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك**» فغضب الأنصاري، فقال: أن كان ابن عمتك. فتلوّن وجه رسول الله ﷺ»(٣).

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُرْد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فَجَبَذَهُ جَبْذَةً شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جبذته. ثم قال: مُر لي من مال الله الذي عندك. **فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء**»(٤).

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: واطلب لهم المغفرة من الله فيما يقع منهم من تقصير في حق الله تعالى، سواء كان بسبب تقصيرهم في حقك أو في غير ذلك من حقوق الله تعالى؛ لأن ما يجب للرسول ﷺ، بل وما يجب لغيره من الخلق كل ذلك من حق الله تعالى؛ لأن الله هو الذي أوجب ذلك كله.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٠٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٣٣)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٤).

(٣) أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٦٠)، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٧)، وأبوداود في الأقضية (٣٦٣٧)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤٠٧)، والترمذي في الأحكام (١٣٦٣)، من حديث عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١٤٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٧).

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ المشورة: استطلاع رأي المستشار، أي: شاور أصحابك واستطلع آراءهم واطلب منهم المشورة.

﴿فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في الشأن، و﴿ٱلْأَمْرِ﴾ واحد الأمور، أي: شاورهم في الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر وتجربة ونحو ذلك.

ولهذا كان ﷺ يستشير أصحابه في كثير من الأمور تشجيعًا لهم وتطييبًا لخواطرهم واستئناسًا برأيهم، فعن أنس رضي الله عنه: «**أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان..**»[1].

واستشارهم في أسرى بدر فأشار عليه أبوبكر- رضي الله عنه- باستبقائهم وفدائهم، وأشار عليه عمر- رضي الله عنه- بقتلهم، وكان ﷺ يميل إلى رأي أبي بكر- رضي الله عنه- فاستبقاهم، فعاتبه الله تعالى بقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٧-٦٩][2].

كما استشار ﷺ أصحابه في الخروج إلى أُحد، فأشار أكثرهم بالخروج فخرج[3].

كما استشارهم يوم الأحزاب فأشار عليه سلمان الفارسي- رضي الله عنه- بحفر الخندق حول المدينة[4].

كما استشارهم في قصة الإفك فقال ﷺ: «**أشيروا عليَّ أيها الناس في رجل بلغني أذاه في أهلي**»[5].

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٧٩).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير- الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (١٧٦٣)- وسيأتي ذكره وتخريجه بتمامه في سورة الأنفال إن شاء الله تعالى.

(٣) سبق تخريجه في ذكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١].

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٨٤).

(٥) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠)، وأبوداود في النكاح (٢١٣٨)، والترمذي =

قال البخاري- رحمه الله[١]: «وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة؛ ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب والسنة لم يتعدوه إلى غيره». وقال: «وكان القراء أصحاب مشورة عمر كهولًا كانوا أو شبانًا، وكان وقافًا عند كتاب الله عز وجل».

وقد تشاور الصحابة- رضي الله عنهم- في أمر الخليفة بعد رسول الله ﷺ، واستشار أبوبكر- رضي الله عنه- الصحابة في قتال أهل الردة، وجعل عمر- رضي الله عنه- الأمر شورى بعده في ستة عيّنهم رضي الله عنه وعنهم.

والاستشارة كما تكون في أمور الأمة الهامة والعامة تكون في الأمور الخاصة بين الناس بين أفراد المجتمع بين الأقارب والأزواج والإخوان والأصدقاء وسائر أفراد المجتمع، كما قال تعالى في الزوجين: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة:٢٣٣].

وقد امتدح الله- عز وجل- هذه الأمة بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[الشورى:٣٨]، وقد قيل: «ما خاب مَن استخار، ولا ندم مَن استشار»[٢].

وقال الشاعر:

شاور سواك إذا نابتك نائبة ... يومًا وإن كنت من أهل المشورات

فالعين تنظر منها ما دنا ونأى ... ولا ترى نفسها إلا بمرآة[٣]

وقال الآخر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم[٤]

في التفسير (٣١٨٠)، وابن ماجه في النكاح (١٩٧٠)، وأحمد (٦/ ١٩٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١) انظر: «صحيح البخاري مع فتح الباري» كتاب الاعتصام- باب قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٩]، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩] (١٣/ ٣٣٩).

(٢) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص٣٠٠).

(٣) البيتان للأرجاني. انظر: «ديوانه» (١/ ٢٤٦).

(٤) البيت لبشار بن برد. انظر: «ديوانه» (٤/ ١٧٣).

وقال الآخر:

خليلي ليس الرأي في صدر واحد   أشيرا علـيّ بالذي تريان[(١)]

والشورى في الأصل مما جبل عليه الإنسان في فطرته السليمة في طلب الصلاح والنجاح في المساعي إذا سلم من آفة الأنانية والاستبداد أو الاستكبار، ولم تزل الشورى في أطوار التاريخ رائجة في البشر، فقد قال تعالى عن بلقيس: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل:٣٢]، والاستشارة ليست لكل أحد وإنما يستشار أهل الدين والعقل والعلم والحكمة والرأي والتجربة والحزم والعزم والقوة والنصح والأمانة، ونحو ذلك، وأهل التخصص كل في مجال تخصصه. ولا يستشار من لا يطمئن إلى نصحة للأمة كأهل الكفر والفسق والنفاق وأهل البدع والأهواء وأرباب الشهوات، ونحوهم.

وليس من شرط الشورى في الإسلام أن يؤخذ فيها رأي أكثر الناس كما يزعم أدعياء الديمقراطية الموهومة، فإن أكثر الناس ودهماءهم أتباع كل ناعق، والحكم في الإسلام لشرع الله تعالى وفق الكتاب والسنة، والشورى إنما تكون فيما ليس فيه حكم شرعي مما يستجد من القضايا والنوازل، فيستطلع رأي أهل الشورى فيها بما يتفق مع ما جاء في الكتاب والسنة ولا يتعارض معهما.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الفاء للتفريع، و«إذا» ظرفية مضمنة معنى الشرط. أي: فإذا صممت على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه إن كان يحتاج إلى استشارة سواء كان مما استظهرته من أهل الشورى، أو مما تبين لك سداده من بين آراء أهل الشورى، كما يقال في المثل: «ما بين الرأيين رأي».

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط. أي: فاعتمد على الله تعالى، وعلى حوله وقوته وحده، لا على مشورتك وحدك.

وفي هذا أمر له ﷺ بفعل السبب باستشارة أصحابهم واستطلاع رأيهم، وبالاعتماد على الله- عز وجل- وحده، والمضي قدمًا فيما عزم عليه من أمر بعد التوكل على الله-

---

(١) البيت لابن الدمينة. انظر: «حماسة الخالدين» (ص٧٠).

وعدم التردد.

و«التوكل على الله» صدق الاعتماد على الله تعالى في جلب النفع ودفع الضر مع تمام الثقة به- سبحانه وتعالى، وحسن الظن به، وفعل الأسباب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ الجملة: تعليل لما قبلها، وترغيب بالتوكل على الله، أي: فتوكل على الله؛ لأن الله يحب المتوكلين عليه، أي: يحب المعتمدين عليه وحده المفوضين أمورهم إليه، ومن أحبه الله تعالى أكرمه. نسأل الله تعالى من فضله.

قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

قوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ﴾ ﴿إِن﴾: شرطية، ﴿يَنصُرْكُمُ﴾: فعل الشرط، وقوله: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ﴾: جواب الشرط، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، أي: إن يقدر الله نصركم- كما حصل في بدر.

﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ﴾، «لا»: نافية للجنس نص في العموم، ﴿غَالِبَ﴾ نكرة في سياق الشرط فتعم، أي: إن ينصركم الله فلا أحد يغلبكم أيًا كان، ومهما كان عليه من القوة عدة وعددًا.

وهذا مما يوجب التعلق بالله تعالى وحده، وطاعته والحذر من معصيته وسبب خذلانه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦].

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ «الخذلان»: عدم النصر، بدليل مقابلته لقوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ وقوله بعده: ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ أي: وإن يقدر الله خذلانكم، ويتخل عن نصركم ويكلكم إلى أنفسكم بسبب معصيتكم له ومخالفة أمر رسول الله ﷺ كما حصل في أُحد. ومن وكل إلى نفسه هلك؛ ولهذا جاء في الدعاء: «**اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت**»(١).

﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ جملة جواب الشرط في قوله: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾

---

(١) أخرجه أبوداود في الأدب (٥٠٩٠)، من حديث عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه رضي الله عنه.

وربط بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

و«من» في قوله: ﴿فَمَن ذَا﴾ اسم استفهام بمعنى النفي مشرب بالتحدي، أي: فلا أحد ينصركم من بعده، كأنه يقول: وإن يقدر الله خذلانكم فنتحداكم أن ينصركم أحد من بعده، ولو اجتمع لكم من بأقطارها، و﴿ذَا﴾: اسم إشارة، أي: فمن هذا الذي ينصركم من بعده؟!

وفي الآية مقابلة بين قوله: ﴿يَنصُرُكُم﴾ و﴿يَخْذُلْكُمْ﴾، وبين قوله: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، وقوله: ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الواو: عاطفة، وقدم الجار والمجرور «على الله».
على متعلقه «يتوكل»؛ لإفادة الحصر، أي: وعلى الله وحده لا على غيره فليعتمد المؤمنون.

والفاء في قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ رابطة لشرط مقدر، واللام للأمر، أي: وعلى الله وحده، لا على غيره، فليعتمد المؤمنون حقًّا. وخص المؤمنين لأن إيمانهم يوجب عليهم التوكل على الله وحده، ولا إيمان لأحد بدون التوكل على الله تعالى وحده.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾.

رُوي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «فقدوا قطيفة يوم بدر، فقالوا: لعل رسول الله ﷺ أخذها. فأنزل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أي: يخون»[1].

---

(١) أخرجه أبوداود في الحروف (٣٩٧١)، والترمذي في التفسير (٣٠٠٩)، والطبري في «جامع البيان» (٦/ ١٩٤، ١٩٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٠٣)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٥٦٠١، ٥٦٠٢)- وقال الترمذي: «حسن غريب». والحديث من رواية خصيف بن عبدالرحمن. وقد قال عنه الإمام أحمد: «شديد الاضطراب». «تهذيب التهذيب» (٣/ ١٢٤). وقال ابن حجر في «التقريب»: «سيئ الحفظ خلط بآخرة» وقد اضطرب فيه خصيف فجعله تارة من حديث عكرمة عن ابن عباس، وتارة من حديث مقسم عن ابن عباس، وتارة من حديث عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس. ولهذا أورده ابن عدي في «الكامل في الضعفاء والمتروكين» (٣/ ٧٢) في ترجمة خصيف بن عبدالرحمن.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو وعاصم: ﴿يَغُلَّ﴾ بفتح الياء وضم الغين على البناء للفاعل، وقرأ الباقون: «يُغَل» بضم الياء وفتح الغين بالبناء للمفعول. و«نبي»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: وما كان لنبي من الأنبياء أن يغل. والغلول: أخذ شيء من الغنيمة خفية قبل قسمتها، ويطلق على الخيانة في كل ما يتولاه الإنسان من الأموال لغيره.

والمعنى على قراءة (يَغُل) بالبناء للفاعل، أي: وما كان لنبي من الأنبياء أن يقع منه الغلول لا شرعًا وقدرًا؛ لا غلول المال بأخذه من الغنيمة خفية أو من غيرها، ولا غلول العلم بكتمان بعض ما أنزل إليه فلا يبلغه أمته، بل هم كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩]، وقد أخذ الله عليهم الميثاق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧]. والمعنى على قراءة (يُغَل) بالبناء للمفعول، أي: ما كان لنبي أن يَغُلَّه غيره شرعًا بأن يكسب النبي ﷺ ومن معه غنيمة ثم يقوم أحد بإخفاء شيء منها وأخذه. هذا أمر محرم لا يجوز شرعًا؛ لأن الغنيمة لجميع المسلمين، لكن هذا قد يقع قدرًا، وقد وقع هذا في عهد النبي ﷺ. ففي الحديث أنه ﷺ «**رأى رجلًا يتقلب في النار في بردة غلها**»(١).

وقيل: النفي بمعنى النهي، أي: لا يُغله أحد. وقيل: معنى (يُغَل) يتهم بالغلول.

﴿وَمَن يَغْلُلْ﴾ الواو: عاطفة، و«من»: شرطية تفيد العموم. ﴿يَغْلُلْ﴾: فعل الشرط، أي: ومن يغلل بإخفاء المال وأخذه من نبي أو غيره- على سبيل افتراض وقوع الغلول من أي نبي؛ لأن الله نفى أن يقع ذلك من الأنبياء شرعًا وقدرًا.

﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ﴿يَأْتِ﴾: فعل الشرط مجزوم بحذف الياء، والكسرة قبلها دليل عليها.

و«ما» في قوله: ﴿بِمَا﴾: موصولة، تفيد العموم، أي: يأت بجميع الذي غلّ وأخفى

---

(١) سيأتي ذكره وتخريجه بتمامه، قريبًا.

وأخذ من المال يوم القيامة على رؤوس الأشهاد حاملًا له على ظهره، حيوانًا كان أو متاعًا أو غير ذلك؛ فضيحة له وعذابًا معنويًّا له يوم القيامة.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ ﴿ثُمَّ﴾: عاطفة، أي: ثم بعد أن تأتي كل نفس بما غلّت يوم القيامة فضيحة لها، ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ ﴿مَّا﴾: موصولة أو مصدرية، أي: تعطى كل نفس من أهل الغلول أو غيرهم الذي كسبت، أو كسبها وافيًا، أي: تعطى جزاء عملها وافيًا، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

وجعل الكسب مكان الجزاء؛ لبيان أن الجزاء من جنس العمل والكسب، وبحسبه.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: حال، أي: حال كونهم لا يظلمون، أي: لا ينقصون من أجورهم وحسناتهم شيئًا، ولا يزادون في سيئاتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠].

وذلك لكمال عدل الله عز وجل؛ لأن الصفات المنفية تدل على كمال ضدها، فنفي الظلم عنه- عز وجل- يدل على كمال عدله، كما أن نفي الموت عنه في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، يدل على كمال حياته. وهكذا.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه: الإنكار والنفي.

والفاء: عاطفة، وقدمت همزة الاستفهام؛ لأن لها الصدارة، والفاء العاطفة محلها في الأصل قبل الهمزة، والتقدير: «فأمن اتبع».

وقيل: الهمزة داخلة على جملة مقدرة تناسب المقام.

و«من»: اسم موصول، أي: أفيستوي ويكون الذي اتبع وطلب رضوان الله بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه، من ترك الغلول وغيره في جزائه في الحياة وبعد الممات، فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه.

﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الكاف: للتشبيه، بمعنى «مثل»، و﴿بَآءَ﴾ بمعنى: رجع ﴿بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الباء: للملابسة والمصاحبة، وسخط الله: غضبه وعدم رضاه،

أي: كالذي رجع متلبسًا بغضب من الله بتركه ما أمر الله به، وارتكابه ما نهى الله عنه من الغلول وغيره، واستحق عقاب الله، وعظيم عذابه.

وبين قوله: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ وقوله: ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ مقابلة.

﴿ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ الواو: عاطفة، أي: ومرجعه الذي يأوي إليه ويستقر فيه، ﴿ جَهَنَّمُ ﴾: اسم من أسماء النار، سميت به؛ لشدة ظلمتها وجهمتها وحرها وبُعد قعرها.

﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾، «بئس»: فعل جامد؛ لإنشاء الذم، و﴿ٱلْمَصِيرُ ﴾ فاعله، وهو المرجع، والمآل والمآب.

والمخصوص بالذم محذوف، أي: وبئس المصير ﴿جَهَنَّمُ ﴾، أو وبئس المصير «مصيره».

فنفى عز وجل أن يكون من اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله، أي: لا يستوي هذا وهذا، أي: لا يستويان في حكم الله وجزائه، لا في الدنيا ولا في الآخرة وشتان بينهما، فالأول: مؤمن، والثاني: كافر، وشتان بين عمل كل منهما، فالمؤمن: اتبع في عمله رضوان الله، والكافر: اتبع في عمله ما يسخط الله، وشتان بين جزاء كل منهما فالمؤمن: مأواه جنات النعيم، والكافر: مأواه جهنم وبئس المصير.

قوله تعالى: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

نفى عز وجل أن يكون من اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله، ثم أتبع ذلك ببيان أنهم درجات عند الله.

والضمير في قوله: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ ﴾ يعود إلى الفريقين مَن اتبع رضوان الله ومَن باء بسخط من الله. وجاء بضمير الجمع ﴿ هُمْ ﴾ مراعاة لمعنى «من» في قوله: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ ﴾، وقوله: ﴿كَمَنۢ بَآءَ ﴾؛ لأن معناها الجمع.

﴿دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي: منازل مختلفة متفاوتة عند الله تعالى بحسب تفاوتهم في أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ [الأنعام:١٣٢].

فالذين اتبعوا رضوان الله في أعالي الدرجات وكل مَن كان منهم لرضوان الله أتبع كانت درجته أرفع.

والذين باؤوا بسخط في أسافل الدركات، وكل مَن كانت مباءته بسخط الله أعظم كانت دركته أسفل.

فهم درجات عند الله، فالذين آمنوا فوق الذين كفروا، وأهل الإيمان درجات في إيمانهم، ودرجات في نعيمهم وثوابهم، وأهل الكفر درجات في كفرهم، ودرجات في عذابهم وعقابهم.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ أي: مطلع على الذين يعملون وعلى عملهم مشاهد له عالم به، لا يخفى عليه منه شيء، ظاهرًا كان أو باطنًا، حقًّا كان أو باطلًا.

وفي هذا وعد لمن عمل صالحًا، ووعيد لمن عمل خلاف ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- رحمه الله- عز وجل- بالنبي ﷺ وبأمته بأن جعله لينًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ وفي هذا امتنان من الله تعالى عليه ﷺ وعلى أمته.

٢- أن اللين صفة محمودة امتدح الله بها نبيه ﷺ وجعلها بسبب رحمته- عز وجل- له ولأمته، لهذا ينبغي لولاة أمور المسلمين وأصحاب المسؤوليات في الأمة كبيرها وصغيرها الاتصاف بها، وقد قال ﷺ: «**اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به**»[1].

ولكن اللين الممدوح ما كان لينًا من غير ضعف- مع قوة من غير عنف، كما كانت صفته ﷺ؛ ولهذا لما أنشد النابغة الجعدي قصيدته المشهورة. والتي ختمها بقوله:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

قيل: إن رسول الله ﷺ قال له حين أنشده هذين البيتين: «**أحسنت أو أجدت، لا يفضض الله فاك**»، قيل: فعاش مئة وعشرين سنة لم تسقط له سن، أو كلما سقطت له سن نبتت[2].

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٢٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) ومطلع هذه القصيدة:

خليلي غضا ساعة وتهجرا ... ولوما على ما أحدث الدهر أو ذرا

٣- امتداح الله تعالى لنبيه ﷺ بأن كان لينًا لأمته غير فظ ولا غليظ القلب؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾.

٤- ذم الفظاظة وغلظة القلب وقساوته، وأنها سبب لنفور الناس ممن اتصف بها، والحيلولة دون استفادة الناس من علمه ودعوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾.

٥- ميل النفوس بطبيعتها لمن لان لها وأحسن التعامل معها، ونفورها ممن كان بضد ذلك. وكما قيل:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان[1]

٦- الترغيب في لين الجانب وحُسن الخلق، والتحذير من الفظاظة وغلظة القلب وقساوته وسوء الخلق.

٧- ينبغي للآباء والموجهين والمربين والمعلمين والدعاة وغيرهم أن يكون لهم أسوة بالرسول ﷺ في لين جانبه، وحُسن خلقه في تعاملهم، وأن يبتعدوا كل البعد عن الفظاظة والغلظة والجفاء وسوء الخلق؛ لكي تثمر جهودهم، فكم من مربٍ وعالم وداعية لم يستفد الناس من علمه، ولا من جهوده بسبب فظاظته وغلظته وسوء خلقه. وإذا كان الرسول ﷺ المؤيد بالوحي لو كان فظًا غليظ القلب لانفض أصحابه من حوله. فكيف بمن دونه ﷺ.

ومن المؤسف أن تجد كثيرًا من دعاة النصرانية وغيرها من الملل من هم ألين في التعامل وأحسن خلقًا من كثير من دعاة الإسلام.

=

وفيها قوله:

بلغنا السماء مجدُنا وجدودنا ... وإنا لنبغي فوق ذلك مظهرا

قيل: لما أنشد هذا البيت قال له النبي ﷺ: «**أين المظهر يا أبا ليلى؟**»، قال: الجنة. قال: «**أجل، إن شاء الله**». انظر: «ديوان النابغة الجعدي» ص(٦٩)، وانظر: «المطالب العالية» (١٦/ ٣٨٣ رقم ٤٠٣٢)، «أحاديث الشعر» (ص١٠٩)، «مجمع الزوائد» (٨/ ١٢٦)، «كنز العمال» (١٣/ ٦٠٠ حرف النون/ ٣٧٥رقم ٤٢).

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «حياة الحيوان الكبرى» (١/ ٢٥٠).

٨- فضل العفو عن الناس والترغيب فيه؛ لأن الله- عز وجل- أمر به رسوله ﷺ فقال: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾، كما امتدح به المتقين في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤]، وأمر به ورغب فيه، فقال: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ [النور:٢٢]، وتكفَّل بثوابه إذا كان على سبيل الإصلاح، فقال تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى:٤٠].

٩- أن ما كان من حق للرسول ﷺ ولو خاصًّا فهو من حق الله تعالى؛ لأن الله تعالى لما أمر الرسول ﷺ بالعفو عن حقه بقوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ أمره ﷺ بالاستغفار عن حق الله تعالى فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾، ولأن الله تعالى هو الذي أوجب حق الرسول ﷺ- كما أوجب حقوق غيره من الخلق، فكل ذلك من حق الله، والتقصير فيه تقصير في حق الله.

١٠- ينبغي الجمع بين العفو والإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ فالاستغفار بعد العفو من قبيل الإحسان.

١١- أمر الله- عز وجل- للنبي ﷺ باستشارة أصحابه، وذلك والله أعلم- فيما ليس فيه وحي؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾، وذلك لما في مشورته لهم من تطييب خواطرهم، واستظهار آرائهم، وتعليم الأمة المشورة.

١٢- مشروعية الشورى في الإسلام؛ لأن الله- عز وجل- أمر بها رسوله ﷺ فقال: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾، والأصل في الأمر: الوجوب، وقد يكون للندب حسب الحاجة إلى المشورة، وإذا كان الرسول ﷺ مأمورًا بالاستشارة فغيره من ولاة أمور الأمة من باب أولى، فيتأكد في حقهم استشارة من تحت ولايتهم في أمور الأمة، فيستشار العلماء فيما يشكل من أمور الدين، ويستشار العارفون بالسياسة وشؤون القتال والحرب فيما يعرفون، ويستشار كل فيما يخصه ويختار للشورى في الأمور الهامة أهل الدين والنصح والعقل والحنكة وسداد الرأي والخبرة والتجربة.

ويجب على من استشير محض النصح لمن استشاره؛ لأن المستشار مؤتمن، كما قال

ﷺ: «**المستشار مؤتمن**»[(١)].

وقال ﷺ: «**الدين النصيحة. قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[(٢)]. والنصيحة للرسول ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم- وإن كانت مطلوبة دائمًا إلا أنها في حال طلبهم المشورة والنصيحة أوجب وأوكد.

١٣- سمو مبادئ الإسلام وتعاليمه وأحكامه في أمره بالشورى لما فيها من المصالح العظيمة.

فهي في المقام الأول: طاعة لله تعالى، وهي في المقام الثاني: صمام أمان للأمة بإذن الله تعالى، توفق بالأخذ بها إلى الرأي الأرشد والأصوب في قراراتها في قضاياها ومشكلاتها الداخلية والخارجية، والسلامة من المزالق الخطيرة التي قد تحصل بسبب الأنانية واستبداد المسؤول أو ولي الأمر وتفرده بالرأي؛ لأن الفرد مهما كان عليه من الحذق والدهاء وحُسن التدبير سيفوته الكثير، ويصعب عليه وحده المقارنة بين المصالح والمفاسد، والموازنة بين الإيجابيات والسلبيات.

وهي في المقام الثالث: سبب لاجتماع الأمة وسلامتها من الاختلاف والتفرق بسبب الاعتراض على ما يصدر من ولي الأمر من قرارات؛ لعلم الناس أن هذه القرارات قد أخذ فيها رأي أهل الحل والعقد والرأي والمعرفة في الأمة.

وبهذا تسلم الأمة من الاضطراب والفوضى، وتسد الطريق أمام المتربصين بها من الداخل والخارج.

وقد أحسن حافظ إبراهيم- رحمه الله- في قوله في قصيدته العمرية[(٣)] التي تعتبر من روائع الشعر العربي مشيدًا بمواقف عمر- رضي الله عنه- في جعل الأمر بعده شورى:

---

(١) أخرجه الترمذي في الأدب (٢٨٢٢)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٤٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن».

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٥٥)، وأبوداود في الأدب (٤٩٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩٧)، من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

(٣) انظر: «ديوانه» (ص٩١).

يا رافعًا راية الشورى وحارسها	جزاك ربك خيرًا عن محبيها
لم يلهك النزع عن تأييد دولتها	و للمنية آلام تعانيها
لم أنس أمرك للمقداد يحمله	إلى الجماعة إنذارًا وتنبيها
إن ظل بعد ثلاث رأيهم شعبًا	فجرد السيف واضرب في هواديها
فاعجب لقوة نفس ليس يصرفها	طعم المنية مرًا عن مراميها
درى عميد بني الشورى بموضعها	فعاش ما عاش يبنيها ويعليها
و ما استبد برأي في حكومته	إن الحكومة تغري مستبديها
رأي الجماعة لا تشقى البلاد به	رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

كما أن المشورة دليل على رجحان عقل المستشير وحكمته وتواضعه، وحُسن قصده في البحث عن الأصلح غالبًا، وفيها مصلحة عظيمة له؛ لأنه بالاستشارة يضيف إلى عقله وتجاربه عقول مَن استشارهم وتجاربهم ويأخذ خلاصة أفكارهم، فيسلم من الاستبداد بالرأي الذي قد يكون هو أول ضحاياه. وفيها ستر لعيوبه وعدم تحميله المسؤولية وحده عند الخطأ.

كما أن المشورة أيضًا مصلحة للمستشار تجعله يشعر بقيمته في الأمة، ويشارك في حل قضاياها ومشكلاتها، فينشط في تقديم محض المشورة والنصح لها، ولكل من استشاره.

١٤- ينبغي بعد المشورة والعزم على الأمر التوكل على الله تعالى والمضي قدمًا فيه، بعد الجمع بين فعل السبب والاعتماد عليه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

١٥- ينبغي الحذر من التردد الذي به فساد الرأي؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾. فينبغي الجمع بين تدبر الأمر وإبرام الرأي وعدم العجلة، وبين العزم والتوكل على الله والمضي قدمًا وعدم التردد، كما قال الشاعر:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا تدبر	فإن فساد الرأي أن تتعجلا[1]

وقال الآخر:

---

(١) البيت لعيسى بن موسى. انظر: «زهر الآداب» (١/ ٢٥٧).

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة　　فإن فساد الرأي أن تترددا[(١)]

١٦- أن النبي ﷺ قد يحتاج كغيره من البشر إلى المشورة، وخاصة فيما ليس فيه وحي؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

١٧- محبة الله تعالى للمتوكلين عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

١٨- إثبات المحبة لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته، ومن آثارها الثواب، وليست هي الثواب كما يقوله منكروها من أهل البدع.

١٩- عدم محبة الله تعالى للذين لا يتوكلون عليه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي: ولا يحب من لم يتوكل عليه.

٢٠- فضل التوكل على الله والترغيب فيه؛ لأن الله رتب عليه محبته تعالى لأهله.

٢١- أن من قدّر الله نصره فلا غالب له؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾.

وتحقُّق نصر الله مرهون بالإيمان وعمل الصالحات، وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ﴾ [النور:٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج:٤٠-٤١].

٢٢- كمال قوة الله- عز وجل وقدرته، ووجوب طاعته والتعلق به والاستعانة به وحده في طلب النصر وغير ذلك.

٢٣- أن من قَدَّر الله خذلانه فلا ناصر له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ﴾.

---

(١) البيت للمنصور. انظر: «زهر الآداب» (١/ ٢٥٧).

٢٤- وجوب الحذر من أسباب الخذلان، بمعصية الله تعالى، ومخالفة أمره، وأمر رسوله ﷺ.

٢٥- وجوب التوكل على الله تعالى وحده، والاعتماد عليه دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

٢٦- أن التوكل على الله من مقتضيات الإيمان ومن صفات المؤمنين خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

٢٧- نفي وقوع الغلول من الأنبياء شرعًا وقدرًا، فلا يجوز وقوعه منهم شرعًا، ولا يمكن أن يقع منهم قدرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾.

٢٨- أنه لا يجوز شرعًا لأحد أن يغل من الغنيمة التي اكتسبها النبي في حربه؛ لقوله تعالى: (أن يُغَلَّ) على قراءة ضم الياء وفتح الغين على البناء للمفعول.

٢٩- شدة حرمة الغلول؛ لأن الله- عز وجل- نزَّه منه أنبياءه، وتوعد عليه بأن من يغلل يأت بما غل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾. فهو محرم بالإجماع وكبيرة من كبائر الذنوب.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال:حدثني عمر بن الخطاب، قال: «لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ، فقالوا: فلان شهيد، فلان شهيد، حتى أتوا على رجل، فقالوا: فلان شهيد. فقال رسول الله ﷺ: «**كلا، إني رأيته في النار في بردة غلها- أو عباءة**». ثم قال رسول الله ﷺ: «**يا ابن الخطاب، اذهب فناد في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون**». قال: فخرجت فناديت، ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون»[1].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قام فينا رسول الله ﷺ يومًا فذكر الغلول، فعظَّمه وعظَّم أمره، قال: «**لا أُلْفَيَنَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، فيقول: يا رسول الله، أغثني. فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا، قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حَمْحَمَة، فيقول: يا رسول الله، أغثني. فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا، قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم**

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- غلظ تحريم الغلول (١١٤)، وأحمد (١/ ٣٠).

القيامة على رقبته رقاع تخفق، فيقول: يا رسول الله، أغثني. فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا، قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله، أغثني. فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا، قد أبلغتك»(١).

وعن عدي بن عميرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطًا فما فوقه كان غلولًا يأتي به يوم القيامة**». قال: فقام إليه رجل أسود من الأنصار كأني أنظر إليه، فقال: يا رسول الله، اقبل عني عملك. قال: «وما»؟ قال: سمعتك تقول كذا وكذا. قال: «**وأنا أقوله الآن، من استعملناه منكم على عمل فليجئ بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذ وما نهي عنه انتهى**»(٢).

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: كان على ثَقَلِ النبي ﷺ رجل يقال له كَرْكَرَةُ، فمات، فقال رسول الله ﷺ: «**هو في النار**» فذهبوا ينظرون إليه، فوجدوا عباءة قد غلها»(٣).

وعن زيد بن خالد الجهني- رضي الله عنه- أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ توفي يوم خيبر فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**صلوا على صاحبكم**» فتغيرت وجوه الناس لذلك. فقال: «**إن صاحبكم قد غلّ في سبيل الله**» ففتشنا متاعه فوجدنا خرزًا من خرز يهود لا يساوي درهمين»(٤).

عن أبي حميد الساعدي- رضي الله عنه- قال: «استعمل رسول الله ﷺ رجلًا من الأزد يقال له: ابن اللّتْبِية على الصدقة، فجاء، فقال: هذا لكم، وهذا أهدي إلي. فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فقال: «ما بال العامل نبعثه فيجيء فيقول: هذا لكم وهذا أهدي إلي. أفلا جلس في بيت أبيه وأمه، فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده، لا يأتي أحد منكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته، إن كان بعيرًا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تَيْعَر. ثم رفع يديه حتى

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٧٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٣١)، وأحمد (٢/ ٤٢٦).
(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٣٣)، وأبوداود في الأقضية (٣٥٨)، وأحمد (٤/ ١٩٢).
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد- القليل من الغلول (٣٠٧٤)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٤٩).
(٤) أخرجه أبوداود في الغلول- تعظيم الغلول (٢٧١٠).

رأينا عفرة إبطيه، ثم قال: اللهم هل بلغت ثلاثًا»[١].

٣٠- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٣١- إثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٣٢- كمال قدرة الله- عز وجل- حيث يجعل الغال يأتي بما غل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهو- عز وجل- على كل شيء قدير.

٣٣- موافاة كل نفس ومجازاتها بما عملت من غير زيادة أو نقصان؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾.

وهذا لا ينافي مجازاة الإنسان بثواب دعاء غيره له، وثواب القربات التي أهديت له أو تُصدق بها عليه، من صدقة أو حج وغير ذلك؛ لثبوت ذلك بالأدلة الصحيحة.

كما لا ينافي مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف؛ إلى أضعاف كثيرة- كما ثبت بالأدلة.

٣٤- انتفاء الظلم في محاسبة الخلائق يوم القيامة؛ لأن حسابهم عند الحَكم العَدل الذي لا يَظلم أحدًا سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٣٥- شتان بين من اتبع رضوان الله تعالى؛ ونال رضى الله تعالى، وسعد في الدنيا والآخرة، وبين من رجع بسخط من الله، فشقي في الدنيا والآخرة وكان مأواه إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: لا يستوي هذا وهذا.

٣٦- إثبات صفة الرضا لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

٣٧- إثبات صفة السخط لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٣٨- أن مَن سخط الله تعالى عليه عذَّبه بالنار، وانتقم منه؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَنۢ بَآءَ

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة (٩٧)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٢)، وأبوداود في الخراج (٢٩٤٦)، وأحمد (٥/٤٢٣-٤٢٤).

﴿بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥].

٣٩- وجوب الحذر من التعرض لسخط الله تعالى وغضبه؛ لأنه سبب للمصير إلى النار.

٤٠- إثبات النار وأنها موجودة الآن، وأن من أسمائها «جهنم»؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

٤١- أن النار مظلمة شديدة القعر شديدة الحر؛ لهذا سميت «جهنم».

٤٢- ذم النار وأنها بئس المصير والمرجع؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

٤٣- أن الناس درجات عند الله، فأهل الإيمان فوق أهل الكفر، وأهل الإيمان فيما بينهم درجات في إيمانهم، وفي نعيمهم، كما أن أهل الكفر درجات في كفرهم، ودرجات ودركات في عذابهم.

٤٤- اطلاع الله- عز وجل- التام وعلمه الواسع بما يعمل العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ وفي هذا وعد لمن أحسن العمل، ووعيد لمن أساء؛ لأن مقتضى علمه مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)﴾.

نفى عز وجل في الآية السابقة أن يستوي مَن اتبع رضوان الله بمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير، ثم أتبع ذلك ببيان منته على المؤمنين في بعث الرسول ﷺ منهم، وإنقاذهم به وبما جاء به من الوحي والعلم مما كانوا فيه من الضلال المبين، وهي المنة العظمى والنعمة الكبرى، التي هي أصل كل نعمة ومنة.

كما قال تعالى في سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢].

وهذا استجابة لدعوة إبراهيم- عليه السلام- بقوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩].

قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد مَنّ الله على المؤمنين، أي: أنعم عليهم وتفضل، و«قد» للتحقيق، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، و«قد».

﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ﴿إِذْ﴾: ظرفية بمعنى «حين» أي: حين بعث فيهم رسولًا من أنفسهم ويحتمل أن تكون «إذ» للتعليل، أي: لأنه بعث فيهم رسولًا

من أنفسهم، ففيها بيان لمحل المنة ومبدئها وهو حين بعث ﷺ فيهم، وفيها تعليل للمنة، أي: لأنه بعثه فيهم.

ومعنى ﴿بَعَثَ فِيهِمْ﴾ أي: أرسل فيهم، وسميت الرسالة «بعثًا»؛ لأن بها إخراج الناس من حال إلى حال، كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١].

﴿فِيهِمْ﴾ «في» للظرفيه؛ لأن النبي ﷺ بُعث في سِطَة المؤمنين نسبًا وقرابة؛ ولهذا قال الله تعالى له: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣].

﴿رَسُولًا﴾ أي: مرسلًا من عند الله- عز وجل- ونكر للتعظيم، أي: عظيم القدر، جليل الشأن.

﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: منهم ومن جنسهم، فهو منهم نسبًا يتكلم بلسانهم، وبشر مثلهم، كما قال تعالى في سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الآية:٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم:٢١] أي: من جنسكم، فكونه منهم ومن أنفسهم أبلغ في المنة، وأتم للنعمة؛ ليألفوه ويفهموا خطابه، ويكون أنصح لهم وأشفق عليهم، بل؛ ولتقوم الحجة به عليهم، بخلاف ما لو كان من غير جنسهم، كأن يكون من الملائكة أو الجن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩].

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾، الجملة في محل نصب، صفة لـ﴿رَسُولًا﴾، والمعنى: يقرأ عليهم آياته، وهو القرآن الكريم.

والتلاوة: تطلق على التلاوة لفظًا بقراءة القرآن عليهم، وتطلق على التلاوة معنى ببيان معانيه لهم، وتطلق على التلاوة حكمًا ببيان أحكامه لهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

وفي حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في

ركوعه وسجوده: سبحانك ربنا وبحمدك، يتأول القرآن»[1] يعني: يعمل به ويطبقه.

لكن قد يحسن هنا أن يحمل قوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ على تلاوة آيات القرآن وقراءتها عليهم لفظًا؛ لقوله بعده: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: ويطهرهم طهارة معنوية بأمرهم بالتوحيد والإيمان والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة، ونهيهم عن الشرك والمعاصي، والأخلاق الذميمة، مما كانوا عليه في الجاهلية.

كما يطهرهم من الأحداث والنجاسات الحسية بأمرهم بالوضوء من الحدث الأصغر والغسل من الحدث الأكبر، والحث على النظافة عمومًا.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن، سمي بذلك؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٨-٧٩].

ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٣-١٦].

ومكتوب بالمصاحف بأيدي المؤمنين، والمعنى: ويعلمهم القرآن؛ ألفاظه، ومعانيه، وأحكامه، والعمل بها.

وقال بعضهم: المراد بالكتاب في الآية «الكتابة» أي: ويعلمهم الكتابة؛ لأن العرب كانوا أميين، فلما نزل القرآن العظيم تعلموا الكتابة فصاروا يكتبونه للرسول ﷺ، وبهذا تعلموا الكتابة.

ولا منافاة بين القولين، فالرسول ﷺ علمهم القرآن بألفاظه ومعانيه وأحكامه وعلمهم الكتابة بأمره لهم بكتابة القرآن الكريم، فتعلموا القرآن وتعلموا الكتابة.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والمراد بالحكمة عند أكثر أهل

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨١٧)، ومسلم في الطهارة (٤٨٤)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٧)، والنسائي في التطبيق (١١٢٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٨٩).

العلم: السنة، أي: ويعلمهم القرآن والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣]، أي: القرآن والسنة.

وقال بعض أهل العلم: المراد بالحكمة في الآية: الحكمة في مشروعية الأحكام، أي: ويعلمهم الحكمة في مشروعية الأحكام، أي: أسرار الشريعة كحكمة مشروعية الصلاة وأنها صلة بين العبد وربه، ونحو ذلك. وحكمة مشروعية الزكاة وأن بها تزكية المال، وتزكية نفس الغني ونفس الفقير- وهكذا.

ولا منافاة بين القولين فيجوز حمل قوله: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ على تعليم السنة، وتعليم أسرار الشريعة، والحكم في مشروعية الأحكام مما يقوي الإيمان ويزيده.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ الواو: حالية، و«إن» مخففة من الثقيلة؛ ولهذا جاءت اللام في خبرها ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، واسمها: ضمير الشأن محذوف، والضمير في ﴿كَانُوا۟﴾ يعود إلى المؤمنين.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بعثة الرسول ﷺ فيهم.

﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ اللام هي الفارقة التي تشعر بكون «إن» مخففة، و«في» للظرفية.

﴿ضَلَٰلٍ﴾ بُعد وتيه عن الحق وجهل.

﴿مُّبِينٍ﴾ أي: بيّن واضح ظاهر لكل ذي بصيرة وعقل.

أي: وإنهم كانوا من قبل بعثته ﷺ لفي ضلال وتيه وبُعد عن الحق بيّن واضح، قد أحاط بهم إحاطة الظرف بمظروفه وإحاطة السوار بالمعصم- وفي هذا تعظيم لمنة الله تعالى ونعمته عليهم، حيث أنقذهم به من هذا الضلال المبين.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

قوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ الهمزة للاستفهام، وفيه معنى الإنكار والتقريع والتقرير والتعجب، والواو: عاطفة، وقدمت همزة الاستفهام؛ لأن لها الصدارة، أي: وألما أصابتكم مصيبة، و«لما» هنا: شرطية بمعنى: «حين» أي: أوحين أصابتكم مصيبة،

و﴿أَصَٰبَتۡكُم﴾: فعل الشرط، وجملة ﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾: جواب الشرط.

ومعنى ﴿أَصَٰبَتۡكُم﴾: حلت ووقعت بكم.

﴿مُّصِيبَةٌ﴾ هي ما حصل لهم يوم أُحد من قتل سبعين رجلًا منهم وإدالة المشركين عليهم.

والمصيبة في الأصل: تشمل كل ما يصيب الإنسان من نقص، في النفس والأهل والولد والمال وغير ذلك.

﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ الجملة في محل رفع صفة لـ﴿مُّصِيبَةٌ﴾، وفيها تسلية لهم وتخفيف لمصابهم، بتذكيرهم بما أصابوه قبل من عدوهم.

و﴿قَدۡ﴾: للتحقيق، أي: قد أصبتم مثلها مرتين من عدوكم- يعني يوم بدر حيث قتل المسلمون منهم سبعين رجلًا، وأسروا سبعين، فالمجموع مائة وأربعون، كُثْر من قتل من المسلمين يوم بدر مرتين، وجعل الأسرى كالقتلى؛ لأن الأسر لا يقل عن القتل لما فيه من إذلال المأسور، وكونه عرضة للقتل؛ لأن الإمام مخير في الأسرى بين الفداء بمال أو بأسير مسلم، أو الرق، أو القتل، أو المن عليهم بإطلاق سراحهم بلا شيء، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [محمد:٤].

﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾، ﴿أَنَّىٰ﴾ هنا: استفهامية، فيها معنى الإنكار والتعجب.

﴿هَٰذَاۖ﴾ أي: ما حصل لهم من قتل وهزيمة، أي: من أين أصابنا هذا الذي أصابنا، كما في قوله: تعالى: ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ [آل عمران:٣٧]. أي: من أين لك هذا الرزق؟

وقال بعضهم: المعنى: كيف أصابنا هذا المصاب ونحن نقاتل مع رسول الله؟ كقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة:٢٤٧]. أي: كيف يكون له الملك علينا؟

﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ الأمر للنبي ﷺ ﴿هُوَ﴾ أي: الذي أصابكم ﴿مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ ﴿مِنۡ﴾ للسببية، أي: هو بسبب منكم، وهو ما حصل منهم من الفشل

والتنازع والعصيان، ومخالفة الرماة أمر الرسول ﷺ وتركهم مواقعهم، التي أمرهم الرسول ﷺ بلزومها فوق الجبل، حيث ظنوا أن المعركة قد انتهت، فنزلوا للمشاركة في الغنائم، فحصل ما قدر الله تعالى من مصاب على المسلمين، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى:٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ ﴾ [النساء:٧٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ ختم عز وجل الآية بهذه الجملة، للدلالة على أنه سبحانه لو شاء لنصركم؛ لأنه على كل شيء قدير، ينصر مَن يشاء بفضله، ويخذل مَن يشاء بعدله، وله في ذلك كله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ ﴾ [محمد:٤]، ويوضح هذا ويبينه قوله بعده: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾.

«إِنَّ»: حرف توكيد ونصب، ولفظ الجلالة اسمها، و﴿قَدِيرٞ ﴾ خبرها، وهو على وزن «فعيل»، يدل على كمال قدرته وعظمته.

وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ متعلق بـ «قدير»، وقدم عليه؛ لتأكيد عموم قدرته على كل شيء.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾.

ذكَّر الله- عز وجل- في الآية السابقة المؤمنين، تسلية لهم وتخفيفًا لمصابهم في «أُحد» بأنهم قد أصابوا مثليه من عدوهم- يعني في بدر، مبينًا أن ما أصابهم في أُحد هو من عند أنفسهم، ثم أتبع ذلك ببيان أن ذلك بإذن الله- عز وجل- الكوني وقضائه القدري، فجمع لهم بين بيان أنهم السبب فيما أصابهم يوم أُحد، مع تسليتهم وتخفيف مصابهم بذكر ما أصابوا قبل من عدوهم، وبيان أن ما أصابهم إنما هو بقضاء الله وقدره.

قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: شرطية، و﴿أَصَٰبَكُمۡ﴾ فعل الشرط، ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ جواب الشرط.

أي: وما أصابكم من القتل والهزيمة ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾، أي: يوم التقى جمع

المسلمين وجمع المشركين، أي: جيش المسلمين وجيش المشركين، وذلك في أُحد.

﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: جواب الشرط، وربط بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، أي: فهو كائن بإذن الله، أي: بإذن الله الكوني وقضائه القدري، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٤٥].

والباء في قوله: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ للسببية؛ ولهذا صح أن يعطف عليه قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، أي: وليعلم الله المؤمنين، أي: وليتبين ويتميز ويظهر أهل الإيمان حقًا الذين صدقوا في إيمانهم، وقالوا فيما أصابهم إنه بقدر الله ورضوا به، وتابوا إلى الله، مما سبب لهم ذلك، وهو العصيان والمخالفة.

فالعلم هنا علم ظهور، أي: وليعلم المؤمنين علمًا يترتب عليه الجزاء وذلك بعد أن يقع ويظهر منهم الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢].

وهو سبحانه وتعالى قد علم أزلًا المؤمنين والمجاهدين من غيرهم، أي: علم من سيؤمن ومن سيجاهد، ومن ليس كذلك، ولكنه لا يترتب على هذا العلم ثواب ولا عقاب.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ معطوف على ما قبله.

والذين نافقوا هم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وعلى رأسهم عبدالله بن أبي فقد كان ممن لا يرى الخروج إلى أُحد، ولما خرج ﷺ انخذل عبدالله بن أبي أثناء الطريق ورجع بثلث الجيش.

قال ابن القيم[1]: «ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير، وهي أن يعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية يتميز فيه أحد الفريقين عن الآخر تميزًا ظاهرًا، وكان من حكمة هذا التقدير تكلم المنافقين بما في نفوسهم فسمعه المؤمنون، وسمعوا رد الله

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٢٧).

عليهم، وجوابه لهم، وعرفوا مؤدى النفاق وما يؤول إليه».

﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾ الجملة: معطوفة على ﴿نَافَقُوا﴾، أو حال على تقدير: «قد»، أي: وقد قيل لهم: تعالوا، «أو»: استئنافية، وأضمر القائل في قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾؛ ليعم كل من قال لهم ذلك، سواء الرسول ﷺ أو غيره، والضمير (لهم) يعود إلى الذين نافقوا.

﴿تَعَالَوْا﴾ أي: هلموا وأقبلوا.

﴿قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: قاتلوا وجاهدوا؛ لإعلاء كلمة الله، كما قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[(١)].

﴿أَوِ ادْفَعُوا﴾ ﴿أَوِ﴾: عاطفة، والجملة: معطوفة على ﴿قَاتِلُوا﴾، أي: ادفعوا العدو عن أنفسكم وحرماتكم وأموالكم وأوطانكم.

أي: إن لم تكن لديكم رغبة في القتال في سبيل الله، فعلى الأقل ادفعوا العدو عن أنفسكم وحرماتكم وأموالكم وأوطانكم.

﴿قَالُوا﴾ أي: قال هؤلاء المنافقون لمن يقول لهم: ﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾.

﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ ﴿لَوْ﴾: شرطية، ﴿نَعْلَمُ﴾: فعل الشرط، وجوابه ﴿لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ أي: قال هؤلاء المنافقون؛ تبريرًا لانخذالهم ورجوعهم من الجيش وتركهم القتال: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ أي: لو نعلم قتالًا يحصل بينكم وبين العدو ﴿لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ وذهبنا معكم، ولكننا لن نتبعكم لعلمنا أنه لن يكون هناك قتال. وهم في الحقيقة يعلمون أنه سيحصل قتال؛ لأن المشركين جاؤوا من بلاد بعيدة، وهم يتحرقون غيظًا على المسلمين، بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر، وهم أضعاف المسلمين.

وقيل: معنى قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾ أي: ما هو إلا إلقاء النفس في التهلكة.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: هم للكفر في هذا اليوم أو هذا الوقت الذي انخذلوا

---

(١) سبق تخريجه.

فيه عن المسلمين، ورجعوا وبرروا لأنفسهم بقولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾.

﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾، لنفاقهم، ولهذا قال:

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾: الجملة: استئنافية لا محل لها، أو في محل نصب على الحال. أي: يقولون قولًا ظاهرًا بأفواههم، أي: بألسنتهم، من دعوى الإيمان والتبرير الكاذب لانخذالهم بقولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ ونحو ذلك.

﴿مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ «ما» موصولة، أو نكرة موصوفة، أي: الذي ليس في قلوبهم، أو قولًا ليس في قلوبهم من الكفر، والعلم بأنه سيقع قتال ونحو ذلك؛ لأن القول عند الإطلاق ما تواطأ عليه القلب واللسان.

وقيل: إن قوله: ﴿بِأَفْوَاهِهِم﴾ للتأكيد والمبالغة، كما يقال: «أبصرت بعيني، وسمعت بأذني».

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ ﴿أَعْلَمُ﴾ أفعل تفضيل، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي يكتمون أو بكتمانهم، ﴿يَكْتُمُونَ﴾: يخفون ويضمرون ويسرون.

أي: والله أعلم من غيره بالذي يخفون ويضمرون في قلوبهم من الكفر ونحو ذلك؛ ولهذا فضحهم عز وجل، وبيّن أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ ﴿ الَّذِينَ ﴾ هنا صفة لـ«الذين» في قوله: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ [آل عمران:١٦٧].

﴿قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: قالوا لإخوانهم ظاهرًا ممن استشهدوا يوم أُحد؛ لأن المنافقين إخوان في الظاهر للمسلمين، وإن كان بينهم في الباطن أبعد مما بين المشرق والمغرب، وشتان بين أهل الكفر وأهل الإيمان، وقيل: المراد إخوانهم في النسب.

واللام في قوله: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ بمعنى: «عن» أو بمعنى: «في»؛ لأن «إخوانهم» هؤلاء قد ماتوا. فالمعنى: قالوا عن إخوانهم أو في إخوانهم- أي: بعد ما قتلوا.

﴿وَقَعَدُواْ﴾ الجملة: في محل نصب على الحال بتقدير «قد»، أي: وقد قعدوا.

أي: قالوا لإخوانهم حال كونهم قعودًا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ فجمعوا بين سوء الفعل بالتخلف عن القتال، وسوء القول بالاعتراض على قضاء الله وقدره.

وقيل: جملة ﴿وَقَعَدُواْ﴾ معطوفة على ﴿قَالُواْ﴾، فتكون معترضة بين ﴿قَالُواْ﴾ ومعمولها وهو: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾.

أي: لو أطاعونا في مشورتنا عليهم بعدم الخروج إلى أُحد، وفي الرجوع وترك القتال.

﴿مَا قُتِلُواْ﴾ قرأ هشام عن ابن عامر: «ما قُتِّلوا» بالتشديد، والتقتيل: المبالغة في القتل، وربما المثلة.

وقرأ الباقون بالتخفيف: ﴿مَا قُتِلُواْ﴾ أي: ما قتلوا مع من قتل، كما لم نقتل نحن، وكأنهم بهذا دفعوا عن أنفسهم الموت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد لأصحاب هذه المقالة.

﴿قُلْ فَادْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: فادفعوا عن أنفسكم الموت.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنهم لو أطاعوكم ما قتلوا. لا تقدرون على ذلك ولا تستطيعونه.

وهذا من باب التحدي لهم، أي: لستم بصادقين في أنهم لو أطاعوكم ما قتلوا، وليس بإمكانكم دفع الموت عن أنفسكم، ولو تخلفتم، فالموت سيأتيكم، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨].

وكما قيل:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره　　　تعددت الأسباب والموت واحد[1]

الفوائد والأحكام:

١- منة الله تعالى العظمى ونعمته الكبرى على المؤمنين ببعث رسول فيهم من أنفسهم؛

---

(١) البيت لابن نباتة السعدي. انظر: «الدر الفريد» (٧/ ٤٤٧)، «وفيات الأعيان» (٣/ ١٩٣).

لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ ولهذا أكد عز وجل هذه المنة بالقسم.

٢- إثبات رسالة النبي ﷺ وتشريفه بكونه مبعوثًا من الله تعالى.

٣- أن المنة ببعث الرسول ﷺ إنما هي على المؤمنين خاصة؛ لأنهم هم المتبعون له المنتفعون بهذه النعمة والمنة؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية.

علمًا أنه ﷺ رسول للناس كافة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

٤- أن من عظم المنة ببعث الرسول ﷺ في المؤمنين كونه منهم يعرفونه ويعرفهم ويفهمون عنه كلامه؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ﴾.

٥- وجوب شكر نعمة الله تعالى علينا وفضله ببعثة محمد ﷺ بطاعة الله- عز وجل- واتباع رسوله ﷺ.

٦- لا ينبغي أن يُدل الإنسان بإيمانه أو بعمله على الله تعالى؛ لأن المنة في هداية من اهتدى للإيمان إنما هي لله عز وجل؛ ولهذا قال عز وجل ردًا على الأعراب: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧].

٧- أن مهمة الرسول ﷺ تبليغ رسالة ربه بتلاوة آيات الله على من أرسل إليهم وتطهيرهم من الأرجاس المعنوية والحسية وتعليمهم الكتاب والحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

٨- جواز إضافة الشيء إلى سببه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ فأضاف التزكية- وهي التطهير- إلى الرسول ﷺ، والرسول ﷺ إنما هو سبب لذلك والمزكي والمطهر حقًا هو الله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

٩- أن بالإيمان زكاء النفوس وطهارتها، كما أن في الوضوء والغسل طهارة الأبدان؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

١٠- قيام الإسلام في دعوته على العلم، وعلى تزكية النفوس، والطهارة المعنوية والحسية؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

١١- أن الناس قبل بعثته ﷺ كانوا في ضلال مبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، وفي هذا زيادة لمنة الله تعالى على المؤمنين ببعثه ﷺ، وهدايتهم به من الضلال المبين.

١٢- توبيخ الله تعالى للذين قالوا لما أصيبوا يوم أُحد ﴿أَنَّى هَذَا﴾؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾.

١٣- تسلية المؤمنين، وتخفيف مصابهم في أُحد بتذكيرهم ما أصابوا من عدوهم في بدر؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾، وأن ما أصابهم بقضاء الله وقدره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

١٤- ينبغي مقارنة ما يحصل من محن ورزايا بما يقابل ذلك- مما هو أعظم- من منح وعطايا؛ فإن هذا مما يعين على تحمل المصائب ويهوِّن وقعها، وأحرى بشكر النعم وعدم كفرها؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾.
وقد قال ﷺ: «**انظروا لمن هو دونكم، ولا تنظروا لمن هو فوقكم، فإن ذلك أحرى ألا تزدروا نعمة ربكم**»(١).

١٥- أن ما أصاب المسلمين يوم أُحد من الهزيمة إنما هو من عند أنفسهم، أي: بسبب منهم وهو العصيان والمخالفة.

١٦- أن ما يصيب الناس من المصائب إنما هو بسبب أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩] وفي هذا

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إثبات الأسباب.

١٧- إثبات صفة القدرة التامة لله- عز وجل- وأنه- سبحانه- ذو قدرة تامة على كل شيء وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

١٨- في ختم الآية بهذه الجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾: دلالة على قدرة الله تعالى التامة على نصر مَن يشاء بفضله، وخذلان من يشاء بعدله، وله الحكمة في ذلك ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

١٩- لا تنافي بين كون مصاب المؤمنين سببه من عند أنفسهم بما حصل منهم من العصيان والمخالفة، وكون ذلك بإذن الله، أي: بقضاء الله وقدره.

٢٠- أن كل ما يجري ي الكون من المصائب وغيرها كل ذلك بقضاء الله تعالى الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾.

٢١- أن الله- عز وجل- قد يقدر المصيبة على المؤمن؛ لأسباب وحكم يعلمها.

٢٢- أن من حكمة مصاب المؤمنين يوم أُحد أن يتميز ويظهر المؤمنون حقيقة من المنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾.

٢٣- إثبات النفاق، وقدّمه في هذه الأمة، ولم يبرز إلا في المدينة، لما قويت شوكة المسلمين، فأصبح أناس يظهرون الإسلام نفاقًا، ويبطنون الكفر خوفًا من المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾.

٢٤- نكوص المنافقين عن القتال في سبيل الله، والدفاع عن الأنفس والحرمات والأوطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾.

٢٥- أن من لم يرغب في القتال في سبيل الله بنية خالصة، فلا يعذر في ترك الدفاع عن الحرمات والأوطان؛ لقوله تعالى: ﴿تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾.

٢٦- فعل أدنى المصلحتين للعجز عن أعلاهما؛ لأن المنافقين أمروا أن يقاتلوا في سبيل الله، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن الحرمات والأوطان.

٢٧- تبرير المنافقين لموقفهم المخزي في النكوص عن القتال بالكذب الذي لا يمكن تصديقه ولا ينطلي على أحد؛ لقولهم: ﴿لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ وقوله تعالى:

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

٢٨- أن ما حصل من المنافقين يوم أُحد من النكوص عن القتال ومن الاعتراض على قضاء الله وقدره ونحو ذلك يدل على أنهم- وإن كانوا في الظاهر من المؤمنين- فهم للكفر أقرب منهم للإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾.

٢٩- تعليم الاحتراس في الحكم على الأشخاص؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾؛ ولهذا لا ينبغي الحكم من بعض الظواهر على ما في البواطن.

٣٠- تذبذب المنافقين بين الإيمان والكفر، وبين أهل الإيمان وأهل الكفر، كما قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء:١٤٣].

٣١- أن الكفر والإيمان صنوان؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾.

٣٢- الإشارة إلى أن الإيمان يزيد وينقص- كما أن الكفر يزيد وينقص، وأنهما مراتب، وأن الإنسان قد تتقلب به الأحوال فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان، وأن الإنسان قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾.

٣٣- فضح المنافقين، وأن ما في قلوبهم يخالف ما يقولونه بأفواههم؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

٣٤- أن القول باللسان لا ينفع دون مواطئة القلب لذلك، فمن أظهر الإيمان بقوله، أو بقوله وفعله، دون اعتقاد ذلك في قلبه فليس بمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة:٤١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١]. فشهد عز وجل بكذبهم لقولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

٣٥- أن القول عند الإطلاق ما تواطأ عليه القلب واللسان؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

٣٦- أن الله تعالى أعلم من غيره بما يكتمه المنافقون ويخفونه مما يخالف ما يظهرون؛ ولهذا فضحهم وأظهر نفاقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

٣٧- اعتراض المنافقين على قضاء الله وقدره؛ لقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾.

٣٨- أن المنافقين في الظاهر إخوان للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾.

٣٩- جمع المنافقين بين الفعل القبيح بالقعود عن القتال، والقول القبيح بالاعتراض على قدر الله، والتثبيط عن القتال في سبيله.

٤٠- تحدي المنافقين الذين قالوا لإخوانهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ بدفع الموت عن أنفسهم، إن كانوا صادقين في مقالتهم هذه؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾، وفي هذا تأكيد وتحقيق كذبهم.

٤١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ ﴾.

٤٢- أن ما قدر الله تعالى نافذ لا محالة، ولا يمكن رده بحال من الأحوال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة ما يدل على جبن المنافقين، وحبهم للحياة، وخوفهم من الموت، وظنهم أن الحذر ينجي من القدر، وأن القتل في سبيل الله خسارة، ثم ذكر في هذه الآية وما بعدها إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فضل الشهادة في سبيل الله، وما أعده الله للشهداء في الحياة البرزخية الكريمة عنده من ألوان النعيم الذي لا يناله سواهم، والذي يغبطهم عليه من مات على فراشه من الجبناء، إضافة إلى ما في الآيات من تعزية وتسلية للمسلمين بقتلاهم.

سبب النزول:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما أُصيب إخوانكم بأُحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب، فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله:** ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى

﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية»[(١)].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه:** ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾»[(٢)].

قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ قرأ ابن عامر: «قُتِّلوا» بالتشديد.

وقرأ الباقون: ﴿قُتِلُوا۟﴾ بالتخفيف.

والخطاب في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾: للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه، والمعنى: ولا تظنن.

﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الذين قتلوا في الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى، كما قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[(٣)].

وهذا عام لكل من قتل في سبيل الله في «بدر» أو في «أُحد» أو في غير ذلك.

و﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: دينه وطريقه وشرعه.

﴿أَمْوَٰتًۢا﴾: مفعول ثان لـ«تحسب»، ومفعولها الأول: الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أي: لا تظنن الذين قتلوا في الجهاد لإعلاء كلمة الله أمواتًا، ولا يخطر ذلك ببالك.

﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾، ﴿بَلْ﴾: للإضراب الانتقالي، ﴿أَحْيَآءٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، أي: بل هم أحياء، أي: بل هم- وإن ماتت أبدانهم- أحياء بأرواحهم حياة برزخية خاصة بهم، بها يحسون ويتلذذون ويتنعمون ويشعرون.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بالقرب منه في دار كرامته، كما قال ﷺ: «**أرواح الشهداء في أجواف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل**» الحديث[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٥-٢٦٦)، وأبوداود في الجهاد (٢٥٢٠)، والطبري في «جامع البيان» (٦/ ٢٢٨)، والحاكم في الجهاد (٢/ ٨٨)، وفي التفسير (٢/ ٢٩٧).

(٢) أخرجه الحاكم وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٤١).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سيأتي تخريجه بتمامه.

﴿يُرْزَقُونَ﴾ الرزق: العطاء، أي: يعطون رزقهم في الجنة، فعن مسروق قال: سألنا عبدالله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: **«أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات. فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا، حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا»**[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

قوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ﴿فَرِحِينَ﴾: حال. والفرح: السرور، وهو دليل كمال الرضا، أي: مسرورين مغتبطين.

﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾، «ما»: موصولة تفيد العموم، أي: بالذي أعطاهم الله، من ألوان النعيم، الذي لا يعلم وصفه إلا من أنعم به عليهم، حسنًا وكثرة وعظمة ولذة، من غير مكدر ولا منغص.

﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾، ﴿مِن﴾: للسببية، أي: بسبب تفضله عليهم وزيادته لهم مما لم يستحقوه بعملهم، لكن بتفضله- عز وجل- عليهم، وبهذا جمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾: معطوف على ﴿فَرِحِينَ﴾، أو على ﴿يُرْزَقُونَ﴾، أي: فتم لهم النعيم والسرور وجعلوا يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم.

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة- بيان أن أرواح الشهداء في الجنة (١٨٨٧)، والترمذي في التفسير (٣٠١١)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٠١)، والطبري في «جامع البيان» (٦/ ٢٢٨-٢٢٩، ٢٣٥).

وقوله: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يبشر بعضهم بعضًا.

والبشارة الإخبار بما يسر، مأخوذة من البشرة؛ لأن الإنسان إذا بشر بما يسره استنارت بشرته.

﴿بِالَّذِينَ﴾ أي: بإخوانهم المجاهدين الذين ﴿لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم﴾، أي: الذين لم يقتلوا فيلحقوا بهم، ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾، أي: من بعدهم، أي: ينتظرون قتلهم في سبيل الله ولحوقهم بهم، لينالوا ما نالوه من الشهادة والمنزلة الرفيعة، والثواب العظيم.

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ الجملة في محل جر بدل من قوله: ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم﴾، أي: بأن لا خوف عليهم، أي: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ بأن لا خوف عليهم، و﴿أَلَّا﴾ أصلها: «أن لا» أدغمت «أن» المصدرية بـ«لا» النافية.

وقوله: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبل من أمرهم.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ولا هم يحزنون على ما مضى من أمرهم، ولا على ما خلفوه وراءهم.

وبانتفاء الخوف والحزن عنهم يتم لهم الفرح والسرور، بحصول المطلوب من النعيم الحسي والمعنوي، وزوال المرهوب من الخوف والحزن.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة فرح الذين قتلوا في سبيل الله بما أعطاهم الله من فضله، واستبشارهم بالذين لم يلحقوا بهم من إخوانهم، ثم أتبع ذلك بذكر استبشارهم بما هو أعظم أي: بنعمة من الله وفضل وما ادخر الله لهم من عظيم الأجر.

قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ الجملة: استئنافية.

﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي: يبشر بعضهم بعضًا، ويهنئ بعضهم بعضًا، بنعمة من الله وتفضل وزيادة منه تعالى من النعم والفضل العظيم في جنات النعيم.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ الكسائي بكسر همزة «إنَّ»: «وإنَّ الله» فتكون الجملة: استئنافية، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾، فتكون معطوفة على «نعمة» أي:

وبأن الله لا يضيع أجر المؤمنين. أي: لا يضيع ثواب أعمالهم فيتركها سدى، بل يشكرهم عليها وينميها لهم ويجازيهم عليها أعظم الجزاء، وسمى ثوابهم أجرًا؛ لأن الله ضمنه وتكفل به لهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾.

عن عكرمة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما انصرف المشركون عن أُحد وبلغوا الروحاء[1] قالوا: لا محمدًا قتلتموه، ولا الكواعب أردفتم، وبئس ما صنعتم، ارجعوا. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فندب الناس، فانتدبوا، حتى بلغوا حمراء الأسد[2]، وبئر أبي عتبة، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ﴾»[3].

وعن عائشة رضي الله عنها: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أبواك منهم، الزبير وأبوبكر، لما أصاب رسول الله ﷺ- ما أصاب يوم أُحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، قال: «من يذهب في إثرهم». فانتدب منهم سبعون رجلًا، قال: كان فيهم أبوبكر والزبير»[4].

قال ابن القيم[5]: «ولما انقضت الحرب انكفأ المشركون، فظن المسلمون أنهم قصدوا المدينة لإحراز الذراري والأموال، فشق ذلك عليهم. قال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب: اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون، فإنْ هُمْ جنَّبوا

---

(١) الروحاء قرية بين مكة والمدينة تبعد عن المدينة نحو ثلاثة وسبعين كيلًا.

(٢) حمراء الأسد موضع على ثمانية أميال من المدينة.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى في كتاب التفسير- قوله: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ (١١٠٨٣)، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨١٦) عن عكرمة مرسلًا. وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٧٧): «رجاله رجال الصحيح إلا أن المحفوظ إرساله عن عكرمة ليس فيه ابن عباس».

(٤) أخرجه البخاري في المغازي- باب ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ (٤٠٧٧).

(٥) في «زاد المعاد» (٣/ ٢٤١-٢٤٢)، وانظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٢٨-٥٢٩)، «جامع البيان» (٦/ ٢٤٠) وما بعدها، «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٢١).

الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل، وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم، ثم لأنحرن فيها. قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنَّبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووجَّهوا إلى مكة ولما عزموا على الرجوع إلى مكة، أشرف على المسلمين أبوسفيان، ثم ناداهم: موعدكم الموسم ببدر. فقال النبي ﷺ: قولوا: نعم، قد فعلنا. قال أبوسفيان: فذلكم الموعد، ثم انصرف هو وأصحابه. فلما كان في بعض الطريق، تلاوموا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئًا، أصبتم شوكتهم وحدّهم، ثم تركتموهم، وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنادى في الناس وندبهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم، وقال: لا يخرج معنا إلا من شهد القتال. فقال له عبدالله بن أبي: أركب معك. قال: لا. فاستجاب له المسلمون على ما بهم من القرح الشديد والخوف، وقالوا: سمعًا وطاعة، واستأذنه جابر بن عبدالله، وقال: يا رسول الله، إني أحب ألا تشهد مشهدًا إلا كنت معك، وإنما خلفني أبي على بناته، فأذن لي أسير معك، فأذن له، فسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد. وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم فأمره أن يلحق بأبي سفيان فيُخذِّله، فلحقه بالروحاء- ولم يعلم بإسلامه- فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال: محمد وأصحابه قد تحرقوا عليكم وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم. فقال: ما تقول؟ فقال: ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة، فقال أبوسفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم. قال: فلا تفعل؛ فإني لك ناصح. فرجعوا على أعقابهم إلى مكة».

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل جر صفة لـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في قوله: ﴿أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقد يكون في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم الذين استجابوا لله والرسول.

ومعنى ﴿ٱسْتَجَابُوا۟﴾: أجابوا، والسين والتاء؛ للتأكيد والمبالغة، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى- غالبًا، أي: أجابوا دعوة الله تعالى وانقادوا لأمره.

﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ الواو: عاطفة، وحذف الفعل واللام من المعطوف، فلم يقل:

«واستجابوا للرسول» في إشارة إلى أن الاستجابة للرسول ﷺ استجابة لله تعالى، كما أن أمر الرسول ﷺ أمر لله تعالى، أي: الذين استجابوا وانقادوا لأمر الله والرسول ﷺ لما دعاهم إلى الخروج، والذي أمرهم بذلك هو الرسول ﷺ بأمر الله تعالى له.

و«ال» في الرسول للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود بالأذهان محمد ﷺ.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبوبكر عن عاصم: «القُرح» بضم القاف، وقرأ الباقون بفتحها: «القَرح»، و«ما»: مصدرية، أي: من بعد إصابة القرح لهم.

وهو ما حصل لهم في أُحد من القتل والجراح، والتعب والألم النفسي، حيث قتل منهم سبعون، وجرح النبي ﷺ، وشج في وجهه، وكسرت رباعيته، وغير ذلك.

﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ﴾، أي: للذين أحسنوا بالاستجابة لله والرسول، واتباع أمر الله تعالى ورسوله.

﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾، أي: واتقوا الله تعالى بترك مخالفة أمر الله تعالى ورسوله.

﴿أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ثواب عظيم من حيث كمه وكيفه ونوعه وغير ذلك، لا يقدر قدر عظمته إلا مَن وصفه بأنه «عظيم» وهو العظيم سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾.

لما ثَنَى معبدُ أبا سفيان ومن معه كما تقدم، مرَّ بأبي سفيان ركب من عبدالقيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: ولِمَ؟ قالوا: نريد الميرة. قال: فهل أنتم مبلغون عني محمدًا رسالة أرسلكم بها إليه، وأحمل لكم هذه غدًا زبيبًا بعكاظ إذا وافيتمونا؟ قالوا: نعم، قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد جمعنا المسير إليه، وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله ﷺ، وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبوسفيان وأصحابه، فقالوا: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾»[(١)].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة ثانية للمؤمنين، والمراد بالناس هنا الركب الذين أوصاهم أبوسفيان من عبدالقيس فيهم نعيم بن مسعود الأشجعي.

﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ المراد بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ هنا أبوسفيان ومن معه من المشركين ﴿جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ أي: جمعوا لكم الجموع من الرجال والعدة والعتاد للكرة عليكم واستئصال بقيتكم.

﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ الفاء: عاطفة؛ لربط السبب بالمسبب، أي: فخافوهم واحذروهم، فإنه لا طاقة لكم بهم.

﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ الفاء: عاطفة، أي: فزادهم هذا القول إيمانًا إلى إيمانهم، ولم يثنهم ذلك عن المضي قدمًا لما أمرهم به رسول الله ﷺ، وهكذا- فإن المصائب تلو المصائب تمحص المؤمنين وتزيدهم إيمانًا، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران:١٤١].

ولهذا لما رأى المؤمنون الأحزاب يوم الخندق قد حاصروا المدينة قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢].

﴿وَقَالُواْ﴾ ثقة بالله، وتوكلًا عليه.

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾، «الحسب» بمعنى «الكافي»، أي: كافينا الله إياهم، وكافينا كل شيء، ومهما جمعوا لنا من جموع، فلا نخشى سوى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤].

﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ الوكيل: اسم من أسماء الله- عز وجل- أي: الوكيل على خلقه، ومعناه: المفوض إليه أمور خلقه القائم بمصالحهم، الذي يُعتمد عليه في دفع الضر وجلب النفع، الكافي لمن توكل عليه. والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: ونعم

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٦/ ٢٤٨)، «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٢١)، «زاد المعاد» (٣/ ٢٤٢)، «بدائع التفسير» (١/ ٥٢٩-٥٣٠).

الوكيل الله، أو هو.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم- عليه السلام- حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[(١)].

وعن عائشة- رضي الله عنها- «أنها تفاخرت هي وزينب- رضي الله عنهما- فقالت زينب: زوجني الله، وزوجكن أهاليكن. وقالت عائشة: أنزلت براءتي من السماء في القرآن. فسلَّمت زينب، ثم قالت: كيف قلت حين ركبت راحلة صفوان بن المعطل؟ فقالت: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت زينب: قلت كلمة المؤمنين»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾.

أي: فرجعوا عائدين إلى المدينة بعد أن بلغوا حمراء الأسد، وأقاموا بها ثلاثة أيام، وبعد أن تأكدوا من رجوع أبي سفيان وأصحابه إلى مكة.

﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ حيث كفاهم من ملاقاة العدو والقتال.

﴿وَفَضْلٍ﴾ أي: وتفضل وزيادة من الله تعالى لهم بأن كتب لهم أجر هذه الغزوة وثوابها تامًا دون قتال.

وفضل الله واسع، فإن من نوى عملًا وحال العذر بينه وبين ذلك العمل، فإن الله يكتب له أجر ذلك العمل تامًا.

﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ أي: لم يصبهم أي سوء، لا من قتل ولا جراح ولا أي أذى.

﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بضم الراء: «رُضوان»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿رِضْوَٰنَ﴾.

أي: واتبعوا ما يرضي الله تعالى باستجابتهم لله تعالى والرسول، واستكفائهم بالله

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٦٣).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٧/ ١٩٤-١٩٥)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٥).

وتوكلهم عليه، فحصل لهم السلامة من ملاقاة العدو والقتال، والفوز برضوان الله تعالى بالاستجابة له وطاعته والتوكل عليه، وهو كما يقال: «غنيمة باردة».

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ أي: صاحب فضل عظيم على عباده، ومن ذلك تفضله - عز وجل- على المؤمنين بأن صرف عدوهم عنهم فرجعوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، وكتب لهم أجر هذه الغزوة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، أي: دخلت فيها «ما» النافية على «إنَّ» المؤكدة فكفتها عن العمل.

والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إلى ما قيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ أو إلى من قال ذلك، أو إلى الأمرين معًا.

والخطاب للمؤمنين، والميم للجماعة.

﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾، ﴿يُخَوِّفُ﴾: ينصب مفعولين، الأول محذوف، والتقدير: يخوفكم، والمفعول الثاني: ﴿أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي: يخوفكم أولياءه المشركين، أي: يوهمكم أنهم ذوو بأس وقوة وشدة، ويعظمهم في نفوسكم؛ لتخافوهم، وتتركوا الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بسبب تخويف الشيطان لكم.

وأولياء الشيطان هم أتباعه وحزبه من المشركين، وأهل الكفر والمعاصي.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«لا»: ناهية، أي: فلا تخافوا أولياء الشيطان، فتتركوا الجهاد خوفًا منهم، فنواصيهم بيدي، وهم أذل وأحقر وأضعف من أن تخافوهم.

﴿وَخَافُونِ﴾ أي: وخافوني وحدي، فأطيعوني، ولا تخالفوا أمري. وأنا أكفيكم إياهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر:٣٦].

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: جملة شرطية، وجواب الشرط دل عليه ما قبله، أي: إن كنتم مؤمنين فلا تخافوهم وخافوني؛ لأن الإيمان يقتضي إيثار خوف الله تعالى على خوف غيره.

الفوائد والأحكام:

١- أن من قتلوا في سبيل الله فليسوا بأموات، بل أحياء عند ربهم حياة برزخية خاصة ولا ينبغي أن يظن بأنهم أموات؛ لفوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ﴾.

٢- فضل الجهاد والشهادة في سبيل الله؛ لعظم ما أعد الله لمن قتل في سبيله عنده من الرزق والفضل وألوان النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ الآيات.

وعن أنس- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا، وأن له الدنيا وما فيها، إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى**»[1].

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: لما قتل أبي يوم أُحد، جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب النبي ﷺ ينهوني. والنبي ﷺ لم يَنْهَ. وقال النبي ﷺ: «**لا تبكيه- أو ما تبكيه، مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع**»[2].

وعنه- رضي الله عنه- قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**أما علمت أن الله أحيا أباك، فقال له: تمنَّ عليّ. فقال له: أرد إلى الدنيا، فأقتل مرة أخرى. فقال: إني قضيت الحكم، أنهم إليها لا يرجعون**»[3].

وفي رواية عنه- رضي الله عنه- قال: «لقيني رسول الله ﷺ فقال لي: «**يا جابر، ما لي أراك منكسرًا**»؟ قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالًا ودينًا، قال: «**أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك**»؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: «**ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا. فقال: يا عبدي، تمن عليّ أعطك. قال: تحييني فأقتل فيك ثانية. قال الرب عز وجل: إنه قد سبق مني أنهم لا**

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٧)، وأحمد (٣/ ١٢٦).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة أُحد (٤٠٨٠).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣٦١)، والطبري في «جامع البيان» (٦/ ٢٣١)، و«الحاكم» (٢/ ١١٩-٢٢٠).

يرجعون، وأنزلت هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾»[1].

٣- تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم وتنشيطهم للقتال والتعرض للشهادة.

٤- إثبات أن الأنبياء أحياء عند ربهم حياة برزخية بأرواحهم؛ لأنه إذا ثبت هذا للشهداء فالأنبياء من باب أولى؛ لأن مرتبة الأنبياء أعلى من مرتبة الشهداء- مع ما خصَّ الله تعالى به الأنبياء من تحريم أجسادهم على الأرض[2].

كما أن في الآية إبطالًا لمن زعم أن النبي ﷺ حي في قبره، محتجًا بالآية، وبأن مرتبة النبوة أعلى من مرتبة الشهادة، ولا إشكال في أن مرتبة النبوة أعلى من مرتبة الشهادة. والآية إنما فيها دلالة على حياة الشهداء حياة برزخية بأرواحهم فقط دون حياة أبدانهم، فكيف يستدل بها على حياة النبي ﷺ في قبره ببدنه. والصحيح أن حياة النبي ﷺ إنما هي حياة برزخية حياة الروح فقط.

٥- إثبات نعيم البرزخ، وعظم ما أعده الله للشهداء في حياتهم البرزخية من علو درجتهم عنده في دار كرامته وقربهم منه، ورزقهم، وفرحهم واستبشارهم بمن سيلحق بهم من إخوانهم وسلامتهم من الخوف والحزن، واستبشارهم بنعمة من الله وفضل؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وبهذا جمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم الروح بالفرح والاستبشار، والأمن من الخوف والحزن، بين النعيم الحسي، والنعيم المعنوي، بين حصول المطلوب، وزوال المرهوب.

٦- تلاقي أرواح الشهداء وتبشير بعضهم بعضًا.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٠١٠)، وابن ماجه في المقدمة (١٩٠)، وفي الجهاد- فضل الشهادة في سبيل الله (٢٨٠٠)، وابن حبان (١٥/ ٤٩٠)، والحاكم (٢/ ٢٠٣)- وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٢) سبق تخريجه.

٧- ينبغي نسبة النعم إلى مسديها وهو الله- عز وجل- وإسناد الفضل إليه فهو أهل الفضل سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾، فمنه- عز وجل- جميع النعم، وهو صاحب الفضل كله.

٨- تكفل الله- عز وجل- بأجر المؤمنين وضمانه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فأخبر بعدم إضاعة أجرهم، وسماه «أجرًا» تأكيدًا لضمانه لهم، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [التوبة:١٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ [آل عمران:١٩٥].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مع الشهادة بإيمان هؤلاء إشارة إلى أن كل عمل من جهاد وغيره فهو مبني على أصل الإيمان، كما أن فيه إشارة إلى واسع رحمة الله تعالى وفضله بعموم هذا الوعد لجميع المؤمنين مَن قَاتل أو قُتل في سبيل الله، ومن لم يُقاتل.

١٠- ثناء الله تعالى على الصحابة- رضي الله عنهم- باستجابتهم لله والرسول بالخروج إلى المشركين بعد أُحد مع ما هم فيه من المصاب العظيم، والإحسان والتقوى وزيادة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾.

١١- أن الاستجابة للرسول ﷺ استجابة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ مع حذف العامل: «استجابوا»، واللام من المعطوف، وهو قوله: ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾.

١٢- جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله تعالى بالواو التي تقتضي التشريك، في باب التشريع والأمر والنهي والطاعة والمعصية والاستجابة نحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

١٣- أن المؤمن حقًّا يزداد بالمصائب ثباتًا ورسوخًا وإقدامًا وإيمانًا.

١٤- أن استجابة الصحابة- رضي الله عنهم- لله والرسول من الإحسان والتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

١٥- عظم ما أعدّه الله تعالى للذين أحسنوا واتقوا من الأجر؛ لأن الله وصفه بأنه ﴿عَظِيمٌ﴾ ولا يقدر عظمة هذا الأجر إلا العظيم سبحانه، وفي هذا ترغيب بالإحسان والتقوى.

١٦- قوة إيمان الصحابة- رضي الله عنهم- ويقينهم وتوكلهم على الله تعالى وخشيتهم منه وحده، واستكفاؤهم به وحده، وعدم خشيتهم من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

١٧- إثبات زيادة الإيمان ونقصانه؛ لقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾.

١٨- ينبغي التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه وخشيته دون سواه، والحذر من المرجفين.

١٩- أن المصائب والشدائد تمحص الناس، وتزيد في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

٢٠- أن الله تعالى هو الحسب والكافي وحده، فمن استكفاه كفاه وحفظه ووقاه من جميع الشرور، ولو اجتمع عليه جميع الخلق ما نالوه بسوء؛ لقوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، وقوله: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾.

٢١- أن الله- عز وجل- نعم «الوكيل» الموكول إليه شؤون خلقه، الكافي لمن توكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

٢٢- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلْوَكِيلُ﴾؛ لقوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

٢٣- استحباب قول هذه الكلمة ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ وبخاصة عند الغم والأمور العظيمة؛ لما لها من الأثر العظيم فقد قالها إبراهيم- عليه السلام- حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾.

فجعل الله النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، وانقلب محمد ﷺ وأصحابه بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء.

٢٤- تحصيل الصحابة- رضي الله عنهم- باستجابتهم لله والرسول، واستكفائهم بالله- عز وجل- وتوكلهم عليه المصلحتين معًا؛ الأولى رجوعهم بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، والثانية اتباعهم رضوان الله تعالى.
فسلموا من ملاقاة العدو والحرب، ونالوا أجر هذه الغزوة، وفازوا باتباع رضوان الله باستجابتهم لله والرسول، ومن اتبع رضوان الله أثابه الله وأكرمه.

٢٥- نعمة الله تعالى على هؤلاء بتسليمه لهم من الحرب ولقاء العدو، وتفضله عليهم بأجر هذه الغزوة دون عناء أو قتال.

٢٦- إثبات صفة الرضا لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾ وهو من الصفات الفعلية المتعلقة بالمشيئة.

٢٧- أن الله- عز وجل- صاحب الفضل العظيم على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

٢٨- تحقير وتهوين أمر الشيطان وإرجافه بالتخويف من أوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾.

٢٩- عداوة الشيطان للمؤمنين، ودفاعه عن أوليائه الكافرين، بتخويف المؤمنين منهم.

٣٠- يجب أن لا يخاف المؤمنون من أولياء الشيطان؛ لضعف كيده وإياهم، ويجب عليهم الخوف من الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦].

٣١- أن من شرط صحة الإيمان أن لا يخاف المؤمن إلا من الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

بيَّن عز وجل في الآية السابقة أن الشيطان يخوف أولياءه ونهى المؤمنين عن الخوف منهم وأمرهم بخوفه وحده- في إشارة واضحة إلى أن الشيطان وأولياءه أذل وأحقر من أن يخاف منهم، وهذا في الدنيا، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعد لهم في الآخرة من الخسران، والعذاب العظيم، وفي هذا تهديد لهم.

قوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ﴾ قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي «يُحزِنك» من الرباعي: «أحزن»، وقرأ الباقون: ﴿يَحْزُنكَ﴾ بفتح الياء وضم الزاي من الثلاثي: «حَزَنَ»، والخطاب للنبي ﷺ. و«الحزن» الهم والغم.

أي: لا تهتم بهم ولا تبال لهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل:٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر:٩٧، ٩٨].

وقد كان ﷺ من شدة حرصه على هداية قومه يحزنه الذين يسارعون في الكفر والعناد والمخالفة والشقاق، ويضيق بذلك حتى أنه يُخشى على نفسه من الهلاك، وحتى نهاه الله تعالى عن ذلك فقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]،

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨].

﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: عام في كل مَن سارع في الكفر من المنافقين والمرتدين وغيرهم، ومعنى ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي: يسارعون إلى الدخول في الكفر ويعجلون إلى إظهاره، كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة:٤١].

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ تعليل للنهي قبله، أي: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ لأنهم ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ مهما سارعوا في الكفر، وإنما يضرون أنفسهم.

و﴿شَيْـًٔا﴾: نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي: لن يضروا الله أي شيء من الضرر، أي: لن يستطيعوا أن يلحقوا به أي شيء من الضرر وإن قل، كما قال تعالى في الحديث: «**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**»(١). ولن يستطيعوا إطفاء نوره، لأنه- عز وجل- متم نوره ولو كره الكافرون، لا تضره- عز وجل- معصية العاصي، كما لا تنفعه طاعة المطيع، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا**»(١).

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ إرادة كونية قدرية، أي: يريد الله ويشاء بحكمته بكونهم يسارعون في الكفر.

﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ﴾ «أن» حرف مصدري ونصب، و«لا» نافية. والمصدر المؤوّل في محل نصب مفعول «يريد». والمراد بالجعل هنا: «الجعل الكوني».

﴿حَظًّا﴾ أي: نصيبًا.

﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: في الدار الآخرة يوم القيامة.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، الواو: عاطفة، أي: ولهم عقاب عظيم، من حيث كيفه وكمه ونوعه وغير ذلك، لا يقدر قدر عظمته إلا مَن وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

نهى عز وجل الرسول ﷺ أن يحزنه الذين يسارعون في الكفر مبينًا أنهم لن يضروا الله شيئًا ولهم عذاب عظيم، ثم أكد ذلك في هذه الآية اهتمامًا به وتقريرًا له وتأكيدًا.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ أي: إن الذين استبدلوا الكفر بالإيمان، أي: اختاروا الكفر على الإيمان.

﴿ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ ذكر هذا أولًا تعليلًا لتسلية الرسول ﷺ، ثم أكده هنا بالخبر استقلالًا للاهتمام به، وهو هنا أظهر في التعريض باقتصار الضرر عليهم، كأنه قيل: إنما يضرون أنفسهم.

﴿ أَلِيمٌ ﴾ على وزن «فعيل» بمعنى «مفعل» أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾.

بيَّن عز وجل في الآيتين السابقتين أن الذين كفروا لن يضروا الله شيئًا، وتوعدهم بعذاب عظيم وأليم، ثم نهاهم في هذه الآية أن يحسبوا أنما يمليه الله لهم خير لأنفسهم، وإنما ليزدادوا إثمًا، وتوعدهم بعذاب مهين.

قوله: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ قرأ حمزة بتاء الخطاب: «ولا تحسبن» والخطاب للنبي ﷺ ولمن يصلح له، وقرأ الباقون بياء الغيبة: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾.

والمعنى على قراءة الخطاب: «ولا تحسبن» أيها المخاطب، أي: ولا تظنن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم.

والمعنى على قراءة الغيبة ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾ أي: ولا يظنن الذين كفروا أنما نملي لهم

خير لأنفسهم، ويجوز أن يكون مسندًا إلى ضمير غائب، يراد به النبي ﷺ وغيره، أي: ولا يحسبن النبي ﷺ أو ولا يحسبن أحد ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾، «أنَّ»: حرف مشبه بالفعل للتوكيد، و«ما» اسم موصول في محل نصب اسم «أنَّ» أي: أن الذي نملي لهم خير، أو مصدرية، أي: أنَّ إملاءنا لهم خير.

ومعنى ﴿نُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: نمهلهم ونؤخر عقوبتهم، وقد تكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة في قوله: ﴿نُمْلِي﴾ في الموضعين؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى.

﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾، ﴿خَيْرٌ﴾: خبر «أنَّ»، وهو: اسم تفضيل، ﴿لِّأَنفُسِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾ أي: لا يحسبوا أن الإملاء لهم خير من معاجلتهم بالعقوبة.

أي: لا يظننّ الذين كفروا أنما إمهالنا لهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة خير لهم، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ هنا للحصر، واللام في: ﴿لِيَزْدَادُوا﴾: للتعليل؛ أي: ما نملي لهم إلا لأجل أن يزدادوا إثمًا إلى إثمهم، فيزداد عذابهم. ويجوز أن تكون اللام: للعاقبة، أي: إنما نملي لهم ونمهلهم؛ لتكون العاقبة أن يزدادوا إثمًا.

والمعنى على التقديرين أن ذلك استدراج لهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، أي: مهين مذل لهم، ولكل من عذب به يهينهم ويذلهم، أي: عذاب معنوي ينصب على القلوب، لا يقل عن العذاب الحسي، والجزاء من جنس العمل؛ لأنهم إنما كفروا استكبارًا، فعوقبوا بعذاب يذلهم ويهينهم.

فوصف عذاب الكافرين في هذه الآية بأنه: ﴿عَظِيمٌ﴾، و﴿أَلِيمٌ﴾، و﴿مُّهِينٌ﴾. ﴿عَظِيمٌ﴾ من حيث كيفه وكمه ونوعه ونحو ذلك، و﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم موجع حسيًّا للبدن، و﴿مُّهِينٌ﴾ مذل معنويًّا للنفس والقلب.

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا

كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾.

في هذا- وفي ختام الآيات في قصة أحد- تأكيد لما سبق التنبيه عليه في هذه القصة، وهو حكمة الله تعالى البالغة فيما أصاب المسلمين في هذه الغزوة؛ لتمييز المؤمنين من المنافقين.

و﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: نافية، واللام في ﴿لِيَذَرَ﴾: لام الجحود، وينصب المضارع بعدها بإضمار «إن»، ﴿لِيَذَرَ﴾، أي: ليترك، أي: ما كان الله ليترك المؤمنين الخلص من النفاق. ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ ﴿مَآ﴾ موصولة والضمير ﴿أَنتُمْ﴾ للمسلمين عمومًا بما فيهم المناقون.

ويدل على أن المراد بـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الخلّص منهم، وأن المراد بقوله: ﴿أَنتُمْ﴾ عموم المسلمين أنه لم يقل: «ليذركم على ما أنتم عليه» ففي هذا تنبيه على أن المراد بضمير الخطاب أكثر من المراد بلفظ المؤمنين؛ ولهذا لم يقل: على ما هم عليه.

والمعنى: يمتنع شرعًا غاية الامتناع أن الله يترك المؤمنين الخلص من النفاق على الذي أنتم أيها المسلمون عليه من الالتباس والاختلاط، وعدم تميز الخبيث من الطيب.

﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ قرأ يعقوب وحمزة والكسائي وخلف بضم الياء الأولى وتشديد الياء الأخرى: «يُميِّز»، وقرأ الباقون بفتح الياء والتخفيف «يَميْز» و﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية، و﴿يَمِيزَ﴾ بمعنى: يفصل.

أي: إلى غاية أن يفصل بين الخبيث والطيب، أي: يبين ويظهر الخبيث من الطيب.

و«الخبيث» و«الطيب» من الأوصاف التي تطلق على الأعيان والأقوال والأفعال والمعتقدات.

والمراد هنا بـ«الخبيث» المنافق، و«الطيب» المؤمن. والمعنى: ما كان الله ليترك المؤمنين على الحال الذي أنتم عليه، من عدم تميز أهل الإيمان الخالص من أهل النفاق حتى يميز ويظهر المؤمن الخالص من المنافق بالابتلاء بالجهاد وغيره مما تظهر به علامات المنافق، وبما ينزله الله من الوحي على رسله.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧].

فقد تميز في أُحد وما حصل به من مصاب على المسلمين المؤمنون الخلص من المنافقين؛ المؤمنون الذين زادهم ما أصابهم يوم أُحد إيمانًا وتوكلًا على الله- تعلى- وثباتًا، من المنافقين الذين نكصوا عن الجهاد، وخالفوا أمر رسول الله ﷺ، ونجم نفاقهم وأظهروا ما كانوا يكتمونه.

فامتدح الله- عز وجل- المؤمنين الصادقين وأثنى عليهم. وفضح المنافقين، وهتك أستارهم، وبهذا عرف المسلمون أن بين ظهرانيهم عدوًا أشد عليهم من الأعداء الظاهرين، وهكذا الشدائد فيها تمييز الصادق من الكاذب، والعدو من الصديق. وكما قيل:

جزى الله الشدائد كل خير ... عرفت بها عدوي من صديقي(١)

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾، معطوف على قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، و﴿مَّا﴾: نافية، واللام في ﴿لِيُطۡلِعَكُمۡ﴾: لام الجحود، والخطاب عام لجميع الخلق.

ومعنى ﴿لِيُطۡلِعَكُمۡ﴾: ليظهركم، أي: وما كان الله ليظهركم على الغيب فتميزون به الخبيث من الطيب، أي: تميزون المؤمن الخالص من المنافق؛ لأن الإيمان والنفاق من الأمور الباطنة في الصدور والقلوب.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾، الواو: عاطفة، و«لكن»: للاستدراك. ﴿يَجۡتَبِي﴾: يختار ويصطفي.

﴿مِن رُّسُلِهِۦ﴾ ﴿مِن﴾: تبعيضية، أي: من بعض رسله.

﴿مَن يَشَآءُۖ﴾ ﴿مَن﴾: موصولة، أي: الذي يشاء، فيطلعه على الغيب الذي يريد اطلاعه عليه، كما قال تعالى في سورة الجن: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

---

(١) انظر: «مجاني الأدب» (١/ ٢٧)، «المنهاج الواضح للبلاغة» (٢/ ١٢١). وينسب للشافعي.

إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

أي: يطلعهم بما اقتضت حكمته أن يطلعهم عليه من الغيب بطريق الوحي تأييدًا لهم.

ولهذا تضمن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الإخبار عن كثير من المغيبات السابقة واللاحقة وغيرها.

كما كان ﷺ يعرف المنافقين، وقد أخبر صاحب سره حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- بأسمائهم.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: حققوا إيمانكم بالله تعالى بالتصديق التام بالله- عز وجل- وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته والانقياد التام لشرعه، والرضا والتسليم لقدره.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ بالتصديق بهم جميعًا وبما جاؤوا به من الشرع من عند الله- عز وجل- والانقياد والاتباع لما جاء به خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، وطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

والمؤمن في حاجة دائمًا إلى الإيمان بالله ورسوله، أي: بأن يوفقه تعالى إلى الإيمان بالله ورسوله في كل لحظة، وأن يوفقه فيه ويثبته عليه، ويزيده منه، ويعينه عليه، وقد قال الله- عز وجل- للمؤمنين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦].

وأمرنا أن نقول في الفاتحة وفي كل ركعة من الصلاة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الآية:٧]؛ لأن المؤمن في حاجة في كل لحظة إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم، ويهديه فيه، ويثبته عليه.

والمراد بقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾: تحقيق الإيمان بالله ورسله، والانقياد لشرع الله، والرضا والتسليم لقدره.

﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ الواو: استئنافية، أي: وإن تؤمنوا وتصدقوا بقلوبكم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ بجوارحكم، بفعل المأمورات واجتناب المنهيات.

﴿فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فلكم ثواب عظيم، لا يقدر قدره إلا من أعطاه لكم، ووصفه بأنه عظيم، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

وسمى عز وجل ثوابهم «أجرًا»؛ لأنه تكفل به وضمنه لهم تفضيلًا منه وكرمًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)﴾.

المال هو عصب الجهاد والقتال في سبيل الله، ولهذا- والله أعلم- ختم الآيات في قصة أحد في التحذير من البخل في المال، ومنع حقوق الله تعالى فيه من الإنفاق في الجهاد وغيره.

قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ قرأ حمزة بتاء الخطاب وفتح السين: «ولا تحسبن»، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح خطابه، أي: ولا تظنن أيها المخاطب.

وقرأ ابن كثير وأبوعمرو بياء الغيبة مع كسر السين: «ولا يحسِبن»، وقرأ الباقون بياء الغيبة مع فتح السين: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾.

أي: ولا يحسبن، أي: ولا يظنن هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾.

«البخل»: هو منع الحقوق الواجبة في المال، وهو ضد الكرم.

﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾، «ما»: موصولة، أي: بالذي أعطاهم الله.

﴿مِن فَضْلِهِ﴾ أي: من تفضله- عز وجل- وزيادته وليس ذلك من كسبهم وكدهم، ولا باستحقاقهم ذلك على الله تعالى، وهو مال الله تعالى استخلفهم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧].

وقد أحسن القائل:

ومـا المـال والأهلـون إلا ودائـع ولابـد يومًـا أن تـرد الودائـع[1]

﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، عائد على «البخل» المأخوذ من قوله: ﴿يَبْخَلُونَ﴾، وهذا المقدر: مفعول أول «يحسبن»، و﴿خَيْرًا﴾: مفعول ثان و﴿خَيْرًا﴾: اسم تفضيل، أي: لا يظنن البخل والشح خيرًا لهم من الإنفاق والعطاء.

(١) البيت للبيد. انظر: «ديوانه» (ص١٧٠).

﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ ﴿بَلْ﴾ للإضراب الإبطالي، وفيه تأكيد لنفي كونه خيرًا. والضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى البخل المفهوم من قوله: ﴿يَبْخَلُونَ﴾، و﴿شَرٌّ﴾: اسم تفضيل، أي: بل هو أي: البخل شر لهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، أي: البخل شر لهم من العطاء، والعطاء ليس فيه شر- من حيث الأصل- بل هو خير، ولكن الله خاطب هؤلاء بحسب اعتقادهم؛ لأنهم يظنون أنهم إذا أنفقوا افتقروا. وقد قال الله- عز وجل-: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ:٣٩]، وقال ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال**»(١).

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الجملة: في موقع التعليل، لقوله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾، وهي وعيد وتهديد لهم.

والسين في قوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ للتنفيس والدلالة على تحقق وقوع عذابهم وقربه، و«يطوقون» مشتق من الطَّوْق، كطوق القميص ونحوه، والتطويق: جعل الشيء طوقًا في العنق.

و«ما»: موصولة، بمعنى الذي، أي: سيطوقون الذي بخلوا به يوم القيامة.

والمعنى: سيجعل الذي بخلوا به طوقًا في أعناقهم يوم القيامة يعذبون به كما قال ﷺ: «**مَن آتاه الله مالًا فلم يؤد زكاته مُثّل له ماله يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه- يعني بشدقيه- ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك.** ثم تلا هذه الآية ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الآية»(٢).

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من رجل له مال لا يؤدي حق ماله إلا جعل له طوقًا في عنقه، شجاع أقرع، وهو يفر منه، وهو يتبعه، ثم قرأ مصداقه في كتاب الله عز وجل:** ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب- استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨)، من حديث- أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة- إثم مانع الزكاة (١٤٠٣)، والنسائي في الزكاة (٢٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرٌّ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ الآية»[1].

والجزاء من جنس العمل، فحيث بخلوا بما آتاهم الله من فضله، ومنعوا حق الله تعالى فيه عوقبوا وعذبوا بأن جعل ذلك طوقًا في أعناقهم يوم القيامة.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ لما كان الذي يبخل بالمال إنما يبخل به ليبقى له بيّن عز وجل في هذه الآية أن المال لن يبقى له وأن له- عز وجل- ميراث السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الحديد:١٠].

والواو في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾: اعتراضية، و(لله): جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و﴿مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾: مبتدأ مؤخر، وقدم الخبر للحصر والاختصاص، أي: ولله وحده ميراث السموات والأرض.

والجملة اعتراضية بين قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ والمعطوف عليه وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾، والغرض منها: بيان أن المال لن يبقى لمن بخل به بل سينتقل منه إلى أن ينتهي إلى الله تعالى ميراث السموات والأرض.

ولله ميراث السموات والأرض بعد فناء سكانها وما فيها وزوال كل ملك وملكه وكل ما ملك، فيتحول ميراثها وينتهي إلى الله- عز وجل- فترد جميع الأملاك إلى مالكها الحق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ [مريم:٤٠].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو ويعقوب بياء الغيبة «يعملون» أي: بما يعمل هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله.

وقرأ الباقون بتاء الخطاب: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ أي: بما تعملون كلكم؛ أنتم أيها المؤمنون وهؤلاء الذين يبخلون. و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملون، أو بعملكم ﴿خَبِيرٞ﴾، أي: مطلع على أعمالكم دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، باطنها وظاهرها.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٧)، والنسائي في الزكاة (٢٤٤١)، والترمذي في التفسير (٣٠١٢). وقال الترمذي: «حسن صحيح».

وختم الآية بهذا واضح المناسبة؛ لأن من الناس من يملك أموالًا طائلة ويبخل في الزكاة والحقوق فيها، والناس لا يعلمون عنه، وفي هذا الختام تذكير له بأن عمله لا يخفى على العليم الخبير.

وبهذه الآية انتهى الحديث عن قصة غزوة أُحد والتي بدأت بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [الآية:١٢١].

الفوائد والأحكام:

١- دفاع الله تعالى عن نبيه وتسليته له، وتشريفه وتكريمه بخطابه- عز وجل- له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية.

٢- حرص النبي ﷺ على هداية الناس؛ ولهذا يحزنه ﷺ كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾، كما قال تعالى له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر:٨].

٣- ينبغي بذل الجهد في الدعوة إلى الله تعالى وعدم الاكتراث بالمعاندين والمخالفين.

٤- ذم المسارعين إلى الكفر الذي فيه هلاكهم، وكان الأجدر بهم المسارعة إلى الإيمان.

٥- انتفاء الضرر عن الله تعالى، فلا تضره- سبحانه- معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعة الطائعين، ومن كفر فلا يضر إلا نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾.

٦- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾.

٧- حرمان المسارعين بالكفر من النصيب في الآخرة، وتوعدهم بالعذاب العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٨- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾.

٩- الإشارة إلى أن الحظ الأوفر هو حظ الآخرة، فمن حرمه فهو المحروم والخاسر حقًّا.

١٠- أن الكفار لهم حظ من الدنيا؛ لمفهوم قوله: ﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾

[الإسراء:٢٠].

١١- الجمع لهؤلاء الكفار بين عقوبتين: فوات حظهم ونصيبهم من الآخرة، والعذاب العظيم في النار، بين فوات المرغوب والمطلوب، وحصول المكروه والمرهوب.

١٢- بيان حكمة الله تعالى في كون هؤلاء يسارعون في الكفر، وهي ما يريده كونًا من حرمانهم من حظ الآخرة، وتعذيبهم بالعذاب الأليم.

١٣- تسفيه من اختاروا الكفر على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾.

١٤- تأكيد نفي الضرر عن الله تعالى وأن هؤلاء لا يضرون بكفرهم سوى أنفسهم، وتوعدهم بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

١٥- أن الله يمهل ولا يهمل فلا ينبغي أن يُغْتر بإمهال الله تعالى لأهل الكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ﴾.

١٦- استدراج الله تعالى لأهل الكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [القلم:٤٤-٤٥].

وقال ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢]»[(١)].

١٧- لا ينبغي الاغترار بالنعم، فليست دليلًا على الخير والرضا مطلقًا.

١٨- إثبات زيادة الإثم والكفر ونقصانه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصانه، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

١٩- الوعيد للكافرين بالعذاب المهين الذين يهينهم ويذلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ

---

(١) سبق تخريجه.

مُّهِينٌ ﴾.

٢٠- أن الجزاء من جنس العمل، فحيث استكبر هؤلاء الكفار عن عبادة الله تعالى جازاهم الله بعذاب مهين يهينهم ويذلهم- وكما يدين المرء يدان.

٢١- شدة عذاب الكفار، فهو عظيم من حيث كيفه وكمه ونوعه، وهو أليم مؤلم موجع للأبدان حسيًّا، ومهين للقلوب والأنفس معنويًّا.

٢٢- اقتضاء حكمة الله تعالى أنه لابد أن يميز الخبيث من الطيب؛ لقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾، وذلك بالابتلاء بالجهاد وغيره، وبالوحي من عند الله عز وجل.

٢٣- انقسام الناس إلى خبيث وطيب، مؤمن وكافر، ومؤمن مخلص، ومنافق- وهكذا الأعمال والأقوال والأعيان فيها خبيث وطيب.

٢٤- أن الخبيث لا يساوي الطيب في أيِّ شيء كان، والمنافق لا يساوي المؤمن المخلص، فالمؤمن طيب طاهر والمنافق خبيث نجس.

٢٥- أن علم الغيب مما اختص الله- عز وجل به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾، فمن ادعى علم الغيب فهو كاذب كافر، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النمل:٦٥].

٢٦- اصطفاء الله تعالى واختياره من رسله من يشاء، وإطلاعه إياهم على شيء من الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ [الجن:٢٦-٢٨].

٢٧- إثبات المشيئة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ ﴾، وهي الإرادة الكونية.

٢٨- وجوب الإيمان بالله ورسله؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾.

٢٩- فضل الإيمان والتقوى؛ لأن الله رتب عليهما الأجر العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

٣٠- أن الإيمان هو الأصل وعليه تبنى الأعمال؛ لهذا قدم الإيمان على التقوى، التي هي فعل الأوامر واجتناب النواهي، فقال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾.

٣١- تكفل الله- عز وجل- بثواب المؤمنين المتقين؛ لهذا سماه «أجرًا».

٣٢- عظم ثواب مَن آمن واتقى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. فلا يعلم عظم هذا الأجر إلا مَن وصفه بأنه عظيم وهو العظيم سبحانه وتعالى.

٣٣- أن البخل شر محض وبخاصة منع الواجب في المال كالزكاة والنفقة الواجبة ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾.

٣٤- لا ينبغي أن يظن أن البخل سبب للغنى وبقاء المال، وأن الإنفاق سبب للفقر وفناء المال؛ لأن هذا من الشيطان، بل العكس صحيح، فالإنفاق سبب لزيادة المال وسلامته، والبخل سبب لنقصانه وهلاكه. هذا ما دلت عليه النصوص، وشهد به الواقع.

٣٥- تذكير أهل البخل بأن ما عندهم من مال مما تفضل الله به عليهم، وفي هذا توبيخ لهم على البخل به؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

٣٦- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد للذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٣٧- أن الجزاء من جنس العمل، فمن بخل بما أوجبه الله عليه طوّقه الله يوم القيامة.

٣٨- أن لله- عز وجل- ميراث السموات والأض، وكل ما فيهما سينتقل وينتهي إليه- عز وجل- فلا المال يبقى لصاحبه، ولا صاحب المال يبقى لماله، والبقاء للحي القيوم، الآخر الذي لا شيء بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٣٩- أن المال من الله- عز وجل- ومن فضله ابتداءً، وأن مرده ومرجعه إليه انتهاءً، كما أن مبدأ الخلائق منه ومحياهم منه، ومماتهم ونهايتهم إليه، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [الحجر:٢٣].

٤٠- علم الله- عز وجل- بأعمال العباد؛ دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، باطنها وظاهرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وفي هذا وعد لمن أحسن العمل ووعيد لمن أساء؛ لأن مقتضى علمه- عز وجل- أن يحاسب الخلائق ويجازيهم على أعمالهم خيرها وشرها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾.

بعد أن أسدل الستار على قصة أُحد، محذرًا في آخرها من البخل ومتوعدًا أهله، أتبع ذلك بذكر قبائح اليهود، والذين هم ردء للمشركين والمنافقين في المدينة، وجرأتهم على الله بقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ إمعانًا منهم في دفع تحذيره- عز وجل- عن البخل ووعيد أهله.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما نزل قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥] قالت اليهود: افتقر ربك؛ يسأل عباده القرض؟ فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ الآية»(١).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «دخل أبوبكر الصديق- رضي الله عنه- بيت المدراس، فوجد ناسًا من يهود كثيرًا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فِنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له: أشيع. فقال أبوبكر لفنحاص: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول الله، قد جاءكم بالحق من

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٢٨). وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٥٣).

عنده، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل. قال فنحاص: والله يا أبابكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنيًا ما استقرضنا أموالنا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا، ويعطيناه، ولو كان غنيًا عنا ما أعطانا الربا. فغضب أبوبكر، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله، فأكْذِبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين. فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، انظر ما صنع بي صاحبك. فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «ما حملك على ما صنعت»؟ فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولًا عظيمًا، زعم أن الله فقير، وأنهم عنه أغنياء. فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، فضربت وجهه، فجحد ذلك فنحاص، وقال: ما قلت ذلك: فأنزل الله- جل ثناؤه- فيما قال فنحاص ردًا عليه وتصديقًا لأبي بكر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ إلى قوله: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

وقول أبي بكر وما بلغه في ذلك من الغضب: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦]»[1].

وقد روي أنها نزلت في حيي بن أخطب.

قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ اللام واقعة في جواب قسم مقدر، تقديره: والله لقد سمع الله، و«قد»: حرف تحقيق، فالجملة مؤكدة بالقسم المقدر، واللام، و«قد».

والله- عز وجل- هو أصدق القائلين، وخبره أصدق الأخبار، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢].

وإنما أقسم الله- عز وجل- على هذا الخبر للتأكيد والمبالغة في تهديد هؤلاء ووعيدهم.

والسمع من الصفات الذاتية الثابتة لله- عز وجل- أي: ذو سمع واسع، يسمع جميع

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ٢٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٢٨-٨٢٩).

الأقوال والأصوات، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «والذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ تجادله في زوجها وما بيني وبينها إلا ساتر فلما أسمع كلامها وقد سمع الله صوتها من فوق سبع سموات»(١).

﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ أي: لقد سمع الله قول الذين قالوا هذه المقالة، من اليهود، منهم: فنحاص بن عازر، وحيي بن أخطب.

وذلك لما حذر عز وجل عن البخل وتوعد أهله وحث على الصدقة، وقد جمعوا في هذه المقالة السيئة بين أمرين في غاية القبح والشناعة، الأول: وصفهم الله بالفقر، والثاني: أنهم هم الأغنياء. أي: أنهم أغنى من الله تعالى الله عن قولهم.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ قرأ حمزة بالياء: «سيكتب»، وقرأ الباقون بالنون: ﴿سَنَكْتُبُ﴾.

وقراءة: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ بضمير المتكلم؛ لأنه- عز وجل- هو الآمر لملائكته بكتابة أقوال العباد، وهذا ما بينته القراءة الثانية بالياء: «سيكتب»، وكما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

و﴿مَا﴾: موصولة، أو مصدرية، أي: سنكتب أو سيكتب الذي قالوا، أو قولهم. والمعنى: ستكتب ملائكتنا الذي قالوا من الإفك والفرية على الله عز وجل.

وفي هذا تهديد ووعيد لهم، أي: سنكتب الذي قالوا ونحاسبهم ونجازيهم عليه.

﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ قرأ حمزة برفع القتل: «وقتلُهم»، وقرأ الباقون بنصبه: ﴿وَقَتْلَهُمُ﴾.

وهو معطوف على قوله: ﴿مَا قَالُواْ﴾ أي: سنكتب قولهم وقتلهم الأنبياء، وفي عطفه على قوله: ﴿مَا قَالُواْ﴾ ونضمه معه إيذانًا بسوابقهم القبيحة فلا يستبعد منهم أي جرم.

و﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ جمع «نبي»، والمراد به: ما يشمل الأنبياء والرسل.

---

(١) أخرجه النسائي في الطلاق، باب في الظهار (٣٤٦٠)، وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (١٨٨).

﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الضمير في «قتلهم» وهذا قيد كاشف؛ لأن قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق.

وفائدة هذا القيد أمران؛ الأول: بيان الواقع، وأنهم يقتلون الأنبياء بغير حق. والثاني: المبالغة في التشنيع عليهم حيث يقتلونهم بغير موجب لقتلهم، بل ظلمًا وعدوانًا.

﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ معطوف على ﴿سَنَكۡتُبُ﴾.

قرأ حمزة بالياء: «ويقول»، وقرأ الباقون بالنون: ﴿وَنَقُولُ﴾.

وفي هذا وعيد وتهديد لهم، أي: ونقول لهم؛ تبكيتًا وتقريعًا وإهانة لهم وتحقيرًا ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي: تجرعوه وأحسوا به وتألموا.

وهذا عذاب معنوي ينصب على القلوب مع العذاب الحسي، كما قال تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩].

﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي: عذاب النار المحرقة، كما قال تعالى: ﴿فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾.

هذا من جملة مقول القول، أي: ونقول لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، ونقول لهم: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى توبيخهم وعقابهم بقوله: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، والباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية.

أي: بسبب الذي قدمت أيديكم، أو بسبب تقديم أيديكم، أي: ذلك الذي عوقبتم به بسبب الذي قدمت أيديكم وعملت أنفسكم. وإنما يضاف التقديم إلى الأيدي؛ لأنها أداة البطش والعمل والأخذ والعطاء، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ [النبأ:٤٠].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ معطوف على «ما» في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ﴾

أي: ذلك بما قدمت أيديكم، وبأن الله ليس بظلام للعبيد.

و(ظلام) هنا على وزن «فعّال»، يراد بها النسبة، أي: ليس بذي ظلم للعبيد، فلا يظلم أحدًا منهم، لا بقليل ولا بكثير؛ لأنه- عز وجل- حرَّم الظلم على نفسه، قليله وكثيره، وجعله بين عباده محرمًا.

﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ «العبيد» جمع «عبد» والمراد بالعبودية هنا العبودية العامة، عبودية الخضوع والانقياد الكوني، الذي يشمل المؤمن والكافر، وجميع الخلق، فالله- عز وجل- لا يظلم أحدًا من الخلق، بل يجازي كلًا بعمله، المحسن بإحسانه، والمسيئ بعدله.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾.

هذا أيضًا من كذب اليهود وافتراءاتهم الباطلة على الله تعالى.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل جر صفة لـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾.

﴿عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ أي: أمرنا وأوصانا وصية موثقة بالعهد في كتبه وعلى ألسنة رسله ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ «أن»: حرف مصدري ونصب، و«لا»: نافية، والمصدر المؤول ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ﴾ في محل جر بـ«في» مقدرة، والتقدير: في ألا نؤمن، أي: في عدم الإيمان.

والمعنى: ألا نصدق لأي رسول أيًا كان فيما جاء به.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾: للغاية، أي: إلى غاية أن يأتينا ﴿بِقُرْبَانٍ﴾ القربان: ما يتقرب به إلى الله تعالى من الصدقات من الأطعمة والذبائح وغير ذلك.

ومعنى ﴿يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ﴾ أي: بأن يتقرب إلى الله بقربان ثم تنزل نار من السماء فتأكل كل هذا القربان.

وكان هذا علامة على قبول القربان، كما قال بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى عن بني آدم: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]. قالوا: فتقبل من أحدهما بأن نزلت نار من السماء فأكلت قربانه دون قربان أخيه.

وهكذا كانت الغنائم في الأمم السابقة إذا غنموا غنيمة من الكفار جمعوها ثم نزلت نار من السماء فأكلتها، حتى أحل الله- عز وجل- الغنائم لهذه الأمة، كما قال ﷺ: «**وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي**»(١).

فزعموا أن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا ولا يصدقوا لأي رسول إلا إذا أتاهم بهذه الآية، بأن يقرب أو يقربوا قربانًا فتأكله النار، فحصروا آية الرسل بهذا، وهذا تحكم على الله- عز وجل- وعلى رسله.

وآيات الرسل ومعجزاتهم إنما تكون على ما يناسب هداية وإصلاح أقوامهم، كما قال ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(٢).

﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ الأمر في قوله: ﴿قُلۡ﴾ للنبي ﷺ. أي: قل لهم إظهارًا لكذبهم.

﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ﴾، ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق. ونكَّر ﴿رُسُلٞ﴾ للتكثير، أي: قد جاءكم رسل كثيرون.

﴿مِّن قَبۡلِي﴾أي: من قبل مجيئي وبعثتي.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: بالآيات والحجج والبراهين والدلائل الواضحات الشرعية والكونية التي تبين وتبرهن على صدق رسالاتهم.

﴿وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ﴾: معطوف على البينات، أي: جاءكم رسل من قبلي بالبينات،

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١)، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١)، ومسلم في الإيمان (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وجاؤوكم بالذي قلتم، وهو الإتيان بقربان تأكله النار.

﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر دل عليه ما بعده، أي: إن كنتم صادقين فلم قتلتموهم، وكان من هؤلاء الرسل الذين قتلوهم زكريا ويحيى عليهما السلام.

واللام في: «لِمَ»: حرف جر، و«ما»: استفهامية، حذفت ألفها لدخول حرف الجر عليها. أي: فلم قتلتموهم، وقد جاؤوكم بالآيات البينات، وبالذي قلتم، والاستفهام للإنكار.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في أن الله عهد إليكم بما قلتم، وأنكم تؤمنون بالرسل إذا جاؤوكم بهذه الآية التي طلبتم.

وقد عدل هنا عن مطالبتهم بصدق مقالتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾- إلى قوله لهم: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ من باب موافقة الخصم والتسليم له؛ لإفحامه، ودحض حجته، أي: إذا كنتم تزعمون أن الله عهد إليكم ألا تؤمنوا لرسول حتى يأتيكم بقربان تأكله النار فقد جاءكم رسل من قبلي بهذه الآية التي ذكرتم، وبما هو أعظم منها من الآيات البينات، فلم كذبتموهم وقتلتموهم؟

فلو كنتم صادقين في طلبكم هذه الآية لكنتم آمنتم بمن جاؤوكم من قبلي بها، وبأعظم منها، أي: أنكم لا تريدون تصديق الرسل، وإنما تريدون تكذيبهم، ولستم بصادقين في أن الله عهد إليكم بما ذكرتم، ولا أنكم تؤمنون بالرسول لو جاءكم بذلك.

وفي تقديم قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: دلالة على أن ما جاءت به الرسل من الآيات أعظم من الآية التي طلبوها، وأن الآية التي طلبوها وهي الإتيان بقربان تأكله النار دون تلك الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

في هذه الآية تسلية للنبي ﷺ تجاه تكذيب قومه له.

قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ الفاء: عاطفة، والخطاب للنبي ﷺ، والواو في ﴿كَذَّبُوكَ﴾

لكل من كذب الرسول ﷺ من أهل الكتاب والمشركين وغيرهم.

﴿ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط، وجواب الشرط محذوف دل عليه قوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ والتقدير: فإن كذبوك فتسلَّ، أو فلا تحزن فقد كذب رسل كثيرون من قبلك. أي: كذبهم أقوامهم، أي: فهذه سنة قديمة في الأمم مع الرسل قبلك.

وفي الآية الأخرى: ﴿ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [فاطر:٤]، لأن ﴿رُسُلٌ﴾ جمع تكسير، وجمع التكسير يجوز فيه إثبات التاء وحذفها.

﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ صفة لـ: ﴿رُسُلٌ﴾ أي: فليس تكذيب أممهم لهم عن قصور بما أتوا به أو عدم تبين حجة، بل قد جاؤوا ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي: بالآيات البينات والحجج والبراهين الواضحات الدالة على صدقهم.

﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ قرأ ابن عامر بإعادة الباء: «وبالزبر»، وقرأ الباقون بدونها: ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾، وهي: جمع «زبور»، وهو «فعول» بمعنى «مفعول»، أي: مزبور، بمعنى مخطوط. وقيل: مأخوذ من «زبر»: إذا زجر.

والمراد بالزبر: كتب الأنبياء والرسل، مما يتضمن مواعظ وزواجر وتذكير، مثل كتاب داود عليه السلام «الزبور»، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء:١٦٣]، وكذا الإنجيل.

﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ الواو: عاطفة، و﴿وَٱلْكِتَٰبِ ﴾ بمعنى «المكتوب» و«ال» فيه للجنس، أي: جنس الكتب التي انزلها الله تعالى كالتوراة والإنجيل.

﴿ٱلْمُنِيرِ ﴾ صفة لـ(الكتاب) أي: البين الواضح الجلي، المبين للحق، المنير لطريق الهداية، الذي فيه بيان الأحكام الشرعية.

ويحتمل كون «ال»: للعهد، والمراد بـ«الكتاب»: التوراة، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة:٤٤].

وقد قال تعالى عن الإنجيل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٦].

كما قال تعالى عن القرآن الكريم: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ

﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن:٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

والعطف في قوله: ﴿وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ منظور فيه إلى التوزيع، فبعض الرسل جاء بالزبر، وبعضهم جاء بالكتاب المنير، وكلهم جاؤوا بالبينات.

ويحتمل أن يكون العطف هنا: من عطف الصفات لا من عطف الذوات، أي: أن ما جاءت به الرسل مشتمل على الآيات البينات والحجج والبراهين، وعلى الزبر والمواعظ، وعلى بيان الحق للناس وإنارة الطريق لهم، وهذا حق.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ ﴿كُلُّ﴾ من صيغ العموم.

و﴿نَفْسٍ﴾ تطلق على الروح والبدن، أي: كل الأنفس ذائقة الموت، أي: ذائقة طعم الموت، أي: لابد أن تموت وتذوق وتتجرع غصص الموت وسكراته، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق:١٩].

وقال ﷺ وهو يجود بروحه: «**لا إله إلا الله، إن للموت سكرات**»(١).

قال الشاعر:

لكـل جديـد لـذة غـير أننـي ... وجدت جديد الموت غير لذيذ(٢)

والمعنى: كل نفس من أنفس الإنس والجن والملائكة وجميع ما خلق الله من الحيوانات ستموت، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٤٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) البيت لضابئ بن الحارث، وينسب للحطيئة. انظر: «أمثال العرب» (ص٩٦)، «الأغاني» (٢/ ١٨)، «مجمع الأمثال» (٢/ ٢٢٣)، «المستقصى في أمثال العرب» (٢/ ٢٩١)، «نهاية الأرب» (٣/ ٢٩٧)، «خزانة الأدب» (٢/ ٤١١)، «زهر الأكم» (٣/ ٢٢).

مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨].

وفي الحديث: «**يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه**»[١].

وقال الشاعر:

هـو المـوت مـا منـه مـلاذ ومهـرب ... متى حط ذا عن نعشه ذاك يركـب[٢]

وقال الآخر:

ومن لم يمت بالسيف مـات بغـيره ... تعددت الأسباب والموت واحـد[٣]

وقال الآخر:

ولـو كانـت الـدنيا تـدوم لأهلهـا ... لكـان رسـول الله حيًّـا مخلـدا[٤]

وقال الآخر :

تَعَـزَّ فـلا شيءٌ عـلى الأرض باقيًـا ... ولا وَزرٌ ممـا قضـى الله واقيًـا[٥]

وقال الآخر:

لا شيء ممـا تـرى تبقـى بشاشـته ... يبقى الإلـه ويفنى المـال والولـد[٦]

وقال الآخر:

كُتـب المـوت عـلى الخلـق فكـم ... فَـلّ مـن جمـع وأفنـى مـن دُوَل[٧]

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ الواو: عاطفة، و«إنما»: أداة حصر،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت للشاعر محمد بن صالح العثيمين، شاعر حوطة بني تميم من قصيدة مؤثرة في رثاء صديقه عبدالله العجيري، ملحقة بآخر «ديوان ابن مشرف» ص١٨٧.

(٣) البيت لابن نباتة السعدي. انظر: «الدر الفريد» (٧/ ٤٤٧)، «المغني» للسيوطي (٣٧٩).

(٤) انظر: «الكشكول» (١/ ٢٨٩)، والبيت ينسب لحسان.

(٥) البيت لم ينسب لقائل. انظر: «الجنى الداني» (ث٩٢)، «أوضح المسالك» (١/ ٢٧٥)، «المغني» للسيوطي (٦١٢).

(٦) البيت ينسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر: «الإمتاع والمؤانسة» (ص٣٤٧)، «العمدة في محاسن الشعر» (١/ ٣٤).

(٧) البيت لأبي الوردي. انظر: «ديوانه» (ص٧١).

أي: لا توفون أجوركم إلا يوم القيامة.

ومعنى: ﴿تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: تعطون ثواب أعمالكم وافيًا من غير نقصان يوم القيامة. وهذا لا ينافي أن ينالوا شيئًا من ثواب أعمالهم في البرزخ، كما لا ينافي أن ينالوا شيئًا من ثواب أعمالهم في الدنيا؛ لأن الإنسان يجد شيئًا من آثار عمله في الدنيا فإن كان عمله صالحًا وجد من آثار السعادة بقدر ذلك وإن كان عمله سيئًا وجد شيئًا من آثار ذلك، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

وأما توفية الأجور على التمام والكمال فإن ذلك لا يكون إلا في الآخرة.

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾، الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية، و﴿زُحْزِحَ﴾: فعل الشرط، ومعنى ﴿زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾، أي: أبعد ودفع عنها ببطء وشدة ومشقة، ولو بعد جهد جهيد؛ لأن النار حفت بالشهوات، وقيل: أبعد عنها بسرعة وعجلة.

﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ﴾ معطوف على ما قبله.

﴿فَقَدْ فَازَ﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط، أي: فقد أفلح وربح كل الربح؛ لأنه نجا من المرهوب وهي النار، وحصل على المطلوب وهي الجنة- نسأل الله تعالى من فضله.

وهذا يحتاج إلى عمل، قال ﷺ: «**فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه**»[(١)].

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: نافية.

و﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ هذه الدار التي نحن فيها، وسميت دنيا؛ لدنوها زمنًا فهي قبل الآخرة من حيث الزمن، ولدنوها وانحطاطها قدرًا، فهي لا قيمة لها بالنسبة للآخرة، كما

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة- وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول (١٨٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٦)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

قال ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»[(١)].

وقال ﷺ: «موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها»[(٢)].

﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، والمتاع: ما يتمتع به ثم ينتهي. و﴿ٱلْغُرُورِ﴾: الخداع، أي: وما الحياة الدنيا إلا متعة تغر صاحبها وتخدعه، كما قال تعالى في سورة الحديد: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الآية:٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد:٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨].

وكم من أناس اغتروا وانخدعوا فيها وفي زينتها وزخرفها، فتحول عزهم ذلًا وغناهم فقرًا، وفرحهم وسرورهم ترحًا وبؤسًا.

وإذا أردت أن تنظر إلى غرورها العاجل وحقارتها فتأمل في أحوال المنوَّمين على الأسرة في المستشفيات أو في البيوت، ممن فقدوا وعيهم أو كادوا أن يفقدوه، وارث لحالك، ولا ترث لحالهم.

قال الشاعر:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشَّفت ... له عن عدو في ثياب صديق[(٣)]

وقال الآخر:

هي الحياة فلا يغررك ما فيها ... من الزخارف واحذر من دواهيها

وقال الآخر:

إياك والدنيا الدنية إنها ... هي السحر في تخييله وافترائه

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. وقال: «حديث صحيح غريب».

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير- فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٨٩٢)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٨)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٣) البيت لأبي نواس. انظر: «ديوانه» (ص١٩٢).

متاع غرور لا يدوم سرورها — وأضغاث حلم خادع ببهائه[١]

وقال الآخر:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض — على الماء خانته فروج الأصابع[٢]

وقال الآخر:

هي الدنيا تقول بملء فيها — حذار حذار من بطشي وفتكي
فلا يغرركمُ مني ابتسام — فقولي مضحك والفعل مبكي[٣]

وقال الآخر:

هي الليالي وقاك الله صولتها — فضول حتى على الآساد في الأجم
كنا ملوكًا لنا في أرضنا دول — نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صبب — يرمى بأفجع حتف من بهن رمي[٤]

وقال الآخر:

ومكلف الأيام ضد طباعها — متطلب في الماء جذوة نار
وإذا رجوت المستحيل فإنما — تبني الرجاء على شفيرٍ هار[٥]

الفوائد والأحكام:

١- إثبات صفة السمع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾، فهو- عز وجل- ذو سمع واسع، يسمع جميع الأصوات، جهرها وخفيها.

٢- تهديد اليهود بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ فأخبر عز وجل بسماع قولهم تهديدًا لهم، وأقسم على ذلك وأخبر بكتابته تأكيدًا لذلك.

٣- شدة عداوة اليهود لله تعالى ووقاحتهم وجرأتهم العظيمة على الله تعالى بقولهم:

---

(١) البيتان لابن مشرف. انظر: «ديوانه» (ص٧٨).

(٢) البيت لأبي نواس. انظر: «العقد الفريد» (٣/ ٤٧).

(٣) البيتان لأبي الفرج الساوي. انظر: «أحسن ما سمعت» للثعالبي (ص٥٣).

(٤) الأبيات لأبي عبدالله العقيلي. انظر: «نفح الطيب» (٤/ ٥٢٩).

(٥) البيتان لأبي الحسن التهامي. انظر: «ديوانه» (ص٢٨).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

٤- شدة غرور اليهود واستكبارهم وبغيهم، حيث وصفوا الله بالفقر والنقص، وأثبتوا الكمال والغنى لأنفسهم.

٥- إثبات كتابة أعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾.

٦- قتل اليهود لكثير من الأنبياء، وتكذيبهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾.

٧- جمع اليهود بين الطعن في توحيد الله بوصفه بالفقر، والطعن في رسله بتكذيبهم وقتلهم، فلم يحققوا شهادة أن لا إله إلا الله، ولم يشهدوا لرسله بالصدق، بل كذبوهم وقتلوهم.

٨- أن قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فهذا قيد لبيان الواقع.

٩- إثبات القول والكلام لله تعالى بحرف وصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ الآية.

١٠- الجمع لهؤلاء بين العذاب الحسي البدني بالحريق بالنار وبين العذاب المعنوي النفسي بالتوبيخ والإهانة؛ كقوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

١١- الرد على من قال: إن أهل النار يكونون جهنميين لا يحسون بألمها؛ لقوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى:١٢-١٣]. أي: لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة طيبة، بل حياة شقاء وعذاب.

١٢- أن ما هدد الله به اليهود وتوعدهم به من العذاب البدني والنفسي بسبب ما قدمته أيديهم، أي: بسبب ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

١٣- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

١٤- أن مجازاة الله تعالى للخلائق بحسب أعمالهم.

١٥- نفي الظلم عن الله- عز وجل- وأنه- سبحانه- لا يظلم أحدًا من الخلق ولا

مثقال ذرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ كما قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال:٥١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠].

وذلك؛ لكمال عدله؛ لأن الصفات المنفية تدل على كمال ضدها.

١٦- كذب اليهود وافتراؤهم على الله- عز وجل- بقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾.

١٧- إفحام اليهود ودحض حجتهم بما يدعونه، فقد ادعوا أن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار فلم يطلب منهم عز وجل دليلًا على صدق قولهم، ولا أكذبهم فيه، بل قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وبهذا برهن على كذبهم وعدم صدقهم في دعواهم، لأنهم لو كانوا صادقين في دعواهم لآمنوا بالرسل الذين جاؤوهم بهذه الآية التي طلبوها، وبما هو أعظم منها من الآيات البينات. وحيث لم يؤمنوا بهم بل كذبوهم وقتلوهم دل هذا على عدم صدقهم في هذه الدعوى، وأن قصدهم إنما هو تكذيب الرسل، وهذا من باب موافقة الخصم والتنزل معه؛ لإفحامه ودحض حجته.

١٨- تصديق النبي ﷺ وشهادته للرسل من قبله، وما جاؤوا به من البينات؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

١٩- أن اليهود قد جاءتهم رسل من قبله ﷺ بالبينات، وبالذي قالوه، أي: بقربان تأكله النار؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ﴾.

٢٠- تسلية النبي ﷺ تجاه تكذيب قومه بذكر تكذيب الأمم قبله لرسلهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أي: فإن كذبك قومك فقد كُذب رسل كثيرون من قبلك كذبهم أقوامهم، فلست أول رسول يُكّذب، ولا قومك أول المكذبين للرسل، ولا شك أن في هذا تسلية

له وتهويناً لمصابه، كما قالت الخنساء(١):

ولـولا كثـرة البـاكين حـولي	عـلى إخـوانهم لقتلـت نفسـي
ومـا يبكـون مثـل أخـي ولكـن	أسـلي الـنفس عنـه بالتـأسي

٢١- في تسلية النبي ﷺ بذكر ما جرى لمن قبله من الرسل من التكذيب حث له على التأسي بهم والصبر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ [الأنعام:٣٤].

٢٢- إقامة الرسل السابقين الحجة على أممهم بما جاؤوا به من الآيات البينات والمواعظ والشرع المبين للحق من الباطل والهدى من الضلال والحلال من الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

٢٣- أن الرسل- عليهم الصلاة والسلام- مشاعل نور ومنارات هدى في أقوامهم فيما جاؤوا به من الوحي من عند الله- وأعظمهم وأفضلهم في ذلك خاتمهم محمد ﷺ.

٢٤- أن الموت حق لابد منه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

٢٥- أن توفية الأجور بكمالها وتمامها إنما تكون يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهذا لا ينافي مجازاة الإنسان بشيء من عمله في الدنيا، وكذا في البرزخ- كما هو مقتضى النصوص. لكن توفية الأجور كاملة إنما تكون يوم القيامة.

٢٦- الحث على المبادرة بالأعمال الصالحة، والاستزادة منها قبل فوات الأوان، وحلول الموت.

٢٧- إثبات القيامة، وما فيها من الحساب والجزاء.

٢٨- أن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز؛ لنجاته من المرهوب، وحصوله على المطلوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

٢٩- حقارة الدنيا والتزهيد فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

---

(١) انظر: «ديوانها» (ص٨٤).

٣٠- التحذير من الاغترار بالدنيا، وزخرفها، ومتاعها الزائل، والانخداع بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾.

وقد قال ﷺ: «**فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم**»[1].

* * *

(١) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٥٨)، ومسلم في الزهد والرقاق (٢٩٦١)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٢)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٧)، من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)﴾.

قوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ اللام: واقعة في جواب قسم مقدر، والتقدير: والله لتبلون، فالجملة مؤكدة بلام القسم، وبالقسم المقدر، ونون التوكيد، والخطاب للمؤمنين، فأخبر عز وجل المؤمنين بأنهم سيبتلون بما ذكر، وأقسم على تحقيق ذلك وأكده.

والابتلاء: الاختبار، ويكون في الشر والخير، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، وكما قال تعالى عن سليمان: ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠].

وقال ﷺ: «**يبتلى المرء على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه**»(١).

والمعنى: لتبلون في أموالكم في إنفاقها في الجهاد في سبيل الله، وفي غير ذلك من النفقات الواجبة والمستحبة، وفيما يصيبها أيضًا من الآفات والجوائح، وتسلط الكفار عليها.

﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾، أي: ولتبلون في أنفسكم بالجهاد في سبيل الله، وفي غير ذلك

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

من التكاليف، وفيها يصيبكم من القتل والجراح والأمراض وغير ذلك، في ذات أنفسكم وفيمن تحبون، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦].

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾: معطوف على ﴿ لَتُبْلَوُنَّ ﴾ مؤكد مثله بلام القسم وبالقسم المقدر، ونون التوكيد.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يعني: من اليهود والنصارى.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ ﴾ أي: ومن الذين أشركوا بالله من قريش وغيرهم من المشركين.

﴿أَذًى كَثِيرًا ۚ﴾ من القول، من الطعن فيكم وفي دينكم وكتابكم ورسولكم، ومن الافتراء على الله ووصفه بما لا يليق كما قال اليهود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران:١٨١]، وقولهم: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ ﴾ [المائدة:٦٤]، وقولهم: ﴿ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٠]، وقولهم: «استراح يوم السبت»[1]، وغير ذلك.

وكقول النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ﴾ [التوبة:٣٠].

وكقول اليهود للنبي ﷺ: «راعنا» ويورون بالرعونة.

وكقول المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ سحر أو كهانة، ونحو ذلك، كما قال تعالى عنهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف:٦]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر:٢]، وقال تعالى: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥].

وقولهم عنه ﷺ بأنه ساحر كذاب وكاهن ومجنون وشاعر، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص:٤]، وقال تعالى: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الفرقان:٨]، وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴾ [الصافات:٣٦].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢١/ ٤٦٥-٤٦٧).

فهو أذى كثير، ويؤذي كثيرًا، لكنه لا يضر المؤمنين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَذَىٰ كَثِيرًا﴾ ولم يقل: «ضررًا كثيرًا»، كما قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران:١١١].

﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾، الواو: استئنافية، والصبر: الحبس والمنع، أي: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

وهو أقسام ثلاثة؛ صبر على طاعة الله تعالى، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

والمعنى: وإن تصبروا على ما ابتليتم به في أموالكم وأنفسكم، وعلى ما سمعتم من الذين أوتوا الكتاب ومن المشركين من الأذى الكثير.

والصبر من أعظم ما يعين بتوفيق الله على تخطي الصعاب، وتحقيق الآمال، والقيام بالأعمال، وهو من أفضل الأعمال، وفي الحديث: «**وما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**»[1].

﴿وَتَتَّقُوا﴾ أي: وتتقوا الله- عز وجل- بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

والمراد بالتقوى هنا- والله أعلم- اتقاء ما نهى الله تعالى عنه من التجاوز والاعتداء على سبيل الانتقام ممن اعتدى عليكم وآذاكم، بل عاملوه بالعدل، وهذا يدل على أنه ليس المراد بالصبر: ترك القتال، وعدم ردع المعتدي والمؤذي.

﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، والإشارة إلى ما رغب الله فيه من الصبر والتقوى، أي: فإن ذلك، أي: المذكور.

﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، «عزم الأمور» من إضافة الصفة إلى الموصوف، و«العزم» هنا: مصدر بمعنى اسم المفعول، أي: من الأمور التي يعزم عليها، والعزم: إمضاء الرأي، وعدم التردد بعد تبين الرأي، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٣)، وأبوداود في الزكاة (١٦٤٤)، والنسائي في الزكاة (١٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران:١٥٩]. وكما قيل:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة   فإن فساد الرأي أن تترددا[١]

فالصبر وتقوى الله مما عزم الله عليه وأمر به وأكّده، ومن عزائم الأمور التي يتنافس فيها المتنافسون، وهي من الصفات العالية التي وصف بها الكُمّل من الخلق، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]، ولا يوفق لها إلا أهل الهمم العالية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥].

قال ابن كثير[٢]: «فكان من قام بحق أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر فلابد أن يؤذى، فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله عز وجل».

وقد روى عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد- رضي الله عنه- أخبره قال: كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى، قال الله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ﴾ الآية. قال: وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم»[٣].

وظاهر معنى الآية وسياقها أنها نزلت بعد أُحد، أي بعد الأمر بالقتال. فهي تؤكد حصول الابتلاء في الأموال ببذلها في الجهاد وغير ذلك، والابتلاء بالنفوس بالتضحية بها في القتال في سبيل الله، وما يصيبها من الجراح والألم في ذلك، والصبر على ذلك وتقوى الله بعدم الاعتداء والتجاوز في الانتقام.

وأحسن ما في هذا أن يحمل قول أسامة رضي الله عنه: «وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله حتى أذن الله فيهم» على أنه ليس المراد به الإذن بالقتال ومشروعيته فقد كان مشروعًا قبل نزول الآية، وإنما المراد به الإذن الكوني. وكل من القتال والصبر والصفح مأمور به في الوقت والمقام المناسب له.

---

(١) البيت للمنصور. انظر: «زهر الآداب» (١/ ٢٥٧).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ١٥٧).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٣٤)، وأخرجه البخاري مطولًا في التفسير (٤٥٦٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، الواو: استئنافية، و«إذ»: ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بمحذوف، والتقدير: اذكر إذ أخذ الله.

والميثاق: العهد الثقيل المؤكد، سمي بذلك أخذًا من الوثاق، وهو الحبل الذي يشد به ويربط، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمد:٤].

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الذين أعطوا الكتاب وهم اليهود والنصارى، أخذ الله عليهم الميثاق بما أنزل عليهم في التوراة والإنجيل.

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو وعاصم في رواية أبي بكر بياء الغيبة: «ليبيننه»، وقرأ الباقون بتاء الخطاب على الالتفات: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾، واللام في ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾: للقسم، أي: والله لتبيينه للناس.

والضمير في ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾، وفي ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ يعود إلى ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، وما أخذه الله عليهم فيه من الميثاق من الإيمان والعمل بما فيه، ومن ذلك الإيمان بمحمد ﷺ وأتباعه.

ومعنى ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾: أي: لتظهرنه للناس وتوضحنه لهم، عملًا به وبيانًا وتعليمًا له، وهو ميثاق على كل من أعطاهم الله الكتب، وعلمهم العلم أن يبينوا للناس ما يحتاجون إليه.

﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾: معطوف على ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾، داخل ضمن المقسم عليه، أي: ولا تخفونه عن الناس، وهو تأكيد من حيث المعنى لقوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾؛ لأن البيان ضد الكتمان، أي: لتبينه للناس بيانًا تامًا لا كتمان فيه.

والكتمان قد يكون بإخفاء بعض الآيات، كما قال تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام:٩١].

وقد يكون الكتمان بتحريف معاني بعض الآيات، وحملها على معان باطلة، وكتمان

معانيها الحقيقية، ومن ذلك قول النصارى: إن محمد بن عبدالله ليس هو الذي بشر به عيسى؛ لأن الذي بشر به عيسى اسمه: «أحمد»، وهذا اسمه محمد. وبهذا كتموا ما أخذ الله عليهم من الميثاق بالإيمان به وتصديقه واتباعه.

﴿فَنَبَذُوهُ﴾ الفاء: للتعقيب، وفيها إشارة إلى مسارعتهم إلى ذلك، وضمير الهاء في «نبذوه» يعود إلى الكتاب، وإلى ما أخذه عليهم من الميثاق في بيانه وعدم كتمانه.

أي: فطرحوه ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾، أي: خلفهم، ولم ينبذوه بين أيديهم وأمامهم، بل نبذوه وراء ظهورهم من شدة الإعراض عنه والاستكبار، والاستخفاف به، وعدم المبالاة، وإضاعته وإهماله، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود:٩٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [البقرة:١٠٠].

﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ﴾، أي: واستبدلوا بالكتاب، وبما أخذ الله عليهم من الميثاق بالإيمان به والعمل بما فيه وبيانه وعدم كتمانه.

﴿ثَمَنًا﴾ من الرشوة ومتاع الدنيا، والجاه والمنصب والرياسة.

﴿قَلِيلًا﴾ أي: زهيدًا حقيرًا، وكل ما في الدنيا قليل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨].

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ الفاء: استئنافية، و«بئس»: فعل ماض جامد؛ لإنشاء الذم، و«ما»: نكرة موصوفة، في محل نصب تمييز للضمير المستتر في «بئس»، ويجوز كونها مصدرية. والمصدر المؤول منها ومن الفعل بعدها في محل نصب تمييز للضمير المستتر.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾.

أخرج البخاري ومسلم أن مروان بن الحكم قال: اذهب يا رافع - لبوابه- إلى ابن

عباس، فقل: لئن كان كل امرئٍ منا فرح بما أوتي معذبًا، لنعذبن أجمعون؟ فقال ابن عباس: «وما لكم وهذه، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾».

وتلا ابن عباس: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ الآية. وقال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه، وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه»[1].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن رجالًا من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذ خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ الآية»[2].

وفي رواية: أن مروان بن الحكم قال لأبي سعيد الخدري رضي الله عنه: يا أبا سعيد، رأيت قول الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ ونحن نفرح بما أتينا ونحب أن نحمد بما لم نفعل؟ فقال أبوسعيد: إن هذا ليس من ذاك، إنما ذاك أن ناسًا من المنافقين كانوا يتخلفون إذا بعث رسول الله ﷺ بعثًا، فإن كان فيهم نكبة فرحوا بتخلفهم، وإن كان لهم نصر من الله وفتح حلفوا لهم؛ ليرضوهم ويحمدوهم بالنصر والفتح. فقال مروان: أين هذا من هذا؟ فقال أبوسعيد: وهذا يعلم هذا- يعني- زيد بن ثابت. فقال مروان: أكذلك يا زيد؟ قال: نعم صدق أبوسعيد. ثم

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٦٨)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٧٨)، والترمذي في التفسير (٣٠١٤)، وأحمد (١/ ٢٩٨)، والواحدي ص(٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٦٧)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٧٧)، والطبري في «جامع البيان» (٦/ ٣٠٠)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(٩١).

قال أبو سعيد: وهذا يعلم ذاك- يعني رافع بن خديج..»[١].

وقد اختار بعض المفسرين- منهم الطبري- أن الآية نزلت في أهل الكتاب.

واختار بعضهم- منهم القرطبي، وابن كثير وغيرهم- أنها نزلت في الفريقين، من أهل الكتاب والمنافقين[٢].

قال ابن كثير[٣]: «ولا منافاة بين ما ذكره ابن عباس وما قاله هؤلاء؛ لأن الآية عامة في جميع ما ذكر. والله أعلم».

قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم ويعقوب بتاء الخطاب: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصح خطابه، أي: لا تظنن أيها المخاطب.

وقرأ الباقون بياء الغيبة «لا يحسبن» أي: لا يظنن هؤلاء الذين يفرحون. وقرأ بعضهم بكسر السين، وبعضهم بفتحها من ﴿تَحْسَبَنَّ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ من أهل الكتاب والمنافقين وغيرهم.

﴿بِمَآ أَتَوا۟﴾ «ما»: موصولة، أي: بالذي أتوا، أي: بالذي فعلوا من كتمان ما أخذ الله عليهم من الميثاق في كتابه، ومن ذلك كتمان أمر النبي ﷺ، ونبذ كتاب الله وميثاقه خلف ظهورهم، والاستبدال به ثمنًا قليلًا من الدنيا، ومن النفاق بإظهار الإيمان وإبطان الكفر.

﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟﴾، الواو: عاطفة، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول، أي: ويحبون حمد الناس لهم.

﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ «ما» موصولة، أي: بالذي لم يفعلوه.

أي: ويحبون أن يحمدهم الناس على الذي لم يفعلوه من الإيمان والصلاح وبيان الحق واتباعه.

---

(١) أخرجه ابن مردويه فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٥٨).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣٠٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٣٠٦-٣٠٧)، «فتح الباري» (٩/ ٣٠١، ٣٠٢).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ١٥٨).

والآية وإن كانت نازلة على سبب خاص فهي عامة في كل من فرح بما أتى من الباطل من الكفر والبدع والمعاصي وأحب أن يحمد بما لم يفعل من الإيمان واتباع الحق والطاعة؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو بياء الغيبة وضم الباء: «يحسبُنهم» أي: فلا يظنن هؤلاء أنهم ﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

وقرأ الباقون بتاء الخطاب وفتح الباء: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ أي: فلا تظننهم أيها المخاطب، كما قرأ بعضهم بكسر السين وبعضهم بفتحها.

﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾، «المفازة»: مكان الفوز والنجاة، أي: فلا يظنن أنفسهم ولا تظننهم أيها المخاطب بمكان يفوزون به وينجون به من العذاب، فلا نجاة لهم من العذاب، بل سيصيرون إليه، ولهذا قال:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ولهم عذاب مؤلم موجع حسيًّا للأبدان ومعنويًّا للأنفس والقلوب، وقدّم الخبر؛ لتأكيد عذابهم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

توعَّد عز وجل الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من أهل الكتاب والمنافقين بالعذاب الأليم، ثم أتبع ذلك ببيان أن له ملك السموات والأرض، وأنه على كل شيء قدير، في إشارة واضحة إلى أن تعذيبه لهم أمر يسير عليه؛ لكمال ملكه وتمام قدرته، وفي هذا تحذير لهم ولغيرهم عن مخالفته ومعصيته، كما أن في هذا تكذيبًا لقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١].

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾، الواو: استئنافية، (لله): جار ومجرور خبر مقدم، للدلالة على الحصر والاختصاص، وأن له- عز وجل- وحده ملك السموات والأرض، هو المالك لذلك كله والمتصرف فيه.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، «القدرة»: التمكن من الفعل بلا عجز، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾

[فاطر:٤٤]. فقابل عز وجل العجز بالقدرة، وقدم المتعلِّق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على المتعلَّق به ﴿قَدِيرٌ﴾؛ لتأكيد عموم قدرته وشمولها لكل شيء.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله- عز وجل- على ما أخبر به بقوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ الآية- وهو أصدق القائلين؛ تأكيدًا لذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦].

٢- ابتلاء المؤمنين في أموالهم، بالإنفاق في الجهاد في سبيل الله، وفي غير ذلك من وجوه الإنفاق الواجبة والمستحبة، وبما يصيبهم في أموالهم من الجوائح والآفات، وتسلط الكفار عليها، وابتلاؤهم في أنفسهم بالجهاد في سبيل الله، وما يصيبهم في ذلك من قتل وجراح وألم، وبما يصيبهم من الأمراض وغير ذلك؛ ليتميز الصابر المتقي من غيره؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

٣- أذى أهل الكتاب والمشركين للمؤمنين بما يسمعه المؤمنون منهم من قبيح القول؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾، وهذا من الابتلاء.

٤- توطين نفوس المؤمنين بإخبارهم بالابتلاء في أموالهم وأنفسهم وسماع أذى أهل الكتاب والمشركين قبل وقوعه، مما يهون عليهم وقعه والصبر عليه إذا وقع، كما أن في ذلك زيادة لإيمانهم ويقينهم إذا وقع كما أخبر الله تعالى به، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢].

٥- أن الابتلاء في الأموال من أعظم ما يبتلى به، ولهذا قدمه الله- عز وجل- على الابتلاء بالأنفس؛ لأن المال قوام الحياة، وتلفه وهلاكه قد يكون سببًا لتلف الأنفس وهلاكها.

٦- أن أهل الكتاب وبخاصة اليهود أشد أذى للمسلمين من المشركين، لهذا قدموا

عليهم في الآية، وذلك لشدة عداوتهم للمسلمين، كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة:٨٢].

٧- ينبغي الحذر من أهل الكتاب والمشركين، والاحتراز ما أمكن منهم ومن أذاهم والاستعداد لدحض باطلهم وافتراءاتهم.

٨- الحث على الصبر والتقوى والترغيب فيهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾.

٩- فضيلة الصبر والتقوى وأنهما من عزائم الأمور؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

١٠- ينبغي أخذ الأمور بالعزم؛ لأن الله امتدحه؛ لما فيه من صلاح الأمور والأحوال.

١١- التذكير بما أخذه الله على أهل الكتاب من الميثاق، من بيان ما أنزله الله عليهم وعدم كتمانه، وبخاصة الإيمان بمحمد ﷺ؛ توبيخًا وتهديدًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾.

١٢- شدة إعراض أهل الكتاب واستكبارهم واستهانتهم بما أخذه الله عليهم من الميثاق لبيان الكتاب، حيث نبذوه وراء ظهورهم ولم يبينوه بل كتموه؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

١٣- استبدال أهل الكتاب بماأخذه الله عليهم من الميثاق ثمنًا زهيدًا من متاع الدنيا وما فيها من الجاه والمناصب والرئاسات الزائلة الحقيرة، مما يدل على دنو همتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

١٤- حقارة الدنيا وما فيها من المتاع والجاه والمناصب والرياسات، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا﴾.

١٥- ذم الثمن الذي أخذه أهل الكتاب بدلًا من الميثاق الذي أخذه الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ حيث أخذوا القليل الأدنى بدلًا عن الكثير الأعلى.

١٦- وجوب بيان العلم وبذله، وتحريم كتمانه، وعظم مسؤولية العلماء في الأمة؛ لأنهم ورثة الأنبياء، ورُبان السفينة، والموقعون عن الله عز وجل. فعليهم تحمل المسؤولية أمام الله تعالى في تبصير الأمة وتعليمها وقيادتها إلى ما فيه سعادتها في دينها ودنياها

وأخراها قال ﷺ: «**من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة**»[١].

١٧- تحذير العلماء من المداهنة والمحاباة في بيان العلم وإظهاره وبيان الحق، ومن سلوك مسالك علماء السوء من أهل الكتاب.

١٨- تهديد الذين يفرحون بما أتوا من الباطل من كتمان الحق، والكذب والنفاق من أهل الكتاب والمنافقين وغيرهم، وذمهم؛ لقوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا ﴾.

١٩- ذم الذين يحبون أن يحمدهم الناس بما لم يفعلوه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾، وفي الحديث: «**ومن ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة**»[٢]، وقال ﷺ: «**المتشبِّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور**»[٣].

٢٠- أن من أحب أن يحمد ويثنى عليه بما فعل من الخير واتباع الحق لا يدخل تحت الذم، بل قد يكون ذلك من عاجل بشرى المؤمن؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾، وقد قال إبراهيم- عليه السلام-: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء:٨٤]، لكن إن كان قصد من أحب أن يحمد بما فعل هو مجرد حمد الناس له والرياء والسمعة فهذا محرم لا يجوز.

٢١- الوعيد والتهديد للذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه، وأنهم لن ينجوا من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾.

٢٢- أن لهؤلاء الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا عذابًا أليمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

٢٣- ينبغي أن لا يفرح الإنسان- حتى بما أتى من الخير- فرح بطر واختيال، وإنما فرح استبشار، كما ينبغي للإنسان أن يخلص لله تعالى في عمله، وأن لا يطلب المدح من

---

(١) أخرجه أبوداود في العلم (٣٦٥٨)، والترمذي في العلم (٢٦٤٩)، وابن ماجه في المقدمة (٢٦٦)، وأحمد (٢/ ٢٩٦، ٤٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١١٠)، من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢١٩)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٣٠)، وأبوداود في الأدب (٤٩٩٧)، من حديث أسماء رضي الله عنها.

الناس، وأن يخشى أن يقع في الرياء والسمعة؛ كما قال حصين بن عبدالرحمن لما سأل سعيد بن جبير أصحابه: «أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ قال حصين: قلت أنا: ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت»(١).

٢٤- أن لله- عز وجل- وحده ملك السموات والأرض ملكًا مطلقًا لأعيانهما وما فيهما، وتصرفًا مطلقًا فيهما وبما فيهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٥- يجب أن يكون تصرف الملوك والملاك بما تحت أيديهم وفق شرع الله تعالى؛ لأن ملكهم لذلك ملك مقيد، وهم وما تحت أيديهم ملك لله تعالى.

٢٦- لا يجوز اختصاص أحد بشيء مما أوجده الله لعامة الخلق إلا بمقتضى الشرع؛ لأن الملك كله لله؛ ولهذا قال ﷺ: «**من أحيا أرضًا ميتة فهي له**»(٢).

٢٧- عموم قدرة الله- عز وجل- لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٢٠).

(٢) أخرجه أبوداود في الخراج والإمارة (٣٠٧٣)، والترمذي في الأحكام (١٣٧٨)، من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- «أن رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء، فقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ إلى ختام هذه الآيات العشر من سورة آل عمران»[1].

قوله: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، ﴿ إِنَّ ﴾: حرف توكيد ونصب، ﴿فِى خَلْقِ ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم لـ﴿ إِنَّ ﴾، أي: إن في إبداع وإيجاد السموات والأرض على غير مثال سابق، كما قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة:١١٧، الأنعام:١٠١].

و«الخلق» معناه: الإبداع والإيجاد على غير مثال سبق، وأصله: التقدير: ثم الإيجاد والتنفيذ، كما قال زهير[2]:

ولأنت تفري ما خلقت ... وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٦٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٣).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٨٦).

أي: ولأنت تنفذ وتوجد ما قدّرت.

أي: أنَّ في إيجاد السموات والأرض وتعددهما وكبرهما وسعتهما، وكثرة ما أُودع فيهما من المخلوقات العظيمة والمنافع الكثيرة، وما هما عليه من انتظام السير والحركة، والإحكام والإتقان، وبديع الصنع، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢]، وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٣-٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف على ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: وإن في اختلاف الليل والنهار. أي: في تعاقبهما وتداخلهما وطول أحدهما وقصر الآخر، وتساويهما أحيانًا، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

واختلافهما أيضًا في كون الليل مظلمًا والنهار مضيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:١٢].

واختلافهما فيما يقع ويتغير فيهما من الأحوال من حر وبرد، وشدة ورخاء، وفقر وغناء، وعز وذل، ونعيم وخذلان، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠].

وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧].

﴿ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، ﴿ لَآيَٰتٍ ﴾: اللام للتوكيد، و(آيات): اسم ﴿ إِنَّ ﴾ مؤخر، و(آيات): جمع آية، وهي في اللغة: العلامة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ ﴾ [البقرة:٢٤٨] أي: علامة ملكه.

والآيات نوعان: آيات شرعية، وآيات كونية، وهي المرادة في هذه الآية. أي: لآيات كونية دالة على كمال قدرة الله تعالى وقوته وعظمته، وكماله في ذاته وصفاته؛ في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته، واستحقاقه للعبادة وحده دون سواه.

ففي خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار من الآيات العظيمة والدلائل العجيبة ما يبهر الناظرين، ويأخذ بلباب عقول المتفكرين، ويدل على عظمة الخالق وكمال قوته، وتمام قدرته وشمولها، وحكمته، وعظيم سلطانه، وسعة علمه ورحمته وعموم فضله، ووجوب شكره وطلب مرضاته، وتعلق القلب به وإخلاص العبادة له وحده، كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣].

﴿ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي: لأصحاب الألباب، و﴿ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾: جمع «لب» وهو العقل، وسمي العقل لبًا؛ لأنه خالص الإنسان، كما أن اللب خالص الحبة؛ ولهذا قال ﷺ عن العقل: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(١).

أي: لآيات لأصحاب العقول الذين ينتفعون بعقولهم بالتفكر والنظر في آيات الله تعالى، ويستدلون بها على عظمة الخالق وكماله في ذاته وصفاته، في ربوبيته وألوهيته

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وأسمائه وصفاته، واستحقاقه العبادة وحده دون سواه، فيهتدون بالتفكر في هذه الآيات إلى الرشد في دينهم وإلى الحق[1]. وقد أحسن القائل:

فواعجبًا كيف يُعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد[2]

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآية السابقة أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب، ثم بين صفاتهم في هذه الآية وما بعدها، ليدلل على أنه ليس كل ذي لب وعقل ينتفع بالآيات، وإنما ينتفع بها الذين ترشدهم عقولهم إلى النظر والتأمل في الآيات وإلى اتباع الحق.

قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ ﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾: في محل جر صفة لـ﴿ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ أي: الذين يذكرون الله بقلوبهم بالتفكر في عظمة الله تعالى والتأمل في آياته الكونية والشرعية وغير ذلك، وبألسنتهم بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وقراءة القرآن وغير ذلك، وبجوارحهم بالصلاة والزكاة والصوم والحج وغير ذلك.

﴿ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾: حال، أي: حال كونهم ﴿ قِيَٰمٗا ﴾ على أقدامهم، وحال كونهم ﴿ قُعُودٗا ﴾ أي: جلوسًا، وحال كونهم ﴿ عَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾ أي: مضطجعين على جنوبهم.

والمراد أنهم يذكرون الله تعالى على أي حال كانوا عليها، أي: في جميع أحوالهم. وفي حديث عمران بن حصين- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب**»[3].

---

(١) انظر ما سبق في الكلام على الآية: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

(٢) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص١٠٤).

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (١١١٧)، وأبوداود في الصلاة (٩٥٢)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ «التفكر»: إعمال الفكر والعقل، وهو من أعظم أنواع العبادة، أي: ويتأملون بأفكارهم وعقولهم في كيفية خلق السموات والأرض وعظمة ذلك، وأنها لم تخلق عبثًا، وإنما خلقت لأمر عظيم، ولهذا يقولون:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ أي: قائلين: ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربنا. والمراد بالربوبية في الآية وما بعدها الربوبية الخاصة، ربوبية التوفيق والنصر والتأييد.

﴿مَا خَلَقْتَ هَذَا﴾ «ما»: نافية. والإشارة «هذا» تعود إلى خلق السموات والأرض، أي: ما خلقت هذا الخلق العظيم ﴿بَاطِلًا﴾: صفة لمصدر محذوف، والتقدير: خلقًا باطلًا، أو حال من «هذا»، وهي حال لازمة، لا يستغنى عنها؛ لأنها لو حذفت لاختل الكلام، أي: ما خلقت هذا في حال أنه باطل.

ويجب الوصل بين ﴿بَاطِلًا﴾ وما قبله؛ لئلا يُفهم السكوت على ما قبله معنى فاسدًا، والباطل: ضد الحق، والمعنى: ما خلقت السموات والأرض باطلًا، أي: لعبًا ولهوًا وعبثًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص:٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:٣٨-٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦].

﴿سُبْحَانَكَ﴾، «سبحان»: مفعول مطلق منصوب لفعل محذوف، والتقدير: نسبحك تسبيحك.

والتسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين أي: تنزيهًا لك أن تخلق السموات والأرض باطلًا وعبثًا.

﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ الفاء: عاطفة؛ لربط السبب بالمسبب، و«قنا» مأخوذ من الوقاية، أي: واجعل لنا وقاية من عذاب النار، بتوفيقنا لتقواك بعمل ما أمرتنا به، وترك ما نهيتنا عنه، ومغفرة ذنوبنا، ورحمتنا فننجو من النار.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢)﴾.

هذه الآية كالتعليل لما قبلها، أي: قنا عذاب النار؛ لأنك من تدخل النار فقد أخزيته.

قوله: ﴿رَبَّنَآ﴾، أي: يا ربنا.

﴿إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ﴾، ﴿مَن﴾: شرطية، ﴿تُدۡخِلِ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاقترانه بـ«قد».

وقوله: ﴿مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ﴾: يشمل كل من يدخل النار من الكفار والعصاة.

﴿فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ «الخزي»: الفضيحة، وهتك الستر والإهانة والإذلال على رؤوس الأشهاد، أي: فقد فضحته وهتكت سترته وأهنته وأذللته على رؤوس الخلائق، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة:٦٣]، وقوله: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ [هود:٣٩].

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: نافية، ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿مِنۡ أَنصَارٖ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف مبتدأ مؤخر. وقدم الخبر؛ تأكيدًا للنفي، و﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ أَنصَارٖ﴾: للاستغراق في النفي، أي: ما لهم من أيِّ أنصار، أي: من أيِّ أعوان يمنعونهم أو يخلصونهم من النار قبل دخولها أو بعده.

وأظهر هنا في مقام الإضمار فلم يقل: «وما لهم من أنصار»؛ للتسجيل عليهم بالظلم ووصفهم به، وربط الحكم بعلته، وبيان أن الظلم هو سبب دخولهم النار وخزيهم، ولتعميم الحكم، وأن كل ظالم سيدخل النار، ولا ناصر له- وفي هذا كله التحذير من الظلم.

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾.

قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا﴾، أي: يا ربنا إننا سمعنا، أي: سمعنا سماعًا حسيًّا بآذاننا، وسماعًا معنويًّا بقلوبنا، ﴿مُنَادِيٗا﴾، المنادي: الذي يرفع صوته بالنداء بالكلام؛ لأجل أن يسمع، ومنه سُمي «الأذان»: بالنداء.

أي: سمعنا داعيًا، وهو الرسول محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا

وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

﴿يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ﴾، صفة لـ﴿مُنَادِيًا﴾، أي: يدعو للإيمان، وقال ﴿لِلْإِيمَـٰنِ﴾ باللام، ولم يقل: «إلى الإيمان»؛ لأن اللام ألصق.

وفي قوله: ﴿مُنَادِيًا﴾ بالتنكر، وقوله: ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ﴾ تعظيم لشأن المنادي، ولشأن المنادى به: فالمنادي محمد ﷺ أفضل وأشرف منادٍ وداعٍ إلى الله تعالى، والمنادى به هو الإيمان بالرب عز وجل، أعظم وأكرم نداء.

﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾، ﴿أَنْ﴾: تفسيرية، أي: يقول: آمنوا بربكم، أو مصدرية، أي: بأن آمنوا بربكم؛ يقولون هذا تحدثًا بنعمة الله تعالى، على ما أنعم به من إرسال هذا المنادي، محمد ﷺ.

والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وشرعه، والإذعان والانقياد له.

﴿فَـَٔامَنَّا﴾ الفاء: للتعقيب، تفيد مبادرتهم للإيمان، وتسبب الإيمان عن السماع من غير مهلة، والمعنى فآمنا بربنا.

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ الفاء: عاطفة، تفيد السببية، أي: فبسبب إيماننا اغفر لنا ذنوبنا، أي: استر ذنوبنا وتجاوز عنا.

والمراد بالذنوب هنا- والله أعلم- الكبائر، فهي التي تحتاج إلى مغفرة الله تعالى، إما بقبوله التوبة منها، وإما بتفضل منه- عز وجل- بمغفرتها، ويؤيد هذا قولهم بعده:

﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ تكفير السيئات: سترها ومحوها. و«سيئات» جمع «سيئة»، والمراد بها هنا- والله أعلم- الصغائر- وهي التي تكفر بالأعمال الصالحة وبالمصائب، كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء:٣١]، وقال ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٣٣)- من حدث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن أبي هريرة- رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن، فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقيًا من الذنوب**»(١).

وسميت «سيئات» لأنها تسوء صاحبها في الحال والمآل، وقد تسوء غيره مباشرة أو غير مباشرة، فتسوء صاحبها في الحال بظهور آثارها السيئة على نفسيته بالاضطراب والقلق وضيق الصدر، وعلى وجهه وبشرته بالانقباض والاسوداد، وعلى مسار حياته وأموره وأحواله- بحيث تتعسر أموره، وفي الحديث: «**إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»(٢).

وتسوء صاحبها في المآل عندما يحاسب ويجازى ويعاقب عليها.

وقد تسوء السيئات غير صاحبها مباشرة، إذا كانت متعدية، أي: فيها اعتداء على الغير.

وقد تكون مساءتها للغير غير مباشرة إذا كانت غير متعدية، لكنها تسوء الغير مساءة عامة للعباد والبلاد، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾، الواو: عاطفة، والوفاة: الموت، أي: وأمتنا واقبضنا مع الأبرار، و«الأبرار»: جمع «بار»، أو جمع «بَرّ»، وهو كثير البر والخير، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور:٢٨].

وسمي الموت وفاة؛ لأن الميت قد استكمل أجله ورزقه وعمله. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ [الزمر:٤٢].

والمراد بالمعية هنا في قولهم: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ المعية والمصاحبة الحكمية، لا

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٤٤)، وأحمد (٢/ ٣٠٣).

(٢) سبق تخريجه.

الزمنية؛ لتعذر وفاة الأبرار في آن واحد.

أي: واقبضنا إليك إذا قبضتنا في عداد الأبرار وجملتهم، واحشرنا معهم، واجمعنا بهم. وليس هذا منهم دعاء بالموت، وإنما هو دعاء بملازمة البر، والاستمرار عليه إلى الممات، كما قال يوسف- عليه السلام-: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف:١٠١] أي: توفني على الإسلام إذا توفيتني، وكما قالت مريم- عليها السلام: ﴿يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ [مريم:٢٣]، فليس هذا دعاء بالموت، وإنما معناه: يا ليتني مت قبل أن يقع هذا.

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) ﴾.

قوله: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا ﴾، أي: يا ربنا وآتنا، أي: وأعطنا.

وفي تصديرهم كل دعواتهم بقولهم: ﴿ رَبَّنَا ﴾، أي: بندائهم ربهم عز وجل باسم الربوبية الخاصة دلالة على قوة إيمانهم، وشدة تعلقهم بربهم، وتعظيمهم له، وخضوعهم له وتلذذهم بمناجاته بهذا الدعاء.

﴿ مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ ﴿ مَا ﴾ موصولة أو مصدرية في محل نصب مفعول ثان لـ«آت»، أي: الذي وعدتنا من دخول الجنة، أو من النصر ودخول الجنة، أي: ما وعدتنا من ثواب الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾ [آل عمران:١٤٨].

﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾، أي: على ألسنة رسلك، وقيل: على الإيمان برسلك، والأول أصح.

والمعنى: يا ربنا، وأعطنا الذي وعدتنا على ألسنة رسلك، من النصر ودخول الجنة بالتوفيق لفعل أسبابه، والاستمرار على ذلك حتى الممات على الإيمان.

ويدل لصحة هذا قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم ﴾ مع أنهم لم يطلبوا هنا عدم إضاعة أعمالهم، ويؤيد هذا قولهم قبله: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾.

﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ الخزي: الفضيحة والإهانة والإذلال، أي: ولا تفضحنا يوم القيامة بين الخلائق.

﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾: تعليل لما قبله، أي: لأنك لا تخلف الميعاد، وهذه من الصفات السلبية المنفية، التي تدل مع نفي هذه الصفة إثبات كمال ضدها، فكونه- عز وجل- لا يخلف الميعاد يدل على كمال صدقه، وتمام وفائه بوعده، كما يدل على كمال وتمام قدرته؛ لأن إخلاف الوعد إنما يكون بسبب أمرين، إما كذب الواعد، أو عجزه وعدم قدرته على الوفاء بوعده، ووعد الله تعالى حق، وهو أصدق القائلين، كما قال تعالى: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء:١٢٢]، وقال تعالى: ﴿ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ [الروم:٦] ، وقال تعالى: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الزمر:٢٠] ، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ [إبراهيم:٤٧].

قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾، الفاء للتعقيب، تفيد سرعة إجابته لهم، و«استجاب» بمعنى «أجاب» أي: أجابهم ربهم، قال الشاعر:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندا فلم يستجبه عند ذاك مجيب[(١)]

أي: فلم يجبه.

و«استجاب» أبلغ من «أجاب»؛ لأن السين والتاء للتأكيد، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى- غالبًا.

وكما سألوه- عز وجل- باسم ووصف الربوبية الخاصة ﴿ رَبَّنَا ﴾ ربوبية النصر والتأييد واللطف والعناية الخاصة، أجابهم بذلك فقال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾.

﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ هذا تفسير للاستجابة، أي: فاستجاب لهم ربهم، قائلًا: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ أي: بأني لا أضيع عمل عامل منكم، أي: لا

(١) البيت لكعب بن الأسود الغنوي يرثي قريبًا له. انظر «الأصمعيات» (ص٩٦).

أهدر ولا ألغي عمل عامل منكم، أي: جزاء عمل عامل منكم.

وهذا دليل على أن المراد بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ تحقيق قبول أعملهم وسلامتها من الحبوط؛ لينالوا بذلك ما وعدهم الله به على ألسنة رسله.

و﴿عَمَلَ﴾: مضاف، و﴿عَٰمِلٍ﴾ مضاف إليه، فيقتضي العموم لأي عمل قلَّ أو كثُر، فإن الله لا يُضِيعه، والعموم لكل عامل منهم، فإن الله لا يضيع عمله، أيًّا كان هذا العامل، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧].

﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ ﴿مِّن﴾ بيانية، بيان لـ﴿عَٰمِلٍ﴾ أي: سواء كان هذا العامل ذكرًا أو أنثى، وقدم الذكر؛ لأنه أفضل من حيث العموم.

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر، وكلكم سواء في الاستجابة لدعائكم، وحفظ أعمالكم، ومجازاتكم عليها، كما قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [النساء:٣٢].

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾، الفاء للتفريع على قوله: ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ فهو من ذكر الخاص بعد العام؛ لأهمية الخاص.

﴿هَاجَرُوا۟﴾: خرجوا من بلادهم وتركوها وانتقلوا إلى بلاد الإسلام، والهجرة في اللغة: الترك. وفي الشرع: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي: ضُيِّق عليهم، وأُلجئوا واضطُروا إلى الخروج من ديارهم، كما حصل للنبي ﷺ وكثير من أصحابه- رضي الله عنهم- كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة:١] أي: يضطرونكم بأذاهم لكم للخروج، كما قال كعب بن زهير[1]:

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٢٣).

في فتيــة مــن قــريش قــال قــائلهم ... بــبطن مكــة لمــا أســـلموا زولــوا

أي: قائل قائلهم من المسلمين اخرجوا من مكة، وذلك لما لقوا من أذى المشركين.

وقد قال ورقة بن نوفل عندما انطلقت خديجة بالنبي ﷺ إليه في بدء الوحي، وأخبره ﷺ بما رأى قال ورقة: «يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أومخرجيَّ هم»؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا»[١].

﴿وَأُوذُواْ﴾ أي: وأصابهم الأذى بالقول والفعل قبل الهجرة والإخراج وبعد ذلك.

﴿فِي سَبِيلِي﴾ أي: في طريقي وسبيل مرضاتي وديني، كما حصل للنبي ﷺ حيث وضع سلا الجزور على ظهره وهو ساجد عند الكعبة»[٢].

وأغرى به أهل الطائف سفهاءهم يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه[٣]، ورماه المشركون بالسحر والجنون والشعر والكهانة وغير ذلك- كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في مواضع عدة.

كما أُوذي أصحابه- رضي الله عنهم- وعُذِّبوا، منهم بلال وخباب وغيرهما.

﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر: «وقاتلوا وقُتّلوا»، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: «وقُتِلوا وقاتلوا»، وقرأ الباقون كالأولى لكن بالتخفيف: ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾.

أي: ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ أي: قاتلوا الكفار وجاهدوهم في سبيل الله.

﴿وَقُتِلُواْ﴾ أي: وقتلهم الكفار في سبيل الله، وكانوا شهداء.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو يخطب على المنبر، قال: أرأيت إن قاتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، أيكفر الله عني

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٤)، ومسلم في الإيمان (١٦٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٤٠)، ومسلم في الجهاد والسير- ما لقي النبي ﷺ من الأذى (١٧٩٤)، والنسائي في الطهارة (٣٠٧)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٦١).

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١)، ومسلم في الجهاد (١٧٩٥)، من حديث عائشة- رضي الله عنها.

سيئاتي؟ قال: نعم، ثم سكت ساعة. قال: أين السائل آنفًا؟ فقال الرجل: ها أنا ذا. قال: ما قلت؟ قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر أيكفر الله عني سيئاتي؟ قال: نعم، إلا الدَّين، سارني به جبريل آنفًا»(١).

وقراءة (قُتِّلوا) بالتشديد معناها شدة القتل.

وليس المراد بالآية أنهم جميعًا قتلوا، فيكون الوعد بقوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ﴾ الآية خاصًّا بمن (قُتل)، وإنما معنى الآية: ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ فمنهم من قتل، ومنهم من لم يقتل، والجميع منهم من قتل ومن لم يقتل موعدون بقوله تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ الآية، ويدخل في هذا المهاجرون والأنصار- رضي الله عنهم.

قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، الجملة: خبر المبتدأ في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ واللام في قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾: للقسم.

فالجملة مؤكدة بلام القسم، وبالقسم المقدر، ونون التوكيد، والتقدير: والله لأكفرن عنهم سيئاتهم.

فبسبب ما حصل منهم وما حصل لهم من هجرتهم وإخراجهم من ديارهم، وإيذائهم في سبيل الله ودينه، وقتالهم للكفار، وقتل من قتل منهم واستشهاده في سبيل الله، بسبب هذه الأشياء الخمسة أقسم الله- عز وجل- على تكفير سيئاتهم، أي: محو ما وقع منهم من السيئات، أي: الذنوب الصغائر، التي تكفرها الأعمال الصالحة والمصائب.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، الجملة: في محل رفع معطوفة على جملة: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾، مؤكدة مثلها باللام، والقسم المقدر، ونون التوكيد، أي: والله لأدخلنهم ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

و﴿جَنَّٰتٍ﴾ جمع «جنة» وهي البساتين والمنازل التي أعدها الله تعالى لأوليائه المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٢].

---

(١) أخرجه النسائي في الجهاد (٣١٥٥).

وقال ﷺ لأم حارثة: «**إنها جنان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**»(١).

وتأتي ﴿جَنَّٰتٍ﴾ في القرآن الكريم كثيرًا مجموعة، فيراد بها أنواع الجنات، كما تأتي كثيرًا منفردة ﴿جَنَّةٌ﴾ ويراد بها مطلق الجنس.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، الجملة: في محل جر صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، أي: تجري وتسيل من تحت أشجارها وقصورها وغرفها، وبين جنباتها الأنهار، يشربون منها ويغتسلون فيها، ويتمتعون برؤيتها، يُصرِّفونها كيف شاؤوا من غير أخدود، قال ابن القيم:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان(٢)

وهي أنواع أربعة كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [محمد:١٥].

﴿ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ ﴿ثَوَابٗا﴾: مصدر مؤكد لعامل محذوف، والتقدير: لأثيبنهم ثوابًا. وقيل: حال من جنات، أي: مثابًا بها.

والثواب: اسم لما يثاب به، أي: لما يجازى به، كالعطاء: اسم لما يعطى، كما في قوله تعالى: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٦] أي: هل جوزي.

وقد يطلق الثواب على الإثابة، أي: على فعل المثيب.

﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: منه- عز وجل- وعنده، وفي هذا تعظيم لهذا الثواب؛ لأنه من العظيم سبحانه وتعالى، ومن عنده؛ ولهذا قال ﷺ في الدعاء الذي علمه أبوبكر رضي الله عنه: «**واغفر لي مغفرة من عندك وارحمني**»(٣).

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ الجملة: مؤكدة لما سبق أي: والله عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحًا، أي: الثواب الحسن، الذي لا أحسن منه، فهو يجازي الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وأعد لأوليائه في دار كرامته من النعيم ما

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «النونية» (ص٢٢٩).

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٨٣٤)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٥)، والنسائي في السهو (١٣٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٥٣١)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٥)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

لا يحيط به الوصف.

كما قال ﷺ عن الجنة: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**». ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾»[1] [السجدة:١٧].

الفوائد والأحكام:

١- عظم ما في الكون من الآيات الدالة على معرفة الله تعالى وعظمته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه العبادة وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٤].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت:٣٧].

٢- عظم خلق السموات والأرض وما فيها من الأعيان والمنافع، وعظم اختلاف الليل والنهار في تعاقبهما واختلاف الأحوال فيهما، وغير ذلك.

٣- الحث على التأمل والنظر في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وما في ذلك من الآيات العظيمة.

٤- منة الله- عز وجل- ونعمته على العباد في إيجاد هذه الآيات العظيمة في الكون لتكون منارًا لهم للطريق إليه والإقبال عليه، وأعلامًا شاهدة على توحيده بالربوبية

---

(١) سبق تخريجه.

والألوهية وكمال الذات والصفات.

٥- منة الله عز وجل ونعمته على الخلق باختلاف الليل والنهار طولًا وقصرًا، وتساويهما أحيانًا، وتقلب الأحوال فيها من حر وبرد ونحو ذلك لما في ذلك من المنافع لهم.

٦- أن الذين ينتفعون بالآيات الكونية والشرعية هم أصحاب الألباب والعقول، الذين يُعملون عقولهم في الآيات ويستفيدون منها؛ لذلك خصّهم الله تعالى فقال: ﴿لَآيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، ومن عداهم كالأنعام بل هم أضل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

٧- فضيلة أصحاب الألباب والعقول النيرة التي تتأمل وتنظر في آيات الله والثناء عليهم؛ لأن الله خصَّهم بالذكر.

٨- أن العقل الذي هو مناط المدح هو عقل الرشد الذي يهدي ويرشد صاحبه إلى الحق ويمنعه عن الباطل، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ [الفجر:٥]. أي: لذي لب وعقل يحجز صاحبه عما لا يليق. أما عقل: الإدراك، فهو مناط التكليف، لكن لا يمدح به.

٩- الثناء على أصحاب الألباب والعقول بذكرهم الله تعالى على جميع أحوالهم وتفكرهم في خلق السموات والأرض، ودعائهم ربهم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ الآيات.

١٠- الترغيب بذكر الله تعالى على الدوام، وعلى كل حال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾. وعن عائشة- رضي الله عنها- أنه ﷺ: «**كان يذكر الله تعالى على كل أحيانه**»[١]. وقال ﷺ: «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم في الحيض- ذكر الله تعالى حال الجنابة وغيرها (٣٧٣)، وأبوداود في الطهارة (١٨٥)، وابن ماجه في الطهارة (٣٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٣)، من حديث عبدالله بن بسر رضي الله عنه.

١١- أن من أيسر الأعمال ذكر الله تعالى حيث يستطيع الإنسان القيام به على أي حال كان.

١٢- جواز ذكر الله تعالى حال الجنابة؛ لعموم قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا﴾ الآية.

١٣- مشروعية ذكر الله تعالى حال كون الإنسان مضطجعًا على جنبه، وأنه لا يعد استهانة بالذكر ولو كان ذلك بقراءة القرآن.

١٤- الثناء على الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض ويعلمون أنها لم تخلق باطلًا وعبثًا، ترغيبًا فيه وحثًّا عليه، لقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا ﴾، وقد ذم عز وجل الذين لا يتفكرون في آياته، فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف:١٠٥].

١٥- فضيلة التفكر في آيات الله الكونية؛ لأن الله أثنى على الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض، وفي الأثر: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة»[(١)].
وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه»[(٢)].
وقال عيسى عليه السلام: «طوبى لمن كان قيله تذكرًا وصمته تفكرًا، ونظره عبرًا»[(٣)].

١٦- إثبات أن الله- عز وجل- خلق السموات والأرض بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا ﴾، والصفات المنفية تدل مع النفي على إثبات كمال ضدها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر:٨٥].
وقال تعالى في سورة الأحقاف: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الآية:٣].

---

(١) روي هذا عن ابن عباس وأبي الدرداء وأنس- رضي الله عنهم. انظر: «روح المعاني» (١/ ٣٧٠).
(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٦٠).
(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٦٠).

١٧- تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، ومن أن يخلق هذا الخلق باطلًا وعبثًا؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾.

١٨- أن من تفكر في خلق السموات والأرض متجردًا عن الهوى قاده ذلك إلى أن الله تعالى لم يخلق هذا الخلق باطلًا وعبثًا، وإنما خلقه لأمر عظيم، ولحكمة بالغة، وهو تحقيق العبودية لله تعالى، ومجازاة الخلائق بأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، وقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١].

وقد أحسن القائل[1]:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وقال الآخر:

الأمر جد وهو غير مزاح فاعمل لنفسك صالحًا يا صاح[2]

١٩- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾.

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين، والتوسل إليه تعالى بدعائه باسم الرب ووصف الربوبية الخاصة؛ لأن من أخص معاني الربوبية الخلق والملك والتدبير، والعناية بالمربوب والرحمة له والرأفة به والشفقة؛ ولهذا كان جل دعاء الأنبياء- عليهم السلام- والصالحين بهذا الاسم، كما في دعاء أولي الألباب في هذه الآيات، فقد ابتدأوا دعاءهم وخللوه بندائه تعالى بهذا الاسم خمس مرات إظهارًا للخضوع له- عز وجل- والتضرع إليه وشدة حاجتهم إليه.

٢١- أن من أعظم وأول ما يدعو به أصحاب العقول ربهم سؤاله الوقاية من النار؛

(١) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لامية العجم» (ص١٢٤).

(٢) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» (ص١).

لقولهم: ﴿ سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾، وطلب النجاة من المرهوب مقدم على سؤال المطلوب، وكما يقال: التخلية قبل التحلية.

٢٢- أن الدعاء ينبغي أن يكون بعد الثناء على الله تعالى؛ لقولهم: ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ ثم أتبعوا ذلك بالدعاء بقولهم: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ وما بعده. وفي الحديث: **أن النبي ﷺ سمع رجلًا يدعو في صلاته، ولم يحمد الله تعالى، ولم يصل على النبي ﷺ، فقال ﷺ: «عجل هذا» ثم قال له أو لغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه، والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يدعو بما شاء»**[1].

٢٣- جمع هؤلاء بين الذكر والتفكر والخوف من النار؛ بخلاف ما عليه كثير من الخلق من التفريط مع الأمن من مكر الله.

٢٤- إثبات النار وعذابها وما فيها من الخزي لمن أدخل فيها، ووجوب الحذر منها، وسؤال الوقاية منها؛ لقوله تعالى: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾.

٢٥- أن من أدخله الله النار فقد أخزاه وأذله.

٢٦- أن الظلم سبب لدخول النار، والظالمون والكفار هم أهلها، ولا ناصر لهم يدفع عنهم أو ينقذهم من عذابها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾.

٢٧- إعلان المؤمنين منة الله تعالى ونعمته عليهم في بعثة محمد ﷺ يدعوهم إلى الإيمان؛ لقولهم: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾.

٢٨- أن مهمة الرسول ﷺ، وكذا الرسل قبله دعوة الناس للإيمان بربهم، بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾.

٢٩- شهادة الأمة للنبي ﷺ بالبلاغ؛ لقولهم: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾.

---

(١) أخرجه أبوداود في الدعاء (١٤٨١)، والترمذي في الدعوات (٣٤٧٧)، من حديث فضالة بن عبيد- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حسن صحيح».

٣٠- في قرن الدعوة للإيمان باسم ووصف الربوبية تذكير للعباد بنعمة ربوبيته تعالى لهم، فهو خالقهم ومالكهم ورازقهم ومدبرهم.

٣١- مبادرة أصحاب الألباب والعقول إلى الإيمان، والاستجابة للمنادي، لقولهم: ﴿فَـَٔامَنَّاۚ﴾.

٣٢- جواز التوسل بالإيمان والأعمال الصالحة في الدعاء؛ لقولهم: ﴿فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾، وكما جاء في قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، فقال بعضهم لبعض: «إنه لا ينجيكم مما أنتم فيه إلا أن تتوسلوا إلى الله بصالح أعمالكم» الحديث[1].

٣٣- أن مغفرة الذنوب وتكفير السيئات مطلب شرعي لجميع المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ إذ لا أحد يسلم من الذنوب والسيئات.

٣٤- أن المعاصي منها ما يسمى ذنوبًا ومنها ما يسمى سيئات؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ فالذنوب المراد بها الكبائر التي تحتاج إلى مغفرة الله، إما تفضلًا منه سبحانه، أو بسبب التوبة منها، ونحو ذلك. وأما السيئات فالمراد بها الصغائر، وهي التي تكفر بالأعمال الصالحة، أو بالمصائب ونحو ذلك.

٣٥- جواز سؤال الوفاة مع الأبرار، أي: على ما ماتوا عليه من الإيما ن والبر، والحشر معهم وفي جملتهم وعدادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾.

وكما قال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

٣٦- فضيلة الأبرار وعلو مكانتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ حيث رغب هؤلاء الوفاة معهم.

٣٧- كمال إيمان هؤلاء المؤمنين بوعد الله تعالى لهم على ألسنة رسله بالجنة والثواب العظيم، وإيمانهم برسله؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾.

٣٨- أن النجاة من المرهوب مقدمة على حصول المطلوب؛ لهذا قدم هؤلاء سؤال

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٧٢)، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

الوقاية من النار ومغفرة الذنوب وتكفير السيئات ثم سألوا الوفاة مع الأبرا ر وإيتائهم ما وعدهم الله على ألسنة رسله.

٣٩- أن الرسل هم الواسطة بين الله وبين خلقه، وهم المبلغون عن الله وحيه ووعده ووعيده؛ لقوله تعالى: ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾.

٤٠- إثبات الرسل والرسالات، ووجوب الإيمان بهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾.

٤١- إثبات يوم القيامة وما فيه من الخزي والذل للكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

٤٢- جمع هؤلاء المؤمنين في دعائهم بين الرجاء والخوف، بين رجاء الله والثقة بوعده وثوابه وبين الخوف من الله ومن عذاب النار والخزي يوم القيامة.

٤٣- أن الله تعالى لا يخلف الميعاد، لكمال صدقه وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

٤٤- إجابة الله تعالى دعاء هؤلاء المؤمنين ونضمهم تحت ربوبيته الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

٤٥- أن الله تعالى يجازي كلًا بما عمل، ولا يضيع عنده عمل عامل، مهماكان العمل قلة وكثرة، وأيًا كان العامل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم﴾.

٤٦- تساوي العاملين في الجزاء أمام الله تعالى، حسب أعمالهم، ذكورهم وإناثهم.

٤٧- تضييق المشركين على المؤمنين في مكة حتى ألجؤوهم إلى الهجرة وأخرجوهم من ديارهم، وأذيتهم لهم بسبب إيمانهم ومقاتلتهم لهم وقتلهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾.

٤٨- أن الهجرة والإخراج من الديار والأذى في سبيل الله، والقتال والاستشهاد سبب لتكفير السيئات، ودخول الجنات والثواب الحسن من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾، وقد أكد هذا بلام القسم، والقسم المقدر ونون التوكيد.

٤٩- فضل الهجرة والصبر على الأذى في سبيل الله، والقتال والاستشهاد في سبيله.

٥٠- أن الهجرة أفضل من القتال في سبيل الله؛ لتقديم قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ في الآية.

٥١- لا يلتذ بحصول المطلوب إلا بعد زوال المرهوب، ولهذا قدم تكفير السيئات في الآية على دخول الجنات.

٥٢- إثبات الجنات التي أعدها الله منازل للمؤمنين وما فيها من الأنهار الجارية تحت أشجارها وقصورها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

٥٣- عظم ما أعد الله للمؤمنين، يؤخذ من قوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بالتنكير، أي: جنات عظيمة، ومن قوله: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، فكونه من عند الله يدل على عظمته التي لا يقدر قدرها إلا العظيم سبحانه وتعالى.

٥٤- أن أحسن الثواب وأعظمه وأجله من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾.

قوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ ﴿لَا﴾: ناهية، و(يغرن) فعل مضارع مبني على الفتح في محل جزم لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة.

والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصح خطابه، أي: لا يغرنك أيها الرائي تقلب الذين كفروا في البلاد.

﴿تَقَلُّبُ﴾ التقلب: التردد والتصرف والتنقل، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: الذين أنكروا وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه وكذبوا رسله أو شيئًا من ذلك.

﴿فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ ﴿ٱلْبِلَـٰدِ﴾: جمع «بلد» يجمع على «بلاد» وعلى «بلدان».

والمعنى: لا يخدعنك أيها الرائي تردد الذين كفروا وتصرفهم في البلاد والأرض وتنقلهم من بلد إلى آخر في تجاراتهم وصناعاتهم وأعمالهم وما هم فيه من النعم ورغد العيش، فتظن أنهم على شيء وتنخدع بما هم عليه، كما قال تعالى: ﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [غافر: ٤].

والمصيبة أن كثيرًا من المسلمين قد اغتروا وانبهروا بما عليه الغرب فصاروا دعاة لتقليدهم – ليس بما هو مطلوب من الأخذ بأسباب التقدم الصناعي والحضارة والرقي – ولكن بما هم عليه من التحلل عن الدين والأخلاق، فكانوا دعاة للتغريب والسفور، والتخلي عن الثوابت والأخلاق الإسلامية لسان حالهم ومقالهم كما قال الشاعر:

يقولون في الإسلام ظلمًا بأنه ... يصد ذويه عن طريق التقدم

فإن كان ذا حقًّا فكيف تقدمت — أوائله في عصرها المتقدم
وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله — فماذا على الإسلام من جهل مسلم
هل العلم في الإسلام إلا فريضة — وهل أمة سادت بغير التعلم
لقد أيقظ الإسلام للمجد والعلا — بصائر أقوام عن المجد نوم
ودك حصون الجاهلية بالهدى — وقوض أطناب الضلال المخيم
ألا قل لمن جاروا علينا بحكمهم — رويدًا فقد قارفتم كل مأثم
فلا تنكروا هذي الحقيقة إنها — لأبين من هذا الحديث المرجم[1]

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ هذه الجملة وما بعدها: تعليل للنهي السابق، و﴿مَتَٰعٞ﴾ خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: هو متاع قليل، والمعنى: لأنه متاع قليل، والضمير يعود إلى ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾. أي: أن ما هم فيه من التقلب في البلاد والنعم مع ما هم عليه من الكفر.

والمتاع: كل ما يتمتع ويتلذذ ويتنعم به من منفعة عاجلة، من مأكل ومشرب أو ملبس أو مسكن أو مركب، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد:٢٦].

﴿قَلِيلٞ﴾ أي: قليل في كمه وكيفه، ولو كان ذلك الدنيا بحذافيرها، فهو زهيد حقير ليس بشيء بالنسبة لما أعد لأهل الإيمان في الدنيا والآخرة، قليل في زمنه فما أسرع ما يزول أو يزول الإنسان عنه، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨].

﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ﴾ ﴿ثُمَّ﴾: للعطف مع التراخي، وجيء بها هنا للإشارة إلى حقارة ذلك المتاع مهما طالت مدته، إذا كانت نهايتهم إلى هذا المآل القبيح المؤلم، فهو مجرد استدراج لهم، كما قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

---

(١) الأبيات للشاعر معروف الرصافي. انظر: «ديوانه» (ص١٩٨).

أي: ثم مصيرهم ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ أي: النار، وسميت بهذا الاسم؛ لجهمتها، أي: ظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الواو: استئنافية، و(بئس): فعل جامد لإنشاء الذم، و﴿ٱلْمِهَادُ﴾: فاعل (بئس)، والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: وبئس المهاد هي- يعني جهنم.

و﴿ٱلْمِهَادُ﴾: الفراش والمقر الذي يستقر فيه، ومنه (مهاد الطفل أومهده) أي: فراشه، ومنه سميت الأرض مهادًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ:٦]، أي: مقرًّا تستقرون عليها.

والمعنى: وبئس الفراش والمهاد جهنم للذين كفروا، وبئس ما مهدوا لأنفسهم، وفي هذا إشارة إلى أن هذا المصير بسبب ما جنته أنفسهم، وما كسبته أيديهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس:٦٩-٧٠].

قوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ﴾ قرأ أبوجعفر بتشديد النون «لكنَّ»، وقرأ الباقون بتخفيها، ﴿ لَٰكِنِ ﴾ وهي: حرف استدراك، وجيء بالاستدراك هنا؛ للإشارة للبون الشاسع والفرق الواسع بين ما متع به الذين كفروا في الدنيا، وبين ما أعد للمتقين من الجنات والنزل والخير عند الله- زيادة على مشاركتهم لغيرهم في متاع الدنيا.

﴿ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ بفعل أوامره واجتناب نواهيه، الذي رباهم وأيدهم ووفقهم بربوبيته الخاصة، ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف، خبر مقدم؛ لتأكيد حصول ذلك لهم، و﴿جَنَّٰتٌ﴾: خبره، والجملة خبر ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ﴾.

وقوله: ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ سبق الكلام عليه قريبًا.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: حال، أي: حال كونهم خالدين فيها، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية؛ لأن الجنة لا تفنى ولا ينقطع نعيمها، ولا يفنى أهلها باتفاق المسلمين؛ لتضافر

أدلة الكتاب والسنة على ذلك.

﴿ نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾: حال من ﴿ جَنَّٰتٌ ﴾، وصح مجيء الحال منها؛ لأنها تخصصت بالوصف بقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾.

والنزل: ما يعد للنزيل، وهو: الضيف عند أول قدومه من القرى والكرامة، قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت:٣١-٣٢]، وهم ضيوف على أكرم الأكرمين منذ دخولهم الجنات وإلى الأبد، ولهم هذا النزل على الدوام.

﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي: منه- عز وجل- وعنده- وهذا مما يزيده عظمة وكثرة، لأنه من أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وعنده سبحانه.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: اسم موصول.

أي: والذي عند الله من الفضل والزيادة ﴿خَيْرٌ ﴾ مما ذكر؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، وقال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦]، أي: لهم الجنة. ﴿وَزِيَادَةٌ ﴾ **وهي النظر إلى وجه الله الكريم** كما قال ﷺ(١).

وأيضًا: وما عند الله من الحياة الطيبة والكرامة، ﴿خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ مما هم فيه في الدنيا، ومما يتقلب فيه الكفار من متاع قليل زائل.

و«الأبرار»: جمع «بَر» أو جمع «بار»، وهم: أهل «البر» وهو حسن الخلق وحسن العمل، فـ«الأبرار»: المكثرون من فعل الطاعات والخيرات.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾.

ذكر الله- عز وجل- فيما سبق من السورة أنه أخذ ميثاق أهل الكتاب؛ لبيانه للناس وعدم كتمانه، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلًا، ثم بين في هذه الآية

(١) سبق تخريجه.

وقبل ختام السورة أن بعضًا من أهل الكتاب يؤمن بالله تعالى حق الإيمان، وبما أنزل على محمد ﷺ، وما أنزل عليهم، وفي هذا إنصاف لأهل الكتاب واحتراز من أن يظن أنهم على شاكلة واحدة.

قوله: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ «إنَّ»: حرف توكيد ونصب، ﴿مِنْ أَهْلِ ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر «إنَّ» مقدم، و﴿ ٱلْكِتَٰبِ ﴾: مضاف إليه، و﴿ مِنْ ﴾ تبعيضية، أي: وإن بعض أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى ﴿لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ الآية، وهم قلة من اليهود، منهم عبدالله بن سلام وغيره، وكثير من النصارى، منهم النجاشي ملك الحبشة وغيره.

قال ابن كثير[1] في كلامه على هذه الآيات: «وهذه الصفات توجد في اليهود، ولكن قليلًا، كما وجد في عبدالله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود، ولم يبلغوا عشرة أنفس، وأما النصارى فكثير منهم مهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ﴾ الآية [المائدة:٨٢-٨٥].

وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب- رضي الله عنه- لما قرأ سورة ﴿كٓهيعٓصٓ ﴾ بحضرة النجاشي ملك الحبشة وعنده البطاركة والقساوسة بكى وبكوا معه، حتى أخضبوا لحاهم»؛ ولهذا لما مات النجاشي قال ﷺ لأصحابه: «**إن أخًا لكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه**» فخرج إلى الصحراء، فصفّهم، وصلى عليه»[2].

واللام في قوله: ﴿لَمَن ﴾: لام الابتداء للتوكيد، و«مَنْ»: اسم موصول مبني في محل نصب اسم «إنَّ» مؤخر، أي: للذي يؤمن بوجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ١٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز- الرجل ينعى في أهل الميت بنفسه (١٢٤٥)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وأخرجه مسلم في الجنائز (٩٥٣)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ الواو: عاطفة، أي: ويؤمن بالذي أنزل إليكم، والخطاب لهذه الأمة، أي: ويؤمن ويصدق بالوحي الذي أنزل إليكم على لسان نبيكم ﷺ من القرآن والسنة، وعموم ذلك للناس جميعًا، قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بما جئت به إلا كان من أصحاب النار**»[(١)].

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: ويؤمن بالذي أنزل إليهم من الوحي، فاليهود منهم يؤمنون بما أنزل في التوراة، والنصارى يؤمنون بما أنزل في الإنجيل، ومن ذلك ما جاء في كتبهم من البشارة بمحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف:٦].

﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾: حال، أي: حال كونهم خاشعين لله، والخشوع لله هو: الذل والخضوع له- عز وجل- والطاعة.

﴿لَا يَشۡتَرُونَ﴾أي: لا يستبدلون ولا يأخذون ولا يطلبون، ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بالتصديق بآيات الله الشرعية والعمل والحكم بها وبيانها.

﴿ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ أي: ثمنًا زهيدًا حقيرًا من الدنيا، من المال أو الجاه أو الرياسة، ونحو ذلك- مقابل تكذيبهم بها وكتمانهم لها- كما هو حال كثير من أهل الكتاب، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ الإشارة: لمن آمن من أهل الكتاب بالله وبما أنزل إليهم، وما أنزل إلى هذه الأمة، ولم يشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا.

وأشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ رفعة لهم وتعظيمًا لشأنهم.

﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ قدم الخبر ﴿لَهُمۡ﴾؛ تأكيدًا لحصول الأجر لهم.

﴿أَجۡرُهُمۡ﴾ جزاؤهم وثوابهم، وسمى عزوجل ثوابهم أجرًا؛ لأنه ضمنه لهم

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (١٥٣)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

وتكفل لهم به.

﴿عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ أي: من ربهم- عز وجل- ومدخر لهم عنده، وفي هذا تعظيم لأجرهم، وتأكيد لضمانه لهم وبيان قربهم من ربهم عز وجل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾، ﴿إِنَّ﴾: للتوكيد، والسرعة: عدم التباطؤ في الشيء. والله- عز وجل- سريع الحساب من وجوه عدة.

الأول: أن أجله وحسابه آت، وكل آت قريب.

والثاني: أن عمر الإنسان في هذه الحياة قصير، فمهما طال عمره فهو قصير، بل الدنيا كلها قليلة بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النساء:٧٧].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثَّر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء، فقال ﷺ: «**ما لي وللدنيا، إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»(١).

والثالث: أن الإنسان يجد في الحال شيئًا من ثمرة وآثار عمله، فإن عمل خيرًا وجد من آثار ذلك نورًا في وجهه وتيسيرًا في أموره، وإن عمل شرًّا وجد من آثار ذلك سوادًا في وجهه وعسرًا في أموره.

ففي الآية على هذا: إخبار بقرب أجرهم، وأنه يبادر لهم بشيء من أجرهم في الدنيا، كما يبادرون بأجرهم كاملًا يوم القيامة.

الرابع: أنه- عز وجل- يحاسب الخلائق على وجه السرعة ولا يحتاج إلى طويل وقت لحسابهم؛ لأنه لا يخفى عليه منهم ولا من أعمالهم شيء، كما قال: ﴿وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

وقد قال بعض أهل العلم: إن الله يحاسب الخلائق في نصف يوم؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٧٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٠٩). وقال الترمذي: «حسن صحيح».

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان:٢٤]، قالوا: فيحاسب عز وجل الخلائق في نصف النهار الأول ثم في النصف الثاني من النهار يقيل أهل الجنة فيها.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.

ختم الله- عز وجل- هذه السورة العظيمة بأمر المؤمنين في هذه الآية الكريمة بهذه الوصايا الأربع العظيمة، التي عليها مدار صلاح أمر الدين والدنيا والآخرة، وعِز الإسلام ونصر المسلمين، وهي: **الصبر، والمصابرة، والمرابطة، وتقوى الله تعالى**؛ ولهذا رتَّب الله- عز وجل- عليها الفلاح في الدنيا والآخرة.

ولا يخفى ما في الأمر بهذه الوصايا العظيمة من تجديد عزائم المؤمنين، وبعث هممهم، ورفع معنوياتهم، وغمر قلوبهم بالرجاء، بعدما أصابهم ما أصابهم في أُحد، بسبب مخالفة الرُّماة أمر الرسول ﷺ.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ ﴾ أي: اصبروا على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وعلى قتال الكفار، وبدأ بالصبر لأن معه النصر والظفر، وبه نُجْح المطالب، ونيل المآرب، وقد أحسن القائل:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى … فما انقادت الآمال إلا لصابر[1]

وقال الآخر:

والصبر مثل اسمه مر مذاقته … لكن عواقبه أحلى من العسل[2]

﴿وَصَابِرُوا۟ ﴾ «المصابرة» على وزن «المفاعلة» كالمقابلة، ونحو ذلك، وهي: مقاومة الخصم في ميدان الصبر، أي: الصبر في وجه الصابر، وتكون بين اثنين، أو فريقين فأكثر، وهي: أخص من الصبر، وأشد على النفس، ونتيجتها تكون لأطول الصابرين صبرًا، وأشدهم مقاومة، وهي: من أسباب الانتصار على العدو وعلى الخصم، كما قال

---

(١) البيت مجهول القائل. انظر: «أوضح المسالك» (٤/ ١٧٢).

(٢) البيت مجهول القائل. انظر: «ربيع الأخيار» (ص٢١٢).

الشاعر[١]:

سقيناهم كأسًا سقونا بمثلها ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

أي: وصابروا الأعداء، أي: غالبوهم بالصبر، كما أنهم يغالبونكم فيه، فكونوا أصبر منهم، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ** ﴾ [النساء: ١٠٤].

والفرق بين «الصبر» و«المصابرة» أن الصبر هو حال الصابر في نفسه، والمصابرة حاله في الصبر مع خصمه، أي: مقاومة الخصم في ميدان الصبر.

﴿ **وَرَابِطُوا** ﴾ هذا انتقال من الأدنى إلى الأعلى، فـ«الصبر»: دون «المصابرة»، و«المصابرة»: دون «المرابطة»، و«المرابطة»: مفاعلة من الربط، وهو: ربط الخيل للحراسة في الثغور، وللجهاد في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ** ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والمرابطة: الثبات والملازمة، والإقامة على الصبر والمصابرة في حراسة ثغور المسلمين، وقتال الأعداء، وفي عبادة الله تعالى. أي: ورابطوا في الثغور وفي قتال الأعداء. قال ﷺ: «**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها**»[٢].

وعن سلمان الفارسي- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتَّان**»[٣].

وعن عثمان- رضي الله عنه- سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل**»[٤].

---

(١) هذا البيت للنابغة الجعدي. انظر: «ديوانه» (ص٧٢). وينسب لزفر بن الحارث في اعتذاره عن انهزام قومه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد- فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٨٩٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة- فضل الرباط (١٩١٣).

(٤) أخرجه النسائي في الجهاد (٣١٦٩)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦٧)، وأحمد (١/ ٦١، ٦٤، ٦٥). وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**»(١).

وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: «**طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع**»(٢).

وأيضًا: ورابطوا على العبادة وداوموا عليها في مكانها، ومن ذلك انتظار الصلاة بعد الصلاة، كما قال ﷺ: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط**»(٣).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا أعم مما قبله، أي: اتقوا الله في فعل ما أمركم الله به، وترك ما نهاكم عنه؛ لأن التقوى هي جماع هذه الأمور الثلاثة: الصبر والمصابرة والمرابطة، وملاك الأمر كله، فلا ينفع الصبر، ولا المصابرة، ولا المرابطة إلا بالتقوى، ولا تقوم التقوى إلا على الصبر والمصابرة والمرابطة.

قال ابن القيم(٤): «فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر، فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته».

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، «لعل»: للتعليل، أي: لأجل أن تفلحوا، والفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، وأعظم ذلك وأجله الفوز بالجنة ورؤية العزيز الجبار، والنجاة من النار.

الفوائد والأحكام:

١- النهي عن الاغترار بما عليه الكفار من التقلب في البلاد، وما هم فيه من النعم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾. وفي هذا أيضًا: تسلية

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٩). وقال: «حسن غريب».

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٧).

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة- فضل إسباغ الوضوء على المكاره (٢٥١)، والنسائي (١٤٣)، والترمذي في الطهارة (٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٤١).

للرسول ﷺ والمؤمنين لما يرون عليه الكفار من التقلب في البلاد والنعم.

٢- أن الله- عز وجل- يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فليس التمكين في الدنيا دليلًا على رضى الله ومحبته.

٣- استدراج الكفرة والعُصاة بالنعم والخيرات، فتنة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]، وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [القلم:٤٤-٤٥]، وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق:١٧].

٤- أن المؤمن قد يبتلى بالفقر وضيق العيش ونحو ذلك؛ ليرجع إلى الله تعالى، ويسلم من الأشر والبطر، كما قال ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»(١).

وقال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يصب منه**»(٢).

وعن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: جئت رسول الله ﷺ، فإذا هو في مشربة، وإنه لعلى حصير، ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وعند رجليه قرظ مصبور، وعند رأسه أهب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه، فبكيت، فقال: «**ما يبكيك**»؟ قلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هم فيه، وأنت رسول الله! فقال: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة**»(٣).

٥- أن من أوتي الإيمان فقد أعطي خيرًا كثيرًا- يقصر دونه من حرم الإيمان ولو ملك الدنيا بحذافيرها، فلا ينبغي أن نغتر بما في أيدي الكفار من الدنيا- وقد خسروا الإيمان بالله، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ

---

(١) أخرج الترمذي في الزهد (٢٣٩٦)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩١٣)، ومسلم في الطلاق (١٤٧٩).

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص:٦١].

٦- أن الدنيا كلها متاع قليل، عمرها، وما فيها من النعم؛ لقوله تعالى: ﴿متاع قليل﴾ فلا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

وقال ﷺ: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم لينظر بم يرجع**»(١).

٧- الإشارة إلى أنه ينبغي للمؤمن الحذر كل الحذر من الافتتان في الدنيا وما فيها من الزخرف ومتاع الغرور، فلا ينتقل منها من شيء إلى شيء؛ طلبًا للترف والرفاهية فينغمس في وحلها، وينسى الهدف الذي خلق له، وهو عبادة الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥، الحديد:٢٠].

٨- أن مصير الذين كفروا إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

٩- شدة ظلمة النار وجهمتها وشدة حرها وبعد قعرها؛ لهذا سميت بـ﴿جَهَنَّمُ﴾.

١٠- أن ما يحصل عليه الكفار من التقلب في البلاد، ومتاع الدنيا القليل سرعان ما ينسيهم إياه ما يصيرون إليه من عذاب النار؛ لقوله تعالى: ﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤].

وفي الحديث: «أنه يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله يا رب»(٢).

١١- أن النار بئس الفراش والمقر لمن مهد لنفسه المصير إليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ

---

(١) أخرجه مسلم- في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٨٥٨)، من حديث المستورد أخي بني فهر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار- صبغ أنعم أهل الدنيا في النار (٢٨٠٧)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ٱلْمِهَادُ ﴾.

١٢- الإشادة بحال المؤمنين ومآلهم وما أعد لهم في الآخرة من الكرامة- مهما كانوا عليه في الدنيا من ضيق الحال أو سعتها؛ لقوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ ﴾ الآية.

١٣- فضيلة التقوى والترغيب فيها والإغراء بما أعد الله لأهلها من جنات تجري تحت قصورها وغرفها وأشجارها الأنهار.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمتقين.

١٥- خلود أهل الجنة فيها أبد الآباد؛ لقوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾، وعلى هذا تكاثرت الأدلة وأجمعت الأمة.

١٦- عظم ما أعد لأهل الجنة من النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾. فوصفه بـ«النزل» وهو ما يقدم للضيف أول قدومه من القرى والكرامة. فهذا النزل لهم عند الله تعالى على الدوام؛ لأبدية الجنة، بخلاف نزل الضيف، فإنما يكون أول قدومه ثم ينقطع، كما بين عز وجل أنه من عنده، فلا يقدر قدر عظمته إلا الذي منحهم إياه، وهو أكرم الأكرمين.

١٧- شتان بين حال الكفار وحال المتقين في الدارين، فالكفار متعوا في الدنيا قليلًا وصار مآلهم ومقرهم النار، والمتقون فازوا برضى ربهم في الدنيا مع ما متعوا فيها، وصاروا إلى الجنات وضيافة أكرم الأكرمين.

١٨- أن ما عند الله تعالى للأبرار خير مما ذكر في الآية، وخير مما هم فيه في الدنيا، وخير مما يتقلب فيه الكفار في الدنيا من النعم؛ لقوله-تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾.

١٩- الثناء على بعض أهل الكتاب بالإيمان بالله، وما أنزل على النبي ﷺ وأمته من الوحي في القرآن والسنة، والإيمان بما أنزل إليهم في التوراة والإنجيل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾.

٢٠- كمال عدل الله- عز وجل- بإسناد الفضل لأهله، والثناء على مَن آمن مِن أهل الكتاب، والاحتراز من أن يظن أنهم سواء وأنهم كلهم كفار، كما قال تعالى: ﴿لَيْسُواْ

سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران:١١٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة:١٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩].

٢١- إخلاص هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب لله تعالى وخشوعهم وذلهم له، وتعظيمهم لآياته عملًا بها وبيانًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

٢٢- التعريض بذم أكثر أهل الكتاب لكفرهم بالله وكتمانهم آياته.

٢٣- وعد الله تعالى لهؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب بالأجر العظيم عنده؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، بل إن الله- عز وجل- وعدهم بمضاعفة أجرهم مرتين، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص:٥٢-٥٤].

وفي الحديث: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين؛ رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران**»[1] الحديث.

٢٤- إثبات الحساب، وسرعة حساب الله- عز وجل- للخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

٢٥- الترغيب في ثواب الله لمن أطاعه واتقاه، والترهيب من عقاب الله لمن خالف أمره وعصاه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١١)، ومسلم في الإيمان (١٥٤)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

٢٦- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾.

٢٧- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.

٢٨- وجوب الصبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

٢٩- ينبغي مصابرة الأعداء ما أمكن؛ إقامة للحق، ودفعًا للباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَابِرُوا۟ ﴾.

٣٠- الحث على المرابطة في ثغور المسلمين وفي الجهاد في سبيل الله، والمداومة على عبادة الله تعالى، والصلاة ولزوم الطاعات؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَابِطُوا۟ ﴾.

٣١- وجوب تقوى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾.

٣٢- الوعد بالفلاح والفوز لمن صبر وصابر ورابط واتقى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

* * *



فهرس الموضوعات

تفسير سورة آل عمران...٥
المقدمة ٧
أ-اسم السورة: ٧
ب-مكان نزولها:...٧
ج-فضلها: ٧
د-موضوعاتها: ٧
تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢...﴾ الآيات [١-٤] ٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥...﴾ الآيات [٥-٩]... ٣٣
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا...﴾ الآيات [١٠-١٣] ٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ...﴾ الآيات [١٤-١٧]٧٠
تفسير قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ...﴾ الآيات [١٨-٢٠]...٩٣
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١...﴾ الآيات [٢١-٢٥]..١١١
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ...﴾ الآيتين [٢٦، ٢٧] ١٢٢
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ...﴾ الآيتين [٢٨، ٢٩] ١٣٢
تفسير قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ...﴾ الآيات [٣٠-٣٢] ١٤١

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ...﴾ الآيات [٣٣-٣٧] ١٥٦

تفسير قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ...﴾ الآيات [٣٨-٤١] ١٧٣

تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ ...﴾ الآيات [٤٢-٤٤] ١٨٧

تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ...﴾ الآيات [٤٥-٥١] ١٩٦

تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ...﴾ الآيات [٥٢-٥٤] ٢١٤

تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ ...﴾ الآيات [٥٥-٥٨] ٢٢٢

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ...﴾ الآيات [٥٩-٦٣] ٢٣٧

تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ...﴾ الآيات [٦٤-٦٨] ٢٤٨

تفسير قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ...﴾ الآيات [٦٩-٧٤] ٢٦١

تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ...﴾ الآيات [٧٥-٨٠] ٢٧٣

تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ...﴾ الآيات [٨١-٨٣] ٢٩٧

تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ...﴾ الآيات [٨٤-٩٢] ٣٠٧

تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ...﴾

الآيات [٩٣-٩٥] ٣٣١

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾...﴾
الآيتين [٩٦، ٩٧] ٣٣٨

تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾...﴾
الآيات [٩٩-١٠١] ٣٥٧

تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾...﴾
الآيات [١٠٢-١٠٥] ٣٧٢

تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ...﴾ الآيات [١٠٦-١٠٩] ٣٩٢

تفسير قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾ الآيات [١١٠-١١٢] ٤٠١

تفسير قوله تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ...﴾ الآيات
[١١٣-١١٥] ٤١٧

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا...﴾
الآيتين [١١٦، ١١٧] ٤٢٤

تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا...﴾
الآيات [١١٨-١٢٠] ٤٣٠

تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ...﴾ الآيات
[١٢١-١٢٩] ٤٤٦

تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً...﴾ الآيات
[١٣٠-١٣٢] ٤٧٠

تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ...﴾
الآيات [١٣٣-١٣٦] ٤٧٨

تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾...﴾ الآيات [١٣٧-١٤٣] ٤٩٧

تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ...﴾ الآيات [١٤٤-
١٤٨] ٥١٨

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩...﴾ الآيات [١٤٩-١٥٢]............... ٥٤٣

تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ...﴾ الآيات [١٥٣-١٥٥] ٥٥٩

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ ...﴾ الآيات [١٥٦-١٥٨] ٥٧٩

تفسير قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ...﴾ الآيات [١٥٩-١٦٣]... ٥٨٨

تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ...﴾ الآيات [١٦٤-١٦٨].. ٦١٠

تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ١٦٩...﴾ الآيات [١٦٩-١٧٥].. ٦٢٥

تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ...﴾ الآيات [١٧٦-١٨٠].. ٦٤٠

تفسير قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ...﴾ الآيات [١٨١-١٨٥] ٦٥٥

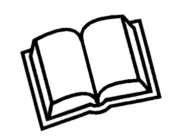
تفسير قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ...﴾ الآيات [١٨٦-١٨٩] ٦٧٢

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠...﴾ الآيات [١٩٠-١٩٥].. ٦٨٥

تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ١٩٦...﴾ الآيات [١٩٦-٢٠٠] ٧٠٧

فهرس الموضوعات... ٧٢٣

* * *



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

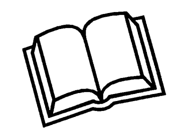
✍

✍

✍

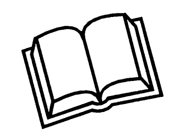
✍

✍



مفكرة





مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

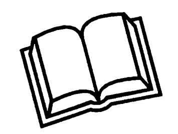
✍

✍

✍

✍

✍



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

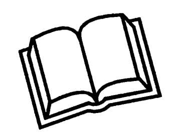
✍

✍

✍

✍

✍



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

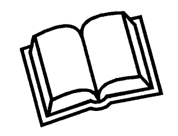
✍

✍

✍

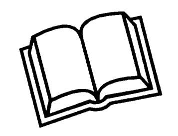
✍

✍

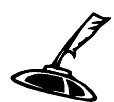


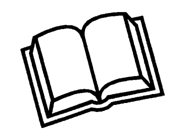
مفكرة





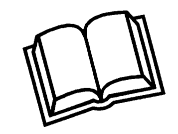
مفكرة





مفكـرة





مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍


دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958